مَمْلَكة مَلِيكَة
مُدَوَّنات إبراهيمَ البنداري

رواية

محمد سمير ندا

الدار للنشر و التوزيع

اسم العمل	مملكة مليكة
النوع	رواية
تأليف	محمد سمير ندا
الطباعة	اتيليه تاتش - المحروسة
الناشر	الدار للنشر والتوزيع
المدير العام	محمد صلاح مراد
تليفون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريد الالكتروني	eddar_press@yahoo.com
فيسبوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	2016-2107
الترقيم الدولي	I.S.B.N: 978-977-702-110-4

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي للمؤلف

الدار للنشر و التوزيع

يناير ٢٠١٦

إهداء أول

إلى سمير ندا

الأب الذي كان الكتاب هو هديته لي في الصغَر، فأضحت مكتبته الغنية نبع المعارف في الكبر، مرفأ الأمان، وربان سَفينة الخيال، المفكر والعلاّمة، الذي أخلف وعده لي بألا يرحل قبل كتابة مذكراته، فرحل، بعد أن نثر في وجداني ما عجزت عن إدراك ماهيته، فوضعته بين أيديكم في كتابي هذا.

وإلى سامية دياب

الأم الحَمُول، المهجع والسند والمتكأ، المرأة التي كانت تقص على أطفالها كتب محمد حسنين هيكل قبل النوم، حين كانت تطارد الرزق وتسابق الزمن، صحبة رفيق دربها في منافيهم المختارة، مُذكرة بتاريخ وطن، تخشى أن يضل أطفالها الطريق إلى ملامحه.
القارئة الأولى لهذه الرواية، والقوة الدافعة لإتمامها بهذه الصورة.

أهدي قادم الكلمات

إهداء ثان

إلى رفيقة الرحلة، الحبيبة، وشريكة الدرب، وبستان الأمل الذي جاد بأغلى ثمار العمر: **سالي جنينة**

وإلى ثمار العمر:

كريم وزياد

آمل أن تتيح لكم أقدار الزمن القادم، ما يعينكم على ضم قادم الكلمات إلى صدوركم، وصهرها في وجدانكم، حتى تميزون بين حروفها وجه أبيكم.

إهداء ثالث

إلى روح **محمد عادل عبد السلام**

إلى شركاء الرحم وأنيسيّ الطفولة والصبا: **أحمد وجمال**

وإلى أخين لم تلدهما أمي: **عصام ندا وسليمان مسعد**

شكر خاص

الخلوق المخلص: **مصطفى خالد**

إهداء أخير

إلى

نجيب محفوظ، ويحيى حقي   إلى بهاء طاهر وعلاء

الديب ومحمد المنسي قنديل ومحمد   البساطي وخيري شلبي واحسان

عبد القدوس ويوسف السباعي وإبراهيم   أصلان،   إلى الدكتور يوسف زيدان

وصنع الله إبراهيم وأمين ريان ومكاوي سعيد وإبراهيم عبد المجيد وأشرف الخمايسي و محمد

المخزنجي وفؤاد قنديل وهشام الخشن وأشرف العشماوي وصموئيل شمعون وأمير تاج السر

وواسيني الأعرج وربيع جابر وجبور الدويهي وفواز حداد وإبراهيم نصر الله وعلي بدر

وخالد خليفة وغادة السمان ورضوى عاشور وأحلام مستغانمي ونور عبد المجيد وعمار علي

حسن وإبراهيم عيسى ووجيه غالي وعز الدين شكري فشير ومنصورة عز الدين

وجنى الحسن وسونيا بوماد وميرال الطحاوي ورشا سمير وناصر عراق

وحمور زياده وأدهم العبودي وأحمد عبد المجيد وأحمد القرملاوي

وصبحي موسى وخالد البري والدكتور

نبيل فاروق وأحمد خالد

توفيق

شكراً

استهلال

للحلم طاقة لا مرئية، تخترق حدود الواقع، وتبدد عتمة الخوف، لتصهر الزمان والمكان في بوتقة من نور، في كنفها كشف لكل مطمور، وملامسة لحقائق بكر، لم يبلغ مستقرها بشر من قبل...

الشيخ المليكي

يرجى الرجوع إلى الهوامش (صفحة ٥٨٩) في حالة ورود {رقم} بجوار الكلمة

عائلة البنداري

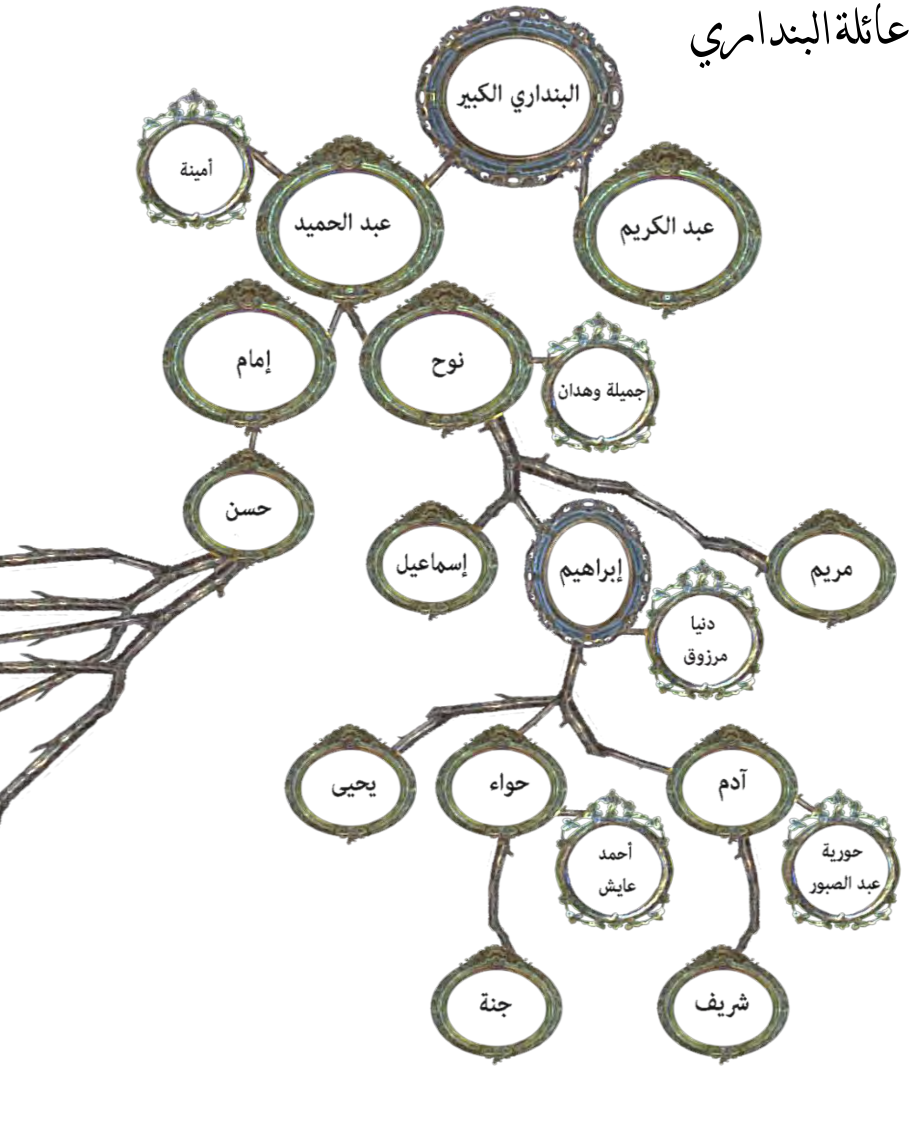

(١)

الميلاد

القاهرة - ٦ مايو ١٩٣٦

غربة تَلُفُّه، وتمنيات معلقات، تدلين من السماء حتى بلغن مجلسه، هائم الروح تشبث ببعض منهن، فاختلط الواقع بالمأمول، وظل هو مشتتًا، تتضارب في عقله أفكار عدة، وتتداخل الوجوه والأماكن في مخيلته، فيطوف في حلقات من أطياف الماضي، وظلال الحاضر، حتى يستقر في دائرة لها أكثر من مركز، فتزداد حيرته، وتتعاظم دوافع قلقه...

جال ببصره بين الحضور، استوقفه وجه أو بضعة وجوه يألفها، أغلب الظن أنه يعرف معظم أصحاب هذه الوجوه، يطالع وجوهًا، ويرتحل عقله بين وجوه أخرى، حاول بعض الحضور مجاذبته أطراف الحديث كعادتهم، قاده شروده إلى الرد بـهمهمات مبهمة من حين لآخر، أدرك المقربون منه أنه قلق، فآثروا احترام ستار صمت أحاط به نفسه، وتحولوا بجدالهم عنه، واختلطت أصواتهم مع حركات الموائد والمقاعد، معلنة رحيل البعض أو مجيء المزيد من راغبي السمر، في موجات من مد وجذر لا تنقطع...

أخذ يتبادل الابتِسامات الجوفاء مع القادمين، بعيون قفرت معانيها، وقد كان عقله مبحرًا، كمسافر ضلت دفته الطريق، فأمسى متنقلًا بين موانئ شتى، يبحث بين الوجوه، فوق شواطئها، عمن يألف ملامحه، تلقي عيناه على كل مارٍ ألف سؤال، تبحث عن حقيقة التساؤلات القابعة في ذهنه، تفتش عنها بين حبات الرمال، بعد أن ملت موجات البحر بحثه اليائس.

هو قلق على (جميلة)، فلماذا لم تفارق صورة (عزيزة) ذهنه، منذ أن قادته خطواته المضطربة إلى شارع (القضاعي)، حيث مقهى (أبو الروس)، الذي اعتاد -رغم نفوره من صاحبه- مشاركته أوقات فراغه، ولحظات شروده؟ تختلط صورتي الزوجة والحبيبة من جديد، فلماذا يعصف به

هذا القلق المُضاعف إذن؟ هي ليست المرة الأولى التي تضع فيها (جميلة) مولودًا، ولكن، هل يعيش مولوده هذه المرة ليبصر سابع أيامه؟ قد رزقه الله بـ(مريم) بعد زواجه بعام وبضع العام، تمنى من الله ولدًا فأعطاه (إبراهيم)، ولكنه عاد فأخذه إلى جواره بعد أيام خمس، فقنع قلبه الهامي بقضاء من له أن يسترد ودائعه وقتما يشاء، تضرع إلى الله من جديد، أن يعطيه صبيًا يكون له في الكبر معضدًا، فرزقه الله صبيًا، أسماه أيضًا (إبراهيم)، وظل يدعو الله في صلواته المتصلة أن يبصر بعينيه اليوم السادس، فأبصره، وغاب قبل بزوغ فجر يومه السابع. لم ييأس من رحمة الله ولم يتذمر من قضائه، بل زاد من صلواته ودعائه، حتى ألف المصلون في صلاة الفجر مرأى دموعه وهو جالس في ذات الـمُستقر كل ليلة، متضرعًا، شاكرًا لله ما قضى من الأمور، سائلًا إياه اللطف فيما هو قادم من قضائه، وها هي (جميلة) تضع اليوم مولودًا جديدًا، يثق في قرارة قلبه أن صبي، فبم يأتيه القدر هذه المرة؟

- يا (إبراهيم)، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب...

تمتم بدعاء النبي حين فقد صبيه (إبراهيم)، لمرات لم يعد يذكرها، كان يحب ترديد الدعاء إثر اعتياده، ويكره أن يردده مجددًا، خاصة خلال الأيام السبع القادمة، يعلم أن هذا ما يشغله، ويثق أن الخوف يعتصر أوردته، حتى أمسى له ألمًا ينحر أضلعه، فلماذا يطل عليه وجه (عزيزة) في مثل هذا الوقت العسير!؟

ترك مجلسه بهدوء، بعد أن أخبر (محفوظ) صبي القهوة، أنه عائد بعد دقائق، ليحجز له كرسيه في مكانه المعتاد، رفع (محفوظ) الكرسي، ووضعه مائلًا على قائمتيه الأماميتين مستندًا إلى المائدة بما يعنى أنه محجوز، وتابع بعينيه (نوح أفندي البنداري) وهو يقطع الطريق متجهًا كعادته في مثل هذا الوقت، ليطالع ناصية شارع (خمارويه) لبضعة دقائق.

في طريقه إلى مبتغاه، طالع ناصية حارة (البنداري) باهتمام صامت، لم يظهر (أبو شنب) بعد، لاحظ قدوم (جابر عباس) من الطرف الآخر للشارع متجهًا نحو (أبو الروس)، فأشاح بوجهه بعيدًا، متجنبا لقاءً لم يحبذه يومًا، متشاغلًا بهمومه هربًا من حديث لا طائل منه، تنقلت عينيه بين مقبل ومدبر من وإلى (القضاعي). (عوضين) درويش الحي، يتبختر حاملًا مبخرته، تطارده الأدخنة المتصاعدة منها، وتحوط بخطواته، فيهملها، ويمضي مرددًا كلماته المقفاة المعتادة، وحاملًا صندوقه الخشبي الصغير، مثبتًا إياه بسلسلة نحاسية عتيقة تتدلى من رقبته كما اعتاد، بعض من الصبية يمازحونه بلطف تارة، ويشاكسونه بسخف تارات، فلا تغيب ابتسامته، ولا يتذمر: "يا درويش إن شا الله تعيش".
في مروره بجوار (عبود) الفكهاني، يناوله هذا الأخير لفافة ورقية يلقفها تحت إبطه بآلية تنشأ عن الاعتياد، يزيد الصبية من مناوشاتهم له بعد أن تلمح أعينهم بضع ثمار من الموز وقد أطلت من طرف لفافته، يهرول أحدهم حتى يقف أمامه متنمرًا، يخرج له لسانه، فيرفع (عوضين) يده محذرًا إياه من إغضابه وهو درويش الله، تسقط اللفافة من تحت إبطه، ينقض عليها الصبية منتشين بنجاحهم في خداعه، يطرق (عوضين) أرضًا، يضحك (عبود)، ويواصل هو طريقه دون اهتمام، فبقلبه من الهموم والصراعات ما يشغله عن متابعة ذلك المشهد اليومي المعتاد...
لم يظهر (أبو شنب) بعد...
خمارويه)، وعبق الأنفاس في هذا الشارع يأسره من جديد، لا يفرق أحدًا بين (خمارويه) وأي شوارع أخرى بالجوار، ولكن الفارق في عينيه جد عظيم، فهنا كانت تسكن (عزيزة)، هنا كانا يلتقيان خلسة عند بوابة منزلها بعد أن يخلد الجميع إلى النوم، هنا جلسا فوق هذه "المسطبة" وخلف هذا الباب الخشبي الغليظ، الذي كاد صريره أن يفضح أمرهما عدة مرات، كانت أولى القبلات وأرقها منذ سنوات لا يذكرها، وهنا أيضًا، كان لقاؤهما الأخير.

تلفت حوله لعل (أبو شنب) يأتيه بالبشارة، فلم يدرك من الظلام إلا حلكته، آثر أن يعود بذاكرته لأعذب الأيام، فأغمض عينيه، وارتحل إلى الماضي القريب، فنبتت (عزيزة) من العدم، وتأبطت ذراعه، حكى لها ما رواه أبوه (عبد الحميد البنداري) نقلًا عن جدود (عباس) السقا{٨}، فقال:

- من هنا، ربما مرت أميرة مصر وأجمل بنات المحروسة، الأميرة (أسماء)، التي لقبت في زمانها بـ(قطر الندى)، في طريقها إلى عرسها في (بغداد)، من هنا مرت القافلة محملة بأرائك من الذهب الخالص، والصناديق الخشبية المزركشة، التي قيل إنها حوت مائة هون من الذهب...

يتوقف مطالعًا وجهها الحالم، فتمده ابتسامتها بالطمأنينة، فيردف:

- والله لو مد الله بعمري، وأمدني بيسير الرزق، لجعلت لك ليلة عرس تفوق ليلة كهذه يا (عزيزة)...

هكذا كان يعدها بأمل لا يخلو منه المزاح، حين كانت تتشبث بذراعه وجلًا، فتشعر أن قدميها متماوجة الحركة، وكأن ملمسه يقلل من فعل الجاذبية على جسدها الصغير، تهمس أنها لا تريد أن تكون كـ(قطر الندى)، بل هي فقط تريد أن تكون معه إلى الأبد...

- قالت لي أمي إنها ماتت حزينة بعد زفافها بسنوات قصيرة، فهل ترضى لي بنهاية كتلك؟

قالتها بدلال وميوعة العاشقين، وهي تضغط كفه الأيسر بكفها الأيمن، التصقت به حتى شعر بدفء جسدها، فابتسم، ثم ما لبث أن اعتراه شعور عارم بصقيع، يتمكن منه كلما تذكر أباه الغائب آنذاك...

عموم أهل شِبرا، يعلمون من هو (عبد الحميد البنداري)، ويُجلونه شديد الإجلال، و"حَضرة" البنداري التي تقام مساء كل أحد في بيت (البنداري)، خير دليل على ذلك. ولكنه غائب، وشبح اليتم يحلِّق في مخيلته منذ أمد طويل، يطارده، ويطارد هو الأمل، فيتنقل حاله ما بين الـمُطارِد والطريد، حتى تنهكه المطاردة، فيرفع رايات الرضا والاستسلام... رنت في أذنيه طقوس "الحضرة" الأسبوعية، الإنشاد لا يتوقف عن التسلل إلى أذنيه طيلة

اليوم التالي، تذكر المصطفين في حجرة "الحضرة" التي خصص لها أبوه بابًا منفصلًا يدخل ويغادر منه المشاركون دون أن يبصرهم أي من أهل البيت، إلا أن حجرة "الحضرة" كان لها باب آخر يفضي إلى جوف المنزل، تذكر كيف كان يتسمّر بجوار هذا الباب أيام الآحاد، يأسره الإنشاد، ويتشربه في لذة ومتعة، كان يختلس النظر حين كانت أمه ترسله بإبريق وأكواب الشاي التي كان أبوه، أو أحد ضيوفه (في الأغلب ما يكون ذات الشيخ الأزهري الشاب: عبد التواب الرفاعي)، يتسلمها منه عند باب "الحضرة" الخارجي، دون أن يسمح له بالدخول، لم يطلب منه أحد ألا يدخل، ولكن أحدًا لم يدعُه للدخول في ذات الوقت، فمنعته قدسية الطقوس من محاولة اقتحام شعائرهم الأسبوعية، حتى كان ذلك اليوم...
ترك الشيخ (الرفاعي) الباب دون إحكام إغلاقه، لاحظ هو ذلك، فانتظر لبرهة، كان الباب آخذًا في الانفراج، علت دقات قلبة ممتزجة بصرير الباب العتيق، وهو على أعتاب الكشف العظيم، كانت أرضية غرفة "الحضرة" مغطاة بقطع من صوف الأضاحي، باب "الفارانده" المطلة على ملهاه الأثير بحديقة المنزل، شبه مغلقة، بحيث يعبره بالكاد بصيص من نور، يبدو وكأنه يشطر مساحة الغرفة شبه المظلمة إلى قسمين متماثلين، الأثاث مغطى بأغطية بيضاء وَهُم عليه جلوس، لم يشعر بوجوده أي من الحضور لبرهة، حتى تنبه أبوه، فقال بحزم "شكرا يا نوح، بإمكانك الآن أن تنصرف". صمت الجمع متنبهًا، فخرج في صمت، ولم يدخل هذه الحجرة بعد ذلك حتى رحل أبوه للأبد...
تماوجت النجوم، تشكلت وامتزجت في لين مشكلة اسم "عزيزة"، عاد من شروده، لا يزال (خمارويه) صامتًا، شرع يعود أدراجه صوب (أبو الروس)، لم يظهر (أبو شنب)، سارع (محفوظ) يعدل من وضع كرسيه حين أبصره في طريق عودته، رمقه (جابر أفندي) بنظرة خاوية، حين كان (عبود) الفكهاني مقبلًا نحوه في هدوء مطرق الرأس، أخرج من جيبه بضع عملات معدنية ناولها لـ (عبود)...

- يا (عبود)، في المرة القادمة، احرص على مناولة (عوضين) الفاكهة بعيدًا عن الصبية، حتى لا يضايقونه بغية الاستيلاء عليها كما حدث اليوم.
- بارك الله فيك يا (نوح أفندي)، رحم الله والدك، ولا قطع عن بيتكم عادة.

كانت هي عادة أبيه أن يشتري الفاكهة من (عبود) ويطلب منه أن يعطيها للدراويش أينما وجدوا، دون أن يعلم أحد أنه يدفع ثمنها، غادره (عبود)، ابتعد بضعة أمتار، وجثا بجوار (جابر أفندي)، همس بشيء في أذنه، فاستشاط هذا الأخير غضبا، نهره:

- أول الشهر يا عبود، ماذا أصابك؟ أصاب والله من قال إن الخير والخَيِّرِين قد غابوا عن هذه الدنيا، فكيف يجتمع الخير مع وجود أمثالك؟

هو مشهد معتاد بالطبع، ومن المعتاد أيضًا، أن يهلع (عبود)، ويسارع في تلاوة وتكرار اعتذاره علنًا، على مرأى ومسمع من (جابر أفندي)، ومريديه، الذين يتقنون القيام بمهامهم، فيضحكون ويسخرون من (عبود)، يهرول الأخير مرتبكًا بعيدًا عن (أبو الروس)، يكاد أن يسقط قبل أن يلحق به (عباس) السقا، فيعاونه في متابعة سيره اللاهث صوب دكانته. تعلو الضحكات منتشية، ويعود (جابر أفندي) لممارسة هوايته في سرد الأخبار التي لا يعلمها أحد غيره، حسبما يعتقد مريدوه:

- علمت أن ملكنا الجديد قد فاق استقباله اليوم في الإسكندرية ما حصل عليه أي ممن سبقوه، بمن فيهم أبوه الملك (فؤاد[١]) نفسه، لدرجة أني علمت من مصادر موثوق بها أن بعض المواطنين قد تعلقوا بقطاره الأبيض إبان تحركه، وهناك أنباء أيضًا عن سقوط البعض مصابًا جراء ذلك.

كان يعلم أن (فاروق[٢]) يصل إلى مصر اليوم بالفعل، ولكن واقع أن مولاه الجديد، الذي سيتولى إدارة المملكة المصرية، ما زال في السادسة عشرة من عمره، كان يصيبه بالحنق... كان يعلم أن (جابر) على صلة قرابة

بـ(أحمد الكردي) رئيس الخدم بالقصر، وكان (جابر) نفسه حريصًا على أن يتسرب إلى الجميع هذه النبأ الهام، إذ كان ذلك يضعه تحت مظلة ما من الحماية، فرئيس الخدم على علاقة مباشرة بمولانا، وكان الملك (فؤاد) يحبه، وبالتالي فإن (فاروق) سيحبه بالتبعية، والحماية، إذن، مستمرة!

- ملكنا الجديد سيكون تحت وصاية الأمير (محمد علي توفيق[٣]) لبعض من الوقت حتى يألف الحكم، ويدرك خبايا الأمور، كما أن (علي باشا ماهر[٤]) كان في انتظاره في قصر التين كذلك...

كان الملتفون حول (جابر)، يصدرون الهمهمات والشهقات والآهات، مع كل جملة يتلوها عليهم، وكأنهم في درس علم، وليس ِفي جلسة سمر، لم يكن هذا يضايقه بحكم اعتياده، ولكنه لم يكن راضيا عن الأمر برمته، كان قلقًا من الملك الجديد، وكانت حقيقة أن مرافقيه في بعثة دراسته، كانا على أشد النقيض، تقلقه وتؤرقه، فأخذ يتساءل عن نتيجة ذلك في قرارة نفسه، فما بين (أحمد حسنين) لاعب الشيش الأقرب في سلوكه للإنجليز، وبين (عزيز المصري) الثائر، الكاره لكل ما هو إنجليزي، أي ثقافة قد تشرب ِهذا الشاب اليافعٍ، وأي شخصية قد مسخها هذا التناقض في محيطيه؟ يُسرّ لنفسه، متمتما بما لا يفارق شفاهه:

- ما خطب الإنسان لا يتوقف عن صنع الأصنام؟ وكأن عبادة الله لا تكفيه، كم أشفق على الرِسل، وقد أرسلهم الخالق بكتبه ورسائله، فآمن من قومهم من آمن، وانتشرت الرسالات من أقاصي الأرض إلى أدناها، فإذا بالقوم إذ رحل الرسل لملاقاة مرسلهم، يعاودون الانخراط في حرفتهم الأثيرة فيتقنون السجود لغير الله! ربما توقفوا عن الركوع للحجر، ولكنهم استعاضوا عن ذلك، بإتقان الركوع للبشر، حتى بلغ الامر ِبهم عدم الاكتفاء باسماء الله الحسنى، فأملت عليهم قريحتهم ما سَمح لهم بتسمية ذُريتهم بـ"عبد النبي" و"عبد الرسول" و"عبد المسيح"، وما المسيح وسائر الأنبياء والرسل سوى بشر، يَعبدون، ولا

يُعبدون! وها هو احتفالهم -اليوم- بمقدم فتى مراهق، شاءت الأقدار أن يرثهم عن أبيه، خير شهيد على ظني هذا!

يعود (عوضين) وبخوره الطيب للمرور أمام (أبو الروس)، كان قد حصل على لفافة ورقية أخرى من (عبود) ولكنه وضعها في جلبابه هذه المرة، ورفع طرف الجلباب، وشبكه في الخاتم الضخم ببنصر يده اليسرى، التي يحمل بها مبخرته، فأخفاها عن الأعين، كانت الأصوات تعلو بالحديث عن (فاروق) و(فؤاد)، وطفت على سطح الهمهمات المتداخلة، نبرات حماسة وترحيب بـ(فاروق)، مغمسة بأمل عظيم في شخصه، وثقة هائلة في عظيم ما سوف ينجز...

- صدق (ابن العاص) أيها المصريون، بكيتم ملكًا قد رحل وتهتفون لملك جديد، وكل لياليكم لهو وسمر، وعيد يتلوه عيد... حي.... نساؤكم طرب، وأرضكم خِصب، ورجالكم مع من غلب... حي...

ينهض (جابر) غاضبًا لمسمع عبارة (عوضين) الأخيرة، تُفزع (عوضين) صرخاته، فيهرول مبتعدًا في ذعر حقيقي، ليعبر الصبية اللاهين في قفزات أسقطت أحدهم وأضحكت البعض الآخر، وينضم إلى الفكهاني والسقا في آخر الشارع، يطلق (جابر) ضحكة عصبية، فيطلق محيطوه ضحكات متتالية، ليعود إلى سابق روايته، ليصم هو أذنيه عن حديثهم، ويعود لسخطه.

مات الملك (فؤاد) متملكًا ما يزيد عن التسعة وأربعين ألف فدان، فكم كان يملك من أراضي مصر يوم أن نصب ملكًا عليها؟ لم يملك من أراضيها قيراطًا واحدًا! واليوم يورث ابنه أرض مصر، وشعبها، وها هم -المصريين- به محتفلون!

هل كانت (عزيزة) لتحتفل معهم أيضًا؟ أم لعلها تحتفل الآن مع زوجها وابنتها في (المنيا)؟ يا الله، ها قد أطاحت (عزيزة) مجددًا بكل ما حوت مخيلته منذ لحظات، يهم واقفًا، لم يظهر (أبو شنب)، نقد (محفوظ) ما يزيد عن ثمن قهوته الخاصة، التي تجرع من فناجينها ثلاثًا، قاطعه في

خروجه (جابر): "ما زال الوقت مبكرًا يا (نوح) أفندي"! يبتسم في هدوء واثق:

- أخشى أن الطقس أمسى باردًا أكثر من تحملي...

أجابه بما يحمل في طياته أكثر من معنى، وقد قصد إهانته أكثر مما قصد طقس مايو المعتدل في مثل هذه الأوقات المسائية بطبيعة الحال، أدار ظهره لحارة (البنداري) بعد أن تأكد من خلوها من المارة، وانطلق معاكسًا، تبسم في مرح طفولي، وراقه ما أصمت به (جابر) المتطفل.

كان (جابر) يهابه أكثر من أي شخص آخر من قاطني المنطقة، وكان يستفزه كم هو معتد بنفسه، ولم لا؟ فهو كما يقول أهل الحارة في غيابه: "خوجة عربي قد الدنيا"، وهذا الـ(جابر) لم يكمل من التعليم ما يؤهله ليصبح أكثر من مجرد كاتب في قلم المحكمة، كما هو الحال الآن، هو أفضل منه بكثير، ربما لا يملك في عائلته (كرديًا) كمثل ما يمتلك (جابر)، ولكنه امتلك أبًا لا يزال الحي بأكمله يذكره بكل إجلال واحترام، رغم رحيله منذ سنوات... شعر وكأنه قد صار أخف وزنًا، لمعت عيناه، رفع رأسه للسماء "يا الله يا ولي الصابرين"، حاول أن يطرد (عزيزة) ولو مؤقتًا من ذهنه، أو أن يقصيها بعيدًا عن خاطره، فإذا به يعود لذكرى اللقاء الأخير، تجهم، وتبخرت بسمة كادت أن تستقر على شفتيه، تذكر بكاءها أمام ناظريه، وبكاءه بعيدًا عن عينيها، خط إليها خطابًا في ذات الليلة، وانتوى أن يرسله إليها مع أول أنوار الصبح، ولكن الخطاب لم يفارق جيبه إلى يومنا هذا.

تذكر ذلك، فتحسس بيده جيب بذلته الداخلي، واطمأن أن الخطاب لا يزال في مكانه، شرد، كم من مرة قرأ هذا الخطاب؟ وكم من مرة أخذه الخيال في رحلة للتعرف على ردة فعلها لو قرأته في حينها، وانطباعها إن قرأته الآن؟ قاطعه نداء (أبو شنب): "يا نوح أفندي"، التفت للخلف بروية لا تتناسب مع لهفته بقدوم البشارة، رفع حاجبيه، ونطقت عيناه بالسؤال: "أبشر يا أبو شنب"...

- رزقك الله صبيًا.

قالها (أبو شنب) بسعادة غير مصطنعة، وبوجه أخفت ملامحه ابتسامة أب حنون، اتسعت حتى غمرت كامل وجهه، يود أن يحتضن (نوح أفندي) فرحًا ولكنه يعلم أن ذلك لا يجوز...

- إذن فهو (إبراهيم) يا (أبو شنب)...
- يا بني، إن أذنت لي، لا تعارض إرادة الله، فهو لم يرد أن يكون لك (إبراهيم) منذ البدء، ولعل في ذلك حكمة من حكم الله عز وجل.

قالها مطرقًا، مشبكا يديه خلف ظهره، غاب حلم الأب باحتضان الابن، وعاد لعباءة الخادمِ الأمين، وكم هو أمين في صدق مشاعرة لكامل عائلة (البنداري) وخصوصًا (نوح أفندي)...

حين جاء من الشرقية أول مرة عندما وقع اختيار (عبد الحميد البنداري)، والد (نوح أفندي) عليه، كان قلقًا حائرًا، لما كان يسمعه عن مشقة الحياة في المدينة، كان يتيم الأب، وقد ترك أمه من خلفه لتجابه المجهول، بعد أن انتزعه تجار البشر من دفئها، وقتما كان صبيًا يافعًا، وبقي وحيدًا، لا زوجة له ولا ولدًا، مأسورًا، محبطًا، مفرغًا من الأمل، وكان ظنه، أن المصائر لن تحمل له غير هلاك لا مفر منه، ولكنه، ومنذ أن سكن بيت البنداري في (التوابية)، حتى حلّ بهذا البيت في حارة (البنداري)، وجد ما لم يدرك أنه افتقده، منذ أن أمسى بين ليلة وضحاها عبدًا: الأسرة، وذلك الدفء الذي تبثه في أوصال أعضائها، نثر في خلاياه ارتياحًا لم يألفه، ليدرك أنه كان كنبتِ صحراوي جاف، لم تبصر عيناه سوى الرمال القاحلة رغم ارتحاله بضفاف النيل، أما الآن، فقد حل في خصيب أرض طينية سوداء، شاهق بياض باطنها لمن يدركه.

- الأسرة كقطعة من الأرض في قريتنا، ظاهرها داكن في خصوصيته، وفي باطنها السكينة والسلام لمن شاء، من اقتلع من ذراتها جذوره، ندم حتى واراه ترابها.

تذكر كلمات (عبد الحميد البنداري)، حين قاطعه صوت (نوح أفندي):

- لو لم يشأ الله أن يكون لي ولد أسميه (إبراهيم)، لما رزقني به اليوم من بعد طول عناء، وكل أملي من الله أن يعوضني عن سابق ألمي وإحباطي، ولتكن مشيئة الله سيفًا لا راد لانقضاضة نصله على من يختار من العباد، أسميه اليوم (إبراهيم)، ألفُّه في طيات قلبي، أسلمه لله إن شاء من قبلي، وإن لم يشأ الله، يلفني هو في كفني ويسلمني إلى الله عندما يقضى أمري.

اغرورقت عينا (أبو شنب) بالدموع: "توكل على الله يا (نوح أفندي)، وإني أرى الله ناصرك هذه المرة". أشاحٍ (نوح) بوجهه كي لا يطالع (أبو شنب) لمعة مماثلة في عينيه، وصلا سوياً إلى ناصية الحارة، أطال ضوء القمر من ظليهما حتى شارفا أن يلامسا آخر الحارة، سارع (أبو شنب) يفتح باب البيت لسيده، سبقه إلى الأعلى ليبشر أهل البيت بوصوله، توقف (نوح) عند الباب، عدل من وضع طربوشه، تابع (أبو شنب) بخطواته السريعة وهي تتحدى سنوات عمره، تحسس خطابه إلى (عزيزة) حيث مستقره الأبدي في جيبه، تبسم مطمئنًا، وتمتم:

- سبحان الله، السادس من مايو، يوم ميلادك يا (إبراهيم)، هو أيضًا يوم ميلادها، كل عام وأنتِ بخير يا (عزيزة)!

(٢)

بداية

القاهرة - ٥ أغسطس ٢٠٠٩

كان على وشك الاستيقاظ، راح يقاوم اليقظة بالانغماس في المزيد من التكاسل، حاول أن يتشبث بأطراف الحلم الواهنة، حين كانت الشمس تسارع في لملمة خيوطها استعداداً للرحيل، بعد أن لفحت بحرارتها كل ما لاقته من وجوه، كعادتها في هذا الوقت من السنة، ذابت بقايا حلمه بين أنامله، استسلم لواقع الأمر، وفتح عينيه...

لم يكن القيظ بالخارج يؤرقه وهو الغافي على نسائم جهاز التكييف، ولكن طبيعة حلمه الجنسي الصاخب، قد أفرزت بعضًا من حبيبات العرق على جبينه الشاب، أغمض عينيه مجدداً، وحاول أن يسترجع من حلمه قدر المستطاع، فجاءه مشوشًا ومهزوزاً، مرر يديه على جسده، تحسس منه ما يستلذ، قاطعته نداءات (الحاج عبد الصبور)، جده لأمه، مختلطة بالضوضاء اليومية المعتادة في شارع (سوريا) في مثل هذا الوقت، تجاهل نداء جده، عدل من وضع نومه لينتقل على جانبه الأيمن، مواجهاً حائط الذكريات، هكذا كان يسميه لما يحمله هذا الحائط من صور تلخص سنوات عمره السبعة عشر، طالع وجه أمه بحنين باسم، استغرقه النظر في وجهها عدة دقائق، اعتراه شعور بالندم فأغمض عينيه من جديد...

- كم كنت آمل يا (شريف) أن تحقق أمل أمك قبل أن تفارق دنيانا.

استرجع كلمات أبيه (آدم البنداري) التي يرهقه مسمعها أكثر مما يحفزه، فهو قد رسب لعامين متتاليين في المرحلة الثانوية، وكان هذا الواقع المؤلم، الذي أحزن والدته كثيراً في أواخر أيام عمرها، ولا يزال يؤلم والده حتى اليوم، يزيد من إحباطه، وينال مما تبقى من عزيمته. لم يكن سعيداً لمرأى زملائه وهم على وشك الالتحاق بالجامعات وهم في نفس عمره، حتى وإن حرص على إظهار أن الأمر لا يعنيه، هو يشعر بإخفاق يومي، ويلفه

الشعور بالفشل فيزلزله مع إطلالة كل شمس، فتمرس الهروب من واقعه الحزين بالانخراط في مطالعة يومية للمواقع الإباحية، والشغف بحيازة كل ما تصل إليه يداه من شئون الجنس، كان بعادته السرية، الدورية، يُفْرغ ما في جوفه من فشل، ليَحلق -لحظيًا- منتشيًا بانتصار يدرك في قرارة نفسه أنه زائف، فيستعيده الضجر، وقد سئم تلك اللذة المصطنعة، التي لا تلبث أن تذوي وتذوب قبل أن ينقضي على مولدها بضع ثوان، مخلفة وراءها المزيد من الإحباط، والإخفاق المعتاد...

ولكنَّ شيئًا ما تغير منذ أشهر قليلة، فقلت مطالعته للعُري، وندر اختلاؤه بجسده في الغرف المظلمة، حتى أمسى يحرّم على نفسه ري كل أرض بور، أضاء غرفته الغارقة في حلكة أبدية، وأضحى حريصًا على فتح نوافذ صومعته في كل صباح، فاعتادت عيناه مرأى النور، طمس القسم الأعظم من مسالك هروبه من الواقع، ومحا من جهاز الكمبيوتر كل ما يسحر غرائزه، وبقي يقاوم نداءات الرغبة الليلية المقترنة بالظلام، اجتذبته القراءة، فأقام لمُخيلته وطناً جديداً بين صفحات الكتب، وطن يسهل طيه والتنقل به بين العوالم المتباينة في مكتبته الصغيرة المتنامية، كانت مقاومته قوية تفوق مقدرة شاب في مثل حداثته، أصر على إنجاح مبتغاه، فكان له ما أراد أو كاد، وإن بقي عقله الباطن مختزِنًا لعوالم الشهوة، وأحلام اللذات المحرمة، يراوده بها في نوبات السبات، فيستجيب تارة، ويأبى تارات... فالشاب اليافع كان يدرك ما يطرأ بحاله من تغير في الاهتمامات، ويشعر بفخارٍ وافتخار بما هو منشغل به، منذ عثوره على الكنز، الذي كان متاحًا مباحًا أمام الأعين منذ زمن الطفولة، فلم تمسه يد، ولم تطالعه أعين من تُرك لأجلهم!

- استيقظت يا (شريف)؟

منذ أن انتقل الحاج (عبد الصبور موسى) للمعيشة معهم بعد رحيل ابنته (حورية) بأشهر قليلة، أصبح البيت حيّا أكثر من ذي قبل، فالأب (آدم البنداري)، كان قد حصل على إجازة من عمله إبان مرضها الأخير، ومنذ

أن رحلت، لم يغادر المنزل إلا لمرات معدودات، غادر فيها مكمنه الأثير في شرفة المنزل، وهجر كرسيه الهزاز الذي ورثه أبوه عن جده، لمقابلة بعض من أصدقائه إثر إلحاح منهم، وعادة ما لا يتجاوز غيابه الساعتين على أكثر تقدير.

بقدوم الحاج (عبد الصبور)، عادت الحياة مرة أخرى، فالرجل العجوز، برغم سنوات عمره التي تناهز السبعين، كان أول من يستيقظ مع ملامسة أول خيوط الشمس لجدران البيت، عادةً قبل السابعة، يخرج دون أن يشعر به أحد، وفي الغالب ما يكون (شريف) مستيقظًا وقت مغادرته، منشغلًا بقراءة ما يحرص على ألا يعلمه أحد، يسابق الكهل أدراج سلم الطوابق الخمس، مصرًا على موقفه من رفض لاستخدام المصاعد منذ الأزل، يقطع شارع (سوريا) حتى نهايته، يتجه يمينًا في قلب شارع (السودان) حتى يقطعه صوب (أرض اللواء[٦])، يعبر المزلقان، وكأنه يعبر فجوة خيالية تنقله بين زمنين مختلفين، فمنذ دقائق كان في قلب المهندسين، حيث أفخر الثياب وأشهر محلات الأزياء، وأفضل المطاعم، وها هو الآن في (أرض اللواء) حيث يطل عليه نقيض كل ما سبق، الوجوه غارقة في المعاناة، الشوارع والحواري حبلى بهموم البشر، هناك في أرض اللواء، حيث تعرق الوجوه ترابًا، ويركض الأطفال عراةً، ويتلاحم الجميع كل صباح في محاولة بائسة عابسة لعبور المزلقان، والمرور إلى العالم الآخر، ولكن، هناك أيضًا (عم خميس)، وفول (عم خميس) المدمس، الذي يذكره بأيام الصبا والشباب، ويذكره بـ(حورية) و(أم حورية)، رحل الجميع وبقي هو، وبقي أيضًا (عم خميس)، وفول (عم خميس)... يعاود العبور من الفجوة الزمنية في طريق العودة، يتوقف أمام لافتات المطاعم الفاخرة، التي تقدم من الأصناف ما لم ينل مذاق أي منها رضاؤه، وإن نالت أسعارها من قليل مدخراته الكثير، بيد أن (شريف) يستحق ذلك، فهو يحمل نفس وجه أمه، ونفس ابتساماتها...

يعود العجوز بنفس الهدوء، بعد أن يصعد الطوابق الخمسة على قدميه، يلتقط أنفاسه لبضع دقائق يجلس فيها على الدرج في منتصف الطريق، قبل أن يكمل رحلة الصعود، ينتهي من إعداد الفول بعد أن يضيف إليه "تحويجته" الخاصة، ويشرع في إيقاظ (آدم)، الذي غالبًا ما يكون مستيقظًا في ذلك الوقت.

يعاتبه (آدم) كل يوم، مكررًا أنه ليس هناك من داعٍ لأن يرهق نفسه في إعداد الإفطار كل صباح وهو أكبر من في البيت سنًا، يعانده الحاج (عبد الصبور) بأنه أكبرهم سنًّا ولكن قلبه أكثرهم شبابًا، ويضيف أن رمضان على الأبواب وأنه سوف يتوقف إجباريًّا عن جولته الصباحية، يبتسم (آدم) دومًا لهذه العبارة، ويتحول بعباراته صوب صورة (حورية):

- والدك يصر على القيام بدورك، ولكنه لا يعلم أنه ليس بين البشر من هو بقادر على ذلك، أسماكِ (حورية) وقد جعلك الله كذلك، رحمك الله، وسارع بجمعي وإياكِ يا مُنية الفؤاد...

تجتذبه رائحة الفول، وما أضافه الحاج (عبد الصبور) إليه من الكمون والليمون، فيغادر مرقده، يأخذ رغيفًا ساخنًا مع طبق الفول، يلتقط جريدة الأهرام التي يضعها له الحاج (عبد الصبور) بجوار الطبق، ويتجه نحو الشرفة، يلقي بجسده فوق كرسيه الهزاز بمجلسه الدائم، يطالع الأخبار بغير اكتراث حقيقي، ويلاحظ عودة حميه العجوز، في وهن، إلى سريره، ليحصل على قسط من الراحة، بعد هذا العمل اليومي الشاق...

لم يستيقظ (شريف) بعد...

- لماذا رحلت يا (حورية)؟

يتساءل، ثم لا يلبث أن يعود مستغفرًا: لا راد لقضاء الله. يردد فيستريح قلبه قليلًا، ويواصل هواية الشرود، فيغمض عينيه، ليقبض بساعديه على مجدافي الزمن، ويبحر...

- أبي يعارض زيجتنا يا (آدم)، أخبره جاركم في شبرا أن أباك قد جُنّ في أواخر أيامه، بيد أنكم لا تدركون إليه سبيلًا...

- جارنا الذي حدث أباكِ هو ابن (جابر عباس)، ألا يعي الحاج (عبد الصبور) من هو (جابر عباس)، ألا يعلم أن ابنه (حاتم) قد ورث عن أبيه مهنته، وصار مدعاة احتقار أغلب أهل (شبرا)؟
- أبي قلق يا (آدم) وقد أخبره هذا الشخص أن الجنون صفة متوارثة في عائلتكم، وأنه لا يظهر إلا بُعيد منتصف العمر، فقد قال إن أباك كان راشدًا عاقلًا حتى جاوز الثلاثين...
- يا (حورية) لقد تم الاتفاق على كل شيء، وقد أوشكنا على الانتهاء من تجهيز شقة شبرا، كما أن بيت الدقي أيضًا سيكون جاهزًا لاستقبالنا فور تجديده كما اتفقنا...

عاوده سخط عارم تجاه أبيه، الأب الذي تركه ابن السادسة، وغاب، وانقطعت أخباره منذ عام ٧٢، الأب الذي ما زال يذكر ثورات غضبه وجنونه، ودخوله وخروجه المتكرر، من مستشفى الصحة النفسية بالخانكة، ولكنه أيضا الأب الذي أشبعه أدبًا وحنانًا، رغم قصر أمد اللقاء بينهما...

- بالله عليك، أتراني مخبولًا كما تقول أمك؟ أتراني كنت لك الأب المنفصم عن عالمك بالذُهان؟ أعلم أنك ما زلت صغيرًا ولكنك ولدي! أنت من أدرك من الحقيقة أكثر مني ومنها، ربما لست قادرًا بعد على صياغتها، ولكنك تعلم! فكُنْ كما تَكُون، أشرق في حياتي واقعًا جليًا يغمرني ضياؤه بالدفء المفقود، أو أمسِ حلمًا بشروق يعد بالدفء ولا يحققه، لا أبالي، لأنني -فقط- أحبك!

تذكر كلمات والده الهادئة قبل تغيبه بأشهر قليلة، وتذكر سبب الخلاف الحاد، الذي أودى بأسرتهم إلى تلك النهاية المأساوية، تذكر أخاه (يحيى)، الذي طال به الغيابٍ، مترحلًا بين مدن الخليج، هربًا من إثم لم يرتكبه، وذنب لم يأتِ به يومًا...

- أريد السفَر يا (آدم)، أتوسل إليك أن تساعدني.

- يا (يحيى) والله إني أفعل ما بوسعي، ولكن صبراً يا أخي، فأنت لم تتخرج إلا منذ بضعة أشهر، والأمور هنا لم تعد كما كانت في الستينيات والسبعينيات، الأمر جد صعب، ولكنه ممكن...
- ليس لي في مصر وطن، أطالع السماء فلا أرى لي غدًا، أطرق أرضًا فلا أميز لي جذوراً تصلني بترابها، لا أنسى أنني كنت سببًا في غياب أبيك الذي لا أذكر حتى ملامحه، وقد تخلصت أمنا من كل صوره!

هكذا كان (يحيى) دائمًا؛ عجولًا متعجلًا، يؤنب ذاته على ما لم يقترف، تبسم (آدم) وهو يتذكر مكالمته الهاتفية مع أخيه يحيى منتصف التسعينيات، ثم غابت الابتسامة تدريجيا، مع تذكره، وتذمره، من إخفاء وتمزيق أي صورة لأبيه بعد رحيله، حتى أمسى يجد صعوبة في استدعاء ملامحه! مضى في إبحاره عبر الماضي، وضع شريطًا في جهاز التسجيل المجاور، فانسابت نسائم فيروز، حاملة كلمات شوقي{٧}:

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبـه الأحلام من ذكراك
مثلت في الذكرى هواك وفي الكرى والذكريات صدى السنين الحاكي
ولقد مررت على الرياض بربوة غناء كنت حيالها ألقـــــاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطَــواك.

يدمع لسماع ما اعتاد سماعه رفقة (حورية)، يتشبث بضفاف حنجرة فيروز، حتى تجرفه الحروف المصورة مجددًا "ما أدر ما طيب العناق عن الهوى، حتى ترفق ساعدي فطواك"، يستسلم لتيار الذكرى، ويمضي بصحبته، حتى يستقر مجدداً على شواطئ (حورية)...

- ليكن ما نريد نحن، وليس ما أراد بنا القوم يا (حورية).
- هؤلاء القوم هم أبي وأمي...
- أعلم وتعلمين، أن لن يفرق بيننا غير ملك الموت...
- والله ما أحببت سواك وما أراني يومًا إلا لك أنت، ولكن حتى أمك لم تنكر ما أتاها به أبي...

- الحاجة (دنيا) لا تزال غاضبة من أبي، إلى يومنا هذا، فالفراق كان مؤلمًا، ورحيله كان لها بمثابة صفعة أدمت منها الروح قبل الفؤاد، جرحها لن يندمل يا (حورية). لكنها أنبأتني أنها أكدت لأبيك أنه ليس في عائلة أبي ما قيل عن جنون متوارث، فأبوه وجده لأمه وأبيه قد عاشوا وماتوا كأي شخص آخر، لم يمس الجنون من عائلتنا إلا أبي، وإن كنتُ ما زلتُ حائرًا في أمره...
- أراك تحبه يا (آدم)، وفي طيات هذا الأمر ما يريحني ويطمئنني...

تذكر كلماتها، فتساءل: هل حقًّا أحب أباه، هل ما زال يحبه؟ تبزغ ذكرى عمته (مريم) في ذهنه، يتذكر كم الحكايا التي قصتها له عن أبيه، حتى رحلت، يود لو يتعلق بذكراها مزيدًا من الوقت، يقاطعه (شريف)...

- صباح الخير...

يلقيها (شريف) على مسامعه في مروره نحو المطبخ، هما يتحاشيان النظر إلى بعضهما البعض منذ أن رحلت (حورية)، لا يعلم كلاهما سر توتر علاقتهما منذ رحيلها خريف العام المنقضي! وكأن كلا منهما يلقي باللوم على الآخر! ولكن، من أصر على اصطحابها إلى دار الحق، كان فقط، ذاك السرطان اللعين، الذي ظهر فجأة، ليباغتها تمامًا كما باغت أمها، وبدورها، لم يقوَ جسدُها الرقيق على مقاومته أكثر من ستة أشهر، جلسات العلاج الكيماوي لم تؤتِ بثمارها، وتغيير الدم أسبوعيًا لم يأت بجديد، هو السرطان إذًا، فلمَ كان افتراق روحيهما منذ الرحيل؟ بنهاية الأمر، كان مجيء الحاج (عبد الصبور) لمشاركتهما المعيشة أسفل سقف واحد، هو أمثل الحلول للتعايش، في مرحلة ما بعد (حورية)...

- سأمر على بيت شبرا مساء اليوم، سأحضر (جنة) من منزل جدتي وأوصلها إلى عمتي، هل تريد أي شيء من الخارج؟
- حاول قدر المستطاع ألا تغيب يا (شريف)، لقد توحشت عمتك (حواء) ابنتها، فهي كما تعلم تقيم مع جدتك منذ قرابة الأسبوعين الآن...

أومأ شريف برأسه موافقًا وخرج دون أن يعلّق على حديث أبيه، نهض (الحاج عبد الصبور) من مرقده، وهرول خلفه، ليناوله شطيرتين من الفول وقد أحكم لفهما كعادته في صفحة اقتطعها من جريدة الأمس، تناول (شريف) وجبته من جده، وقبّل رأسه مسرعًا كمن يجد في خروجه من منزله المتنفس والمستراح.

(جنة)... هي فعلًا جنة (حواء) الأولى والأخيرة، بعد فاجعة رحيل زوجها (أحمد عايش). كان (عايش) كما اعتاد أصدقاؤه مناداته، أحد أقرب المقربين لقلب (آدم)، وربطت بينهما صداقة دراسة، وزمالة، تشعبت عبر شتى شعاب حياتهما، وبقي لـ(حواء) من ذكراه (جنة)، وهي فقط ما يعينها على التشبث بالحياة إلى يومنا هذا...

أحاطت به ذكريات الصديق الراحل، فاقترن ذلك بصورة شقيقته الثكلى، توقف الزمن للحظات أصدر خلالها صريره المعتاد، كقاطرة يضغط سائقها مكابحها على عجل، فتأخذ في الاحتكاك بالقضبان الحديدية الملآنة بخدوش قُطُر مرت بذات الموضع من قبل، حاملة ذكريات أناس آخرين، أغمض عينيه وقد آلم أذنيه الصرير، فكّر في النزول إلى الطابق الأسفل للاطمئنان عليها، ولكنه آثر أن يتركها لوحدة اختارتها، وآثرت أن تنسج خيوطها من حولها، صانعة من عزلتها قلعة حصينة لا يدخلها أو يخرج منها اختياريّا سوى ابنتها (جنة)...

واحد وعشرون ربيعًا، هو ما تحمله الفتاة الشابة فوق عاتقها من عُمر، قلت فيه الملذات بالغياب المبكر للأب، بيد أن طبيعة تنقلها المتكرر، بين (شبرا) و(الدقي)، ما بين اختيار للتغيير، وانجذاب لسحر الماضي، رسّخت في وجدانها حنينًا دائمًا للأحياء الشعبية، ولروابط الأسرة التي قلما تجدها في بيت الدقي، فلحارة (البنداري) عبق من الماضي، وفي أرضها زخم من الذكريات، التي لم تعايش أيّا منها، لكن (جنة) كانت تحسن التخيل بعد التلقي عن أمها وجدتها، وتجيد البحث عبر الدروب في شبرا عن أثر هنا أو هناك، متقنة ربط القصص عبر الزمان بما جاورها حينها من المكان،

هي جد موهوبة في ذلك، وهي أيضًا أقرب ما تكون إلى عمها (آدم) من حيث الصفات، وإن كان الأخير لا يتوقف عن تحذيرها مما يخيفه هو:

- احذري هواية اقتفاء الأثر تلك، فقد تمدين يدك ذات مساء حالك في واحد من جحور الماضي، حيث توارت الحقائق وأهال عليها الزمان أيامه، فيلسعك ما يكمن بداخلها، من أسرار فاجعة، وحقائق لا مصل يِعين على استيعابها...

تضحك كلما بث في وجهها مخاوفه، ملبسًا ما يؤرقه ثوب النصح والإرشاد، ولكن حبها الجم له، كان يحجب عنها سبل مصارحته بما تظن...

- لو كان بلوغ الحقيقة كالسم، فالمعرفة في حد ذاتها ترياق لكل السموم، وإن خشي (شامبليون) لعنة الفراعنة المخبوءة، لما فك الرموز، وكشف السر، وأعاد الحياة لمن رحلوا قبل آلاف السنين، بأن بلّغنا رسالاتهم، وسلّمنا تراثهم!
- لا توجد آثار فِي (شبرا) بأية حالة أيتها العنيدة...

يقول باسمًا متجنبا نزالها...

- أعلم، ولكن بعض الماضي عصيّ على الطمر بأية حال...

يتبسم (آدم) بالتنقل بين ذكريات قريبة يحب استدعاءها، ويستعذب الوقوف عند حواراته مع (جنة)، فيفعل، حتى تعاود عجلات الزمان حركتها، فتقطره نحو اتجاه معاكس، وتتوغل به، فيغوص في غور الماضي...

- قالوا مخبول؟ أتصدقهم يا (آدم)؟ أرأيت من أبيك أن قتل؟ أن سرق أو زنا أو ثمل من فرط الشراب يومًا؟ أرأيت أباك وقد اغتصب من حطام الدنيا يومًا ما لم يقدر له؟ أسمعتني يومًا وقد أهنت حاضرًا أو اغتبت راحلًا أو غائبًا؟ أنت شَكِّي فيما توصلت إليه من حقائق الأمور، أنت من يُلقي عليّ كل ليلة ذات السؤال دون أن ينبس ببنت شفه! يا (آدم)، إن ظل القوم على مطاردتي، لأتبعهم فيما هدتهم إليه بصيرة عرجاء من أوهام يستحيل أن تلقَى من العقل قبولًا، فسأرحل! ولكنني أوصيك بأمك وإن جَرّمتني، وبـ(حواء)، وإن أنكرني عقلها

الواعي، فآثر دفني بموضع النسيان من عقلها الباطن. يا (آدم)، يؤرق القوم شكي، فيغفلون عن حقيقة، مفادها أنني أشك لأعرف، وأني أعرف لأعيش...فبالله عليك، ماذا ترى من أمري مُضيراً لهم؟

تذكَّر همسات أبيه حين زاره في فراشه قبل أن يرحل بسويعات قُصر، كانت آخر مرة يراه فيها، وبرغم حداثة عمره آنذاك، فقد حفرت ملامحه وهو يتلو عليه هذه الكلمات في قلبه إلى اليوم، ظل محتفظًا بذات المشهد، وما زال حين يستدعي صورة (إبراهيم البنداري)، يأتيه جالسًا على ركبتيه، بجوار فراشه، في ذات الموضع من حجرتهم القديمة في بيت (شبرا)، ونفس الضوء الخافت، يتسرب من حيث لا يدري، ليظلل من وجهه المنتصف، وكأن الضوء يحجب عن ناظريه الجانب الأيمن من وجهه، ذلك الجانب، الذي يحمل ندبة كانت ذكراها تؤلمه حتى النهاية، وظل (آدم)، محتفظا بذات الذكرى، فكان كلما استوقفه أبوه في ردهات الحلم، حدثه بنفس النبرات الهادئة المتألمة:

- رحلت وأنا عالم أنك أحببتني، فإن أقنعت عقلي بما ساقك صوب الرحيل، فلم كانت القطيعة بعد الهجران؟ لماذا لم تحرص على أن تمدنا بأخبارك قيد المستطاع؟ تركتني طفلًا، ولم يمنعني ذلك عن أن أحتفظ بحبي لك إلى اليوم، وما أنت بتارك لي سوى أليم الذكرى، ونصف وجه!

تمتم (آدم) محدثًا والده بذات الكلمات التي اعتاد أن يصوغها سؤالًا منذ طفولته، أوقف توغله في الماضي، فتوقفت عجلات القطار، هز رأسه يمينًا ويسارًا، وكأنه ينفض عنها غبار الذكرى، وقرر أن ينزل الدرج لزيارة أخته (حواء).

(٣)

رَهْبَـة

القاهرة ١٧ مايو ١٩٣٦

للحَضرة طقوس، وليلة الأحد لم تكن ليلةً كأي ليلة، وذلك الأحد تحديدًا، كان مختلفًا لـ(نوح البنداري)، فـ(إبراهيمه) الثالث، قد أتم بالأمس أحد عشر يومًا، واليوم قد أبصر ثاني عشر أيامه، وقد قرر أن يصطحبه معه اليوم ليغمسه في طقوس الذكر، ويباركه بـمُستحب الإنشاد في حب الله والحبيب المصطفى.

ضايقه أن أخبره (أبو شنب) أن (جابر عباس) قد طلب حضور حَضرة الليلة، فهذا الـ(جابر) لم ينشغل يومًا بأمر الحَضرة، ولعل بقدومه اليوم، في حضور وليده (إبراهيم) شيئًا من سوء الطالع والفأل السيئ.

كعادته ليلة كل أحد، اهتم (عوضين) بتعمير المباخر، بما يدخره طيلة الأسبوع من أطيب وأجود أنواع البخور الهندي، وكان أن بدأ بتجهيز المباخر في غرفة المسافرين في المنزل حيث يبدأ اليوم استقبال المهنئين بقدوم المولود، إذ أصر (نوح) على ألا يتلقى تهنئة بمولوده إلا إن عاش وليده أسبوعًا ثم انتظر حتى أول أحد بعد ذلك ليقيم احتفاله على هامش الحَضرة، كان (عوضين) غير المبالي بشفته المتورمة جراء حادثة الأمس يجهز المباخر لـ(أبو شنب) الذي يقوم بدوره بتوزيعها في غرفة الحريم (لم يكن مسموحًا لأي غريب أن يطالع وجه أهل البيت من النساء إلا أبو شنب)، وأخيرًا انشغل (عوضين) بترتيب بخور غرفة الحضرة.

وغرفة الحضرة، ذات البابين المتواجهين، لها مفتاحان، مفتاح الباب الداخلي، ولا يحتفظ به سوى (نوح أفندي)، حيث لا يجرؤ أحد على فتح غرفة الحضرة طوال أيام الأسبوع، سوى مساء السبت، حين يأذن (نوح أفندي) لـ(أبو شنب) بفتح الغرفة، لتنظيفها من بقايا حضرة الأسبوع الفائت استعدادا لحضرة اليوم التالي، أما مفتاح الباب الخارجي فلم

يمسسه منذ غياب (عبد الحميد البنداري) سوى (الشيخ الرفاعي) ومن بعده ابنه (نوح أفندي).كما يعهد (نوح) لـ(أبو شنب) بحمل المفاتيح الداخلية للغرفة أثناء الحضرة، لتقديم المشروبات الساخنة والفاكهة للحضور من آن لآخر، فكان يفتح الغرفة، ليكرم ضيافة الوافدين، ثم يغلقها خلفه بالمفتاح.

تُناول (جميلة) القُلل إلى (أبو شنب) الواحدة تلو الأخرى بعد تلميعها وملئها من الزير الكبير، (أبو شنب) يعلم كيف ينبغي أن تصطف هذه القُلل في موضعها الأبدي علي يسار الداخل إلى غرفة الحضرة من باب الدرج، فيتقن رصها، الواحدة تلو الأخرى، في وعاء كبير من الألومنيوم له حواف قصيرة، ويمتلئ قاعه بالماء المخلوط بالثلج المجروش.

تعلم (جميلة) أن زوجها (نوح أفندي) يولي اهتمامًا جمّا بمظهر القُلل ونظافتها وهيئتها، وكذلك قطع الصوف التي يحرص على الاحتفاظ بها بعد كل ضحية ينحرها، بيد أنه عكف مع (أبو شنب) على حياكة تلك القطع ذات مساء بعيد، فصنعا منها قطعة واحدة كبيرة الحجم، كما السجاد والحصير... هذا الصوف هو ما يغطي أرضية غرفة الحضرة الخشبي، وفي المواسم والأعياد، تقوم هي برفع الصوف وتحريك الأثاث وغسل الأرضيات الخشبية بعناية فائقة، فزوجها الدقيق في نِظامه، يهتم أكثر ما يهتم بهذه الغرفة، خاصة وقد ورث هذه العادة (أي حَضرة الذكر) عن والده، وهذا الأخير، له في نفسه قدسية خاصة ومكانة سامية.

ما بين الأحد والأحد، جرت العادة أن تُفرش الأغطية البيضاء فوق الأثاث حفظًا له من الشمس والغبار، حتى حين كان (نوح أفندي) يختلي بنفسه في هذه الغرفة بعد كل صلاة جمعة، فيفتح أبواب الشرفة المطلة على حديقة المنزل حتى منتصفها، وينهمك في أحد أمرين لا ثالث لهما، أول الأمرين، كتابة ما لا يُطْلع أحدًا عليه، وثانيهما وأكثرهما تكرارًا، هو الانغماس في مناجاة صامتة لربه، فيها من التضرع والتصوف ما يجاوز

قدرة (جميلة) على الإدراك، كانت في مجمل الأمر لا تعي دافعًا لأي مما يفعل، وإن ظلت على انبهارها به حتى رحلت قبله.

الشيخ (عبد التواب الرفاعي) كان أول الحضور كعادته، دلف إلى غرفة الحضرة حيث استقبله من الباب الداخلي (نوح أفندي) بعد دقائق من وصوله، تكريمًا له، وهو المنشد الرئيسي في حَضرة آل البنداري منذ ثلاثين سنة، قاده (نوح أفندي) عقب الترحيب إلى غرفة المسافرين، حيث يشاركه استقبال عشرات الوافدين من (التوابية)، ومن جيران الحارة، مهنئين ومباركين قدوم ولي العهد من بعد طول عناء.

كان (نوح أفندي) يستشعر توق محيطيه لقدوم صبي من صلبه، فعمه (عبد الكريم) قد رحل دون زواج، أما أخوه (إمام)، فقد تزوج منذ أعوام ثلاثة، ورزق بـ(حسن)، ولم يرزقه الله بذرية من بعده، لكن (نوحِ)، كان يدرك في قرارة نفسه، أنه حتى لو كان عمه قد عاش، وتزوج، فمَنَّ الله عليه بالذرية، ورُزق (إمامًا) بدلًا من الصبي، عشرة صبية، فإن (التوابية)، كانت لتظل على تلهفها، وانتظارها لقدوم ولد من صلب (نوح البنداري) رغم كل شيء، كونه أكبر أبناء (عبد الحميد البنداري)، وكون هذا الأخير هو كبير العائلة، وأكبر أعيانها وملاكها، القابض بيمينه على ثلثي أراضي التوابية، ولذا، فقد كان دائمًا مصدر الرزق للقرية بأكملها، حتى كان بعد وفاته، أن ظل عموم أهل القرية يتوافدون على ولديه (نوح وإمام) في القاهرة، محملين في كل زيارة بما يطيب لهما من خير وطير.

واليوم تحقق المأمول، وجاء من صلب (نوح) صبي، شهد شروق الشمس إحدى عشرة مرة، فكان الاحتفال.

- والله إني أرى هدايا أهل (التوابية)، لي ولـ(إمام)، بمثابة قرابين كانت تقدم لفراعين مصر منذ آلاف السنين، المصريون قديمًا خشوا غضبة الإله، فإن في غضبته قلة بالرزق، وانقطاع للمطر وهلاك للحقول، واليوم يخشى أهل التوابية أن نبيع أنا و(إمام) الأرض، فيتولى أمرهم من ليس منهم، أو يزيد من قيمة عقود الانتفاع والإيجار التي نعقدها

مع كبرائهم، فيقل رزقهم بالتبعية، لقد نصبني أهل بلدتي فرعونًا، ونسوا أن الله هو من يمنح ويمنع، والله هو الهادي.

هكذا أسرّ يومًا لـ(الشيخ الرفاعي)، في إحدى جلسات التدخين بعد انتهاء طقوس الذكر الأسبوعي، كان الأمر برمته يؤرقه ويؤلمه، وكان تشبيهه لعادة قومه، بالطقوس الفرعونية، يعيده إلى ذكريات أليمة، عصفت به في "تل العمارنة"[٩٢] منذ زمان غير بعيد، وجاءت به محمولًا من هناك، إلى (شبرا) فوق محفة طبية...

فإذا به ذات ليلة، وقد ضاق ذرعًا بقرابين التوابية كما اعتاد تسميتها، أن فقد قدرته على الكتمان، فظهر الحنق والضيق جليّان على قسمات وجهه، ومنذ ذلك الحين، شَرَع كبير التوابية، خال أبيه، (علوان)، في نَهْج عُرف جديد، ألا وهو تقبيل يديه وكتفه الأيمن إبان توديعه لهم! فاستسلم لواقعه، وقال لأخيه:

- تذكر يا (إمام)، أن العبودية، تنشأ في بادئ الأمر، داخل وجدان العبد، حتى وإن كره السيِّد...

أومأ أخوه برأسه إيجابًا، ومضى كلاهما في طريقين متوازيين، ظلت طقوس القرابين، والتبرك بتقبيل الأكتاف باقية مصونة، حتى بعد أن جاء (عبد الناصر[٩]) ليؤمم نصف هذه الأرض!

بدأ توافد ضيوف الحضرة، وضع (عبود) بضعة صناديق من الفاكهة خارج الباب الخارجي لغرفة الحَضرة وانصرف مسرعًا، نقده (نوح أفندي) ثمنها، ثم أشار إلى (أبو شنب)، فأدخلها إلى المنزل، تاركًا منها صندوقًا واحدًا في مكانه، نظر صوب (عوضين) معلمًا إياه أن هذا الصندوق يخصه، تبسم المجذوب امتنانًا، رغم سقوطه في بئر من الامتهان في الليلة السابقة، بيد أنه ما لبث أن عاد لانشغاله وسط مباخره.

- اتلُ سورة الكهف، واتبعها بسورة يس، ثم اقرأ آية الكرسي مرات ثلاث، فإن فرغت من تلاوتك، ضم إلى صدرك الصمت، وامتنع عن مختلف الكلام والحديث من العشاء إلى الفجر، فإذا بلغت الفجر، اجلس موليًا

وجهك للقبلة، ضع (إبراهيم) أمامك عاريًا مُسْتَر العورة، فَمُك هو محْبَرتك، وقلمك سبّابتك، فَاغْمس قلمك بمحبرتك، واكتب على صدره كَلمات آية الكرسي، واتركها حتَى تجف، لن يجزع ولدك فلا تخف، وإني والله أراه من الصالحين بإذن الله.

همس (الشيخ الرفاعي)، مذكرًا (نوح أفندي) بما أملى عليه مسبقًا، في آخر صلاة فجر جمعتهما فجر اليوم، أومأ (نوح أفندي) برأسه موافقًا مؤكدًا، جاشت في أعماقه تساؤلات وهواجس لما انتوى أن يتبع به تلك الطقوس المباركة. ظهر (جابر عباس) بين الحاضرين فتوجّس، تلاه في الدخول إلى الغرفة (يوسف عيسى)، مدرس اللغة الفرنسية، الشاب الخلوق، الذي يُقدره كثيرًا، رحب به بحفاوة وكرم، فأزال ظهور (يوسف)، تلك الغصة التي اندفعت إلى حلقه بمرأى (جابر)...

- وماذا عما أخبرتك أنني فاعل -بإذن الله- بعد الانتهاء من مباركة (إبراهيم) في غرفة الحضرة؟

تبسم (الشيخ الرفاعي) وحلق ببصره في سقف الغرفة، سكت برهة، ثم حدق في عيني (نوح أفندي) مباشرة:

- أتطلب مني فتوى فيما انتويت، أم أنك تريد أن تسمع ما يفيد بصحيح ما نويت؟
- هل تحدثت مع (أبونا يوحنا)؟
- أراه جزعًا أكثر من كلينا...

قالها الشيخ السبعيني ببسمته الهادئة المعتادة، فزاد من توتر (نوح أفندي) دون أن يقصد، كان هذا الأخير يشعر بثقل فوق كاهله، وإن كان مؤمنًا بصواب نيته، واثقًا بنقاء إيمانه...

- والله يا (نوح) إني أراك حافظًا لله بوجدانك، وإن حفظت الله حفظك، ولولا أني أعرفك منذ نعومة أظفارك، وعرفت أباك رحمه الله حُسْن المعرفة، لظننت بك خَبَلٌ أو جنون، ولكنني أعلم صفاء المقصد فيما نويت.

أزاح شيئًا من أطنان الحيرة القابعة فوق كتفي (نوح أفندي)، كان لذكر أبيه (عبد الحميد البنداري) أطيب الأثر، ولطالما ألقت سيرته في نفسه بالسكينة والطمأنينة. نما إلى سمعه صوت واهن للدف معلنًا قرب بدء الإنشاد، هم (الشيخ الرفاعي) مغادرًا مجلسهما تجاه (غرفة الحضرة)، ربت على كتف (نوح أفندي) بحُنو باسم، وبدت خطواته الخفيفة غير متسقة مع سنوات عمره التي جاوزت السبعين، خطا فوق الأرضية الخشبية، وكأنه يطير، مغادرًا صوب تحليق عظيم، لا آفاق له، قدماه تكادان أن تفارقا الأرض، وكأنهما ستشرعان في الطيران فور أن تلامسا غرفة (الحضرة)، شرد (نوح أفندي)، هاجمه خليط من هموم مُغْمّسة في مُوجع الذكرى...

- هل كانت (عزيزة) لتوافقني الرأي فيما نوِيت؟

تساءل، ثم أعاد تساؤله وقد ألبسه ثوبًا مغايرًا:

- أيغفر لي الشيخ (عبد الحميد البنداري) إن فعلتها؟

تخيل ردة فعل أقرب الأحباء ممن يفتقد اليوم، استفاق من خواطره إذ علا صوت الدفوف نسبيًا عن ذي قبل، غادر مجلسه ودعا رجال الحضور من (التوابية) لمرافقته إلى الحضرة، (جابر عباس) ما زال يرمقه بتلك النظرات الخاوية، والتي لا تتضمن بأي حال من الأحوال، ما هو أكثر من مصطنع البسمات ومُصْفرها، كان مجلس النساء على الطرف الآخر من المنزل، وفور بدء الحضرة يصمت النساء طواعية، ويصغين السمع إلى المنشدين، اتخذ الحاضرون من دعوته للدخول أمرًا لا راد له، فرافقوه في تحمس غير حقيقي في معظمه، أشار بيده لـ(أبو شنب) فغاب الأخير برهة عاد بعدها حاملًا (إبراهيم)، أسلم الوليد لأبيه، فاحتضنه (نوح أفندي)، وجعله لصيقًا بالفؤاد، حتى شعر بأنفاسه الدافئة تلفح صدره، استكان كلاهما اطمئنانًا فور أن تلاحما، علا صوت (الشيخ الرفاعي):

محمد سيد الكونين والثقليـن   والفريقين من عرب ومن عجمِ
نبينا الآمرُ الناهي فلا أحدٌ   أبر في قولِ لا منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هولٍ من الأهوال مقتحم

وقف على باب الحجرة، وأخذ يرسل ضيوفه، إلى حيث يحلق بهم شيخه (الرفاعي) في آفاق خاصة، اصطف الجميع فتبعهم حاملًا وليده، كان متشبثًا به فبدت استكانته إعجازًا لا يتسق مع وليد في مثل عمره، أحضر له زواره كرسيًا على مقربة من (الشيخ الرفاعي)، استقر على كرسيه مجلسًا ولده على فخذيه بحيث يظل مطالعًا وجهه، تثاءب (إبراهيم) وبدا أنه يفيق من نومه على أنغام الذكر، حرك رأسه ببطء كمن يبحث عن مصدر الصوت، داعبه (يوسف عيسى) الجالس على مقربة من أبيه، فتبسم، دمعت عينا (نوح) فأطرق لثواني، اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وبدا وكأنه يبحر في عيني أبيه، الذي لم يتوقف عن مشاركة ضيوفه إنشادهم:

دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبلٍ غير منفصم

فاق النبيين في خلقٍ وفي خُلُقٍ ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم

انسابت "بُردة" (البوصيري[١٠]) في خلايا (إبراهيم) وسرعان ما امتصتها، هربت دمعة من محبسها في مقلتي (نوح أفندي)، فتبادل كلاهما التبسم، نهض (نوح) من مجلسه، ضم وليده إلى صدره من جديد، مد الرضيع يده تجاه وجه أبيه فمسح بغير قصد دمعته الهائمة، كان الأب منذ مجيء صبيه منشغلًا به كما لم يفعل من قبل، سواء مع (مريم) ذات السنوات الست، أو مع كلا (الإبراهيمين) الراحلين، كان يقضي جل ساعات الليل متابعًا أنفاسه، فإن غفا هلع، وإن بكى جزع، كان يوصي (جميلة) و(أبو شنب) أن يتابعا الوليد حين يشعر بقرب هزيمته أمام سلطان النوم، فيسلم له روحه لساعات قصيرات. تأمل وجوه محيطيه، كان أخوه (إمام) يتابعه في هدوء، تتلو عليه عينيه آيات من الطمأنينة والرضا، فشعر بامتنان نحوه لقدومه الليلة، وهو الذي يعارض حلقات الذكر، ويراها منافية لتعاليم الإسلام.

لم يقدر على مصارحة (إمام) بما ينتوي، وبعناد ريفي، أبى أن يطلب مشورة أخيه الأصغر، وهو الذي طالما كان له الأب والمعلم، خصوصًا أن الأخ الأصغر، وبعد أن نهل من معارفه وخبراته حتى ارتوى في خلاياه ظمأ العقل، حاد عن المسار، وانضم إلى جماعة سرية، لا يثق إن كانت سياسية أم دعوية، يتزعمها شخص يدعى (حسن البنا) [٨٢]. لمح (جابر عباس) يتمايل بين المتمايلين، ود في قرارة نفسه لو رد له تلك الصفعة المهولة التي هوى بها على وجه (عوضين) بالأمس، على مرأى ومسمع المارة في حارة (البنداري)، تذكر كيف منعه (أبو شنب) بالأمس من الفتك به:

- يا (نوح أفندي)، بالله عليك لا تنتقص من قدر نفسك أو من قدر عائلتك، هو لا يستحق حتى أن تمسسه يداك لتصفعه، لا تقلق بشأن المجذوب، فالله لا يترك حقًّا للمجذوبين، والممسوسين، والمعذورين، إلا وأخذه...

شرد لثوان استرجع خلالها المشهد، حتى انتزعته الحضرة من شروده وألقت به في عالمها الضبابي الأخاذ من جديد، عاود مقاومتها على غير عادته، فبرغم تماوج الذكر وانفصال معظم الحاضرين عن الواقع، بين انفصال كلي وجزئي، تشبث (نوح) بوعيه في تلك الليلة، لم تمنحه همومه الحق في الانغماس كما هو عهده منذ أن كان صبيًا، علا صوت (عوضين) من بقعة ما في الغرفة، طارده شكه فيما هو مقبل عليه، لمح (جابر عباس) مجددًا، فأدار بصره صوب (يوسف عيسى) ذي الوجه الصبوح، شرع يهز رأسه بعنف وكأنه يطرد منها تلك الهموم، وينفض منها ما خلفه حضور (جابر) من غبار يكاد أن يفسد احتفاليته، خطا خطوات سريعة واسعة نحو الاندماج الصوفي المتكامل.

- أين أنت الآن يا عزيزة؟

اجتثت ذكرى (عزيزة) جذوره من على ضفاف حنجرة (الشيخ الرفاعي)، فتنبه نادمًا لشروده حتى أثمله الخجل:

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبًا بارئُ النسم

منزهٌ عن شريكٍ في محاسنه   فجوهر الحسنِ فيه غير منقسم

غفا (إبراهيم) بيَن يديه حين انتهى (الرفاعي) من (بِردته)، وفور توقف الصوت جاء (أبو شنب) باليانسون والقرفة والزنجبيل، موزعًا أكوابها على الحضور، بعد أن طرق الباب ثلاثًا فأذن له سيده بالدخول. تناول قنينة مسك من (إمام) وشرع يمرر بعضًا من رحيقها على رأس وليده وصدره، مد (الشيخ الرفاعي) أصبعه فوق رأس (إبراهيم) وبدأ في تلاوة الرقى والآيات محركًا سبابته في حركات دائرية منتظمة، تلاقت عيناه مع شيخه فواصلا حديثهما الصامت:

- سامحني يا شيخي...
- أنا لا أملك لك ضرا ولا نفعًا يا بني، لست أنا من يصفح ويغضب، بل هو الله الخالق البارئ المصور...
- أنبأتني أن الخالق واحد لنا جميعًا، وتلوت عليّ متنوعًا من حكم ومواعظ مفادها أن بيوت الله لها ذات القداسة...
- فعلت، غير أن فعلك شاذ يا ولدي...
- بالله عليك، كيف وقد منحني الله صبيّا وأزال ابتلاءه عني ألا أوفيه حقه...
- لن يضمن لك ذلك أن يعيش صبيك، إن كان ذلك ظنك...
- لكنه يضمن لي مرضاة ربي...
- أوف ربك عباداته، وصنه في معاملاتك...
- لا يَكفي...
- لا تطمع...
- ما أنا بطامع إلا في مرضاة الله، وإني والله أراني أبارك ولدي وأصلي لربي وأشكر نعمته في كل بيت من بيوته.

أومأ (الشيخ الرفاعي) برأسه، فكانت تلك بشارة الموافقة، اصطف الحاضرون في حلقة الذكر، همس شيخه في أذنه:

- أمامك قرابة الثلاثين يومًا لتفكر، فالصبي لا يعَمد[11] قبل تمامه أربعون يومًا، فإن أفتاك قلبك أن ترجع عما نويت، فإني والله لأجد الأمر مستحسنًا، وأما إن أنبأك قلبك أن تمضي خلف ما اعتقدت، فإني والله لأجدني مرافقًا لك، وليسامحني الله إن كان في ذلك ثمة إثم، أو بعض من شرور.

هدأ إبراهيم، ناول وليده لـ(أبو شنب) فحمله غافيًا باسمًا مستكينًا، اختلس الأب بداخله ثوان، ضم فيها الرضيع إلى صدره فرحًا، حتى أسلمه لأمه.

رشف (الرفاعي) بعضًا من الماء المحلى بالسكر كعادته، طالع وجه (نوح) مرة أخيرة، فبدا خاشعًا مطمئنًا، فعلا صوته مُحْتَضَنًا بدقات الدفوف:

يا نبي يا نبي، يا نبي يا نبي، يا نبي يا نبي
زيدوا صلّوا على النّبي
النّبي يا حاضرين اعلموا علم اليقين
أنّ ربّ العالمين أوجب الصلاة عليه
النّبي يا من حضر النبي سمح البشر
من دنا له القمر ونزل سلّم عليه

(٤)

حَنِيـن

القاهرة - ٥ أغسطس ٢٠١٠

هيٍ لا تزال غارقة تأبى مصارعة الموج، تستسلم، يمتص الزمن رحيق شبابها يومًا بعد يوم، ذَبُلَت، وهجرت ساعاتها البسمات. كثيرة الشرود هي، خاصة حين تهجرها (جنة) لترتمي في عبق الماضي في (شبرا)، مواصلة أعمال البحث والتنقيب، بغية وصل ما كان، بما سوف يكون... هذا ما وجدها عليه (آدم)، حين توجّه إليها حاملًا وهنه، فضاعفت رؤيته لها همومَه، فهو لم يعتدها ساخطة على أبيه مثله، ولكنها كانت كذلك حين زارها.

- عجيب أمر دنيانا يا (آدم)، فـالـ(عايش) يموت، والـ(جنة) تهجر قاطنيها، حتى (إبراهيمنا): قد خالف أمر ربه وضحّى بأولاده ولم يفتدِ أيّا منا، ولو بأبخس الدواب!

اختتمت جملتها وقد دمعت نبرات صوتها، فقال مباغتًا:

- أين تحتفظين بما أرسل لنا من مذكرات؟

فاجأها سؤاله، فهو من رفض طيلة السنوات الماضية، أن تجمعه بسيرة أبيه الغائب، أية حكايات وذكريات، فهو منذ أن جاءهم ذلك الصندوق الصدفي الأنيق، حاويًا أربع كراسات، قال حينها من سَلَّمها، أنها مذكرات أبيهم، رفض أن يفتح الصندوق، وأبى أن يِقرأ ما فيه، بل وبلغ به الإنكار حد أن رفض مجرد رؤية الصندوق مفتوحًا!

كان كمن يخاف الصندوق، ويخشى مطالعة ما يحويه! كان كمن يراقبه في صمت، يربت عليه كأنه يربت على أبيه، يحدثه:

- أخشى ألا أجد في غياهبك ما يفسر، ليبرئ الغائب، ويطمئن المنتظر...

يقول فلا يجيبه الصندوق، يتذكر أن قال المرسال آنذاك، أن أباهما حي يرزق، فيتبسم!

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

يتداخل سؤال شقيقته المقترن بعينين تفيض من مقلتيهما الدهشة مع استدعائه للذكرى، يرتدَّ للواقع للحظات قصار، يحيط وجهها بابتسامته، ثم يعود ليعايش ما كان منذ زمن بعيد... نظر إلى الصندوق الصدفي العتيق بعد أن رحل الجميع، كان ذلك في (شبرا)، وقد وضعته أمه حيث اعتاد جده أن يقيم (حضرته) الأسبوعية. انتهى المؤذن من إعلان صلاة المغرب، وشرعت شمس الشتاء الواهنة، في التسلل هاربة بروية، وكأنها تخشى بدورها لحظة فتح الصندوق، جلس القرفصاء إلى جواره، وعاود محادثة أبيه، وصندوق أبيه:

- أتظنني واجدًا في صندوقك هذا ما يُعوضني؟

ترتعش يداه بملامسة الصندوق البارد، تطرق (حورية) الباب، ينظر صوب ظلها الآخذ في الاستطالة عند باب الغرفة، يصمت، تقترب، تدخل وتفترش الأرض إلى جواره.

- ممّ أنت خائف؟
- لست بخائف!
- بل إنك فزع يا (آدم).
- الأمر جد محير!
- ليس كذلك!
- أظنني حقًّا خائف، خائف مما يحوي هذه الصندوق مما قيل إنها مذكراته...
- اقرأ!
- لست واثقًا!
- اقرأ يا (آدم)!
- أخشى ألا تروي كلماته ظمئي. أخشى أن أفقد حبي له، أو أن يستحيل اشتياقي الصامت غضبًا وكراهية.
- إذن لتقرأ، لتعلم، ولتعرف، إن لم تقرأ، فسوف تظل حائرًا بين مد الظنون وجزر الاشتياق... اقرأ لتهزم شكك.

- لست مستعدًا يا (حورية)...!

رنت كلمات حورية في أذنيه، فشعر بغصة في حلقه إذ اشتاق إلى كليهما، الزوجة الراحلة رغمًا عنها، والأب الغائب طواعية واختيارًا.

- أخذته (حورية) العام الماضي.

زلزلته كلمات (حواء)، انتزعته من براثن ماضيه وألقت به للحاضر الذي يصر على مواصلة مفاجآته، لم يعلم أن صندوق أبيه قد غادر موقعه بمنزل شبرا إلا حين نقلته (حواء) إلى منزلها، بعد عودتها من السعودية، وإن لم تقرأه حسب علمه، دُهش!

- متى كان ذلك؟

سألها فأطرقت، وأجابت:

- كان ذلك عقب معرفتكما بحقيقة مرضها بوقت قصير، أعتقد أنها حين أدركت قرب الرحيل عن دنيانا، أصرت أن تعرف قبل أن ترحل، كانت أشجع منا جميعًا! قالت أن ذلك مما أوصتها به عمتي (مريم) في مرضها الأخير...

كانت قوية بحق، كانت تموت، وتواسيه في ذات الوقت، حتى يوم رحيلها، كان آخر ما فعلته قبل أن تخور قواها وتفيض روحها متسربة من جسدها الهزيل، أن مسحت دموعه المنسابة على وجنتيه بغير انقطاع، لم تقوَ حينها على التحدث إليه، وعجل الله بأمرها وأنهى ألمها سريعًا، فرحلت، تاركة خلفها زوجًا ممزقًا، وشابًا شريد الروح.

أضناه البحث في غرفتهما، بحث كثيرا، لم يعرف ما دفعه للبحث عن أوراق أبيه، ولماذا احتلته تلك الرغبة اليوم؟ لم يدرك سر رفضه لنصيحة (حورية) بفتح الصندوق يوم قدومه، ربما أضاف إليه علمه بقراءتها لها، مزيدًا من الرغبة في أن يعرف، ولأن يعي الحقيقة خلف كل ما جرى...

- لا تظلمه، هو قد أحبك حقًا، أعتقد أنه -فقط- قد ضاق ذرعًا بما أحاطه من هموم، ربما لم يتحمل مواجهة واقعه، ربما تناثرت الأحلام في مخيلته، وتطاير إصراره على اللحاق بها. فما خطب عصفور عشق

التحليق وقد احتلت سماواته غيوم سوداء، إن آثر أن يتوقف عن الطيران، وأن يمضي ما بقي من أيامه كائنًا آخر، ربما مل سماءه وقد نفت سحبها الشمس، فاستحال سمكة في أعماق نهر لا يسكنه سواه، أو قارضًا أقام في أعماق الأرض مملكته!

كانت هذه كلمات (حورية) قبل أيام من النهاية، توقف عن البحث، وجلس لاهثًا على حافة الفراش، أغضبه أن لم يلحظ المغزى خلف كلماتها الأخيرة في حينه، تكاثفت التساؤلات، حتى ازدحم بها عقله، فهطلت على مخيلته الظنون...

- ماذا عرفت (حورية) عن (إبراهيم البنداري)؟

انتظمت أنفاسه، وتبعتها أفكاره، فقرر أن يعاود البحث عن الصندوق، لكنه ما لبث أن تساءل:

- بل ماذا يعرف هو عن أبيه (إبراهيم البنداري)؟
- لماذا الآن؟

همس الحاج (عبد الصبور) مقاطعًا، في ذروة انشغاله بمشاركته (آدم) بحثه، بدا وكأنه يخفي أمرًا ما، طاردته علامات الاستفهام في أعين (آدم)، حتى ضاق بحمله ذرعًا، فألقاه:

- رأيته آخر مرة في غرفة (شريف)...
- متى؟
- منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، ولكن...
- ماذا تُخفي عني؟
- أعتقد أنه تخلص منه، أو باعه لأحد بائعي الخردة...

ألقى (آدم) بجسده على أقرب كرسي، شعر بدوار لم يدم طويلًا، أغمض عينيه وحار في أمره، لمن اللوم اليوم؟ أيلوم (شريف) على فعلته، أم حريّ به أن يلوم نفسه؟ المذنب من أهمل كلمات أبيه طيلة ذلك الوقت؟ أم من ألقى بكلمات جده في سلة المهملات؟ أم أن المذنب منذ البدء هو ذاك الذي اختصر علاقته ببنيه، في حفنة من كراسات بالية؟

- شريف!؟

تساءل غاضباً، فتقوقع (الحاج عبد الصبور) في طرف الغرفة مطرقًا رأسه، تذكر أن هاله مرأى شريف وهو يحمل الصندوق الصدفي مناولًا إياه لـ(عبده) بائع الخردة الشاب، انفرجت أسارير هذا الأخير حينئذ وهلل شاكرًا (شريف) مرارًا وتكرارًا، مدركًا قيمة ما حصل عليه للتو، انصرف (عبده) دون أن يدفع نقودًا لـ(شريف)، الذي ما لبث أن عاد إلى غرفته، فتبعه (عبد الصبور)... سأله جزعًا:

- هل بعت صندوق جدك؟
- لم أبعه، بل تبرعت به لـ(عبده)...
- وهل أبلغت أباك بذلك؟
- ولماذا أبلغه؟ أعلم أنه يرفض فتحه أو قراءة ما به منذ سنين، فلماذا قد يهمه أمره الآن؟
- إنه ميراثه، ومن حقه أن يعرف أنك بِعته...!
- لم أبعه يا جدي! هذا الشاب الذي أخذه للتو، أنت تعرفه، يعمل مع أبيه في بيع وشراء الخردة، ويشاركه أيضًا في جمع القمامة مع كل شروق شمس...
- أعرفه...
- هو طالب أيضًا بكلية التجارة، ولعلك لا تعلم أنه يعيش فيما هو أشبه بالكوخ في (أرض اللواء).
- وما علاقة ذلك بصندوق جدك؟
- سألني (عبده) إن كان لدي ما يصلح لحفظ كتبه، لأنه يجد صعوبة في حفظها في مأمن، فأعطيته إياه!
- ومذكرات جدك؟
- (عبده) أحق بالصندوق...

كانت تلك آخر كلماته قبل أن يرحل باسمًا تاركًا (الحاج عبد الصبور) غارقًا في دهشته واستنكاره، كان واثقًا أن (آدم) لم ولن يسأل عن

الصندوق، ولكن تصرف (شريف) أرهق ذهنه بحق، وكانت الطامة الكبرى أن يجيئه (آدم) بعد أيام قلائل، يطلب منه مساعدته في البحث عن الصندوق.

- ربما كان على حق.

همس (آدم) بعد أن تلا عليه (الحاج عبد الصبور) تفاصيل ما حدث، لاحظ وجه حميه المرتعب، وأطرافه المرتعدة، فربّت على كتفه صامتًا قبل أن يعود لكرسيه الأثير بالشرفة...

- ألم يرسل خطابًا واحدًا طيلة هذه الفترة؟

رن في أذنيه سؤاله الدائم لأمه، وتذكر هروبها الدائم من مطالعة عينيه إذ تجيبه بذات الكلمات الفاترة في كل مرة:

- ولماذا تظن أنه قد يهتم بأمرنا كي يرسل خطابًا؟

هكذا كانت (دنيا مرزوق) منذ أن غاب زوجها، آلامها أشبه بكرة ثلج تسقط متعاظمةً مع توالي الأيام، مكتسبة غضبًا يزداد يومًا بعد يوم، وشعور بالإهانة تشبث بحواف جرحها الغائر كي لا يندمل عبر السنين، طالما أبدى (آدم) تعاطفه مع أمه، وطالما أخفى تعاطفه مع الأب الراحل محملًا باتهامات الجنون، ملاحقًا بمرير اللعنات.

هو لم يزرها منذ شهر، قلَّت زياراته لها، خصوصًا بعد أن رحلت (حورية)، وقد كانت هي من يعينه على تحمل اتهامات أمه الصامتة، ضاق ذرعًا بما تلقيه عليه عيناها من شك وريبة، وكان جرمه المزعوم، أنه قد يبدو عليه -من حين إلى آخر- ثمة تعاطف، مع أبيه الغائب...

- قلبي ينبئني أنه حي...

كانت تلك الكلمة هي آخر ما أشعل غضب أمه (دنيا)، وقد قالها بعفوية ردًّا على تساؤل (حواء) إن كان أبوهما حيًا أم واراه التراب؟ أزعجها أن يستشعر قلبه أباه، ليخمن إن كان حيّا أم لا! أرهقه ضغطها، ورحلت من كانت تسقيه رحيق التحمل والغفران، فهرب. كان يرسل لها تحيته مع (جنة)، وكانت ترسل له مع (جنة) ما تعلم أنه يشتهي من الطعام... هي

أمه، ولكنها لم تنسَ أنه هجر ثديها رضيعًا، واختار فطامه بعد شهور من ولادته...

يدهشه أن ما زالت تُحَمّله وزر ما أتى به رضيعًا!

- أريدك أن ترافقني...

قالها فهبّ (الحاج عبد الصبور) مسرعًا، سأله وهو يغير جلبابه بآخر حديث الكيّ:

- إلى أين؟
- أنت تعلم هذا الصبي (عبده)، أليس كذلك؟
- أعرف كيف يبدو، وأعرف أباه (عم شحاتة)، هما يقطنان (أرض اللواء) كما تعلم، والعثور عليهما ليس بالهين، أرى أن ننتظر حتى الصباح...
- لا وقت لدي، إن أردت مصاحبتي فليكن، وإن آثرت الانتظار فلا لوم عليك، ولا تظن أنه قد يجمع بيننا خصام أو عتاب.

أغلق (الحاج عبد الصبور) الباب ومضى في صحبة (آدم)، كان يطيعه، كمن يود أن يكفر عن ذنب ارتكبه ذات يوم، وما زال يؤرقه، طرقا باب (حواء)، وتركا لها المفتاح كعادتهما كنوع من الاحتياط، خشية أن يضيع (شريف) مفتاحه مجددًا فلا يتمكن من الدخول قبل عودتهما.

عبر الدروب، يتصفح (آدم) صفحات حياته كما تتصفح أعينه أوجه المارة، يستوقفه أناس يألف مرأى وجوههم، يلقي عليه بعضهم التحية، ويردها على أغلبهم، يسرع حموه العجوز من خطاه، يلحق به حتى يتأبط ذراعه، يستشعر آدم قطرات من رذاذ لم يتضح لها مصدر، يتوغلان في حارات (أرض اللواء)، ينشغل الحاج (عبد الصبور) في سؤال المارة عن منزل (عبده) وأبيه عم (شحاتة) بائعي الخردة، الجميع يعلمهما ولكنهم لا يعلمون لهما سكنًا، كان (آدم) -الذي بدا على مظهرة سمات من علو الشأن، ويسر الحال- قد اجتذب من حوله مسيرات من الصبية وطالبي العون، حين كان يطبع على الأرض الترابية خطاه منفصلًا عن الواقع، مسترجعًا قصة أبيه مجددًا، ربما كانت قصة أبيه، هي من تكثر من

استدعائه، اعتاد ذلك، إلا أن وتيرة الاستدعاءات آخذة في التصاعد منذ رحيل (حورية)...

تسلل إلى مسامعه من أحد المجالس حوارًا مشحونًا حول (وفاء قسطنطين[١٢])، وما قيل عن احتجاز الكنيسة لها منذ خمسة أعوام، وما شاع ويشاع عن قتلها وحرقها، وقف حموه يسأل بعض حضور المجلس عن منزل بائع الخردة، تبسم هو، فبادرة أحد المتناقشين:

- ماذا يضحكك يا أستاذ؟

شرد (آدم)، تذكر طفولته بين يدي عمته (مريم)، وسرَى في جسده خليط من حكاياتها عن أبيه، مرّ سريعًا، حتى توقف عند جملة بعينها، أجاب مخاطبه:

- "عجبت لأمرنا إذ نختال بديننا وكتابنا وكل منا قد نشأ على دين آبائه بغير اختيار! وعجبت لكل ذي دين انشغل بمحاربة كل من على غير دينه عن الانغماس في عبادة خالقه واتباع كامل تعاليمه".

تنافست مظاهر الحيرة مع علامات الجهل في الطفو على وجه محدثه، حيرة نابعة من اختلاف اللغات، وجهل نتج عن ضعف الإدراك وغياب التعلم، سقط الرجل في حيرة استفزته فتنمّر وخطا خطوتين صوب (آدم)، قائلًا:

- الأخ مسلم؟

دهش لسؤال محدثه، وأدهشه أن تذكر كلمات أبيه التي انتقلت إليه عبر عمته منذ زمن لا يذكره، أعاد محدثه السؤال فاستفزه، وود لو يجيبه بما يستحق من توبيخ، ظهر الحنق على وجهه فتنبه الحاج (عبد الصبور) للمحادثة أخيرًا ليتدخل، أزعجته تأكيدات حميه العجوز للجالسين أنه مسلم، ازدادت غضبته، قاطعه الاستدعاء مجددًا.

- مسيحي؟ هل تعنين أنه تنصّر؟

همست (مريم) غاضبة مخاطبة (دنيا)، ووقف هو طفلًا عند باب الغرفة غير الموصد موليًا له ظهره، متفاديًا ملامسة الضوء الخافت المتسلل من داخل الغرفة، خشية أن يفضحه ظله...

- شاهدته جارتي أثناء خروجه من الكنيسة، ولم يكن بها مناسبة فرح أو جنازة...
- وليكن، أيعني ذلك أنه تنصر؟
- وما لمسلم أن يفعل بكنيسة بغير مناسبة؟
- أي شيء غير أن يكون قد تنصر!
- كان يصلي ولكنه لم يكن منتظمًا...
- إذن؟
- لا أعرف يا (مريم)، هروبه، وجنونه، وشكه بي، وما أسمعه عنه، يضاعف من حيرتي وحزني، ألا يكفيني هجران الزوج، ورماح الشك التي أغمدها بصدري قبل رحيله، ليضاف إلى همي همّا كهذا...
- أشعر بجرحك، وأثق بأخي، عقلًا ودينًا وإيمانًا... كان (إبراهيم) من أصغر حفظة القرآن في حارتنا، فلا تجعلي غضبك يشوه ذكرى الأب في أعين أبنائه، ولا تتناسي أنه يوم أن غادر المصحة لآخر مرة، لم يجد أحدًا في انتظاره، وأعقب ذلك اختفاؤه! اخرجي صوره وكتاباته يا (دنيا)، لن يكون بمقدورك طمس ذكراه في عقول أبنائه رغم حداثتهم، فروابط الدم، أقوى مما قد تفرزه الكراهية، ويروج له الغضب... تذكري كلماتي هذه...

تلا ذلك في حينها مشاهد أخرى، وشكوك أعمق، وليال غَيّب فيها رحيل الأب ضوء القمر، وشرود طال عقودًا وعقودًا...

- والله العظيم مسلم...

قاطعته صيحات الحاج (عبد الصبور) واختلطت بكلمات عمته فأنتبه، كاد أن يفقد أعصابه، ولاحظ تدخل آخرين دفاعًا عنه وهو الغارق في شروده، واستحال الأمر وكأنه شرارة لصراع بين مسلمي الحي ومسيحييه،

حافظ على صمته الغاضب، قاطع الجمعَ صراخ صادر من مكان غير بعيد، فانشغل عنه محيطوه، سحبه حموه من يده كالطفل وسارا خلف الجموع المهرولة صوب مصدر الصوت، تتداخل الأسئلة بالأجوبة، حتى استوقفه من خليطهما ما هو كفيل باستدعاء كامل انتباهه...

- ماتت (أم عبده)...
- والله قد أراحها الله بموتها...
- الصراخ قادم من بيت عم (شحاتة).
- يقولون إن المرأة المريضة التي تبيع الخضراوات بجوار المزلقان قد جاءها الأجل...

تنبه الحاج (عبد الصبور) بدوره، فتبادلا حديثًا صامتًا، كان بيت المتوفاة هو ما يبتغون، إلا أن قسوة الظرف تعوقهما عن استكمال ما جاءا من أجله، ظلا في موقعهما في مؤخرة السائرين، بدأت سحب البشر تنقشع فور الإعلان عن حضور الحانوتي، ميز حموه وجه (عبده) الباكي عند مدخل المنزل، جدران المنزل إسمنتية يظللها سقف من صفيح استعمره الصدأ الأحمر، ثمة ثقب أو ثقبان في طياته، وربما يكشف ضوء النهار عن المزيد من الثقوب، المنزل يتكون من حجرة واحدة، يقع على ميسرة الباب ما يستنتج من أرضيته المبللة أنه مرحاض استبدل ببابه ستارة صفراء بالية، مرتبة في ركن المنزل تكوم فوقها ثلاثة أطفال ينشجون بالبكاء، على يمينهم يرقد جسد المتوفاة وقد غُطي بعباءة سوداء فوق ما بدا وكأنه سرير منخفض الارتفاع، دهش (عبده) لمرأى الحاج (عبد الصبور) و(آدم)، بلل دموعه وتقدم لمصافحتهما، وقد أعلى من شأنه تصوره أنهما -وهما من علية القوم وفق تقديره- قد جاءا خصيصًا لمواساته، وبمثل هذه السرعة!

ارتصت الكراسي الخشبية في مدخل المنزل دون أن يتضح لهما كيف تمت هذه الترتيبات في غضون دقائق! أجلسهما (عبده) في مقدمة المعزين على سبيل التفاخر، أزاح الحانوتي وصبيته جسد المتوفاة من موضعه، ونقلاه

إلى المرتبة بعد أن أخذت إحدى السيدات المتشحات بالسواد الأطفال المذهولين خارج المنزل، لم يهتم أحد بإحكام إغلاق الباب، دخلت سيدات أخريات، وغادر الحانوتي وصبيته واصطفوا وسط المعزين، كانت عملية الغسل تتم على منضدة خشبية أتت بها النسوة وشغلت كامل مساحة الغرفة، فكانت مياه الغُسل تنفذ من أسفل الباب نصف الموصد، وتمر تحت أقدام المعزين، غاب جثمان المرأة عن بصر (آدم) واستقرت حيث لا يمكن رؤيتها، ظل سريرها واضحًا لمن يجلس مثله بجوار الباب، وبعد أن صار سريرها فارغًا، تمكن من تمييز مكوناته، فهو بالأساس ليس سريرًا، بل هو قفصين خشبيين مما يستخدم في تخزين الخضراوات، وضع إلى جوارهما صندوق أبيه الصدفي ليستحيل ثلاثتهما سريرًا، رصت فوقه بعض الأقمشة، ورحلت فوقه أم (عبده)...

همس لحميه ينبئه بكشفه العظيم، دمعت عينا الرجل العجوز، إذ أملت عليه ذاكرته مواقف شبيهة عدة، لأحباب رحلوا: الزوجة، الأب، الأم، وأخيرًا ابنته ووحيدته، أومأ برأسه أنه رأى الصندوق بالفعل. انتهت عملية الغسل، ووافق عم (شحاته) تحت ضغط أن ينتقل جسد زوجته الراحلة بعد تمام تكفينه، إلى منزل جارته (أم صبحي)، حيث أن ببيتها مروحة مثبتة في السقف، ستساعد في حفظ الجسد حتى يجيء الصبح ويتم الدفن... شرع أهل الحي في المغادرة، نما إلى مسامعه جدل بين عم (شحاتة) والحانوتي حول ثمن الكفن وأتعاب الغسل، لم يشعر إلا وقد مد يده ووضع نقودًا في جلباب بائع الخردة، همّ الرجل ليشكره، فاستوقفه أنه لا يعرفه.

- من أنت سيدي الفاضل؟

لم يعرف بما يجيبه، وشعر بخجل يعتريه لحقيقة أنِ قدومه هنا، بالأساس، كان لاسترداد صندوق، صنع منه (عبده) لأمه سريرًا، لقيت ربها عليه...

- مررت بالمصادفة، وميزت وجه (عبده) فأردت المساعدة، أرجو أن تقبل مساعدتي...

تدخل حموه في الحديث وشد على يد الرجل المكلوم، مر بعض من الوقت، استدعى فيه (آدم) ذكريات أخرى، حتى سمع حماه يهمس مرتعدا:

- هيا...

تنبه فإذا بالحاج (عبد الصبور) يشير له صوب الصندوق الصدفي وقد صار المنزل خاوياً، تردد، ثم حسم أمره...

- لن أقوىٍ على ذلك، للبيوت حرمات، وفوق كل ذلك، فإن أغلب ظني، أن روحا هائمة ما زالت بالمكان، ولا أود إزعاجها.

تسلل حموه مغلوباً على أمره، بعد أن نهرته عيناه بما يستدعي الأمر، أوشك الطفل بداخله على إحراجه إذ حثه بجرأة فريدة على أن يبتسم في موقف كهذا، ولكنه تماسك، حتى وأد ابتسامته الحبيسة صوت الحاج (عبد الصبور) الملتاع من داخل المنزل.

- الصندوق فارغ يا ولدي...!

(٥)

عمَـاد[١١]

الإسكندرية - ٢١ يونَيو ١٩٣٦

بدا التسامح جليّا على قسمات يسوع في مجلسه وسط تلامذته الاثني عشر، كان الأمان القابع في مقلتيه لا يعكس بأي حال حقيقة الموقف، ولكنه كان قادرًا على بثّ الأمان فيمن حوله حتى وهو يقصّ عليهم أن نهايته قد دانت، وأنه قد قُدِّر له أن يلاقي الويلات بعد سويعات قُصر، بدت الدهشة العارمة على وجوه معظمهم، شرع يلقنهم طقوس التناول، وأخبرهم النبي أن أحد مجالسيه خائن سيبيح لليهود دمه، تساءل محيطيه عمن يكون...

- سيدي...

قاطع الصوت الآتي تدفق الأفكار في مخيلة الكاهن، وأنهى شروده في لوحة (العشاء الأخير[١٣]) التي تكاد ألوانها أن تشع بريقًا ونورًا فوق مذبح الكنيسة، هو لا يذكر كم من مرة شرد في هذه اللوحة التي يطالعها كل يوم منذ سنوات، طالما استعاد المشهد في مخيلته، وطالما أراد أن يتدخل في المشهد بكلمة أو بضع كلمات، ولكن إيمانه العميق رغم صدقه وقوته، لم يمكنه من الانصهار يومًا في ألوان اللوحة كما تمنى...

- خيرًا يا (إنيانوس)!

أجاب الشمّاس[١٥] دون أن يدير ظهره ليطالعه، فقط أزاح عينيه عن اللوحة ليستقرا على الصليب المعلق أسفلها...

- كاهن من القاهرة يود رؤيتك، برفقته رجل يحمل رضيعًا، قالا إن أباه ليس أحدهما.

قطب الكاهن حاجبيه، وأشار للشماس أن يأذن لهما بالدخول لملاقاته.

- "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم

أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فإنكم تعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم".

تخيل صوت المسيح يخاطب محيطيه، طالع اللوحة لمرة أخيراً واحتضنت عيناه ألوانها الأخاذة وكأنه يودعها، وابتسم بما يعني أن وداعهما مؤقت...

- سلام يا أبونا.
- سلام ونعمة.

قالها (يوحنا) كاهن كنيسة شبرا، فرد عليه كاهن الكنيسة المرقسية[١٤] السلام بصوت رخيم، آثر (نوح البنداري) الصمت كما اتفق مع (يوحنا)، أطرق أرضًا وأسلمه دفة الحديث...

- هذا رضيع مسيحي، عمره سبعة وأربعون يومًا، لا أب له ولا أم، ولا ندرك أنا وصديقي هذا لأي من أهله سبيلًا، بحثنا عن أي منهم طيلة أربعين يومًا، ثم رأيت أن أتمم عماده وألا ننتظر أكثر من ذلك...
- أنت تعلم أن حضور أبيه أو أمه أو أي من أقاربه ضروري لإتمام ذلك يا أبونا...

رجف قلب (نوح) إثر رد الكاهن على (يوحنا)، أجابه الأخير:

- يا أبونا، الرضيع لا يرضع إلا قليلًا، وهو يرفض أن يلقم أثداء أهل حارتنا ممن تطوعن لإنقاذه، أخشى ما أخشاه أن يفارق دنيانا دون إتمام عماده.
- ولمن أسلم شهادة معموديته يا أبونا؟

تنفس (نوح) الصعداء، فتدخل في الحديث:

- يا أبونا، لك علينا ألا يتسلم الشهادة إلا فرد من أهله، ونحن مستمرون في بحثنا الحثيث عنهم إلى أن يشاء الرب أن نلقاهما.

نظر الكاهن صوب (نوح) وكأن مقاطعته للحديث بين الكاهنين قد كشفت عن وجوده لأول مرة، حملت نظرة الكاهن استفساراً عمن يكون، ثم أردف:

- ولِمَ لم تعمِّداه في القاهرة، فالكنائس في قاهرة المعز شتى، فما دفعكم لسفركم هذا؟

تسابقت دقات قلبيهما متسارعة وكأنها تصبو لأن تتجاوز الزمن واثبة عبر اللحظة، توهم (يوحنا) أن دقات قلبه ربما تكون مسموعة، أطرق (نوح) أرضًا من جديد، عبر (يوحنا) مخاوفه بقفزة سريعة:

- يا أبونا، الحق في الأمر أن من وجد الصبي مسلم، هو صديقي هذا، هو كان يعلم أبويه، ويعلم أنهما فرا من (شبرا) وتركاه فور ولادته، تركاه أمام بابه هو لعلمهما أنه هو فقط من يعلم أن الصبي مسيحي، وقد حمل الرجل الأمانة على عاتقه حتى استعان بي، لم يكن بمقدوري تعميده بكنيسة (شبرا) حيث سيثير الموقف تساؤل الجميع، وخشي كلانا أن يلقي الحظ العاثر أمامنا بجارٍ أو قريب لصديقي، في مهمتنا هذه، إذا ما قمنا بها فى القاهرة، فنصحته بالقدوم هنا إلى الإسكندرية...

- أشكر لك سمو أخلاقك ونبل مقصدك يا أخي.

قال الكاهن محدثًا (نوح)، الذي شعر براحة من أدرك قرب حلول الفرج، في ذات الوقت الذي أخذ فيه (يوحنا) يتمتم بكلمات الاستغفار والندم على كذبه، كان يعلم أنه يكذب انطلاقًا من صداقته لـ(نوح)، يعلم ككاهن مسيحي أن ما يفعله محرم ولا يجوز، ويعلم أيضًا أن ما يفعله (نوح) قد حرمه عليه إسلامه شديد التحريم، ويثق أنه يحيا لحظة جنون يود أن تنتهي بأسرع ما تتيح له الأقدار.

- ولكن سامحني يا أخي، فلا يجوز لك حضور العماد.

أردف كاهن الكنيسة المرقسية، فلم يعترض (نوح)، وأومأ برأسه أن ما يريده هو تعميد الصبي، ولا حاجة له بحضور العماد.

"وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية".

رنت وصايا المسيح في أذني كاهن الإسكندرية مجددًا، غادر بصحبة (يوحنا) يحملان (إبراهيم) صوب غرفة التعميد، ظل (نوح) قابعًا في صحن الكنيسة، جلس على أحد المجالس الخشبية المتراصة في أربعة صفوف بطول الصحن، أخذ يطالع لوحة العشاء الأخير بدوره، تمتم بآيات من سورة مريم: "فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا".

يؤَرقه الشك! ويبدل يقينهَ ما بين لحظة وأخرى، يقاومه، فيخاطب الذات مؤازرًا:

- اثبت، فكم من قوم دفعهم الشك إلى غير ما أرادوا! وكم من أناس سحقهم الشك في ذروة عصفه بالعقول!!

للشك ضجيج، وكأنه لصخرة ذات حواف مدببة تنحدر متسارعة من قمة الجبل، تتبع المرء إن استدعى شكه كظله، وتظل مطاردة لخطاه، حارصة على وخزه بين الحين والحين، تُحيد خطاه عن طريق، ثم تعود لاجتذابه لذات الطريق، ثم لا تلبث أن تدفع المرء إلى طريق آخر، تُخيَل له الكثبان جبلًا، وتصور لظنونه الطريق الوعر وكأنه ممهد، مسدل على البسيطة كثوب من حرير... يدور في مدارات تتراص في مساراتها نقائض الفكر والتدبير، حتى يستقر فوق فلكه الأول، فيهزم الشك، ويجلس لاهثًا وقد أضناه دفعه بعيدًا عن دروبه.

- سلام عليك يا نبي الله.

تمتم متهدج النبرات وهو يطالع وجه النبي في اللوحة، غادره (إنيانوس) الشماس بعد أن تبعه عدة شماسين للتأمين على كلمات الكاهن في صلاة المعمودية، هو يعلم أن أول من آمن بالمسيحية في مصر كان إسكافيًا يدعى (إنيانوس)، وكان أول من أقام كنيسة كذلك، ود لو سأل الشماس الصبي إن كان يعلم عن اسمه تاريخه، إلا أن الظرف الذي أتى به إلى هنا

حال دون ذلك... أُضيئت شمعات سبع في غرفة التعميد، وانتشرت روائح البخور المميزة لهذه الطقوس...

- "اذكر يا رب سلام كنيستك الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية هذه الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها. كل الشعوب وكل القطعان باركهم السلام الذي من السماوات أنزله على قلوبنا بل وسلام هذا العمر أنعم به علينا إنعامًا".

يرسو على أذنيه صوت الكاهن الرخيم قادمًا من حيث يُعَمّد ولده، مرددًا للأواشي الكبار، يتساءل مجددًا عما يفعله، أهو على حق أم ضلال؟ ماذا سيقول له شيخه (الرفاعي) الذي ينتظرهما بالخارج حين يفرغان مما أتيا لأجله؟ تمنى لو كان شيخه إلى جواره الآن، إلا أن طبيعة زي (الرفاعي) الأزهري، والذي رفض بأي حال من الأحوال أن يبدل به زيًا آخر، جعلهم جميعًا يؤثرون عدم مصاحبته لهم...

- اللهم اهدني صواب الطريق، وهبني من لدنك معرفة وزدني علمًا، اللهم ما أنا بفاعل ما أفعله إلا إرضاء لوجهك، اللهم إن كنت على ضلال من أمري فاجعل لي من رحمتك نورًا يرشدني في حيرتي، ويعينني في ضعفي، واستظل به من حرقة شموس الظنون والشرور، اللهم أنت الخالق الواحد القهار، أنت الله، وأنت الرب، وأنت الإله، فاغفر لي إن أردت التقرب إليك في كل بيت من بيوتك، إن كان بذلك ما لم يستوعبه عقلي من انحراف عن الصراط المستقيم، اللهم أنت الحكم فأنزل بي حكمك، وإني وعزتك وجلالك لراضٍ بما تنزل بي من عقاب، زاهد فيما تُثيبني، اللهم إن رضاءك قبلتي، فاهدني صحيح المسار إليه...

الكاهن يغمر جسد (إبراهيم) في الماء المقدس ثلاثًا، يغمس منه الجسد دون الرأس مرتين، ثم يغمس كامل الجسد والرأس في المرة الثالثة فلا يفزع الرضيع ولا يبكي...

دمعت عينا أبيه الجالس على مبعدة أمتار منه يناجي ربه، وإن ظل وجهه باسمًا...

- باسم الآب والابن والروح القدس، مسحة نعمة الروح القدس، آمين...
الكاهن قد بدأ في رشم (إبراهيم)، بلل إبهامه الأيمن من قارورة الميرون المقدس، وشرع يرشم رأس الرضيع، ثم يرشم فتحتي الأنف، ثم فمه، ثم أذنه اليمنى فعينه اليمنى، تلا ذلك بعينه اليسرى وأخيرًا أذنه اليسرى...
- طوباهم الذين تركت لهم آثامهم والذين سترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لم يحسب له الرب خطيئة...
تماوج صوت الكاهن، أو خفت فبات ملاحقًا بالأصداء، حين مرت أطياف عديدة أمام (نوح)، تهلل وجهه لرؤية بعض منها، وأزعجه رؤية وجوه أخرى، توقف أمام وجه ابنته (مريم)، وتبسم، متذكرًا تسميته لها (مريم) تيمنًا بسورة (مريم)، إحدى أحب سور القرآن إلى قلبه، تعجب، فكم التناقضات التي يلقي بها القدر بين صفحات كتابه ترهقه، إذ لم يتصور وهو يسمي ابنته (مريم) أن يكون لها يومًا، أخًا عُمِّدَ في كنيسة!
- ستسافر إلى القرية مجددًا؟
سألته بنت السنوات الست، حين كان يتابع (جميلة) وهي تحضر حاجياته لرحلته هذه، ارتابت الصغيرة في أمره، ولم تشك (جميلة)، وكم هي جميلة في عشقها له، تمنحه قدسية خاصة وتحيطه بهالة من تقدير وإجلال يعتز به، هي لا تناقش، ولا تعترض، وغاية أملها ألا يغفو له جفن في مرقده إلا وهو راض عنها تمام الرضاء، أخذ يعتصر ذاكرته بحثًا عن زلة لـ(جميلة) فلم يجد، تسللت ابتسامة جديدة واستقرت على طرف الزاوية السفلى لشفتيه، شعر نحو زوجته بامتنان حقيقي، حتى قاطعه طيف (عزيزة)...
- آمين.
الشمامسة يؤمنون على صلوات الكاهن، يواصل رشم الرضيع الحائر في أمره، ويكرر دعاءه مع كل مجموعة من مجموعات الرشم الست، يبلل إبهامه بالميرون مجددًا، يرشم القلب والسرة والظهر ثم الصِلب، يلي ذلك بأن يكرر بلّ ذات الإبهام، يمر على جسد (إبراهيم) المستكين محدقًا في

وجه الكاهن، يرشم مفصل كتفه الأيمن ثم الإبط الأيمن، فمفصل الكوع الأيمن ومثناه، فمفصل الكف الأيمن وأعلى الرسغ منه، تتابعه حدقتا (إبراهيم) في ألفة من لا يدهشه الأمر، يعيد الكاهن رشمات الكتف اليسرى وما يتبعه على الكتف اليسرى وما تبعه، يتثاءب الرضيع الهادئ فيتبسم الكاهنان، ويبادلهما (إبراهيم) الابتسام... يتحسس (نوح أفندي) موضع خطاب (عزيزة)، يطمئن قلبه إثر ملامسة أنامله لطرف الخطاب المطوي بعناية كعادته، طالما كان هذا الخطاب مصدر أمنه وسكينته، وساتر خوفه، وطامس معالم حيرته الدفينة، ورقتين باليتين، ينعتهما شيخه (الرفاعي) ضاحكًا بـ"حجاب العشاق، ومدثر القلوب من عصف الافتراق"، لا تزعجه سخرية شيخه، ويميل للإيمان بما لهما من وقع في قلبة يكاد أن يتماس مع قصص السحر والسحارين، تصادف له أن حضر بضع جلسات لفك السحر من قبل، وقص عليه (عباس) السقا العديد من هذه القصص، إلا أن خطابه هذا ظل أكثر اقترانًا بالسحر في مخيلته، بما يبثه في روحه من موسيقى صامتة، تنساب في خلاياه فتُحسّ ولا تُسْمَع، اجتهد من قبل ليحلل سر هذا الخطاب، إلى أن انتهى به الأمر بأن اكتفى بما يلقي به الخطاب في نفسه من أثر، دون اكتراث بما جعل له ذلك التأثير.

الكاهن يشرع في رشم مفصل الفخذ الأيسر، فيمر على حالبه الأيمن، ثم مفصل ركبته اليسرى، ومثناه، ثم مفصل عرقوبه الأيسر وأعلاه، يلي ذلك بأن يكرر رشم نفس المواضع في الجانب السفلي الأيسر من الجسد.

استرجع عميق ألمه يوم أن وَلَدَتْ (جميلة) (مريم)، وكيف كان -رغم علمه واعتداله- حزينًا لكون المولودة صبية، وخزت الذكرى ضميره فتفاعل مع الوخزة وكأنها أصابت جسده، عدل من جلسته إثر ذلك، تبسم، وتذكر صغيرته، وكيف كان مقاطعًا لها في أسابيعها الأولى، حتى أمسى وجه (جميلة) يصرخ خزيًا وخجلًا بمرآه، وقد فشلت في إنجاب صبي تتوق له نفس زوجها، وحبيبها، وسيدها، أكثر من أي شيء آخر، اتسعت ابتسامته، واستعاد احتضانه لـ(مريم) قبيل سفره فجر هذا اليوم،

وقد أمست أقرب الأقربين إلى قلبه بعد أن رفضها ذات القلب الخطّاء قبيل سنوات ست...
يتلو الكاهن صلواته الأخيرة وهو ينتهي من تعميد الرضيع الباسم، ينظر صوب (يوحنا) بشيء من الارتياب، وقد بدا له جسد الرضيع صحيحًا لا تشوبه علة أو ضعف أو هزال، بما يتماشى مع كلمات الكاهن الآتي من القاهرة، محاطًا بالريبة، ملاحقًا بالمجهول، تحاشى (يوحنا) لقاء أعينهما وتشاغل بتجهيز الرضيع للمغادرة.
غادرا غرفة التعميد، وتركا سر ما دار فيها حبيس جدرانها، هكذا اتفقت عيناهما وقد أيقن كلاهما أنه قد فضح أمر الآخر واطلع على سره، لقيا (نوحًا) في صمت، شكر الأخير كاهن الكنيسة فرد باقتضاب:
- الشكر للرب في الملكوت، منحته اسم القديس (يوليوس) في عماده.
يقول فيسرع في وداعهما، ظل (نوح) وخليله (يوحنا) صامتين طيلة طريقهما منذ أن غادرا الكنيسة، رحب الشيخ (الرفاعي) بقدومهما، ألقى عليهما سؤالًا حول إتمام ما جاءوا من أجله من عدمه، فأومأ (يوحنا) إيجابًا.
- ارتاح قلبك؟
سأل الشيخ (نوحًا) فابتسم...
- صار له ولد اسمه (يوليوس) يا شيخ.
مازح (يوحنا) رفيقيه، فضحك (نوح) وأجاب السؤال الأول:
- نعم، ولكنني أثق أنك تعلم أن رحلتنا لم تنته.
كانا قد اتفقا على التوقف بـ(طنطا) في عودتهم، لمباركة الصبي في حضرة السيد البدوي[١٦]، بعد أن تمت مباركته في مسجد الإمام الحسين قبل أيام، أكد (الرفاعي) مقولة (نوح) الأخيرة، فسأله (نوح):
- أيكون ولدي بهذا قد تنصر يا شيخي؟
يبتسم الشيخ العجوز، تتسع ابتسامته فيضحك:

- والله ما عدت أعلم شيئًا، فقط أعلم أنني مخبول أرافق مخبولين في سباق خبال محموم لا فائز فيه.

يضحك (يوحنا) و(نوح)، وينطلق ثلاثتهما، يسابقون غروب الشمس التي بدت في قلب السماء، وكأنها لوحة ذابت ألوانها، فاحتست السماء لونها البرتقالي في رشفات متتالية، حتى غاب قرصها، وارتوت السماء العطشى بنورها الآخذ في النعاس.

(٦)

كَشْـف

القاهرة - ٥ أغسطس ٢٠١٠

"كم هو مرير ذلك الذوبان!
أحاول أن أتذكر ملامحها، أراها شابةً كما كانت في صورها القديمة، تغازلني ريشة الزمن، أمسك بها وأشرع في إضافة ذكرياته وتذكاراته على وجهها، ينثر القدر في ثناياها رياح المرض، فيقتلعها من مخيلتي، وتذوب صورة كنت قد أوشكت على إتمامها، تعود هي لإطارها، مكسوة بالسواد والبياض، لينسحب من ناظري كل لون غيّبه رحيلها...".

دهش (آدم) بمطالعته ما كتبه (شريف) في مفكرته، كان قد عاد محملًا بإحباطات الفشل، مترنحًا بفعل صفعة الواقع التي تلقاها في (أرض اللواء)، واقع الحيرة، وحيرة الواقع، وكم شعر بمرارة لما رآه في رحلة بحثه القصيرة عن صندوق أبيه، وقد غمدت مشاهداته في قلبه ألف سؤال، وألف لوم، وما انفكت تؤنبه دون إيضاح بما ارتكب من ذنب، لوعة (عبده) لفراق أمه، وسريرها المؤلف من صناديق وخردة، نقل الجثمان، جشع الحانوتي، ضيق ذات يد الزوج... لم يعرف لحيرته جوابًا، فقط شعر أنه لا بد أن يشعر بالخزي لمرأى أناس يعيشون في مثل هذا الحال.

عاد فلم يجد (شريف)، فقط علم أنه قد أتى بـ(جنة) إلى منزل عمته ثم انصرف دون إخطار بموعد عودته، وهي عادته، لم يعرف لماذا قادته قدماه إلى غرفة (شريف)، لم تطأ قدماه هذه الغارفة منذ أسابيع، ولم يدخل (شريف) غرفته منذ أن رحلت (حورية) إلا فيما نَدُر.

"الحب... كما قال جدي، داء ودواء، لسعة عقرب وترياق، يرى كل عاشق في قصته تفردًا عن باقي الحكايات، وأنا أحد هؤلاء! فعندما أعشق من تكبرني بأربعة أعوام، يكون الأمر متفردًا! الجينات تلعب دورها فأسخر من مصيبتي كما اعتاد جدي الغائب، لعله حي الآن،

فهل سيقرأ ما أكتب أنا اليوم؟ لا أعتقد، فجدي ليس لديه ما يعود لأجله إن كان حيّا، فأبناؤه قد تجاهلوه ولم يأبهوا لغيابه ليبحثوا عنه، فقط أنا و"جنة" نبحث عن جدنا، وهذا ما أوصتنا به أمي أيضًا...!".

كان (آدم) يقفز بين السطور منتقلًا من موضع لآخر، آلمه حديث (شريف) عن (حورية)، فهرب من بين كلماته حتى صفعته كلمات أخرى عن أبيه، ثم توقف! هل قصد (شريف) (جنة) حين تحدث عن عشقه لمن تكبره؟ هل قرأ (شريف) و(جنة) مذكرات أبيه بدورهما؟ قالت (حواء)، ان (حورية) قد قرأتها تنفيذاً لوصية عمته (مريم)، فهل قرأتها عمته بدورها؟ هل قرأها الجميع.. إلا هو؟

- لا أرى ما تفعله صوابا.

صارمًا جاءه صوت (الحاج عبد الصبور) هذه المرة، معترضًا على قراءته لما دَوّن ولده، واقتحامه لخصوصيته.

- أبحث فيها عما يدلني إلى مذكرات أبي.
- أرى أن ننتظر حتى يعود.
- لا أستطيع...
- تركتها كل تلك السنين، فلا بأس من بضع ساعات إضافية.

دقت كلمات حميه العجوز كالمطارق على رأسه، وبدأ يستشعر تغيراً في لهجته، هل قرأ بدوره المذكرات...؟

"قالت أمي إن أبي إذ يهجر الماضي، فإنه بذلك يقطع درب المستقبل ويعيق المرتحل فيه، ويجعل السير فيه عثرا، وقال جدي إنه يثق بأبي، ويوقن أنه له من المصدقين وإن تكالبت عليه شرور الآخرين، ولم يذكر أبي جدي إلا قليلًا، فمن منهما قد خذل الآخر؟".

لا تزال بلاغة (شريف) تأسره، وتحيره، يتشرب منها قطرات من آخر كلمات أبيه، ثمة تشابه في الخطاب، ولكن من أين أتى ابن السبعة عشر ربيعًا بهذه اللغة العربية السليمة؟ أغلق مفكرة ولده الشاب، دارت به أركان الغرفة، شعر بدوار فاستند على (الحاج عبد الصبور)، يمسك به

حموه ويقوده إلى مكتب (شريف) مجلسًا إياه على كرسيه، يتركه ويعود حاملًا كوبًا من الليمون أعده في عدة دقائق لم يشعر هو بها، الزمن يتسرب هاربًا من مسامه، تنهال على رأسه مقاطع لأحاديث من هنا وهناك، تتكاثر الأصوات وتتشابك، تجمع شظايا مرآة الماضي المحطمة، فتعكس له الحقيقة الغائبة، تهمس حورية:

- ربما أنت تظلمه كما ظلمك هو، ربما نفيته من عقلك أكثر مما اختار هو أن ينفي جسده!

يجادل، ويؤمن بما يقول، ثم لا يلبث إيمانه أن يذوب على شواطئ الاشتياق، قاطع الماضي، فقاطعه الحاضر، وبات المستقبل مُضببا باهتاً، يفتقد دوافع الاستكشاف. هذا ما حدث، متى كانت آخر مرة تقرب فيها إلى (شريف)، متى حاول أن يزيح ما جثم على روحيهما من قطيعة غير مبررة ولدت برحيل (حورية)؟ هل يصدق ما يسر به لنفسه أنه فعل ما بوسعه لاحتواء لوعة من صار يتيم الأم بين ليلة وضحاها؟ هل عمل على أن يكون له الأب والأم؟ هل عوضه عنها؟ وإن عوضه عنها، فمن يعوضه هو فقدانها؟ يتكئ برأسه على الخزانة غير الموصدة خلف الكرسي، فتُفتح إحدى ضلفتيها، يلتفت ليغلقها، فيلمح ما رتب داخلها بإحكام، لتزداد حيرته! روايات بهاء طاهر [١٧]، محمد المنسي قنديل[١٨]، إبراهيم أصلان[١٩]، يوسف زيدان[٢٠]، مكاوي سعيد[٢١]، خيري شلبي[٢٢]، أعمال نجيب محفوظ الكاملة[٢٣]، وغيرها من الأدب المترجم لجارثيا ماركيز[٢٤] وباولو كويليو[٢٥].

الروايات مقسمة وفقًا لكتَّابها، والأعمال ذاتها مرتبة من الأقدم إلى الأحدث، ترتيب ملفت وعناية فائقة، ولكن...! متى قرأ ابنه كل هذه الروايات، ميز بين الروايات ما يخص (حورية) وميز أيضًا أعمالًا لديه هو نسخة أخرى منها، فلماذا لم يقرأ (شريف) نسخته هو؟ ولماذا آثر أن يشتري غيرها؟ كان هذا ما ميزه من المتاح أمامه في الخزانة، وقد كان هناك رف آخر موصد، يتوِّجه قفل نحاسي يعني أنه ما بداخله فائق

الخصوصية... هوى في أعماق حيرته، زلزلته التساؤلات، ألهذا الحد لم يعرف ابنه؟ هل انعزل عنه؟ أم أن (شريف) هو من آثر الانعزال عنه؟ هل أخذت (حورية) معها كل ما هو بهي في هذه الأسرة، تذكر مداعبته لـ(شريف) رضيعًا، وتذكر أولى خطواته. غادر الغرفة، استلقى على سريره في غرفته، التقط في طريقه بين الغرفتين ألبوم صور (شريف) الذي كانت (حورية) تحرص دومًا على إضافة المزيد من الصور إليه مع كل عام يضاف إلى عمره، كانت دائمًا ما تخبره أن هذا الألبوم سيكون هديتها إلى عروس (شريف)، طاف بين الصور، تجول عبر الأزمنة والأمكنة، رأى نفسه شابًا، ورأى طفولته في طفولة ابنه، مع مرور الصفحات، يكبر (شريف)، يستحيل الرضيع طفلًا، يغدو الطفل ولدًا يافعًا، ويصير الولد اليافع شابًّا نمت شواربه على استحياء وكـأنها تخشى مفارقته للطفولة بغير عودة، نظرات (شريف) تتبدل، وابتسامة الطفولة تذوب عبر الصفحات، لم يضف إلى الصور أية صورة منذ أن رحلت (حورية)، صورة ما قد أضيفت، يظهر فيها (شريف) حاملًا باقة ورد بجوار قبر أمه، وكأنها خاتمة الصور، متى التقطت هذه الصورة؟ ماذا يحدث؟ هل غاب عن الحياة عامًا فارقت خلاله روحه لجسده رفقة حورية، هل غاب عن الوعي وغَيّب إدراكه طيلة تلك الفترة؟ يشعر بإحباط شديد، يقاطعه حماس حقيقي مفاجئ، يتنقل بين النقيضين، ينتابه الحماس فيود لو يفعل شيئًا يعيد إليه ولده، يتقمصه كبرياء الأب فتغلبه قلة الحيلة ويعود إلى إحباطه...

- والله لو مد الله بعمري، لجعلت لـ (شريف) زفافًا أضخم من (أوناسيس)[٢٦].

يتذكر كلماتها الواهنة وهي طريحة فراش الموت، يتذكر أن طمأنها بأنها حتمًا ستعيش لتنفذ أمنيتها هذه، تتبسم ساخرة وهي الموقنة بحقيقة مرضها، يدمع، ينتابه شعور عارم بالضعف إذ يتذكر أن الأطباء حين صارحوها بحقيقة المرض وأطلعوها على ما تبقى لها -علميًا- من أيام في هذه الدنيا، طلبت هي منهم عدم إخباره، وظل هكذا إلى ما قبل الرحيل

بشهرين. كان يعلم أنه السرطان، ولكنهم أخبروه أن ذاك المرض اللعين لا يزال في مراحل مبكرة والقضاء عليه من الإمكان بمكان، كل مريض يدرك أطباؤه قرب النهاية، يخبرون ذويه ويخفون الأمر عنه، أما هي فقد كانت دائمًا الأقوى، علمت بنهايتها وهي المريضة، وأخفت عنه هو الأمر قدر ما استطاعت، هل علم (شريف) بحقيقة مرض أمه قبل أن يعلمها هو؟

يقاطعه التساؤل، يتذكر صلاة الجنازة، كان هو من يؤم المصلين، وآثر (شريف) أن يقف في آخر الصفوف، يومها بدأ التوتر في علاقتهما، تمنى لو لم ينهره في حينها لعل ذلك ما أغضبه، ثم يعود ليقر أن الأمر حتمًا سبق تلك الواقعة بزمن لا يعلمه، لماذا لم تخبره (حورية) إن كانت قد لاحظت ثمة فتور في علاقته بوحيدهما؟

يبحر مجددًا بين الصور المتموجة، ويمضي عكس الزمن هذه المرة، يبدأ من آخر الصور عودة إلى أولها، فيبدو له الماضي أبعد مما يظن، (حورية) تكاد تنطق فرحة في بعض الصور، صورة لها مع (شريف) في المستشفى تستوقفه، من أخذ هذه الصورة؟ تستفزه كثرة التساؤلات، يشعر بالغربة، ينتابه الغضب...

- أنا من صورتهما هذه الصورة إن كنت تتساءل...

تقاطعه (جنة)، فيلتفت ملقيًا عليها ابتسامة واهنة متوترة تصارع للرسو على شفته فلا تقدر، تجلس إلى جواره، يلمح من خلفها (الحاج عبد الصبور) و(حواء).

- هل تعلم متى كانت آخر مرة غادرت فيها المنزل؟

تبادره أخته بسؤال اقترن بابتسامة لم يألفها منذ سنين، يعلم أنها لم تغادر منذ قرابة العام، منذ رحيل (حورية).

- عمي، أخبرني (الحاج عبد الصبور) أنك لست على ما يرام، أصرت أمي على الصعود للاطمئنان عليك، أما أنا فجئت لسببين، أولهما مماثل لأمي، وثانيهما أنني خشيت أن تصطدم بـ(شريف) حين يعود...

ينظر إلى حميه لائمًا إثر كلمات (جنة)، تتدخل (حواء):

- قص علينا ما قد صار، وما تلا سؤالك المفاجئ عن أوراق أبينا، فعلمت أنك قد تكون مستعدًا اليوم.

ينظر لها بحيرة، يقاطع سعال (الحاج عبد الصبور) سؤال كان قد شارف على الدوي في سماء الغرفة، تستوقفه أخته بإشارة من كفها، يغادر حموه الغرفة مطرقًا...

- لا تشغل بالك بالتفكير، فما مر بك منذ رحيل (حورية) لا يقوى على تحمله أغلب العاشقين، أنت تعلم أن علاقتك بولدك متوترة، وهو يعلم ذلك أيضًا، ولا بد من نهاية لهذا... لم تكن (حورية) لترضى بوضع كهذا.
- أنا لم أقاطعه، هو من هجر عالمي ونسج عالمًا آخر، هو من استقر في شرنقة صنعها لنفسه بغياهب هذا العالم هربًا مني، أنا لا أعلم هذا العالم الذي يسكنه كي أبحث عنه، أو كي ألتقيه، لم أقترف ما أستحق عليه هذا، أشعر بمرارة، ولا أريد أن أنعته بالجحود فهو لا يزال صغيرًا، أشعر أنني لا أعرفه وقد كان لي منذ عامين من أقرب الأقربين، ربما شغلني مرض (حورية) عنه عامًا، ربما كسرني رحيلها فعزفت عن التقرب إليه عامًا آخر، ولكنني أردته إلى جواري معينًا، فلم أجده...

يجيب، تترقرق في عينيه دموع، تجيبه (جنة) بثبات لا يتناسب مع عمرها:

- قد حُرمت من الأب في عمر مبكر، ولعلك دون قصد، قد حرمت ابنك مما مزقك أغلب عمرك، أبوك قد غادر فحُرمت منه، أما هو فأبوه حي يرزق، ولكنه لم يجده في أصعب الظروف...

يبهت للتشبيه، يبلل جبينه العرق، يصد الهجوم بهجوم مضاد:

- هو من هجرني، أما أنا فقد فارقتني الروح يوم رحيل (حورية)، أشعر أنني جسد فحسب، جثة تنتظر أن يواريها التراب فيجمعها بمن تحب... (شريف) يعلم أنني أحبه حبًا جمًّا.
- ربما كان هذا ما يؤرقه.
- لا أفهم!

- هو أيضًا يحبك، وقلقه عليك يعتصره، يخشى أن يفقدك كما فقد أمه.
- فماذا هو بفاعل إن كان قلقًا عليّ ويحبني كما تقولين؟

يلقي سؤاله الأخير، ثم يتذكر أنه سمع لتوه صوت باب المنزل يغلق، يدرك أنه ليس هناك من هو قادم غير (شريف).

- أبحث عن جدي...

يجيبه (شريف) الواقف باسمًا عند باب الغرفة متأبطًا ذراع جده لأمه، ثم يضيف:

- هذا ما أفعله، أبحث عن جدي، لأنني قلق عليك.

يعتدل (آدم) في مجلسه، تحتضنه (حواء)، يبقى (شريف) محافظًا على المسافة بينهما...

- أين مذكرات جدك؟ هل تخلصت منها؟

يسأل ولده فيجيبه:

- تخلصت من الصندوق، أما المذكرات، فهي بحوزتي، وهي ما سيقودني إليه...
- أتعني أنه حي؟
- لا أعلم، ولكننا، أنا و(جنة) نبحث عنه ونشعر أنه كذلك.

تقاطعه (جنة):

- وجدنا خبراً عنه في موقع ثقافي تونسي، الخبر يعود للعام ٢٠٠٧، مما يعني أنه كان حياّ منذ عامين، يطلقون عليه البروفيسور بنداري، وهو حاصل على الدكتوراه في الأنثروبولوجيا[٩٥].

يلهث، يدمع، يتهدج صوته لما يسمع، يغمره الاشتياق، ينسحب اللوم والغضب من خلاياه، يستكين على صدر (حواء)، يزلزله تخيل أن أباه قد يكون حيّا، يستشعر نفسه طفلًا، يحمله الزمن رضيعًا ويهرول به عبر طرقات الماضي، يتوقف عند حوار أبيه الأخير ليلة رحيله. يشير لولده بما يعني أنه يريد مذكرات جده، يعود شريف راكضًا في غضون ثوان حاملًا

كراسات المذكرات، يناولها لعمته فتضعها بين يديه، يضمها للحظات، ثم ينظر صوبها، يحدث أوراق أبيه:

- قد سامحتك منذ اليوم التالي لرحيلك، فسامحني إن كنت حيّاً، بيننا حديث لم نكمله منذ عقود وعقود.

يجلس القرفصاء على سريره، يغادره الجميع ويغلقون باب الغرفة، مدركين أن حواراً خاصّاً على وشك البدء، فينسحبون إجلالًا لخصوصية المشهد.

ويقرأ...

(٧)

عُمْـر

القاهرة

٥ أغسطس ١٩٤٣ - ٥ يونيو ١٩٦٧

يضحك (نوحِ البنداري) إثر دعابة أخرى يطلقها (المازني)[٢٧]، وقد كان الجمع محتفياَ بمرور سبعة أيام على ميلاد (إسماعيل) ثاني أبناء (نوح)، المكان هو غرفة الحضرة في غير أيامٍ انعقادها، و(نوح أفندي) لا يزال وفيّا لمخاوفه، فلم يأذن لها بمفارقته يوما، كرر طقوس الترقب والانتظار، حتى أقام احتفاليته مرة أخرى بعد أن مر أسبوع الخوف بسلام، هذه المرّة، يشاركه صديقه (إبراهيم المازني)، أحد أقرب خلانه، وإن كبره بما يزيد من الأعوام عن عشرة، ولكن ربما كان في كبر سن (المازني)، وكونه من أشهر أصحاب القلم في زمانه، أمرين جعلا منه الصديق النصوح لـ(نوح أفندي)...

- أين (إبراهيم الثالث)؟

يقولها المازني، فيضحك الجمع ويتبسم (نوح)، كانت رواية (المازني) المعنونة (إبراهيم الثاني) قد صدرت في صيف العام الفائت فلاقت استحسانًا واسعًا، وإن أسرّ (نوح) لصديقه أن الجزء الأول من هذه الرواية (إبراهيم الكاتب) قد لاقى لديه هو استحسانًا أكبر، كانا يسمعان لبعضهما كثيراَ، ونظراَ لقصة (إبراهيم)، وحقيقة قدومه بعد إبراهيمين توفيا رُضّعًا، فقد أسماه (المازني) (إبراهيم الثالث) تيمنًا بواقع قصته، وبروايته هو في ذات الوقت.

- والله يا (نوح) لو كتبت قصة صبيك هذا في عمل روائي لانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وحققت روايتي هذا ما لم يحققه عمل روائي من قبل.

يميل تجاهه (نوح) ويتمتم:

- قد يتهمونك بسرقتها أيضًا...

يقهقه (المازني) حتى يكاد أن يفقد اتزانه، فيمسك بكتف (نوح) الجالس على ميمنته حتى يستقر في مجلسه من جديد، يعدل من وضع حزام كراعه الموجوع، تتابعه نظرات (أبو شنب) المنشغل في تلبية طلبات الجالسين، دون أن ينسى الخادم العجوز إرسال نظرة لوم لـ(نوح) على مزحته مع صديقه.

كانت اتهامات عدة قد لاحقت (المازني) بأنه قد اقتبس روايته (إبراهيم الكاتب) من رواية "سانين" للروسي "يباشيف"{٢٨}، أدباء كُثر قد تربصوا به إثر ذلك داخل مصر وخارجها، من يعرفونه حق المعرفة كانوا على يقين بأن هذا الاتهام يضحك أكثر مما يشكك في "المازني"، وكان أحد هؤلاء (نوح البنداري).

- ذهب أبوك لمقابلة (العقاد){٢٩} عقب اتساع محيط الاتهامات (للمازني) وطالبه بالكتابة مدافعًا عنه وهو أول من قدمه وأشاد بمواهبه الأدبية، كانا صديقين حقيقيين، روايته (إبراهيم الثاني) صدرت قبل ميلادك بشهور.

يتلو (إبراهيم) على (إسماعيل) ما تراكم في ذلك الركن المضيء من ذاكرة الطفل لديه عن (المازني)، كان الأخير يهم بقراءة (إبراهيم الكاتب) التي حصل عليها كهدية عيد ميلاده السادس عشر، كانت نسخة الكتاب قد سبق قراءتها، اشتراها له (إبراهيم) من سور الأزبكية، يوم أن ابتاع من بائع شاب، مخطوطتين لا تقدران بثمن، أولاهما كانت نسخة مخطوطة من "دلالة الحائرين"{٣٠}، والأخرى كانت نسخة أصلية من مجمع نُسَخ جريدة "الأستاذ" لابن النديم.

- أتعرف يا (إبراهيم)، متعتي بقراءة كتاب سبق قراءته، تفوق مرات ومرات متعة قراءة كتاب حديث الطبع، هل ظهر صاحبك ذو الكتب الفريدة!؟

يبتسم أخوه ويومئ برأسه موافقًا أخاه الأصغر وجهة نظره، يقول له إن البائع الشاب الذي باعه المخطوطتين، والملقب بين الباعة بـ(عبده ديكارت){٣١}، قد اختفى ولم يعرف له طريق، ولكنه حتمًا سيظهر، خاصة

وقد وعده بنقده مبلغًا ماليّا ضخمًا، إذا ما نجحت مساعيه وأتاه بمخطوطة أصلية من كتاب "بدائع الزهور في عجائب الدهور" لابن إياس، يتمتمٍ (إسماعيل) بما يعني ترقبه لظهور البائع (ديكارت)، ثم يتابع متفحصًا أوراق رواية (المازني):

- أحيانًا، يتملّكني فضول، فأتحسس بصمات من سبقني ليطوي هذه الصفحات، أتوقف حيث ثُنى الطرف العلوي أو السفلي من صفحة ما، أتخيل القراء، أصاحبهم، أتجول معهم في طرقات بيوتهم، أتنقل من السطور، إلى حيث كان قارئها وقت قراءتها، أتصور انطباعات من قرأوا هذه السطور من قبلي، تستوقفني بقعة هنا أو هناك، تستفزني صفحات ممزقة، تناديني علامات خطها قلم ما هنا أو هناك وكأن كاتبها كان يتناول كلمات السطر أو كامل الكتاب بنقد أو تحليل، فأراجع تحليله بعد أن أتخيله... تقول (عائشة) إنني مخبول بالقراءة، لدرجة أنني أفسد قراءاتي بما أفعل، إلا أن الأمر خارج عن سيطرتي...
- هي نصف محقة... ولكنها تحبك...

يتورد وجه الصبي خجلًا، يستند على سور السلم المقابل لغرفة الحضرة غير المغلقة، يحلق بناظريه في أعالي بئر السلم، يطالع اللاشيء، هو فقط يهرب من ملاقاة عيني (إبراهيم)، أخيه وخليله.

يشرد (إبراهيم) بدوره في مواجهة غرفة الأسرار، يخطو خطوتين لم يلاحظهما أخوه صوب بابها، يضيء نور خافت بقعةِ ما على إحدى الأرائك، هنا كان يجلس أبوه مع (المازني) منذ ستة عشر عامًا، يتذكر، فتردد أصداء حوارهما...

- يا (نوح)، لماذا يظن البعض -وحزني أنهم من أصحاب القلم- أنني قد أسرق عملًا قمت أنا بالأساس بترجمته؟

يضحك وجه (المازني)، بيد أن كلماته جاءت باكية، يتربع فوق الأريكة، فيبدو جسده أصغر مما يبدو، كان أكثر من يسخر من ضآلة حجمه وقصر قامته الي تبلغ بالكاد مائة وخمسين سنتيمترا، حتى أنه قال ذات يوم في

واحدة من جلسات السمر، إنه حين يقف إلى جوار (العقاد) الفارع الطول، فإنهم يكونان سويًا الرقم عشرة...

- نفوس سكنتها الغيرة يا عزيزي، لا أكثر ولا أقل.
- ليس يشفى السباب غل حسود قد طوى صدره على الشحناء

إن داء القلوب داءٌ عياء مثل داء المنون للأحياء.

يستحسن الجالسون أبياته، ويود (نوح) اجتذابه بعيدًا من مزحة الاقتباس التي ندم على إلقائها في بحر الغرفة، فيطالبه متصنعًا حماسة مباغتة، بإلقاء إحدى قصائده:

- لم لا تسمعنا "يا وردة الحسن القديم"؟ بيننا من لم يسمعها منك من قبل!

يبتسم (المازني)، ويقترح مجالسوه قصائد أخرى:

- بل "خده أحسن أم ثغره".
- أمتعنا بـ"أمطروا الدمع عليه لا الندى".

يعتريه خجل، يهرب منه فيصيح قائلًا:

- فليحكم بيننا أكثرنا براءة إذن، أحضروا (إبراهيم الثالث).

يصيح ضاحكًا، فينثر بذور الراحة في قلب (نوح) وفي أرجاء الغرفة كافة ، يطلب (نوح) من (أبو شنب) إحضار (إبراهيم) فيرحب خادمه الأمين بالأمر، يَحْضر (إبراهيم) تتوج نظراته حيرة أعوامه السبع.

- أي بحر من بحور الشعر تود أن ألقي صحب أبيك هذا بموجه؟

يبادره (المازني) فيجيب الطفل بعد تردد قاطعه همسة صدرت عن أبيه فاستقرت بأذنه:

- بحر البسيط[٣٢]

يصمت الحضور، وينظر (المازني) صوب (نوح) باسمًا، ثم يخاطب (إبراهيم):

- وأية قصيدة تفضِّل يا سيدي؟

يصمت (إبراهيم) لثواني، قبل أن يجيب:

- "ما تصنعون بفانٍ مات أكثره".

يقطب (المازني) ما بين حاجبيه متصنعًا الغضب، يميل صوب (إبراهيم) الطفل، ثم يهمس:

- يا بني، تلك قصيدة تليق بعجوز مثلي، حري بك أن تنتقي ما يلائم عمرك.

- ما تصنعون بفانٍ مات أكثره وجف من عوده المنآد أنضره
إذا نظرت إلى كدى شبيبته أعطاك كنز عظاتٍ فيه منظره
كأنه جثةٌ لم تلف دافنها أو أنه جدثٌ يمشي وتنكره
فاعذر أخاك ولا تنكر تخلفه لا يعرف الجرح إلا حين تسبره.

يلقي (إبراهيم) الصغير باقي الأبيات متحديًا، فيضحك الجمع، ويحتضنه (المازني)، ويهمس في أذنه:

- ينقص قصيدتي بيت، أين ذهبت به؟

- لا أحبه ولا أفهمه فلم أحفظه، لا أحب أن أردد دون فهم لما أقول.

يقهقه (المازني) ويضم الصبي إلى صدره مجددًا، فيضحك (نوح) حتى تدمع عيناه، يستأذن (أبو شنب) سيده في أخذ الصبي خارج الغرفة، بعد أن أخافته الضحكات المدوية لصحب أبيه، فيأذن له (نوح) بالخروج، يقول لـ(المازني):

- هذا ما أحدثك عنه، ولدي بدأ تطبيق المنهج التعليمي المطور، الذي أنا عاكف على إنجازه، فها هو يرفض مثلي حشو الأدمغة.

تستمر الضحكات، فيتمتم (المازني):

رعى الله أيام الطفولة إنها على جهلها أحلى وأهنأ ماليا
ليالي أظن الكون إرثي وأنني أعير النجوم الزهر نور بهائيا

استرجع (إبراهيم) الواقف بباب الغرفة على مبعدة ستة عشر عامًا من ذلك اليوم أبيات (المازني)، ممتزجة بضحكات أبيه ومجالسيه، قبل أن ينتبه لشرود أخيه، يربت بيده على كتفه فيستفيق من شروده...

- (عائشة) تحبني؟

يسأل (إسماعيل) بحروف خافتة أثقلها الخجل، يتبسم ثغر (إبراهيم)، ويحيط كتفي أخيه بذراعه:

- نعم، أعتقد أنها تبادلك المشاعر.

يرتبك الفتى الشاب، هو لا يعلم ماهية الحب، ولا يعي ما يقصه عليه أخوه الأكبر من قصص العشاق، وخاصة عن حكاية صديقه الصدوق (صلاح زكي) مع تلك الفتاة الأجنبية، بالكاد يتذكر لوعة (صلاح) منذ خمس سنوات عندما سافرت حبيبته إلى فرنسا، وكيف قضى أخوه (إبراهيم)، قرابة الشهر، متفرغًا لرعايته، كما يعلم أيضًا ما يكنّه أخوه من حب لجارتهم الرقيقة (نادية عيسى)، ربما لم يفهم في حينها ما يدور، ولا يعلم العلاقة بين ما دار في تلك الفترة، وما يشعر به اليوم تجاه (عائشة)، هو فقط يعلم أنه يستشعر في قربها مستراحه، وبغيابها عنه، يشعر وكأن الزمن قد صار له صوت أشبه بالطنين، يزعجه هذا الطنين ولا يدرك له مصدراً، يعتقد أحيانًا أنه صادر من داخله، يتحسس بيديه الفتيتين الدقائق حتى يحين الملتقى، فيغيب الطنين. سأل عن ذلك (إبراهيم) ذات مرة...

- جيوش الحب إذ تجتاح قلوب العاشقين، وتحطم أسوار مدنها، حتمًا تصدر ثمة دبيب أو ضجيج... صوتها فقط يختلف من عاشق لآخر.

كان (إبراهيم) هو ناصحه الأول، وأبوه هو ناصحه الثاني، بيد أن أباه اعتاد أن يوليه اهتماما خاصّا منذ وقت مبكر، ارتكازًا على قاعدة أبوية عتيقة "لن أحيا برفقته قدر ما حييتما بكنفي، كلاكما سيكون له أب لزمان أطول منه، كونه أصغركم".

كان هذا رده الدائم على شكاوى (مريم) و(إبراهيم) في طفولته، ولكن شكواهما منه كانت قليلة تتعاظم ندرتها مع مرور الأيام.

كان يشعر أنه محظوظ، إذ حباه الله بعائلة، يجد في رحابها أبوين وأمين، فـ(مريم) التي تكبره بما يزيد عن العقد من الزمان، كانت أمّا حقيقية، حملته رضيعًا، وداعبته وحممته ربما أكثر من أمه (جميلة)، فكان رحيلها

عن المنزل يوم اقتلعها الزواج من بينهم، ليلقي بها في أحضان الضابط (إحسان الدمنهوري)، صدمة حقيقية، زلزلته، إلا أن ردة فعل (إبراهيم) جاءت عاتية شديدة الرفض، حتى بلغ الأمر بـ(مريم) أن رفضت إتمام زفافها حتى يرضى عنه (إبراهيم)... أدرك كلاهما بعد سنين، أن زوج أخته رجل صالح، صحيح أنه يكبرها باثني عشر عامًا، يرى (إبراهيم) أنها ستمثل عائقًا حقيقيًا في التواصل بينهما كزوجين، بسبب اختلاف الجيل الذي ينتمي إليه كل منهما، صحيح أن (مريم) لم تبد قبولًا أو رفضًا له كزوج، وتركت مسئولية الاختيار ملقاة على عاتق أبويها، إلا أنه لم يحدث، أن جاءت (مريم) ذات يوم غاضبة من زوجها، إثر إهانة أو خيانة، ولكن، هل هي سعيدة؟ ظل ذلك السؤال لأخيه (إبراهيم) طيلة العقود اللاحقة، أكبر الهواجس، وأثقل المؤرقات...

لم يفهم كلاهما سبب رفض أبيه، لتزويجها من (حسن) ابن أخيه (إمام البنداري)، خاصة وقد كانا يستشعران أن أختهما (مريم) تميل إلى ابن عمهما منذ نعومة أظفارهما، كما أن (حسن) ذاته، كان يهيم بـ(مريم) عشقًا.

لم ينشغل الطفل (إسماعيل) بتلك الأسئلة، بذات القدر الذي ظلت به معلقة في رأس أخيه الشاب، فقط شعر بفراقها أن شيئا قد كُسر، غابت عن الجدران أنفاسها، فلم يعد شيء كما كان...

وعلى انشغالها الدائم بمجالسة الجارات، والانشغال بزيارات أختها المتكررة والطويلة، وقراءة فناجين القهوة مطاردةً حُسن الطالع، وجد (إسماعيل) في أمه (جميلة)، الشاطئ الذي يستحسن اللجوء إليه كلما تكالبت عليه هموم الطفولة الخيالية، ليخفف من أحماله، ويزيل من فوق متون الحلم ما يضنيه، كلما ألقى بنفسه بين أحضانها.

وعلى ندرة كلماتها، وفقر بلاغتها، بقيت هي الأم التي تحمل الطفل وتهدهده، تغني له تارة، وتقص عليه ميراثًا محدودًا من الحكايا التي ورثتها عن أمها وجدتها في تارات أخرى، ربما لم تبرع يومًا في وصف

مشاعرها، كأم، أو كامرأة، إلا أنها كانت على الدوام ملاذًا للجميع، للزوج الحاضر الغائب حين يعاود عناق الواقع بعد ارتحال في الأزمنة الماضية، والمستراح الظليل للفتاة والبنين، الذي اعتاد (إسماعيل) الاحتماء بكنفه، حتى يتطهر من مخاوفه، ويخرج منه متوسدًا صدر أمه، ملاكًا نائمًا، أو طفلًا يغالبه النعاس... أما ناصحه البديل، الثاني بحكم الوقت المتاح، أبوه، فكان بمثابة المعلم، نبع الثواب والعقاب، كان عقابه الأعظم مخاصمته، وجائزته الكبرى هي جولة بين بائعي الكتب ينتقي فيها ما يشتهي من الروايات، أحيانًا يرافقه في جولته هذه (إبراهيم) بدلا من أبيه حين يكون الأخير منشغلًا، إما منشغلًا بالفعل، بمخطوطة كتاب يعكف عليها أحيانًا، وإما متظاهرًا بالانشغال، مؤثرًا أن يذهب الاخوان معًا ليوطد علاقتهما، التي صار يتفاخر بها يومًا بعد يوم...

بيد أن (إبراهيم الثالث) كما يناديه (المازني)، قد كان باختصار: النافذة التي يرى من خلالها العالم.

أمه وأبوه، وأخته وأخاه يشتركون في احتوائهم له، ويشتركون أيضًا في معرفتهم بـميله تجاه (عائشة) بنت (محمود النبراوي)، مالك العقار المقابل، ودكان العطارة الكائن في دوره الأول، كان الأمر في بدايته لا يخرج عن كونه لهوًا بين طفلين متقاربي الأعمار، يفصل بين مسكنيهما ثلاثة أمتار هي عرض حارة (البنداري)، تصغره هي بعام ينقصه شهر أو شهران. نسجت أواصر رباطهما منذ سنواتهما الأولى، فتنامت علاقتهما مع تنامي جسديهما، حتى جاء (عائشة) أول خطابها، وهي دون الخامسة عشرة، فتوقف (إسماعيل) عن اللعب مع أقرانه، واعتكف في شرفة حجرته ليلتين، لم تفلح خلالهما محاولات أمه وأخته، في احتواء غضبة عجز هو لحداثته عن فهمها، فشل (إبراهيم) بدوره، فشاركه المبيت في الشرفة في ليلته الثانية، كان (إسماعيل) لا يعلم سر حزنه، هو فقط حزين، ضغوط (إبراهيم) أخرجت منه بعض الكلمات، حاول مواراة ما تحويه عباراته من شعور يستفزه، فخذلته سذاجته:

- أعتقد أنها إن تزوجت، سوف تغيب عن الحارة، أعرف أننا لم نعد نلعب معًا منذ أن كبرنا، هل تذكر يوم أن ضربتها أمها عندما رأتني وأنا أمرجحها على الأرجوحة التي صنعتها بين شجرتي التوت عند ناصية بيت (صلاح)؟ كانت تلك آخر مرة نلهو سويا ومن حينها ونحن بالكاد نتبادل التحية...
- أعرف

رد (إبراهيم) فاستطرد خليله الصغير:

- لو غادرت (عائشة) الحارة، أعني لو تزوجت من ذلك الرجل، سنفتقدها جميعا.
- بكل تأكيد سنفتقدها، ولكننا جميعا ما زلنا نأكل ونشرب، ونبيت ليلتنا في أسرّتنا ولا نفترش الشرفات!
- يا (إبراهيم)، فراقها قد يميتني.

(نوح البنداري) الجالس في حديقة المنزل تحت شرفة ولده العاشق، كان يتبسّم لسماعه حوار ولديه، صدفة قادته للحديقة، وسمحت له بسماع محاورتهما الكاشفة.

- لقد كبر (إسماعيل) يا أم (إبراهيم).

قال (نوح) قاصًا على (جميلة) ما علق بذهنه من حوار ولديه.

- سأتحدث مع (محمود النبراوي) غدًا.
- فيم الحديث يكون؟
- سأخطبها له، شريطة ألا تتم الخطبة رسميًا إلا عندما يلتحق (إسماعيل) بالجامعة، قبل ذلك، نقرأ الفاتحة وننتظر.

تعتدل (جميلة) في مجلسها هلعة، تدهشها فكرة أن تتم خطبة ولدها وهي تراه طفلًا ما زال يلهو بين أقرانه:

- وهل تخطب للصغير قبل الكبير يا سي (نوح)؟
- ليست خطبة، هي فقط عربون، أو حجز...

- ولكنني علمت من (مريم) أن من تقدم لخطبتها هو (عبد الرحمن) شقيق زوجها (إحسان الدمنهوري)، وأخشى أن يؤدي ما نويت إلى اختلال العلاقة بين ابنتك وزوجها!
- كل شيء قسمة ونصيب يا (جميلة)، لن تكون حرب (بورسعيد) على أية حال.

يقولها وتنتابه نوبة ضحك، تواصل حديثها محاولة إقناعه بتأجيل الأمر، فلا يعطيها جوابا.

- لنر ما يحمله الغد، صبراَ جميلًا يا (جميلة).

يغمض عينيه، يكف لسانه عن الحديث، وما يكف عن التبسم فمه.

تدخل (عائشة) في صباح اليوم التالي على والدها عقب استدعائه لها بدقائق مرت عليها كالدهر، كان جسدها البض الصغير على شفا رجفة أو رجفات من خوفٍ متقطع، الحاج (النبراوي) ليس كأي أب، كفه الذي يفوق حجمًا كامل وجهها أسبق من كلماته، حتمًا سيصفعها قبل أن يخبرها بهدوء كعادته عن صنيعتها، وما اقترفت يداها الرقيقتان من إثم هو في أغلب الأحيان من فعل أحد إخوتها الصبية، تتلو آيات قرآنية في طريقها إلى باب غرفة المسافرين، الباب غير محكم الإغلاق، تميز وجود مصاحب لأبيها في مجلسه من اختلاط صوته بصوت آخر بدا مألوفًا، تطرق الباب بيدين كبلتهما رعشة تغذيها رهبة الملتقى، لا تُسمع طرقاتها الواهنة بطبيعة الحال، تطول بها الدقائق على باب الغرفة، ينقذها مجيء أمها حاملة ضيافة الزائر، تطلب منها حمل أكواب العصير إلى والدها وضيفه، تطمئنها ابتسامة منهكة على محيا أمها، تطرق الباب، فيأتيها صوت أبيها:

- ادخلي يا (عائشة).

تدخل، تحاول ان تجنب ساقيها الحائرتين حرج العثرة، تثبت ناظريها على كوبي العصير، يجيئها صوت تحبه:

- أهلًا يا (عائشة).

هذا صوت (نوح أفندي) والد (إسماعيل)، فماذا أتى به لملاقاة والدها في وقت مبكر كهذا؟ لماذا لم يشاركه المجلس في محل العطارة كأغلب زائريه؟ تتساءل، تأتيها احتمالات عدة، تتطاير حولها إجابات تغرد فرحة وتفاؤلًا، إذ إنه بطبيعة الحال، ليس في قدومه ما يضر، فهل يكون الأمر كما تتمنى؟

- (نوح أفندي) جاء من أجلك يا (عائشة)، وقد فاتحني في طلب يدك لابنه (إسماعيل)، نحن نعلم أن (إسماعيل) لا يزال صغيرًا وإن كنا نرى فيه مستقبلًا نابغًا، أما أنتِ وقد صرت على مشارف الخامسة عشرة، فقد غدوتِ أهلًا للزواج، وقد تقدم لخطبتك ضابط الحربية (عبد الرحمن الدمنهوري) منذ أيام كما أخبرتك أمك، أما (إسماعيل)، فأمامه بضعة أعوام حتى يمسي مؤهلًا للزواج، أراد (نوح أفندي) أن تشاركينا الرأي، هل تودين انتظار (إسماعيل)، أم تفضلين الزواج خلال عام من الآن كما عرض الحاج (الدمنهوري) والد (عبد الرحمن)؟

تود أن تصرخ فرحًا، إلا أنها تقاوم جاهدة حتى الابتسام، وقد شعرت بنظرات كلا الرجلين تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، تحب (إسماعيل)، وتريده، ولكنها تعلم في قرارة نفسها أن أباها قد اتخذ قراره بالفعل، وما جاء بها إلى هنا لتشاركهما الرأي في مسالك حياتها، وإنما جاءت لتقول جملة واحدة تعلم أنه ينتظر سماعها لينهي اتفاقه مع هذا أو ذاك.

- ما تراه يا أبي...

نطقت بالمُراد فتبسّم، أذن لها بالانصراف فانصرفت، أخذ يداعب شاربه وقد أصابته نشوة تعويذة الطاعة العمياء التي ألقتها ابنته، اعتدل في جلسته واضعًا الساق فوق الساق، حريصًا على أن يكون اتجاهها عكس اتجاه جاره (نوح البنداري)، كان يعلم أنه على وشك عقد صفقة رابحة. (إسماعيل) بدوره كان قد غادر شرفته فور أن نما إلى علمه ما انتوى أبوه، كان (أبو شنب) هو من أسر له بذلك، لم يعلم (إسماعيل) أن أباه هو من أرسل إليه خادمه الأمين ليزيح عن كاهليه الهموم بخبريته هذه، حلّقت به قدماه إلى حيث يجلس أخوه (إبراهيم) حاملًا له البشارة، كان أخوه

يعلم بدوره، ترجّلا سوياً حتى استقر بهما الحال عند مدخل بيت (البنداري)، (عبد الرحمن الدمنهوري) يعبر فضاء الحارة مكفهر الوجه، حمله زهو بزته الحربية ليرى الآخرين بنظرة فوقية، ضاق الهواء في صدور المارة بالحارة إثر رؤيته، وأولهم (إسماعيل).

- كم أود أن أبرحه ضرباً يا أخي.
- أود أن أوسع أخاه ضرباً بدوري.
- زوج أختك يكبرنا مجتمعين حجماً.

يقول لأخيه، فيرد (إبراهيم) ضاحكًا مهدئًا من حنق أخيه:

- أنسيت نصيحة عمك (المازني)؟

لذكرى (المازني) في نفس (إسماعيل) أثر العطر، يُذكر، فينتشر عبقه في مخيلته، يستبدل مشهد مرور (عبد الرحمن الدمنهوري) المتباطئ، بجلسته في غرفة المسافرين منذ قرابة العقد من الزمان، كان قد تعارك مع أحد الصبية في الحارة، ابن (جابر عباس) الذي لم يحبه أبوه قط، كان هو في الخامسة من عمره فقط وكان (حاتم) ابن (جابر عباس) يكبره بعامين أو ثلاثة، بذل في شجاره طاقته القصوى دفاعًا وهجوماً، ولكنه خرج منهزماً بعد أن طرحه خصمه أرضًا، فصعد الدرج حتى غرفة المسافرين يقطر الدمع، ظن أن الغرفة فارغة فتفاجأ بـ(المازني) يستقبله وقد كان في انتظار أبيه، قص عليه ما كان، فبادله الرجل العجوز القصة بالقصة:

- جئت يومًا أمي أبكي، لأن غلامًا ضربني فأوجعني، نظرت صوبي باسمة، لم تربت على كتفي، ولم تمسح دمعي المنهمر على وجنتي، فقط قالت:
  - رجلنا يبكي؟ فماذا عسانا نفعل نحن النساء الضعيفات قليلات الحيلة؟

  قالتها بهدوء وحنو، فخجلت من حالي، حاولت أن أدفع الخجل عني:
  - ولكنه كان أكبر مني!

قالت إنها تثق أن لا شك في ذلك، ولكن حيلتي ينبغي إذن أن تكون أوسع...
منذ ذلك اليوم يا (إسماعيل)، والله ما غلبني غلام أسن أو أكبر مني حجمًا، حتى صار الصبية رغم قلة حجمي يخافونني ويتقون شري!

يدخل أبوه الغرفة، يعترض على القاعدة التي يسنها (المازني) لولده بلطف، علم (إسماعيل) فيما بعد أن أباه كاد أن يضرب (جابر عباس) والد الصبي الذي تشاجر معه ولم يمنعه عنه سوى (أبو شنب)، فذكره بعد سنين بقول (المازني)، وأخذ يداعبه بأن المثل الذي ضربه صديقه بشأن ضرورة استخدام القوة وتفضيل البأس على الحوار، ربما كان أقرب إلى الصواب، ولم لا وقد أوشك -وهو الكبير آنذاك- على ضرب والد الصبي؟
يتذكر المشهد بكامل تفاصيله، قبل أن يعتريه قلق لتأخر أبيه في زيارته للحاج (النبراوي)، يشفق على (عائشة) أن تُزَوّج من ذلك الضابط الضخم الجثة، قاسي القسمات مغتر الخطوات.
غير بعيد عن ذلك، منتشيًا، راح (محمود النبراوي) يضع الرتوش الأخيرة على صفقته الرابحة، كان قد انتهى من وضع تفاصيل الاتفاق كافة مع (نوح البنداري)، فشرع يعيدها توكيدًا وتوثيقًا:

- بارك الله لهما يا (نوح) أفندي، والله إنني منذ البدء لم أشأ إتمام خطبتها لضابط الحربية، ولكنها أمها هي من زكت مشروع تلك الزيجة، المهم، ستدفع لي ضعف المهر الذي كان سيدفعه الحاج (الدمنهوري) كما اتفقنا، لا احتفال إلا بعد أن ينهي (إسماعيل) دراسته الجامعية، وقبل ذلك لا خروج ولا تزاور بينهما إلا في حضور رشيد من كل عائلة، نقرأ اليوم الفاتحة ونعلن خطبتهما لنقطع الطريق على أي خطاب، شراء الخواتم والمصوغات الذهبية يكون في العام الأخير قبل تخرجه.

يؤمن (نوح البنداري) على كلمات من صار للتو نسيبه:

- اتفقنا يا حاج (محمود)، نسيت أن تذكر أن مبلغ المهر سأدفعه لك سنويًا على خمس سنوات من إيراد الأرض الذي يردني من (التوابية)، فهو كاف رغم خسائرنا المهولة من التأميم، وعلى أية حال، لا حاجة لك بكامل المبلغ الآن، أليس كذلك؟
- بالتأكيد يا (نوح) أفندي، العجلة والعياذ بالله من الشيطان، لم يكن أحد ليرضى بأن تبيع أرض جدودك، التي هي أيضًا أرض بنيك (إبراهيم) و(إسماعيل).

يومئ (نوح) موافقًا وقد لاحظ أن نسيبه قد بدأ توزيع ميراثه وهو جالس معه، يمعن النظر في سبحة (النبراوي) الكبيرة الحجم التي لم تفارق يده منذ البدء، يتحول من السبحة الزجاجية إلى علامة الصلاة التي تتوسط جبهته السمراء، يضحك وهو الزاهد في المال وطيلة العمر، وينشرح صدره أن حقق لولده الأصغر أمله بطريقة لا تعطل مستقبله ولا تؤثر على تحصيله العلمي، بل أن اتفاق اليوم، حتمًا، سيدفعه للأمام ويحفزه ليجتاز سنوات دراسته قفزًا حتى يقصر سنوات الانتظار.

شعر (نوح) أنه الرابح من صفقة (النبراوي) بلا شك، ربما ربح نسيبه الكثير من المال، حيث إن (النبراوي) -قطعًا- لن ينفق كامل مبلغ المهر على زيجة ابنته، بل سيستقطع منه لنفسه النصف على أضعف تقدير.

- كل من تشربت مسامه رحيق المعاملات في كتابه، هو بلا شك حريص على عباداته، وكل من حرص على إظهار عبادات كتابه، ليس بالضرورة مطبق لمعاملاته...

ترن في أذنيه مقوله شيخه (الرفاعي)، فتتسع ابتسامته حتى تكاد أن تشمل كامل وجهه، يتساءل، لو وضع ربح (النبراوي) في كفة ميزان، ووضع في مقابلها سعادة ولده (إسماعيل)، فمن الرابح؟ ثم يخاطب الخاسر في هذه الصفقة كما يراه:

- بارك الله لـ(إسماعيل)، وبارك لـ(عائشة) وجعل بينهما مودة ورحمة، ورزقهما بالذرية الصالحة...

- وسعة الرزق يا (نوح) أفندي، ندعو لهما أيضًا بسعة الرزق، وليرزقنا نحن آباءهما، لنجعل لها زفافًا كـ(قطر الندى) كما ذكرت.

يتمتم (نوح) مؤكدًا على عباراته مشاركًا إياه الدعاء بسعة الرزق، ثم يستأذن في رؤية (عائشة) لمرة أخرى قبل أن يغادر، يُنَادَى على (عائشة) من جديد، فلا تمر ثوان حتى تحضر أمامه، وقد غاب عن أبيها وضيفه أنها لم تبرح موقعها جوار باب الغرفة منذ أن صرفها أبوها أول مرة، صاحبت سعادتها الأولى غصة في حلقها وهي تستمع إلى مفاوضات أبيها مع (نوح أفندي)، تشعر أنها تباع في سوق الدواب، حسبها أن المشتري هو من ترتعد لذكره الأوصال، (إسماعيل)، وأن أباه رجل تقي زاهد، لا يرى فوق سعادة بنيه أمرًا يستحق العناء، تتنحنح معلنة دخولها، مطرقة الرأس من جديد.

- نقرأ اليوم فاتحتك على (إسماعيل) ابن (نوح أفندي) الذي شرفنا بزيارته اليوم بهذا الخصوص.

تتورد وجنتاها بسماع كلمات أبيها، وتكرر تعويذة الطاعة الأزلية:

- ما تراه يا أبي.

منذ أن نما إلى مسمع (إسماعيل) زغاريد والدة (عائشة) في ذاك النهار، مرت الأيام التالية عليه سريعة كبرق الشتاء، كانت الشهور أشبه بالأسابيع، والفصول تمر كالشهور، عَلِمَ أن (عائشة) بعد قراءة فاتحتها قد ألقت بنفسها بين يدي أبيه محتضنة فيه الأب الذي افتقدت، وأنها قد قبلت رأسه ويده عرفانًا بتوقيع ميثاق فك أسرها وعتق رقبتها.

التحق بكلية الحقوق التي تركها أخوه (إبراهيم) منذ السنة الأولى ليلتحق بمعهد الفنون المسرحية على غير رضا أمه، وبمباركة أبيه، كان أبوه يطلب منه حضور جلسات المحاسبة الموسمية مع الفلاحين القادمين من (التوابية) رفقة أخيه (إبراهيم)، وكان يطلب منه كل عام زيارة الحاجٍ (النبراوي) ودفع قسط المهر المتفق عليه بنفسه، لم يغر (إبراهيم) يوما من أخيه وقد سبقه في بدء تأسيس حياة مستقلة، تشاركه فيها (عائشة).

تفوق (إسماعيل) في كلية الحقوق في عاميه الأول والثاني بتقدير عام جيد، قبل أن ينهي عامه الثالث بتقدير مقبول إثر إحباطات انقلاب (دمشق) الذي جاء لينسف الوحدة مع (سوريا)[٣٣]، تبع ذلك مطبات حياتية أخرى تمثلت في تدهور الحالة الصحية لـ(أبو شنب)، خادم الأسرة الأمين وناصحها الصامت.

تمرس (إسماعيل) و(إبراهيم) معايشة الإحباطات الوطنية والشخصية، تأثرا كثيراً بمرض (أبو شنب) الذي تزامن مع مرض أمهما الشديد، نال (إسماعيل) شهادة التخرج، فبدأت الأم المعتلة معركة "تزويج" (إبراهيم)... فبرغم رضاها -الصوري- عن خطبة عائشة لـ(إسماعيل)، إلا أن فكرة أن يتمم (إسماعيل) زفافه قبل أخيه الأكبر ظلت تؤرق (جميلة وهدان)، كانت تعلم أن لولدها خليلة أجنبية، قال لها إنها قد هجرته وعادت لبلادها، كانت تشعر أيضًا أن له خليلة أو خليلات أخريات، كما سمعت قبل ذلك وبعده مراراً، عن هيامه بالفتاة المسيحية القاطنة في شارع (الأميرية).

حين تخرج (إبراهيم) من قسم النقد المسرحي من المعهد العالي للفنون المسرحية بالتزامن مع إعلان الوحدة مع سوريا، عمل صحفيّاً بالقطعة، قبل أن ينجرف به المسار من النقد المسرحي، إلى النقد الأدبي، فالنقد السياسي، مما جعل له في نهاية الأمر بضع معجبات تناصبهن (جميلة) العداء دون أن ترى يوماً أيّاً منهن، اختارت له الصبية تلو الأخرى، كانت تجالس الخاطبة تلو الخاطبة، وبحكم براعتها في قراءة الفنجان، كانت تقدم لكل خاطبة تأتيها قدحاً من القهوة ثم تقرأ طالعها بعد مغادرتها، محاولة استنباط مدى جدية هذه الخاطبة وصدقها من عدمه، عشرات الصبيات تم عرضهن على (إبراهيم)، وظل هو رافضًا لمبدأ الزواج بالأساس... (مريم) بدورها شاركت أمها رحلة البحث، وهي الأكثر علماً بمغامرات أخيها، ونزواته العاطفية، والعارفة بتفاصيل قصتي حبه اللتين عاشهما مع فتاة إيطالية تارة، وكذلك مع (نادية عيسى) تارة أخرى، وإن

كانت تعلم أن علاقته بالأخيرة مستمرة لم تنقطِع حتى حين بدأت معركة إجباره على الزواج. كان (إبراهيم) عنيدًا مثابرًا في رفضه، يقاوم رغبات أمه وكأنه يصارع حفاظًا على هويته وحياته، استمر ذلك لشهور حتى استجد أمرين:

أول الأمرين أن ظهرت (دنيا)، ابنة (مرزوق نصار) أكبر تجار المواشي في (التوابية) -الذي تربطه تجارة بعمه (إمام البنداري)- كإحدى المرشحات، لم يفهم (إبراهيم) كيف ينجب (مرزوق نصار) الذي أمسى وجهه، نتيجةً لطول مخالطته للمواشي شبيهًا بها، فتاة رقيقة حالمة كـ(دنيا)! كان قد سبق له رؤيتها بحكم زياراته (للتوابية)، ولكنه كان يدرك أن الفوارق الثقافية والاجتماعية بينهما كفيلة بإفشال أية علاقة، وبالتالي كان حكمه على مقترح الزواج من (دنيا) هو الرفض "الغير القاطع" رغم الانجذاب الشكلي، حتى استجد ثاني الأمرين، حين مرضت أمه مرضًا شديدًا، ثم جاءت الطامة الكبرى بإعلان إصابتها بداء السل، ليَفجَع الجميع! صدمة مرض (جميلة) أفقدت الجميع توازنهم، إلا (جميلة) نفسها، فكان إصرارها على تزويج (إبراهيم) قبل (إسماعيل)، يتعاظم مع استشعارها دنو الأجل...

- لم لا تريح قلبي قبل أن ألقى ربي؟

تقول في إحدى الليالي لـ(إبراهيم)، العائد لتوه من سهرة عمل مع زملائه المحررين في مجلة "الرسالة"، يقاطع كلماتها السعال، فتعيد الجملة أكثر من مرة...

- أماه، والله ما كان رفضي يومًا نابعًا من عناد أو كِبر، هو فقط يقين.

يرد مطرقًا، فتصمتِ لبرهة محتضنةً رأسه وقد توسدت صدرها، ما زالت فتنتها باقية لم تخبُ، ما زالت جميلة جميلات (التوابية) تفوح عطرًا، وإن ذبل جسدها المنهك، وظل عقلها نشطًا، تدمع حروفها إذ تردف:

- أتعلم ما يستجد بجسدي إذ أنطق باسمك: (إبراهيم)؟ أتعلم كم رضيعًا ناديته باسمك وأخذوه من فوق صدري ليوارى التراب؟ هل

بمقدورك تصور ما تمثل لي حروف كلمة (إبراهيم)؟ عذبني ذاك الـ(إبراهيم) كثيرًا، وأحببته حبًا جمًا فاق ويلات العذاب، واليوم أو الغد، يأخذونني من فوق صدرك هذه المرة، لتوارينى ثراي، فيذوب من جسدي ما يذوب، ويبقى رحمٌ حملك ثلاثًا، وقلبٌ قتله فراقك مرات، وأبهجه وصالك مرات ومرات، فماذا أنت بفاعل؟

- أفعل ما يدخل السرور على قلبك بمشيئة الله يا أمي.
- إذن لتتزوج...
- سمعًا وطاعة يا أمي، إن كان مقدرًا لي في ذلك من الشَقاء، ما يُعينك أنت على الشفاء، فلأكن إذنٍ في عداد المتزوجين صبيحة الغد إن شئت.

تضحك، تبصق في منديلها دمًا، يلحظ ولدها عدم تحسن حالتها رغم استمرار توافد الأطباء لعلاجها، ينادي (مريم)، يتركها لتمرض أمها ويغادر بعد أن بلل دمعه يديها وهو يقبلهما، ينتظر قليلًا خارج غرفتها حتى تلحق به (مريم)...

- أحقًا ستتزوج؟

تسأله فيجيب:

- وهل لي بخيار آخر وأنا أراها في تلك الحالة لا تسأل الله شفاءَ بقدر ما تسألني أن أريح قلبها؟
- من اخترت من بين المرشحات؟
- وهل أنت واثقة من موافقتهن أولًا؟
- بالطبع أيها الوسيم، كلهن يرين فيك فارس الأحلام الذي سينقلهن من (التوابية) إلى عمار المحروسة.
- أريد (نادية عيسى)، ولكنها لا تريدني!
- أتريد أن تقضي على أمك يا (إبراهيم)، هل تظن أنك بزواجك من مسيحية، تدخل على قلبها السرور؟!

تقول بابتسامة أنهكتها محاولات حثيثة لإخفاء حقيقة تنجلي يومًا بعد يوم، مفادها أن أمها راحلة عن قريب، تعلم أن الفتيات اللاتي حتمًا

سيختار أخوها العازف عن الزواج إحداهن الآن زوجة له، ربما يحلمن بمفارقة بيوتهن وقُراهن أكثر مما يحلمن بالزواج كَلَبِنَة أولى لتكوين أسرة... يختار (إبراهيم) ابنة تاجر المواشي (دنيا مرزوق) أولًا لأنها على قدر جيد من الرقة والجمال، وثانيًا لأن أباها ميسور الحال ولن يثقل كاهل والده بطلبات وإملاءات الزواج، لم يشأ أن تكون صفقة زواجه وتكلفتها حملًا ينأى أبوه بحمله وهو المثقل بتكلفة صفقة (إسماعيل) ذات الأقساط الخمس... تتم الخطبة ببداية عام ٦٤، تحضرها (جميلة وهدان) في أزهى صورها، تبدو وكأن الله قد منَّ عليها بالشفاء فور رؤيتها لـ(إبراهيم) جالسًا على كرسيه في حفل خطبته الذي أقيم في حديقة (بيت البنداري) بحضور كبارات وأعيان (شبرا) و(التوابية). ميز (إبراهيم) بين الحضور وجهين، غابا عن الحفل فاستدعتهما مخيلته، وقد رأى أنهما أحق بمشاركته تلك اللحظة من أغلب الحضور، أولهما غيبه الموت، هو (إبراهيم المازني) ، والثاني غيبه المرض، وهو (أبو شنب)، الراقد على مبعدة خطوات من الاحتفالية الأحادية السعادة.

غير أن (إبراهيم)، لم يكن يعلم أن وجه (المازني) الغائب بأمر الموت، سوف يضاف إليه عن قريب وجهين آخرين، يغيبان بدورهما عن حفل زفافه بعد عام واحد، وجه أمه (جميلة وهدان)، التي كان مقدرًا لها أن تفارق دنياه بعد أسابيع من الخطبة، وكذلك وجه (أبو شنب).

يفقد (إسماعيل) برحيل أمه الأم الثانية بعد زواج (مريم)، يقترب لأبيه أكثر وإن وجده أشد تألمًا، بيد أن تألم أبيه لرحيل (جميلة) صاحبته نغمات ندم لم يفهمها.

- أبوك ليس على ما يرام يا (إبراهيم).

قال (إسماعيل) إثر عودتهما من تشييع جنازة عم (عبد الفتاح)، الذي توفي بعد أمه بأيام عشرة، كان (إبراهيم)، على شفا الانهيار وقد فقد في غضون أيام: الأم التي منحته كل ما تملك ولم يمنحها إلا القليل، وهذا الرجل الطيب الذي وزع الضحكات على القاصي والداني، فلم تمنحه الدنيا

حتى فتات البهجة، وارتبط به (إبراهيم) في آخر سنوات عمره وما أقساها وأحلكها.

- ليس بيننا من على ما يرام يا (إسماعيل).

يجيب أخوه، فيردف الأخ الأصغر:

- لنبق سويّاً كالبنيان المرصوص إذن، يستمد كل منا قوته من الآخر حتى نتجاوز محنتنا.

يمر العام التالي سريعًا، حتى يقرر (نوح البنداري) أن يتمم خطبة (إسماعيل) وقد انتهت أقساط مهر (عائشة)، وأن يتمم كذلك زيجة (إبراهيم) الذي بذل في غضون العام المنقضي كل ما بوسعه لإفساد مشروع الزواج، فتحطمت محاولاته أمام إصرار (دنيا) ووالدها على إتمام الزيجة، كان يزيد من تباعده عن (دنيا) وقد أمسى جليّاً بعدها عن عوالمه، فكانوا هم يعزون تغيره إلى تأثره برحيل أمه.

ظلوا جميعًا كما أراد (إسماعيل)، سويّاً، نال (إحسان الدمنهوري) ترقية أو ترقيتين فنقل إلى (الإسماعيلية)، وزادت فترات تغيبه عن (مريم)، فتذرعت الأخيرة بذلك لتنتقل إلى (بيت البنداري) من جديد، منفذةً لرغبة (إسماعيل).

(٨)

رحيـــل

القاهرة - ١٩٦٧

يرزق (إبراهيم) بولده الأول فيسميه (آدم)، ثم لا تلبث (دنيا) أن تسارع بإحكام وثاقها لقلب (إبراهيم) فتأتيه بـ(حواء)، يُستدعى (إسماعيل) إلى التجنيد بعد خطبته الرسمية على (عائشة) بأيام، وتمر الأيام فلا يحضر مولد أي من أبناء أخيه، بقي غائبًا منتظرًا على طول الخط، يظهر فيما ندر عبر ومضات خاطفة تمثلها إجازاته القصيرة، المتناثرة بغير نسق بين أوراق النتيجة المعلقة على الحائط، بجوار المذياع العتيق...

يدعس قطار التجنيد عامين من عمره، ويختزل من حياته المنتظرة مع (عائشة) ذات العامين، فاعتاد أن يرسل أربعة خطابات كل شهر، أولها لـ(عائشة)، وثانيها لـ(إبراهيم)، وخطابين آخرين لأبيه وأخته.

يستيقظ (إبراهيم) الذي لم يبرح (بيت البنداري) بعد زواجه، وخصص له أبوه شقة في الطابق الثاني، يهرع إلى المذياع ليتابع أخبار (إسماعيل) وقد بدأت الحرب دون مقدمات مع (إسرائيل)، كان متفائلًا لعلمه أن أخاه وزملاءه قد حققوا نصرًا باهرًا في أيام الحرب الأولى، وكبدوا اليهود خسائر فادحة، يستمع إلى الأخبار فيعلم أن خسائر العدو في ازدياد متواصل، يصرخ فرحًا:

- أحسنت صنعًا يا (إسماعيل).

كان يواسي نفسه بانتصارات أخيه، وقد رُفض التحاقه بالجيش بسبب قدميه المسطحتين، قال له الطبيب عنهما أنهما يسميان علميًا (فلات فوت)، لم يقتنع بأن هاتين القدمين، اللتين طالما لعب بهما كرة القدم في الحارة، غير قادرتين على الدفاع عن الوطن، سأل (إسماعيل) عن ذلك في آخر خطاب إثر فشله في التطوع ثانية فور بدء الحرب، ولكن (إسماعيل) لم يجبه بعد.

يطمئن على صبيه (آدم)، وشقيقته الرضيعة التي أسماها (حواء)، يمر طيف (أم خليل) أمامه في طريقه نحو المطبخ لإعداد كوب من الشاي، فيتبسم لتذكر المرأة العجوز التي قضت في خدمتهم عامًا واحدًا تلا رحيل (أبو شنب)، يرتشف بضع رشفات قصيرة من مشروبه الساخن، ويعاوده شعوره السابق بالزهو بانتصارات أخيه.

في نفس الوقت، وفوق رمال مصرية مضرجة بالدماء، كان ذلك الضابط المصري الدامع العينين يتمتم لجندي بكتيبته:

- لا بد أن نتعرف على هؤلاء الشهداء، وكتابة قائمة تضم اسم كل شهيد وسلاحه ووحدته وكتيبته، بعضهم لن تجد لديه مهمات التعريف، فابحث في ملابسهم ربما تجد شيئًا.

يشرع الجندي منفذًا الأمر، في الوقت الذي يعلن فيه في المذياع عن خطاب لـ(عبد الناصر) مساء اليوم، فيزُف (إبراهيم) النبأ إلى أبيه وأخته القلقين بدورهما. يدون الجندي بيانات زملائه القتلى فاغرًا فاه غير مصدق لما حدث، ملابس ومتعلقات ما يقارب الأربعين جنديًا، قد نثرت في الصحراء مضرجة بالدماء، لا أجساد باقية لتوارى الثرى.

- أين ذهبت الجثامين!؟

يقول مشيرًا إلى الصحراء الخالية. يخيل له عقله تصورات عدة تتشابه في بشاعتها، ويتابع الكثبان الرملية الخفيضة في الأفق، باحثًا عما يدل على مقبرة جماعية، تفيض مقلتاه بماء الحزن، فيشيح بوجهه قبل أن يلحظ ضعفه البشري جنوده الذين ما انفكوا يجمعون الملابِس والمتعلقات المشتتة، يفتشون ما بقي من زملائهم، يميز بعضهم أسماء لجنود يعرفهم وسط المتعلقات، فيسيل الدمع بغير انقطاع.

في جيوب الأفارولات الفارغة خطابات، صور لأطفال، صور لنساء وآباء وأمهات، آيات قرآنية، صورة لمريم العذراء، صليب فضي لطخته دماء الغدر، حتى استوقفه في أفارول أحد الجنود، ظرفًا فيه صورة فتاة خمرية

مليحة، وكلمات لم يفهمها فاسترعى الأمر فضوله، وحمل المظروف إلى الضابط المكلوم.

يتناول الضابط من جنديه مظروفًا أبيض اللون، بداخله صورة لفتاة، كتب على ظهرها تاريخ ليس ببعيد، ووريقة بيضاء مطوية كتب فيها بحروف منمقة:

كفنوني إن مت في ورق الــزهر   ورشـوا ثـراي بـالصـهباء
واذكروني والوجه منطلق البشـر   كـأني ما زلت في الأحياء

يردد الضابط الأبيات الساخرة من الموت أكثر من مرة، دون أن يدرك أن واضع هذه الأبيات هو (إبراهيم عبد القادر المازني)، يعيد طي الوريقة، فيلحظ أن الجندي الشهيد، قد خط على ظهرها كلمتين لا ثالث لهما:

- لن أهرب...

(٩)

عنَــاق

القاهرة - ٥ أغسطس ٢٠٠٩

أربع كراسات من الحجم المتوسط، تم ترقيمها بقلم أسود غليظ، ومظروف بني يحمل خطاباً، وبضع كلمات. كانت تلك أوراق تحمل أسراراً ظلت بلا إجابات منذ عقود وعقود، ثمة صور فوتوغرافية وقصاصات جرائد متناثرة بين صفحات الكراسات بغير ترتيب، وضع الآن (شريف) كل ذلك بين يديه، أصابع (آدم) المرتعشة، تعكس توتره وهي تلامس غلاف الكراسة الأولى، يريد أن ينهي الأمر، يطالع صورة (حورية)، يستمد منها شيئاً من قوة غابت عنه منذ أن كسره الفراق، تمنحه ما يريد كعادتها، يتشبث بالكراسات بكلتا يديه وكأنها تزن أطناناً، يعانقها...

- اللهم أعنِّي على ما أنا مُقبل عليه.

يتمتم بشفاه مرتجفة، يجفف عرقه، ويفتح المظروف البني، المثبت فوق غلاف الكراسة الأولى، أول صناديق الأسرار...

(١٠)

الظرف البني

مدونات إبراهيم البنداري

فاتحة التدوين

رسالة إلى ملك

ابنتي وقُرّة عيني (مَلك)،

يختلج في صدري ما لا يجتمع، ويجيش بأعماقي ما لا طاقة لبشر على تحمله، وكأن الكون من حولي قد أمسى فراغًا من نسيج شاهق البياض، أقبع أنا بداخله كبقعة من سواد حالك، والأمر جد محير، فما أنا بقادر على تلوين الكون بما أشتهي، ولا أنا بقادر على الخروج من شرنقتي المظلمة، كثيرًا ما أقاوم، وكثيرًا -أيضًا- ما أستسلم.

تعتريني حيرةٌ من أمري، وتتمدد بداخلي، حتى تتجاوزني لتشمل الكون بأسره، فأشكك في وجودي من عدمه، يرهقني البحث فأنسى ما ظننت، وأعاود البحث مجددًا، فلا أصل إلى ما أنا باحث عنه، ولا أنساك.

فأراكِ وقد شغلك اللهو على الشاطئ عن مجالستي، أقترب منكِ، فأخاف، أعودَ أدراجي فأسقط في بئر مألوفة من الوحشة والتغرب، والحيرة.

فتارة أحلم باللقاء، وأصبو إليه بكل جوانحي، وتارة أخرى أراني أهرب من كل احتمال بتحققه.

اليوم كالأمس، والغدِ ما هو إلا بقايا من هذا أو ذاك. وعندما تحيطني الشكوك، أنفجر غاضبًا، فلا أجد من بقايا اليوم والأمس سوى بضع شظايا. أعكف على جمعها، أحاول أن أصنع من حوافها المدببة بعضًا من صور أو ظلال، ألملم ما تناثر منها، وكأنه بقايا مرآة قديمة، صعقتها رؤيتي وأنهكتها فتهاوت مستسلمة، ألهث باحثًا في خباياها عن ملامح وجهي، وعندما أوشك على تمييزه، تغزوني الشكوك مجددًا، فأبعثرها حتى تُدمي يدي.

لا تصدقي من سينعتني بالجنون يا بُنيّتي، ولا تصدقي أيضًا كل ما سوف أقول، فأنا التائه بين دروب الغد، وأنا الهارب من ماضٍ لا أثق به. تداخلت في ثنايا عقلي ماهية الحلم والواقع، وذاب بينهما خط فاصل لم أعهده يومًا جليًا، ولم أبصره حتى في أصفى تجليات الشروق.

أعلمِ أنكِ يقينٌ، أو أنكِ بعضٌ من يقين على أبسط تقدير، فإن ظل اللقاء حلمًا طَمست معالمه الأيام، وإن ظللت أنتِ ثابتةً على موقفكِ بهجران أبيكِ، فلعلك تجدين بين هذه الأوراق ما يغنيكِ عن رؤياي.

وكم هو مرير يا (مَلك)، أن يكتب المرء إلى ابنته وهو على يقين من أنها لا تتذكر ملامحه، ولا تجد سبيلًا بين دروب ذاكرتها، يقودها إلى معالم وجهه المتخمة بالقصص والأحداث. بحاجبيه الكثيفينِ، وعينيه العسليتين الشاردتين دومًا (لعلهما مائلتان إلى الاخضرار على الأرجح)، وشاربه الرفيع الذي اعتاد أن يحسن تهذيبه حتى انتهى به الأمر بأن تخلص منه، وتلك الندبة الصغيرة على وجنته اليمنى (اليمنى أم اليسرى؟). ها أنا أبدأ من جديد، ولكن الأمر يا (مَلك) بالنسبة لي، أن الندبة موجودة، ولا يعنيني إن كانت على الجانب الأيمن أو الأيسر من وجهي، المهم أنها موجودة، هذا ما يعنيني، أما ما يُدميني، فهو أنني أتذكر، وأشعرها وكأنها حدثت للتو، أتذكرها، فأمد أناملي إليها كي أمسح سيلًا من دم دافئ وقد انساب في خضوع على إثرها، فلا أجده، فأعلم أنها حدثت منذ زمن لا أذكره.

ولكن لهذا حديث آخر إن لم تخنّي الذاكرة...

أبدأ اليوم تدويني لما أتذكر من حيواتي، أو ربما يكون ذلك استكمال لما سبق تدوينه عبر مراحل العمر المختلفة عبر مسالك زمن لا يُبقي ولا يذر، ولعلني أشفق عليكِ يا صغيرتي مما أنت على وشك الخوض فيه، فعلى متون كلماتي القادمة، سألقى بكل ما أضناني حمله، من قصص، وأحلامٍ، وصور، وأشعار، وقصاصات ورقية لا أذكر كيف وجَدَت طريقها إليّ، سأخرج ما بداخل هذه الروح الحبيسة في إطار هذا الجسد الفاني، وأستودعك إياه، فأنا بذلك أحررها للأبد.

سأقول كل شيء، غير عابئ بما سوف تخلُصين إليه من تدويني هذا، فقد هاجمني قبلك العشرات والعشرات، طُردت ممن لا يملك الحق في طردي من وطن لا يُدرك له حدود، ومُنعت وامتنعت عن البوح بما يمزقني كتمانه، صُعقت وصَعقت، ظُلمت وظَلمت، رُجمت عمَّا لم أمسه، وزَنيت فصفح القوم عني، كتبت الشعر، فنُهرت على ولوجي إلى محراب الشعراء وما أنا بكاهن، قَصصت، فنُبذت خارج مدن القصاصين، واتُّهمت بنسب عمل الآخرين لنفسي زوراً، قُتلت ألف مرة، وعُدت ألف مرة، وما زال بجعبتي ما ينوء البحر عن حَمله. فقط إن كان بإمكاني أن أتذكر.

قد بقي بعض من الذكرى راسخًا بقلبي، وما زلت غير واثق من حدوث بعضِ آخر، أعرف أن (عبد الناصر) قد مات، وأعرف أن (مليكة) قد هجرتني. أعرف أن (دنيا) لم تحاول يومًا أن تظللني من حُرقة شمس الحقيقة، ولا أن تضمني إلى صدرها فتدفئني في ليل شتاء قارس، أعرف أن (نوحِ البنداري) قد آثر الموت على البقاء في هذا العالم الذي لم ينتمِ إليه يوما، أثق أن (نادية عيسى) قد هجرت غربتها الإجبارية الأولى إلى غربة أخرى اختيارية، أذكر أن (فرانشيسكا) قد رحلت يومًا ولم تعد من جديد، أعرف أنني أحبكما، وأعرف أنني أكتب ما أكتبه الآن وأنا جالس على شاطئ العجمي، ولكن أين كنتُ قبل الآن؟ وأين سأكونُ غدًا؟ ما أنا بواثق من حقيقة أمري، لا أتذكر الأمر بوضوح، ولكنني سأحاول، فإن وجدتني يا (مَلك) وقد دونت ما أدون اليوم في بضع من كراسات قديمة بالية، فلا تظني بأبيكِ ثمة محاولة لمحاكاة (جِان جاك روسو) أو (سعد زغلول)، فكلاهما كانَ محظوظًا بأن سرد جزءا أو بعض أجزاء من واقع عاشه، وها أنا أخط حروف كلماتي هذه وأنا حائر بين ما عشته حقًا، وما جال ويجول بخاطري، بين الحلم والخيال، وبين التمني والهذيان.

تراودني الحيرة مجددًا فأتردد كعادتي، هل حقًّا أريدك أن تعرفي؟ أليس من المحتمل أن تبقى حياتك أفضل إن لم تعرفي؟ أنا لا أعرف بشكل قاطع، فلعل في التجربة ما يفيد، ولعل فيها ما لا يضيف إلى معرفتك ولا يزِيد.

اعلمي أن لك إخوة يا (ملك)، أرسل لكل منهم بمشيئة الله مثل ما انتويت أن أرسل لك اليوم، آملًا من الله أن تجمعكم أوراقي هذه يومًا.

يا ابنة (مليكة)، لا تثقي بترتيب ما سيرد في مدوناتي، فقد عقدت العزم على التدوين، مُحملاً بتكليف أحاطت به قناعاتي، بيد أنني قررت أن أدون وفقًا لما يلح على خاطري من ذكريات ورؤى، كما أنني لا أثق، إن كان التدوين، سيضم من المتناقضات ما يُحيل استيعابها مرهقًا، أم لا، فقط سأبذل قصارى جهدي، كي لا يضل قارئ المدونات السّبل بين الأزمنة، أعدك بهذا...

نهايةً، فإن كل ما آمله وأنا على وشك الشروع في هذا التدوين، أن أنشغل عن إكماله، فلا يقع يومًا بين يديك، كي لا تعرفي ما عجزت أنا عن معرفته، فحرصت على إخفائه.

إبراهيم نوح البندراي

العجمي في خريف ١٩٧٢ (على الأرجح)

(١١)

حكْمـة أولى

بفناء هذا الجسد، تتحرر الروح وما تفنى، وفي فناء هذه الروح، فناء للدنيا، وحلول لقيامتها.

(الشيخ الملَيكي)

(١٢)

شتيت المتداخلات

المتداخلة الأولى

أطياف من حارة البنداري

اللّه حيَ... عبّاس جيَ
اللّه حي... عبّاس جي

طيف عبد الحميد البنداري

رأيته من خلالهم، رجلًا قويًا صالحًا، رجل دين لم ينأ بنفسه عن العوام لينعزل في برج عاجي واه، ورجل من عوام الناس وقد أنعم الله عليه بقسط وافر من علوم الدين وشئون الدنيا، فاختلط ذلك بذاك في بوتقة إلهية، وأضيف إلى الخليط بعض من نفحات ووصفات سرية، ليُخْرِجَ الله لنا من بوتقته (عبد الحميد البنداري). من يعرفونه، قالوا إن ابنه (نوح)، هو امتداد لروحه في جسد آخر، ولولا أن حضر جدي من عمر أبي عديد السنوات، لآمنت بداخلي أن روحهما واحدة، ولذلك حديث آخر. إلا أن العالم ببواطن الأمور وكذا ظاهرها، يدرك أن (نوح) كان أقرب لأبيه من (إمام)، لا لعلة أو شائبة بـ(إمام)، وإنما لكثرة ما جمعه بـ(نوح)، مظهرا وجوهرا، حتى أن (أبو شنب) قال لي، أنه كان لهما صوت واحد، وضحكة واحدة، فإن غلب أي منهما النعاس، كان لهما ذات الشخير!

مات قبل ميلادي، وقيل إن قبره بـ(التوابية) قد نَثر في ربوع قريتنا مسكًا فور ولادتي، لم أعبأ كثيرا بتلك الروايات، خاصة أن (أبو شنب) كان قد دأب على ري مخيلتي منذ الصغر بقصص الجن والموتى والنعوش الطائرة، وكيف كان نعش الرجل الصالح يطير مهرولًا، كالمشتاق إلى ضمة القبر الحانية، وبطبيعة الحال كان جدي على رأس قائمة المهرولين، ولكن هرولة نعش (عبد الحميد البنداري) كانت مختلفة، ولهذا قصة طويلة...

ولد جدي قبل الثورة العرابية بعقدين من الزمان، أي في بدايات الستينات من القرن الماضي، اهتم بعلوم الدين فألقى بأعوامه بين أمواج العلم، حتى تشربتها مسامه، ومرت أعوامه، وشرع ينقل معارفه لكل طالب علم. أما أخوه (عبد الكريم)، جدي الثاني، فقد اهتم بتجارة العلف التي

ورثها عن أبيهما، وكان لديه دكان في (التوابية)، يقصده المزارعون من شتى القرى المجاورة، وكلما راجت تجارة (عبد الكريم)، ازداد مقام أخيه وخليله (عبد الحميد) علوّاً وسموّاً، حكى لي (أبو شنب) العشرات من نوادر وحكايات جدي، لم أنسَ منها أكثرها إيلاما، وهي تسميته بالشيخ الغائب.

ذاع صيت (عبد الحميد البنداري) كأحد أشهر محفِّظي القرآن وأفضلهم، كَثُر الحديث عن فضائل شخصه، وندرة خصاله الطيبة، وتفاخر به أهل (التوابية)، كان أبوه قد ترك له ولأخيه أطياناً شاسعة تكاد أن تمثل نصف أراضي التوابية المزروعة، ولكنه زهد هذا بدوره، وترك شأن الأرض والزرع وتحصيل الإيجارات لأخيه (عبدالكريم)، فلم يبع ولم يشترِ متراً، إلا عندما باع قطعة أرض صغيرة بعد تشاور مع أخيه، حتى يبني بيت شبرا أوائل القرن الحالي، وفور أن انتقل إلى قاهرة المعز، صار له محبون ومريدون في عمومِ شبرا وما جاورها، خاصة مع بداية طقوس حضرته الأسبوعية، التي سَنّ موعدها وسار على خطاه من تلاه، الشيخ (الرفاعي) حينما كان عود (نوح) لا يزال ليناً، وحين اشتد عود ولده ووريث خصاله، تسلم (نوح) مفتاح غرفة الحضرة من (الشيخ الرفاعي)، ليكمل مسيرة أبيه، ولم يعلم كلاهما أنه سيكون لهما، من نسلهما، (إبراهيم) سيترك كل هذا خلفه، ويعدو خلف ظلال، يطاردها وتطارده، يبحث في كنفها عن جوهر الكشوف، الكاشف لأسرار طلاسم وحروف، أغلب الظن أنه هو كاتبها!

أكتب هذا الآن، ولا ترن في أذني سوى أصوات الحضرة، ولكنني حتماً، وكعادتي سأقاوم التشتت...

لم يتزوج (عبد الكريم)، وقال (أبو شنب) أنه لم يحب سوى فتاة واحدة طيلة عمره، وقادته الأقدار ليجد نفسه منها، على الضفة المقابلة من النهر، فـ(أمينة) تحب أخوه (عبد الحميد)، (عبد الحميد) غير المنشغل بشيء سوى بالمزيد والمزيد من التبحّر في علوم الدين، ولكنه بعلمه وسيرته الطيبة، ووجهه الرقيق الباسم، قد سكن قلب محبوبة أخيه

الصامت، بهدوئه الخَجِل، وقناعته، وقفطانه الأزهري الساطع البريق، وشاربه الرفيع القابع فوق شفتيه بقناعة، فلا يهزمه الزمن فيشيب، ولا يتملكه الإهمال فيستطيل.

تمت الزيجة على أساس اختيار أمهما لـ(أمينة) كعروس لـ(عبد الحميد)، وهو الأخ الأكبر الذي يتحتَّم تزويجه قبل الأصغر (عبد الكريم)، خاصة وقد تجاوز من العمر ثلاثة عقود، كان ذلك الاختيار باتفاق بين أم العروس وأمهما، فرحت (أمينة)، وفرح بها وبجمالها (عبد الحميد) رغم زهده، ودفن (عبد الكريم) قلبه يوم أن خرجت أمه رفقة أم (أمينة)، حاملتين الشاش المضرج بدمائها، معلنتين تمام عفتها، وزوال بكارتها...

ما زلت أذكر، رواية (أبو شنب) عن هجرة (عبد الكريم) للقرية، متذرعًا بالسعي خلف تجارته في قرى أخرى، غادر على وعد بالعودة، اختار هو أن يحنثه قبل أن ينطق به، لم يحمل في صدره ضغينة لأمه التي كانت لهما كل شيء منذ وفاة أبيهما مبكرًا، ولم يعادِ أخاه، لثقته أنه كان منشغلًا في عوالم أخرى، ولم يقصد يومًا أن يخطف منه حبيبته، كما لم يجرؤ أن يلوم (أمينة)، ولم يَقوَ على كراهيتها، كيف وقد تركته لتختار خيرة شباب (التوابية)، أخاه الأكبر، وخليله الوحيد، (عبد الحميد).

فقط خشي (عبد الكريم) من لحظات الضعف المحتملة، وقد كان فراق أخيه للبلدة طويلًا، وفترات غيابه متعددة، وكان مستقره وزوجته هو ذات البيت، في غرفة مجاورة لغرفته، يفصل بينهما جدار من طوب لبني بارد، قد لا يصمد أمام ما استعر في فؤاده من لهيب، فَيَلين ذات مساء وينهار، ارتجف قلبه لتَخَيّل وضع كهذا، وقرر الرحيل بعد الإتيان بأغرب ما يكون...

حكى كامل قصته، دونها في ورقة واحدة، طوى الورقة على هيئة مثلثات وكأنها عمل سفلي، أو حجاب من صنع شيوخ الدجل، حفر ما زاد عن الذراعين عمقًا أمام باب حجرة أخيه، وضع مثلثه في صندوق خشبي صغير، دثر صندوقه بقطعة من شاش أبيض، وضعها حيث انتهى من

حفره، دفنها، ومضى واثقًا أن لن يجدها من بعده إنس ولا جان... كان ذلك في حدود عام ١٨٩٥، حين رحل (عبد الكريم)، تاركًا قلبه مدفونًا على عتبة حجرتها، تخطو فوقه كل صباح ومساء، فلا هي تلامسه، ولا تدعسه، ولا هو يفارقها.

يحتفظ الشاش ببكارة عشقه، فلا يبلى، ولا تضرجه الدماء.

لم أفهم مغزى فعْلته، فهل أراد بذلك أن تعلم زوجة أخيه أنه أحبها يومًا؟ لو أراد لما دفن وريقته على عمق ذراعين! هل أراد لورقته وقصته أن تفنى؟ لو أراد لما حفظها بإحكام في ذاك الصندوق الخشبي! تبقى على غموضها قصة تضحية عظيمة، توجها (عبد الكريم) بأن رحل عن الدنيا في هدوء بعد ذلك بعشر سنوات بالقرب من (منوف)، حيث استقر بعد طيلة ترحال، واثقًا بأن سره قد سبقه إلى الثرى، خاصة وقد انتقل الجميع إلى منزل (شبرا) فور الانتهاء منه في حدود عام ١٩٠٢، وبقي بيت (التوابية) ليكمل رسالته، هذه المرة كدار للمناسبات...

رحل (عبد الكريم) بغير مرض مفهوم، ولم يعلم أن (أمينة) سوف تحسن تكريمه بعد رحيله، كما لم يعلم أن عبدًا سودانيًا صغيرًا، قد رآه يوم أن دفن وريقته حيث اعتقد أنها بذلك في مخبأ أمين، وظل العبد طيلة أعوام وأعوام، يخشى أن يخرجها من حيث وُضعت، ظنًّا منه، أن ما بها سحرًا، يحرسه جن فتّاك، حتى مات (عبد الكريم)، فعاد (أبو شنب) إلى (التوابية) خصيصًا، ليخرج الوريقة راجفًا، قبل أن تبللها دموعه فور قراءتها.

تعاودني أصوات دفوف الحضرة الآن، تصحبها طبول حرب، وأصوات غارات، ولكنني حتمًا سأنحي كل ذلك جانبًا، أعلم أن هذه الأصوات تود أن أحيد عن السرد، ولكنني لن أُهزم...

ألقي على عاتق جدي شئون الأرض بوفاة (عبد الكريم)، كان جزء من الأرض مؤجرًا للغير، وجزء آخر تولى أخوه زرعه وبيعه، وكان يرسل له في كل موسم حصته من البيع والإيجار سويًّا، حتى حين هاجر (عبد الكريم)

من (التوابية)، عهد لابن خالتهم (علوان) بذلك حتى لا يشغل أخاه عن مسيرته العلمية. وبوفاة (عبد الكريم)، أجّر (عبد الحميد) ما كان غير مؤجر، وعهد لـ(علوان) بمتابعة شئون أرضه، وظلت تلك طبائع الأمور حتى كان التأميم بعد ذلك بعقود.

تلت وفاة (عبد الكريم) أحداث جِسام، حيث وصل إلى جدي (عبد الحميد) استدعاء من البابِ العالي، من قصرِ الخديو، لم يكن خائفًا كما قيل لي، ولكنه كان متوترًا مندهشًا، متوجسًا؛ لم يستوعب عقله ماهية الاستدعاء، ولم يستنبط توابع هذا الاستدعاء ونتائجه، كان يعلم أنه لم يرتكب أية حماقة، ولم يؤذِ إنجليزيًّا، ولم يجادلِ، ولم يعترض على أي شيء طيلة حياته، هل تكون حضرته الأسبوعية سببًا في هذا الاستدعاء؟ ظل (عبد الحميد البنداري) على دهشته، حتى عاد بعد صلاة العشاء، كانت أمه العجوز تنتظره صحبة (أمينة)، وكان (نوح) الصغير يقف على عتبة البيت رفقة (أبو شنب)، حين عاد والده...

- لقد التقيت مولاي الخديو، فوجدته شابًّا يافعًا ذا أدب ودين، أمرني بأن أقيم الصلاة، وأن أصلي بالجمع إمامًا، حتى فرغت من صلاتي وإمامتي، فأخبرني القائم مقام، أنه قد تم اختياري لمهمة تحفيظ وشرح القرآن بالقصر.

هذا ما تلاه (عبد الحميد) على الجمع، وقد قارب شحوبه على أن يحيل وجهه المصفر صفحة ناصعة البياض، وَجِلت أمه، فرحت (أمينة) باستحياء، صمت (أبو شنب) كعادته، ولم يفهم (نوح).

كان ذلك كما ذكر (أبو شنب)، وأكد روايته والدي (نوح البنداري)، بعد أن نشر مصطفى كامل{٣٥} نداءه الشهير بجريدة "لو فيجارو"{٣٦} بقرابة العام، كان هذا النداء قد صدر عقب حادث (دنشواي){٣٧} المأساوي، وكان العامة يتهامسون عن ضعف الخديو{٣٨} إثر هذا الحادث، فكانت أسهمه في انخفاض واضح، لم يستبشر (عبد الحميد) خيرًا، ولكنه لم يملك رفاهية الاختيار، ولعل ما يسّر قراره في واقع الأمر، هو حسن استقبال الخديو له،

واستشعاره أن ما يسكن خلف هذه البزة الخديوية، بشرٍ له قلب، يبطن عكس ما تظهر قسمات وجهه القاسي.

انضمّ إلى طاقم القصر، وعُهد إليه بتحفيظ وتفسير القرآن للأمير محمد عبد المنعم، والأمير محمد عبد القادر، وطُلب منه بعد ذلك تعيين معلمي الدين للأميرات، أمينة، وعطية الله، وفتحية، ولطيفة شوكت.

[ملحوظة: لم يذكر (أبو شنب) من أسماء الأمراء والأميرات سوى الأمير محمد عبد المنعم، الذي جمعته بجدي علاقة وطيدة فيما بعد، ولكنني لأستكمل مذكراتي كما ينبغي، قمت بالبحث، لأكمل الصورة، وأزين حوافها بالإتقان، وليس التجميل].

تمر بعد ذلك أعوام، يرزق جدي بولده الثاني، عمي (إمام)، وتفرق جدتي (أمينة) العطايا، فتذبح الخراف، وتوزع كامل ذبائحها على الفقراء في يوم ثابت من كل عام، هو اليوم التالي لميلاد (إمام)، والموافق ليوم وفاة عمي (عبد الكريم)، لم أعلم إن كان ما توزعه جدتي، حتى واراها الثرى، هو عادة سنّتها كاحتفال بمجيء عمي (إمام) إلى الدنيا، أم أنها قربان شفاعة، لقلب جدي (عبد الكريم) الراحل عن عالمنا.

- لا يوجد أنثى على وجه الأرض، يحبها امرؤ فلا تشعر به ولا تعلم، هن حتمًا يشعرن بالهوى فور أن يولد، قبل أن يمسي تلميحًا، ويصبح تصريحًا.

قال ذلك والدي ذات يوم في معرض حديث آخر، فهل كان تصرف جدتي شعورًا بالذنب؟ لا أعلم!

ظلت مجريات حياة عائلتنا على وتيرة واحدة، حتى استعد جدي (عبد الحميد) لسفرة جديدة مع الخديو، كان قد اعتاد الارتحال برفقته، وبات إصرار الخديو على مرافقته لهم نابعًا من شدة تعلق الأمير (محمد عبد المنعم) به، خصوصًا وقد ألفَت نفس جدي الحياة في قصر الخديو، ولم يعد يرى بها أية غضاضة، طبيعة عمله أضفت عليه وقارًا وهيبة لم يَسْعَ يومًا لأي منهما، ولم ينل أيّ منهما منه، فكان لا يرى في عمله لدى الخديو أمرًا يسمو به فوق باقي شيوخ المُحَفِّظِين، فهو يُحَفِّظ القرآن، ولا فارق

لديه بين تَحفيظ (أبو شنب) أو تحفيظ سمو الأمير. كما أن أسهم الخديو عادت لترتفع بين المصريين من جديد، وتجاوز المصريون عن (دنشواي)، وما كان في (دنشواي)، أو لعلهم قنعوا بإنهاء خدمة اللورد (كرومر)[٣٩] كردة فعل كافية.

غادر جَدي رفقة الخديو في صيف ١٩١٤، في إطار الرحلة الصيفية المعتادة للخديو آنذاك، ودَّع زوجه وولديه، وكانت أمه قد آثرت وداعه قبل عام في هدوء، ودون ألم، صار من بعدها وحيدًا بحق، وأحس باليَتْم يتسلل إلى خلاياه لينصب خيمته الرمادية حوله للمرة الأولى، تعمّق في كتاب الله، أبحر بين آياته، وأكثر مِن الصلاة، ولكنه كان حتى استقل "المحروسة" رفقة الخديو، لا يزال منكسراَ برحيلها...

روى (أبو شنب) أن أم جدي، قد بدت وكأنها قررت الرحيل، وكانت كمن أعد العدة للموت، لتبادره قبل أن يفاجئها، وزعت مصوغاتها الذهبية على جدتي (أمينة)، وبضع نساء من أقاربها، قبل أسبوع من الرحيل، أعدت كفنها، ووضعته تحت وسادتها، وعلاوة على ذلك، أخبرت جدتي ليلة رحيلها بأن الأوان قد آن، ودوى في أذنيها النداء، بأن تهم لزيارة (عبد الكريم)، فلبت النداء في ذات الليلة، دونما مرض أو علة.

سافر (عبد الحميد)، وضمت (أمينة) ولديها، وتوجس (أبو شنب) بغير سبب، فشرع يمارس مهام حراسة بيت سيده، بأمانة لا تكل، وتكرار لا يمل، حتى تواترت أنباء عن محاولة لاغتيال الخديو في (إسطنبول)، فازداد التوتر، واحتدت النبرات، وباتت جدتي محمرة العينين متورمة الأجفان. كان صراخها في ولديها وجاراتها مع كل شاردة وواردة، ما هو في واقع الأمر إلا تفريج عن الهم، ومحاربة للكرب، ومقاومة للخوف المتنامي، إثر إعلان بداية الحرب.

أرسل (الشيخ الرفاعي) خطاباً لجدي (عبد الحميد) فور أنباء محاولة الاغتيال، وجاء رد جدي مقتضباَ مطمئنًا، لم يمض الكثير منذ أن دقت طبول الحرب، حتى أعلن الإنجليز عن عزل الخديو (عباس حلمي الثاني)،

وفرض الحماية على مصر، وفصلها عن التاج العثماني، ليستوي عمّ الخديو على عرشه، فلم يأبه المصريون، وإن تململوا في جلستهم، ومطّوا شفاههم اعتراضًا، تم تحويل مصر إلى سلطنة، فلم يجد المصريون في ذلك أمراَ جللًا، كانوا يعلمون أن الخديو قد عزله الإنجليز، وكان ذلك يزيد من قَدره لديهم، ولكن ردة الفعل لم تتجاوز الحناجر، والهتافات في حينها لم تبرح الشفاه.

نُفي جدي بصحبة الخديوي، وانقطعت أخباره، عَلمْنَا أن الخديو سافر إلى سويسرا، ثم غادرها، وقيل إنه عاد إلى إسطنبوَل، ثم قيل أيضًا أنه سينفى كجده (إسماعيل) إلى إيطاليا، ولكن الأنباء أكدت عكس ذلك، قيل ما قيل، وأهيل من الحبر أطنان فوق الورق، ولم تقتنع (أمينة) أن جدي لن يعوِد، وبمرور الأعوام، أُطْلقَ على بيت جدي (بيت الشيخ الغائب)، الذي يِسمع صوت رفعه للآذاَن في كل فجر، صادراً من السماء فوق حارته التي سميت باسمه، لم تستنكر أمي تلك الحكايات، ولم تستغربها، ولكنها وجدت أن عدم سماعها لما يرويه القوم عن رفع زوجها لآذان الفجر، ربما يرجع إلى تقصيرها نحو الشيخ الغائب بصورة أو بأخرى، فراحت تؤنب ذاتها، دون إدارك بمواضع التقصير ومواضع الذنب!

كلما أخذت أفند احتماليات مكان منفاه، أتوقف عند (إسطنبول)، وترن في أذني باسمِها القديم تلقائيّا: (الآستانة)، ثم لاِ ألبث أن أتخيلها، شوارع وبيوت، وناسًا وحوانيت، تبث مخيلتي مرورًا تصويريّا بين كل ذلك، بصورة توحي لي وكأنني زرتها ذات يوم، ولكنني أعلم أنني لم أفعل، فأتجاهل مخيلتي النشطة، كما سأفعل الآن!

ظلت جدتي على عنادها المختلط بشعورها بالذنب، وكانت مع كل مظاهرة يهتف فيها الشباب، وكل مساء يلهو فيه الأطفال مرددين (الله حي... عباس جي)، ينفرج صدرها أملًا، فبعودة (عباس)، يعود (عبد الحميد)، وبغيابه، يغيب زوجها، وحبيبها، وقد يطول به الغياب حتى يفرقهما لقاء (عبد الكريم).

التهبت الأوضاع مجددًا في المحروسة، وشاركَت (أمينة) في ثورة ١٩{٤٠}، فكانت الجموع تهتف: "الاستقلال التام أو الموت الزؤام" وتردد هي: "الله حي.. عباس جي"، يقاطعها صوت الفتيات المتحمسات: "نموت نموت وتحيا مصر"، فتعيد هي بصوت زاده التحدي علوّا: "الله حي.. عباس جي". انتهت الثورة، وكان أكثر من فرح بانتهائها هو (أبو شنب)، قال لي:

- أصرت جدتك على المشاركة في المظاهرات، ظنًّا منها أن في ذلك خيرا لجدك، حاول أبوك وعمك جاهدين إثناءها عن ذلك، أو إقناعها بخطأ ظنها، فلم يفلحا، أصيب أبوك في إحدى المظاهرات بأن شَجّت إحدى العصيّ رأسه، فعهد لي بمهمته التي دأب عليها، وكانت مهمتي هي - فقطِ- أن أؤمن جدتك، وفي كل مرة شاركَت فيها النساء مظاهراتهن، أوسعني الناس ضربًا، كلما ضبطت مقتربًا من جمع للنساء. أَسَرَّ لي أبوك فيما بعد، أن إصابته في حقيقة الأمر كانت لذات السبب.

تعددت الخطابات المرسلة، وجفت منابع الردود، فبقيت خطابات أمي وخطابات (الشيخ الرفاعي) بلا ردود، وأمست استفساراتهما عن حال جدي، مُعَلَّقة فوق رءوس مرسليها بغير إجابات، لسنين تلت.

كان والدي في الثانية والعشرين من عمره، منتصف عام ١٩٢٢، حين جاءه خطاب مع شيخ أزهري قادم من الآستانة، قال إن من أعطاه إياه هو الأمير (محمد عبد المنعم)، فتح الخطاب رفقة أخيه (إمام)، وجاء به أن أباه مريض، أخبره الأمير أن أباه وقد ناهز الستين من العمر، قد وهن كثيراَ، وأنه أمسى يرفض نصائح الأطباء، ويتجاهل الدواء والعلاج، قال إنه فقط يريد أن يعود إلى القاهرة، وأنه ووالده الخديو، يسعيان إلى إتمام ذلك في أقرب فرصة.

لم يخبرا أمهما بمرض أبيهما، ولكنهما طمأناها برفق لا يليق بها غيره.

كانت جدتي (أمينة)، ترنيمة عشق مستمرة لجدي (عبد الحميد)، تتحاكى به وتتغنى، ولا ينقطع إنشادها بمحبوبها، تحبه، تقدسه، ويتمدد حبها له فيتعاظم كلما طال الغياب، دارت بين الجارات تتحاكى بفطنتها، وصدق

حدسها حين أكدت لهن، أنه عائد لا محالة، زجرت كل من أطلق على بيتها (بيت الشيخ الغائب)، وإن لم تجرؤ على إنكار آذان الشيخ الغائب، حتى أعلنت في ذروة غبطتها أنها أمست تسمع صوت آذانه بدورها كسائر أهل الحارة، لم يقاطع فرحتها ولداها، إذ كان ذلك الخطاب هو الأول منذ ثمانية أعوام.

غابت الآن أصوات الدفوف، واندثرت أصوات الغارات بنهاية الحرب، وصار سمعي نقيّا كاشفًا لدبيب النمل.

لم يُخْلف الخديو والأمير ما قطعاه على أنفسهما من وعد، بتسهيل عودة جدي، وإن طال بهما الأمد عامين، لم يقو خلالهما (عبد الحميد البنداري) على مقاومة الحنين إلى القاهرة، ففارقت روحه جسده العائد إلى تراب مصر، وسبقته إليها، روى (أبو شنب) حكايات متنوعة عن نعش جدي (عبد الحميد) الذي عاد مرفرفًا عبر البحار، حتى استقر في تراب (التوابية)، ملاحقًا بصرخات جدتي (أمينة) الملتاعة.

ربما رافقت روح جدي جسده العائد، حتى اطمأنت أنه قد استقر في موضعه الصحيح، فضمته حبيبات تراب (التوابية)، ربما سبقته، ربما ضلت طريقها، ربما استدعاها بارئها لمهمة جديدة، لا أعلم. فقط أعلم أنني حين كتبت هذه الخواطر للمرة الأولى، كنت واقفًا، متكئًا برسغي الأيسر على سور "كوبري عباس"، ممسكًا قلمي بيميني، وقد ثَبّتت يدي اليسرى الكراسة على السور، تداعب النسائم وجهي، فأزداد تشبثًا بكراستي، يرن في أذني ما قيل لي عن هتافات المصريين ومزاحهم، وترديدهم لذاك النداء، الذي كانوا يستفزون به الإنجليز، ويعلنون به حنينهم لأن تعود مصر لكنف الدولة العثمانية، أخط كلماتي وقد وجدتني أردد معهم في شرود باسم، متذكرًا قصة جدي (عبد الحميد)، وأسطورة جدي (عبد الكريم)، وترنيمة عشق جدتي (أمينة):

(الله حي... عباس جي)

وإن كنت أعلم أن أيّا منهم لن يعود.

هو الذي رأى كل شيء حتى حدود الدنيا
هو الذي عرف كل شيء وتضلّع بكل شيء
سيد الحكمة الذي بكل شيء تعمّق
رأى أسرارًا خافية، وكشف أمورًا خبيئة
وجاءنا بأخبار عن زمان ما قبل الطوفان
مضى في سفر طويل، وحل به الضنى والعياء
ونقش في لوح من الحجر كل أسفاره
من ملحة جلجامش

في حَضرة نوح البنداري

- هل أنا مسيحي!؟

سؤال عصف بعقلي، في وقت كانت فيه عقول أقراني ومخيلاتهم منشغلة بصنع الكرة الشراب وتنظيم المباريات فيما بينهم، كنت قد جاوزت العاشرة للتو على ما أذكر، متشبثًا بطفولتي، حين قال (ريمون) لصبي آخر اسمه (صلاح ذكي) أنه سمع والدته تُسِرّ لإحدى جاراتها بأنني مسيحي لقيط، ولدت لأبوين أرمينيين توفيا فَي حادث، وعهد لأبي بتربيتي. لم أستوعب، حكى لي (صلاح)، فانزعجت وإن لم أفهم، وكعادتي، مع كل سؤال أعجز عن إدراك إجابته، هرعت إلى والدي، وسألته، تبسّم على عكس ما توقعت، أجاب:

- ماذا تريد -أنت- أن تكون؟

أجاب ببساطة، وقد هَدَّأت ابتسامته الحانية من روعي:

- أحب أن أكون مسلمًا بالطبع!
- لماذا؟

باغتني استدراكه، فسقطت لثوان في حيرة من أمري:

- أحب أن أكون مثلك!

اتسعت ابتسامته، وبدت وكأنها تكفي لتطمئن عَالَمًا بأسره، سألني عن الدافع خلف سؤالي، فقصصت عليه ما كان من رواية أم (ريمون). شرد، محافظًا على ابتسامته، ثم بادرني من جديد

- إن ولدت لأب مثلي، وكان اسمه (بطرس)، هل كنت لتغدو مسلمًا؟ وإن ولد (ريمون) لأب مثل أبيه، وكان اسمه (عبد الحميد)، هل تثق بأنه كان سيترعرع مسيحيًا؟

دار رأسي مجددًا، فأسند كفيه على كتفي، واقترب من وجهي حتى لفحتني أنفاسه، عاود التبسم:

- إجابة سؤالك يا (إبراهيم) هي أنك مسلم، ولكن وصفك بأنك مسيحي لم يكن ليزعجك، فليس في ذلك سُبّة، ولا يعني انتقاصًا من إيمان المرء وتدينه، يُحَفِّظُكَ الشيخ (الرفاعي) القرآن، أليس كذلك؟

أومأت برأسي مجيبا، فاستطرد:

- هل وجدت في قرآنك ما يجعلك حزينًا من أن توصف بالمسيحي؟ ألم يقل ربك في كتابه "وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ"؟

رتَّل الآيات بصوت عذب، وقد أسبل عينيه، هززت رأسي يمينًا ويسارًا، مجيبًا على الشطر الأول من سؤاله، ثم أومأت إيجابًا ردًّا على الشطر الثاني، فضحك ظنًّا منه أن الأمر ملتبس عليّ، فقرر ألا يرهقني أكثر من ذلك...

- إن أردت أن تكون مثلي، فاعلم أنني مسلم، أؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، أؤمن أن الناس أمامي -وأنا العبد- سواء، وأمام خالقهم يُصَنَّفُون، ويُقَسّمون بين صالح، وطالح، فيلقى كلٌّ منهم الثواب والعقاب، كلٌّ وفق ما اقترفت يداه.

أومأت برأسي مجددًا، مترددًا هذه المرة، لم أستوعب حينها ما كان يقصد تفصيلًا، وإن فهمت منذ ذلك اليوم أن الأمر سواء، بثت كلماته الطمأنينة

في أوصالي، وأذكر أنني حينها نفضت الأمر من رأسي، ونسيته لأعوام لا أذكرها.

أسمع الآن أصواتًا، بل هي همساتٌ لبشر، يسرّون لبعضهم بما أسرّته أم (ريمون) لجارتها، الأصوات تتكاثر حتى يمسي همسها فحيحًا، يزعجني هذا، ولكنني لن أتوقف...

فيما بعد، علمت من أبي، أن (أبو شنب)، هَمّ ليتشاجر مع والد (ريمون) في حينها، ظنًّا منه أن ما قاله ضايقني، فزجره أبي، وطلب منه ألا يتحدث بذلك الأمر مجددًا، فأطاعه خادمه العجوز الأمين. ولم يخبره بما أخبرته أنا به، وهو أن ما أزعجني -حينها- في حقيقة الأمر، كان مجرد تصور، أن يكون لي أب ليس هو (نوح أفندي)، وأم ليست هي الست (جميلة)!

بقدر ما أحببته، وبقدر ما كان لي، علاوة على كونه الأب، الصديق وربان السفينة، بقدر ما كان لـ(أبو شنب) مكانة خاصة بدوره، حتى أنني وددت أن أعاتب أبي، أحيانًا، لأمور تخص (أبو شنب)، فقد كان يخدم رواد الحضرة، ولا يسمح له بالإنشاد معهم، كان لا يصلي إلا منفردًا، ولم أضبطه يومًا يصلي في مسجد حارتنا، كنت أعلم أنه يصلي، متقطعًا، فلا يواظب، ولا ينقطع عن العبادة تمام الانقطاع، فهل كان ممنوعًا من الصلاة مع السادة، كما كان ممنوعًا من الإنشاد معهم؟ سؤال ألحّ عليّ كثيرًا، ووددت أن أتحدث مع (نوح أفندي) بشأنه، إلا أن هالة الرضا التي طالما أحاطت بـ(أبو شنب)، كتاج مضيء، منعتني عن ذلك.

ترن في مخيلتي أجراس كنيسة، يتداخل معها صوت الإنشاد في الحضرة، يتعالى الإنشاد حتى أظن أن الأجراس قد توقفت، يتوقف الإنشاد، فترن الأجراس مجددًا، أغمض عيني وقد جاءني صوتها أقرب ما يكون، يقترن الصوت بالصورة، فأرى السواد الأعظم من قوام الحاضرين وقد اتشح بالبياض، نظرات هائمات، بعضها حالمات، وأخريات ناقمات غاضبات، يتمتم البعض، فتكاد شفتاه أن تظلا مطبقتين فلا تنفرجان إلا فيما ندر، وترتجف أفكاك بعض الحضور وقد صدرت مخارج حروفهم في غلظة

قاسية، غارقة في نقمة عميقة، لم أفهم في حينها سبب اتشاح الشيخ الرفاعي بوشاح أخضر دون غيره، تتماوج الرقاب، وتهيم الرؤى، بدا لي أن المصطفون وقد كانوا قد استهلوا تماوجهم وقد تراصّوا في صفوف متتالية، قد انثنت في اصطفافهم أطراف الصفوف، فمالت إلى الداخل، ليكون جمعهم يشبه حلقات غير مكتملة، في دائرة منقوصة، يطل في مركزها الشيخ الرفاعي...

أشعر أنني أغرق في بحيرة زكية الرائحة، يمرق من أمام ناظري قُس يرتدي عمامة الأزهريين، يزيغ بصري، شيطان قلمي يود أن أتوقف عن الكتابة، ولكنني حتماً لمنتصر.

خلاف ذلك، لم أكن أرى بوالدي شائبة تعيبه، ربما كانت خلافاته شبه منعدمة مع (مريم)، كما أنها كانت قليلة مع (إسماعيل) فيما بعد، إلا أن خلافاته معي، كانت في أضيق الحدود، ولم تمتد سوى لأقصر الأوقات.

ما زالت مؤمنًا -حتى كتابة هذه السطور- أن (نوح أفندي البنداري)، قد جاء هذه الدنيا لهدف، وحُمِّلَ رسالة! لا أقصد هنا نعته بالنبوّة، ولكنني أجد أن الله، يرسل بين الحين والآخر، أناسًا يتبحرون، ويبحثون، عن أدلته، عن أثره، وعن آياته في الأرض، ليمسي إيمانهم راسخ الجذور، فينقلونه لمئات وألوف من قومهم وعشائرهم، ليست هذه نبوّة بالمعنى الشائع، فالنبي يؤتى كتابًا، أما هؤلاء، فهم من يرسلون ليبحثوا، حتى يؤمنوا، فيؤمن بما آمن به آخرون، ربما كان "هيرمان هسه"[٤١] أحد هؤلاء حين كتب "سدهارتا"[٤٢]، والمؤكد أن "بوذا" كان أحد أكبر الأدلة على طرحي هذا، ولا يستثنى من ذلك (نوح البنداري).

فالمراقب لتحليقه فوق المنشدين في حضرته الأسبوعية، يشعر أنه قد انفصل عما حوله، وتحرر من قيود الأرض الدنيا، ليحلق ساميا في سماواتها العليا، الإنشاد بحد ذاته، كحروف تقفّى، وكلمات تقال، وحناجر تعلو مع الإنشاد وتهبط إثر النشيج، يدور في فلك مدح النبي الكريم، ولكنه كان لـ(نوح أفندي)، أمرا أكثر شمولًا، هو يتحرر ولا ينشد، يطير ولا يتمايل، يردد

بعقله أكثر ما يردد بلسانه، يبحث في نوباتِ تحرره عن ذاته، يتحسس طريقه صوب خالقه، حتى يلامس عرشه، فيمسَه نوره، ليعود منتشيًا، أكثر إيمانًا، في كل مرة عن سابقتها.

ربما أكتب الآن ما عجزت عن قوله، وربما هو ما ندمت على عدم قوله، ولكنه يبقى يقينًا راسخًا، قررت منذ نعومة أظفاري، أن أحتذي به كنموذج، وأن أقتدي به كمبعوث سماوي.

في ذات العام الذي قالت فيه أم (ريمون) لجارتها أنني مسيحي، بدأت أعاني من أعراض ضعف البصر، وبدأت أشعر أنني طفل ملعون، لا يبصر ما يبصره باقي الصبية في الحارة، وكانت تلك الفترة، هي بداية اقترابي من (صلاح زكي)، كان يقطن شارع الترعة البولاقية، وزميل مدرستي، وكان هو من رأيت العالم من خلاله، طيلة أسبوعين، دار بي (نوح أفندي) خلالهما بين طبيب وحكيم، حتى تسلمت منه نظارتي الطبية الأولى.

- لا تجزع، ولا تحزن، قد ابتلاك الله بضعف البصر، ولكنه ابتلى غيرك بعاهة، أو مرض مُقعِد، أو يُتم، فلا تتذمر، ولا تُسِرّ لنفسك سوى أن الحمد لله رب العالمين.

أضفت في مخيلتي جملة أخرى لكلمات أبي، وهي أنه لولا ضعف بصري حينها، لما اقتنصت من هذه الدنيا صديقًا حقًّا، هو (صلاح زكي). غمرني الرضا والإيمان، فسعدت بوراثة ذلك عن (نوح البنداري) ومن قبله (عبد الحميد البنداري)، ولكنني كنت أعلم أن رحلة بحثي عن الذات عبر دروب الحياة آتية لا محالة.

منذ أن بلغ (إسماعيل) من العمر خمسة أعوام، بدأ أبي يُرَسِّخُ في وجداني ماهية مهمتي كأخ أكبر لـ(إسماعيل)، وظلت (مريم) هي خليلة الست (جميلة) وأنيستها، منشغلة بعالم منفصل، يدور فلكه بين أركان المهام المنزلية، وبالتالي، عُهِد إليّ مبكرًا، بأن أكون مثلًا، وقدوة، يحتذي بها أخي الأصغر، وأغلب الظن أن ذلك قد استنفد من طفولتي، وخيالاتها وأحلامها، بضعة أعوام، كم كنت بحاجة ماسة إليها فيما تلا من أيام العمر... ظل

السؤال المتنامي، المتعاظم الاستفهام حول إجابته، مع تسابق الأيام والشهور مارّين عبر حارتنا، هو لماذا انسحب أبي تدريجيّا من حياتنا؟ كان (نوح أفندي)، ورغم مشغوليات عمله اليومي في وزارة المعارف، قد اعتاد أن يخصص وقتًا لبيته، يقضيه مع زوجته وابنته وبنيه، مع مرور الأيام، تناقص الوقت المخصص لنا، وتنامى وقت الاعتكاف في غرفة الحضرة، فكان فضولي لمعرفة ما خلف اعتكافه عظيمًا، تخوفت أن أتلصص عليه، فيغضب، ولكن الفضول هزم الخوف، فكان ما كان...

- ربي، تتنقل الأرواح وتتسرب من بين أصفاد البرزخ حتى تلامس الأرض. وتبقى العقائد والمعارف راسخة لا تتزحزح... تتنقل الشكوك صحبة أرواحها، ويظل اليقين حبيسًا بين هذا وذاك، فلا معرفة تقبع بالبرزخ مغادرةً له وإن طال بها الأمد، ولا يقين فوق الأرض يسمو ليلامس البرزخ... لن أعرف حتى تحرر روحي من إطارها، فتنتقل معارفي من هنا إلى هناك، فهل أقوى على الانتظار؟

وجدته يتمتم، شاردًا، قبل أن يمسك بقلمه ويكتب، غالبًا كان يكتب ما نطق به للتو، لم أفهم، هل كانت تلك تعويذة؟ ظللت في موقعي حيث تسللت رفقة (إسماعيل)، إلى ذات البقعة من غرفة الحضرة، وضعت يدي على فم أخي الأصغر محاولًا أن أحجب صوت لهاثه، هدأ (إسماعيل)، فتفرغت لمحاولة قراءة ما بدا مخطوطًا بخط منمق، فوق أولى صفحات كتابه، كان على يساره، في مركز بقعة الضوء النافذة من باب الشرفة، قرابة الألف ورقة، بدت أولى الورقات وقد خط عليها ما يشبه العنوان:

"المنهج الإيماني المُوحَّد - السفْرُ الأول في ملحق الإجابات - غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة - بقلم/ نوح عبد الحميد البنداري".

كان هذا عنوان كتابه، كُتب تحته سطر آخر، بخط أصغر، لم أستطع قراءته من موقعي، كان لا بد من الاقتراب، قرأ (إسماعيل) ما دار بخلدي، فأطبق بيده علي يدي مزيدًا من تشبثه بها، إذ لم يكن قد تركها بعد منذ تسللنا إلى الغرفة، نظرت له أي لا تخف، ترك يدي وتعلقت أنظاره بأبي،

الذي ظل موليَا ظهره لنا، قررت أن أقترب حتى يتاح لي أن أخطف أولى الورقات، وربما ما تلاها، حتى أستوعب ما يكتبه (نوح أفندي)، زحفت مترين موازيًا للشرفة، رفعت رأسي لأواجه الورقات، نسيت في غمرة حماسي أنني وإذ رفعت رأسي، قد تقاطع ظلها مع بصيص النور المتسلل -مثلنا- من باب الشرفة نصف المغلق، لفت ذلك انتباهه، فالتفت، وتلاقت عيناه المنزعجة بعيني المرتاعتين.

- هو ليس وحده...

نطقها (إسماعيل)، وكأنه أراد أن ينبه أباه لوجوده بدوره، لعل العقاب ينقسم على كلينا بدلًا من أن أحظى به وحدي.

مرت لحظات صمت ما زلت أذكرها وكأنها استغرقت يومًا كاملًا، قال بعدها:

- ذلك خطأ عظيم...

دمعت عيناي، وأطرقت رأسي خشية أن يبصر أبي ميلاد دمعي القادم، لم تكن دموع خوف، بل كانت دموع خزي...

يمر الآن من أمامي صبي رفقة أبيه، يقترب مني، يصفعني الصبي، أمد يدي لأمسكه، فأدرك أنه ما زال على مبعدة أمتار مني، فأعلم أن الصفعة لم تحدث، وإنما أوحت لي بها مخيلتي المرتابة في أمري، تتشابك ذكريات الموقف في ذهني الآن، ولكنني سأقاوم...

كانت القطيعة بالطبع هي العقاب الأقسى، وإن لم تدم سوى ليوم وبضع يوم، جاءني بعدها (نوح أفندي) معاتبًا، كررت أسفي، فوضع أمامي أوراقًا رأيتها من قبل...

- هذا هو القسم الأول من كتابي، اقرأه، فإن استعصى عليك أمر، لا تتوقف، وانتظر حتى أفرغ من مجلسي كل ليلة، لأفسر لك ما لم تقو على استيعابه، حتى المعرفة ليس بإمكانك أن تنالها بالتلصص، احفظ أوراقي هذه جيدًا ولا تُضعْها.

أذكر أنني حين بدأت في قراءة الأوراق، أدركت بعد المائة ورقة الأولى، رسالة أبي التي أراد أن تصل للأجيال القادمة، "غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة" وبطبيعة الحال، فإن أردنا صناعة النوابغ فعلينا التوقف عن حشو العقول بما يضر أكثر مما يفيد.
لم يصلني في أوراقه هذه، القسم الذي أسماه "المنهج الإيماني الموحد"، وإن كانت معرفتى به، وبرسالته التى أرسل للبحث عن إجاباتها، قد استنبطت ما هو حتما مذكور فيها...
ومن هنا نشأ إيماني به، وبرسالته... أدون ذلك الآن، وأتذكر أنه رحل، ولم يعلم مصير رسالته، وجدوى بحثه، وهل أثمر نبته وأزهر، أم ذَبُل إثر عطش، أو أسرٍ بظلام؟ أتذكره، أود أن أخلده بكلماتي فلا أجد ما هو أكثر بلاغة من قول شوقي: "الناس صنفان... موتى في حياتهم، وناس في بطون الأرض أحياء"... هل كان لعجزه عن نشر كتابه، دور في قراره بالرحيل؟ أم كانت فواجع النكسة؟ تلك قصة أخرى، أذكرها، إن لم أحد عن السرد مجددًا...

ثقيلة هي قيودي، والحرية هي كل مناي، بيد أنني أشعر بخجل وأنا أحبو إليها... **"طاغور"**

كرباج أبو شنب

نزح أبوه عن وطنه في خريف عام ١٨٨١، خوفًا من معارك دارت رحاها إثر اندلاع الثورة المهدية[٤٣] في السودان، عقب شهور مما أسمي لاحقًا بـ (هوجة عرابي)[٤٤] في مصر. كان أغرب ما في هجرة أبيه، وفقًا لروايته، هو هربه من ثورة ضد المصريين، تجاه مصر! كانت ثورة بني وطنه ضد الحكم المصري التركي، فكان مستغربًا أن يقرر أبوه الهرب، صوب أراضي العدو! نجحت الثورة في نهاية الأمر. بعد أن هرب أبوه من أهوال الحروب، ليلقى حتفه غرقًا في النيل الذي لم تفرق مياهه بين وطن وآخر، تاركًا (أبو الشنب) جنينًا في أحشاء أمه... وعلى غرائبية روايته، كان ما أثار على الدوام فضولي بشأنه، طيلة أعوامي الأولى، حين عجز الطفل بداخلي عن توضيح استفساره، هو اسمه! فطالما كان اسمه (أبو شنب)، ولكن المؤكد أنه لم يولد بهذا الاسم!

- سألت أمي ذات مساء، عن قرار أبي بالفرار صوب مصر، وهي التي كانت عدو الثورة المهدية آنذاك وخصمها اللدود، فقالت إنه لم ير بمصر يومًا غير امتداد للوطن، كان يقول إن وطننا هو حيث يجري النيل، فإن سرى النيل إلى جوارنا، سرت الدماء الحمراء في أجسادنا المسمرة كقطعة من طمي النيل، هو المحيا، وإلى جواره يكون الممات.

صدق حدس أبيه، فلم يلبث أن ضمه النهر بشوق فاض عشقًا حتى أبى أن يرد جسده لزوجته الملتاعة، غرق، ولم يدفن، فكان النيل كما أراد له أن يكون، ملاذًا أخيرًا، ومستقرًا أمينًا.

- ما اسمك؟

نطقتها للمرة الأولى وأنا ابن الخامسة عشرة، كان ذلك في طريقنا لتوزيع لحوم أضحية العيد، على كل من هم أهل بالصدقة، وبالتأكيد، لم ننس -كعادتنا- (عوضين) المجذوب و(عباس) السقا. توقف (أبو شنب) حين توثق من سؤالي، ثم نظر صوبي دون أن ينزل حمله عن كاهله: يا الله...! نطقها متنهدًا، فلم أفهم إن كان سؤالي الحبيس، الذي فككت أسره للتو بعد سنوات كتمان، قد أسعده، أم أنه قد ضايقه!؟

ظل محدقًا فيّ، لمعت عينا العجوز، ألقى بحمله على الأرض إثر ارتعاشة أضنت ساعده، أشار لي بأنه يود الجلوس، شعرت بقلق يعصف بي، لاحظت أن تكاثفت حبيبات العرق على جبهته المتجعدة، وقد كان الطقس لطيفًا كعادته في سويعات الصباح الأولى من شهر سبتمبر، فازداد توتري. ساعدته على الجلوس على عتبة أحد البيوت، أخرج منديله الأصفر الذي لم أرَ معه يومًا غيره، جفف عرقه، وأراح رأسه على الباب الخشبي من خلفه:

- رضي الله عليك يا سي (إبراهيم)، رضى الله عليك...

قال ولهاثه يخفت تدريجيا، كرر جملته، عدة مرات، حتى انتظمت أنفاسه، هرولت صوب بيت آخر، أخذت إحدى "القلل" المتراصة فوق حواملها النحاسية على مقربة من مجلسنا، ناولته إياها فشرب، ثم شرع يغسل وجهه العجوز وقد غمرته دموع على حين غرة...

- لم يسألني أحد عن اسمي منذ عقود طالت، منذ أن نُزعت من أحضان أمي لأمسي عبدًا، لم يسألني غيرك، وأنا العجوز الواقف على أعتاب السبعين من عمري، أنتظر...

لم أكن أعلم فيما كان انتظاره، ولم؟ كما لم أستسغ ذكره للعبودية، فقد كان (أبو شنب)، رغم سابق اعتراضي على بعض سلوكيات لم أر ما يبررها في حينها، أقرب لأن يكون بمثابة عضو من أعضاء العائلة ووتد يرتكز عليه أغلبنا، دهشت، فأنا لم أعلم عن هذا الرجل، سوى أنه خادم المنزلِ، جاء به جدي (عبد الحميد) طفلًا على شفا العاشرة، يتيم الأبوين، غريبًا عن

وطنه كما استنتجت من بشرته السمراء ولهجته المختلفة، ولكنني لم أسأله يومًا عن قصته، هالني ذلك بحق، وشعرت بأنانيتي، فقد خدمني هذا العجوز الطيب ورعاني، وشارك أبي تربيتي وتعليمي، بل وتثقيفي أيضًا، ولم أهتم يومًا بأن أعرفه كإنسان، له حياته الخاصة، وماضيه الغامض، عاش الرجل ساعات خصوصيته شاردًا على طول الخط، لم تكن له أوقات خاصة يمكن أن توصف بساعات الخصوصية، وإن كانت لحظات انفصال عن واقعه، يقتطعها من يومه الصاخب كلما أتيح له، لينغمس فيما لا يدركه سواه، ينادي صمته فيجيبه صداه، متى العود يا أمي؟

- لا بد أن ترحل مع العربي، اهرب من مصيرك، ارفض مصير أبيك ومصيري، منذ أن أمسينا عبيدًا بين ليلة وضحاها، كنت أعلم أننا حتمًا لمفترقان، كنت أحلم بمجيء يوم كهذا حتى ترحل من هنا، لا تقاطعني... سيأخذك العربي إلى الإسكندرية، وهناك ستُمنح أو تُباع لأسرة مصرية ثرية، وفي الإسكندرية، لا بد أن تهرب، القانون الذي أصدره الحاكم العثماني، بشأن تحرير العبيد، وقت أن كنت أنا في رحاب سنوات طفولتي الأولى، قد قلل من تجارة العبيد وإن لم يقضِ على التجارة ذاتها، ولكنني علمت أن المصريين قد عقدوا اتفاقا مع الإنجليز مؤخرًا، من شأنه فرض مزيد من القيود على هذه الجرائم، وبالتالي فسوف ترتحل مع العربي برًا، لأن الإنجليز يقومون بتفتيش السفن للتأكد من عدم نقلها للعبيد، بمجرد أن تبرح خيمتنا هذه، لا تنظر خلفك، لا تعبأ بشأني، سأرحل رفقة التاجر الحبشي، سنمضي جنوبًا، وستُشَرِّق أنت بمحاذاة النيل حتى يَتَمَاس مع البحر فترتحل غربًا حتى الإسكندرية، وهناك تتحرر إلى الأبد... هذا فراق بيننا، اعلم أننا لن نلتقي مجددًا، واعلم أن هذا يمزقني، ولكن ما يخفف من وطأة ألم فراقك هو أنك بهذا تولد من جديد، من رحم سأصلي ليكون أرفق بك من رحمي، فيلفظك حيث حياة يليق بها مسماها، وليس في خضم معاناة، وعظيم أسى، كما لفظتك أنا...

صدى كلمات أمه يدوي في أذنيه، فيردده، بعد أكثر من ستين عامًا من تصريحها به لأول وآخر مرة. مؤكد أنها قد فارقت عالمها القاسي وارتمت في أحضان النيل ذات ليلة كأبيه، ولعلها قد التصقت بطمي النيل فور أن هلت بشائر الفيضان، فلم تقوَ على فراقه، في نهاية الأمر هو يعلم أنها رحلت، غير راضية عما اختاره هو لنفسه... كانت رحلته مع العربي، جد قاسية، تليق قسوتها برحلة سرية لنقل العبيد بغية الاتِّجار بهم، لم يكمل العربي الطريق نحو الإسكندرية، إذ تناثرت أنباء عن تجار وقعوا بأيدي الإنجليز، فشرع العربي يتنقل بين القرى حتى استقر به الحال في الشرقية، وكان معرضه لبضائعه ذات مساء في (التوابية)، حيث اختاره منفردا، شيخ أزهري شاب، اسمه (عبد الحميد البنداري) ليكون خادمًا لمنزله، وزرعه، وتجارة أخيه.

هكذا استقر في قرية صغيرة في الشرقية، تبخَّر حلم الإسكندرية، وتلاشى ما ارتبط به من أحلام ووصايا بالتحرر...

- اسمي (هارون).

قالها الفتى لسيده الأزهري الباسم.

- وما قصة (أبو شنب)؟

سأله سيده مربتًا على كتفه العاري، فسرت بمسامه قشعريرة، اختلطت بصقيع يعتريه منذ أسابيع وقد بلغ الشتاء ذروته مع دنو رحيل ديسمبر:

- أطلقه عليّ ذلك الرجل العربي، كنت الصبي الوحيد الذي نما شاربه مبكرًا، على عكس بقية الصبية ممن هم في مثل عمري، قالت أمي أنني ورثت ذلك عن أبي.

احتفظ له سيده باسمه، ونسي كلاهما (هارون) منذ ذلك اليوم، وربما كانت تلك هي آخر مرة نطق فيها الصبي باسمه، حتى جاء سؤالي له...

- اسمي (هارون).

قالها، باسمًا، راضيًا، وكأن نطقه باسمه قد فرج أساريره، وأزاح عن كاهله حملًا أضناه، هو حمل العبودية، كان قد عاش قرابة ستين عامًا في كنف

عائلة (البنداري)، لم يشعر فيها أبدًا بالعبودية كما سمع عنها، ولكنه حمل اسمًا آخر طيلة هذه الفترة، اسمًا أطلقه عليه من أسره حرًا ليبيعه عبدًا، لم يعش عبدًا، ولكنه اختار العبودية، وبدا وكأنه قد استعذب أن يكون له سيدٌ، يأمره فيطيع، يرضى عنه فيسعد، ويغضب السيد فيستدعي هو خوف العبد من غضبة السيد، حتى وإن لم يكن عبدًا. أخرج من طيات ملبسه، مصحفًا عتيقًا له غلاف رمادي بالٍ، قبّله شاكرًا ربه، ثم أعاده إلى موضعه الأول.

كلما تذكرت ذلك اليوم الذي علمت فيه أن (أبو شنب)، هو في حقيقة الأمر (هارونِ)، أشعر بذات المرارة في حلقي، وينتابني شعور قاسٍ بالتقصير والجرم، أجده -في بعض الأحيان- ليس له ما يبرره، هذا تحديدًا ما أشعر به وأنا أخط هذه الكلمات...

أعلم أنه قد طُلب منه مرارًا أن يرحل إن أراد، أو أن يتزوج إن شاء، ولكنه أبي، كعصفور إذ يفتح له باب القفص على مصراعيه، فيزداد تشبثًا بقضبان محبسه. أهو الخوف من الحرية؟ أم هو افتقاده لاسمه؟ ولكينونته؟ وتعمده إخفاء ما لا يليق بِحُرَ إخفاءه؟

- انهض يا عم (هارون).

ناديته، وابتسامتي تضاهي ابتسامته اتساعًا، أمسك بيدي، ونهض من مجلسه، طلبت منه ألا يناديني بأية ألقاب كـ(سي إبراهيم) وما على شاكلتها من ألقاب تميز السيد عن الخادم، لم يقوَ على أن يناديني باسمي عاريًا بلا لقب يستره! فاختار أن يقول فيما بعد (يا بني) أو (يا ولدي)! نشأت بيننا صداقة من نوع خاص، وعلاقة إنسانية مختلفة، لم أتمكن من صبغها بصفة بعينها، كنت أحرص على مجالسته حين يتاح لي الوقت، كانت نوادره كثيرة، وكان خفيف الظل في ساعات الصفا، وفي ساعات ثورته وفورات جنونه، كان ينسى ما تعلمه من لهجة مصرية، ويستدعي لهجته الأصلية، فيمسي نصف كلامه غير مفهوم لي، وهو ما جعله خفيف الظل حتى في أوقات الغضب.

أذكر عن (أبو شنب) أو (هارون السوداني) كما سأطلق عليه -سرّا- في أواخر أيامه، أنه كان في شجاره وعراكه، دائم التهديد والوعيد، وكان دائمًا ما يهدد باستخدام كرباجه السوداني العتيق، المنقوع في الزيت منذ زمن لا يعرفه سواه، منتظرًا من يلهب جسده بسياط عقابه، سمعت ذلك بنفسي في شجاره مع (جابر عباس) ذات يوم، وكذلك في شجار آخر مع (عباس) السقا، كما أنه هدد به شديد التهديد، بعد واقعة معرفتي باسمه الحقيقي بقرابة الأسبوع على ما أذكر، حين سمع أن أحد فتوات (شبرا)، ممن يضطلعون بحماية حارتنا، ويعرفهم هو حق المعرفة، قد أوسع ضربًا من فتوة آخر يقطن عابدين، وكان الاتجاه العام بين الناس في حارتنا هو إعداد العدة، وشد الرحال للأخذ بثأر الرجل الذي طالما رعى مصالح أهل الحارة وحماهم من بطش غيره، علاوة على أنه بدحر هذا الفتوة وانتهاء سطوته، قد يجيء أهل الحارة من لا يعرفهم ويعرفونه، ويمارس فتوته ويفرض قوانينه عليهم، فكان أن قاد هذا الاتجاه المنادي بمعركة رد الاعتبار يومئذ: (أبو شنب)، وكان مفترضًا أن يكون سلاحه الأعتق هو كرباجه الذي طال اشتياقه لمفارقة الزيت، ولهذا قصة... اجتمع من حارتنا أغلب الباعة والتجار، وانضم لهم خدم كُثر، وعزف عن الاجتماع من هم في مثل ثقافة والدي، ومن هم في مثل غرور (جابر عباس).

أتبسم الآن إذ تذكرت حكايات حرافيش عمنا وأستاذنا (نجيب محفوظ)، فكم كان الرجل ملتصقًا بتراب مصر، ومسام المصريين.

اتفق الجمع على التوجه صوب عابدين، ومواجهة فتوتها، وطرده إن لم يتسنَّ لهم هزيمته، ثم طلب وساطة كبار الفتوات فيما جاور عابدين من مناطق وأحياء، وفي اليوم المحدد للحراك، استعد القوم وانتظروا (أبو شنب) ليظهر حاملًا كرباجه الفتاك، فلم يظهر! ناداه نفر منهم فلم يجبهم! شرع بعض منهم في الدق على نافذة حجرته اللصيقة بأرض الحارة، فلم يأتهم ردٌّ، حتى تحركوا من دونه، في ذات الليلة، وحين علمت بتغيبه عن المعركة (التي مُني فيها رجالات حارتنا بهزيمة نكراء، أجبرتهم

في نهاية الأمر أن يضحوا بفتوة حارتنا القديم ترضية للفتوة المعتدي، إثر وساطات من كبارات الفتوات)، نزلت الدرج حتى وقفت أما حجرته، طرقت بابها، فلم يجب، ناديته مُعلمًا إياه أنني الطارق، ففتح الباب دون أن ينطق، دخلت في ظلام الحجرة، حتى وجدته وقد جلس على فراشه وإلى جواره شمعة مثبتة في قاع أحد الأكواب، رأيت عبر ضوئها الواهن وجهه، وقد شقت إحدى الندبات نصفه الأيمن إلى شطرين، هالني مرآه، وظننت أنه قد شارك في المعركة ولا ريب في ذلك، سألته فأجاب:

- كنت أستعد للرحيل مع الرجال، فأخرجت كرباجي من زيته، جففته جيدًا، وأردت أن أتدرب على استخدامه، ضربت ضربتي الأولى، فلم تصدر صوتًا، وأنا أعلم أن لضربات السوط صوت مرعب، أعدت الكرة حتى أحكمت إصدار الصوت إثر الضربات، غمرني الحماس فشرعت أتخيل أنني أبارز بكرباجي ذاك الفتوة، أخذت أميل جسدي يمينًا ويسارًا، وأنَوِّع من اتجاه الضربات من الأعلى إلى الأسفل، حتى التف الكرباج من خلف ظهري، وهوى على وجهي وأحدث به ذلك الجُرح!

لم أعلم هل أضحك على فعلته بنفسه، أم أبكي بؤسه وشقاءه، هوّن عليّ الأمر، إذ انفجر هو ضاحكًا:

- أرأيت يا بني، مثلي لا يتقن إلا تلقي ضربات السياط، ولا يقوى قلبي الرقيق على ضرب أحد بها سواي... كم رأيت ذلك الرجل العربي يلهب أجساد الصبية بسوطه، وكم ألهبني أنا أيضًا به، حتى أنني حرصت على الحصول على أحد السياط، ظنًّا أن السوط هو دليل القوة، كما أنه لا يحمل السوط غير السادة، ولا يُضرب به غير العبيد، اقتنينه من أحد التجار حين كنت في العشرين على ما أعتقد، أي أنني احتفظت به طيلة خمسين عامًا، لأخرجه بالأمس، لأشق وجهي نصفين...

واصل الضحك، حتى غمرت عينيه دموعٌ، لم أعرف إن كانت هذه الدموع إثر ضحكه المتواصل، أم أنها قد نتجت عن جرحٍ نفسه الغائر! كان وهو في السبعين قويًّا، لم ينحنِ ظهره، ولم يبدُ عليه يومًا وهن أو ضعف يتسق

مع سنوات عمره، ولكنه منذ ذلك اليوم، بدا وكأنه قد اعترف لجسده بعمره الحقيقي، فشرع الجسد يستجيب تدريجيّا لأوامر الزمن التي طالما قاومها وتجاهلها. عاش الرجل ما جاوز من العمر ثمانية عقود، قضى منها الأعوام الأخيرة، مخدومًا وليس خادمًا!

قبل مضي عام على شق (هارون) وجهه لنصفين، قامت الثورة، وكان هو من أشدِّ معارضيها، كان ذلك موضوع جدلنا الدائم، اختلفت نظرتي للرجل، وصرنا أقرب، وفي العام التالي عاد ليذكرني بتلك القصة إثر الإطاحة بـ(محمد نجيب)[٤٥] قائلًا:

- قررتم مرة أخرى تغيير الفتوة!

استمرت مشاكساتنا، وإن لف الوهن نبرات صوته كلما رمحت بنا الأيام في مضمارها اللانهائي، كنت فيما أعقب ذلك شابّا ناصريّا، اختزل آمال الوطن في شخص (عبد الناصر)، فاستمرت مشاكسته لي حتى النهاية، مصاغة على الدوام في إطار اتهامي، بمناصرة من سلبني أرض جدودي دون وجه حق! وبرغم تعدد حواراتنا وتنوع خلافتنا، نسيت أن أسأله حتى رحل، عن مصدر دموعه ليلة أن عصاه كرباجه!

بيد أنني أعلم، أن دموعي وأنا أكتب هذه الكلمات الآن، ليست دموع إفراط في ضحك...

المرأة لا تريد الحقيقة، فالحقيقة آخر همها، لا شيء تمقته المرأة وتخافه أكثر من الحقيقة، فالحقيقة أنثى وعلى المرء ألا يغضبها!
فريدريك نيتشه

بين ثنايا جميلة وهدان

لم يكن استراق السمع من عاداتي السيئة إبان الطفولة، ولكن شاءت الأقدار أن يكون للتلصص دور مهم في تكويني، يوم أن قادتني المصادفة، دون سابق ترتيب، ودفعتني طفولتي العفوية لأتجاوز الحدود بأن أقفز فوق الممنوح طمعًا في الممنوع، فأقرر أن أرسم ما يحلو لي على أبواب الحجرات. وفي لحظة من لحظات جنون الطفل العابث بداخلي، تسللت حذرًا إلى حجرة أبي وأمي، وقد كنت لسبب ما -لا أذكره الآن- قد قررت أن أرسم مستخدمًا قلمي "الكوبيه" الذي تصعب إزالة آثاره!
كانت ذروة التحدي، بطبيعة الحال، تتمثل في الرسم على باب حجرتهما بالذات، وعملًا بالمعقول، وصولًا بفعل اللامعقول لحد الكمال، كان قراري أن أرسم أي شيء على الباب، ولكن على جانبه الخلفي الذي يطوى إذا ما فُتح، وقد كان هذا الباب تحديدًا لا يغلق إلا بحلول المساء، ويسبق إغلاقه إظلام كامل للحجرة، وبالتالي، فإنني إذا ما رسمت على جانبه الداخلي، صار اكتشاف الجرم أشبه بالمستحيل.
دخلت غرفتهما الفارغة في تلك الليلة، كنت أعلم أن أيًّا منهما لن يطأها قبل ساعتين أو ثلاثة، وقفت خلف الباب، أخرجت قلمي، وقررت أن أرسم وجهًا جديدًا. كان أغرب ما في عشقي للرسم، هو إتقاني البالغ في رسم الوجوه بكامل تفاصيلها، وفشلي التام في رسم باقي الجسد، وكذا صعوبة رسم الأماكن والمشاهد، فلم أجِد يومًا رسم مشهد تقليدي كالغروب، ولكنني برعت في رسم وجه أمي في مختلف تعبيراته، وكذلك رسمت أبي، وأختي (مريم)، والصغير (إسماعيل)، ووجه (أبو شنب)، والعديد من الجيران، وعلى سبيل التغيير، قررت في تلك الليلة أن أرسم

وجه (عبد القادر المازني) ، وكان أن شرعت في رسمه على غلاف كتاب اخترته له من خيالي الممزوج بذكرى دعاباته "يوميات إبراهيم الثالث".
ظننت في تلك الفترة من طفولتي القصيرة، أنني موهوب، بيد أن معرفتي بـ(صلاح زكي) ومشاهدة أعماله في طور مخاضها فيما تلا ذلك من أعوام، ثم معايشة (نادية عيسى) في أوج تجلياتها، كانت أموراً كفيلة لأدرك أن ما اعتدت رسمه فوق الأوراق وعلى الحوائط والأبواب، لا يرقى بأي حال من الأحوال لأن يصنف كموهبة حقيقية...
تخلصت من قبقابي قبل ولوج الغرفة كي لا يفضحني إن تحركت، أخبرت (مريم) بما أنا مقبل عليه لتنبهني إن لزم الأمر، إلا أنها انشغلت بأمر ما، فلم تنتبه لقدوم أمي، صحبة خالتي (أنيسة)، ففوجئت بهما وقد دخلتا الغرفة، وجلستا على طرف السرير الحديدي، أزاحت أمي "الناموسية" وشبكت أطرافها بالعروة المعدة لذلك في أعمدة السرير المعدنية، جلست أمام أختها الكبرى (أنيسة) بحيث أولتها ظهرها، فكشفت عن شعرها الأسود الحالك الذي جاوز من ظهرها منتصفه، وشرعت خالتي تمشط شعرها في حنان غمرني بمشاعر دافئة مستغربة في حينها، وأنا الواقف على الأرضية الخشبية الرطبة عاري القدمين.

- هو يحبها، هي، ولا يحبني أنا، ربما كنت أنا الزوجة التي يعهد لها بتربية الأطفال، ولكنني لست في مكانة ذاك العشق الأول، ولعله أيضًا الأخير.

جاء صوتها دامعًا، وإن ظلت الدموع حبيسة مقلتيها، لم أفهم في حينها، ولكن حديثهما في تلك الليلة كشف العديد من الأمور، وجاءت قادم الكلمات كالوحي الصامت، وكضوء كاشف سطع ليضيء مواضع بالقلب منسية، ليرسخ في عقيدتي ماهية الحب والتضحية...

- يا (جميلة)، لا يحصل المرء على كل ما يبتغي، ابن خالك في (التوابية) عشقك كما لم يعشقك أحد من قبله، وكما لن يعشقك أحد من بعده،

أنت أردت بزواجك من (نوح) الهجرة عبر الأزمنة والأمكنة، فآثرت مغادرة (التوابية).

تقول خالتي (أنيسة)، تطرق أمي، تصمت برهة، ثم تجيب:

- بل أحببته يا أختاه، والله يشهد على ذلك، كنت أعلم أنه خيار العقل بالأساس، ولكن هذا لا يمنع أنني أحببته، ازداد ذلك الحب فاستحال عشقًا بعد زواجي منه، فلم أر منه يومًا أن أهانني أو أن قلل من قيمتي، أو نهرني أمام أحد، كما أنه لم يبخل عليّ يومًا، بلسانه، أو بجسده...

أكتب هذا الآن، فتختلط أصوات ضحكات (المازني) خلال جلساته مع أبي، مع صوت بكاء (مريم) يوم أن رحلت أمي، ربما تداخلت الذكريات من جديد، سأحصل على قسط يسير من الراحة، ثم أعود لاستكمال تدويني هذا...

تقول أمي، فتتبسم خالتي (أنيسة) وقد انتهت من تمشيط شعرها، فشرعت تقسمه إلى نصفين، ثم قسمت كل نصف منهما إلى ثلاثة أقسام متقاربة الكثافة، وأخذت تضفر كل نصف على حدة، تردف:

- إن كنت قد أحببت (نوح أفندي)، وأسميتِ عاطفتك هذه حُبًّا، فبم تسمين عاطفة (عواد) تجاهك؟

علمت فيما بعد، أن (عواد) هو ابن خالتهما، وأنه قد هام عشقًا بأمي منذ نهايات الطفولة، كان قد تحدث مع أمه وأمها بشأن خطبتهما، فظلت إجابتها متأرجحة بين القبول والتأجيل، حتى ظهر (نوح)، فأغلقت أبواب الأمل في وجه (عواد).

- لم أحب (عواد) إلا كابن الخالة الخدوم، ربما هو لم يحب سواي، كما لم يحب (نوح) سوى (عزيزة) الملعونة! لم يكن ذنبي أنني لم أحبه بذات الطريقة التي أحبني بها!

تقول أمي، فتجيب أنيستها:

- إذن فليس ذنب (عزيزة) أن (نوح) قد عشقها!

تنتفض الأنثى في خلاياها، وتقول (جميلة):

- بل هي سحرت له، حين انتُدب للتدريس في (أبو قرقاص)[٤٨]، كانت هي خلف ذلك إذ أرادته إلى جوارها، وعاد محموماً مريضًا بعد عدة أشهر، حبها ينفث السموم في جسد (نوح)، أما حبي أنا، فهو ما يمتص هذه السموم من جسده يوماً بعد يوم، حتى وإن آلمني هذا وألحق بي ضرراً، هي مهمتي المقدسة كزوجة، محبة!

تدمع، فأرجف. أصابني حديثهما بطيف من الضيق فور سماعه، خاصة ما يتعلق بعشق (عواد) لأمي، ولكنني اليوم، وأنا عاكف على تدوين ذلك القسم من حياتي في أوراقي هذه، أجد نفسي باسم الثغر، متعاطفًا مع هذا الرجل الذي لم ألتقه يومًا، فـ(عواد) قد أحب أمي حبّا جمّا، وأمي هذه كانت راجحة العقل، استمالة عواطفها ليس من السهولة بمكان، وكنساء كثيرات في زمانها، بل وفي زماننا هذا، هناك بين النسوة من يتحكمن في عواطفهن، فيغدو الحب -ذلك الاجتياح التلقائي للعواطف الربانية المقدسة، ومارد الجان الذي يمس شغاف الروح قبل الجسد- أمراً إراديّا! تقرر أمي أن تحب (نوح البنداري)، وتقرر ألا تحب (عواد)، والـمحير في الأمر، أن العقل هو المنوط به تنفيذ الإرادات، أما الهوى، فهو شعور لا يمر بالعقل منذ أن يخلق، وحتى يذوي، وإن مر على العقل ذوى قبل أوانه، ولكن هكذا كانت الأمور تجري، ولعلها ما زالت كذلك!

أما حين هزمتها إلى قلبه تلك العزيزة الأعز، واعترفت بهزيمتها، ما انفكت تنسب لها الإتيان بالسحر دون قرينة! وكم أنت مراوغة يا نون النسوة! ينسدل شعرها على ظهرها، كما يسدل الليل ستائره على الأفق حاجبا شمس النهار الناعسة، كنت أراها دومًا أجمل نساء الدنيا، وكان أبي يرى أنها مريحة القسمات، حسنة الطلعة، ولكن (جميلة وهدان) كانت فاتنة بحق.

انتهت أختها من غزل شعرها ضفيرتين، فنقص من عمرها سنوات، انتقلتا إلى مائدة مجاورة حيث تمارس أمي هوايتها، تصب القهوة لأختها (أنيسة)،

تجرعها (أنيسة) في جرعة واحدة كأنها كأس من "الكونياك"، ثم تناول فنجانها لأمي، تسكب قطرات تشبثت بقاع الفنجان على طبق فوق المنضدة، ثم تشرع في قراءة طالع أختها...

- وأنت يا (أنيسة)؟ ما بالك بطالع العشق في فنجانك؟
- أعرفه، قالت (أم بخيت) أنني سأوارى التراب بِكراَ.

تضيف خالتي الحزينة، فتذهل عيني أمي.

- هي امرأة سيئة الصيت، لا تأبهي بثرثرتها، فنبراتها عواء، وكلماتها خواء.

لا أدري ما حل بي يومئذ، ولا أذكر إلا أنني وجدتني أرسم بقلمي وجهًا غير وجه (المازني) فوق غلاف كتاب افتراضي كما قررت سابقًا، رسمت مقطعًا جانبيًا لوجه أمي، وجعلت لها ضفيرتين، بنهاية كل ضفيرة ينبت كف آدمي، فتتعلق أولى الضفيرتين بمقدمة قطار، وتدفع الثانية عرباته للخلف، متحدية قوانين الطبيعة!

أنهيت رسمي، وكانتا لا تزالان على جدالهما، فخالتي تؤكد أن جارتها العجوز قد قرأت طالعها وقضت أن تحتفظ ببكارتها من مهدها إلى لحدها، وأمي تؤكد أن ما يقوله الفنجان غير ذلك، وأنا ما زلت لاهثًا من فرط التوتر خلف باب الغرفة. طالعت رسمي عدة مرات في ضوء ما تيسر من الأنوار المتسللة، لم يبدُ واضحًا كما سأراه لاحقًا، ولكني شُغلت بالتفكير في كيفية محوه، وكأنه سيقص على مطالعيه سر أمي الذي علمته للتو، بدأت أشعر بالتعب وقد مرت قرابة الساعتين وأنا في موقعي ذاك، كنت طفلًا، لا أذكر كم كان عمري تحديدًا، ولكنني أتذكر أنني كنت قد أوشكت على الانهيار حين ظهرت (مريم) أخيراَ.

- ما زلت هنا؟ ماذا أنا بفاعلة الآن؟

همست من بين فواصل الباب، نبراتها الغاضبة تجاهلت واقع أن انشغالها عن مراقبة أمي هو ما قادني إلى هذا! طلبت منها أن تحسن التصرف، فالمرأتان تبدوان وكأنهما قد تستكملان محاورتهما لأيام قادمة دون كلل،

كان (إسماعيل) طفلًا يلامس بقدميه الصغيرتين عتبة عامه الثالث، فدار بخلد (مريم) أن تستغل تعلق أمي وخالتي به لينشغلا عني.

- (إسماعيل) سقط من سريره...

صرخت (مريم)، فقفزت أمي وخالتي من مجلسهما، كانت أمي هي الأخف وزنًا مقارنة بأختها الكبرى، فسبقتها، لحقتها أختها بسرعة لم يتحملها جسدها، فسقطت على عتب الغرفة، واصطدم جسدها الممتلئ بباب الغرفة، الذي صدمني بدوره، فغبت عن الوعي، وكان آخر ما سمعته هو صراخ خالتي الذي تعلق بأذني وكأنه قادم من بئر سحيقة.

كان وجه (مريم) هو أول ما رأيته فور أن عدت إلى الوعي، كانت أنّات خالتي جليّة في خلفية المشهد، فعلمت أن ساقها قد كسرت إثر السقوط، منح انشغال الجميع بحالتها فرصة أخيرة لـ(مريم) كي تجيد التصرف، فكان أن حملتني رفقة (أبو شنب) إلى غرفتي...

وهكذا، كانت نتيجة لوحة قلمي الـ"كوبيه" على باب غرفة أبي وأمي، أن ظلت خالتي (أنيسة) ضيفتنا طيلة الأشهر الثلاثة التالية، لم يضايقني ذلك، فقد كنت أحبها للغاية، ومن حسن تدابير الأقدار، أن كان لبقائها معنا فضل كبير في زواجها، إذ وقعت عليها عيني أحد أصدقاء أبي فخطبها لأخيه الشاب، كانت خالتي (أنيسة) ليست على مبعدة من جمال أمي الأخاذ، ولكن عشرين كيلوجراما من الوزن الإضافي، قد صنعوا الفارق بين هيئة كل منهما. تمت خطبتها وزيجتها سريعًا، وسافرت مع زوجها إلى (أوروبا) حيث تم ابتعاثه لتلقي دراسة علمية، فكان حظها أوفر من حظ أمي، التي احتفلت بزواج أختها احتفالًا صاخبًا، وحمل احتفالها في طياته، احتفالًا بانتصار فنجانها على قراءة (أم بخيت) لطالع أختها.

مر على سفر خالتي قرابة العام، حين أصابتني حمى لعينة، طرحتني بفراشي قرابة الأسبوعين، كان ارتفاع درجة الحرارة مخيفًا، وكان أبي هلعًا، فتلك الحمى كانت ما اقتنص منه كلا الإبراهيمين الأول والثاني، كنت قد اقتربت من عامي العاشر، ولم يكن دارجًا أن يفقدني بعد أن بلغت عمرًا

كهذا بسبب الحمى، ولكنه ظل على توتره وفزعه حتى شُفيت. أروع ما أذكره عن هذه الحمى الشهيرة، التي لم أصب بمثلها حتى يومنا هذا، كان (جميلة وهدان)، أمي، فقد كان الغوص بين ثناياها، والغفو على أهدابها، درسًا إلهيًا، عن الأمومة، وإكسيرها الخفي الذي يسري في خلايا المرء، فيبث في أوصاله راحة غير مبررة، وسعادة أفرغت من مسبباتها، تهدئ ملامستها من روعي، وتنهي مفعول الحمى في البدن، ليعود صبيًا في مثل عمري، جنينًا، ملتصقًا بجدار الرحم، يأمن به من غياهب المجهول، الذي هو حتمًا ملاقيه، خارج هذا الحصن والملاذ. عرفت أمي خلال مرضي، كما لم أعرفها من قبل، بيد أنني كنت أمازحها حتى رحلت عن دنيانا، بأنني أشتاق إلى تلك الحمى التي جعلتني منها أقرب ما يكون، فتنهرني باسمة، مستعيذة بالله من شرور المرض، داعية لي بالعمر المديد... أحالت الست (جميلة) تلك الحمى القاسية، إلى واحدة من أسعد ذكريات الطفولة، وأبهج ذكرياتي معها، سعادتي ظلت ملتصقة بذهني كلما فاحت من مخيلتي عطور ذكراها، كما يحدث الآن وأنا أخط هذه السطور.

وفي غمرة سعادتي آنذاك، قررت أن أبوح لها بسر رسمي على باب حجرتها، وأن أشرح لها المغزى وراء هذه اللوحة التي أوحي إلى بها في تلك الليلة، فرسمتها أصابعي دونما ترتيب أو تنسيق، لتجيء كما جاءت، لوحة غير تقليدية، أسمتها (مريم) منذ ذلك الحين بـ"الضفائر والقطار".

فاتحت أمي بادئ ذي بدء، بأن ذكرتها بواقعة كسر ساق خالتي (أنيسة)، وقصصت عليها ما كان مني ومن (مريم)، فانتبهت للمرة الأولى أنها حين هرعت نحو (إسماعيل) في ذلك اليوم وجدته غارقًا في نعاسه، ولكنها انشغلت بسقوط أختها، فنسيت سؤال (مريم) عن الدافع خلف كذبها في تلك الليلة، تبادلنا الضحكات، قالت إن (مريم) إذن هي السبب في عثرة خالتها، فذكرتها أنني أنا السبب وليست (مريم)، فاستحال غضبها امتنانًا، وقالت إنني إذن السبب في زيجة أختها من بعد طول انتظار! لاحظت تمييزها لي عن أختي، ففرحت ولم أغضب...!

حين أتذكر هذا الآن لا أشعر بغبطة أو سرور، بل أشعر بحنق، لما سلكه مجتمعنا من تمييز ضد المرأة خلال القرون الأخيرة، كانت (فرانشيسكا) لتستشيط غضباً إن قصصت عليها تلك المحادثة، فهل أخبرتها؟ لا أذكر.

توقفنا عن الضحك، حين اعتدلت في مجلسها على حين غرة، طالعت سقف الحجرة لثواني، وكأنها تجري عملية حسابية دقيقة:

- وماذا سمعت أيضًا في تلك الليلة الغبراء؟

تذكرت للتو أن حواراً عن العشق والهوى، واختيار العقل وتجنيب القلب، ودراسة القرار العاطفي، قد جرى بشكل مطول في ذلك اليوم، سألتني فأسقط في يدي، عاودت السؤال وقد قاربت وجهها من وجهي، عيناها الخضراوان اللتان اشتق منهما الخالق لون الزيتون، قد ألقتا بي في جب عميق، فقدت السيطرة على كلماتي لسبب أو لآخر، فأفضت في حديثي، سارداً كل ما كان وقيل، وَجَمَت، ثم ما لبثت أن فاجأتني بسؤال مباغت:

- وبم تنصحني الآن؟

ذُهلت لسؤالها، وما زلت إلى يومنا هذا، تغمرني الدهشة حين أتذكر إجابتي:

- اقنعي بما قُدر لك، وفتشي عن سر تعلقه بحبيبته الأولى، واجعلي له جسراً يعبره إليكِ، فإن عبر، مزقي أوصال هذا الجسر، حتى لا يجد طريقًا للعودة...

سقط فكها السفلي حينئذ، حتى بدا وكأنه سيلامس منبت ترقوتها، صراحة، أجد لها كل الحق في الاندهاش، فما زالت إجابتي هذه تذهلني كلما وجدت لها طريقًا بين مسالك ذاكرتي المتشعبة، هزت رأسها مرارا وتكراراً، وكأنها تزن الأمر، ثم أدارت دفة الحديث بعيدًا:

- ما لم تعلمه خالتك (أنيسة)، ولم تعلمه أنت يا (إبراهيم)، هو أنني كنت على علم بأن أختي تهيم عشقًا بـ(عواد)، وكنت بموافقتي على الزواج من أبيك، أتيح الفرصة أمامه كي يراها، ولكنه لم يفعل! لقد اخترت أختي، فاخترت أباك زوجًا، ولم أندم يومًا على كلا الاختيارين.

تمسك بيدي، وتطلب مني مصاحبتها كي نطلع سويّا على الصورة التي رسمتها لها في ذلك اليوم، أتكئ عليها وقد طوقتني بذراعها فاحتوتني، حتى وصلنا إلى الغرفة، أضاءت قنديلًا إضافيّا في طريقنا إلى هناك، أزحنا الباب حتى أتممنا إغلاقه، أمعنَّا النظر، فلم نجد على الباب رسمًا! إذ كان نظيفًا وكأنه قد رُكّب أو أعيد طلاؤه بالأمس فقط!

دارت مجادلات كثيرة، ناصرتني فيها (مريم) بأن أكدت لأمي أنها قد رأت الرسم من قبل، هلعت أمي، وظننت أن خطبًا ما قد أصابني، نَهَرَت (مريم)، وأصرت على تحفيظي القرآن من تلك الليلة، طردًا للجن من المنزل، وإبعادًا لهم عني. اكتفى (نوح أفندي) بمتابعة باسمة، ورضاء فاتر بما يجري، وقد وجد في تحفيظي القرآن فائدة لا ينبغي له أن يتدخل لمنع حدوثها.

جميلة الحسيني... رفيقة شفوق إذا ما ضمتني إلى صدرها، حانية إذا ما توسدت رأسي ذراعها، ساحرة حقيقة إذ تربِت على ظهري، تزيل ملامستها آلامًا ظننتها عصية على الشفاء، وتمحو من الفؤاد ما علق به مخاوف الدنيا. ... في الاعتكاف بمحرابها تطهر من الدنس، وتحرر من الأرق، فتحرير لفراشات الحلم من شرانقها الخانقة... تنشغل بمحاورة أو يجرفها شرود، فتظل لها عين واعية باقية لتراقبني إبان الصحو والسبات، حتى أنني مررت بلحظات في طفولتي تساءلت فيها إن كانت الست جميلة، تغفو كسائر البشر إذ يأتي المساء!

وكم هي قاسية تلك الحياة التي تمنحنا شفرات الأمومة بعد أن نواري أمهاتنا ثراهن، فما يبقى لوجدان المرء سوى أن يقتات على استدعاء لحظات بهية، لم نستوعبها إبان معايشتها للمرة الأولى!

هجرت الرسم! فأظهرت الأقدار إصرارًا حقيقيّا على أن يظل الرسم مقترنًا بمسارات حياتي، فنثرت من حولي شخوصًا عملوا على تظليل حواف الدرب، والتدخل بإيضاح للون بعينه أو بطمس لون آخر، زالت بعض رتوشهم

اللوحات بفعل الزمن، وبقي بعض آخر، يسير من خلفي صانعًا بفرشاته ظلالًا لا تلتزم بحركات الجسد.

"الضفائر والقطار"، كانت آخر لوحاتي، إذ إنني لم أجرؤ على الرسم منذ ذلك الحين...

استعضت عن ذلك فيما بعد، بمتابعة رسومات فنانين حقيقيين، سيقتحمان حياتي تباعًا في الأيام التالية...

ولذلك حديث آخر إن لم تخني الذاكرة.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾
سورة القصص، آية: ٤

ظاهرة جابر عباس

لكل زمان رموزه، بعض الرموز مُضيء، مر في طرقات حارتنا، فقال ما قال، وأتى بما أتى، فصار مدعاة تفاخر، ومنبع لطيب الأمثال، وبعض آخر، مر فاستقر، وكم ود أهل حارتنا لو لم يمر، فلم يستقر.

كل زمان، عبرته، أو عايشته، أو حلمت به، لا بد أن يجمع بعضًا من هذا وبعضًا من ذاك، صالح وطالح، أما شِقُّ الصلاح، فقد كان كل ذي صلة بأبي، أصدقاؤه، سيرة أحبابه، شيوخ حضرته، من أحب، ومن ود واستحسن لقياه، وكل ما شابه ذلك مما تعتق في وجداني، إثر معايشتي لـ(نوح أفندي البنداري)، الذي تقطرت كلماته عبر الأيام في مخيلتي، حتى تخمرت فتعتّقت، وصار استرجاعها، حلو المذاق، مُسكرا للعقل في بعض الأوقات!

أما نقيض ما تقدم، من نماذج السوء في حارتنا، ممن كان القوم يحتفون بغيابه، ويعبسون لقدومه، فقد كان على الدوام، ظاهرة حارتنا: (جابر أفندي عباس).

ظلال عدة تماوجت على حوائط منازل حارتنا، ولكن تميّز (جابر عباس)، وتفرّد عن باقي المارة، بامتلاكه الظل الأثقل! فالرجل يلقي ذات النكات التي لا تضحك سواه، ولا يطرب لها سوى قبيلة "بني منفعة" كما اعتاد تسميتهم (نوح أفندي)، غير أن ثقل ظل (جابر) لم يكن آفته الكبرى، بل كان ذلك في حقيقة الأمر، أبسط عيوبه، وأقلها ضرراً...

تزايدت أعداد "بني منفعة" وكَثُرَ التفافهم حول (جابر عباس) في سنوات حياتي الأولى، وما قبلها بقليل، كان ذلك مرتبطًا بشخص لقبه (الكردي)، هو كبير الخدم في قصر الملك، والذي كان على علاقة بعلية القوم ونافذي

الإرادة، ممن بوسعهم تشغيل هذا، وتعيين ذلك بوظيفة حكومية ما، والإنعام بالألقاب على من يتقن قرع الطبول، ومسخ العقول.

حتى التحقت بمعهد الفنون المسرحية في النصف الأول من الخمسينيات، لم أكن أعلم لهذا الرجل عملًا، كان الـمُعلن أنه كاتب محكمة، غير أنه لم يكن يبرح مُستقره الدائم في مقهى (أبو الروس)، صباحًا ومساءً، مما أضفى بغموض على حقيقة عمله، وهو ما أحبه الرجل، الذي طالما أراد إحاطة نفسه بسُتُر الغموض الضبابية، التي ربما تحجب حقيقته عن المارة، وإن لم يفلح ذلك مع نافذي البصيرة، كـ(نوح أفندي)، الذي لم يجد مستراحه في وجوده يومًا!

يتباهى كثيرًا، بمساعدة من يلجأون إليه، ويحتفي بكرمه وعطاياه، ربما أكثر مما يحتفون هم، كانت عطاياه في أغلبها مساعدة في توفير عمل، ترقية، أو علاوة لمن يعمل، وأشياء أخرى ظلت غامضة، حتى بلغت من الشباب ريعانه، فقررت -بذلك الحس الصحفي الوليد- استقصاء الحقيقة المتوارية خلف (جابر عباس)، بظله الثقيل، وغموضه المتصنع، وشبكته الإعلامية. هذه الشبكة، تكونت من الأفراد الأكثر نبوغًا بين أفراد قبيلة (بني منفعة)، حيث النفاق والرياء فضيلتان محببتان أساسيتان، يبلغ من يبرع فيهما رضا (جابر)، كانت وظيفة هذه الشبكة الإعلامية، سرد بطولات (جابر عباس)، وقص الروايات عن كرمه الحاتمي، والحديث عن محاسن شخصه التي لا تُحصى، كما علمت لهذه الشبكة، فيما بعد، وظائف أخرى!

هيئة الرجل خدّاعة، خاصة حين يفترض ممن هم محدودو الثقافة، ومبتورو التعليم، أن يحكموا على ظاهره، فالرجل أنيقٌ بحق، حلته، طربوشه، حذاؤه ذو الجلد الطبيعي اللامع، ساعته المتدلية من جيب معطفه الفرنسي الأنيق لتستقر بيمينه، حيث خاتمه الدال على فاحش الثراء، ومنشَّته التركية التي لا تفارق يسراه، وشاربه الرفيع المهذب. كل هذا، يفسح المجال لهؤلاء، بأن يقدسوا هذا الرجل بمجرد أن يتفوه بكلمته الأولى، الأثيرة: يصير خيرًا بأمر الله...

يقولها فور أن يفرغ مجالسه من سرد مشكلته، أو مظلمته، بلكنة مطمْئنة، فيكاد القوم أن يبلغوا بانحنائهم حد السجود أثناء مصافحته في مغادرتهم لمجلسه، ولا يلحظ هؤلاء، أن (جابر عباس)، كان دائمًا ما يعطر يمينه من قنينة عطر مستطيلة الهيئة، تستقر في الجيب الداخلي لمعطفه، فور توديعه لأي من مجالسيه، وكانت رائحة عطره تغمر كامل الأجواء المحيطة بـ(أبو الروس)، فبدا طيلة الوقت كمن يعقم يديه ويطهرهما إثر كل مصافحة لزائريه، كان الرجل يحتقر الجميع، كما كان، وفور أن يلبي احتياج هذا أو ذاك، يمارس سلطاته القهرية على من ساعده، ويكثر من تذكيره بما فعل، حتى يمسي هذا المرء مكسوراً، ذليلًا، لا يقوى على النظر صوب عيني (جابر)، ويتغير وضع عنقه، كلما مر من أمام (أبو الروس)، فتتعلم فقراته العنقية حرفية الانحناء، وتعتاد عيناه مطالعة أتربة الطرق، عوضًا عن سماواتها.

- حري بـ(أبو الروس)، أن يسمي مقهاه بـ(أبو الرؤوس المتدلية).

ذلك مما قاله (نوح أفندي) ذات يوم. كان (نوح) ومن على شاكلته، على ندرتهم، يمثلون حجر عثرة في طريق (جابر)، يفصله عن بلوغ هدفه الأثير بالسيطرة على أهل الحارة أجمعين، كان هذا هدفه غير المعلن، الواضح للعامة والدهماء، المبهمة دوافعه لنوح أفندي، بيد أن هذا الأخير وأمثاله من مرفوعي الهامة، ظلوا عصيين على (جابر)، وقد ترسخت في نفوسهم عزتها، فكانوا لا يرضخون لضغط، ولا ينجذبون لاستمالة، مهما تناقلتهم أمواج الحياة، بين زخم قيعانها وصفاء سطحها، فلم تفلح معهم محاولات (جابر) في إخضاعهم باستغلال ضائقة عابرة، أو أزمة قائمة...

تقدم هؤلاء على الدوام، ذلك الرجل القادم من الأزمنة المطوية في أكرم فصول التاريخ، حاملًا في فلكه حكمة عن كل فضيلة، وقصة عن كل مكرمة من مكارم الخلق، يقذفه الموج أينما يقذفه، فما يحيد عن رسالته بنثر الحكمة بين القوم، وما ينضب منها سفينه الضارب في أعماق الأرض

بهلب فولاذي كما الأوتاد، لا يزحزحه مدع موتور كـ(جابر عباس)... ذلكم هو نوح أفندي البنداري.

مرت سنوات، حتى نضجتُ واشتد عودي، وصرت أنادى في حارتنا بـ(سي إبراهيم)، بدلًا من اسمي المجرد من الألقاب باعتباري طفلًا، سنّ ذلك (أبو شنب)، فكان أول من حرص على تنبيه أهل الحارة إلى ضرورة عدم مناداتي باسمي مجردًا من الـ(سي) التي تميز الطفل عن الشاب، خاصة وقد التحقت بالمعهد، وأمسيتُ جامعيا. فرحت في حينها، ولكنني أذكر ذلك الآن فأضحك لفرط سذاجتي. وما أذكره جيدًا، هو أنني بعد أن اعتدت سماع اسمي معنونًا بلقب (سي)، لفت نظري ذات يوم، مرأى (جابر عباس) وهو يلاحق (أم ريمون) في حارتنا، متحرشًا بها، متفوهًا بكلمات عجزت عن إدراك معناها في حينها، كانت توشك على الركض هربًا منه، كان مخمورًا، لم يرني كلاهما وقد حجبني سواد أطبق على حارتنا، فور أن غرقت شمس النهار في سبات عميق، أود أن أدافع عنها، يظهر (أبو ريمون) في المشهد، تهرب (أم ريمون)، يتوقف (جابر)، ويتقدم (أبو ريمون) بخطوات ثابتة نحوه.

لوهلة، ظننت أن (جابر) هالك لا محالة، فـ(ميشيل) الذي هو (أبو ريمون)، رجل ضخم الجثة، إذا وقف أمام (جابر)، لما ارتفع رأس هذا الأخير لما يجاوز صدره، وكان هذا ما حدث، وما زلت أذكره: يتقدم نحوه (ميشيل)، يمسك بتلابيبه، فيكاد أن يرفعه عن الأرض، يقاطع المشهد -الذي استقبلته عيناي بأقصى درجات المتعة والتشفي- هرولة (أم ريمون) نحو زوجِها، مانعة إياه من إيذاء (جابر)، تبكي هي، يبدو وجه زوجها منكسرًا، يهرول (جابر) مبتعدًا وقد أفلته الرجل الضخم، يلاحقه (ميشيل) مترددًا، نور العامود القابع متربصًا على ناصية حارتنا يسلط عليهم أضواءه، يعكس ظلالهم، كاشفًا سترهم، تختفي أجسادهم عن ناظريّ، وتتشابك الظلال، ظل ضئيل، يزأر بجواره ظل ضخم، يتوسطهما ظل راكع مستكين، يرجو أحد الظلين أن يرأف بالآخر.

يباغت المشهد بزوغ مفاجئ للقمر، ريح لعوب تعبث بغطاء رأس (أم ريمون)، وتسقط طربوش (جابر) فأتخيل ظل رأسه نصف الصلعاء، لامعًا، تحت ضوء القمر المقترن بنور العامود، أقترب برويّة مستترًا بالجانب المظلم من حارتنا، يظهر (نوح أفندي)، يخترق بخطواته الثابتة الشارع الخالي من المارة، في تلك الساعة المتأخرة، فتزيد الظلال ظلًّا هو الرابع، فأحاول أن أزيد من تشبثي بالبقعة المظلمة من الحارة، مكبلًا ظلي خلف ظهري، فما يعلمه (نوح أفندي)، هو أنني غارق في النعاس، ولكن الواقع أنني عائد من مغامرة أخرى، اقتنصت فيها من الدنيا بضع دقائق، التحم خلالها الواقع بالتمني، فقط، عندما احتضنت (نادية عيسى).

يبدو أن (نوح أفندي) قد لاحظ ما يجري، إذ اقترب ظله من الظلال الثلاثة الأخرى، فبدا وكأن ثلاثتهم قد تراصوا أمامه، حين برزت سبابته المتوعدة، ينفصل ظلان عن المشهد، وتمر أجسادهما من أمامي فأميز (ميشيل) محني الرأس، وقد أراح ساعده الأيمن على كتف (أم ريمون)، التي ظلت تربت بيمينها على صدره كمن يواسيه، ينزلقان في أرض الحارة حتى يبتلعهما الظلام، فأعود لمتابعة الظلال، يتعاظم ظل (نوح أفندي)، ويتضاءل ظل (جابر)، فأميز أن الأخير يبتعد، يختفي ظل (جابر)، ويبقى ظل (نوح أفندي)، شامخًا، وحيدًا.

لم أعلم حتى الآن سبب خروج (نوح أفندي) في ذلك الوقت المتأخر، بيد أنني أتذكر أنني ظللت أتابعه، فمشى حتى (خمارويه)، ووقف هناك قرابة ربع الساعة، ثم عاد أدراجه إلى البيت، حيث سبقته بدقائق فور رؤيتي له في طريق عودته.

ومن هنا، بدأت رحلتي الاستقصائية حول (جابر عباس)، ورافقني في ذلك (صلاح ذكي)، أذكر أننا صرنا نتتبعه، ونحاول الاقتراب من مريديه من أعضاء قبيلة (بني منفعة)، فكنا نتبادل المراقبة حتى لا يلحظ أحد غياب أي منا لوقت أكثر من المعتاد، حتى جاءني (صلاح) لاهثًا ذات ليلة، بالأحرى هو أيقظني، إذ إن ذلك كان قُبيل الفجر بقرابة الساعة، كانت

عادته هي قذف نافذة غرفتي بالحصى ومستصغر الحجر، طال إلقاؤه للحجارة تلك الليلة، وقد كنت غارقًا في حلم آخر بـ(نادية)، حتى انتزعتني حجارة (صلاح ذكي) من فوق شفاهها، غادرت عبر الشرفة كعادتي، استعنت بغصن شجرة التوت الوارفة في حديقتنا، فتدليت منه حتى لامست أرض الحارة، بادرني (صلاح):

- (جابر عباس) في مقهى (أبو الروس).

قال، فاندهشت أن المقهى لم يغلق أبوابه إلى الآن، قبل أن يردف موضحًا:

- المقهى مغلق، ولكنه مجتمع ببعض أعوانه داخل المقهى، لقد تتبعته، حتى وجدته يدلف إلى المقهى بعد أن فتح قفله بمفتاح كان بحوزته، تبعه بضعة أشخاص، ثم أغلق الباب، ثمة نور خافت بالداخل، وإن جئت معي الآن لأسمعتك ما تريد معرفته عن حقيقة ذلك الرجل.

تبعته بطبيعة الحال، وفي غضون دقائق كنا قد انتهينا من تسللنا الحذر صوب المقهى، حتى جلسنا القرفصاء بمحاذاة بابه المغلق، كان الحوار الجاري شديد الوضوح، وكنا له منصتين:

- لم نحصّل أية عوائد من (روض الفرج)، كما لم يأتنا من هناك أية زبائن جدد، ما الأمر يا (حسين)؟ هل اغتنى أهل (روض الفرج)، فتوقفوا عن الاقتراض؟ أم أنهم أفلسوا فتوقفوا عن السداد؟

صوت (جابر عباس) يلوم أحد الحاضرين، يجيبه صوت المدعو (حسين):

- يا (جابر بك)، لقد رفعت نسبة المتاجرة التي تضيفها على أصل المبلغ، مرتين في العام الحالي، فبلغت الآن ١٠٠% من أصل المبلغ المقترض، فتوقف الناس عن الاقتراض، أما المسددون، فهم يراوغون، وأغلبهم أعلم أن حاله ليس على ما يرام، ولكنني أواصل مطاردتهم...
- إذًا، فلا مفر من الزج بأحدهم إلى السجن، حتى يلتزم الآخرون بالاتفاق.

يقول (جابر)، فيعارضه (حسين):

- إلا هذا يا (جابر بك)، لقد وعدتني أن إيصالات الأمانة هي فقط لحفظ الحق في حالة الوفاة، وأقسمت إنك لن تستخدمها، مهما حدث، هؤلاء الناس أهلي، وإن سُجن أحدهم، ربما لأجبرت على مغادرة (روض الفرج)، فلن يسامحني أحد، الناس هناك، كما هم هنا، بنيان مرصوص، لن يرضى أي منهم أن يلحق الأذى بجار له.

يقول (حسين)، فأتخيل ابتسامة (جابر) الآخذة في الاتساع وقد ازدادت اصفرارًا، إذ يجيب:

- أحسنت قولًا يا (حسين)، إذًا فلأستخدم إيصالاتك أنت! فأنت ما زلت مدينًا لي بما اقترضته لتزويج ابنتك، ولن يحزن أحد إن زججت بك خلف القضبان، فمن المستحيل أن يشتاق كائن حي لوجهك الدميم العكر. ماذا عن حسابات (الوراق) يا (عبد القوي)؟

علمت فيما بعد أن المدعو (حسين)، هو (حسين عبد الرازق) الخياط، دكانته في شارع (خمارويه) ولكنه يقطن (روض الفرج)، كما أذكر أن دكانه قد أغلق بعد ذلك اليوم بأسابيع، قال البعض أنه انتقل إلى (بورسعيد)، وقال آخرون أنه هرب من بعض الديانة، وقال (نوح أفندي) أنه مسجون. في ذلك اليوم، أراد (صلاح) المغادرة، فورَ أن فرش الفجر عباءة الصباح على جسد الليل المتخم بالأسرار، كان مرتعبًا، ترنحت براءته الحالمة، إثر تلقيها صفعة الواقعِ القبيح، لم يكن (صلاح) مؤهلًا لاستيعاب، أن هذا العالم قد يحوي أشخاصًا كـ(جابر عباس)، فلم أخبره فيما بعد أن (حسين)، قد سُجن بالفعل.

ظللت أتابع (جابر)، حتى استكملت نسج الحقيقة الكاملة، الرجل مُرابٍ محنك، هذه مهنته، هذا ما كان لأجله يطارد (أم ريمون)، فقد كان يود أن ينال من جسدها مقابل ما أقرضه لزوجها (ميشيل)...

- (أم ريمون)، اسمها الأصلي (تريز)، كانت أجمل بنات (شبرا) و(روض الفرج) في زمانها، تقدم لخطبتها العشرات، واختارت هي (ميشيل) ابن (يوسف) الخياط، هجرت كل احتمالات العيش الرغد، والحياة في

أرقى أحياء (القاهرة)، واختارت المزيد من الانغماس في قلبِ (شبرا)، حيثِ يرث (ميشيل) صنعة أبيه، ويحيك من عشقهما رداءَ نورانيًا صغيرًا، تسميه هي (ريمون).

ذلك مما قاله (نوح أفندي) في جنازة (أمِ ريمون) بعد ذلك بسنوات.

ظل (جابر) على مهنته، وعلمت أن أزواجًا قد قبلن أن يسلموه زوجاتهم مقابل الاقتراض، علمت أنه كان يضاجع هاتي السيدات في مقهى (أبو الروس) بعد إغلاقه، كما كان يحصل على أي شيء مقابل الإقراض، أثاث، ملابس، أجهزة راديو، بيد أنه قام ذات مرة بخلع مقابض أبواب منزل أحد المقترضين، عندما وجده خاليًا وقد باع صاحبه كامل أثاثه! تعلمت أن (جابر) هو من قصده الله في كتابه بمصطلح المفسدين في الأرض. تعلمت أن (أبو الروس) رجل بلا ضمير، قَبِلَ أن يمارس (جابر) فجوره ويعقد اجتماعاته المشبوهة في مقهاه، مقابل الاقتراض بدون فوائد. قررت منذ ذلك الحين ألا تطأ قدماي مقهاه، كان (نوح أفندي) يقصدها من حين لآخر، ولم أجرؤ على أن أقص عليه ما علمت، خاصة وقد كان أغلب ظني أنه يعلم طبيعة مهنة (جابر)، ولكنه لم يكن يعلم ما يمسي عليه المقهى في بعض الليالي بعد إغلاقه، ولكنه كان واثقًا، من أن هذا الرجل، في حقيقة الأمر، أفعى لها سم سريع المفعول، فكان يتحاشاه، ويحرص على ألا يخفي احتقاره له.

اجتذبني غرامي لـ(نادية)، من متابعة (جابر)، فانشغلت عنه، وربما قلَّت عزيمتي فور أن تكشفت الحقائق أمامي، كانت الحقائق على قسوتها، نقاطًا مضيئة، تغذي بصيرتي، وتنير بقاعًا ظلت عصية على النور في دروب مخيلتي، حتى وإن كانت الأضواء خافتة على جانبي الطريق، وتكاثف الضباب فغمر الدرب حتى منتهاه.

- الحقيقة منارة التمني، وشاطئ الحلم، وحدود الواقع، فاحرص على ألا تطفئ أنوارها بعناد عبثي، أو بمكابرة طفولية.

قال ذلك (نوح أفندي) ذات يوم، بعد أن شعرت باشمئزاز بالغ، لمرأى (جابر عباس) يوزع لحوم الأضاحي على الفقراء صبيحة عيد الضحية، كان يجلس بمحاذاة محل الجزارة، حيث يتم ذبح وتقطيع الضحية تلو الأخرى. المساكين ملتفون حوله، يشكلون طابورًا طويلًا، يميل بعد بدايته بقليل نحو اليسار، ومن موقعي في الجانب الآخر من (خمارويه) حيث أسير بصحبة (نوح أفندي)، يبدو الطابور كظل رجل، محني الرأس! أتذكر ظل (جابر) المتضائل يوم مطاردته لـ(أم ريمون)، فأرفع رأسي، وأراقب ظل أبي الشامخ، أستعيد عبارته عن الحقيقة والمنارة، أكثر من مرة، فتطول رقبتي، وأدرك أنه بعبارته هذه، يدرك أنني عالم بحقيقة مهنة (جابر عباس) ويعلم سر اشمئزازي لمرآه ذلك الصباح.

يومها شردت أثناء حديث جمعني به، فور أن مرت أمامنا (ناديه عيسى)، لاحظ أبي، المحنك في أمور الهوى شرودي الملاحق لنظراتها الخجلة، فتبسم، وربت على كتفي، قال:

- سأعود للمنزل لأخذ قسط من الراحة بعد هذا اليوم الطويل.

نظر في عينيّ مباشرة، ثم نظر أينما مرت (ناديه) منذ دقائق متلكئةً، وحيث لا يزال نظري شاخصًا، وأضاف:

- بإمكانك البقاء، لا تتعجل من أمرك.

غادرني، ثم صاح بعد أن أولاني ظهره بعدة أمتار، دون أن ينظر تجاهي:

- الحقيقة منارة التمني يا (إبراهيم)، مهما أبحرت بخيالك، احرص على ألا تطفئها.

يجيء صوته ضاحكًا، فلا استوعب الحكمة التي تحملها كلماته، وأضحك وقد كسا وجهي احمرار خجل.

أمضي حيث مرت (نادية)، موليًا ظهري لطابور (جابر عباس)، أطارد التمني، وتطاردني كلمات أبي، فأسارع الخطى لألحق بـ(نادية)، ولهذا حديث آخر، إن لم تخني الذاكرة.

"حدث وهو يرعى غنم أبيه، أن ظهر له ملاك الرب، وأراه إكليلًا من نور، وقال له لماذا أنت جالس هنا والجهاد قائم، قم امض إلى (أتريب)[٤٦]، وجاهد علي اسم السيد المسيح، ثم أعطاه السلام ومضى عنه"
من التراث القبطي

شبرا الشهيد

يقولون إنه مجذوب، أعلم أنه لا يجيد التحدث كسائر البشر، ولا يبدو أنه يدرك ما يزيد عن إدراك طفل ذي ستة أعوام، إلا أنني لم أرهِ يومًا كذلك، منذ أن تفتحت مسام عقلي أول مرة، بنهاية طفولتي مبكرًا، وأنا أثق أن ثمة حكاية مُكبلة، تقبع في بقعة ما، حبيسة صدر (عوضين)، مرت سنوات وأنا على اعتقادي الراسخ، اشتد عودي، وانشغلت عنه لما قارب العقد من الزمان، وحين انتبهت إليه مجددًا، كان كعادته، يحمل إحدى مباخره العتيقة، يناديه الصبية بالدرويش، ويناديه البالغون بالمجذوب.

يقول الشيخ الرفاعي:

- الدرويش، هو شخص زهد الدنيا، فتنزه عن حطامها المادي، ووهب حياته للذكر والتذكرة، وصار يقتات على إحسان القوم، الدرويش الحق، هو بالأساس شخص صوفي، صعد أولى الدرجات، على درج الترقي، تَرقّي الرُوح، وتطورها، فتحورها، حتى تصل إلى طورها النهائي، فيكون التجرد عن كل دنس ينشأ عن اشتهاء المتع والمتاع، ويكون قبول الدرويش لإحسان القوم، وأخذ ما يقدمون، هدفه مواصلة العيش، وإعادة توزيع الإحسان على من هم أقل منه فقرًا، فتتحقق رسالته.

أتذكر كلماته، يوم أن علمت بمرض (عوضين). كان قد غاب عن الأعين أيامًا، تنبه لغيابة الصبية في حارتنا، وتنبه كذلك بعض من ذويهم، ولكن ملاحظتهم غيابه لم ترقَ إلى الانشغال حتى يأبهوا، فيكترثوا.

- (أبو شنب) يعلم مسكنه، اذهب إليه، فإن كان حيّا، افعل ما يلزم كي يظل حيّا، وإن كان قد مات، فلنكرم رفاته، أما إن كان قد رحل، فذلك شأنه.

يقول (نوح أفندي)، فأصطحب معي خادمه الأمين، جرى ذلك قبل أن أعرف ان اسمه (هارون) بشهور، (عوضين) يسكن مكانًا ولا يسكن بيتًا، فهناك، حيث لا أستطيع العودة مجددًا لو لم يأت معي (أبو شنب)، في بقعة خواء خلف (روض الفرج)، أطلال منازل، أنصاف حوائط، أشجار ثكلى، وأرض ترابية تلهو فيها العقارب، ونيل حزين، يمر على مقربة منا، فيشيح بوجهه تجاه الضفة الأخرى من شاطئه، متجنبا مطالعة مشهدنا، كوخ له ثلاثة حوائط من الصفيح، وليس له حائط رابع، السقف أغلبه مغطى بقطع خشبية، باب قديم، وسيقان أشجار، وظل جزء منه ملتحفًا بالسماء، ثمة ستارة من الكتان البالي معلقة بين ضلعين، لتقوم بدور الحائط الرابع للكوخ، بشكل جزئي، يسرع (أبو شنب) الخطى، فهو يدرك حتمية العودة قبل مغيب الشمس، نتنقل بين أكوام قمامة، وبقايا أشياء، قال (أبو شنب) إن بعض بائعي الخردة، قد جاءوا إلى هنا ذات يوم، بجوال به عدة قطع حديدية، وكانوا يقسمون محتوياته، حين انفجر من جوالهم شيء لم تعرف ماهيته حتى اليوم، تهاوى أحد المنازل القديمة إثر هذا الانفجار، وأشاع القوم أن أرواح التجار الثلاثة ما زالت عالقة في ذات البقعة حيث تناثرت أشلاؤهم. ابتعد من استطاع، وبقي من أرغم، وقيل إن بعضهم قد عمل على تأجير مسكنه إلى الوافدين من الأقاليم للالتحاق بالجامعات.

وأنا أعيد رسم هذا المشهد الآن، أتفكر فيما حكاه (أبو شنب) عن ذلك الجسم المتفجر، فأظن أنه ربما كان لغمًا من مخلفات الحرب، ولكن هل كان من الوارد، أن يُعثر على لغم في ضواحي (شبرا) في العشرينيات؟ إذا لم يكن لغمًا، فماذا يكون؟ وإن كان لغماً، فلأي حرب يعود!؟

لم يقو على مقاومة أسطورة أشباح التجار، سوى رجل كـ(عوضين)، لا يعرف أحدٌ من أين أتى على وجه التحديد، حين استقر هنا في بداية الثلاثينيات، ولكن كونه درويشًا، أو مجذوبًا، جعله في نظر العديدين، رجلًا مبروكًا، وعليه، فقد كان في وجوده دحر لشياطين الجن، وأرواح القتلى، ولم لا وهو الرجل الذي يتلو الأذكار والأدعية طيلة ساعات استيقاظه، فإن غفا، لوحظ أن الذئاب التي اعتادت العواء، وبث الرعب في قلوب أطفال المنطقة، تبيت الليل على غير عادتها، هادئة السريرة، قريرة العين!

على مرمى البصر، من موقع مبيت (عوضين)، تلوح شواشي الذرة، صانعة خلفية بهية، لمشهد قاتم، لو كان (صلاح زكي) قد زار (عوضين) يومًا، لأبدعت ريشته، لوحة ذات خلفية زرعية خضراء تتوجها شواشي الذرة، وفي واجهة اللوحة أطلال بيوت، وبقايا أشجار البلوط، باللونين الأبيض والأسود. وبطبيعة الحال، مع تلاحم حقول الذرة بطمي النيل، تبرز النداهة، وكانت تلك مخافة أخرى تجوب المنازل المحيطة بـ(عوضين)، تقرع أبواب المخيلات، وتفزع الغارقين في السبات، وقصص ضحاياها كثيرون، يقول (أبو شنب):

- سمعت عن العشرات ممن اجتذبتهم النداهة، دائمًا ما يقال "قيل إن فلانًا كذا..."، ولم يتصادف خلال العقود الأربعة الماضية أن يكون هذا الفلان شخصًا أعرفه، أو أعرف من يعرفه.

كلماته توحي بإنكار وجود النداهة، وإن لم تنكرها صراحة، الرجل السبعيني طالما كان ماهرًا في اختيار كلماته، قال هذا حين أصبحنا على مبعدة أمتار من موقع (عوضين)، يتقدم (أبو شنب)، يصفق، (يا رب يا ساتر)، يقول مرتين بلكنته السودانية التي أحببتها إثر ارتباطي به، يأتينا صوت واهن، نمد الخطى وقد تيقنا من سابق حدسنا بأن الرجل حتمًا مريض.

كومة عظام، تربطها أوصال آدمية، وقد ستر عُريها ملاءة توحي بأنها كانت يومًا بيضاء، قبل أن تغدو مصفرة بفعل الزمن، هذا ما وجدنا عليه (عوضين)، مفترشًا الأرض، فوق عدة أغطية صوفية كان أولى به أن يجعل من أحدها غطاءه، قطعة مرآة قديمة لا تجاوز في حجمها كف أخي (إسماعيل)، وقد علقت بدوبارة مثبتة في قمة أحد الحوائط الصفيحية، قلة على يمينه، صندوق خشبي عتيق صغير، يبدو وكأن عمره ألف عام، وضعت عليه قطعة قماش لُفت بعناية، لتتكئ عليها رأس (عوضين)، ذلك الدرويش الخمسيني الذي بدا وكأنه أكبر عمرًا من (أبو شنب) في ذلك اليوم.

على يساره قطعة فراء سوداء، لا أميز ملامحها، يتبسم لمرآنا، وتهلل عيناه المتسرب من ثناياهما الوهن، يأتي صوته هامسا: أهلًا وسهلًا.

- ما بك يا رجل، لم تظهر منذ أسابيع، كنت واثق أنك مريض...

يخاطبه (أبو شنب)، يتمتم (عوضين) ببضع كلمات أراد بها شكرًا، وعرفانًا:

- مرضت، أسبوع فقط، قبلها، كلبي مريض...

يقول هذا ويربت على كتلة الفراء، فتتحرك، أقفز من موقعي محتميًا بـ(أبو شنب).

- لعنة الله عليك يا مجذوب الشؤم، تربي ذئبًا، وتسميه كلبًا!

يصرخ (أبو شنب) وقد جعل من يديه الملتفتين خلف ظهره درعًا لي، يتثاءب الذئب الأشعث الفراء، تبرز أنيابه، وتتسع حدقتا عينيه الحمراوين، قبل أن يعتريه توتر إثر مشاهدته لارتياعنا، فيزجر...

- اهدأ يا صغيري.

أقول إنني لا يمكن أن أهدأ في وجود ذئب، فينبهني (أبو شنب) إلى أن (عوضين) إذ يقول يا صغيري، فإنما يخاطب الذئب، أضحك في قمة لحظات الرعب، ويضحك (أبو شنب)، يطلب (عوضين) من ذئبه المغادرة، فيضع ذيله بين ساقيه، ويغادرنا هادئًا، تمر دقائق، يقطع صمتها (عوضين) بكلماته المتقطعة:

- ذئب طيب، يسرق لحمًا، يصطاد الأرانب، يطعم (عوضين)، (عوضين) يحب الذئب.

أتذكر باقي حديث الشيخ الرفاعي:

- أما المجذوب، فهو ما يطلق في الأغلب على شخص قواه العقلية غير مكتملة، قد يحدث ذلك منذ الولادة، وقد يحدث ذلك إذ يتعرض شخص لصدمة عاتية، تذهب عقله، ويمسي مجذوبًا.

يَلُف الصمت طيات المشهد، يبتسم (أبو شنب)، أشرد برهة، يأخذني فضول، أود لو أعرف إن كان (عوضين) قد ولد بلا عقل، أم اجتُث منه العقل، موقف صادم ذات يوم، (أبو شنب) يضع باطن كفه على رأس المجذوب، يطمئن أن حرارة جسده طبيعية لا توحي بالحمى. يتبادل نظرات طويلة معه، ينظران صوبي، أشعر بقلق...

- هو سلسال أبيه الطيب.

يقول (أبو شنب) فيعتدل المجذوب في جلسته، يبدو مريضًا بحق، يطيل النظر صوبي، وكأنه يستطلع ما يجوب بأعماقي، أو يقرأ ما يجول بذهني، أنظر لـ(أبو شنب).

- سيكون على ما يرام.

يقول، فأميل على أذنه "أريد الرحيل"، أهمس له، فيومئ برأسه باسمًا:

- مبكر، الوقت، سي (إبراهيم أفندي).

قالها المجذوب، فأجبت:

- جئت لأطمئن عليك، سنعود ليلًا وبصحبتنا طبيب

أقول. فيضحك (أبو شنب) أشعر بريبة، يضع (أبو شنب) ذراعه على كتفي:

- دعه يشرح لك كل شيء، لا تخف، هو ليس مجنونًا بما يلزم لإيذاء بعوضة، فقط حروفه منقوصة، وكلماته متلعثمة، ولكنه ليس مخبولًا...

- فما يكون إذن؟

أقول مُزيحًا يده بعصبية عن كتفي...

- هارب.

يقول (عوضين) فتجتذب كلماته مخيلتي النشطة، يرقد مجددًا، يتبسم وكأنه إذ يبوح بسره لشخص جديد، فهو يلقي عن كاهله بجزء من أحمال أضناه حملها، يقول (وسوف أرتب كلماته هنا بصياغتي):

- هارب من بلدة بعيدة، تناحر مسلموها وأقباطها، ونشأ بينهم صراع بشأن صندوق صغير، اعْلَم أني أُصْدقُكَ القول، هذا ما كان...

يقول، فأشرد، وكأنني أعيد صياغة ما يقوله على الورق، حس صحفي أثير، سيتنامى فيما بعد... نجع لا محل له بالخريطة، يقع ما بين (ملوي)[٤٧] و(أبو قرقاص)، لم أعد أذكر اسمه، النجع به مسجد واحد، على قارعته، وعلى مسيرة يوم من بيوته الطينية، كنيسة صغيرة، تقبع في صحراء مترامية الأطراف، النخل يمتد من النجع حتى الكنيسة، وكأنه يرشد القادم من هنا إلى هناك، والعكس، سكان النجع ما بين مسلمين وأقباط، تقوم حياتهم على النخيل، وصناعة التمور وعرق التمور هو شغل أهالي النجع الشاغل، يهتم المسلمون بالتمور، ويهتم الأقباط بالعرق، ولكن كلتا الصناعتين، يشتغل بهما الجميع بشكل أو بآخر.

نجع ساكن، يصحو على معركة دامية، وحرب تدور رحاها لأسابيع متصلة، إذ يحط بالنجع كاهن جديد، في طريقه نحو الكنيسة، يبيت ليلته، فيشاع أن الكاهن يحمل معه صندوقًا يحمل في جنباته إصبعًا مُحنطًا، لقديس، قتل منذ ألف وستمائة عام، اسمه (يوحنس السنهوري) وفي مقولات أخرى تكتب (يوأنس) بدلا من (يوحنس)، و(السنهوتي) بدلًا من (السنهوري)، تتطور الإشاعة من دار إلى دار، فيقال إن بهذا الإصبع نصرة للأقباط وهلاك للمسلمين، ويردد الأقباط أن في هلاك هذا الإصبع هلاك للأقباط، يتحدث كبارات عوائل المسلمين مع كبارات الأقباط، يكادان أن يتفقا على أن يرحل الكاهن عن النجع بما يحمل، قبل أن يشعل شباب موتور النيران في مبيت الكاهن فيموت حرقًا...

- ازداد تشبث الأقباط بالصندوق، حين هرعوا لموضوع الحريق، ليجدوا الكاهن وقد فاح من بقاياه رائحة كشواء الضأن، وبقي صندوقه الخشبي سليمًا!

يقول (عوضين)، فأومئ برأسي، يواصل الحكي، يكسو وجهه طيف من ألم قديم، فما صار بعد مقتل الكاهن، أشبه بالحرب الأهلية، سقط العشرات من الطرفين، وتعقدت الأمور بموت من أتى بالصندوق، فلم يعلم أحد من يرحل به، فاحتفظ به الأقباط في كنيستهم، وسرى فيضان الدم، فتيات أقباط قُتلن، وكاهن الكنيسة الصحراوية قطعت أوصاله، فرد الأقباط بأسر شيخ المسجد، ودفنه حيًا، يرسل الملك بكتيبة جيش إلى النجع، بعد شهر من بداية الأحداث، ليجد جنوده رمال الصحراء وقد كساها شيء من الاحمرار إثر فيضان الدم، تهدأ ظواهر الأمور، حتى يقوم أحد الطرفين بإشعال النار في معسكر الضباط، فتشتعل الأمور من جديد....

- بدا أن الأمور تتجه صوب فناء هذا النجع عن بكرة أبيه، حين قابلت أحد عابري السبيل، وقد قاده حظه العاثر للمرور بقريتنا، كان اسمه (عبد الرحيم السنهوري)، فتعجبت من تشابه اسمه مع اسمٍ القديس، صاحب إصبع الخراب كما أسميته في حينها. اقترح عليّ اقتراحًا، لم يكن لدي بديل عنه، فقبلته على خطورته...

قال (عوضين) إنه انتظر حتى عادت كتيبة الجيش إلى النجع، وقطعت الطريق بين مسجدها وكنيستها، وغادر رفقة عابر السبيل شمالًا، كان هذا الغريب ضليعًا بدروب الصحراء، واقتفاء أثر النجوم، غابا معًا في جوف الصحراء سبع ليالٍ، التفا حول الكنيسة الواقعة شرق النجع، ليبلغاها من جانبها الشرقي، الكل مسمرة أبصاره صوب غرب الكنيسة باتجاه النجع، فلم يرهما أحد وهما يتسللان إلى داخل الكنيسة، لم يقطع طريقهما مخلوق حتى شرعا في تفتيش الغرف والطرقات بحثًا عن الصندوق، كان قرارهما أن يهربا وبحوزتهما الصندوق، ثم التخلص منه، والعودة كأن شيئًا لم يكن.

- حين وجدنا الصندوق الخشبي الصغير، وجدنا معه بردية، خُطت باللغة العربية، فيها وصية صاحب الإصبع، كان قرارانا هو التخلص من الصندوق فور الهرب، ولكننا تبادلنا النظر، على ضوء النار التي أشعلناها، بعد مسيرة يومين في قلب الصحراء، وإثر قراءتنا للبردية، كان خلافنا الأول...

كان عابر السبيل (السنهوري) يرى حرق الصندوق بما يحوي، ولكن (عوضين)، ذلك الرجل الأُمي، الذي لم يكن يعرف ما بالبردية لو لم يقصه على مسامعه (السنهوري)، قرر الاحتفاظ بالصندوق.

- رأيت فيه قصصًا كثيرة، تشابكت عبر قرون مضت، لم يكن الشر مصدره الصندوق، ولكن كانت مصدره الفتنة والجهل، أقام الأقباط، هنا في (شبرا)، طقوسًا خاصة بهذا الصندوق، فكانوا يغمسونه في ماء النيل كل عام حتى يفيض النيل، وكان ظنهم أن النيل لن يفي بمائه دون مباركة إصبع (يوحنس السنهوري)، كنت أرى فيه تراثًا وتاريخًا، فلم أشأ أن أحرقه... كان اسم (شبرا) ذات يوم، هو (شبرا الشهيد)، مرجع هذا الاسم يعود لهذا القديس.

يصمت برهة، يشرد، ويدلي بخاتمة اعترافه:

- قالت البردية، إن هذ الصندوق سيتنقل طواعية بين الأصفياء، فلن يكون بمقدور أحد أن يقتنيه، فالصندوق، سيقتني حامليه عبر العصور، وقد شعرت بأنه يناديني، فلبيت النداء، وأمسيت من الأصفياء...

تدهشني كلماته، ووعيه، وهو من حُرِم نعمة القراءة، وقسمًا غير يسير من نعمة الإدراك، فلم يحرمه الله من ملكة البصيرة. يلفت نظري مرأى صندوق تحت رأسه، تنتابني قشعريرة، أشير إلى الصندوق، ولا أتكلم...

- نعم، هو هذا الصندوق، من أجله أتيت إلى هنا، حيث هو وطنه، وليس وطني، ومن أجله تصنعت الخُبال، ومثلت دور المجذوب حتى أجد المأكل والمشرب، كلما شرعت في الارتحال، أو الابتعاد عنه، يناديني...

رجل من الصعيد، يربي ذئبًا في بقعة منسية من أرض مهجورة، ويحتفظ بصندوق به إصبع رجل مات منذ ستة عشر قرنًا، ويقول أنه يتصنع الخُبال، تيقنت أن الرجل حقًّا مخبول، إلا أنني أرسلت له (أبو شنب) صحبة الطبيب ليلًا، كما أوصاني أبي المعتكف للكتابة...

- (السنهوري) تبعني إلى (شبرا)، ويبدو أنه قد مسته كرامة من كرامات الصندوق، فأصبح من المطلعين على الغيب...

يقول (عوضين)، فيؤكد (أبو شنب):

- هناك من يسمى بـ(الشيخ السنهوري) فعلًا، يقطن (شبرا)، ويشاع أنه من آل السحر والدجل، سطع نجمه ولمع مؤخرًا، لا أعلم إن كان هو من يقصده (عوضين).

قال (عوضين) أيضًا، أن ذهنه تفتق على أنه ثمة نسب يجمع (عبد الرحيم السنهوري) بالقديس ذي الإصبع، دهشت لطرحه، ودهشت أكثر لكونه مسلمًا، وهب حياته لحماية صندوق يحوي إصبعًا مبتورًا لقديس مسيحي!

- هكذا أتابع قريتي، أتوق لمعرفة ما جرى بعد رحيلي، هل عادت أبابيل الطيور للمبيت بأشجارها؟ هل استيقظ أهل حارتنا ذات صباح، فنسوا ما جرى؟ هل أنبتت نخلتنا التمر، أم واصلت حدادها، واختارت عقرها عقابًا على ما اقترفناه بحق أنفسنا؟ هل تنبّه أحد لغيابي؟

يقول مشيرًا إلى تل هائل من الأوراق المصفرة، صحف عتيقة في زمانها، متقنة التراص بحيث ظننتها أحد الأعمدة التي يتكئ عليها منزله المتهاوي...

تتكاثر دوامات الحيرة من حولي، فأمسك بيد (أبو شنب)، ويهمس هو:

- أقرأها له على الدوام، ولا أعلم لماذا لا يتخلص مما تُلي على مسامعه، ولا يتوقف عن متابعتها، لن تذكر تلك الصحف شيئًا عن موطنه، فقد أتى من حيث توقف الزمن، وكثر الضباب حتى حُجب وطنه عن الخريطة، هو بالكاد يذكر اسمًا لقريته...

تقاطعنا حروف دامعة:

- كانت لي أم كالنخيل، تظللني إن اشتدت حرارة شمس قريتنا، تطعمني إذا ما جِعت، وعليها يكون المتكأ عند السبات، عذبتها كثيرا، فهل هي مرتاحة برحيلي، أم أنها مشتاقة لعودتي؟

تهزني كلماته، وكذلك (أبو شنب)، فيتمتم كلانا بتمنيات الخير، وقد لاحظت أنه لا يضع احتمالا أن تكون أمه قد ماتت!

وأنا أتذكر هذا كله، أتوقف مدهوشًا، أمام عظمة تصرف (عوضين)، ذلك الرجل، الذي ولد بإحدى نسب الإعاقة الذهنية، فأتى بفعلته هذه، ليوقف حمام الدم في قريته، وإن كان لم يوقف الفتنة عبر عصور تلت.

يقول (أبو شنب):

- هذا الدرويش، يرى، ما لا نراه، ويشعر ما يكون قبل أن يؤذن له بأن يكون، كما أنه بإمكانه أن يمسي في طرفة عين، عاشقًا عتيدًا، وعجوزًا حكيمًا.

علمت من (أبو شنب) فيما بعد أنه كان يحب فتاة مسيحية قتلت في خضم هذه الأحداث...

ولكن ما لم أعلمه في حينها، هو سبب اختياره لي أنا بالذات ليكشف لي سره، ويفضح أمره!

سألت (أبو شنب) فيما بعد، عن اختياره له هو أيضًا، فكان منطقيّا أن يخبر (أبونا يوحنا) بقصته، ويعطيه الصندوق، ولكن (أبو شنب) قال إنه لم يثق أبدًا برجل دين، مسلم كان أم مسيحي، وكان يثق في اندلاع حروب أخرى إن وصل هذا الصندوق لأيدي رجل دين آخر.

فيما بقي من أيامه، ظهر (عوضين) عدة مرات في حارتنا، حاملًا صندوقه، أو تابعًا له، وفي إطلالاته الأخيرة، اتسعت ابتسامته، وتظاهر بأنه لم يخبرني بشيء، وواصلت أنا تظاهري بأن لقاءنا هذا لم يحدث، لهجته التي طالما استعصى عليّ فهمها، أمست تنساب كالموسيقى في أذني، واضحة المعالم، مفهومة المقاصد.

مات (عوضين) عقب ذلك بشهور، فترك لي مفاجأة هي آخر مفاجآته، وكانت، أن عهد لي بصندوقه، في وصية مقتضبة، أصر أن يخطها هو بيده، محاكيَا ما خطه أمامه (أبو شنب)، فجاءت حروفها مائلة، حادة الزوايا: "الصندوق... اختارك... (إبراهيم)".

حملت الميراث مسيرًا غير مخير، خاصة وقد عكف الذئب على مطاردتي في دروب نسجت ما بين الأحلام والرؤى، كلما خطر لي أن أتخلص من الصندوق، حتى كان أن طردت الفكرة من عقلي، فرحل الذئب بصحبتها! واحتفظت بالصندوق...

ولهذا حديث آخر إن لم تخني الذاكرة.

تَتنهَدِين... فَتَلْفَحُ نَارُ الوَجْدُ قَلبي...
وتَضْحكِين...
فَيَبعَثُ الإنسانُ فِي تكْوِيني...
فَأنْت البَعْثُ مِن رَحِمِ الثَرَى...
وأَنْت كتَاب مُقَدَّسَاتي...
قنِّينَةُ حبْرِي...
أَلْوَانُ القَدَرِ بِفُرْشاتِي...
والحُلْمُ الشَارِقُ فِي أُفُقِ المَجهُولِ...
وديني...
أَلُوذُ بِجَسَدك إذ يتَكَاثُف غَيْمَ القَهْر...
وأَطُوفُ بِجَسَدك إن سَألوني...
حينَ أَضُمُّ بَرَاحَ القَبْر...
مَنْ رَبّك!؟
رَبِّي مُن جَمعَ بِجَسَدك بَرَدَ الثَلْجِ، وجَمْرَ النَار...
ربِي من جعلك رحما...
منه نبتُّ...
وإليه أعود، لأنبت ثمرا تعلمه الأقدار...
رَبِّي مَن خلَقَك أُنْثَى...
تَحملُ أخْتَامَ الشَهَوَاتِ وتَكْتُمُ آلاف الأسْرَار...
أَسرَارُ الكَونِ... مُنْذُ البَدْء... حَبِيسَةُ جَسَدِكِ...
قد كَانَتْ ضَلْعًا...
غَادَرَ جَسَدي... يَوْمَ رَآني الرَّبُّ وَحيدًا...
أَفْلَتَ مِن قَفَصِي الـمَحْمومِ، وصَار... جَسَدُكِ أنْتِ...
يا من جئت... كِي تبقيني...
يا بَوْحَ الكتْمانِ....
وسفر هَارِبٌ... منْ أَسْفَارِ التَكْوِينِ...
يا مَنْ كُنت، وستَبْقَيْنَ... بَيْنَ حُقُول الشَّك...
ضَوْءَ القَمرِ الحَابِي...نِبْرَاسِي وَقنْدِيلُ يَقِينِي...

إبراهيم البنداري

مناجاة نادية عيسى

ربما عشقتها منذ أن كانت صبية، بل ربما خالفت مبادئي، فعشقتها منذ أن كانت تغادر على استحياء آخر فصول الطفولة، خاطية فوق عتباتها، طارقة أبواب الأنوثة. فارق السن بيننا فقط عامان، كنت قد بدأت التفاخر بمنبت شاربي، حين كان جسدها يستجيب لسحر الهرمونات، فيستدير وينحني، فينثني، مزخرفًا جسدها بطلاسم أنثوية، يسير خلفها بنو آدم، مسحورين، مرددين لعبارات الغزل والتمني.
(نادية)، ابنة (يوسف عيسى) مدرس اللغة الفرنسية من زوجته البلجيكية، ورثت عن أبيها روح المصريين، وعن أمها الجمال الأوروبي الهادئ، أذكر أن (أبو شنب) قد مات قبل أن ينطق بجنسية أم (نادية) بطريقة صحيحة، إذ غالبًا ما كان يصفها بـ"المرأة البزليكية" وحين حاولت أن أصحح لها نطقه، تحولت صفتها من "البزليكية" إلى "البرشيكية"، فتوقفت عن المحاولة، إلا أن (أبو شنب) نفسه، كان المتسبب في كلماتي الأولى مع (نادية).
كنت عائدًا من "شبرا بالاس" رفقة (صلاح)، حيث استغرقنا نقاش حاد عقب مشاهدتنا لفيلم "حب في الظلام" لـ(فاتن حمامة)، إذا لم يستسغ صلاح فكرة أن ينتقد صعلوك مثلي مخرجًا واعدًا كـ (حسن الإمام)، كان القيظ مستعرا، سجالنا الحواري المعتاد امتد قرابة الساعة...
أفتقد الآن مشاحناتي الفنية والثقافية مع (صلاح) كثيرا، رغم حقيقة بيزنطيتها!
تعالت يومئذ أصواتنا حتى نبهني (صلاح)، إلى أن العمل قد تشارك في كتابة القصة والسيناريو والحوار له، مؤلفان، أولهما هو (السيد بدير)، أما الآخر فقد كان اسمه (يوسف عيسى)، وهو نفس اسم مدرس اللغة الفرنسية، الذي كان الأبرز في شبرا حتى توفي منذ بضع سنوات، وهو أيضًا والد فاتنة شبرا نصف المصرية، وزائرة أحلامي الدائمة، (نادية عيسى).

افترقت عن (صلاح) ولم تفارقني بسمتي التي ارتسمت على وجهي بذكر (نادية)، حين وجدت (أبو شنب) وقد أجلسها على كرسي خشبي قبالة بوابة المنزل، كانت مسبلة العينين، وجهها ضارب في الاحمرار، تتمتم بعبارات شكر وامتنان لـ(أبو شنب)، حين جلست إلى جوارها القرفصاء.

- هل أنت بخير يا آنسة؟

وتقول (نادية) بخجل: شكرا، ثم تفتح عينيها محدقة فيّ:

- ألا تعرفني يا (إبراهيم)!؟

أرتبك إذا ناديتها بالآنسة وكأنني لا أعرف لها اسمًا، يلحظ (أبو شنب) عثرتي، يقول إبان انسحابه من المشهد:

- سأحضر لك كرسيّا يا (سي إبراهيم).

أظل على جمودي، حتى يحضر الكرسي ويضع يديه على كتفي، ليجلسني على الكرسي الذي لم ألاحظه، وقد ثبتت عيناي لا إراديّا بوجهها الصبوح، فامتزجت حمرة لفحة الشمس فوق وجنتيها بحمرة الخجل، يلكزني (أبو شنب):

- سأذهب لري الشجر، بعض النباتات يا آنسة (نادية) قد تبدو كالجماد، ولكن ثقي أن بها روحًا، تحب وتكره، تريد وترفض، تجوع وتعطش، حتى وإن لم تتحرك، وبقت يابسة كالصنم...

وكأنه يخاطبني وقد طال بي الجِمود، فتهم هي واقفة:

- أشعر بتحسن، سأغادر، شكرًا يا عم (أبو شنب)

تتحرك خطوتين ثم تتوقف، وتدير وجهها مجددًا:

- شكرًا أيضًا يا (إبراهيم).

أقول لها أن لا شكر على واجب بخفوت لا تسمعه، فتبتعد، أستفيق من شرودي على صوت كف (أبو شنب) وقد هوى به على جبينه مغتاظًا، لا أفهمه، ولكنني أمد الخطى لألحق بها:

- لحظة يا آنسة (نادية)، سأرافقك حتى منزلك.

أسمع ضحكة (أبو شنب) المختلطة بزفير ارتياحه، ولم أعلم حينها، أن هناك، في شرفة منزلنا، يقف (نوح أفندي) مبتسما متابعًا ذات المشهد، متمتمًا:

- كبرت يا (إبراهيم).

يتابع خطواتي حتى ألحق بنادية على ناصية الحارة، ننعطف يسارا فى نهايتها.. فيدرك أن كلانا قد قرر أن يسلك الطريق الأطول إلي بيتها، إذ إن الانعطاف يمينا كان ليقصر مسافتنا، وهكذا... قررنا منذ اليوم الأول ألا نسلك الطرق الاعتيادية... فكانت علاقتنا نافذة في قلوبنا، لا يضاهيها غرام، ولا يماثلها في تفردها أشهر أقاصيص العشق، وأصدق أشعار الهوى. قالت:

- يبدو أنني كنت على وشك التعرض لضربة شمس.

حلَّت عقدة لساني فهمست:

- ولم أكن لأغفر للشمس إن فعلت...

تسمعني فتتسع حدقتاها فيبدو صفاء عينيها العسليتين جليّا، تداعب قسماتها الخجلى بشائر اغتباط.. فتُسرع بمواراتها، وتقول (نادية):

- أعلم أنك كمن يراقبني منذ شهور، واعلم أنني لم أشكُك لأمي يومًا.

فأقول وقد حل بجسدي مارد الجرأة والإقدام على حين غرة:

- بإمكاني أنا أن أخبرها أنني أراقبك...

وتدهش (نادية)، ترجف أناملها البكر إذ أمسك بكفها، تغزوها جيوش الخجل فيغمرها احمرارٌ قانٍ، ولا تفلت يدها من يدي، يلفنا الصمت لدقائق تجاهل كلانا خلالها، تخيل احتمالية أن أيّا من معارفنا، قد يرانا فيشي بنا، وشاء الخالق ألا تقفل صفحة تزينت للتو بأول سطورها، فجعل بيننا وبين القوم سدًّا حصينًا، سرنا فيه وصرنا كالعابرين في سرداب طويل، جوانبه خضراء، تغمره ظلمة ضبابية شفافة، تخترقها من خلال ثقوب غير مرئية، خيوط من ضوء تتراقص إثر ملامسة خطانا، تحتفي بمرورنا، ويدثرنا سكون، فيتوقف الصبية عن الصياح، والأطفال عن الصراخ، ويصمت

الباعة الجائلون فلا ينادون على بضائعهم، ويكتم الكون أنفاسه محترمًا خصوصية المشهد وقدسيته.

حين وصلنا قرب منزلها، وددت أن أفلت كفي وقد اعتراني خجل إذ أنداه العرق، فترفض هي إفلاتي، كنت في حلم أخضر بزغ بغتة في قلب يومي الحار القاحل، تشاركني هي الشعور، وتقول:

- لقد وصلت، شكرا يا (إبراهيم).

تقولها ولا يفارق كفها كفي، أقول:

- لا شكر على واجب يا (نادية).

يتفارق كفانا فأسير موازيا لها متأخراََ عنها بخطوتين، عبرت عتبة منزلها ثم توقفت للحظة، نظرت خلفها لتجدني وقد لحقت بها على أولى درجات الدرج الخشبي العتيق، تصعد درجة أخرى فنمسي متقاربين في أطوالنا، يتقارب وجهانا لأول مرة، يتعاظم مارد الجرأة فيتملك مني ويدفعني لأقارب وجهي من وجهها، ألاحظ ارتعاشة شفتها السفلى، يهمس المارد بداخلي ويدوي صداه من خلفه:

- اقطف من الثمر ما طاب قبل أن يسقط...

أغمض عيني، واحيط خصرها بكفي، وأقبلها، تسكن ارتعاشاتها، ويرتوي كلانا، تمسك بمؤخرة رأسي بكفيها وتجذبني نحوها، وكأنها تخشى أن تُفلتني. كانت تلك قبلتي الأولى، وكذلك أولى قبلاتها، ولكنها لم تكن آخر قبلاتنا بطبيعة الحال...

لم أعرف كم مر من الوقت حتى تفارقت شفتانا، ولكنني أذكر جيدا أنها حين صعدت الدرج بخطوات سريعة، التفتُّ مغادراً بدوري، ليهوي قلبي بين قدمي مرتعدًا لمرأى ظل رجل، يحجب الضوء المنساب من بوابة المنزل، يتراجع الظل خطوات للخلف فينقض عليه شعاع الشمس الحارقة كاشفًا وجهه وقد بدت ضلفتا الباب الخشبي ذي اللون الأزرق وكأنهما قوسان يحيطان بوجهه النحيف...

- كدت أن تقتلني يا (أبو شنب)!

أقول متنهدا، ويقول (أبو شنب):

- أرسل (نوح أفندي) في طلبك وقلقت عليك إذ إنك تأخرت، فأتيت خلفك...

يقول الرجل العجوز باسمًا، أسير إلى جِواره في تؤدة فيتعمد التأخر عني بخطوتين كعادته مع أبي، ومعي مؤخرا، أسمعه يتمتم:

- صليت أن يشتد عودك يا زرع النعناع، فاستحلت كاللبلاب في غضون دقائق...

أضحك لجملته تلك، ويعتريني مزيج سحري من الزهو والانتشاء، أرفع رأسي في خيلاء وتشرئب خطواتي، وكنت في طريق عودتي أبحث عن آثار خطواتي إبان قدومي وأتعمد محوها فأستبدلها بخطواتي عائدًا من حيث قطفت أولى ثمرات الهوى. أدخل غرفة الضيوف، لأجد نوح أفندي واقفًا بجوار مكتبته التي امتدت من الأرضية الخشبية حتى سقف الغرفة، واحتشدت بها كتب لا آخر لها، ينظر نحوي فيبدو وجهه كمن كان للتو مبتسمًا، ويقول:

- هذا ميراثك يا (إبراهيم)...

أجفل وأهلع، يلحظ هو ذلك فيردف مطمئنا:

- عاهدت نفسي أن أورثها لك فور أن يشتد عودك.. وقد قررت ذلك اليوم.

يربِّت على كتفي أثناء تفوهه بجملته الأخيرة، حتى ينتهي منها فيحرك يده بموازاة كتفه اليمنى في حركة مسرحية تعني دعوتي لتسلُّم الميراث، أملي عيني بالعناوين، وقد كانت تلك المكتبة من المحرمات طيلة فترات الطفولة، حتى اعتدت أنا و(إسماعيل) تفاديها وتجاهلها.

- (نادية عيسى) فتاة جميلة بحق...

يقول فيسقط من يدي كتاب كنت أطالعه للتو، أتلعثم في أولى محاولات الرد، يدخل (إسماعيل) فأتنفس الصعداء وقد جاءني المدد، وأقول:

- في حارتنا من هم أجمل منها...

أقول كمن ينكر ما لم يتهمه به أحد بعد، يقول (إسماعيل):

- هل حقا اصطحبت (نادية) ابنة (مسيو يوسف) إلى منزلها اليوم؟

ويقاطعه (نوح أفندي):

- أثق أنك تعلم انها مسيحية.

أستشعر غضبة تجتاحني فأقول:

- كيف تكون مسيحية وأبوها مسلم!؟

كان (يوسف عيسى) مسلمًا، ولكن زوجته أصرت فور وفاته على أن تكون ابنتها مسيحية مثلها، كان الرجل صالحًا، أحب (كاترين) البلجيكية الجميلة، ذات الشعر الكستنائي المائل إلى الاحمرار، أثناء بعثته في باريس، تزوجها وأتت معه إلى القاهرة، عشقت الحياة في (شبرا) فأنجبت له (نادية)، إلا أن الرجل ذي الأصول السوهاجية العتيدة، أراد صبيًا، وشاء الله أن يبور رحم (كاترين) مبكرًا فلا ينبت الأجنة من بعد (نادية)، فكانت النتيجة أن تزوج امرأة أخرى من بلدته الأم (طما)، حيث أرض الميلاد وأفدنة الميراث، اعتاد أن يسافر فى نهاية كل الشهر ليتابع أرضه، ويحرث زوجته الجديدة، باحثًا في جنباتها عن ثمرة الصبي الغائب، فلا يجدها، يرهقه السفر والحرث، فيمرض بعد عام من المحاولات المضنية، ويفقد الأمل ، فيموت...

تقول (كاترين):

- (يوسف) مات في قلبي يوم أن ضاجع امرأة غير زوجته باحثًا عن الصبي، لن أرضى لـ(نادية) بمصير كهذا.

يعارضها أهل الحارة ويأتيها شيخ المسجد فتطرده، تصطحب ابنتها ذات السنوات العشر وترحل لتغيب عن شارع الأميرية لعدة أسابيع، تعود بعدها بشهادة عماد (نادية)، وتعلن أن ابنتها صارت كأمها مسيحية، يتبرم شيخ المسجد، ويعترض البعض، ولكن الأمر يمر بسلام في النهاية ويعترف الجميع بـ(نادية) كفتاة مسيحية، ترتدي سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب صغير، تزور الكنيسة بانتظام فلا يفوتها قداس الأحد إلا فيما

ندر... كنت أعلم إنها صارت مسيحية، وكنت مندهشًا لتمسك (كاترين) بالبقاء في (شبرا)، كنت أراها تتسوق من (عبود) الفكهاني، وتناقش أسعاره كأمهر وأحنك سيدات (شبرا)، حتى حينما بدأ شعرها في التساقط حزنًا، حين تزوج (يوسف) من زوجته الريفية، أمست تغطي شعرها بمنديل رمادي، فكانت حال خروجها من الكنيسة أيام الآحاد، تبدو كأي امرأة مصرية مسيحية، تكاد لا تميزها بينهن، اللهم إلا حين تقترب منها، فتلحظ عينيها الزرقاوين، ووجنتيها المضرجتين باحمرار حل بهما يوم أن حلت بـ(مصر) فلم يبرحهما منذ ذلك الحين.

- قلت لي أن لا فارق بين مسلم ومسيحي...

أقولِ لنوح أفندي محتدًّا، يرمقني بنظرة واحدة تعيد لي صوابي فأعتذر، يربت على كتفي، يقول:

- ولم أكن لأقول غير ذلك، فالأمر لا يزال بالنسبة لي سواء، ولكن ليس كل القوم كأبيك، أمها لن يرضيها ذاك، وكذلك أمك، فتريث، ولا تندفع خلف عاطفتك.

يقول (إسماعيل) ضاحكًا:

- عاطفتك؟ ماذا يحدث اليوم أيها الخجول؟

ينهره أبي فيغادر بعد أن يطوقني بنظرة تعاطف لا تخلو من الأسف، أومئ برأسي أن لا بأس.

تمر أسابيع أحاول خلالها استيعاب نصيحة أبي والعمل على تطبيقها، قناعة بحكمته هو، وليس بالحكمة ذاتها، حتى التقيتها في صدفة متعمدة في طريق عودتها من الكنيسة ذات أحد...

- لماذا لا تواصل التهرب مني إذن؟!

تقول دامعة، فأشرح لها كلام أبي، تعود لتحاصرني:

- فلماذا أتيت إذن، إن كنت مقتنعًا أن أمي لن ترضى عما يجوب بقلوبنا، وأصدرت قرارك بوأد مشاعرنا، كما كان أجدادك العرب يئدون

النساء، وكما كان أبي يئد كل يوم شعوري به كأب، وهو يبحث عن الصبي في أحضان امرأة غير أمي...

تقول دامعة، تطرق للحظات، ثم ترفع وجهها وقد هزمته الدموع، لا أذكر إلا أنني احتضنتها على الفور، ضاربًا بكل المخاطر عرض الحائط، بكت في صدري كرضيع غادر رحم أمه منذ دقائق، ظللت أربت على شعرها، حتى فوجئت بكف أمها على كتفي:

- ماذا فعلت بها!؟

تقول جزعة، فتهدئها ابنتها، وتقص عليها أنها شعرت بدوار وسقطت، وأنني فقط كنت أساعدها على النهوض، حين بكت تألمًا إثر التواء كاحلها. تتقبل (كاترين) القصة مؤقتًا، وتصر أن تشكرني بطريقتها، فتصحبني معهما إلى المنزل... كانت تلك هي المرة الأولى التي أزور فيها منزلها، جلست في غرفة الضيوف، التي ترك بابها نصف مغلق، ليكشف لي غرفة أخرى تركت مفتوحة في مواجهته، هي غرفة (نادية). سريرها مرتب، ملتحف بملاءة وردية اللون، على يمينه نافذة اتشحت بستارة قرمزية، والإضاءة خافتة، باب الغرفة خشبي بني اللون، يتوسطه لوح زجاجي يحجب ما خلفه إذا ما أغلق، تفاصيل التصقت بذهني خلال الثواني الأولى، وجدتني واقفًا إلى جوار باب غرفة الضيوف ممعنًا النظر في غرفتها، أسمع (كاترين) تهمس لابنتها:

- لا أرى بملابسك أثرًا للسقوط، كما لم ألحظ في سيرك أن كاحلك ملتوٍ!

تضيق الخناق عليها فيعصف بي قلق، وتقول (نادية):

- لم أكن لأخبرك في عرض الطريق فتكون فضيحة يتحاكى بها أهل (شبرا) لشهور، هذا هو (إبراهيم) الذي أخبرتك عنه يوم أصبت بالدوار وصحبني حتى أتيت إلى هنا...
- وعليه فمن الطبيعي أن تجهشي بالبكاء على صدره امتنانا في قارعة الطريق، بل وتخشي أن أسبب لك فضيحة فتختلقي الأكاذيب، من منا قد تسبب الفضيحة بالفعل، كيف تتجرئين!؟

أشعر أن وجودي غير ملائم لحيثيات اللحظة وما قد يليها، فأخرج من غرفة الضيوف، أتنحنح، بعد أن جرعت في جرعة واحدة كوبًا من الشاي كنت قد نسيته في يدي منذ قدمته لي (نادية). أهمس:

- شكرا على ضيافتك سيدة (كاترين)، علي الذهاب الآن.
- كم عمرك يا فتى!؟

تقول المرأة وقد تراقصت على شفتيها ابتسامة محيرة مزجت بين الإعجاب والاستهزاء، أنظر صوب ابنتها، وأجيب:

- سبع عشرة سنة.
- تبدو أصغر من ذلك!

تقول وقد اتسعت ابتسامتها وغلب عليها الاستهزاء، وكعادتي كلما أستشعر خطرا يحيق بكرامتي، أزداد فصاحة وتتمدد فقرات عنقي شموخًا، أقول:

- وأنت كذلك سيدة (كاترين)، فعندما رأيتك اليوم، وقعت في حيرة إذ تساءلت "كيف لم أعلم أن لـ(نادية) أخت كبرى من قبل؟".

يتراجع الاستهزاء في ابتسامتها ليكسو محياها إعجاب أنثوي بردي، ترفع كفها أمامها فاردة أصابعها الخمس، قائلة بحروف هي هجين بين العربية والفرنسية: "اللّه أكبغ".

أضحك، وتضحك كلتاهما، أغادر، لتبدأ الحرب بينهن ضروسا مشتعلة، وتستمر لسنوات...

***

هبت (نادية) مغادرة الفراش، وهي تحاول حجب جسدها العاري عن ناظري رغم أنني قد انتهيت للتو من فحص كامل تفاصيله، تلف البطانية حول جسدها من تحت إبطيها حتى أسفل مؤخرتها، تشغل جهاز الجرامافون، بعد أن استودعته أسطوانة من أسطوانات (عبد الوهاب) الذي تعشقه، فيتهادى صوت (عبد الوهاب) شاديًا بالجندول، تجلس على الكرسي المجاور للمرآة، كان الكرسي كقطعة منحوتة بعناية من جذع

شجرة بلوط عتيقة، كرسي خشبي دائري، لا ظهر له ولا أرجل ولا مسند، تجلس عليه مولية ظهرها للمرآة، مواجهة لوحتها وألوانها، كان من عاداتها أن تهم للرسم فور أن تفرغ من الجنس، وكأن الجنس يِشحذ طاقات الحواس في روحها، فتبدع بعد كل لقاء سريري يجمعنا، جزءاً مهمّاً من إحدى لوحاتها السرية، التي لم يرها غيري أنا و(صلاح زكي)، وكانت كلما هممت بتشجيعها على عرض لوحاتها، عوضًا عن تخزينها فور الانتهاء منها، ذكرتني بأن لوحات "فان جوخ"[٥٠] لم تشتهر إلا عقب موته! كانت قد بدأت تلك اللوحة قبل ذلك بقرابة الشهر، منذ آخر لقاءاتنا المحمومة، كان الاخضرار هو أرضية اللوحة، فخلقت بألوانها الزيتية وريشتها المنتشية، غابات خضراء كثيفة، تسكنها زهور برية في الجزء السفلي من اللوحة، ثم صنعت قبة ضخمة تلوح في الأفق خلف الغابات، وإن فارق بين القبة والغابات جدول ماء رقيق يحاكي السماء في زرقته، خلف القبة جعلت السماء حبلى بسحب متقطعة، وبعض الطيور تحلق في الأفق. كان هذا ما أنجزته من قبل، أما في تلك الليلة، فقد أضافت بضع فراشات تحلق بين الورود البرية، ألوانها خلابة زاهية، ثم توقفت عن الرسم فور أن أوشكت على رسم شيء ما في السماء فوق القبة. تتثاءب فتفلت البطانية من أسفل إبطها، لينكشف نهدها الذي لا ينضب، يتمايل جسدها في ميوعة فيهتز، ثم تسارع بستر جسدها من جديد، تغادر مجلسها، وتنقل الشمعة الموقدة بجانب السرير إلى جوار لوحتها، تعاود الجلوس فتنتبه أنني قد سبقتها باحتلال جذع البلوط، فتجلس جذلة على ساقي العاريتين، ينكشف نصف جسدها السفلي، فتحرص على ستر الجزء العلوي، أشعر بجسدها الدافئ ينادي في جسدي مزيدًا من غزوات الشبق، تقاطع نداءات الشهوة، وتقول:

- سأخبرك اليوم بسر عظيم لا يعلمه أحد...

أومئ برأسي وتتسع عيناي فضولا، فتبتسم وتغلق عينيّ بكفها وكأنها خشيت أن يسقطان من محجريهما، تقول:

- أنا لا أجيد الرسم... ولم أتعلمه يوما...

أقطب ما بين حاجبي، وأثبت ناظري على عينيها محاولًا الفهم، فقد كنت واثقًا بأن لديها موهبة حقيقية، لم تخطئها عيني خبير كـ(صلاح زكي)، الذي تخرج في كلية الفنون الجميلة ودرس هذه الفنون، هززت رأسي ذات اليمين وذات اليسار على سبيل الاعتراض، لتتلو على مسامعي قصتها:

- مات أبي، فلم أصدق أنه مات، أولا لأنه كان لا يزال في سن صغير نسبيّا، وثانيا لأنني كنت أهيم به عشقًا، رغم نقمتي عليه، ومحاولاتي المستمرة لغرس كراهيته في قلبي، كانت (كاترين) تحبه بجنون، ونزف قلبها حين اختار أن يمس امرأة غيرها، حَزِنْتُ لأجلها، وفَعَلْت المستحيل لكي أكرهه بعد أن مات، وحرصت على نقده علنيّا لعلني أبغض ذكراه، وكدت أن أفعل، ولكنني يومًا بعد يوم كنتُ أتفهم أنها طبيعة المجتمع المصري الذكوري المسلم، وليست بدعة ابتدعها هو دون غيره. هل بإمكانك أن تلوم فتاة باريسية إن لم تحتفظ بعذريتها وهي في العشرين من عمرها، قطعًا ليس بإمكانك، فلا يمكنك أن تلوم باريسية على أنها قد عاشت حياتها كباقي الفرنسيين! وشبت على درج الحياة، فانتهجت الطقوس الحياتية والمجتمعية ذاتها، كأمها وجدتها، هي ليست خاطية، وكذلك كان (مسيو يوسف عيسى)، برغم ثقافته وعلمه، ظهرت عليه أعراض علم الوراثة، وتغلب عليه جين الرجل الشرقي، والذكرِ الحاكم بقطيع الإناث، الذي يقدس كل كائن حمل بين فخذيه قضيبا، ويحتقر كل ما هو دون ذلك، فأصر على أن ينجب صبيّا، وجرى ما جرى.

أما (كاترين) فقد اختارت الانتقام من ذكراه، فقامت بتنصيري، وكما لم يسألني أبي إن كنت أود أن أكون مسلمة، لم تسألني (كاترين) إن كنت أود أن أكون مسيحية!؟ أتعرف؟ أحيانًا أشعر أنني حين جئت إلى هذه الدنيا، كان لي حبلين سريين!!

تقول، أتحسس سرتها أسفل البطانية، وأقول:

- أرى لك سرة واحدة أيتها المخادعة، كما أنني لا أعرف ما علاقة هذا كله، بموهبة الرسم لديك!؟

أضحك، وتضحك (نادية) وتزيح يدي عن بطنها، ثم تحدق في سماء الغرفة، ويبدو أن عقلها قد انفصل عنها وغاب في مكان آخر، حين تقول:

- يوم أن مات أبي، كان الوقت ليلا، وقال الشيخ إنه لا يجوز أن يدفن في الظلام، كي لا يمسي غريباً في القبور، وكان علينا الانتظار حتى يؤنس قبره نور الصباح، فقررت المبيت إلى جواره، كنت أعلم أنها آخر ليلة أراه فيها، بقيتِ محتضنة إياه ملتصقة به طيلة الليل، وقت أن كانت نساء الحي يمرضن أمي، التي غيبتها صدمة موته عن الوعي...
- علمنا ذلك في حينها، حين أتى الشيخ في الصباح وانتزعك من أحضانه، لقد جعلتِ القائمين على الغسل يهمون بالدموع ذلك اليوم...

أقاطعها، فتضع سبابتها على شفتي، وتقترب مني حتى أغوص في عينيها، تقول:

- (مسيو يوسف) كان رسامًا بارعًا يا (إبراهيم).
- أعرف أيضًا، كما أعرف أنك ورثت عنه موهبة الرسم...

أجيبها، فتسكتني بذات الطريقة، وتهمس:

- بل مسّتني روحه حين التصقت به ليلة وفاته، قبلها لم أمسك فرشاة بحياتي، هل تعلم ما رسمته يوم أن دُفن!؟

أشير برأسي أي لا. فتنهض من فوق ساقي مسرعة، أشعر ببرد إثر افتراق جسدينا، أداعبها فأمسك بالبطانية ولا أفلتها، فلا تبالي وتعدو عارية خارج الغرفة، لتعود قبل مرور دقيقة، حاملة ورقة مقطوعة من كراسة رسم، وضعتها أمام نهديها، محتمية بها من عيني اللتين لا تملان اختراق تفاصيل جسدها، فأطالع فوق الورقة رسمًا بديعًا لرجل عارٍ، ستر عورته بعقد من أوراق الشجر، ينزع جلده كأنه حلة قديمة بالية، ويتراص أمامه ما بدا وكأنه ظلال صماء لأجنة على أعتاب الميلاد، تشرق من خلفهم شمس، فلا تعكس لأي منهم ظلًا! أقول:

- لم تريني هذه من قبل! هذه بديعة بحق!!
- ها قد رأيتها إذن!

تجيبني باسمة، ثم تجذب يدي بدلال، فأنهض لتعود هي لمجلسها الأثير على جذع البلوط، تقول "انظر" فأمعن النظر في لوحتها، تمسك بفرشاتها، تغمض عينيها، وتعاود استكمال لوحة القبة الضخمة... مغمضة العينين هذه المرة.

رحلت (كاترين) بعد أن انتهت حربها مع (نادية) بدون أن تنتصر أيٌّ منهما، كان رفضها أن تحب ابنتها شاباً مسلماً، هو السبب في إشعال فتيل الأزمة الكبرى، حين قررت (كاترين) أن تصطحب ابنتها، وتعود لتستقر في بلدها، أو في (فرنسا) حيث قضت قسماً كبيراً من حياتها، وحيث التقت بوالد ابنتها، وقبل أن تنتهي دراستي بالمعهد، كانت الأم العنيدة، قد قررت السفر، وخيّرت ابنتها بين البقاء أو الرحيل معها، راهنت (كاترين) نفسها، أن (نادية) إن بقيت فلن تقوَ على البقاء ما يزيد عن بضعة أشهر في أسوأ الأحوال، ستعود بعدها لتتوسل كي تلحق بها، والواقع هو أن (نادية) شعرت بضياع حقيقي فور رحيل أمها، ولكنني لم أتركها يوما دون أن أتأكد أنها بخير، وقد اقترن شعوري بالمسئولية عن رحيل أمها، بالعشق النادر المتنامي في خلاياي، حتى كان لقاؤنا السريري الأول، الذي أفقد كلينا عذريته، فتوسلت لها أن نتزوج، ولكنها أبت على طول الخط، كانت تصلها من أمها خطابات أسبوعية في الشهور الأولى، والآن، بعد مرور ثلاث سنوات، أدركت (كاترين) أنها قد خسرت مقامرتها، فلم يصل لابنتها منها خلال العام الأخير، سوى خطابين، باردين تقليديين، غلب فيهما كِبَر الخاسرين الرافضين لرفع رايات الهزيمة، على عواطف الأمومة الفطريَة، وردّت (نادية) على الخطابين بذات البرود، خصوصًا مع تجاهل أمها تهنئتها بعملها الأول منذ تخرجها في كلية الآداب، حين نجحت في اختبارات التعيين، كصحفية تحت التمرين بجريدة عريقة كالأهرام.

أدهشني التحول الصارخ في شخصية (كاترين)، وإن لم يكن أول تحولاتها المدهشة! فقد كان اندماج فتاة بلجيكية قضت نصف عمرها في باريس، في حياة مصرية خالصة في قلب (شبرا)، ضرباً من الإعجاز، ولم يفقْهُ إعجازية سوى انسلاخ ذات الفتاة، بصورة مفاجئة من هذه الحياة، وعودتها إلى حياتها الأصلية.

- ما رأيك!؟

تقول بعد أن فتحت عينيها أخيراَ، وسترت كامل جسدها من جديد، فتستدعي انتباهي من بعد شرود طالٍ، أطالع اللوحة، فأجدها، قد رسمت فوق القبة، في قلب السماء صليباَ، وإلى جواره هلال، تذكرت هتافات ثورة ١٩ "عاش الهلال مع الصليب" فابتسمت، تلمح هي ابتسامتي فتتسع ابتسامتها بدورها، ثم تضع كفها الأيمن فوق الهلال فتخفيه، وتسألني:

- هل ما زلت ترى الفراشات والشمس ومجرى الماء والطيور؟

أومئ "نعم"، فترفع كفها لتكشف الهلال ثم تضعه فوق الصليب فتخفيه بدوره، وتعيد ذات السؤال، فأعيد ذات الإجابة، تضع كفيها الاثنتين فتحجب الهلال والصليب ويعيد كلانا ذات السؤال وذات الإجابة، وتقول:

- هل تميز إن كانت هذه القبة لمسجد أو لكنيسة، بالقطع لا فارق، فإذا ما وضعنا الهلال فوق القبة أصبح مسجدًا، وإن وضعنا الصليب عليها أمست كنيسة، ولكن من يضع الهلال ومن يضع الصليب هو العبد، أما الرب فلم يأمرنا لنفعل! الرب فقط يسكن هذه القباب، ولا يبالي بما نضعه نحن فوقها!

(نادية عيسى)...

هي المرأة التي تمنيت أن أتزوجها طيلة عمري، وهي المرأة الوحيدة التي طلبت منها الزواج، هي من كنت أناجيها كلما تاقت روحي للصدق وملت الرياء، وكلما اشتاق جسدي الظامئ للارتواء، لم أرَ كمثلها امرأة طبيعية، على سجيتها، فلا تدَّعي، ولا تتخابث، ولا تعرف لحيل المكر

والكيد طريقًا، لم تبتسم امرأة كما ابتسمت (نادية)، ولم تخجل امرأة كما خجلت، لم يروِ ظمأ جسدي سواها، فلم تمتص رحيق العشق من مسامي امرأة، وما مست شغاف القلب يوما أنثى، كما فعلت (نادية عيسى)، كتبت فيها عدة قصائد، أحبتها جميعا، وحرصت على الحصول على نسخة خطية من كل قصيدة منها، ممهورة بإهدائي وتوقيعي، حتى حين هاجمتها جينات التحور والتحول، كما هو معتاد في عائلتها، فرحلت خلف أمها ذات صباح بعد ذلك بسنوات، ظلت (نادية) هي قبلة المناجاة، وصفحة ظل حرفها مطويّاً في كتاب العمر، أعود إليها وقتما تضيق بي دروب العشق، وتجيش في صدري مرارة الوحدة، خاصة بعد زواجي من (دنيا)...
ولهذا حديث آخر إن لم تخني الذاكرة.

(١٣)

يوم رمادي بارد

القاهرة يناير ٢٠١٠

شعر بإرهاق مفاجئ في اليوم السابق، عزا ذلك إلى برودة الطقس وهجوم الشتاء بوجهه الثلجي البارد، بعد عدة مناورات ومناوشات طيلة ديسمبر، في صباح الجمعة، أطلت عليه الشمس الواهنة من خلف تلال السحب الرمادية، تبسّم، لم يقوَ على النهوض لممارسة هوايته في تجهيز الإفطار، بُعيد رحلته القصيرة إلى عربة (عم خميس)، لن يعبر بوابة الزمن إذن، هكذا أسرّ لنفسه، أجزمَ أن ما أصابه هو بردٌ التصق بعظامه الهَرِمَة، فقرر أن كوباً من الليمون الدافئ سيحمل له شفاءً لا محالة، الألم المتصاعد في منتصف صدره، الذي ألقى بصداه في الجانب الخلفي من كتفه اليسرى، جعل له لهاثًا مسموعًا فور أن خطا خارج غرفته، يسمعه (آدم) الذي فرغ لتوه من قراءة المدونة الأولى من مذكرات أبيه الغائب، فانتزعه صوت حميه، من استغراقه العميق، فيما قرأه للتو، وهرع إليه...

- يا (حاج عبد الصبور)، صدرك ليس على ما يرام منذ الأمس، أرى أن نستدعي طبيباً، للاطمئنان ليس إلا.

يزجره حموه المتمرد، ويقر بأنه قد مر بأمور مشابهة مئات المرات ولم يستدعِ يومًا طبيباً.

- إن كنت حقًّا تنشد إراحتي اليوم، فلتذهب لإحضار الفول من عمك (خميس)، فالطقس بارد، ولا أود الخروج حتى لا يتعاظم برد العظام هذا.

يطيعه (آدم)، ويخرج مسرع الخطى بغية ألا يتأخر، كان (شريف) لم يعد منذ الأمس، وكان جده قلقًا لما سمعه منه عن دعوة لمظاهرات ضد الغلاء تنظمها حركة سياسية شابة خلال الأسبوع القادم، وأقلقته حماسة حفيده لهذه المظاهرات...

- لا تلقِ بنفسك بين براثن هؤلاء الزبانية، ارحم أباك المكلوم، ولا تزد من لوعته، ارحم جدك ولتبقَ بعيدًا عن مواخير السياسة، ألم تقرأ حكايات جدك (إبراهيم)؟ أنت من قصصت عليّ فصولها، فهل عجزت عن استيعابها؟

حاول إقناعه، ولكن الفارق الزمني، وصراع الأجيال المتحصِّن بتمكن، في قلب (شريف)، جعل كل ما يقال ممن هم في مثل عمر أبيه مرفوضًا، فماذا إن جاءت كلمات كهذه من جده؟ لم يكن للمنطق مكان في كل ما يصدر عن أبيه، شعوره بأن أباه هو مجرد فرد ينتمي لجيل كامل، جاء هذه الدنيا ليتعالى عليه، على أحلامه، على أفكاره، وعلى ما يشكل وجدانه، يسخر هذا الجيل من طموحه، فيَسَخِّر كل وسائل النقد لمهاجمته، يقلل من صدماته، ويثبط من عزيمته.

- طائش كجدك الغائب...

يُسرّ لنفسه، كلما احتدم بينهما النقاش، يستعيد ذلك الآن، وهو يجلس لاهَثًا يطالع عقارب الساعة وهي تتماوج متلكئة، مصرّة في عناد على التباطؤ، وكأنها تنتظر عودة (شريف)، جاوزت السابعة صباحا، ولم يعد، يزداد القلق، ممزوجًا بتعاظم الألم في صدره، حبيبات عرق تتكاثف فوق جبينه المتغضِّن، يلوم نفسه فيخاطب ذاته:

"ما كان لي أن أؤذي (آدم) بسبب جنون أبيه، لم يؤذني، ولم يؤذِ ابنتي يومًا، ولكنني آذيته كثيرا، بل وربما كنت سببا في نقمته على أبيه، قالت (حورية) إنها قرأت ما أرسله (إبراهيم)، قالت إنه لم يكن مجنونًا كما ظننت، وأكد ذلك (شريف)، ولكن أي منهما لم يقل "ماذا كان" هذا الرجل! إنْ لم يكن مجنونًا، هل كان ممسوسًا؟!".

يغمض عينيه، ويعيد فتحهما، ليجد نفسه في تلك الغرفة الرمادية، اللون الرمادي كان واقع هذه الغرفة الملموس، فالجدران رمادية اللون، كما أن سحب الدخان المتصاعدة قد صبغت الأفق بدرجات متباينة من ذات اللون، حتى الرجل الجالس على رأس المائدة الخشبية العتيقة، التي

تصاعدت تلك الأدخنة من إناء معدني دائري الشكل وضع فوقها، كان متشحًا بلون رمادي بدوره، (أم حورية) الجالسة إلى جواره، تسأل الرجل الرمادي، الحاكم الآمر لهذه الغرفة الرمادية، أسئلة رمادية، فيتمتم الرجل بما لا يسمعون، كانت أسئلتها بخصوص (آدم) الذي تقدم لخطبة ابنتهما ووحيدتهما (حورية)، الجالسة متوارية بالصمت، ولكنها كانت أسئلة غير محددة، فهي تسأل أسئلة ملتصقة بإجاباتها، كأن تقول "هل يصاب (آدم) بالجنون كأبيه؟ أعلم أن (آدم) طيب القلب، راجح العقل، ويحبها، ولكن؟".

(الحاج عبد الصبور) يعلم -آنذاك- أن والد (آدم) قد مسه شيطان أو جن، أو ربما فقد عقله، وفقًا لما سمعه من روايات. لم يكن يعرف الرجل، ولكن ابنه، الذي يقولون إنه يشبهه، رجل ناضج، محبوب بين زملائه في العمل، حسن الصيت، ولكن، (حورية) هي وحيدته، وبالتالي فهو لا يجد مبررًا للمخاطرة بتزويجها، ممن قد يحمل بين بصماته الوراثية بصمة جنون، فيصيبه هو، أو يصيب نسلها منه.

أرادت (أم حورية)، وقد رأت من ابنتها تعلقًا بـ(آدم)، وإصرارًا على الاقتران به، أن تسترشد برأي من حباهم الله بملكة قراءة الغيب، كالشيخ "السنهوري"، الذي يتحاكى به أهل (القاهرة) بوجه عام، وأهالي (شبرا) على الأخص، منذ ما يزيد عن الأربعين سنة.

أما هو فكان رأيه كالعادة، رماديًا، فهو لا يقبل، ولا يرفض، لا يتحمس، ولا يتقاعس، يبدي ضيقًا في بعض الأحيان، ولكنه لا يمنع!

أعاد استدعاء المشهد من بقعة خاصة في ذاكرته، خصصها لذلك اليوم فقط، تعاد الأسئلة وتجيبها همهمات الشيخ (السنهوري) غير المفهومة، ويزيد من رهبة الموقف، مشهد عينيه نصف المغلقتين، المعلقتين ببقعة ثابتة، تقع ما بين سقف الغرفة ونافذتها.

نافذة الغرفة الوحيدة موقعها قرب السقف، لها شيش خشبي أسود، حجم النافذة صغير، فلا تسمح إلا أن تخرج منها رأس رجل بالغ، ولكن

ما أثار حيرة (الحاج عبدِ الصبور) هو كيفيِة صعود شخص ما، كل يوم، لفتح شيش النافذة صباحًا، ثم إغلاقه مساءً، فارتفاع الحجرة يناهز الأمتار الثلاثة، والنافذة تبعد عن السقف ما لا يتجاوز من الطول ذراعًا، تتشتت حيرته، حين تنهض (حورية) من جوار أمها، منفجرة في البكاء، مغادرة للغرفة الرمادية على حين غرة، تهرول خلفها أمها جزِعة، يتابعهما (الحاج عبد الصبور) بعينين زائغتين، تصيح (حورية): (آدم) لا يستحق مني ذلك. تخلو الغرفة الرمادية سوى من (الشيخ السنهوري) و(الحاج عبد الصبور)، يتردد الأخير، وتضلله حيرته ما بين اللحاق بمن غادرتا للتو، أو الانتظار لعلهما تعودان، تمر دقائق ثقيلة، يعود فيها للانشغال بنافذة الغرفة، حتى يقرر المغادرة، فينهض من مجلسه، ويخطو خطوتين قبل أن تستوقفه يد باردة وقد أمسكت بساعده، بصرامة لا تخلو من لطف الاستئذان:

- من فضلك، لم أجب سؤالكم بعد...

يقول (الشيخ السنهوري)، فترتجف أوصال (عبد الصبور)، يقول:

- أنا لم أسألك منذ البدء...
- المرأة سألتني، وأن لم أجبها في حينها، كان ذلك لحكمة منهم...
- ومن هم؟
- الأسياد الممددون على سقف هذه الحجرة، يعرفون كل شيء.

تتسارع دقات قلبه، عينا (السنهوري) تواصلان التعلق بذات البقعة في فضاء الغرفة...

- إذن فلتجب...
- لا بد أن تسأل...

ينقل بصره بين عيني (الشيخ السنهوري) وباب الخروج وسقف الغرفة عدة مرات، يسأله:

- إن زوجت ابنتي من (آدم)، ابن المدعو (إبراهيم البنداري)، هل يصيب ابنتي (حورية) ضرر من هذه الزيجة؟ هل يحدث ما يؤذيها ويؤلمها؟

يعيد على مسامع الشيخ ما تذكَّر من أسئلة (أم حورية) العديدة، يترك الشيخ ساعد (الحاج عبد الصبور) للمرة الأولى، فيعود الأول لمجلسه الأول، ويظل الثاني واقفًا، قابعًا في قاع محيطات الحيرة...

- بل يصيبه هو ما يؤذيه ويؤلمه، دماؤه نقية، وكذا دماء أبيه وجدوده، الشر كامن في دماء السيدة التي سألتني أول مرة، الشر هنا غيب لا علم، فلا تعلمه صاحبته، في إتمام هذه الزيجة خير لقلبين، فتعاسة لقلب دون الآخر، وخير لجسدين، فراحة لجسد قبل الآخر. بإمكانك الرحيل...

"كذب المنجمون ولو صدقوا..."

يُسرّ لنفسه في خروجه من الغرفة، الباب أمسى أبعد من ظنه السابق، خطواته متثاقلة.

- كنت أعرف أباه.

يصيح (الشيخ السنهوري) من خلفه.

"كذب المنجمون ولو صدقوا..."

- لم يكن مجنونًا، وإن كان قد زارني، فقط، ليسألني إن كنت مسيحيَا أم مسلمًا!

تطارده كلمات الشيخ (السنهوري) حتى يصل منزله في تلك الليلة، مطمئنًا ابنته وأمها:

- أخبرني الشِيخ أنه ليس في هذه الزيجة ما يضر بـ(حورية)...

يقول مقتضبًا عدة مرات ولا يزيد.

تقول (أم حورية) للطبيب:

- لا أعلم، هي كرة صغيرة تنمو تحت إبطي الأيسر، بشكل منتظم، لم تكن تؤلمني، ولكنها أصبحت تؤلمني منذ شهرين، وصاحب ذلك ظهور شيء مماثل في صدري.

"كذب المنجمون ولو صدقوا..."

يتمتم، وقد بدا نبت الشر في البزوغ، كلمات (السنهوري) لا يمكن أن تكون حقيقة، لا ينبغي له أن يفقد (أم حورية)، فإن فقدها، تحقق النصف الأول من النبوءة، وقرع نصفها الثاني أبواب حياته بعنف...

"كذب المنجمون ولو صدقوا..."

- حالتها متأخرة جدًّا، للأسف، ليس بمقدورنا شيء، فقط الانتظار والمسكنات.

يقول طبيب، موجهًا كلماته له ولـ(آدم البنداري). يقول (الحاج عبد الصبور):

- قدري أن أواجه هذا المرض الخبيث لثاني مرة، تمامًا كأمها رحمها الله، كم كنت أتمنى أن أحاربه في جسدي، وليس في جسد زوجتي أولًا، ثم في جسد (حورية) ثانيًا...

ينهنه، وينشج (آدم)، وتمر الشهور سريعًا، وترحل (حورية) لتجاور أمها، يسمع ضحكات بصوت الشيخ (السنهوري) مقترنة بكلماته الأولى، يكاد أن يفقد بصره، فتُجري له جراحة في كلتا العينين منذ شهور، ويعهد لنفسه بالتكفير عن خطيئة الكتمان، يردد:

"كذب المنجمون ولو صدقوا..."

ثم لا يلبث أن يراجع ما قاله للتو، ويتمتم:

- ولو صدقوا... ولو صدقوا... إذن فهم يصدقون في بعض الأحيان!

يمسك صدره إذ يعاوده الألم من جديد، لم يعد (آدم) بعد، ولكن (شريف) يفتح الباب، يجده مستلقيًا على ظهره فوق أرض حجرته الواقعة في مواجهة الباب، يهرع حفيده نحوه، (الحاج عبد الصبور) يبتسم، ينظر صوب (شريف) وقد كست قسماته آيات من فزع، يتسلل اللون الرمادي إلى مشهده، يشاهد شفتي (شريف) تتحركان، ولكنه لا يسمع صوتًا سوى صوت (السنهوري)، الضباب الرمادي يتكاثف، (أم حورية) تحاول طرد سحب الضباب، (حورية) تقف باسمة بجوارها، يميز وجهًا إلى جوار وجه شريف، هو وجه (آدم).

- سامحني يا ولدي.

يقولها، ولا يترك فرصة لـ(آدم) حتى يستفسر منه عما اقترفه ليسامحه على اقترافه، فيسلم جسده للضباب الآتي، ليلفه بحنو، فيجعل من جسده سحابة رمادية أخرى، ويصعد به سماء الشتاء، فيقترن جسده بباقي السحب، يلمح من ارتفاعه الشاهق، تبايناً ساحقًا بين عالمين متناقضين، على جانبي مزلقان أرض اللواء، يهمس خائرًا بحروف غير مكتملة:

- دمروا هذا المزلقان...

فيكون آخر ما يسمعه هو صرخات (شريف).

(١٤)

شتيت المتداخلات

المتداخلة الثانية

ومضات من حياتي الأخيرة

زواج لا امتزاج

منذ أن التقى جسدانا لأول مرة، علمت أننا مفترقان لا محالة، والأمر هنا لا يرجع لخلل تكشف إثر عري الجسد، ولكنه لعيوب تكشفت، وتراكمت على جانبي طرقات الزمن، إثر عري النفس.
(دنيا) قد ورثت عن أمها مكر الذئاب، وبرغم يقيني أنه هناك، في بقعة ما من هذا الجسد المثيرِ في ظاهره، والمقفر القاحل في بواطنه، يقبعِ قلب ينبض، يريد بها ولها خيراَ، إلا أن ميراث الشر والمكر، كان دومًا قادرًا على قمع نداءات هذا القلبِ الواهنة، كلما جاشت بصدرها.
فاحت رائحة المكر مبكراَ، منذ أن ميزت في لياليَنا الأولى، بأذنين خبيرتين، أنات مفتعلة، ردود أفعال متصنعة، وتأوهات غارقة في ظلال الزيوف. كانت رائعة الجمال، لها عينان خضراوان، وجسد ممشوق تتوجه تموجات أنوثة صارخة، وثنيات تفوح بالشهوة، إلا أن حكمة الله في خلقه، قد قضت بأن تسكن هذا الجسد، روح خواء، ونفس أمارة بالسوء.
رحمة الله عليك يا أمي، لم أعرف إلى اليوم، سر إصرارها على الإسراع بزواجي من (دنيا)، لماذا حرصت على ألا تلقى ربها، حتى يطمئن قلبها أنني قد وضعت على الطريق الممهد للزواج!؟
(دنيا)، أحست منذ أيامنا الأولى، أنني معها جسدًا، فلم تُعارض، إذ أنها منذ عقد القران، قد نالت ما صبت إليه نفسها، فانتقلت من (التوابية)، حيث هواء الصباح البكر، إلى (القاهرة)، حيث ضوضاء الصخب، ونسمات هواء تنقلت منذ أن هلت شمس السماء الكالحة بين مئات الصدور، ولبّت مئات الأهواء. وفي قريتنا، البكارة تحيط بك في كل رقعة من بقاعها، مياه الترعة بكر، وكذا مياه "الطلمبة" حين تضخ لنا من رحم الأرض ماءَ بكراَ، زقزقة العصافير الشادية، صوت بكر، يصدح فيفض بكارة سكنة الليل، صياح الديك بعد صلاة الفجر بساعات، وقد غيّبه السبات عن

الصباح إبان الفجر، صباح بكر، قدما المرء حين تلبيان نداء المؤذن (حي على الفلاح)، فترسمان طريقهما نحو المسجد، فوق أرض طينية، بكر.
لا يهجر نفحات الطبيعة البكر، إلا من ضاقت به دروب العقل، فلم يعلم عن البكارة سوى غشاء أنثوي رقيق، بوجوده تعلن عفة الأنثى، وبغيابه تغيير لصفتها في جميع الحالات.
تلك (دنيا)، وقد اقتبست عن الدنيا، أمور دنيا، التصقت بسحيق الأرض في (شبرا)، فصارت غير مؤهلة للتحليق برفقتي، في (شبرا)، في (التوابية)، في خيالات الوعي وأحلام اليقظة، وحتى في لقاءات الأسرة المحمومة بالشهوة المجردة -على غير عادتي- من العشق... وحتى لا أسهب في النقد، وكي أتدثر بثوب الحيادية، ولو اصطناعًا، فقد كانت لـ(دنيا) جوانب إيجابية، يرغب فيها أغلب الرجال، كإتقان فنون الطهو، فهي ملكة مطبخها، كانت تعد أكلاتها وكأنها تعزف على آنية الطهو، ناسجة سيمفونية تخلب رائحتها عقولًا جاعت في أجسادها البطون، كما أنها كانت امرأة مدبرة، عاقلة، تتقن فنون الحساب، كالجمع بين الرغبات وسبل الوصول إليها، وطرح العقبات من سُبَل الوصول تحقيقًا لنجاح المقصد، والقسمة دومًا على الواحد الصحيح، دون اعتبار لما قد يجاور هذا الواحد الصحيح، أو ما قد يكون منبثقًا عنه! هي حثيثة السعي، تسعى خلف هدفها حتى تناله، أيًّا كانت الصعوبات. فهي بادئ ذي بدء، قررت أن تغادر قريتنا الصبوحِ، وتحط الرحال في (القاهرة)، وبطبيعة الزمان والمكان، لم يكن هذا متاحا إلا من خلال الزواج، ولكونها من مُتقني فن الرماية، ومحترفي ضرب عشرات العصافير بحجر يتيم، أجرت حساباتها، وقررت أن الزواج في ظاهره لقب تنشده كل فتاة، وفي طياته تحقيق لحرية أبدية -هكذا قالتها يومًا صراحةً- لا تنالها من ظلت حبيسة بيت أهلها... أعدت أمها قائمة بالمرشحين كما علمت فيما بعد، وشرعت (دنيا) تقيِم دنيا كل منهم، وتستطلع مستقبله، ثم تعيد تقييم موارده، وتجوب بين القوم، في رحلات مكوكية لاستطلاع صفات المرشح، هل هو بخيل؟

هل هو مثلا (ابن أمه المطيع)؟ هل أمه على قيد الحياة؟ هل هذا المرشح متزمت دينيّا؟ كم أختًا له؟ عشرات الأسئلة، التي كانت (دنيا) تكتب إجاباتها في كراستها الخاصة، حتى انتهت من بحثها الميداني، والاجتماعي، والاقتصادي، بدقة الخبراء، وتذكرت بعد طول عناء، أن لها قلبَا، لن تضار في شيء إن استطلعت رأيه بدوره، فقرر القلب أن (إبراهيم) -الذي هو أنا- مريح القسمات، هادئ الطباع، لا يجنح للمغامرة، ولعل لديها اليوم رأيًا مخالفًا!

لم تعلم (دنيا) أن من حكت لي قصة حسابات اختيار الزوج، هي أختي (مريم)، التي كانت صديقة لأختها الكبرى (فكيهة)، ولم تعلم أيضًا أن (فكيهة) قد قصت على (مريم) تلك الحكايا، إثر خلاف نشب بين الأختين، حيث كانت (دنيا)، خلال الإعداد لزواجنا، تستفز أختها الكبرى، التي جاء نصيبها، أن تتزوج من مزارع بسيط، يبني لها دارًا طينية، ملاصقة لأرضه، حيث يزرع ويعيش على ريع الزرع. فكان استفزازها لأختها الكبرى، بالتعالي عليها، وعلى حياتها، وهي على مشارف الانتقال الدائم إلى (قاهرة المعز)... غير أن (فكيهة)، وبرغم أنها لم ترث من خصال مكر أمهما مثل ما ورثت (دنيا)، قد وجدت في جعبتها من بذور الشر، ما يكفي، لأن تُطلع (مريم) على كراسة أختها، حيث كشوف المرشحين بخط الأم، ثم باقي المقارنات بخط (دنيا)، باستثناء مقارنات محدودة، خطتها الأم بنفسها.

حين علمت من (مريم)، كانت أمي راقدة، باسمة قريرة العين، في قبرها، ولم يكن يفصلني عن الموعد المحدد للزفاف سوى ستة أسابيع، فعلت ما بوسعي، ولكنها كانت قد نشبت مخالبها في جسدي فلم أتمكن من الإفلات، تشاورت مع (نوح أفندي)، فقال بحكمة العقلاء، أنه لا يؤخذ على (دنيا)، إن حكَّمت عقلها في اختيار الزوج، ولا يمكن الحكم على زيجتهما بالفشل بسبب هذا الأمر.

- أنت لا تريد لهذه الزيجة أن تلامس شواطئ الاستقرار، ولو مرحليّا.

يقول (نوح أفندي)، بنبرات هادئة، زادت وهنًا، برحيل أمي، ومع تزايد احتمالات رحيلي عن المنزل، ذبلت زروع صبوحة، طالما نمت بضفاف حنجرته، شروخ أخرى لحقت بمجدافيه، فتوقف عن الإبحار، ورسا على شطآن اليأس والترقب، تباطأت حركته، وقلت همته، إثر إحباطات أحاطت بكتابه الفريد "غياب النابغة"، الذي انتهى به الحال كما انتهى بكاتبه، مخطوطة من ألف صفحة، غير مسموح لها بأن تطبع، أو أن يتم تداولها، أو حتى أن يجوز مناقشتها. أقول:

- لا أريد هذه الزيجة، ولا أريد غيرها، وما أنا بمقبل على ذلك إلا تنفيذًا لوصية أمي رحمها الله، وتحقيقًا لرغبتها وأملها. ولكن...
- ولعل ما تخشاه ليس بكائن ولعل ما ترجوه سوف يكون!
ولعل ما هوّنت ليس بهين ولعل ما شدَّدت سوف يهون

يقاطعني، فتبدو على قسماتي الضيق، وأقطب حاجبي حتى أشعر بالصداع، أجلس إلى جوار قدميه، على أرضية الشرفة، حيث اتخذ مجلسه فوق كرسيه الهزاز العتيق، الذي سأرثه عنه يومًا، أتكئ برأسي على ركبته، فيداعب خصلات شعري بذات الحنو الذي طالما لامسني به منذ الطفولة، وأهمس ضاحكًا:

- لو سمع "أبو العتاهية" شكواي، لما نظم هذين البيتين يا (نوحٍ أفندي). سجالي معك خاسر بأمر حكمتك كعادتنا، لن أغلبك يومًا، وإن كان بإمكاني التوكيد والتأكيد على شطر "ولعل ما هوّنت ليس بهين" لأحاجي أحاجيك الشعرية...

وأردف، بصوت هو ما بين الهمس والبوح الخفيض، وكأنني أود أن أسمعه دون أن يدري أنني أقصد إسماعه:

- أحب فتاة أخرى...

يطالع السماء، التي أخذ الليل يمتص رحيق نهارها، فخيم عليها ظلام تدريجي، وبدأت نجومها تتراص في مواضعها الأثيرة، ويهمس بدوره:

- ومن منَّا لم يحب فتاة أخرى؟

كنت قد سمعت كثيراَ، عن أنه لم يحب أحدًا كما أحب جارة لنا، رحلت عن (شبرا) قبل ميلادي، ولكنه كان يصرح بهذا لأول مرة، فاعتراني ذهول وارتباك.

- هو الصراع الدائم بين خيار القلب وخيار الروح...

أقول، فيستقيم ظهره، يعتدل، فأعتدل موليًا وجهي تجاهه، فيقول:

- بل هو صراع الروح مع الجسد يا (إبراهيم)، صراع قدمه عمر الإنسان على الأرض، وشهد عليه التاريخ، القلب والعقل، كلاهما أجزاء من الجسد، العقل سلطان الجسد، الناطق بهوى النفس، وهو من يقرر شيئًا وصولًا لمنفعة ما، القلب يضخ الدماء ليظل العقل عاملًا، والجسد حيا.

يقول إذ يرفع رأسه صوب النجوم المتراصة، يتبسم شاردًا، ويستطرد:

- أما الروح، فإنها تجنح، فلا تختار، ولا تريد، ولا تقرر، ولا تحسب لأمرٍ حسابًا، هي تجنح لما يناسبها، وتتوق لما يتسق معها، يسمي ذلك أصدقاؤك الفرنجة بالـ(**Chemistry**)، وذلك لأن علمهم، لم يعنْهم على فهم واستيعابِ ما قلتُ للتو...

أطرق برأسي باسمًا لذكر أصدقائي الفرنجة، فهذا الحكيم لا تفوته فائتة، وإن لم يفصح عن علمه بحكايات غرامي صراحة، أخذت شهيقًا عميقًا، وكأنني استنشقت من خلاله ما يثبط الجرأة، ويذيب جدران الجائز، فيختلط المقبول باللامعقول، وأقول:

- احك لي عن (عزيزة) يا (نوح أفندي)...

يبطئ (نوح أفندي) من هزه لكرسيه، تتراقص على ثغره ابتسامة، ويقول:

- بل أقص عليك بعضًا مما كان بعد زواجها، وبعد زواجي...

أعتدل في مجلسي، فأتربع أرض الشرفة، وأثبت ناظري بشفتيه، حتى لا تفوتني كلمة واحدة حين يدلي باعترافاته، يصمت لبرهة، ثم يقول:

- عندما نفصل بين الحب والتحيز، نتمكن من رؤية الحقائق العاريات، فنغدو أكثر قدرة على اتخاذ القرارات بعد مداولات العقل والروح،

ونحظى باحترام القاصي والداني، وإني فيما أتلو عليك الآن، سوف أقصد ملامسة الحقائق، ومواراة العواطف، فإن مرت كلماتي إلى جوار اسم (عزيزة)، فأوشك الأمران على التداخل، نبهتني أنت، ولئن بالغت في ابتعادي عن ذكر اسمها، أعدتني أنت إليها. أما فيما لا يتماس مع دنيا (عزيزة)، فلن تجد مني سوى الحيادية العمياء، والسرد التلقائي، حتى فيما يخصك أنت، وحرصت أنا على إخفائه طيلة الوقت...

يعاود التستَّر بالصمتِ للحظات، وكأنه يسترجع الأحداث، ثم يقرر أن يبوح، فيبوح كمن يدوِّن وصاياه، أو يدلي باعترافات يدرك أهميتها، وكمن يتحرر من عبء الكتمان جاءت كلماته غير المنتقاة، فكانت تلك مكاشفة إعجازية، أسميتها في كتاباتي فيما بعد بالمصارحة الكبرى، قررت تدوين حديثه في تلك الليلة بعد زواجِي بعام أو عامين، لا أذكر!

كان المكسب الوحيد، الذي سمح لي باقتناصه إثر محاولات مستميتة لإفساد زيجتي من (دنيا)، هو أن نجحت في تغيير محل السكن، ليكون في بيت (شبرا) إلى جوار (نوح أفندي)، وهناك، حيث مكتبتي المتنامية باضطراد ملحوظ، بدأت كتابة "المصارحة الكبرى" لـ(نوح أفندي)، كنت راسياَ على ضفاف الذكرى، حين مزق لوحتها الموشكة على الاكتمال أصوات الرعد الغادر وصفير الريحِ الهادر، حين قاطعتني (دنيا)...

تقول: بكم هذه الكتب، جَليّ أنك أنفقت ثروة طائلة لاقتنائها...

وأقول: ماذا قرأتِ منها...؟ تقول مذكرة بكتابين اقتنيتهما بالأمس: وهل انتهيت منها جميعا لتشتري المزيد؟ وأقول: هل تتوقفين يوماً عن سماع الموسيقى؟ لأنك سمعتِ منها ما يكفي!؟

تتصفح كتاباً، تقفز بين الصفحات على عجل، لا تمضي دقائق حتى تباغت صفحاته الأخيرة، آملة اقتباس حروف النهاية، فأتجاهل تنبيهها أن ما بين يديها ما هو إلا مسرحية لـ"جان جينيه"[٥١]، قمت أنا بترجمتها، ولا ألفت نظرها أن اسمي مدون على الغلاف الذي لم تطالعه سوى لثوان، خلال رحلة هروبها من العجز، قاصدة التصنع...

العجز عن الإلمام بأمور الثقافة والأدب...
العجز عن الاعتراف بحقيقة كتلك...
والتصنع أنها تعي ما تقرأ... وإن غلبت الحيرة الحبلى بظمأ الروح قسماتها، فرسَت على عينيها المترقّبتين، وامتدت توابعها حتى أزاحت حاجبيها إلى الأعلى، تصنعت بأن الأمر لم يعنها منذ البدء...
رويتُ عليها ذات صباح، أن أمراَ يؤرقني فاعتدلت في الفراش جالسة، سترت نهديها بكفيها، فقلت إن حلمًا طالما نفض عني رداء السبات، وهوى بي في أرق ديمومي بغيض، أراني فيه وقد كبلت يداي، وثبت رجلان عملاقان رقبتي فوق حافة مقصلة، أصرخ، فأستفيق قبل لحظات من سقوط النصل... فاستلقت على الفراش مجددًا، وأحكمت الغطاء فوق جسدها النصف عاري، وقالت بنبرات هازئة:
- مؤكد أنك أكثرت من الطعام في وقت متأخر من مساء البارحة...!
سطور تلخِّص حياتي مع (دنيا)، وتمهد لما هو مسرود في قادم الصفحات، مارد الملل استوى على عرش حياتنا مبكراَ، أو ربما استدعيته أنا منذ البدء، لا يهم! ولكن كفاحي للتحرر، كان متقطعًا وعلى استحياء، وكانت مقاومتي لحكمه وأحكامه فاترة في أغلب الأوقات، كنت أقاتل في الساعات عاديتها، وأنبش الفراغ بحثًا عما هو جديد، لا أنكر أنني حلمت بتغيير الواقع مرارًا، وكثيراَ ما راودني أمل في التغيير، ولكنني كنت كلما مددت يدي لألامس أول أضواء الأمل الوليد، تهاجمني ظلال اليأس، فتنفث ريحها الضجرة، لتطفئ مواقد الأمل في حلمي الواهن.
(دنيا) امرأة جميلة... حباها الله بجسد، نحتته الرغبة من أحجار الشهوات المخبأة في قلب الجبال الـمحرمة، ونهدين، تمردا على كل ما أحاطهما من كتمان، فصنعتهما ذات الرغبة المحمومة، من طين الإغواء وصلصاله، فأخذا يهتزان مع كل حركة يأتي بها جسدها، حتى خيل لي أنهما يهتزان حتى وإن سكن ذلك الجسد!

اعتدت، حين نحضر سويًا أي مناسبة اجتماعية، أن ألمح نظرات الغيرة المشوبة بالغل، في أعين أغلب الرجال الحاضرين، وهمساتهم، استفسارًا عن ماهية ذلك الرجل المحظوظ، الذي يضاجع هذه المرأة المتفجرة الأنوثة، تربِّت أعينهم الموتورة على مؤخرتها، وتتحسس نهديها، وتنسج خيالاتهم المريضة المثيرة للشفقة، آلاف اللوحات التخيلية لجسدها العاري، أنهرهم بنظرات غاضبة، فيتحولون بأنظارهم عنها، ويعتريها كعادتها، التفاخر بلفت الأنظار لفتنتها، رغم احتشام ملبسها الدائم.

وبطبيعة الحال: لا يعلم هؤلاء، أن نتوءات وبروزات جسدها، التي تشع السخونة في قلب كل من يراها وتبث التوتر بين ساقيه، لا تحوي في طياتها سوح ريح زمهرير باردة، تنفر أكثر مما تدعو...

(دنيا) امرأة متقلبة... تضاجعني عدة مرات في يوم واحد، حتى أتشكك في كل ما قرأته عن آثار سلبية للختان، ثم تهجرني، حتى يلف جفاف الحرمان جسدي، وتوشك جمرات اللهب فيه أن تنطفئ، فتعود لتمنح خلاياي ميلادًا جديدًا، وتغسل ظمأ الجسد بقطرات العرق المقدس، تعلو وتهبط، وتئن وتشهق، حتى تهدأ، ويسكنها النعاس، فلا تعلم أنها لم ترو يومًا ظمأ الروح القابعة في ذات الجسد.

امرأة لعوب حين تخطط للإنجاب، وعصية كالراهبات، حيت تفقد بوصلتها العقلانية الهدف الفطري من لقاء الأجساد.

(دنيا) امرأة محبة... تظن أنها تحبني، ووثقت على طول الخط، أنني بها متيم، ولذلك كان الهجران كصفعة مدوية، أبت أن تقر بمسئوليتها عنه ولو جزئيًا. لم تقوَ يومًا على استيعاب حقيقة هي الأهم، وهي أنني لم أكن يومًا مملوكًا في بلاط إمبراطوريتها المتهاوية، وحارسًا على أبوابها الصدئة، وأنها حين جعلت في كل ركن سببًا لإبقائي، نسيت أن القصر بلا سقف، وظنت أن لا جناحين بجسدي، حتى فاجأتها صحوة الروح الحبيسة.

(دنيا) امرأة شرقية... تدثرت بأصول المرأة الريفية المصرية منذ أول أيامنا، فكانت تعيد الإتيان بما اعتادت مشاهدته في بيتها المشيد بالأحجار

الطينية، فجعلت لي كزوج قدسية لم أسعَ لها يومًا، وكانت مساعدتي في ارتداء ملابسي وتعديل هندامي كل صباح، وخلع حذائي حين أرسو بفراشها كل مساء، طقوسًا اعتيادية، تُؤدَى بغير ضجر.
في أولى خلافاتنا، أطل وجهها القبيح بغتة، فهي مبادرة بالعنف اللفظي، تفقد عقلها عند الغضب، وأنا قد صاغني الخالق بحيث لا أقبل أمورًا كتلك، علت موجات الشجار، واستفزتني إحدى شهقاتها الساخرة، المتبوعة بكلمات متهكمة، فثارت غضبتي، وخرجت عن شعوري للحظات، ثم ما لبثت أن استعدت توازني، حينها كان خيط من دم رفيع ينساب من طرف شفتها السفلى، إثر صفعة هائلة زلزلت كيانها، وأدارت دماغها، فصدرت عنها صرخة حادة، في لحظة سكنت فيها أصوات حارتنا كافة، ليسمع الجميع تلك الصرخة، فتتدلى النسوة من الشرفات، وتصبح شرفتنا قبلة المارين.
آذان أهل الحارة ظلت تتسلل متلصصة بغية اقتناص القصة، أو نسج المبتور منها، أو ترميم البالي من تفاصيلها، ولكن (دنيا)، حين أطلت على القوم المتشوقين في النهار التالي، بشفتها الزرقاء المتورمة، أقرت أنها سقطت على الدرج، واصطدم وجهها بحافة إحدى الدرجات، فكان ما كان، وما زاد عن ذلك، إنكارها لما جرى أمام (نوح أفندي)، الذي لم تقنعه روايتها، فظل مقاطعًا لي طيلة ثلاث ليال، حتى قصصت عليه أنا ما كان، فغفر لي زلتي، وطلب مني أن أعتذر لـ(دنيا)، فقلت إن هذا ما تم بالفعل.
(دنيا) امرأة غيورة! وإن نمت ثمار الغيرة والندِّية في أرجاء البيوت، تقرع الطبول، ويعلو إيقاع التناطح، ويبدأ عد تنازلي محموم، في وصوله للمحايد الجمعي، نهاية لما جمع يومًا بين روحين وجسدين...
فقالت (دنيا) حين اطلعت على نسخة من مجلة الرسالة، وقد زين صدر غلافها المصبوغ بلون القهوة، تنويه عن حديث مع "نجيب محفوظ"، أداره صحفي وصف بالصاعد، اسمه (إبراهيم البنداري)...

- وعدتني بزيارة السيدة عائشة ثلاث مرات، ولم تفِ بوعدك حتى اليوم!

تفاجئني قدرتها على خلق أجواء من الكآبة والتوتر بين طرفة عين وانتباهتها...

- ولن أفعل.

أجيب ببرود باسم يكشف سرها، ويفضح محاولتها لخلق مبرر للتناطح، يفرغ شحنة عصبية أضنتها فضاق بها جسدها، ويواري حقيقة غيرتها من عملي، ومما أناله أحيانا من نجاحات باهتة.

آفة (دنيا) المنافسة، والاستقرار في مركز الكون في عالمها الافتراضي، فتلك الفتاة الريفية، التي وجدت نفسها على قدر بالغ من الجمال، أهَّلها لتكون مركز الاهتمام ومستقر الأنظار، ورزقت بأخت أقل جمالًا، فتنامى شعورها بالتفرد الزائف، ظلت على اعتقادها بحتمية البقاء في ذات البقعة في قلب دوائر الضوء والاعتناء، لا لشيء سوى لأنها دنيا، دنيا الفاتنة، المميزة، والمرغوبة... خلقت بمجيئها إلى بيت البنداري أجواء من التشاحن والمنافسة، لم يعتدها قاطنو البيت، ولم تألفها حوائطه وجدرانه، فضاقت تلك الجدران عليها يومًا بعد يوم، حتى عزلتها عن محيطيها وقبل ذلك، عن زوجها.

حين زارني (يونس العقيد) ليهنئني على حواري الأخير في الرسالة، أخجلني مدحه لي، وربما كانت كلمات المديح تلك مجاملة، خاصة وقد كان نُشرت أولى رواياته على يدي وبمساهمة مني في نفقات طباعتها. وعلى ما يبدو، فقد علا صوته في تلك الليلة حتى تسرب إلى مسامع (دنيا)، كان (أبو شنب) مريضًا، فلم تُكرم الضيف، تسللت حتى استدعيت (مريم) من غرفتها حين أبصرت (دنيا) وقد انهمكت في مهام التريكو.

- معذرة فقد كنت نائمة.

قالت حين سألتها فيما بعد عن اختفائها على غير عادتها، حين يحل الزائرين بغرفة الضيوف!

(دنيا) ضحية... جاءت لأب وأم، لم يرزقِ أي منهما فرصًا مناسبة للحاق بركب المتعلمين، فبتروا من جسدها جزءًا أنبته الله بين ساقيها لحكمة يجهلونها، فاعتاد جسدها أمرين، أولهما الغرق في بحيرة جليد في ذروة حرارة اللقاء، وثانيهما، التظاهر بالذوبان بين أحضان الشريك.

(دنيا) ضحية... جاءت للعالم جنينًا، نبتت في بيئة غنية، وتأثرت بمحيطيها، فشبت ولا تدرك عيناها سوى تمييز الفقر، لتتمرد على واقع في طياته جمال خفي، وفي باطنه سيل من إبداعات الخالق في أرضه، وهربت إلى حيث الجمال الظاهري، الذي لا يحوِي في جنباته سوى البور والفناء... وبذات القِياس، أصبح كل ما ظهر قدسًا من أقداس الدنيا، وأمسى ما بطن أمرًا هامشيًا، لا أهمية له إلا إن ظهر!

(دنيا) ضحية... تزوجت، وهي المليحة البهية، العاشقة للدنيا، رجلًا زهد دنياه، وأبصر مواطن قبحها، فطغى ذلك على تمييزه لمواطن فتنتها وجمالها، وعرفانه واعترافه بها في بعض الأوقات. رجل سخي في عطائه، بخيل في تنازلاته، حالم بالتحرر، عنيد على طول الخط.

(دنيا) ضحية... أرادت كل شيء، وأعطاها الخالق ما خططت لتناله، تزوجتني، وقد ترسّخ في وجدانها يقينًا، أن الحب مظهر من مظاهر الضعف، وسلاح من أسلحة المرأة، فكانت تمنح وتمنع، تظهر قوتها، وتخجل أن تحرر ضعفها، رَحَلْت وهي بِخيلة في منحها، وهجرتها وما أفضيت إليها بسر صغير، فحواه أنني -يومًا ما- أحببتها!

غاب عن أيامي مع (دنيا) لحظات، كان مفترضٌ أن تمتزج فيها روحانا، ليمسي تزاوجنا امتزاجًا، ولكن أيامنا حملت أيضًا لحظات نقشت في قلبي، ورسخت وشمًا في جفني، أراه كلما أغمضت عيني، كأول لحظة أبصرت فيها ولدي (آدم)، ثم لحظة اللقاء الأول بابنتي (حواء)، ابنيّ اللذين ابتلاهما القدر بأب مثلي، طارد الخيال، حتى ألقى به المنطق خارج أسوار مدن الواقع...

يقول (نوح أفندي) في مصارحته الكبرى:

- واجهت المنطق ذات مساء، حين واصل محاولاته لإثنائي عن مطاردة (عزيزة) في أحلام اليقظة، خلعت عنه رداء القدر الذي طالما تستر به، وخدع بهِ فقراءِ الحال والخيال. قلت: ما أنت إلا أكذوبة كبرى، وما كنت يومًا غير حُجة الضعفاء، ومبرر منقوصي الحيلة، ومبتوري الهمة، الذي يختلقونه للتكفير عن خطيئة الاستسلام، صفعته بما هو منتقى بعناية من قواميس الدنيا، وقذفته بحقيقته فانطوى وتكور متضائلا حتى اختفى، ولم يأتني منذ ذلك، إلا حينما كنت أستدعيه فيما ندر...

(دنيا) ضحية... لأنها ليست (نادية عيسى)، كما كانت (جميلة وهدان) ضحية أنها ليست (عزيزة)... فكلتا الحبيبتين القديمتين، لم تتوقفا عن إهاجة الذكرى في مخيلتي، ومخيلة (نوح أفندي)، عبر سنين، عجز خلالها كلانا عن درأ اجتياحهما لساعاتنا، وأيامنا.

(دنيا)... جانية، أم مجني عليها، قاتلة أم مقتولة، فاعل أم مفعول به؟ ذلك سؤال أترك إجابته حرة، معلقة ومحلقة، يراها كما يشاء من قرأ كلماتي هذه، ومن سَيَقَّدَرُ له أن يقرأ قادم الكلمات...

ولهذا، أحاديث أخرى، إن لم تخني الذاكرة.

غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة

- كنت قد قضيت عمراَ من الاعتكاف على كتابي الأول، الذي لم أكن أنتوي أن أتبعه بكتاب ثان، ببساطة، لأنني أفرغت فيه ما في جعبتي، وأديت بين سطوره رسالتي، حين كان عليّ أن أحصل على موافقات رقابية عليه قبل السماح بنشره...

هكذا بدأ (نوح أفندي) سرده لحكاية، هي من أقسى مواضع الألم في عمره، بداية المآسي جاءت من العنوان، وأصلها ومنبعها موظف حكومي فقير الثقافة، معدوم الخيال، جيء به ليمنح ويمنع، في محراب لا يمت لعوالمه بصلة، وقد كان (عبد العزيز القاضي) رجلًا متزمتاً، خُيل له أنه قد بُعث في موقعه هذا، لينفذ من لقبه مهامه، فكان يحقق في النوايا، ويفتش في الضمائر، يقدس السلطة التي وهبت إليه ويقدس من منحه هذه السلطة، قال الرجل مخاطبا أبي:

- "غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة"، عنوان بديع، ولكن ما المقصود بغياب النابغة في عهد وهبنا الله فيه قائدًا ربما هو الأعظم منذ عهود الفراعنة، وما هو المقصد من الترويج لغياب النابغة في عهد كعهدنا هذا؟

يجيب نوح أفندي داهشًا: هذا كتاب عن التعليم!

فيعاود ليسلك مسالك المحققين:

- وما المقصود بالمنهج الإيماني الموحد يا أستاذ نوح!؟
- هل قرأت مخطوطة الكتاب يا سيد عبد العزيز!؟

يومئ برأسه وقد اتشح وجهه بابتسامة متراقصة يضيق صدر (نوح أفندي) لمرآها، ويزيد من مداهماته لأوراقه المخطوطة...

- هل تريد أن يكون للمسلم والمسيحي حصة دين واحدة يا أستاذنا؟

يعلن محيا (نوح أفندي) الغضب، ويكسو وجهه احمرار المغتاظ، فيفلت جماحه عامدًا:

- محمد خاتم النبيين، عندما تزوج، عَقَدَ قرانه على السيدة (خديجةِ)[٥٢] قس مكة (ورقة بن نوفل)[٥٣]، وكانت طقوس الزواج طقوسًا مسيحية...

يعلو حاجبا الرجل ويصيح: لم يكن الإسلام قد نزل بعد...

فيضيف (نوح أفندي):

- فلما نزل الإسلام، لم يعقد عليها بطقوس الإسلام وتعاليمه، هل تعرف لماذا؟ لأنه صلوات الله عليه، لم يكن يميز بين الأديان كما تفعلون أنتم اليوم...

يثور قاضي التفتيش، ويصرخ: ماذا تقصد؟

فيجيبه (نوح أفندي):

- الناس كانوا يبحثون عن الرب قبل الرسالات السماوية فعبدوا الشمس والسماء والبحر والمطر والإعصار والبركان والفيضان، كانوا يبحثون عنه في آياته المتجسدة في أرضه، ويتحسسون طريقهم اليه، ويتذكرونه قبل أن يطلب منهم أن يعبدوه، يبحثون عنه بعقولهم وبأرواحهم، ولم يبحثوا عنه في ألواح الأولين فحسب، ولذا لم يرسل الله بآياته إلينا، إلا بعد أن بحثنا نحن عنه، طيلة قرون وقرون، لقد سبق العقل البشري في إيمانه، الرسالات الإيمانية ذاتها، وتلك عظمة الإنسان اللامتناهية، فالمرء منا لم يأت هذه الدنيا ليتعبد، ويأكل ويشرب، ويتكاثر، بل جاء لمهمة أسمى وأرقى، نسيناها بفعل فاعل، وهذا ما أود حماية العقول الشابة منه...

يشعر الموظف بمحاصرته بسيل من حجج:

- أنت موجه لغة عربية، ما شأنك بالدين يا رجل!؟

يقول (عبد العزيز القاضي)، فيجيبه المُوجه المتنمر:

- شأني أنني ذو دين يا مولانا...

يثور الموظف لما رآه من تهكم في وصفه بـ"مولانا"، فيصرخ:

- أنت تثير الفتن بآرائك هذه يا أستاذ (نوح)، لا يمكن أن تنشر بين الشباب ما يدعو لتوحيد منهج التربية الدينية، ستُخَرِب عقول أجيال قادمة...

يقول (نوح أفندي) في تلاوته لهذه المحاورة، أنه استعاد ما قرأه في حداثته عن محاورات "سقراط"[٥٦]، وما ميزها من سمات التهكم، وتوقف عند محاكمة "سقراط" بتهمة إنكار الآلهة، فتلا على مسامع (القاضي) عبارة سقراطية خالدة:

- تعتقدون أنكم تحكمون لأنكم تعلمون، وعند الفحص والمواجهة، تتبينون أنكم تجهلون ما أنتم به متشدقون...

بطبيعة الحال، لم يكن (عبد العزيز القاضي) ملمّاً بمحاورات "سقراط" التي نقلها إلينا تلميذه النجيب "أفلاطون"[٥٤]، وعليه، فقد صاغت مخيلة (نوح أفندي) له صورة، هي أقرب لما قرأه عن "مليتوس"[٥٥]، ذلك الشاب الأثيني الذي وجه اتهاما عاماً لـ"سقراط" فحواه اتهام بإفساد الناشئة، أو "آنيتوس" الذي يظن "سقراط" في قرارة نفسه أنه المحرك الرئيسي لاتهامه، اكتملت صورته في مخيلة (نوح أفندي) حين كان الموظف يواصل صرخاته في وجهه:

- أنت تأتي بدينٍ جديد والعياذ بالله، أنت تخترع ديناً من مخيلتك...

يحيط الفراغ بـ(نوح أفندي)، وتبدأ فرشاة اللاوعي المغموسة بألوان الانكسار في صياغة مشهد المحاكمة الأثينية في الفراغ المتعاظم من حوله، ظل لسانه يواجه قاضي التفتيش الحكومي، واستقر عقله بجسده في موقع محاكمته...

- تتهمني بأنني مخترع آلهة، وكل إثمي أنني لا أؤمن بآلهتكم القديمة، تلك الآلهة التي تصيغون وتعبدون...

شهقات (عبد العزيز القاضي) المتتالية، توحي بصعوبة استيعابه، وتلقي به في طريق آخر مجاور لطريق (نوح أفندي)، الذي أدرك أنهما حتماً غير ملتقيين في نهاية محاورتهما، بانتهاء طريقيهما غير الممهدين.

- لم يكن لدينا يومًا ما تسميه بالفتنة الدينية، ولن يكون لدينًا يومًا سوى ما كان ويكون؛ فتنة عاطفية، وهي إن تقاربت روحين، سكنت إحداهما جسد مسلم، والأخرى استقرت بجسد مسيحي، ذلك ما يولد الفتن، وليس الدين ما يولدها، الدين من فتنتكم براء...
- أنت تتهكم على الفتنة، وتقلل من أهميتها، إذن فأنت تدعو لها كما ظننت...

مسبل العينين، فاردًا ذراعيه، مبحرًا بين القضاة في مخيلته، يفند الاتهامات، ويدافع عن نفسه:

- أنا متهم بأنني معني بالبحث، بين العباد في الأرض، وبين النوايا المنزلة من الرب الساكن في السماوات، متهم بأنني أود تعليم الأجيال القادمة، أن لا فوارق بين الكتب الآتية من ذات المصدر، ولا فارق بين امرئ وآخر، إلا بما فعل وما انتوى، إني أطلب شهادتك يا قاضي التفتيش، أريدك وأنت المدعي والقاضي، أن تمسي شاهدي الوحيد، ربما تظن أنني أمزحِ، فأنا لا أفتري على الله حتى أخشاك وأخشى من وراءك، ولست مدعيًا للنبوة، بل إني فقط حامل نبوءة، نبوءة أوحى لي بها خالقي وأنا عاكف على مخطوطي هذا، قل لي بالله عليك، ماذا لو ركز رجال الأديان على المتشابهات وما أكثرها، وقللوا من تسليط الضوء على النقاط الخلافية، ألا نمسي بذلك أصحاب دين واحد، ألا يكون بمقدورنا، أن نجعل مسلمًا ومسيحيًا، ينخرطون في منهج ديني واحد، عماده الإيمان بالله، ثم الإيمان بالكتب، فالإيمان بالرسل، ألا تتفق معي أن التعصب ينبت من بذور التحيز للأشخاص، أي للرسل، دونما تحيز لدين عن غيره؟ ألا ترى أننا منشغلون بالدعاية للدين عن تطبيق تعاليمه، أجب فإني قد أشهدتك...
- أنت أمسيت لا تنطق بغير الخرَف يا أستاذ (نوح)، اشكر الله كثيرًا أن كتابك الداعي للفتنة هذا قد وقع بين يدي العبد لله، إذ إنه لو وقع بيد زملاء آخرين، لما عدت لمنزلك بعد جدالك هذا...

ينبهه خافض الصوت للمرة الأولى، فيواصل (نوح أفندي) سرد دفاعه السقراطي:

- تقول يا "مليتوس" فيما بين سطورك أنني أدعو للفتن، وتقول إنني سأفسد الشباب بكتابي هذا، وتظن بقرارة نفسك أنني أختلق الأديان والآلهة، وما الأمر إلا أنني أرى الإله بغير ما تراه أنت، وما الاختلاف بيننا سوى أننا نراه من زوايا مختلفة، إلا أن زاويتك حادة للغاية، وزاويتي منفرجة بعرض السماء.

يثور (عبد العزيز القاضي) من جديد:

- أنت لا تطّلع على ما بالضمائر يا عم (نوح)، من هو "مليتوس" هذا، هل جننت؟
- عجيب أمركم يا قضاة التفتيش، فأنت أحد المشتغلين بالرقابة على الإبداع، فتفتشون في العقول، كي تقرروا ما يتناسب مع أفكاركم وسياساتكم، وما لا يتلاءم معها، تفسرون ما بالضمائر كما يتفق لكم، أنتم نصّبتم أنفسكم وصاة على إدراكنا، مقللين بذلك من عمل العقول في أجسادنا، وحكمتم علينا بالعجز عن الإدراك منفردين، بعيدا عن وصايتكم، فاغتصبتم حرية الإبداع، ومزقتم أشلاء طائرها المقدس، وطهوتموه في آنية سادتكم، أردتم محو الكلمات، ووأد آراء أشخاص، مثل "شهدي عطية الشافعي"[٥٧] و"سيد قطب"[٥٨]، فقتلتم أحدهما، وأعددتم العدة لإعدام الآخر، أما قتل الأجساد فهو أمر على دنوه وارد، وقابل للحدوث، وبإمكانكم الإتيان به بسلاسة الانصياع وتلقائية الاعتياد، أما حين أردتم قتل آرائهم وكلماتهم، فشلتم، ذلكم لأن الفكر لا يقيد، والإبداع لا يموت، فهل تعقلون!؟

تدوي كلماته كالصفعات، فيهدر زئير قاضي التفتيش:

- تدافع عن الفكر الشيوعي، وفكر الإخوان المسلمين، ثم تريد نشر كتاب يدعو لتوحيد المنهج الديني في المدارس! إنك حتماً رجل مجنون، لولا سنك لكان لي معك حديث آخر...

يبتسم (نوح أفندي) ساخرا:

- فإن استعصى عليك فهمي، وضاقت بك جدران عقلك الضيق، وصمتني بالجنون، بالفعل، وصمي بالجنون بالتأكيد أسهل من أن يفكر رجل مثلك فيما أقول، بيد أن كتابي كان عن تعديل مناهج التعليم، فتحدثت عن تعميم التعليم بالتطبيق، ومنهج الخروج من الفصول للتعلم، كسرًا للأطر، ودحرًا للقولبة، تكلمت عن الابتعاد عن تنصيب الحفظ إمامًا للمتعلمين، أردت التعليم تجريبيًا، وسُقت أمثلة عدة من بحوث خاصة بي، ومحاورات أجريتها مع مصريين، تعلموا في فرنسا، وفي إنجلترا، وفي إيطاليا، أردت أن أنمي بالأجيال القادمة مقدرة الاستيعاب، ليأتي إلينا جيل ينبذ التلقين، ويرفض الرقابة، ولا يعبد بشرًا من دون الخالق، فلا يقدس زعيمًا، ولا يخلد سلطانًا...

يتفكر (عبد العزيز القاضي) في كلمات (نوح أفندي) الأخيرة، ينهض من مقعده للمرة الأولى، يدور دورتين حول مكتبه الصفيحي الحكومي، تداعب سبابته شعره النابت بمؤخرة رأسه، محيطًا بصلعته المبكرة كالسوار الأسود، توقف في محله، عدل من وضع نظارته الطبية السميكة، وهندم قميصه المتنافر خارج بنطاله، شد حمالاته عدة مرات، وعدل من وضعية الأكمام البنية التي تحيط بكوعيه، هلَّت على وجهه ابتسامة من تفهُّم الأمور بعد أن استعصى عليه فهمها، وقال:

- هذه وعمري من أحكم الخطط طويلة الأمد التي رأيتها طيلة عمري، أنت تخطط لقلب نظام الحكم بعد عقود من الآن، لست مجنونًا كما ظننت بك، بل إنك عبقري بحق، تريد أن يثور الجيل القادم على الدولة، فتدس السم في العسل في مناهج التعليم، لتخلق جيلًا متمردًا بطبيعته، ثائرًا بالسليقة...!

يضحك (نوح أفندي) وقد أرهقته محاورة السلطة متمثلة في رقابتها، يرتج كتفاه، حتى يسقط طربوشه الذي ما زال يصر على ارتدائه رغم اختلاف

العصور، يلتقطه متباطئًا كمن يعد العدة لمناورة جديدة يتلوها هجوم أخير، ثم ما لبث أن لانت ملامحه، يقول:

- يا (عبد العزيز) بك، ما هو المطلوب لإجازة نشر الكتاب بالضبط؟

شعر الموظف بارتياح، وغمره شعور زائف بنصر مشوه، قلب صفحات المخطوطة ذات الألف صفحة، وتوقف حيث وضع عدة وريقات كعلامات لأمور استوقفته، ثم تلا على (نوح أفندي) أمر محكمة التفتيش النهائي:

- أولًا: يتم تغيير العنوان، فلا ضرورة للحديث عن غياب النابغة، سواء في زماننا هذا أو في قادم الأزمنة، فهذه مدعة تشاؤم، وأنا والله، كما أرى أن زماننا هذا قد أتانا بعظماء أفذاذ، لا أشك أنه سيأتينا غدًا من نسلهم عظماء ونوابغ جدد، ثق وأنا أقسم لك بذات العزة أن هذا رأيي، فلا أحد يسمع حديثنا هذا، ولا حاجة لي بنفاق أو مداهنة...

يجيبه (نوح أفندي) آليا كمن توقع كلماته وأعد رده مسبقًا:

- تلك مأساة العصر يا سيدي الفاضل، أنك تؤمن بما تقول. هل من ملاحظات أخرى؟

يهز رأسه إيجابًا، ويقرأ متشفيًا من وريقة أخرى، ميز (نوح أفندي) كتابتها باللون الأحمر دون باقي الوريقات:

- ثانيًا: الابتعاد عن ذكر الأمثلة التاريخية في منهج التاريخ الذي طرحته، أو على الأقل حذف شخوص غير وطنية كالملك فاروق، وجدوده غير المصريين، لا مانع من تدريس سيرة محمد علي الكبير[٥٩]، ولكن باختصار. الجزء الخاص بمنهجية دراسة التاريخ، وتقنية تعليمه، من الممكن اختصار صفحاته المائتين وثلاثين، إلى ثمانية وتسعين صفحة فقط كما يرى الخبراء. كذلك لوحظ في كتابك هذا، عدم الإشارة أو ضرب الأمثلة بالثورة كما ينبغي، وهذا قصور عظيم..

يهز (نوح أفندي) رأسه، ولا يتكلم، فيتابع (عبد العزيز القاضي):

- ثالثًا: فيما يخص ما أسميته "المنهج الإيماني الموحد"، فهذا الجزء ينبغي حذفه بالكامل، فكما أسهبت في شرحي لك، نرى أنه قد يثير الفتن، ويضر أكثر مما يفيد...

يطرق (نوح أفندي)، وقد اكفهر وجهه، وبدا تعبًا بالغ الإعياء، شعر وكأن الجهل مارد، أمسك بتلابيبه، وضرب بجسده حوائط الغرفة الأربعة، وأرضها وسقفها، يرأف لحاله قاضي التفتيش، فيقول:

- الخبراء هنا يقترحون عليك عناوين أخرى لكتابك، وفي حالة ما استجبت للتعديلات المطلوبة، سيقيمه الخبراء بتقييم "جيد جدًا"، وسيجاز رقابيًا خلال شهر واحد على الأكثر، على أية حال، سأكتب لك الآن ثلاثة أسماء مقترحة لكتابك، تلائم طبيعة الظرف الدقيق الذي تمر به الأمة، وتواكب مصر الثورة، أكثر مما تستعدي الأجيال القادمة على ثورة، لولاها لاستمرت البلاد قابعة تحت الاحتلال الفعلي، الجاثم على صدورنا جميعًا، عُد إلى رشدك يا سيد (نوح)، فعلى المستوى الأدبي، أعجبني أسلوبك في الصياغة كثيرًا...

حكى لي (نوح أفندي) أنه كان يود النهوض، ولكنه شعر لثوان أن قدميه لن تحملانه، ظل وجهه مبرزًا سمات التهكم، وود لو يفنِّد لقاضي التفتيش نصائحه الفذة، ولكنه استدعى المنطق فاقترب منه حتى لامسه، فأدرك أنه لا جدوى من الجدال أكثر من ذلك، ناوله (عبد العزيز القاضي) ورقة صغيرة مطوية، أدرك أن ما فيها اقتراحات لعناوين كتابه الذي أرادوا بتره وقصه ولزقه حتى يخرج من تحت أيديهم، منتجًا مشوهًا ومسخًا منقوصًا، يناسب أفكارهم، وتأبى أن تحمله أرفف مكتبته... حين وقف أخيرًا، تناول مخطوطه الذي أنفق فيه من عمره ما يجاوز الخمس عشرة سنة، وشجعه عليه (المازني)، حين ناقشه في فكرته إبان أيامه الأخيرة، التقط الوريقة من (القاضي)، ودسها في جيبه، استعادت مخيلته نشاطها، فاستدعت من بقعة غير بعيدة من عقله، محاكمة "سقراط" فتوقف

لبرهة، ثم التفت مخاطبًا الرقيب الأجوف بلسان سقراط في نهاية محاكمته، واستصدار الحكم بإعدامه:

- ها قد حانت ساعة الرحيل، أنا لأموت، وأنتم كي تحيوا، من منا تراه ذاهب إلى المصير الأفضل؟ الأمر غير واضح أمامنا جميعًا، يُستثنى من ذلك الإله الخالق، وحده دون غيره عالمٌ بالمصائر.

يهز الرقيب (القاضي) رأسه، ولا تبدو عليه أمارات الفهم، فيغادره مطرقًا، وقد استولت عليه المحاورات، فتمتم:

- "فأما رجل الخير، إن أضمر الخير ولم ينتوِ غيره مقصدًا، فحماه الله من مس الشرور، إن مات، تعجز الشرور عن المساس به حتى بعد الرحيل".

حكي (نوح أفندي) فيما حكاه، أنه عاد أدراجه زائغ العينين، أضحت أضواء المنازل على طول طريق العودة كذُبالات لهب في طور الذبول، أجساد الفتيات المياسة، والفتيان اليافعة، المارقة من أمامه، أمست كشواشي الذرة في (التوابية)، يتوغل في الطريق كأنه موغل في حقل من حقول البلدة، يمد يديه فيلامس نواصي الزروع المتفرقة، تتقارب البيوت الطينية المصطفة على جانبي الزراعات، فتضيق به طريقه حتى تلفح أنفاسه وجهه إذا تنفس، إثر انعكاسها من حائط أمسى ملاصقًا له، تتدافع إلى أذنيه أصوات شتى، ثغاء ماعز، نعيق بوم، رغاء جمال، وحنين ناقة على مبعدة منهم، ضباح ثعلب يدور من حول الجمال الباركة، يقاطع هذا كله، صوت (عبد العزيز القاضي) الآتي من الوريقة المطوية في جيبه:

- "ثورة التعليم في مصر الثورة"

أو "المد الثوري في التعليم المعاصر"

أو "تطوير المعارف، في ظلال النوابغ"

ثم تتبعه ارتدادات لصدى كلمات قاضي التفتيش الأخيرة:

- هذه والله مقترحات عظام، إن دلت، فإنها تدل على كذب ادعاءات مهاجمي جهاز الرقابة، وأثبتت صدق رسالتنا، فلو أن الهدف هو المنع

فقط، لما اقترحنا عليك تعديلات، ننشر لك مخطوطك فور الالتزام بها، وما ساعدناك باقتراحات كتلك، لعناوين، هي أكثر ملاءمة لمحتوى الكتاب، خاصة بعيد تنقيحه وتعديله.

انتهى من حكايته، حين قرر مراجعة قسم من أرشيف الصحف المهول الذي يحتفظ به، في غرفة المكتبة، أخرج صحيفة قديمة، تلتها صحيفة أحدث، وقرأ خبرين مفادهما، وفاة (شهدي الشافعي)، وإعدام (سيد قطب)، ثم قال:

- ها قد أنهت قبضة الحاكم وبطانته حياة رجلين، هما من أفكاري على النقيض، وكثيراِ ما وقفت ضد فكرهما وحاربته، ولكن، هل مات الفكر المتطرف بإعدام المفكر؟ هل اندثرت النظرية بقتل المُنظر؟

يطرق متألمًا، ثم يضيف:

- في "غياب النابغة" أردت محاربة كل تلك الأفكار، بالفعل، ففي فصوله ما يدحض أفكار (سيد قطب) ويعارض الفكر الشيوعي، ولكن كيف؟ عن طريق تطوير العقول، وإنارتها بالعلم التطبيقي، وليس بالنصوص المحفوظة، أردت تدريب العقول على آليات التفكير، ومهارات الاستيعاب، عوضًا عن التواكل على المفسرين والشارحين، ليدسوا بأفكارهم في عقولنا، كل وفق انتماءاته، وقناعاته...

يبتسم ابتسامة مرارة ويردف:

- ربما كان حالي ليكون أفضل لو نحّيت محاورات سقراط جانبا، هل تظن ذلك؟ لا أعرف، إلا أن مشهد (عبد العزيز القاضي) في استجوابه، قد استحضرها، لتسكن ذهني، ولا تغادره لساعات.

سيطر عليه اكتئاب عظيم بعد رفض مشروعه، والتندر عليه، ومطالبته بتشويهه حتى يُنشر، وبطبيعة الحال لم يحذف من مخطوطه حرفًا، وأوصاني بالمحافظة على عمله، ونشره يوم تتيح لي الأقدار، ويأذن لي الحكام بأن أفعل.

ولهذا حديث آخر إن لم تخني الذاكرة.

عشيقة "بوجيرو"[٦٠] السرية

- الأمر لديكم مختلف، تقريبَا ككل شيء آخر...

قالتها وهي تخطو عارية على أطراف أصابعها بعد أن انتهت من استحمامها الصباحي، كانت من عشاق الجنس الصباحي، وترى أنه يقوي العلاقة العاطفية، ويكون له عظيم الأثر على باقي مجريات اليوم، فيفتح الشهية للعمل والمزاح والخروج والتزاور، حقيقة لم أتأكد من ذلك خلال علاقتي بـ(دنيا)، ربما لأن لقاءاتنا السريرية كانت محدودة تناثرت بغير ترتيب على فترات زمنية متباعدة. تواصل (فرانشيسكا):

- القاعدة لديكم هي: الرجل يريد، المرأة تمنح، وربما في بعض الأحيان الرجل يأخذ بالقوة ليرضى، والمرأة تستسلم، أو ربما تمنَّ على الرجل بالعطاء. الأمر كما خلقه الله يختلف عن ذلك، الرجل والمرأة، كلاهما يريد، وكلاهما يمنح السعادة للآخر!

حاولت أن أوضح لها أن الأمر -أيضًا- ناتج عن فوارق اجتماعية وثقافية، أدت بنهاية الحال إلى إحداث فوارق بيولوجية بين المرأة الشرقية والغربية، إلا أنها استنبطت ما دار بخاطري فواصلت الهجوم الباسم، عامدة إغاظتي ومشاكستي:

- حتى ما تقترفون من جهل وجرم بين سيقان نسائكم وهن رضيعات، ذلك أيضًا مسئولية الرجل، يا (إبراهيم)، الرجل في بلادكم وحش، طاغية، مستبد، والمرأة كائن مشوه المشاعر مبتور البهجة، المحصلة ستكون قهراَ ولا شيء آخر...

عاتبتها بنظرة عابثة وهي تتلكأ في ارتداء ملابسها فاقتربت، جلست على ساقي الممددتين على السرير، مالت حتى وضعت أذنها اليمنى على النصف الأيسر من صدري العاري وكأنها تسمع دقات قلبي.

- أنت مختلف، ولهذا ستعاني إن تركتني.

كنا قد فرغنا للتو مما ترمي هي لإعادته، بيد أن جسدها البض الشاهق في بياضه أرسل إشاراته اللاسلكية فاستجاب جسدي مسحوراً لندائه، لم أبرح مكاني، ولم أغير من وضعية استلقائي على السرير، قامت هي بكامل العمل، وكم أحب أن تقود (فرانشيسكا) معارك الأسرّة ليخرج كلانا منتصراَ منتشياً، مرت لحظات الحلم سريعًا، فظلت مستلقية فوقي لدقائق بقيت أنا فيها محيطًا لخصرها بيديّ المتعانقتين، وكأنني أكبل حركتها كي لا ترحل، مع مرور الدقائق تتظاهر أنها تقاوم أسر يدي المرهقتين، ولكنها في واقع الأمر كانت تزداد التصاقًا بجسدي، أهو الحب؟ أم هي الشهوة التي صنعت بيننا ما صار ويصير؟ متى بدأت تلك الرحلة النادرة الخصوصية؟

ذات نهار غير بعيد، كنت أطل من شرفة البيت المطلة على شارع (عبد الخالق ثروت)، وكانت (فرانشيسكا) قد انتهت للتو من الاستحمام، أحاطت جسدها البض برداء قطني زهري اللون، يشبه كثيراً في لونه شفتيها حين أقبلهما، طوقتني بذراعيها من الخلف، شعرت بمعصميها باردتين، فاستدرت، أحطتها بذراعي فشعرت وأنها تنكمش وتذوب في صدري...

- لا بد أن أرحل يومًا يا (إبراهيم)، أنت مُصر على البقاء، وأنا لا بد لي من العودة إلى الوطن آجلًا أم عاجلًا.

داعبت خصلات شعرها الكستنائي الذي يمسي بنيّا حين يكون مبللًا، مررت يدي خلالها، فاستكانت وانكمشت أكثر فأكثر، وساد الصمت شفتينا إذ تلاقيا، وكان لحديثهما رجفات طائرين على وشك الافتراق، سقط رداؤها فلم نأبه، سحبت يدي كي ندخل من الشرفة فأطعت نداء أناملها، سقطت عامدة فوق الأريكة، فحلقت وإياها في عالم من التوحد والسكون، اختلط البلل بالعرق فسقتني شراباً مسكراَ، لا يزال طعمه ينساب في فمي كلما تجولت في ذاكرتي إلى اليوم...

حين التقيتها أول مرة بجوار سور الأزبكية، أدهشني أن تلج فتاة أجنبية بمثل رقتها في مثل عالمنا الذكوري الصاخب دون خوف، وزاد من دهشتي سؤالها عن مخطوطات نادرة للإمام (القضاعي)، لاحظت أن أحد البائعين وبعد معاناة في فهم عربيتها الركيكة المضحكة، قد خلط عليها الأمر ما بين الإمام (القضاعي) الفقيه الإسلامي الشافعي، والطبيب (أبو البركات بن القضاعي) فتدخلت في حوارهما، وما إن التقت عينانا حتى أدركت أننا لن نفترق، أو هكذا ظننت حينها، أخبرتها أنني أسكن بالقرب من شارع القضاعي بشبرا، فطلبت مني أن أصحبها إلى هناك. هي طالبة علم بالطبع، وأنا طالب عشق، أهرب من عشق تكلل أطرافه العجز، وقد ضاقت به سبل الأمل في الاستمرار، تساءلت في حينها: هل ترد لي تلك العابرة ذات الوجه الملائكي أملي المسلوب؟

وَقَفَت إلى جواري فوق سطح بيت البنداري، كان من الممكن مطالعة شارع (القضاعي) وشارع (خمارويه) من هذا الارتفاع، بدت كطفلة في سعادتها، استندت بكفيها إلى السور وراحت تمد رأسها قدر استطاعتها لتطالع من المشهد أقصى ما يمكنها، كنت واقفًا خلفها، أخذتني دوامات شعرها الكستنائي الطويل فشغلتني عن مشاركتها نشوة المشاهدة، دون أن أشعر، مددت يدي ومررت أناملي بخصلاتها المتمردة، لم ألحظ منها مقاومة أو استنكارًا، تذكرت خالتي (أنيسة) فرحت أقسّم خصلاتها على جانب رأسها الأيمن ثلاثًا، ثم أسكنتهم فيما بين الخنصر والبنصر والوسطى من يدي اليمنى، وحين لمحت على جانب وجهها شبح ابتسامة ظننت هي أنني لا أبصرها، كان كفي الأيسر قد أوشك على الانتهاء من جدل خصلات شعرها ضفيرة مُتقَنة الصنع!

- ماذا تظن أنك فاعل؟

قالتها بعد إن استدارت، وكنت قد انتهيت من ضفيرتيها، علت الحمرة وجهي، وأندى بعض من حبات العرق جبينًا أخجله السؤال، لم أجب

وأطرقت رأسي، احتوت خديّ بين كفيها الرقيقتين، تبسمت، أمسكت بضفيرتها وطالعتها بهدوء فَرِح:

- هل تعلم من كان آخر من صنع لي ضفيرة كهذه، وكم مضى من الوقت على ذلك؟

يستردني الحاضر، أو يقذف بي الماضي خارج صفحاته المطوية، فنواصل دروس اللغة العربية، تضحكني لكنتها، ويأسرني ثغرها الباسم ووجنتيها المتوردتين حين تخطئ الإجابة عن سؤال ما. أحب مجالستها وليس فقط معاشرتِها، إلا أنني لم أحب يومًا عشقها لتدخين لفافات الحشيش، كانت تراه أمرًا عاديّا، محض سلوك شعبي اعتيادي في مصر، علاوة على ما كانت تسميه الأفيون الفرعوني المقدس، كناية عن انتشار الأفيون، وإن لم تكن هي من محبيه، نستكمل ما شُغلنا عنه:

- الرجل الشرقي حتمًا مستبد، ولكن ماذا عن المرأة الشرقية؟ هي متسلطة منقوصة العاطفة في أحسن تقدير، لا يليق بكِ أن تُحمِّلي كامل المسئولية للرجل، فما بالك بسيدة ريفية خُتِنَت، وعاشت مُجبرة في أحضان زوجها مثلها كمثل تمثال معدني بارد الملمس والشعور، فتزوج زوجها هذا زوجتين أو ثلاث زوجات أخريات، إذ يرزقها الله بطفلة، أن تسارع لختانها مكررة بذلك دورة حياتها في جسد ابنتها!

تصمت لثوان قاطبة ما بين حاجبيها، ترد:

- الجهل يا (إبراهيم)، وهو أيضًا أمر نتج عن جبروت الرجل الشرقي، الذي قرر أن يقصر التعليم على الذكور، في معظم أنحاء البلاد وفي أغلب الشرائح الاجتماعية، المتوسطة وما دونها، الذكر العربي كائن مهووس جنسيا، لا يشغل باله إلا بالنصف الأسفل من الأجساد. الجهل والفقر والمرض، كلها أمور تساعد في نشر أي فكر متطرف، أو منهاج عنصري، وما تمارسونه ضد المرأة هو التطرف في أجلى صوره! لا تدع كلماتي تثير غضبتك، فالهوس الذكوري الجنسي، قد عانت منه النساء في شتى بقاع الأرض، أنا بصدد الانتهاء من كتابة مقال، هو في واقع

الأمر رسالة مفتوحة، أفجرها في وجه العالم، عن فتاة أفريقية جيء بها من موطنها، لتُسقى كافة أنواع الذل والهوان والاستغلال في أوروبا، المشكلة لديكم، أن ما أحاول أنا اليوم إلقاء الضوء عليه، والذي كان منذ قرابة قرن ونصف القرن من الزمان، هو أقرب لما ألمسه في واقعكم اليوم!

- ولكننا الآن في مجتمع أكثر تحرراً...

أجيب وقد حاصرتني كلماتها، أتشاغل في ربط مشبك حمالة صدرها إثر طلبها، فتعاود هجومها الذي أدرك أنه بالأساس ليس موجهًا لشخصي، تقول مولية ظهرها لي:

- مثلث مكوناته: فقر + جهل + مرض = مأساة، ولكن انتظر! مربع مكوناته: فقر + جهل + مرض + حرية = غوغائية، فوضى، عنصرية، طائفية! إن أردت أن تضيف الضلع الرابع للمربع: ضلع الحرية، فعليك بإصلاح الأضلاع الثلاثة الأخرى أولًا! ذلك موجود لدينا في بعض المجتمعات الأوروبية إلى اليوم، ولكن لا أحد يملك إرادة حقيقية للتغيير هنا، وهذا هو الفارق! فلا تحدثني عن مجتمعك المتحرر! مجتمعك هذ إن تحرر فعليّا من سطوة حكامه، لغرقت بلادكم فيِ الفوضى! ماذا تتوقع من شخص جاهل يستقطع من جسد ابنته أجزاء يرى أنها تستدعي الشيطان، ونسي أنها من صنع الخالق، إذا ما أتيحت له الفرصة في نشر أفكاره العنصرية وتعميمها على من هم في مثل جهله، ماذا ترى نتيجة تحرره؟ ذلك ما قصده "فيكتور هوجو" حين قال: "تبدأ الحرية حين ينتهي الجهل، لأن منح الحرية لجاهل، كمنح السلاح لمجنون!".

كنت أعلم أن مشكلتها الأساسية هي (نعيمة المصري)، تلك الفتاة المصرية السمراء، المرتحلة يوميّا من قرية (منيا القمح) إلى (القاهرة)، لتعمل كصحفية تحت التمرين في (الأهرام). تعرفت (فرانشيسكا) عليها أثناء أحد البحوث الميدانية التي تقوم بها كجزء من مهمتها الدراسية،

كنت بصحبتها يوم أن التقيتا، وشهدت على رواية (نعيمة) لمأساتها بعد ذلك، هي فتاة مصرية خالصة، تبدو لأول وهلة وكأنها -هي فقط- من تحمل أختام ومفاتيح الفراعنة، ببشرتها الخمرية، وعينيها السمراوين، وشعرها الأسود الحالك، وجسدها المتناسق المتوسط الطول، وصدرها المكتنز البارز، ينقصها فقط تاج وصولجان، وتعلن نفسها (كليوباترا) هذا العصر، لها جمال أخاذ يعجز المرء عن فهمه، فلا هي الفتاة الشقراء زرقاء العيون ولا هي الأنثى التي تتمايل بمرورها الرقاب، هي فقط جميلة! أسميتها سمراء النيل مداعبة، فاقتبس آخرون هذا اللقب عني، وصار لقبها الرسمي.

أصر أبوها على تزويجها من ابن عمها، الذي هو في ذات الوقت ابن شريكه في أرضه ومحصول قطنها، بدا لي أن أباها هو مجرد نسخة أخرى من (الحاج النبراوي)، يعقد القران بغية الحفاظ على التقاليد العتيقة، وحفظ الأرباح، على أن يتم الزفاف لاحقًا فور أن يباع محصول العامِ التالي من القطن، تأتي دودة القطن لتنسف المحصول وتبدل الأمور رأسًا على عقب، يختلف الأخوان، ويتبادلان الاتهامات بخصوص المتسبب والمقصر في رش المبيدات، فينفصلان تجاريًّا، ويتم تطليق (نعيمة) كأحد إجراءات فض الشراكة، لتمسي بكرًا مطلقةً، يتجنب الزواج منها كل شرقي، يحمل في عقله من المنطق ذات ما يحمله بين فخذيه من الحكمة!

- أول ما يفنى من قلوب فوق هذه الأرض هم أولئك الذين انشغلت عقولهم بالتحام الأذرع والأرجل فأضاعت صواب الطريق إلى سكنة الروح.

قلت بإنجليزية مترنحة، فأومأت برأسها موافقة، وإن كنا قد فرغنا للتو من أحد هذه الالتحامات، كان كلانا يعلم أن سكنة الجسد ورعشته قابلة للحدوث في أكثر من موضع ومع أكثر من شريك، إلا أن سكنة الروح لا تتواجد إلا مع روح واحدة عبر سنوات العمر.

- تلك مقولة أبي على أية حال...

أردفت موضحًا، فلم تخرجها كلماتي من شرود كان قد استغرقها للتو، كانت جالسة على مبعدة أمتار مني فور أن انتهت سريعًا من حمامها الثاني، استقرت على كرسيها الخشبي في الشرفة، وقفت إلى جوارها، وأخذت أداعب خصلاتها بهدوء، أسبلت جفنيها، وتمتمت:

- برأيك، أيعقل أن تكون فتاة كـ(نعيمة) في وضع مجتمعي شاذ كهذا؟
- أرى أنها فتاة جميلة...

أجبت، فاستطردت:

- جميلة، ومنبوذة...

كنت أعلم أنها منبوذة، طلبت من (نادية عيسى) مساعدتها، بأن تلحقها بالعمل معها كصحفية تحت التمرين، في قسم الفن بجريدة الأهرام، ولم ترفض لي (نادية) يومًا أي طلب، وكذلك كنت أيضًا، حتى حين طَلَبت مني أن أتوقف عن عشقي لها! فتوقفت عن العشق، أو أغلب الظن أن اعتقدت أنني قادر على ذلك، فظَل الجدل قائمًا بيني وبين قلبي شهورًا، حتى اتفقنا على تخصيص مكان لـ(نادية)، مكان مغلق، رتبت في جنباته ذكرياتي معها، وأغلقته، ونسيت أين وضعت مفتاحه! كان لذلك تأثيره، إذ انتقص من مساحة القلب بعض الشيء، غير أن ما تبقى، كان يكفي لأن تسكنه (فرانشيسكا).

لم أود أن أخبرها أنني علمت أن ثمة علاقة قد نشأت بين (نعيمة المصري) و(صلاح زكي)، كنت أعلم أن (صلاح) لن يحب أحدًا بعد (يولا)، فاعتراني قلق حين وجدت لوحات عارية لـ(نعيمة) في مرسم (صلاح)، الذي هو في ذات الوقت شقته، كنت أعلم أن صلاح لا يرسم امرأة من الذاكرة غير (يولا)، وكلما أراد استرجاع مَـرآه لامرأة أخرى، بدأ برسم قدميها، ومر بريشته الملهمة ناحتا باقي جسدها، وصعد حتى وصل لوجهها، فإذا أنهى رسم وجهها أطل عليه وجه (يولا) بدلًا من وجه تلك المرأة، ولذلك لم يكن مستغربًا لديّ، أن أجد لوحات لـ(يولا) في مرسم (صلاح) وقد ارتدت ملابس ريفية أو شعبية مصرية، وإن تمعنت النظر في أي منها، أدركت أن

كل تلك اللوحات حملت جسدًا غير جسد (يولا) النحيف، وربما شعرًا مختلف اللون، إلا أن وجهها فقط لـ(يولا)!
هل ذكرت قصة (صلاح) مع (يولا) من قبل؟ سنرى!
أحببت في (فرانشيسكا) ما لم أجده لدى (دنيا)، ولم أحب فيها جديتها التي تكاد تلامس الصرامة في بعض الأوقات، يعجبني خجل (نادية) وحرصها على عدم التجول عارية في الردهات، حتى وإن كنا قد فرغنا من إشباع غرائزنا للتو، تظل على خجلها الفطري، حتى في ذروة أنات الفراش الناعمة.
لا أجد ذلك في (فرانشيسكا)، ذات الجرأة الصادمة، والجسد المرمري الذي يكاد يضارع في كماله، أجمل لوحات "ويليام بوجيرو".
وكأن "بوجيرو" الفنان، كان يطالع جسد (فرانشيسكا) وهو يبدع لوحته الشهيرة "نشوة الروح"، بل إنه أبدع في تصوير جسدها من عدة زوايا مختلفة في لوحة أقل شهرة هي "نبع الحوريات" أو "النمفايون" باليونانية القديمة، ولولا أن الفرنسي قد رحل عن عالمنا في أوائل هذا القرن، لأيقنت أنه ذاب في بحور (فرانشيسكا) ذات ليلة فقبعت في ذاكرته! وفي (صلاح زكي)، شيء من (بوجيرو)، إذ إن الباحث في لوحات الفرنسي، حتمًا سيلحظ وجهًا بعينه، وقد تكرر بين لوحات عدة تعكس أزمنة مختلفة بين الشباب والطفولة، وجه هو على الأرجح، لـ(يولا) الخاصة بـ(بوجيرو)!
كانت لقاءاتنا بكافتيريا (ريش)[٦١] بـ(طلعت حرب) هي شرارة البدء بين (صلاح) و(نعيمة)، فالفتاة القادمة من الريف قد بدا وأنها قد ضلت مسالكها بين دروب القاهرة، واستعصى عليها فهم القفزة الحضارية بين (القاهرة) و(منيا القمح)، فما بين تخزين أقراص الروث، واحتساء النبيذ الفرنسي في (ريش)، كانت الفجوة جد عميقة، جاهدت (نعيمة) كي لا تسقط في أعماقها، فتشبثت بالحواف، وظلت عل مسافة من كلا العالمين، سَعدَت أن اهتم بأمرها (صلاح)، وحزنْت أنا من تعلقها به، لإدراكي أنه لم ولن يكون يومًا متاحًا للحب!

- متى يُنشر مقالك عن الفتاة الإفريقية!؟

قلت، فأجابت بزهو يشوبه الجذل المرح:

- سينشر في اللوموند مطلع الشهر القادم.

فقط (فرانشيسكا) لم تلحظ الاضطراب الاجتماعي، الذي كانت (نعيمة) تتخبط في جوانب ردهاته طوال الوقت، ولم تدرك صعوبة الإصلاح التي يدركها شخص مصري مثلي، فعكفت الإيطالية الجادة على توسيع رقعة بحثها عن طبيعة الحياة الاجتماعية في مصر، وأثر ذلك على قمع المرأة المصرية، لتجد في (نعيمة) نموذجًا صارخًا للظلم الواقع على المرأة في ربوع بلادنا، أرادت البحث عن الجذور، والعثور على أطراف خيوط قد تقربها من كشف الحلول المرجوة، فأصرت على زيارة (منيا القمح) مع (نعيمة)، حتى فعلت، وعادت أكثر حزنًا.

- أفتقد وطني...

بَادَرَت مُلمحة بالرحيل، كان تلميحا لا تلويحًا، إذ كنت أنا على دراية أن ما يربطها بمصر يومًا بعد يوم، هو أنا فقط، ما رأته في زيارات عدة للقرى والنجوع، أفقدها شهيتها على مواصلة البحث، بل إنها فقدت شهيتها للدراسة والعلم، وأمست روحها أكثر التصاقًا بي، قررت أن تعيش، وأن تخرج من أطر دراستها لتشاهد (القاهرة) لأول مرة، دون قيود البحث والتدوين، أخذتها إلى (شبرا) مجدداً، ثم مررنا بكل ما تركه لنا أجدادنا من أثر وحجر هنا أو هناك، كنت أعلم أنها سترحل ذات يوم، فحاولت أن أمهد ذلك لقلبي، حتى يتجرعه تدريجِيا.

ثم جاءت ليلة هطل فيه الظلام مبكرًا عما اعتدناه، ووقفت هي في الشرفة وقد ارتدت فستانًا قصيرًا بلا أكمام يناسب الطقس، أولت ظهرها الى السماء وطالعتني، حين بدت النجمات المتراصة في صدر السماء وكأنهن لآلئ يحففن برأسها، كأكاليل زهر من زمان الإغريق، حزنت لـ(بوجيرو) أن رحل دون اللحاق بمشهد كهذا، وبِطَلّة كتلك، تلخص الأنوثة في أقل

تفاصيل ممكنة، وتختزل الكلمات في كلمة تجمع ما بين التيه والامتنان: الله!

قلت، وقتما كانت هي على شفير بوح جديد بالخواطر، رددت بتساؤل غامض: الله!؟

ثم جَذَبَت يدي نحوها، بهدوء وتباطؤ، وكأنها تراجع صياغة قادم كلماتها، قالت:

- أؤمن برب البشر، ولا أؤمن بما يأتيني به البشر!

هززت رأسي متأملًا ما قالت، بدت على محياي بشائر استفهام يلح عليّ، فأردَفَت:

- بدأ الأمر هنا، في مصر! فكان الإله هو "آتوم"[٦٢] وتاسوعه المقدس في "هليوبولس"[٦٣]، وكان "بتاح"[٦٥] في "ممفيس"[٦٤]، وأثمون "أجدود"[٦٧] في "هيرموبوليس"[٦٨]، ثم "آمون"[٦٩] في "طيبة"[٧٠]، وبطبيعة الحال، كانت تلك الآلهة لا تُعبد، بقدر ما ترسخ لحكم الحاكم الذي كان ينظر له بصفته نصف إله!

- فيم كانت بعثتك بالأساس؟ ما علاقة الإمام القضاعي، بأبحاثك الاجتماعية، ثم أطروحاتك الدينية! حقيقة تنهكني ملاحقتك، حتى أمسيت أتساءل عن تخصص دراستك الحقيقي...!

قلت مقاطعًا فأطلقت ضحكة صافية، وفردت ذراعيها بمحاذاة كتفيها:

- أرسلتني الآلهة لأجلك أنت فقط!

ثم أردفت بما في طياته رفض لالتماسي بتغيير دفة الحديث:

- ثم نقل العبرانيون عن ذلك وانتهجوا منهجًا توحيديًّا، يوحد الإله وينهى عن الاعتقاد بتعدده، والناظر إلى التوراة، يميز تشابهًا جليًّا بين أمور مثل قصة الطوفان ووصف الأرض قبل الخلق، مع عقائد "هيرموبوليس" ذات الآلهة الثماني، وذهب البعض إلى أن النبي "موسى" كان كاهنًا في بلاط "أخناتون"[٩٨]!

أخذنا نقاش طويل، تفرّع في مسالك موازية عدة، لكنه كان إذا تشعب، عاد إلى منابعه في نهاية الأمر، كانت هي تفوقني تثقفًا في ذلك النقاش، فكان أن نَهَلْت من معارفها قسمًا وافرًا، وحفظت قسمًا آخر بغية مراجعته فيما بعد، وقد وجدت صعوبة في التوافق ما بين بضعة أمور مما أوردت، وثوابت يقيني...

- إله التوراة كان إلهًا قويّا، منتقمًا، جبارًا، تَسَلّق كلماته الكهنة، واستقروا على سُدد العروش، ووضعوا أنفسهم في مراتب أسمى من العوام كما كان الحال في مصر الفرعونية، ثم جاء المسيح، يبشر بإله محب مسالم يدعو القوم ألا يخافوه، وقد سئم أن يكون ذكر الرب مصحوبًا بمخافة العقاب واتباع تعاليم أرباب المعبد، فتعارض ذلك مع منافع رجال الدين من حملة التوراة، فقتلوا المسيح، ثم جاء الإسلام، ليدعو إلى محبة الله ومخافته في آن واحد، قبل أن يسلك حملة راياته دروب الإكراه على الإيمان، ونشر الدعوة بنصل السيف. ووفقًا للطبيعة العاطفية للإنسان، كانت الرسالة الأكثر انتشارًا على وجه الأرض، هي تلك التي قتل نبيها شابّا إثر وشاية خلَّد التاريخ خستها، وإن اختلف مصير النبي المغدور، وتوصيفه بين كتاب وآخر...

كنت أراها متأرجحة بين الإيمان بوجود الخالق، والإلحاد الكامل، إلا أن نهجها ونسق حديثها المقترن ببسمتها المستديمة، كانا يدفعان المرء إلى التشبث بأطراف الحديث، ومتابعته.

غاصت الساعة في قلب الظلام، ومضى من الليل معظمه، فبدت وقد أحاط بها ألق، جعلها تُطل كقبس من نور، تهادى حتى اقترن بفلْق الصبح، لتختتم محاورتها، وسرد أطروحاتها، بطرح صادم:

- أما وقد آمنا بالله، وعلمنا أن لهذا الكون خالقًا واحدًا لا شريك له ولا بديل، ورأينا كيف انتفع البشر من كتب السماوات ورسالات الأنبياء، فتحدثوا باسم الرب، وحاكموا باسم الرب، وضاجعوا باسم الرب، وقتلوا باسم الرب أبرياء بينهم أنبياء، يَحلُّ هنا موضع سؤالي الأخير...

قاطعتها ببشاشة:

- هل لي بتعليق على ما أوردتِ؟

أومأت ضاحكة بالإيجاب، فقلتَ جادًّا وأنا أضم كفيها بيدي طاردًا من مسامهما ما علق بهما من برد الصباح:

- أنا أؤمن أن ما أتى به إبراهيم ونوح وداود وموسى وعيسى ومحمد، وغيرهم ممن لم يصلنا خبرهم، هو في واقع الأمر دين واحد، ورسالة سماوية واحدة تحمل ذات التعاليم، قد تختلف الشرائع والتفاسير بين زمان وزمان، وبين كتاب وكتاب، بيد أن هذا الاختلاف الفقهي لهو بالأساس خلاف فكر، خلاف في الاستيعاب والتلقي، أي أنه ليس خلافًا بين الأديان، بل هو خلاف من صنع الإنسان! حتى ما يقال عن صراعات حضارات بين حضارة وأخرى، وتلك أمور أعلم أن لك بها باعًا على ما يبدو، بيد أنني أرى أن مسميات كخلاف الحضارات، أَو الصراع المزعوم بين عالم متقدم وعالم ثالث، هي مسميات لا تحمل أي مضمون يا عزيزتي، فالحضارة صنيعة الإنسان، وهي -فقط-مرتبطة بتحرر العقل عبر العصور، لا يعيق تقدم الحضارة أية عوامل جغرافية أو عرقية أو دينية، التحرر هو وقود الحضارات وشعلتها التي لا تذوي ولا تنطفئ، ودون تحرر العقل، وسمو الروح عن مادية الجسد، لن تكون هناك حضارة، مهما زادت الموارد، وقلت الحروب، إذن، هو الإنسان! القوة الدافعة، والمعيقة، الغاية، والوسيلة، الخير والشر، كل وفق لما رسخ في عقله من فكر وثقافة!

انتقلنا من الشرفة هربًا من البرودة المتزايدة، استلقت على جنبها، وتمددت على الفراش في مواجهتي، فجاء وضع جسدها غير متسق مع حوار بشأن الأديان، قالت:

- أراك متفقًا معي، وإن حملت نبراتك ما يوحي بمعارضتي، ولكنني سأذهب بعيدًا من حيث انتهيت، فقط إن سمحت لي بطرح سؤالي الأخير...

لوحت بيدي في حركة مسرحية، فاعتدلت في فراشها، قالت:

- ماذا يجبرني على تصديق أن تلك الكتب السماوية، بما تحويه من تعاليم نبيلة وعظات جليلة، قد صاغها خالق الكون ورب البشر، ولم يصغها بشر!؟ لم لا أجنح لاعتقاد أن منظومات الحكم، والمخططين لبلوغه، هم من صاغوا تلك الكتب للسيطرة على العقول؟ واعتلاء العروش!؟ وامتلاك السلطة الواسعة المطلقة!؟

حدقت فيها وأخذ عقلي يفند الزعم، ويرتب البراهين القادرة على دحره، فقالت آخر ما سمعته قبل أن تقتادني إلى فراشها الذي لا تنضب غرائزه:

- أما الدليل على ما أدعي، فهو أن البشر، حين صاغوا ما صاغوا لإحكام الاستحواذ على البشر، أخطأوا جميعا، وأخذهم كبرُهُم، فاعتادوا وصف الله، والتحدث عنه وبلسانه، بصفته ذكرًا لا أَنثى! في حين أن الله كيان خاص، متفرد، خلق الذكر والأنثى، ولا هو ذكر ولا هو أنثى!

وددت أن أنبهها أنها ذكرت الله بضمائر ذكوريةِ للتو، ولكنني كنت على ثقة أنها ستجيب بقولها أن ذلك قد أمسى أمرًا يحكمه الاعتياد، وتسنه المجتمعات الذكورية... آثرت الصمت، ولبيت دعوتها لإعادة استكشاف واحد من أعظم إبداعات الرب في أرضه؛ جسد المرأة!

لم تتزوج (نعيمة) حتى رحلت (فرانشيسكا)، ابتعد صلاح تدريجيّا، فكانت صدمة سمراء النيل مضاعفة. هجرت أنا حياتها وقد أمست علاقتي بها فاترة بدون أسباب، أو لعل التباعد قد اقترن ببداية زياراتي المتكررة للخانكة، وما تلى ذلك برحيلي النهائي.

كان (صلاح زكي) قد سبقني في الهجرة من الواقع، بعد أن أبدع أول لوحة لا تحمل وجه (يولا)، أو وجه (نعيمة)، كانت تلك لوحة "الثالث من مايو"...

ولهذا حديث آخر إن لم تَخُني الذاكرة.

عم عبد الفتاح

وأنا قائم على تدويني هذا، لم أخطط للكتابة عنه، أو ربما خططتُ لذلك ثم نسيت، ولكنني اليوم، ومنذ استيقاظي المبكر كما فُطِرَتْ منذ القدم سَجِيّتي، وأنا شارد في تفاصيل قصته، مستلقيا على سريري في ذلك الفندق الفخم، حيث دُعيت لإلقاء محاضرة عن شيء لا أذكره الآن، حوائط الغرفة الفندقية مكسوة بورق حائطي مشجر، وسقفها له لون بني، داكن في منتصفه، يتفتح لونه كلما اقترب من الحوائط، وفي منتصف السقف، حيث نشأ اللون البني وبزغ، تدلت ثريا بديعة في تلألؤها، وقد انعكست على لآلئها الأضواء الحمراء الخافتة الصادرة عن الأباجورة الصغيرة التي استقرت على المنضدة المجاورة لي، على حائط الغرفة إطار لوحة فارغ، أمعنت النظر فيه بأعين نصف مغمضة، استعنت بنور الثريا الكاشف لأسرار الكون، فتأكدت أن الإطار الخشبي فارغ بالفعل، جلست على كرسي مقابل اللوحة، وأخذت الألوان تنساب من عقلي، مؤنسة فراغة اللوحة، مشكلة مشهد آثرت مواراته في بقعة منسية من ذاكرتي المهترئة، فقفز صبيحة اليوم، ليفاجئني باستقراره على حائط الغرفة، متكونًا في إطار اللوحة الفارغ.

رأيتني أحاول السيطرة على (صلاح)، وكبح جماحه، حين أراد الفتك بـشابة ذات نظرات لعوب، تفوح من أنفاسها رائحة المكر، ترتدي فستانًا مزركشًا بالكاد يلامس ركبتيها، فأخذ فخذاها العاريان في الارتجاج مع قفزاتها متفادية ضربات (صلاح) ووعيده، كانت تلك هي (نرجس)، التي بدت مرتعبة أمام صرخات (صلاح) الهادرة: "للفُجر حدود". حاوَلَت استدعاء الكون بصراخها الذي يوحي بتعرضها لتعذيب بشع، رغم أن ضربات (صلاح) قد جاءت إما طائشة، وأما مصيبة لجسدي أنا، وقت أن كان عم (عبد الفتاح) صامتًا، ذاهلًا إلى حدٍّ ما، لم يشأ التدخل، ربما لأنه

أمسى قليل الحركة، شارد الذهن، وقد استقرت بجسده وعقله أمراض شتى، وربما لأنه يعلم أن (نرجس)، تستحق!
ثمة صورة معلقة على الحائط المتشقق بفعل الرطوبة والزمن، الصورة صورة عم (عبد الفتاح) حين لقي من الشباب ريعانه، الإطار عتيق، وقيم، والصورة تنطق عنفوانًا، وصاحبها، قابع أسفلها، وكأن القدر يريد بي، وبالحضور، عقد مقارنة بين الأمس واليوم، بين آمال الشباب، وإحباطات الشيخوخة...
بدخول (عواد) يشتعل الأمر، ترتمي (نرجس) على جسده منهمرة في نشيج زائف، يثور صبي القهوة لزوجته، وتنضح عيناه برغبات الانتقام، يهم بالاشتباك مع (صلاح) ومعي، اتنبه لوجود (نعيمة المصري)، قابعة على الأريكة المتهالكة بجوار عم (عبد الفتاح)، حين يعلو نحيبها، يغيب (عواد) المسحور بشهقات زوجته، ودموعها التي لا تجف، وينطلق كالممسوس، يغيب لثوان في جوف الشقة المظلمة، ويعود وقد استل من مطبخها سكينًا صدئ النصل، تصرخ (نعيمة)، وتتوقف (نرجس) عن العويل وقد لمعت عيناها، وتماوجت على شفتيها ابتسامة لا توائم المشهد، حين كان (عواد)، ملبيًا نداءات صدرت عن حنجرة (نرجس) وأعينها كتعاويذ السحر، ينقض بنصله الصدئ، وعقله الصدئ، على صدر (صلاح)، ليسود الصمت...
كان مشهد عم (عبد الفتاح)، المحبوس في قبو المنزل المتهاوي، وقد دفعت أفاعي الجوع بيديه المعروقتين خارج نافذته المنخفضة المفضية إلى نهر الشارع، لتتسولا الطعام من الصبية المارين، قد أصاب (صلاح) بالجنون، كان قد سمع من الست (ماري) ومن صديقته (نجوى سالم) أن عم (عبد الفتاح) يبدو كما لو كان سجينًا في محبس (نرجس) الخاص، خاصة وقد أثر تصلب الشرايين على ذاكرته وعقله فأمسى فاقدًا للذاكرة في أغلب الأوقات، وضعيف الإدراك في جلها، كانت السيدتان قد زارتاه مؤخرا،

وأِنكرت (نرجس) وصديقتها وجوده، واستغرق الأمر نصف الساعة حتى سمح لهما برؤيته.
برغم انشغالي بمرض أمي الشديد، وما سبق مرضها من صفعة مزلزلة، مهولة، أدارت عقلي أكثر مما ظننت، يوم أن مات (أبو شنب) فهجر العقل شيء من عنفوانه، إلا أنني كنت دائمًا ما أتابع أخبار (عم عبد الفتاح) من خلال (صلاح زكي)، إذ إن كلانا لم ينسَ لهذا الرجل، المترنح في نهايات خمسيناته، وقوفه إلى جوارنا منذ أن التحقت أنا بمعهد الفنون المسرحية، في مغامراتي الإخراجية القليلة، وحتى حين استقررت بمرافئ الصحافة، وكذلك مع (صلاح)، الذي عرفه عن طريقي، فور تخرجه في كلية الفنون الجميلة، واشتغاله بالكاريكاتير والديكور في ذات الوقت، كان سخيّا في تشجيعه لنا ولكثير غيرنا، ممن كانوا يتحسسون دروب الفنون، بتشكك في إمكانياتهم، وارتياب في محتوى الرسالة الموكلة إليهم.
بطبيعتي، لم أكن أتقن استثمار معارفي الشخصية، ولا أجيد تحقيق المنافع من نفوذها، وهذا ما لاحظه عم عبد الفتاح فأسماني بـ(ابن الأصول البنداري)، وبرغم أن (صلاح) لم يختلف في طباعه عني كثيِرا، فقد قصد عم (عبد الفتاح) ذات مرة أن يساعده في العمل كمساعد ديكور في الحقل السينمائي، لما له من باع وصلات في هذا المجال، فلم يتأخر الرجل عنه، وكان له ما أراد، بيد أن (صلاح) انطلق بعد ذلك، فأوكلت له مسئوليات تصميم الديكور منفردًا في عدة أفلام لاحقة متلاحقة، دون أدنى توصية أو تزكية من عم (عبد الفتاح).
هربت منه دنياه على حين غرة، فيما كان هو يسميه بلغة المسرح "إظلام تدريجي"، يقولها بصوته الشجي، فتقشعر قلوبنا، وتتوارى ضمائر الكون قاطبة.
كنت قد حضرت مصادفة بداية التداعيات، حين فقد بصره دون مقدمات إثر إهماله للسكر، وبقيت أنا و(صلاح) وبعض من أصدقائه، إلى جواره

حتى بدأ يستعيد بصره جزئيّا بعد ذلك بشهور، ليدرك أن من بقي حوله أقل من أن يعدوا على أصابع اليد الواحدة.

على حائط غرفتي، الإطار الذي كان للتو فارغًا، آخذ في الاكتمال، تتلاحم ألوان بأطياف، تمر فصول متسارعة، تشرق الشمس وتغرب ألف مرة، يظهر وجه عم (عبد الفتاح) بشوشًا ضاحكًا، تصدح الآمال في وجوه الإخفاقات التي احتلت القسم الأعظم من الصدور، يبرز في ركن اللوحة السفلي شابان، وقد اتخذ كل منهما من قلمه سيفًا فاستطال، حتى حاكى ظله الطويل ظلال السيوف، وبرز وجه شاب، أسمر نحيف، أعرفه، كان هو مبارزي.

كانت معركة حامية الوطيس قد دارت بيني، وبين (مرتجى مأمون)، الصحفي بالجمهورية، حين نشر قائمة، تضم أسماء المتبرعين لعم (عبد الفتاح)، والمبالغ التي جاد بها كل منهم، وكانت قطيعة بيني وبين زميلي في مجلة الرسالة في ذات الوقت، تمت وساطات متكررة للمصالحة، رفضت أنا في صياغتها المغفرة، ورفض هو شرطي بالاعتذار علانية، فدامت إلى اليوم، خاصة بعد أن أطل من وجهه النحيل ذات مساء، فوق إحدى الغيوم السابحة فيما بين الحلم والواقع، وجه (جابر عباس).

رياح الكرم كانت قد خبت، وحلت محلها عواصف قبيحة متتالية، فهطلت المصائب متوالية على أيامه المتناقصات، وكانت من وَجّهت له ضربة أظنها كانت القاضية، (نرجس)، زوجته الأخيرة، التي تصغره بثلاثين عامًا، والتي تربت على ما يبدو في مواخير الخيانة، فسرت في عروقها الخديعة مجرى الدم، لتحصل على توقيعه ببيعها كل ما ملك وادخر، مستغلة انحسار بصره، وتأرجح وعيه، وثقته الخاطئة بها، ثم أجبرته على تطليقها، فوقع عقود الطلاق غير مدرك لما يوقعه، لتتزوج (نرجس)، فور أن تفي بعدتها ممن اعتاد عم (عبد الفتاح)، أن يحسن إليه ويعينه، في مواجهة عقبات الحياة، وحمايته من نوات الزمان المتقلبات، (عواد) صبي القهوة، الذي قال حين عاتبه (صلاح) ذات يوم: يا أستاذ (صلاح)، هي لن

تتركني، وستظل خلفي لتنال مني ما صبت إليه ونالت، الحلال بيّن، وأنا كنت قد اشترطت عليها الزواج تعجيزاً، فهي على ذمة عم (عبد الفتاح)، ولم أكن أتصور أن يكون ما كان...

لم يشرح (عواد) في دفاعه عن نفسه أمام (صلاح)، ما خطر بباله، وجاش بصدره الغليل، حين رأى (نرجس)، تنتهك إنسانية الكون، وتتلاعب بعم (عبد الفتاح) مستغلة فقدانه لذاكرته، واختلال خطواته حين تلامس دروب الماضي، ليوقع كشاهد على عقد قرانها من (عواد)، كما لم يسهب في شرحه عن سبل إجباره، على قبول العيش في ذات البيت مع عم (عبد الفتاح)، ليضاجع زوجة من أحسن إليه في وجوده، وعلى فراشه، كان (عواد) نموذجًا حيّا لقوادي الزمن الآتي، وإن بَكّر بمجيئه بضعة أعوام عن أقرانه، هؤلاء أناس قدسوا ذاتهم، وعبدوا من دون الله مصالحهم، فضربوا بكلماته عرض الحائط، وحقروا من تعاليمه وتجاهلوها، فتناسوها، أو أتوا بنقائضها...

قال عم (عبد الفتاح) ذات مساء في أحد مجالس سمرنا، وقد غلف حروفه عزف عود متمرس لرائعة خالد الذكر سيد درويش[٧١] "زوروني كل سنة مرة":

- لم يشأ الله أن يكون لي ولد رغم زواجي أكثر من مرة، أعلِم أن العلة كامنة لا ريب في حيواناتي المنوية، التي ربما أصابها الحَول بدورها فضلت سبل الوصول للبويضات، إلا أن الله عوضني بكم أيها الأحباء، فوجدت في مجلسكم هذا دفئًا، بث في أوصالي بإعجاز شعوري طالما افتقدته وهو الشعور بالأبوة. أتعلم يا (صلاح)، أنت وصاحبنا ابن الأصول البنداري، سأذيعكم سرّا لم أشاركه أحدًا من قبل، في شارعنا صبي اسمه (عواد)، أرى في ملامحه بعضًا مني، وكلما رأيته تخيلت أنني لو رزقت بصبي لما اختلفت هيئته كثيرًا عن هذا الصبي، جاء من قريته ليعمل صبيّا لقهوة الحي، ليكون مبيته بها، حين تحصلت على مبلغ مالي محترم منذ شهرين، ابتعت له زوجًا من الجلابيب

البهية، وكذلك حذاءين وسروالًا، الشهر القادم، آتيه بقميصين كهذا إن شاء الله...

يقول باسمًا مشيرًا لقميصي، فأتبسم متألمًا لذكرى كتلك، ثم أنتبه لـ(صلاح) الذي يربت على صدري مهدئًا أنفاسي المتسارعة، أستعيد يقظتي فألاحظ (عواد) وقد استلقى على الحصيرة التي تفترش الأرض الرطبة، تجلس إلى جواره (نرجس)، ترمقني بعينين شيطانيتين، ويصدر عنها فحيح كالأفعى، (نعيمة) تجذب يدي ويد (صلاح) في آن واحد، راجية كلانا أن نهم بالرحيل. سيل من دم أغلب الظن أنه بارد، ينساب من أنف (عواد)، أمعن النظر فيه وقد بدا لي كلصٍ متمرس، وقد غاب عن الوعي، أستشعر ألمًا حادًّا في قبضتي اليمنى، فأسترجع ما كان في لحظات شرودي وانفصالي المتكرر عن الواقع، أغلب الظن أنني بادرت (عواد) بلكمة قبل أن يسكن سكينه الصدئ قلب (صلاح)، لكمة حملت غضبتي ولوعتي، وأفرغت فيها ألمي إذ أودعتها سر عم (عبد الفتاح) الصغير عن ولده الغائب.

تختفي الشخوص كافة من فضاء اللوحة، تخفت الإضاءة، وكأن الألوان قد غمرها مد فجزر، فامَّحت، معيدة لفضاء اللوحة بياضه، يزحف سواد على ذلك البياض، فيحيله رماديًّا، باستثناء بقعة مستديرة، ارتسم بداخلها كرسي خشبي من كراسي المقاهي، وقد أجلس فوقه رجل، يسود هدوء على حين غرة، فأنتبه لعم (عبد الفتاح)، وقد انفصل عن المشهد، وأسقط من مقلتيه (نرجس) و(عواد)، وعراكنا معه، منحيًا نحيب (نعيمة) خارج الإطار، مدندنًا بلسان أثقلته الخيانات أكثر مما فعل المرض، تؤتي رأسه بهزات وتمايلات، وتنقر أصابعه على ساقه بإيقاع متلائم مع دندنته:

يا قلبي على مالوش حـــد	طول عمره يقاسي الوجـــد
وتجـــرى دمعتـه ع الخـد	مسـكين حــاله بـالمـــرة
يا خـوفي والهـــوى نظـرة	تيـجي وتـــروح بـالمـــرة
حـبيـبـي فـرقتـك مـِــرة	حـــرام تـنـسـوني بـالمرة

تبتلع خطواتنا طرق عدة في عودتنا إلى حيث لا ندري، أرقب قيعان الطرق، فتبدو عليها آثار ابتلاع ملايين الخطوات، وتظهر عليها بقاع ندية لا تجف، هي قطرات، هربت من مخادع أعين سبقتنا بالمرور من ذات الطرق، الليل يطعم نجومه الغافيات على إيقاعات النايات، أمطار تبدو في الأفق المظلم وقد أثقلت كواهل الغيم، تتثاقل ولا تسقط، تدور برأسي خواطر أبسطها كئيب، يتكون وجهه أمامي في كل ركن، وفوق كل لافتة إعلانية، وأستدعي عبارات شهيرة له، فأود لو أعود أدراجي لأقضي على (نرجس) وقوداها (عواد)، يشرع عقلي النشط في الترتيب لجريمة مكتملة الأركان، قلبي يغريني بالثأر، يظهر (نوح أفندي) بغتة، فتتبخر الخطة المحكمة، ولا أتذكرها، تتكاثف السحب رغم الإظلام القابع على صدر السماء، وقد انسحبت الشمس، فهيأت له المناخ ليجثم على صدورنا، ثقيلًا، محملًا بهموم المفجوعين، وشكاوى العاشقين، ينسكب سواده في لوحة السماء، ليتسرب إلى لوحتي، فيتبعثر المنطق، وتتناثر أوصال الأمل، فأود الارتماء على صدر (نادية عيسى) والبكاء كرضيع اختلطت لديه غرائز الجوع بتداعيات الحُمى، أتوقف حيثٍ أميز هاتفًا أسود ضخمًا يتناسقِ مع ركبنا الجنائزي، يأتيني صوتها ناعسًا، أنهي المكالمة بعد أن أزحت جزءا من همومي عن صدري، تتقوقع صورته الأخيرة في عيني، فلا تغادرهما رغم مرير توسلاتي وتكرارها، فأستسلم وقتيّا حتى يأتيني المدد...

وتقول نعيمة بحروف تشكلت من قطرات دمعها:

- مسكين عم (عبد الفتاح)...

ويقول (صلاح) متناسيًا وجود (نعيمة) المُتيمة به سائرة إلى جواره:

- لعن الله النساء وكيدهن، مخلوقات نرجسية لا تقدس سوى ذاتها...

أعلم أنه يود أن يسب (يولا)، ولكنه يختار أن يستبدلها بالتعميم كعهده دائمًا... نصل في موكبنا المترنح إلى حافة النيل، يلح بائع بطاطا على (صلاح) بالشراء، فينهره، ينفطر قلب (نعيمة) الرقيق، فتهرع خلف البائع لتعود حاملة لفافة من البطاطا المشوية، التي تأسر رائحتها الألباب، تعرض عليّ

مشاركتها فأعتذر، فتتقاسمها مع (صلاح)، فيأكل دون أن يبدو عليه ثمة استيعاب بما يأتي به من فعل أو ردة فعل، تتنقل مجسمات المأساة في مخيلتي، بين عم (عبد الفتاح) و(نعيمة)، تلك الفتاة العاشقة، المنهمكة في تهدئة (صلاح) والتربيت على كتفه، مغلفة جسده بأحاسيس هي خليط من تعاطف الحبيبة، وقلق الأم، ولا يعكس هو إلا شرود تظنه هي حزن، وأعلم أنا وجهته.

حين أحاطتني (نادية) بذراعيها الحانيتين، تباعدت السحب المتكتلة، وبدأت نجوم متفرقة تظهر في الأفق في غير مواضعها، تهب نسائم شاردة في غير موعدها، فتطيّر شعر (نادية) ليغمر وجهي، أغمض عيني وقد تناثرت خصلاتها في ليل المدينة الحزينة، وأترك يدي في يدها، آمنًا بقيادتها، تحيطني، فيهرول العجز الذي أوشك على سحقي، مختبئًا بجوانب الطرقات، ألمح (صلاح) وقد أحاط كتف (نعيمة) بيمينه، فأغتبط، تظل صورة عم (عبد الفتاح)، متراقصة، باقية، ولكن وجود (نادية) يوحي لعقلي الباطن بإظهار بعض من الرأفة، فتجيئني صورته، في أوقات، بدا فيها أفضل حالًا من اليوم...

موجات الذاكرة تعود بمدها من جديد، فتغمر اللوحة المكتملة على حائط غرفتي الفندقية، يلحق مدها جزر، ينثر رايات البياض في أرجائها من جديد، ويتربع الفراغ على عروش الخلاء، تتسلل ظلال على الحائط، فتضيف رسومًا أخرى، غابت عن النقوش الأولى...

تمر الأيام سريعًا، فترحل أمي، وتترك في نفسي فراغًا متناميًا، وتجويفًا عاطفيًا آخذًا في الاتساع، أحاول أن أرمم التجويف بهذا أو ذاك فأفشل، وقبل مرور أسابيع، جاءني خبر وفاة عم (عبد الفتاح)، حين تداخلت أمراضه بحلقات مفرغة من الاكتئاب، الذي كان يتملك منه فور أن يستعيد جزءًا من ذاكرته لدقائق، فأضحيت مدركًا لنعمة فقدان الذاكرة، وتأكدت أن الخالق لا يبتلي امرأً بعلة دون حكمة.

عاود حلم المقصلة زيارتي في نوبات نومي المتقطع، وقد أضيف إليه ظهور لقاضٍ يعتلي رأسه غطاء أبيض ينسدل من أسفله شعر أبيض طويل مستَعار، يتشح بوشاح أسود، وقد التف على خصره حزام أحمر اللون. وقف القاضي أسفل المقصلة مطالعًا وجهي بتشفٍّ جلي المعالم، ثم صرخ في قوم بزغوا من حوله حين خاطبهم:

- ذلكم مصير المهرطقين، وها هو ذا، من حمل إرث الهرطقة عن أبيه، ينال ذات المصير.

اعتدت مرافقة الكوابيس، أصبحت نادرًا ما أميز شروق الشمس عن غروبها، السماء رمادية على طول الخط، وعيناي تغشيان لمرأي الضوء فأمستا تجافيان منابع النور، يكاد (صلاح زكي) أن يحملني هبوطًا من غرفتي لحضور جنازة عم (عبد الفتاح)، أتكئ عليه، ينقلني في سيارة أجرة إلى حيث يُشيّع الرجل الطيب لمثواه وملجأه الآمن، واثقًا بأن صحبة القبر ستهون عليه ويلات مصاحبة البشر. النعش موضوع على أرضية الطريق، فقط أخت عم (عبد الفتاح)، و(نجوى سالم)، وصديقان من أصدقائه القدامى لم أميزهما، استلقى عم (عبد الفتاح) في نعشه يواصل إطلاق النكات عن المصابين بالحول، وينادي من يحمل نعشه حتى يكرم ميتًا كما لم يكرم حيّا، كانت الدولة قد صادرت البيت الذي ذاق في دوره الأرضي مرارات وإحباطات أنعم الله عليه بأن رحل وقد نسي أغلبها، أسمعه ينادينا:

- يا (إبراهيم) يا ابن الأصول، يا (صلاح)، أسرعا الخطى فإني لا أجد من يحملني إلى حيث المستراح من بعد مطاردة الفناء...

حين سكن الصندوق سيارة الموتى أخيرًا، توقفت السيارة بعد بدء حراكها، لتحملني أنا و(صلاح)، نرافقه، فيكتمل بنا نصاب حاملي النعش، بوجود أربعة رجال، يحمل كل منهم على كاهله وزرًا تجاه الجثمان المسجى بيننا، ذنبًا صاغته حروف من إهمال ونكران، لا أعفي من مسئوليتها أحدًا، واضعًا نفسي بناصية الصفوف.

حين كنت أقص لـ(أبو شنب) رحمة الله عليه، مدى تحضر عم (عبد الفتاح) وإتقانه للفرنسية كان لا يصدق ما أقول، وكان يضرب رأسه داهشًا حين كنت أخبره أن عم (عبد الفتاح) ولد ابنًا لتاجر ذهب، وكان كما يقال بين العوام "ابن ذوات"، وذلك مرجعه تناقض شخصيته الحقيقية عن شخصيات اعتاد إتقانها أمام الكاميرات، فتمت قولبته في إطارها في أغلب أعماله...

رحم الله عم (عبد الفتاح)، الذي بقيت إلى اليوم، كلما عرض له عمل على شاشات التليفزيون، ضحك المصريون حتى دمعت أعينهم، ودمعت عيناي دون ضحك، فـ(عبد الفتاح القصري)[٧٢] المضحك الذي يعرفونه، يختلف عن عم (عبد الفتاح) الباكي الذي عرفت.

فكان كلما أطلق أحد "الإفيهات" الكوميدية المميزة له، في فيلم من أفلامه، رنت في أذني دندنته الحزينة، المتناغمة ككمان حزين، في تلك الليلة:

أنا عمــلت إيه فيـكم   تشاكونى واشاكيكم

أنا اللي العمر اداديكم   حرام تنسوني بالمرة

تتآكل ألوان اللوحة من جديد، ويظل صوته يشجي في فضاء الغرفة، أتعجب، وأتساءل عن الجدوى من وجود إطار لوحة فارغ، في واحدة من غرف فندق بمِثل هذه الفخامة، أتصل بالاستقبال، أصم آذان محدثي بصياحي، طالبا منهم رفع الإطار الفارغ من فوق الحائط، مفرغًا فيه شحنة قبعت بوجداني طيلة سنين لا أعلم عددها، يسود الصمت لبرهة، عم (عبد الفتاح) ما زال يدندن، ثمة طرقات آلية على باب الغرفة، أفتح فيدلف أحد موظفي خدمة الغرف، يسألني بأدب عن شكواي، فأشير إلى الحائط، لأجده فارغًا، لا أطر عليه، ولا لوحات، فقط ساعة حائط، أطالع الحائط الآخر، فلا أجد فوقه، سوى لوحة رديئة لشراع يشق عباب نهر منفرة ألوانه، أجلس، يختفي صوت عم (عبد الفتاح)، أفتقد دندنته،

وأتوحش جلساته، يسألني موظف الاستقبال، إن كنت أريد شريط فيديو آخر، فأنتبه لأسأله، إن كان يقصدني بحديثه، فيجيب:

- سيادتكم طلبتم مشاهدة فيلم قديم، وقد أتيناك بشريط الفيديو هذا مساء البارحة، وكنت أسأل إن كنت تريد شريطًا آخر.

يطوقني بأدبه الجم، إذ يتغاضى عن زيف شكواي حول الإطار المفقود، ويشير في حديثه إلى جهاز الفيديو، حيث يطل من تجويفه شريط فيديو، مطبوع على ناصيته: "سكر هانم"[٧٣]

أتبسّم، أنتبه لموظف آخر وقد دلف إلى الغرفة بعد طرقات لم أنتبه لها، جارّاً المنضدة المخصصة للإفطار، أتناول حقيبتي الصغيرة، وأجرع مع رشفة من الماء قرص علاج السكر...

ولمرض السكري المبكر، الذي أصابني قبل بلوغ الأربعين، حديث آخر، إن لم تضيق الذاكرة بالأحداث المتراكمة.

آدم وحواء، وإعادة الخلق

تعلو الأمواج الوليدة، فينجح بعض منها أن يعلو على سور الكورنيش، قطرات منها تتناثر للأعلى، محاولة ملامسة السماء التي تظللها بحنو دائم، يرتسم المشهد في مخيلتي كطفل يحبو، ليستند على الحائط، ثم يشرع في محاولات حالمة بالقفز للأعلى، محاولا تقبيل أمه، فلا يستطيع، يحاول أن يطير، فترده ابتسامتها الرءوم لحدود الواقع، فينسحب جزرا، وينحسر مده الفتي، بهدوء يوحي بتنامي نيته بتكرار المحاولة عما قريب...

الأطفال يتقافزون في مخيلتي، فاليوم، يأتيني من رحم "دنيا" رسالة إلهية هي الثانية، كانت رسالته الأولى منذ عام وبضع العام، وكانت مشيئته أن تجيء أولى صرخات ولدي في هذا العالم، وأنا قابع في ذات البقعة، على كورنيش عروس البحر، حيث تنتصب على ميمنتي بمسافة قريبة، قلعة "قايتباي"[١١٩]، شامخة كعادتها.

أنا أعلم أنني جئت اليوم إلى هنا تيمنًا بالمكان كعادتي، فأنا بطبيعتي، أرتبط بالأمكنة، حتى وإن فارقت بين اللقاءات عصور وعصور، فبالارتباط بالمكان تذوب الأزمنة وتمسي حدودها متآكلة يسهل تمزيقها... هنا علمت بمجيء (آدم)، ومن هذا السنترال في نهاية الشارع المقابل لمجلسي هذا، بجوار محطة الترام، أجريت المكالمة، وجاءني صوت (نوح أفندي) متراقصًا، يافعًا متهدجًا:

- صبي يا (إبراهيم)، ولد يحمي لقب الجدود من الاندثار، يشبه أخاك (إسماعيل) كثيرا، متى تعود؟

قال يومئذ، فأجبت: الليلة بمشيئة الله...

وأخفيت عليه ما لم يوائم الظرف فحجبته.

منذ أن حَلَّت (أم خليل) بمنزلنا، واتخذت من غرفة (أبو شنب) مَسكنًا لها، وأنا أجافيها، فألومها بصيغة غير مباشرة عن موته، لم يكن ذلك مما

قد يقبله العقل، ولكنني أعتقده شعوراً بشريّا عاطفيّا، ينتاب البعض نتيجة التعلق بمن رحل، فيشرعون في تقديس مواضعه ومقتنياته وحاجياته، لتصبح من المقدسات ويمسي كل من تداخل ظله مع ظلال المقدسات آثما خطيّا.

حينما رست بشاطئ البندارية، ومنذ أن رافقها (عبود) في اللقاء الأول، حيث التقت (دنيا) أولا ثم لقيها (نوح أفندي) ليبارك قدومها ويقبلها في منزله، وأنا أتعجب، فالمرأة التي لا تحمل شهادة ميلاد، ولم تحصل طيلة عمرها على ما يثبت هويتها، تناهز الثمانين من عمرها، فقراتها آخذة في الانحناء، وما بقي من خصلاتها المتهدلة خارج غطاء رأس غير محكم، قليل وناصع بياضه كالثلج، فكان مرآها يثير في نفسي الشفقة والسخرية، إذ تناسيت أن (أبو شنب) في أعوامه الأخيرة كان مخدوماً ولم يكن خادماً.

بوفاته، ورحيل أمي، ثم رحيل أم (دنيا) في ذات العام المشئوم، جُعل الحمل ثقيلًا على (دنيا)، التي انخرطت منذ زواجنا في طقوس الحمل والوضع، وبرغم وجود (مريم) لفترات متقطعة، ثم استقرارها أخيراً معنا في (شبرا)، إلا أن (دنيا) كانت قد ارتأت أن المنزل بحاجة لخدم، وافقها (نوح أفندي) وامتنع كل من (إسماعيل) و(مريم) عن إبداء الرأي، إلا أن ما ضايقني، كان أن (دنيا) قد بدأت السعي لإيجاد بديل لـ(أبو شنب)، ولم يكن قد مر على وفاته سوى ثمانية وأربعين ساعة...

لي في الإسكندرية ذكريات عدة، أقربها لي -آنذاك- هو ما خطت للتو يداي، وحكاية ذلك اليوم، يوم ميلاد (آدم)، وتَجَسّد أول حروف الوحي الحالم أمام عيني، رضيعاً بهيّا، حكاية عن التمني، انتظار تحققه، وتحقيقه، ما بين الموت والميلاد.

- لم أشأ أن نبرح البيت اليوم، فالست (دنيا) قد أوشكت على الوضع، كما أن في إصرارها على تجهيز حاجيات "السبوع" قبل الميلاد، أمر لا يبعث على التفاؤل.

قالت ذلك (أم خليل)، خلال ساعات التأهب لاستقبال مولودنا الأول، (آدم)، فجاءت كلماتها مجافية للتنميق والتجميل كعادتها، كانت كلماتها دائمًا ما تجيء بفطرية، يشفع لها سنها ما قد تحمله من تبكيت وتثريب، كانت عفوية خفيفة الظل، فجعلتها تلقائيتها طيلة الوقت، بمنأى عن النقد، وإن تجاوزت... كانت هي مرافقتي، لشراء احتياجات "السِبوع"، وكنت أنا قد استعدت قسمًا هائلًا من فضيلة الرضا، كانت قد انتزعته مني إخفاقات وإحباطات قريبة، وكانت النشوة والترقب، سمتين غالبتين علىِ روحي طيلة أيام قصيرات سبقت مشهدنا هذا، اصطحبت (أم خليل) بناءً على طلب (دنيا) ثقة منها، أنني -حتمًا- لن أجيد فنون ومراوغات الشراء إذا ما تُركت وحيدًا. حال توقفها أمام سيارتي بصدد ولوجها، تَوَقَفَت وارتسمت على محياها أسئلة حيارى، سَألتْ، فاستفاضت في ردها:

- يا (إبراهيم أفندي)، إن جلست بجوارك لكانت تلك والله معيبة لا تبرر، فكيف أجلس الى جوارك حيث يجلس (نوح أفندي) والست (دنيا)!؟ أما إن علمتني كيف إزيح هذا الكرسي، لألقي بعظامي الهرمة خلفك، لبدا الأمر وكأنني صاحبة السيارة، و...

ثم نظرت صوبي مليّا وأردفت:

- وبدا وكأنك أنت السائق يا (إبراهيم أفندي)، لا تؤاخذني.

ضحكت لكلماتها، ثم أجبتها:

- بل تجلسين إلى جواري يا (أم خليل)، ولن يغضب أحد لذلك.

تتردد ثم توافقني، وتستقر عن يميني داخل الفولكس الأنيقة، التي اعتادت أن تبيت ليلتها في جراج في خمارويه، يبعد عن البيت مسافة عشر دقائق من الترجل...

كانت هذه السيارة مما مَنَّ عليّ به (نوح أفندي) بعد زفافي، محاولا أن ينبت بضع ثمرات خضراء على جانبي طريقي القاحلة، ليبث الطمأنينة في خطواتي الحذرة، فأستقر، ويستقر زواجي كما يأمل، وكما أملت أمي.

وقالت (أم خليل) في خضم بوحها في ذلك اليوم المشهود:

- للقب (أم خليل) حكاية، فمن يعرفونني، يعلمون أن لي ابنتين هما (فاطمة) و(سعاد)، وهما سبب تعاستي، ومصدر شقائي، فإن هربت إحداهما متعلقة بخيوط الحب الواهنة، أخذت أجوب الكون بحثًا عنها، فإن وجدتها، وأعدتها لعشي الفقير الخشن، هربت الأخرى...
ظلتا على هذا المنوال، حتى زوجتهما في ذات الليلة من شابين مكافحين، الأول أسطى نقاش، والثاني تومرجي، فاستقرت أحوالهما، وأنجبتا مجتمعتين دستة من الأحفاد، تزوجت كبراهم منذ عام، ووضعت صبيًا منذ شهرين، ليقدر الله لي أن أرى أحفادًا لبناتي...

المرأة تقول، دون أن تُسأل، وتتنقل بين الخبريات، فتضل دفتها السبيل نحو تكملة الخبرية الأولى، إذ تقاطعها بقص حكايات أخرى متوازية أو متقاطعة، أذكرها بقصة تسميتها بـ(أم خليل)، وهي التي لم تنجب سوى بنتين كما أفضت للتو...

- كان لي (خليل) بالفعل...

تضيف فأنصت، وقد قطعنا من طريقنا منتصفه، لأترك لها زمام السرد:

- تاه في المولد، حين كان ابن خمسة أعوام، ذهب ليلعب مع أقرانه، حين حطت قافلة الغجر على مقربة من (كفر سعادات)، تلك بلدتنا، كان ذلك في الزمن الطيب، أو حين حانت نهايته، ليحل محله هذا الزمن الحرام، عاد الصبية ولم يعد بينهم (خليل)، قيل لي إنني قلبت بلدتنا الريفية رأسًا على عقب، وتجمع رجالات قريتنا، فأحاطوا بالغجر قبل ارتحالهم، وفتشوا خيامهم ومتاعهم، فلم يجدوا لخليلي أثرًا، قيل إنني أخذت أجوب شوارع الكفور والنجوع والقرى المجاورة، منادية باسمه، فلم يلبِ نداء أمه، ولعله لم يسمع، ولكنه حي...

تقول باسمة الثغر، بما لا يتسق مع حكايتها، وحملها المضني، بدت لي منذ طالعتها لأول مرة، وكأنها لا تنتمي إلى عالم الخدم والحشم، تبدو كمن اعتادت أن تكون سيدة أمرها، عيناها الغائمتان أغلب الظن أنهما

كانتا تشعان اخضرارا في ليالي صباها، لأسنانها الأمامية زوايا منفرجة بفعل السن، لها شامة في ملتقى العنق والترقوة، يخفيها شالها وغطاء رأسها معظم الوقت. شردت لأسترجع حديثها فاستوقفني أنها تتحدث عما كان بعد اختفاء صبيها، بضمير الغائب، أي أنها تحكيه، وكأنه قُص عليها، ولم تحضره، سألتها فغاصت عيناها في محجريهما، وبرزت تشققات وجهها، والتقت بنهاياتها مع تجاعيد الزمن الحرام كما أسمته، وبدت تلك التشققات وكأنها طرق طويلة تمر بين الأزمنة، وتحكي حكايتها. تقول:

- كان ما كان، وقضى الأطباء الذين أحضرني إليهم شقيق زوجي في القاهرة، أن حالتي نادرة، وهي أنني لا أتذكر أي شيء يخصه!

بدا على قسماتي ارتباك، لاحَظَته، فأوضحت:

- قال طبيب منهِم، كان لديه الوقت ليشرح باستفاضة على عكس زملائه، أن جزءا من مخي قد أتلفته الصدمة، لم أكن أشعر بالصداع يا بنِي، كما لم أسقط على دماغي حتى يتلف منه جزء، ولكنه قال إن جزءا من ذاكرتي قد انمحى، وهو الجزء الخاص بـ(خليل).

تعجبت، وتألمت لحكايتها، إذ كانت هذه أولى حكاية بوح تجمعني بها، وددت لو أغير دفة الحديث، تقاوم ذلك قبل أن أهم به، فتقاطعني:

- لكنني تذكرت بعد ذلك، تذكرت أشياء لم أحضرها، وظل استدعاء ما اختزنته عيناي عصيّا، رأيته واقفًا على شاطئ، والأمواج من خلفه تتماوج في ميوعة، ورأيت إلى جواره غجرية، شعرها أحمر متناثر، لها حلق ضخم مثبت في أنفها، ورسومات حنة، أو وشوم احتلت كامل ذراعيها، ينظر (خليل) صوبي فأدركه دامعًا، ويشير إلى صدره، ويبدو عليه الألم، وتظل الغجرية محدقة فيّ دون أدنى تغيير في ملامحها...

تقول فتضغط بكفها منتصف صدرها، ويبدو على وجهها ألم، تضيف بصوت واهن:

- جف الحليب في صدري.

أتوقف، وأسألها إن كانت بخير! تهمس:

- لم أرى فى حياتي مسطح ماء أكبر من ترعة بلدتنا، أريد أن أرى بحراَ كذلك الذي أرى بجواره (خليل)، أريد أن أحل بشاطئ رماله صفراء جافة، ليست كضفاف ترعتنا الطينية، هل تأخذني إلى هناك؟

قالت وقد تجمعت بمنتصف جبهتها بشائر عرق، تزيد من إطباق كفها على ضلوعها البارزة فيما بين صدريها الذابلين، يبدو ألمها حقيقيًا فأتوقف، أقارب وجهي منها:

- ما الأمر يا (أم خليل)؟ هل تصفين لي ألم خليل في رؤياكِ له، أم أنك تتألمين بالفعل...؟
- برزت ضلوعي وما بقي من جسدي سوى كومة عظام، فإن ضممتك إلى صدري يا (خليل)، تألمت أكثر مما أمنت ..

أجزع، فتكرر:

- جف الحليب في صدري، فمن أين لك بقوت البقاء!؟

أشارت بيدها أنها بخير، ثم اعتدلت من بعد انزلاق جزئي على كرسيها، أخذت تتفحص أركان السيارة ببطء وكأنها تستعيد الوعي تدريجيا، قالت:

- لا تقلق، هذه أعراض تصيبني منذ ستين عامًا، كلما أجهدت عقلي بمحاولة تذكر ملامحه، هل تفوهت بما لا يليق!؟

أهز رأسي أن لا، وأتنفس الصعداء، حين أتوقف أمام وجهتنا، حيث تجار مستلزمات السبوع، وأدوات الزينة.

الأمواج ما زالت تحاول الشب عن طوقها، قاصدة ملامسة وجنتي السماء، وأنا من مجلسي، أتابع ذات البقعة الندية من رمال الشاطئ، تتناثر بضع قطرات حولها، فرسمت ما يشبه الجسد الراقد في أعماقها، جسد مطمئن قرير السريرة، فخور-وقد حرمته الدنيا من خياراته المتنوعة- أن اختار مرقده...

الشوارع المنحوتة في وجهها تئن تحت وطأة الزمن، وما بقي من أسنانها، يعلو ويهبط إذ تتواصل حكايا السرد وتنهمر إجابات لاستفسارات لم تسأل .

كان الطقس ربيعيًا في عينيَ رغم كآبة الخريف، حتى كاد ضجري أن يتملكني، فأعاد لناظريّ بعضًا من طقوس الخريف الماكر، وأخذ يعتصرني كأذرع أخطبوط، أكاد أن أزجرها لتتوقف عن الثرثرة، ولكن رحمتي لا تلين رغم إلحاح الملل، فأربِت على عظام كتفها البارزة، حين تعود لسيرة (خليل)، أتجاذب معها خيوط الحديث. شيء ما في حديث هذه المرأة يستهويني، وإن كنت غير قادر على تحديده:

- وأين أبو (خليل) من هذا كله!؟

تشهق تهكمًا، وتنشب مخالبها في أنسجة ذكراه:

- لم يكن كما تظن، كان مزارعًا، يقضي نهاره وعصره في أرضه، حتى إذا ما غابت الشمس، عاد إلى فراشه قاصدًا إشباع جياعه، بطنًا وجسدًا، كانت له أحلام تفوق مقدرته، فود أن يمد رقعة أرضه حتى تلامس الترعة البحرية في قريتنا، وكان ذلك ليكون أكبر من أرض العمدة، انكمشت أيامه واحتلها التكرار، حتى أمست كيوم واحد، يعاد بذات الترتيب، يفلح أرضه فور أن يعلو صوت المؤذن علِى صياح الديك، مناديًا كلاهما لصلاة الفجر، يحصد زرعه فيبيعه ظهرا، يعقد جلسات التفاوض والشراء قبل مغيب الشمس، فإن غابت، جاءني ليروي ظمأ الجسد التعب. لم يسمح لهِ عمدة (كفر سعادات) بما أراد، فأخذ يزايدِ عليه في تثمين الطين، ويضيِق السبل على من يشتري محاصيله، لم يقوَ على المقاومة، عمل بالصيد لفترة قصيرة، أراد أن يستغيث بالنيل من ظلم العمدة، وخشي خوض المعركة، فهرب...

حكايتها أشبه بأفلام مصرية كلاسيكية، بدا لي وكأن قادم الكلمات من فصول البوح المتواصل، ستحوي مصير أسرة، فقدت عائلها الوحيد بصورة أو بأخرى، لتتلطمها موجات الحياة في خضم القسوة والهوان، نموذج

مُحوّر، من رائعة عم (نجيب) التي خلدتها كاميرا (صلاح أبو سيف)[٧٤] على الشاشة منذ بضعة أعوام، أتساءل عن مصير زوجها بعد فراره من مجابهة المصائر. قالت: مات!

تقول باستهتار وكأنها تقذف حجراَ في مياه بركة آسنة، أعيد كلمتها بصيغة تساؤل، فتشرد وقد تراقصت على شفتيها ابتسامة رضا، عكست حكمة وحنكة العالم ببواطن الأمور، قبل أن تقول:

- الموت هروب يا (إبراهيم أفندي)! لا يموت إلا من يستدعي الموت، يستدعيه العقل الواعي، أو تناديه الروح الكامنة، هو الموت، تلك الكلمة المقبضة والمصير المحتوم، ما هيٍ إلا تلبية لنداءات إسدال الستار، انظر لي، عمري اثنان وثمانون عاماً، بناتي قد شغلن عن زيارتي، فلم أرَ الكبرى منذ قرابة العام، والصغرى منذ ما زاد عن ستة أشهر، أنجبت حفيدتي، وألححت على أمها أن تأتي لتأخذني لزيارتها، ولا حياة لمن تنادي، إلا أنني ما زلت أعمل لأجد قوت يومي، لماذا؟ لأنني ما زلت أسعى خلف أملي المتضائل بلقاء (خليل)، لم أقرر المغادرة بعد، أرى بنهاية النفق ضوءا خافتًا، لن أرحل دون ملامسته...

أعلم أنني ألبس كلماتها العامية، ثوبًا أدبيًا في تدويني هذا، ذلكم أن فصاحتها أذهلتني، فكانت حكمتها تهدر مدوية كالرعد، واعظة حقيقية دون أن تدري، ونموذج فريد من المصريين، هذه الفرعونية الأقرب في مظهرها للمومياوات، لا تؤمن بالموت الذي نعرفه! بل هي لا تهابه، إذ تراه خيارًا نجنح إليه، لا إكراه فيه ولا حتمية لحدوثه! لذا وجب صياغة أطروحتها بما يليق بها من الكَلَم...

تعاودها تشنجات (خليل)، لتقاطع ندمي أن غمرني ضجر منذ دقائق، تتشبث عيني بالطريق الساكن، وحركات البشر المتماوجة حولنا، وتتعلق أذني بكلماتها الأخيرة، فأبحث بين الوجوه عن (خليل) الذي لا أعرفه، أختلس نظرات مكثفة تجاهها في مرآة السيارة، أسألها إن كانت قادرة على مصاحبتي، منبهًا إياها أننا وصلنا مبتغانا منذ قرابة ربع الساعة، تومئ برأسها موافقة، فنمضي لنستهل تسوقًا أثق بأنه مُضنٍ.

على شاطئ الأنفوشي، ما زلت جالسًا، أطارد أمنية، هي تاج من زبد موجة وليدة، مختلف لونها عن باقي الموجات، ظهرت لوهلة واعتلت عروش المحيطات، ثم ما لبثت أن دارت فتوارت في أحشاء البحر. أطالع كل ما يعلو على الموجات من زبد، أتحسس رذاذها، فلا أجد أمنيتي الأولى، أغوص في أعماق البحر فتخذلني شمس اليقين وقد ظننتها غائصة في أحشائه فلم أجدها، يخيفني جوف البحر، فسرعان ما أهرب من كنفه المظلم... منتظرا، مستدعيا لأيام خلت، أدون ما يلبي نداءات الذاكرة...

حين أنبتت الدنيا من رحم (دنيا) صبيا، مد جذوري في الأرض، وزاد من التصاقي بكلتا الدنيتين، كنت هنا، وحيدًا، نهضت من بعد طول مطالعة، ومراقبة لذات البقعة الندية من شاطئ الأنفوشي، طلبت أرقام الهاتف متروياً، جاءني صوت (نوح أفندي) المحلق في فضاءات الفرح، وبعد تبادل بضع جمل وردود، سالت من عيني دموع...

- من أين تتحدث!؟ لم تجب سؤالي عن موعد عودتك...

قال فأجبته بأنني في الإسكندرية، دهش، وبعد صمت قصير سألني مقتضبًا عن (أم خليل)...

- وجدت (خليل) من بعد طول عناء...

أعاد الاستفسار توكيدًا، هَزُلت نبراته التي كانت للتو شابة، وأصابها التكرار فاعتلّت باللهاث، أعدت الإجابة بمختلف الصيغ...

- شاء الله أن تلقى ولدها، بعد ستين عاما من البحث، يوم أن أرزق أنا بأول أبنائي، كانت مصادفة خيالية يا (نوح أفندي)...

يفرح حذراً، أسمع صوت وليدي على مقربة منه، تتواثب دقات الفؤاد المشطور في صدري...

- أنا لا أبكي يا (نوح أفندي)، أصبت بالبرد على ما يبدو، تعلم أن أكثر ما يرهقني هو الزكام...

ينتهي حديثنا، بوعدي له بأن أهم على الفور بالارتحال عائدًا إلى القاهرة، أتذكر وعدي بعد مرور ساعات على ذلك، وأنتبه لأنه لم يسألني عن

العلاقة بين وجودي في الإسكندرية، وعثور (أم خليل) على صبيها ذي الخمسة والستين عامًا، أتذكرها فتحضرني وقد أحاطت بوجهها هالات من الرضا والحبور، صدى خطواتي المسرعة ينعكس من بين الأبنية الأنيقة، أتذكرها وهي تدق الأرض عنفوانًا بقدميها المعمرتين منذ سويعات، إبان شراء مستلزمات السبوع، الفجر الموشك على البزوغ كان قد استدعى المؤذن من مرقده، ليهم بإيقاظ المصلين، هل أسمي الصبي نوحًا تيمنًا بـ(نوح افندي)!؟ تساءلت، حين كانت قرقعة الصدى تنبعث من أرضية الشارع المبللة، حيثما تمر خطواتي...

"إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ"

يرتِّل الإمام في أولى ركعات في الفجر مِما تيسر لَه من سورة "آلَ عمران"، فتخشع أركان مسجد (محمد كُرَيِّم) في رأس التين، حيث اقتادتني خطواتي.

- ماذا أسميه إذن؟

تمتمت شاردًا، مستعرضًا أسماء أبي وأخي، يقاطعهم بين الفينة والأخرى اسم (خليل)، حتى برز اسم (آدم) من بين سطور "آل عمران"، المنسابة موسيقاها من حنجرة الشيخ، أخذت أقرن الأسماء باسمي ولقبي، مختبرا الموسيقى الناتجة عن امتزاجها...

"قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ"

تنساب آيات "البقَرَة" بسلَاسة أحكمها شدو الشيخ المرتل، في ثاني الركعات، أتعجب إذ لم يرتل أيّا من قصار السور في كلتا الركعتين، والمصلين نيام كسالى، أرى في ترتيله إشارة، تقضي بأن يكون اسمه (آدم)...

فكان (آدم)...

هو قطعة من روحي المرتحلة بغير متاع، وهو متاعي القابع إلى جواري، محتميًا بظلي من دون ارتحال، هو الهواء الذي يلج في جسدي شهيقًا متواصلًا يسكنني بلا زفير، هو (آدم)، الذي أعيد من خلاله قصة الحياة،

وأُدَرِّس له عبرة الخلق، أدثره بخلاصة الـمُقتنى من دروب العمر، فأقيه شرور (إبليس)، ليظل في الجنة التي أُوَصِّفُهَا له، أتلو عليه ترانيمها رضيعًا، فيدلني بين دروبها وأنا الكهل الملاحق للشكوك... تساءلت يوم ولادتك، هل تسعد بي كأب، كما سعدت أنا بك كصبي!؟ هل تغفر لي زلاتي، كما سأغفر لك حتمًا مختلف الهفوات ومتنوعها؟ هل ترأف بي حين ألتحف بالضعف وأتكئ على الوهن؟ هل تعيد معي صياغة جنات الخلد؟ هل تشاركني رحلات البحث عن اليقين، ثم التحقق من اليقين، حين يشتد بين الزروع عودك!؟ أعدك أن أحبك إن فعلت، وأعدك أن أحبك أكثر إن لم تفعل، فإني أجد ما سلكت من الدروب، وعِرًا عصيّا...

أستعيد هذا، وأجتر التفاصيل، متربعًا شاطئ الأنفوشي من جديد، حيث أجلس تارة، وأستلقي تارة أخرى، سابحًا بناظري في عنان السماء، منتظرًا ما تبعثه لي الدنيا مجددًا من رحم (دنيا)، البقعة الندية ما زالت ندية، رغم مرور عشرين شهرًا على لقائنا الأول، يوم مجيء (آدم). (أم خليل) تجول في مخيلتي دوريّا، الوقت هو باكر الصباح، والشمس تتململ في موضعها، متثائبة، تنشر خيوطها الذهبية في كسل وتؤدة، أود أن أجري المكالمة من ذات السنترال، ولكنه لا يزال مغلقًا، ولن أتمكن من الاطمئنان، حتى يفتح أبوابه بعد ساعتين من الآن، تمر الثواني كما السلحفاة الهرمة، يتعاطف معي سلطان النوم فيختطف من ساعات الانتظار معظمها، أفيق فأهرول صوب السنترال، البقعة ما زالت ندية لا تجف...

- بنت يا (إبراهيم)، عروس بحر فاتنة بحق...
- هي (حواء) إذن يا (نوح أفندي).

أقول بلا تفكير، فيسألني سؤالًا تأخر عامًا وبضع عام:

- هل من أخبار عن (أم خليل)؟

يكتمل عالمي الصغير بأن جاءت لـ(آدم) مؤنسته وخليلته، يظل لشاطئ الأنفوشي مكانته وقدسيته، وأواصل بحثي، أو يطاردني البحث فأتبعه... ولهذا أحاديث عدة، ترد حين ترد، إن لم أنسَ.

ذكريات كل اللى فات.. فاكرة يا بلدى؟
قلبي مليان بحكايات.. فاكرة يا بلدى؟
أول حب.. كان في بلدى...مش ممكن أنساه.. يا بلدى...
فين أيام زمان.. قبل الوداع...

الثالث من مايو

كانت اللوحة بديعة، زاهية الألوان، ولكنها بدت -لسبب أو لآخر- قاتمة المضمون، تبعث بطاقة إيجابية فور رؤيتها، ثم لا تلبث تلك الطاقة أن تنحسر وتتلاشى، مع الإمعان في تفاصيلها. وجه امرأة قوقازية، تعتريه ومضات من خوف باهت، لا يتسق مع هول موقفها، يتطاير شعرها البني خلفها كحرملة فارس ينطلق فوق صهوة جواده، ويظل تاج ذهبي رفيع متشبث بموقعه في مقدمة رأسها فلا يسقط، رداؤها البنفسجي، يكشف عن ملتقى نهديها المكتنزين، البارزين بفعل الجاذبية، تداعبهما قلادة من العاج وقد تدلت من جيدها.

المشهد من خلفها، لفارسين في كامل حلتهما، تتوسطهما امرأة ترتدي رداءً أرجوانيًا، يبرزون فوق أسوار القلعة، من حيث ألقيت المرأة ذات الرداء البنفسجي، التفاصيل في اللوحة وافية في إجابتها لكافة الاستفسارات، فالزمان يستدعي ميراث حقبة من حقب المماليك، والقلعة تبدو مشابهة لقلعة صلاح الدين في هيئتها، أسراب حمائم بيضاء وبنية اللون، تمر في السماء فوق الجناة فلا تأبه بما يجري بين معشر البشر، سحاب متقطع متشابك فوق الحمائم، تتسلل عبر ثغراته خطوط ذهبية لشمس الظهيرة، اللوحة تبدو ضخمة حين أمعن النظر فيها بغية سبر أغوارها، بيد أن حجمها يغدو اعتياديًا بمثل أحجام باقي اللوحات حين أتوقف عن مطاردة سيل التفاصيل، الذي برع (صلاح) في خلقه...

- تلك نهاية تخالف ما صاغه "باكثير"[٧٥] في فيلمه منذ بضع سنوات.

قلت باسمًا مشاكسًا إياه كعادتي...

- هل وجدت لها قلبَا!؟

كنت قد لاحظت بقعة دماء قانية أسفل صدرها، يبدو من عمق الجرح المسبب لها وكأن المرأة قد انتزعت قلبها، أو انتُزع منها عنوة، ولكن الدم المتجلط على أناملها القابضة على صولجان الحكم، يوحي بأنها الجانية لا محالة.

- خلعت قلبها وجعلته قربانًا لبلوغ العرش، فسقطت، ولم يجنبها صولجان الملك مغبات السقوط...

يردف (صلاح)، ثم يعاود مراقبة لهاثي النابع من متابعتي لسقوط المرأة، أهز رأسي موافقًا على تعليقه الأخير.

- سأسافر إلى الكويت بنهاية العام، ذلك يحل بعد قرابة الستين يومًا يا صديقي.

قال ما وددت لو لم أسمع، فتشاغلت عنه بسؤاله: ماذا أسميتها!؟

- "الثالث من مايو" على الأرجح، ذلك تاريخيًا هو يوم مقتلها، رأيت أن أخلد حكاية (شجرة الدر)[٧٦] في لوحة، تنطق بحقيقة ما كان، ولكنني أفكر في اسم آخر، يدل على تحرري من مطاردة وجه (يولا)، بعد عناء طال حتى ضاق ذرعًا بمصاحبتي، لست واثقًا...
- هل أخبرت (نعيمة المصري) عن سفرك المقرر عما هو قريب!؟
- أعجبتها اللوحة، وكانت سعادتها مضاعفة إذ خلت من وجه (يولا).
- أحب تسميتها "الثالث من مايو".

يضيق كلانا بمراوغات الآخر، فيزفر صلاح استسلامًا، ويقول بعد أن أشعل سيجارة هي الثانية منذ بداية حديثنا:

- أخبرتها بخصوص العرض، وحكيت لها عن الجريدة التي سيعهد لي بإدارة وتحرير رسومها الكاريكاتيرية، فتمنت لي التوفيق، ولم أرها منذ ذاك الحين...

لم أخبره أنني كنت أواسيها بالأمس في "الإكسليسيور"[٧٧]، كان رحيل (نادية عيسى)، فابتعادي شبه الدائم عن المجموعة، كافيَا لبث شعور

بالغربة في أوصالها من جديد، وجاءت أخبار استعداد (صلاح) للسفر، لتقضي على ما تبقى من انتصارها الزائف على الاغتراب...

- أشعر بالبرد.

قالت دامعة الأحرف والأعين، ربّتُّ على كتفها، فدست وجهها في كتفي وفاضت بالدمع حتى هدأت، هَمْهَمَت:

- أتوق للوصال، والعشق كما الجوع، حاجة تتوق للإشباع، غير أن الحب ألم مغلف بالشغف، أو شغف يغلفه الألم، وفي كلا الأمرين لذة مرة، العشق لا يكلف إشباعه سوى قبلة، لقاء، سعادة مجانية، تفضي إلى إشباع راقٍ، ذلك ما أظنه، أما هو، فلست واثقة من حكمه على أي شيء، فقط أحبه، كانت أولى قبلاتي بمرفأ شفتيه، وكان استكشافي لخبايا جسدي في محرابه هو، هو دون باقي الكهنة...

توقفت لوهلة، حين بدا لعيني المثقلتين باستدعاء مشهد (نعيمة) الحزين، أن اهتز جفني شجرة الدر فكانت وكأنها ترمش...

- يبدو اسم مثل (القفز إلى الحرية) كاسم مناسب أيضًا.

قال فانتبهت، بقيت أتابع اللوحة للحظات، حتى تيقنت أنها فقط لوحة! لا يمكن أن يتحرك قاطنوها، أعجبني الاسم الذي طرحه، شرد فاستدعيت بعضًا من أواخر اعترافاته:

- أحب نظرات الرغبة في عيونهن، وأعشق نداءات الوصال المحموم في رجفات الشفاه، لست قاسيًا، ولا أستلذ الإيذاء، ولكنني مع أولى القبلات، تظهر لي (يولا) في عيني مقبَلتي، وأحيانًا أنطق باسمها دون أن أدري...

كان (صلاح) قد ذاب غرامًا بـ(يولا)، فتاة إيطالية هجينة، على قدر كبير من الرقة والجمال، كانت تقطن شبرا مع عائلتها، وكانت تكبرنا سنًّا بعامين أو أكثر، لم يستسلم (صلاح) لواقع أنها كانت تحب شابًا آخر، إيطالي كانت تلقاه خلف الكنيسة في (شبرا)، رأيناهما مرارًا ولم يتوقف (صلاح) عن مناجاة الأمل، كنت أقول:

- تركت مصر منذ أن كنا في الثامنة عشرة يا (صلاح)..

فيجيب بذات العناد اللانهائي:

- لا يهم.

وحين وقف (صلاح) خجلًا حييّا أمام باب المنزل، طرق الباب في خفوت جعلني قلقًا ألا يسمع أهل الدار طرقاتنا، عاودت الطرق فزجرني، كنا نخشى أن يفتح الباب أي من أخويها، رغم علمنا باعتيادية عدم وجودهما في ذلك التوقيت المختار بعناية. فتحت (يولا)، بادرها:

- هل من جديد بشأن الوالد؟

تجيبه:

- يقول القس إن الأمر مسألة وقت ليس أكثر، الحرب، وكونه إيطاليّا في مصر، التي بطبيعة الحال تحت مظلة المملكة العظمى، أنت تعلم.

أمضينا طيلة الطريق صوب منزلها في مراجعة حوار افتراضي وضعه (صلاح)، نبراتها الحزينة بثت فينا ترددًا، لم يقوَ (صلاح) على الشروع في أي مما قد يُرى فيه استغلال للحظات انكسار، تعيشها الفتاة الرقيقة في ظل اعتقال أبيها، جاءت كلماتها خافتة بقدر ما كان طرقه على بابها، عرض عليها مالًا ترده حين يفك أسر الأب، فرفضت للمرة الرابعة قبول عرضه، وشكرته بصرامة لا تخلو من الامتنان...

عاود (صلاح) محاولاته -الصادقة- في مساعدتها، رغم علمه أن قلبها بحوزة آخر، ورغم قلة حيلته.

حين توفي أبوها بعد خروجه من السجن بشهور، عملت سكرتيرة في إحدى شركات الأدوية، بوساطة من (نوح أفندي) إثر إلحاح مني سبقه إلحاح أشد من (صلاح)، استلزم الأمر انخراطها في دروس لتعلم الآلة الكاتبة، حتى تمكنت من الأمر وأتقنته فالتحقت بعملها، لم تدرك (يولا) أن (صلاح) كان خلف هذه الوظيفة، وأدار (نوح أفندي) الأمر مع (أبونا يوحنا) بحيث بدا الأمر وكأنه معاونة من الكنيسة بعد وفاة أبيها، كي لا تجد نفسها في موقف حرج أمام (صلاح)، وكي لا تزيد همومها ثقلًا،

باستشعار مجاملة، قد تجد نفسها جانحة صوب ردها، بتقديم شيء ما في مقابلها، وهو أمر لم يكن ليقبله (صلاح).

هكذا كان صلاح في عشقه لـ(يولا)، هو يعطي ولا ينتظر، غاية أمله، أن يقبل عليه الليل وهو عالم أن (يولا) بمأمن من أية شرور وهموم، لم يعطها الفرص الكافية كي تلحظ كم كان يعشقها، لم يخبرها عن استدعائه لها في أحلام يقظته كي تكون بجواره، لم يشأ أن يزعجها حتى بقص بعض من تفاصيل حلمه عليها، فقط أراد أن يتيقن أنها بخير، وكم كان بعشقه لها يتعذب، يعاني قلبه فيتبسم، تتزايد أنات القلب المتألم فيسترضيه إذ يمسك فرشاته، ويستحضرها في ألوانه.

وفوق لوحاته، باحت (يولا) بكل ما أراد (صلاح) سماعه، وشكرت له مسعاه في بث رذاذ الطمأنينة في صباحها المهموم، قالت إنها أحبته، وندمت أن غادرت مصر، تلت عليه خليطًا من قصائد الشوق وهمهمات العشق العاجز، عانقته فرحةً، وارتمت على صدره خائفة مرتعشة، بثت في ليل شتائه الدفء، فقط، حيث اعتاد وجهها أن يظهر بمختلف انطباعاته فوق لوحات (صلاح).

- و(نعيمة)؟

قلت مباغتًا، فقال:

- انظر!

كنت أعلم أنه يغير دفة الحديث، بيد أنني التفتُّ إلى حيث وجهتني سبابته الممدودة بعرض الغرفة، لأطالع لوحة غير مكتملة، برزت فيها ملامح لرجل، وصفتها له في عدة مواضع، كلما رأيته في حلمي يتهمني بالهرطقة، وينفذ حكمًا بإعدامي، وقد ثبتني سدنته في قاع المقصلة، قلت:

- هذه أقرب المحاولات إلى الآن، فقط ينقصه المزيد من أمارات التشفي والكراهية، بيد أن ما يحمله قلب الرجل ووجهه، من هاتين الصفتين، قد يظل عصيا على الرسم لندرته، الحزام كان قانيًا في حمرته، ولم يكن

اعتيادي الحمرة كهذا، اقتربنا كثيراَ يا صديقي، لوحة أخرى لا تحمل فوق متونها وجه فاتنتك الأثيرة...

اختتمت جملتي باسمًا، مربتًا على كتفه، قبل أن أردف معيدًا الحوار إلى مداره الأول: و(نعيمة)؟

زفر ضجراَ، ثم أجاب:

- (نعيمة) هي الخلاف الوحيد، فقد ظلت في شتى الأوقات ومختلف الأمزجة: (نعيمة)، هي فقط، دون أي اختراق معتاد لوجه (يولا) في أطر اللوحات، المرسومة منها أو الحية، فقط خوف (نعيمة) من ذكريات (يولا)، هو ما يبعدني عنها، ويقوض من أملي في تجاوز الماضي، آمال الثقة واليقين على المضي قدمًا، كلما اقتربا من معانقتي، استوقفهما سؤال من (نعيمة) عن (يولا)، وعن تصرفاتها في موقف مشابه، ابتساماتها وضحكاتها، التي تعلم أنني راقبتها لسنوات، عن بعد لم يرقَ لأيٍّ من درجات التقارب، رغم أجيج المشاعر وفيض الهوى...

وهكذا تحولت (نعيمة)، من أمل (صلاح) في الخلاص من ماض أحادي الهوى، إلى جسر تقبع في نهايته (يولا). سافر (صلاح)، وذابت (نعيمة) بين أمواج البشر، وفقدت بوصلتها المقدرة على التمييز بين المد والجزر، فكان اسمها يعلو ويهبط فوق أوراق الأهرام، حتى استقرت بين عمودين أو ثلاثة أعمدة ضيقة، في صفحات الثقافة والفنون، تتبعتها بعناية، حتى توقفت هي عن إبداء نفس العناية بما تكتبه. التقيتها في دولة عربية في الثمانينات، بعد فترة وجيزة من اغتيال (السادات){٧٨}، ولم يعجبني تلونها، وتشدقها بما يسيء لوطنها عن طريق وصف (كامب ديفيد){٧٩} بمعاهدة الانبطاح، علمت أنها لم تتزوج، فأيقنت أنها ما زالت ملتزمة بمواثيق هواها لـ(صلاح)، الذي لم يكن بعيدًا عن مستقرها في تلك الليلة، فقط مسافة يومين من الإبحار في خليج العرب، سألتها عنه، فسألتني عنه، ولم يجب كلانا الآخر بما تشتهي الآذان، عَملَت لعامين في تلك الدولة العربية، قبل أن تعود مجددًا للأهرام.

أسمى صلاح لوحته (الثالث من مايو)، رغم اعتقادي بميله نحو تسميتها بالهروب إلى الحرية، ولكن الأقدار أملت عليه في تلك الأوقات أن يرسخ في وجدانه تاريخًا، سيكون له دلالتين، ويروي قصتين غير متشابهتين.
بيعت لوحته تلك لثري تركي، في معرض نظمه في الكويت منتصف الثمانينات، لم يكن معرضه هذا هو الأول، وإنما كان الأكثر ربحية له كما أخبرني في خطاباته، والفضل للوحته الأجمل: "الثالث من مايو".
(صلاح)، كان أحد شخصين حرصت على التواصل معهما، وإعلامهما بموقعي فوق البسيطة منذ رحيلي، أما ثاني الشخصين، فقد كانت (نادية عيسى)، التي عذبت نفسي ببحث مضنٍ عنها، كان بالإمكان تيسيره، لو توقفت عن بضعة أمور حرصت عليها دون سبب! غير أنني ذات صباح، بلغتها، بعد ارتحالات طالت بين (باريس) و(بروكسل).
(صلاح) و(نادية)، كانا لي بوابة الماضي، التي أتوق إليها كلما فقدت الحنين لمطالعة قادم المصائر، هما الأمس حين يشب عن الطوق ليراقب القادم، وهما الغد إذ يسير مشبكًا يديه بالأمس القريب.
أما (دنيا)، فقد توقفت عن إرسال الخطابات لها منذ عام ١٩٨٥، بعد ما يزيد عن عشر سنوات من إرسالي خطابات دورية، لم ترد على أيٍ منها، وكانت النهاية، حين رجوتها أن ترسل لي صورًا حديثة لأبنائي، كي أتعرف على ملامحهم، فلم تجب...
حين التقيت (صلاح) لآخر مرة في بداية التسعينات، كان ذلك في (تونس) على الأرجحِ، بدا لي مختلفًا، خاصة وقد كان آخر لقاءاتنا في باريس عام ١٩٨٧، لقاء حزينًا مغلفًا بالشجون، اختلطت فيه الدموع بالحنين إلى أيام خلت، واستدعى كل منا من ماضيه، ما يثير عواصف شجن، وينشج باستدعائه ألف ناي حزين أينما خطونا، نثرت رائحة الموت التي جمعتنا يومئذ سحر استدعاء شخوص رحلت، وبقيت أطيافها تتجول في ردهات عقلينا، ما حيينا.

فكان استحضار عم (عبد الفتاح) فوق خشبة مسرح فرقة (إسماعيل يس)، مختلطًا برحيل (نوح أفندي)، مُقَاطَعًا بمشهد (يولا) وقد حزمت حقائبها مغادرة (شبرا) إلى المجهول.
مر في خيالات الوعي مشاهد جمعت وهن (أبو شنب) في أواخر أيامه، وعبور (أم خليل) الساحر القصير بضفاف أيام الشباب، ومضات تأخذني لأتوقف أمام غرفة أمي مستمعًا لسعالها المتصاعد، تربت على كتفي (مريم)، ليقاطعني استدعاء (صلاح) بدوره للعديد من ذكرياته الخاصة، عن والديه، وعن (نعيمة المصري)، تذكَّرنا سور الأزبكية، وجولاتنا رفقة (إسماعيل) بين بائعي الكتب، تذكرنا (عبده ديكارت)، الذي ظهر ذات يوم ليبيعني مخطوطتين تاريخيتين، واختفى بعد ذلك للأبد، سألني إن كنت ما زلت محتفظًا بهما فأجبت بالإيجاب، ثم تبادلنا السرد، ما بين دواعي الألم والسرور، غير أننا، وبطبيعة الموقف الذي جمعنا، تمحور السرد حول (يولا).
أما في (تونس)، (تونس) أم (الجزائر)؟ لا يهم، فقد كان ذلك (صلاح) آخر، (صلاح) المغترب في دول العرب، المتحدث بلغة الدولار وبراميل النفط، قادتني المصادفة إلى جلسة جمعتنا طيلة ثلاث ساعات دون سابق ترتيب، كنت زائرًا لألقي إحدى المحاضرات عن تطور المجتمعات البدائية، وجاء هو ممثلًا لجريدته الكويتية، لحضور معرض لرسامي الكاريكاتير العرب، فالتقينا في المطار، وكان لدى كلانا ثلاث ساعات قضيناها سويًا، إلا أنني غادرته بعدها وقد نال مني نزف الروح، فقد كان الأمر برمته صادمًا، هذا الرجل كان يحمل ذات الوجه، وله ذات نبرات الصوت، ولكن روحًا أخرى كانت قد احتلت جسده، وتمكنت من عقله، فصار يقيس الكون بمقياس البنكنوت، فإذا ما تحدث، تحدث عن أسعار الأراضي، وتكلفة المباني، وتلاعُب المقاولين بمواد البناء، حتى مداعباته، كانت قد اصطبغت بذات اللون، وتشكلت بذات القالب، فجاء معظمها عن البخلاء والأغنياء

والفقراء، كلها تقاس بذات المقياس، وما حاد من الدعابات عن سياق البيع والشراء، جاء فاترا، باهتًا، منزوع البسمات، قصيرًا.
بعينين زائغتين، لفحت وجهي أنفاسه وهو يحتضنني مودعًا، فاشتممت رائحة الدنانير منبعثة من فمه.
لعنت زمانًا أتى ليغيب أجمل حكايات الأمس، ويطمس أبهى ملامحنا...
زرت معرض فناني الكاريكاتير العرب، متعمدًا أن تكون زيارتي بعد مغادرته، فلم أميز الألوان، ولم أعِ الإسقاطات، ولم أستسغ المقاصد، فكل ألواننا الزاهية المحاطة بالأطر المزخرفة، كانت قد أمست في عيني كالحة قاتمة...
توقفت أمام كاريكاتير لـ(صلاح)، يمثل إسقاطًا سياسيًا على الحكام العرب من خلال تصوير طفل نمت لحيته وطالت حتى لامست الأرض، وهو يراقب كلمة مكافحة الفساد عبر منظار مكبر، فقفز إلى ذهني كاريكاتير شهير لـ(ناجي العلي)[٨٠] لطفله الأثير (حنظلة)[٨٠]، وقد وقف موليًا ظهره كعادته، محدقًا صوب عبارة: "من راقب الأنظمة مات همًّا"، فتأكدت أن صديق العمر قد أفلس ذهنيًا، وغادرت روحه جسده بالفعل منذ آخر اللقاءات في (باريس).
انتهت حكاية (صلاح)، واستغرقني البحث طيلة أيامٍ تلت، عن حقيقة الجاني، ومصير المجني عليه، فتيقنت أنني خسرت جانبا كبيرًا من شعوري بالألفة فوق هذه الأرض. فقط، ندمت أن لم أخبره منذ سنوات طوال، أن المرأة التي ألقت بشجرة الدر من فوق أسوار القلعة، في لوحة "الثالث من مايو"، كان لها وجه يولا!
تعاظمت وحدتي، وتحولت من كونها في الأغلب اعتيادية، إلى وحدة إجبارية متنامية، دفعتني دفعًا صوب الخوف من المجهول لأول مرة، فعاودت مطاردة طيف (نادية عيسى)، راكضًا خلف قطار الماضي الدافئ، محاولًا التشبث بآخر عرباته، لأواصل البحث بين الوجوه عن صورتي، حين تنعكس من عينيها... ولهذا حديث آخر، إن لم تخني الذاكرة.

حسن البنداري الأول

- المعتزلة كفرة[٨١]، ومن تبعهم صار منهم، وحَشَرَهُ الله مع من أحب واتَّبع...

قال "حسن البنداري" وقد ارتسمت على وجهه أقسى معالم الغضب وأعتى مظاهر الكراهية، ثم أخذ يداعب لحيته الكثة بأنامله ذات الأظافر المقصوفة، كنت على علم بانتمائه السياسي، المتستر خلف ستار -يظن هو- أنه ستار ديني، وكان لا يجرؤ على إعلان انتمائه، أو تبنيه لمذهب إمامه حسن البنا، فاعتاد أن يخفي عن القاصي والداني حقيقة مفادها أن أباه، (إمام البنداري)، الذي هو عمي، كان من أوائل المبايعين لـ(حسن البنا)، خشية أن يلحق به أذى، فقد كان التنكيل على أشده حينئذ، وغدا معلومًا أن من يقع بين براثن البوليس السياسي[٨٣]، فقد أمسى أمره مقضيًا، وغدت نهايته مسألة أيام لا أكثر، وكانت محاكمات القطبيين الجارية في حينها -في نظره- أبسط مثال على ذلك.

آثرت عدم الرد على فتواه، متذكرًا حوارًا دار مع (نوح أفندي) على هامش سِفْر مؤلم في حياة (حسن)، هو زواج (مريم):

- المرأة وطن، قد تختلف معه في المنهج، أو في نسق تطبيق ذلك المنهج، قد نتأذى بما يطرأ عليه من تغيرات مزاجية، ولكنه يظل الحصن والملاذ، وترنيمة الأمان التي تُعزف تلقائيًا فور ملامستك شطآنه، فها هو وطننا، قد قرر ذات صباح، أن يتحول من نظام ملكي إلى آخر جمهوري، وما أراد أيّ منا تغيير ذلك! خاصة بعد أن صاغ صُنَّاعه حكمًا هزليًا، أفضى إلى نقل ملكية نصف أراضي عائلتنا، إلى المزارعين والمؤجرين في (التوابية)، ولكن، بقي هو الوطن، ظل مطوقًا بقدسية لا نختار إلصاقها به، بقدر ما تولد مع إدراكنا لمفهومه، وتتنامى، حتى تترسخ في الوجدان وتنتقل من جيل إلى جيل...

وقلت حين فقدت بوصلتي اتجاه الحوار، وعجزت عن نسج الرابط بين الحدث والحديث:

- لا أفهم...

ربّت على كتفي بذات الابتسامة، التي تليق بكاهن حكيم، وتلا عليّ تبيانًا كان مما علق بذهني للأبد:

- وطالما كانت المرأة كالوطن، فإنني لن أغفو قرير العين، إذا ما أسلمت ابنتي الوحيدة، لمن لا يؤمن بالوطن...!

واصل (حسن) سبه ولعنه لأفكار استشف منذ لحظات أنني أميل لتفاسيرها، كان في الأساس لا يعي ما يردد، ولا يردد إلا ما يُملى عليه من شيوخه، أشعر أنه يَسُبّني بطريقة مستترة ، فلا أقدر على مقاومة ضحكة قصيرة أطلقتها قبل أن ألحقها باستفسار جديد:

- ليكن يا (حسن)، فأنا لا أتفق مع كل ما أتى به فكر المعتزلة، ولكن لتعلم أنني أدعي أيضا فيما أدعي، أننا قد ألصقنا بديننا ما لا ينتمي له، بل وفي بعض الأحيان، ما لا يتفق معه، وما يخالف صحيح تعاليمه...

يهب واقفًا ليسألني عن المقصودين بـ"نحن"، وإن كنت أعني بذلك عامة المسلمين، أم الصفوة المختارة من كبار العلماء...

- وهل من الإسلام أن نتكالب على حجر لنلامسه ونقبله، تبركًا وتقربًا من الله ونبيه!؟

قلت فجحظت عيناه، حتى أنني تصورت للحظات أن علّة أصابته، قبل أن تلين ملامحه، وترتسم على شفتيه ذات البسمات المصطنعات:

- ذلك حجر مقدس[٨٤]، أنا لا ألومك يا (إبراهيم)، فأنت ينقصك العلم، لو كان من يحدثني الآن رجل علم أو امرؤ عليم بأمور الدين، لكان صراعًا بيننا حتى رددته عن جنوحه، ولكنك لست أهلًا بنقاشي الآن، اقرأ يا (إبراهيم)، فقط اقرأ...

جحظت عيناي غير مصدق، ثم كان أن تركت لعقلي العنان، فاستجاب له اللسان:

- ماذا لو هُدمت الكعبة[٨٥]؟

تسري في عينيه همهمات وتنتشر كما الوباء عاكسة عبارات فزع وصيحات استنكار، فأجيب:

- سيعيد بناءها الإنسان، كما فعل ذلك نبي الله إبراهيم[٨٦] أول مرة! أليس كذلك؟

تعكس عيناه ارتياحًا نسبيّا لإجابتي، ويبدو على قسماته المذعورة ثمة استحسان وهو يومئ برأسه حذرًا، فأتابع:

- وماذا لو هدمت كنائس المهد والعهد والقيامة؟

تتراقص على شفتيه ابتسامة، ثم يهز كتفيه غير مبالٍ، فأعيد الإجابة:

- سيعيد بناءها الإنسان، كما فعل أول مرة! ألم تكن تلك الكنائس من صنع البشر؟

لا تعكس قسماته أية تعابير، فأسأله مرة أخرى:

- ماذا إذن لو أصابت المسجد الأقصى قذيفة فأصبح أثرًا بعد عين؟

يقطب حاجبيه غضبا حتى يلتحما، فأسارع بترديد الإجابة:

- سيبنيه الإنسان بلا شك، كما فعل أول مرة...

يسود صمت مطبق، فيدوي صوتي مطاردًا بأصداء يدفعها الصمت بين جدران دكانته الصغيرة:

- ماذا لو أزهقت روح، فتداعى جسدها واستحال ترابًا؟ من يحيي الروح، فيعيد بناء الجسد؟

يجيب آنيّا:

- الله هو من يحيي ويميت يا ابن العم!

أشعر أنني حاوطته بالحجة، فألقي بسهمي الأخير، ليستقر بقلب ما أتى به من خرف...

- إذن، ما هو المقدس؟ ومن الجدير بالقدسية، صنيعة العبد أم صنيعة الرب!؟ الصخر والحجر؟ أم البشر؟

جثم على الحوار صمت يليق بالقبور، هز رأسه فلم ينفصل حاجباه، ثم عاد يردد بذات الغلظة:

- يظل للحجر قدسية تفوق معظم البشر، قداسة الحجر الأسود{٨٤} أمر متفق عليه...

قال فاستشطت حنقًا:

- قَالَ ابنُ أَبِي ذِئبٍ: حَدثَنِي إِيَاسُ بنُ سَلَمَةَ بنِ الأَكوَعِ، عَن أَبِيه، عَن رَسُولِ الله صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسلَم: "أَيمَا رَجُلٍ وَامرَأَة تَوَافَقَا، فَعِشرَةُ مَا بَينَهُمَا ثَلَاثُ لَيَالٍ، فَإِن أَحَبا أَن يَتزَايَدَا، أَو يَتَتَارَكَا تَتَارَكَا"، صدقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رفع حاجبيه هذه المرة، ثم عاود ضمهما، استغرقته صياغة الكلمات ما جاوز دقيقة، مضت وقد تدثر كلانا بالصمت وتحصن بقناعاته استعدادًا لهجوم مضاد، قال:

- وما شأن ذلك بحديثنا عن الحجر الأسود يا ابن العم!؟

قال وقد أراح كف يمينه على كتفي توددًا، فتراجعت خطوة للخلف مباعدًا ذراعه، وأطلقت ذخائر حجتي في وجهه:

- علاقة وثيقة يا شيخ (حسن)، فما تلوته عليك الآن، يحمل دعوة للزنا، ويدعو لحرية ممارسة الجنس دون عقد، مخالفًا بذلك جميع الأديان، ولكنه ورد في صحيح البخاري{٩٣}، فهل تعتقد أنني يجب علي أن أتبع ذلك الحديث؟ أو أن أتخذ منه فتوى أؤسس على جدرانها ركائز أخلاقياتي ومعاملاتي؟ ليس كل ما جاء من العهد الشريف شريفًا، ولا كل ما قيل في عصر القرآن قرآنًا، وما ينطبق بشأن الحجر الأسود، من خطيئة التقديس وجرم التبرك به، ينسحب على أحاديث وردت فيما أسميناه نحن بالصحاح{٨٧}، وما صحيح إلا ما جاء في كتاب الله، وما اتسق معه من سيرة نبوية...

يهز رأسه، يبتسم، يحاول أن يستفزني بهدوئه المصطنع وبسماته المصفرة، يفلته من يدي شيخ يدلف إلى مجلسنا في دكانه، يسأل عن نوع من أنواع السبح ذات الأحجار المستطيلة، فيعرض عليه ابن العم بعضًا منها، مضت بضع دقائق تجولت خلالها بناظريّ في أرجاء الدكان، لوحات ضخمة تحوي آيات قرآنية احتلت أغلب مساحات الحوائط، فقط لفت نظري عدم التناسق في ألوان الأُطر، وترتيب اللوحات، فوجدت أنه كان حريًّا به أن يرتب اللوحات ذات الإطار الفضي، والأخرى ذات الإطار البني بطريقة أفضل، أخذني ترتيب لوحاته إلى تقييم وعيه الديني، فهذا الرجل، يحب أن يُظهر الآيات، ولا يحبها كي يحسن تنسيقها وترتيبها...

- لم تخبرني بعد يا (إبراهيم)، أي رياح عطرة جاءت بك إلى دكاني اليوم؟ فأنت لم تزرني هنا منذ زمن لا أذكره!؟

قال وهو يناولني سبحة كمثل ما اشتراه العجوز للتو، كان هروبه من المحاورة جليّا لا يخفى على أحد، تشاغلت بمداعبة أحجار السبحة المستطيلة، وقررت وقف النزاع عند هذا الحد، مكتفيًا بهروبه كإعلان كاف عن استسلامه، قال:

- تلك السبحة هدية لك بمناسبة زيارتك هذه، وفي طياتها دعوة ضمنية للعودة إلى طريق الله، بدءًا من الصلاة.

شكرته متجاهلًا الجزء الخاص بالموعظة، ثم قلت:

- لم نكن يومًا متقاربين كما يفترض بنا كأبناء عمومة، ولكننا أيضًا، لم نكن متباعدين كما تباعدنا منذ زواج (مريم)...

قلت حين كان يرتب بعض سجاجيد الصلاة فوق رف حائطي، فتسمرت يداه وتخشب جسده السمين فارتج على حين غرة، وبدا كمن تذكر ما لا يريد تذكره، ولم ينصرف إلى نسيانه!

كنت أعلم أنه بزواجه من ابنة (عبد العزيز القاضي)، ينفذ انتقامًا نفسيًا من عمه (نوح)، الذي رفض تزويجه (مريم)، ليختار أن يناسب عدوه المُفترض، ظنًّا أن في ذلك شيئًا من رد الاعتبار، ولكن واقع الأمر أن (نوح

أفندي) لم يرَ (عبد العزيز القاضي) يومًا كعدو له، بل كان يراه مجرد أداة من أدوات السلطة في فرض رأي واحد دون غيره، واتباع منهج واحد دون سواه. والأغرب كما سرد (نوح أفندي) في اعترافاته ذات يوم، أن (عبد العزيز القاضي) كان مرحبًا بتزويج ابنته من (حسن)، الولد الوحيد لواحد من كبار رجالات الإخوان المسلمين، الراحل عن عالمنا نهاية العقد الماضي.

هل ثمة تشابه بين ملامح (عبد العزيز القاضي)، و(جابر عباس)؟

كنت على وشك الخروج من حقبة مظلمة من حياتي، وقد فقدت في غضون شهور، أناسًا من أقرب الأقربين، وخلت في قلبي مساحات عجزت عن شغلها إلى اليوم، فكان (وداع أبو شنب)، متبوعًا برحيل أمي، وعم (عبد الفتاح)، وهجرة (نادية عيسى) المفاجئة، بمثابة إظلام تدريجي بلغة المسرح كما درستها. تابعت (حسن) المتشاغل بإعادة ترتيب ما هو مرتب بالفعل، وقت أن استدعت أذنيّ كلمات لـ(نوح أفندي)، قالها في معرض حديثه عن أخيه (إمام)، بعد سنوات من وفاته:

- "احتد الخلاف الأيديولوجي بيننا ذات يوم، لا أذكر سبب خلافنا على وجه التحديد آنذاك، ولكنه كان بخصوص تفسير أو تشريع ديني مصدره كتب السنة، علا صوتانا حتى كاد المارة يظنون أن عراكًا قد نشب بيننا، قلت إن العقل هو مصباح البصيرة، ودونه تغرق الألباب في ظلام وظلمات، فأدهشني قوله: إذا ورد نص، أطفئ مصباح عقلك واتبع النص. النص بالنسبة لي هو القرآن، وما يتفق معه من السنة، أما بالنسبة لـ(إمام)، فإن النص هو كتب صحاح الحديث، ثم القرآن، تواليًا في الأهمية والمصداقية. انتهى الأمر بانسحابي إثر غيمة من شرود أحاطت بي وأثقلت كلماتي، بعد أن ردتني كلمات أخي لأمرق عبر الأزمنة، عابرًا عتبات قرون مضت، مستقرًا في عصور ظلام أوروبا، حين كان الحكم باسم الرب في الكنيسة، وكانت مقولة الكهنة والقساوسة لأتباعهم هي ذات عبارة (إمام البنداري): أطفئ مصباح عقلك واتبعني! فطنت لأن اليمينية الدينية واحدة في منهجها وان اختلفت

الأديان، القاعدة واحدة: أطفئ مصباح عقلك، وسر خلفي، ليرضى عنك الله، ويسكنك فسيح جناته، فقط إذا تبعتني!".

يقول حسن بكلمات شاردة يقطنها الهم فتقطر وهنًا:

- وما الداعي لنبش قبور الآمال الراحلات؟

برغم كل شيء، شعرت بتعاطف حقيقي معه، ذُقت لوعة الفراق أكثر من مرة، يوم أن تركت لي (نادية عيسى) خطاب وداع من أسطر حوت على قلتها ما لا تكفي لشرحه مئات الصحف، إثر هجرتها المفاجئة، وكذلك يوم وداع (فرانشيسكا)، ومثلي يُقَدِّر موقفًا كهذا، ويدرك الألم وتوابعه، وطالما كانت توابع الألم وردود الأفعال التالية لِها، أشد تدميراً من الألم في حد ذاته، ولذا وجدتني أربت على كتفه مواسيا، دون أن أنطق بأي كلمة تشوبها المواساة كي لا أثقل همه دونما قصد...

- لا أقصد استدعاء الأيام الخوالي يا ابن العم، ولكنني -على اتساع خلافنا- اعتدتك أقرب لي مما نحن عليه الآن، الحياة ملهاة أيامها قصر، وأقدارها عرجاوات مترنحات، لا وقت لدينا لمحاسبة المصائر واستجواب الضمائر، لا أرى نفعًا من رفض المضي قدمًا، والإصرار على التحوصل في بقعة بعينها من الماضي، ربما كان أبي قد جانب الصواب في رفضه، وربما كان على حق، ربما ترى أن رفضه لك مرجعه خلافًا مع أخيه دفعت أنت ثمنه، لا يمكننا الجزم، ولكن هذا كله من الماضي، أبي وأبوك قد اجتمعا في تراب (التوابية)، ولا ينبغي لنا أن نرعى إرثا من الشقاق، وارد أن يكون أساسه سوء فهم لا غير! لم أسمع (نوح أفندي) ذات يوم وقد تفوه بأي شيء مسيء تجاه عمي (إمام)، وأثق أن العكس صحيح بدوره! كفانا استنتاجا لما لن يتيسر لنا توثيقه وبرهنته!

- أقدارها عرجاوات مترنحات!؟ أراك قد بلغت من الشطط قدراً لا يستهان به! أستغفر الله العظيم. استغفر ربك يا (إبراهيم)، فهو العفو الغفور دون غيره، أما أنا فقد وثقت بقضاء الله، وتيقنت أنه

إنما أراد بي الخير لا غير، اعلم أنى أحبك في الله وأدعو لك بالهداية، ولعمي رحمه الله بالمغفرة!

ذلك (حسن) آخر لا ريب، بيد أني وددت لو عاد بي الزمن دقائق مضت، كي أغادر مدخرا عناء المحاولة! جسده المائل للسمنة كان يرتجف حين كنت أتلو عليه آخر كلماتي، غير أن تعقيبه الصادم قد أسكن رجفات جسده، وأخمد ما تبقى بداخلي من جذوة الأمل في التلاقي.

تيقنت ان كلانا قد أبحر في أنهر متناقضة المنابع، متنافرة المصاب...

تبخر التعاطف وانجلى ليحل محله الإشفاق، كانت صدمته قاسية، مزدوجة، فقد صدمه عمه برفض تزويجه ابنته بعد أن كان متخما بالثقة في قبوله وقبولها، ثم جاءت صدمة أخرى، فحواها، أن العشق جرم محرم، وإثم مجرم... لاحظت تحوله التدريجي، خلال لقاءات جمعتنا عبر فترات زمنية متناثرة بعد لقائنا هذا، فتضخم المخاطب وتغير، ليصبح "أنتم" بدلا من "أنت"! وفطنت لأن ابن العم قد اختار لنفسه أبسط الحلول، حين كانت آماله تئن تحت وطأة واقعه المثقل بالنقائض، فاستقر على خيار -ظنه هو- رابحا، وهو أن المشكلة لا تكمن في شخصه ولا في أفكاره ومعتقداته وانتماءاته السياسية والأيديولوجية، فالمعضلة الحقة، الساطعة كشمس تشرق بغتة في فسحة من صفاء مزقت نسيج غيم مطير، هي الحرب على الإسلام!

فما كان رفض (نوح أفندي) له، إلا عداءَ للإسلام وليس له، وما كان ليكون، لو لم يكن هو -أي (حسن)- ملتزمًا مُصليّا كما ينبغي للمسلم أن يكون... وهكذا أمسى القياس مثالًا يُعمم، وإن تباين عبر تلوناته الحربائية، فقد اختلفت الـ"أنتم" في السياق والمضمون بين العام والآخر، إلا أن أساس النظرية، كان قد تخمر في وجدانه، وتحول من خلاف أيديولوجيات، إلى عداء طبقي، وعداء شرس، لكل من يملك زمام نفسه، ويوقر حريته، ويأتي بما يشتهي دونما قيود تكبله، كما كبل هو يديه بأصفاد الوهم.

طلب مني ذات ليلة تلت ما مضى، أن أمنحه مفتاح غرفة الحضرة، ليعيد إليها قيمتها ويستكمل مسيرة عمه وجده، ذهلت أول الأمر لما كان من نفور أبيه من الحضرة إلا فيما نَدُر، وكذا ما علمته من رفض أبيه للصوفية ونبذه لحلقات الذكر، غير أن (حسن)، لم يُطِل من أمد الاندهاش حين أعقب:

- ولكنني أريد بها أن تكون ملتقى لمحبي الإسلام من عباد الله التوابين، لنجعلها معتكفًا لمن شاء قيام الليل وختم المصحف، وكذلك تكون مقرًا لدروس دينية بغير أجر، يقوم فيها أولِو العلم بشرح أمور الدين للإخوة والأخوات من سكان الحي، ولا تنسَ يا (إبراهيم)، أن في شبرا قطاعًا لا يستهان به من النصارى، ولذا وجب علينا العمل على نصرة ديننا الحنيف، ومعاونة القوم على إدراك تعاليمه صحيح الإدراك...

دفعني شعور مبهم بالذنب تجاهه إلى الموافقة، فكان أن عقدت بها ثلاث جلسات، رحلت خلالها (مريم)، لتستقر في منزلها الخاوي، ورأيت خلالها ناسًا غير الناس، وسمعت شروحًا وتفاسير مقبضة، فلما حل موعد رابع الجلسات، جاء (حسن) ليجد أن مفتاح الغرفة قد تم تغييره، ليغادر مزمجرًا صحبة رفاقه.

- زارني (نوح أفندي) في منامي، عنفني والاستياء يغمر محياه، لأنني سلمتك الغرفة، وأمرني بأن أوقف ما يجري وأن أعيد كل شيء إلى نصابه، لم أكن لأعصى أمره، معذرة يا (حسن)!

كان يدرك أنني كاذب لا ريب في كذب ادعائي، حين جاءني معاتبًا في ذات المساء، ولكنه عقب بقوله:

- أبوك يصر على مطاردتي ومضايقتي، حتى بعد وفاته، كنت أدعو له بالرحمة... والآن لا محل له في دعائي!

قبلت قرار حسن بحرمان (نوح أفندي) من فضائل دعائه، وأعدت كل شيء في الغرفة لما كان عليه يوم رحيل أبي، وبقيت طيلة الليالي الثلاث التالية، أسمع أصداء حلقات الذكر، متوجة بصوت الشيخ الرفاعي، وكان

أن خُيل لي سماع آذان الشيخ الغائب لأول مرة! بيد أنني أيقظت (دنيا) ذات مساء لتسمع ما أسمعه، ففزعت! وارتابت في أمر الحجرة، حين كان صوت الدفوف الواهنة ينعكس في قلب حارتنا الناعسة، قبيل الفجر بلحظات...

أخط هذه الكلمات الآن، فتستحيل نقرات القلم على الورق، كصوت الدفوف في غرفة الحضرة، أتبسم متخيلا (الشيخ الرفاعي) حين ضبطني ذات ليلة وقد أمسكت بأحد الدفوف شارعًا في محاكاة ما أسمعه من إيقاع أخَّاذ، ليقرص برفقٍ شحمة أذني اليمنى، هامسًا (ليس بعد يا فتى)، أتذكر ذلك متحسسًا أذني، وقد ملأني الزهو بأن أنقذت غرفة الحضرة مما ألحقته بها يديّ من بلاء.

ولـ(حسن البنداري) حكاية أخرى، أقصها إن أسعفتني الذاكرة، فور أن أنتهي من إصلاح هذه السبحة ذات الأحجار المستطيلة!

"وحين قالت ما قالت، وذرفت من الدمع ما ذرفت، امتد جرح الروح من جسدي، واعتلى مصعدًا، حتى تجاوز عنان السماء، وبدا لي كأن الشمس قد أدماها مشهدي الحزين، فتسربت دماء قانية إلى قرصها الذهبي، واستحالت في غروبها حمراء، وكان يوم كسوف عظيم للشمس، ولي...
وكنت أصدقها، وعلى دراية بما دار ويدور في بيتها ومن حولها، لم تطفُ على قسمات وجهي أمواج غضب، ولم تصدر عني ترانيم اللوم، ومعزوفات التأنيب، وعتابات الوداع، كانت في يدي زهرة، حملتها معي إليها منذ البداية، ونسيتها طيلة حديثنا، كنت قد نزعت من ساقها شوكه، أو هذا ما ظننته، حتى أدمت يدي شوكة منسية، حين كنت أدس الزهرة بين خصلات شعرها الفاحم، فوق إحدى ضفائرها المارة فوق أذنها اليسرى، بدت رعشة على شفتها، وارتجت وجنتاها على إيقاعات النشيج، قبلت وجنتها المبللة، وأدرت ظهري، رحلت يا بني قبل أن يصرعني مرآها على هذا النحو... مررت بخطوات مثقلة من خمارويه حتى بيتنا هذا، وكأن سلاسل ثقيلة قد تدلت من السماء، وتحكمت بأطرافي كعرائس الماريونت، حين وصلت غرفتي، لم أعرف كمٍ من الوقت قد مضى، ولكننيٍ جلست بجوار مكتبتي، وخططت لها خطاباٍ، رجوتها فيه ألا ترحل، طالبا منها أن تهرب بصحبتي، قررت إرساله مع أبو شنب، فكبلني ذاك الكبرياء المتوارث في عائلتنا، قررت التخلص منه، ففشلت في ترويض النسيان، وعجزت عن إتقان طقوسه وتلاوة تعويذاته، فاحتفظت به إلى اليوم..."

من اعترافات نوح البنداري

"صادق الحب هو ما يشعر غير منطوق، وأصدق الكلم هو ما يبصر غير مسموع، فهنيئًا لمن أبصر العشق مغمض العينين، وطوبى لمن تغنى به محبوه، وقد تحررت منه الروح، وانتقل الجسد إلى حيث السكون الأبدي".

إبراهيم البنداري

سكون الرحيـل

شبرا - أوائل عام ١٩٦٨

- كنت على علم بموضوع الإيطالية...

لا أعلم أين كنت حين جاءني (حسن البنداري) مهرولًا، ورغم أننا أبناء عمومة، إلا أنني، ولكوننا غير وثيقي الصلة، شعرت بأن أمرًا جللًا قد أتى به إليّ، ربما كنت في كافيتريا جريدة الأهرام مع (نادية عيسى)، أو كنت في مرسم (يولا) بصحبة (صلاح زكي)، لا أعرف...

تيقنت أن أمرًا قد حدث...

تركت أوراقي وأقلامي، سقطت كلماتي وانسكبت من فوق صفحاتي حين صاح (حسن):

- الحاج (نوح) مريض، ويريدك أن تحضر فورًا.

ذهلت حين ذكر موضوع الإيطالية كما عرّفَها، أرعبتني نبرة صوته الواهنة، كان اتفاقي مع (مريم) ألا يعلم سواها بالأمر، خصوصًا حين أتت (فرانشيسكا) لزيارة بيت شبرا خلسة، هل خانت (مريم) الوعد؟ تنحنح، فعاودني هلعي بشأنه، كان قد غادر المنزل قبل مغادرتي صبيحة اليوم، لم يبدُ عليه أي مرض أو اعتلال بصحته، تذكرت أنه رفض تناول العشاء بالأمس، وإن بدا عليه ضيق اعتدنا مرآه منذ زارنا ذاك الضابط نهاية العام الفائت.

- هو في عداد المفقودين، ليس لدينا جثمان لنعتبره شهيدًا، ثق أننا نبحث عنه وعن آلاف آخرين مثله... دعواتك.

كان (إسماعيل) قد انقطعت أخباره منذ حرب يونيو، وحين عاد بعض أصدقائه، لم يعلم أحد منهم شيئًا عنه، قال أحدهم أنهما كانا سويًا صبيحة يوم الحرب، ولكن مع بدء الحرب، وما بين صريخ المدافع وغارات الطائرات، وهرولة المتفاجئين، فقدا اتصالهما ببعضهما البعض، قال آخر أنه رآه حيّا مصابًا بعد مضي أيام على الحرب، وأنه كان يشكو أن كُسرت نظارته الطبية، قيل أن إصابته كانت متوسطة، ولكنهم وجدوا صعوبة في الوصول إلى المؤن الطبية اللازمة، قيل ما قيل وأكثر، ومرت الأيام، والشهور، حتى جاءنا ذاك العقيد منبئًا أنه مفقود!

كان ضيق (نوحٍ أفندي) يتعاظم يومًا بعد يوم، لم نرَه حزينًا منهارًا بقدر ما ألفناه ناقمًا ساخطًا يملأه الحنق والغضب، ولم يتسرب اليأس إلى قسمات وجهه حتى مساء الأمس. حين رفض تناول العشاء، ألحت عليه (مريم) وتدخلت في محاولة يائسة لإقناعه فرفض، حاولت استخدام حفيديه لما لهما من أثر على حالته المزاجية، فأبى إلا أن يواصل انعزاله، لم أرَه صبيحة اليوم إذ انصرف قبل أن أستيقظ، وها هو الآن بعد سويعات قلائل، مريض شاحب، مهموم، قفزت به تجاعيد الإجهاد المسودة عشر سنين، ألقت على متون رحلته بالمزيد من وهن العمر وثقل المواجهات.

- كنت على علم بصاحبتك الإيطالية يا (إبراهيم).

أعاد جملته الأولى في مزيج من وهن باسم ويأس فشل في مواراة ملامحه.

- ماذا حدث؟

سارعته مغيرًا دفة الحديث صوب ما أصابه اليوم، بعد أن استشعرت أنه يميلها عشوائيّا تجاه أية أمور أخرى...

- "اعلم أنك مخطئ حين تخطئ، وفي أوج معصيتك تذكر أنك عصي آثم، فإن تذكرت خطيئتك إبان الإتيان بها، تركت بذلك بابًا مفتوحًا للتوبة، لا تحلل حرامك كي لا يحرم الله حلالك يا (إبراهيم)، كل منا مخطئ ومصيب، ليس بيننا من يؤتى كتابه يوم العرض وقد خلت صحيفته من الذنوب والمعاصي، أطلق للريح جناحيك، حلق فوق خطايانا

وتعلَّم، تحسس دربك بروية حتى ترتسم في عينيك ملامح دروب الصواب، وتتكشف لك الحقائق، شُك، حتى تعي، فإن وعيت فاعمل على نقل معارفك لمن يأتي من بعدك، فالمعرفة يا بني ما هي إلا إرث نتناقله عبر الأجيال والعصور، وكل منا يُؤتى إرثه غير مكتمل فيضيف إليه وما ينتقص منه شيئًا. هدى الله يا إبراهيم هو أن تستأنس روحك في جسدك الفاني، وأن تنعم بالسكينة حتى تفارق فناءها وتحلق في فضاءات السكون".

هزتني موعظته رغم مجيئها في غير وقتها، واخترقني المعنى رغم وهن الوحي الصادر عنه، أمسك يدي، لاحظت تقطع أنفاسه، كان يغمض عينيه لثوان ثم لا يلبث أن يفتحهما مجددًا، ورغم تشتته المتناقض مع عميق وصاياه، ظل محدقًا صوبي، وعكس تشبثه بيميني قوة لا تظهر ملامحه غير نقيضها، أشار بسبابة يده الأخرى صوبي، ثم أشار بها إلى موضع القلب في صدره، ثم أشار بها نحو السماء...

تنامى إلى مسامعي انتحاب (مريم)، نهرتها فغادرت الغرفة، في التفاتتي نحوها هربت من مقلتي دمعة، ازداد تشبث (نوح أفندي) بيدي...

- حسنًا فعلت.

همس خائر القوى، ما زلت لا أفهم ما أصابه، أشار إلى بقعة في فضاء الغرفة من خلفي، أخرجت لفافة سوداء اللون من حيث أشار في جوف مكتبة غرفة نومه العتيقة، سرت بأوصالي قشعريرة باردة حين أبصرت ما بداخلها..

- أهذا ما أصابك؟
- هذه أحملها منذ أن زارنا الضابط العام الماضي... طلبت منه أن يتلو على مسامعكم ما تلاه كي لا تيأسوا، لولا (آدم)، ومن بعده (حواء)، لآثرت اللحاق به منذ ذلك اليوم...

طالعت ميراث (إسماعيل) نظارته، بطاقة تعريفه العسكري، صورة عائشة، وورقة تحمل أبياتًا للـ(مازني)، تسخر من الموت...

سال من دمعي ما سال...

- حلمت كل ليلة أنه عائد... ذبل الحلم يا (نوح أفندي).
- إن ذبل بعض من حلمك، فلا تنصرف عن ري الجذور، ففي ذلك أمل في الإنبات، قد ينبت من رحم اليأس جنين الحلم القادم، ومن داكن التراب نطفة نور، تضيء لك على صغرها أفقًا يجتاح السماوات، لا تتوقف عن الري يا (إبراهيم)، لا تتوقف عن الري...
- إذن لتعمل أنت بنصحك، لا تتركني! ولتخبرني عما أصابك اليوم إن كنت تعلم باستشهاده من العام الماضي.
- لا شيء، فقط نفدت طاقة الكتمان، فانهار كل شيء...

قال بنبرة خافتة، ثم ضغط على يدي مجددًا، ورفعها قرب وجهه، ثم قبلها، سحبت يدي مسرعًا...

- العفو يا أبي...
- حسبي أني أتركك، وقد منحك الله بذور إعادة الخلق، (آدم) و(حواء).

ردد في سكراته مزيجًا من عباراته الأخيرة.. وتركني... أبحث عنه...

ضممته إلى صدري، وكنت كمن يخاطب جسده المُستكين...

في ذروة شكي...

وفي أفلاك فراغ وضياع...

آمنت...

وتيقنت بأن الوعد خفي آمن...

غمضت عيناي وما غفلت...

ورأيت، فهلعت....

تجتاح جيوش الموت بلاد الوعد بأنك باقٍ...

وتغادر... أتلفت حولي...

تملأني الثقة بأنك باق... كيقين...

كحروف نطقت بها الرسل بأمر الخالق...

أتفاجأ... إذ لم يتبق من همساتك غير الحلم...

الوهن...الضعف... والزهد بكل أماني الدرب الغارب
الغارق في ظلمات الغيب... والموت...
أرحلت؟ ألقيت بسيفك دون نزال...
أهُزمت؟
هل هرم الفارس فوق جوادك فاستسلمت؟
هل أدركت بأن ظلال جراد قادم، حتما سوف تغيب شمس الأمس؟
هل ناداك بتلك الليلة ذاك الصوت؟
ذاك الوحي الصادر من صدر النداهة
القادم مثل فحيح الهمس...
هل أغواك نداء رحيل؟ أم آثرت رحيل نداء، في طياته صفو النفس؟
أحقًّا مت؟
تتملك من أنفاسي ظنون... يتهدج صوتي...
ينثرني خوفي شتاتًا بين شجون وجنون...
يوهنِ نبراتي الشك، فأشك؟ هل تدرك أنك مت؟
يا نوحًا كنت أظنه يحيا عشر قرون...
هجرانك قد مزق أوصال البأس...
خار... يخور...
أبصر في سكرات سقوطه... بقعة نور... هالة ضوء...
مد إليها يديه فذابت...
هذا ما أمسيت عليه، منذ رحلت...
هل مات كلانا؟ أم أنك أنت... من خاض المعركة الكبرى
وجابه ذاك الغول وحيدًا...حتى صرعني... فاستسلمت، وهُزمت...
حملتك فوق الكتف كتومًا... واريتك حيث اخترت ثراك...
وجلست جوار الشاهد تهمي دموعي...
وبين ضلوعي، أبصر قلبي غروبًا تلو غروب...
فتدثر بحلكة ليل دائم... من بعده ما أشرقت الشمس...

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ...﴾

أتمتم منتحبا وقد أخذه الطوفان وحده، دون أن يمهله القدر ما يلزم لصنع السفين، فلم يعش ألفًا إلا خمسين عامًا، ولم ينقذني، فتركني أجابه الطوفان وحيدًا، دون أن يضمني فلكه، وقفت إلى جوار قبره في (التوابية)، حيث كانت عين القبر المخصص له بجوار أخيه (إمام)، وصحبه ممن أحب، أستقبل مئات المعزين ممن يقبلون ويدبرون بغير انقطاع، الشمس موشكة على الغروب، تتردد أصداء كلماته فتحل في أذنيّ محل عبارات تعازي المعزين، يتمدد ظلي، يتلاحم مع شاهد القبر الرخامي حيث كتب اسمه، أسمع صوت (مريم)، منادية (إسماعيل)، باكية (نوح أفندي)، ثم لا تلبث أن تنادي أباها باكية أصغر اشقائها...

تماوجت في أذني بعض من ترتيلات الشيخ (سلامة)، التي شنف بها آذاننا طيلة الطريق إلى التوابية:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ، وَإِنَّ مِنَ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

كان (صلاح) هو من يقف إلى جواري.

لمحت ابن عمي (حسن)...

(دنيا) تتشح على مبعدة مني بالسواد، حاملة (حواء)...

عيني (آدم) تبحثان عن جده، يبكي وتفشل (مريم) في تهدئته.

(إحسان الدمنهوري) يقف خافتًا شاحبًا، يتقاطع ظله مع ظل أخيه (عبد الفتاح).

بكيت كما لم أبكِ من قبل...

استقر في وجداني ما استقر...

وعزمت على ما عزمت...

حتى غفلت عيناي من جديد...
واستيقظت ذات ليلة مرددًا:
- سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ...

ردتني الأيام لضفاف الواقعِ، وجفت دمعاتي، فشرعت أرتب مكتبته وأعنى بها، لأجده وقد ترك لي العديد من الإشارات، جاء بعض منها في أوراق مطوية مخبأة في أحد الكتب، وبعضها مدسوسًا في أغلفة بعض المجلدات، إشارات حوت بعضًا منه، من خواطره وأسراره، ووجدانه، وأمانيه ..

شرعت أفتش الكتاب تلو الآخر، حتى جمعتها، وجعلت منها كتابًا صغيرًا، أسميته "نوحيات"، وضممت بعضها لأوراق أخرى عنونتها بـ(فواصل بين الوعظِ والشك)، راودتني رغبة في طباعتهما منفصلين ذات مساء، فمررت بالمطبعة في شارع الأميرية في طريق عودتي من مجلة "الرسالة" في العام التالي للرحيل، فكان أن جاء مسلكي بجوار الكنيسة، حيث تنامى إلى مسامعي في لحظات المرور إنشاد لإحدى الترانيم، جذبتني الأصوات فدلفت إلى الكنيسة مسحورًا، فتشت بين الجدران عن الأصوات الملائكية، ووددت التحقق من أنها لا تصدر من داخلي، والتيقن من حقيقتها، فعبرت عددًا لا أذكره من الأبواب حتى صار الصوت أقرب ما يكون:

لأنك بارٌّ يا نوح وكاملٌ في جيلك
الآن وجدت نعمة في عيني ربك
فاصنع لنفسك فلكًا خشب حفر مختار
ليكون الفلك علامة خشبه صليب العار
واجعل فيه مساكن مرتفعة ثلاث أدوار
كما جمعت الكنيسة من كافة الأقطار
وأدخل فيه يا نوحٍ مع بيتك الأخيار
ومعك تأخذ زوجا من كل حي صار
وسأرسل المياه ع الأرض والبحار
فتهلك الخليقة والفُلك لا يضار

فيكون الفلك إشارة لأول الأسرار
أي سر المعمودية يلد بنيناً أحرار

غادرت الكنيسة كما المسحور، باسمٌ أجفف الدمع، وقد استأذنت القس أن يأذن لي بالحضور في كل مرة يرنم فيها المنشدون بتلك الترنيمة، فقبل رحبِ الصدر، واعتاد أن يرسل لي مرسالًا يفيد بيوم ترنيمها، وكنت أحضر مواظبَا، حتى اجتذبتني من الحياة ظلال لحيوات أخرى.

احتفظت بكتابيه ولم أطبعهما، ظل كتاب "النوحيات" كما هو، وأضفت لكتاب "الفواصل" بضع خواطر وجدتها جديرة بأن تدرج فيه، وبين المخطوطتين وحلم الكتابين، ومختارات من مصارحته الكبرى التي دونتها من قبل، أنتقي ما يواكب سياق المدونات، فأنثر بعض ما جاء فيهما بين صفحات تدويني هذا، حيثما يتفق لي.

(١٥)

"عزيزه... تنوء بحمل الدمع المقل...
ويأبى الدمع أن ينهمر...
يهاب الجرح أن يندمل...
كزرع ينبت في الصحراء، ويخشى المطر...
وكأنني أستلذ الألم، وأتحايل على الأمل...
فلا ألم يمضي بغير رجعة... ولا أمل يصدقني فيعود...
أخشى أن أضمد جرحي الغائر، فيطيب، وأعلن معه هزيمتي، وموافقتي ورضائي بأن تكوني لي محض ذكرى، وتمسي مجرد صفحة طويت من كتاب العمر، فرحلت بغير ضجيج...
أؤثر أن يبقى نزفي دافئًا، خالدًا كنبع تفجر على ضفاف نهر من أنهار الجنة، فلا يمسي ندبة منسية، ولا يناله جفاف فيندثر... أحبك... وأدمن امتصاص شعاع عينيكِ، لأنسجه في خيالي واقعًا، ألامسه، أتحسسه، فأعشق المرور على كل جسرِ، يقسم النهر إلى نصفين، ويأسرني التعلق بآخر شعاع ضوء يشطر يومي إلى شطرين متلاصقين... فما بين النهرين، ومع انسحاب الضوء من عباءة السماء السوداء... أتذكرِ لحظات أختلسها من ضوضاء حياتي، لألقي رأسي بين نهديك... طفلًا شاكيًا... ورجلًا مفتونًا... باحثًا في أعماق أخدودك، وعلى جانبي ممراتك، حيث أسير وأسري، عن عصا موسى، فمن يرسو على شطآن نهديك، هو حتمًا جدير بالنبوة!
أترحلين يا عزيزة؟
ما كان خطأي أن غاب أبي، وما كان جرمي أن رحل؟
وقفت بصمت العاجز أصرخ في وجوههم، فلم يبالوا، ألقيت تجاههم كل ما كان بحوزتي من سهام ورماح، فلم يشعروا، ألهذا الحد كنت

أمامهم ضئيلًا؟ أم أنني أخطأت المسار والتوجيه... لم أكن مستعدًا لخوض ذاك السباق، أردت بعض الوقت، فهل تستسلمين...

تهربين عوضًا عن مؤازرتي؟

تسلمين جسدك لذاك المأفون الأربعيني، لتخففي عني حمل الحلم، وما أضناني الحلم يومًا بقدر ما قسمني الهجران؟

من يجعل لك زفافًا كما وعدتك يا قطر الندى؟

من يصحبك في رحلتك إلى دجلة؟

من يعمر بيتي؟

ومن يستدعي أنفاسي حين تخور قواي؟

أين أضع رأسي حين يغالبني النعاس؟

وأين أخفي وجهي حين تغزوني الدموع؟

أين أسلم روحي حين يحين الميعاد؟ ولمن؟

عودي يا عزيزة...

اهربي ... اركضي عبر طرقات أمانينا، اجعلي نجومًا رصعناها سويًّا في كبد السماء دليلك نحو صواب الطريق... تخفي عن الأنظار في رداء الليل إذ يدثرك وكأنه صدري العاري...

فقط... عودي

وإني لك لمنتظر... مهما طال الأمد... حتى يحين الأجل...وبعد أن يحين...

أحبك"

نوح عبد الحميد البنداري

شبرا

مساء السبت ٢٧ أغسطس ١٩٢٧

(١٦)

سارة بارتمان[٨٨]

صحيفة اللوموند - ١٩٦٨

"السيدات والسادة الأفاضل...
هذه حكاية، أقُصها اليوم على مسامعكم، قبل أن يحاكمكم أبناؤكم ذات يوم، إن لم تحركوا ساكنًا حيالها. فقط، تخيلوا معي:
فتاة سمراء، تخدم أناسًا أحاطت برقابهم ياقات بيضاء، لتقيهم حرارة الشمس، التي لفحتها هي منذ مهدها، تحبهم، فتضفر خصلات شعر شقراء، لأطفال بياضهم كما الثلج، ينظرون نحوها بألفة وتعجب، تقف أمام الألوان ذاهلة، ترتاب في أمرها حين تقارن ما تراه من ألوان زاهية في منزل سادتها، حيث أطياف قوس قزح باقية لا تغيب، مع واقعها الداكن، القاتم في أبهى مواسمه، (سارة) فتاة شابة، تلتقي برجل إنجليزي، حط رحاله في منزل سادتها صديقًا زائرا، مهنته طبيب، وهوايته المتوارثة هي الاتّجار بالعبيد، ينتبه الدكتور (دانلوب) لتفردها الذي لم تلاحظه هي يومًا، وإن ظل قابعًا خلفها منذ عقدين من الزمان: ألا وهو مؤخرتها الضخمة! تقتنع (سارة)، الإفريقية التعسة، إثر إلحاح (دانلوب)، وإسهابه في إحاطتها بوعود الثراء المأمول، بأن تسافر لتعمل في سيرك (لندن)، وهي ابنة واحد وعشرين عامًا، تهجر قبيلتها، لتقف عارية كما ولدتها أمها، أمام أصحاب الياقات البيضاء، هناك في "بيكاديللي"[٨٩]، كانت ترتجف، تشعر بهوان يقبض على صدرها الضخم، تحاول مواراة موضع عفتها عن الأبصار الشاخصة، فتطوقها مدربة الضواري بالسياط، حتى تؤدي دورها على أكمل وجه، فتنحني وتتمدد وتجلس وتقفز، وتأتي بكل ما يبرز حجم مؤخرتها الضخمة، المحاطة بأعين ذاهلة، لم ترَ فيها تلك المرأة الشابة، التي تمناها كثيرون من أبناء وطنها، بل كانت مجرد مؤخرةٍ ضخمة، تكتظ مقاعد السيرك كل يوم ببشر، فقدت أرواحهم جزءا من إنسانيتها،

لمشاهدتها، تدر المؤخرة أرباحًا طائلة لأصحاب السيرك، فيَسمح للمتفرجين بملامسة مؤخرتها مقابل دفع مبلغ إضافي، ليمسي لمؤخرتها سعران: سعر للمشاهدة، وسعر للمس!

(سارة) لم تنل من الأرباح أي مما وعدها به تاجر الرقيق الإنجليزي، فكانت تعيش على الفتات، وترضى به، فتقف أمام القاضي في محكمة هولندية، لتعلن أنها تفعل ما تفعل بإرادتها الحرة، وأن أحدًا لم يرغمها على شيء، يصرفها القاضي، فتعود إلى (بيكاديللي)، حيث لا يزال عقدها ساريًا مع (ويليام دانلوب)، لتواصل ما لم تتعلم غيره يومًا، فتعرض مؤخرتها العارية، أمام نفوس مريضة، وأهواء منحرفة، لم تر في المرأة شيئًا سوى جسد، ومتاع، واستمتاع. حين ثار النبلاء من القوم على ما يجري لها مجددًا، ضُيق الخناق على ظهورها في (بيكاديللي)، فهرولت خلف حلم آخر، فانتقلت إلى سيرك (باريس)، لتقف عارية من جديد، صارت قدماها هذه المرة أكثر ثباتًا، وقد تطاير خجلها تحت وطأة الهوان والاعتياد. لم تحاول مواراة أي من أجزاء جسدها، وتركته بين الأعين وقد اعتاد وخز الأنظار، وغلظة الكفوف إذ تلامس مؤخرتها الفريدة، تدمن الخمر، تنظر في مرآتها ذات الإطار الصدئ كل ليلة، فتشعر أن بشرتها صارت أكثر اسمرارًا، وأن ملمسها قد أصبح أكثر خشونة، تسأم الوحدة، فيمسي خنوعها رفيقها، ومؤنس وحدتها.

يظهر في حياتها طبيب فرنسي شهير، هو البارون "جورج كوفييه"[٩٠]، طبيب آخر، ينشغل هذه المرة بإجراء تجاربه على جسدها، في محاولة لإثبات علاقة بين القردة والرئيسيات، وساكني القارة السمراء... يخفض مالكو السيرك حصتها ذات مساء، فتجد لمؤخرتها فضيلة أخرى، إذ يطلب منها أحد مرتادي السيرك، أن يضاجعها مقابل ما تحصل عليه من العروض اليومية طيلة شهر كامل، فتفعل، يجيئها راغب آخر، فتلبي رغباته، تنقض عليها أجساد مثقلة بالخسة والفجور والحيوانية، تُدهشها همجية هؤلاء القوم حين يباشرونها، وهي الآتية من رحاب عشائر تقدس المرأة، هناك

في قلب أدغال إفريقيا، وبرغم اندهاشها، اعتادت أن تستسلم، واعتاد جسدها أن يمسك بناصية الأمور وزمامها، باعتباره مضخة الرزق، ومصدر الطعام.... جاءت من أراض حارة، وامتهنت العري في بلاد أشد صقيعًا، فلم يتحمل جسدها الأسمر، سوى خمس سنوات، سقط بعدها في براثن التهاب الرئتين، المقترن بمرض الزهري، الناتج عن ممارسات جنسية غير صحية، فتوقفت مضخة الرزق عن ضخ ما يلزم في الدماء من قوت يُعين على البقاء، لم تعد لها قيمة حين توقفت مؤخرتها عن الاهتزاز، وعجز فخذاها عن حمل المزيد من عباد الشهوة.

السيدات والسادة الأفاضل... لقت (سارتجي بارتمان)، المعروفة في عروض السيرك بـ (سارة بارتمان)، ربها، وهي مريضة، فقيرة معدمة، ابنة ستة وعشرين ربيعًا، انتهت حياتها، ولم تنته مأساتها، إذ إن البارون "جورج كوفييه"، قد أعطى نفسه الحق في تشريح جثتها، فانتزع من جثمانها مخها، وفرجها، وهيكلها العظمي، وأجزاء أخرى، حفظت في الفورمالين، وتعرض حتى اليوم في متحف الإنسان في باريس، لتُحرم (سارة بارتمان) من حق الإنسان الطبيعي في أن يوارى الثرى، رغم وفاتها منذ قرابة المائة والخمسين عامًا...

السيدات والسادة الأفاضل... أنا (فرانشيسكا دي لاوري)، المواطنة الإيطالية الأب، الفرنسية الأم، أطالب الشعب الفرنسي الأبيّ، الحر النبيل، بتحرير رفات "سارة بارتمان" من أسر "متحف الإنسان" في باريس، وإعادته إلى وطنها في جنوب القارة الإفريقية، حتى يوارى رفاتها الثرى، وتسكن روحها المعذبة... حرروا رفات سارة، حتى تتحرر أجيالنا القادمة من العار الذي ألحقه أجدادنا بالبشرية، وبهم.

فرانشيسكا دي لاوري

(١٧)

زوال بكارة قلب
القاهرة ١٩٦٩

جلست عروسًا شمعية، زُين وجهها بشتى مساحيق التجميل، فرأته حال مطالعته في مرآتها التي تطالعها اليوم لآخر مرة، وقد صار أقل جمالًا عما اعتادت مطالعته كل صباح، هالات سوداء ظلت رغم المساحيق بادية، أسفل جفنيها المتورمين، قال الطبيب أن عينيها ستصيران أفضل حالا خلال أسابيع إذا ما واظبت على استخدام قطرة العين التي وصفها لها، اشترى أبوها عبوتين من قطرة العين، منذ أسبوعين، تمهيدًا لمناسبة اليوم، ولم يعلم أنها قامت باستبدال الدواء في الزجاجات بالماء...

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى...؟

هي لا تذكر متى قرأت رثاء الخنساء[٩١] لأخيها أول مرة، ولا تعلم لماذا ظل استهلال القصيدة طاغيًا على أحداث الوعي واللاوعي، تتردد أصداؤه في خلفية كل مشهد، خلال الأشهر الأخيرة التي تلت رحيل (نوح البنداري).

فقدت برحيله السند، والأمل في عودة الحبيب الغائب بين رغام ودماء، ظل التمني حاضرًا طالما ترددت أنفاس عم نوح في الحارة، ففي مرور ظله أمام الأبواب المغلقة، فتح لطاقات الآمال الذوابل، وحفظ للعهد، وإرغام لأبيها على القبض على كلمته وعدم الحنث بالوعد، خلافًا لسننه المعتادة، ودحضًا لرغبته المتنامية في تغيير اسم المشتري في عقد الزفاف، من (إسماعيل البنداري)، إلى (عبد الرحمن الدمنهوري)...

(عبد الرحمن) ذاته، ظل صامتًا مترقبًا، محترمًا للنسب الذي يجمع أخوه بالبندارية، وكان في مقدمة المعزين في (نوح البنداري)، وحضر صلاة الجنازة عليه في التوابية، كما أسر لزوجة أخيه، (مريم)، أنه كان على علم باستشهاد (إسماعيل) منذ الشهور الأولى التالية للنكسة[٣٤]، ولكنه آثر ألا

يجيء الخبر من خلاله، حرصًا على تجنب أن يساء فهمه، ولكنه لم يذكر لها أنه ألح على أخيه (إحسان) أن يسارع بإعلام الأسرة باستشهاده، حتى يعاود مطلبه للحاج النبراوي، بتزويجه (عائشة)، كما لم يذكر أنه ثار واستشاط غضبًا، عندما جلب المندوب العسكري الخبر اليقين لـ(نوح البنداري)، وقرر الأخير كتم الخبر وعدم إعلانه، رافضًا تصديقه، رغم تسليمه متعلقات نجله الراحل، وأنه لولا أخاه (إحسان) لكان قد نفذ خطته بإرسال خطاب إلى (عائشة) كي يعلمها بمصرع خطيبها.

بوفاة (نوح)، أعلن (إبراهيم) ما اعترف له به أبوه، واختصه بمعرفته إبّان سكرات الرحيل، فكان المعزون، الذين لم ينقطعوا عن صوان العزاء طيلة سبعة ليال متصلة، يعزون (إبراهيم)، في أبيه وأخيه في آن واحد.

مرت أربعون ليلة على رحيل نوح، فلما جاءت الليلة الواحدة والأربعون، أعلن الحاج النبراوي خطبة عائشة على عبد الرحمن الدمنهوري، وأضاءت الأنوار الملونة حارة البنداري، وكان في تلك الليلة، أن نشأت هوة سحيقة باعدت بين (مريم) و(إحسان)، إذ صنعت أضواء الزينة ومظاهر الاحتفال، شرخًا غائرًا في جدران زواجهما التقليدي الصامت، ولم يشفع لـ(إحسان) محاولاته الصادقة واعتذاراته المتكررة، وتأكيداته الموثقة أنه لم يكن على علم باتفاق أخيه مع النبراوي، فكانت (مريم) كمن وجدت ضالتها، وتشبثت بفرصتها الحقيقية للتملص من ميثاق، لم يجبرها أحد على توقيعه.

استرجعت الأحداث بروية، شعرت بألم في عينيها يتصاعد مع مقاومتها إفراز الدمع، طالعت جدران غرفتها، مودعة قبل أن تعاود مطالعتها لخطابات إسماعيل، كان آخر خطاباته من الجبهة محملًا بالأمل في اللقاء، واصفًا الأحوال على الجبهة بأنها روتينية لا تدعو للقلق. غير أنها لم تتوقف دوما عن القلق والتوجس!

ينتزعها من شرودها، دقات سريعة على باب غرفتها تلاها دخول أمها دون انتظار، تتفحص بعين خبيرة انحناءات فستان العروس على جسدها،

وتراجع انسدال الطرحة الشبكية على وجهها من عدة زوايا، ثم ترفعها لتتأكد من ثبات مساحيق التجميل وعدم ذوبانها تحت تأثير الطقس الخانق الذي باغتهم جميعًا تلك الليلةِ، كانت الأم تتصبب عرقًا، فأقلقها ملمس وجه ابنتها البارد، بيد أن نداءَ من هنا أو هناك اجتذباها من قلقها وألقيا بها في معترك مهام أخرى، تليق بأم العروس في ليلة زفاف ابنتها...

- سأجعل لكما زفافًا كزفاف قطر الندى، وأثق أنكما حتمًا ستلاقيان مصيراً مغايراَ، ذلك مما قطعته على نفسي من وعودٍ لم أحققها في الماضي السحيق، ولكن لسان حالي الآن، يهدر صائحًا: ولم لا أحقق الوعد الغائب فيكما، فأتحرر من تأنيب الذات على الحنث به!؟

استرجعت كلمات عم (نوح) مختلطة بقصيدة الخنساء، فتثاقلت حمول القهر، حتى أضنت كتفيها الرقيقين، فبدا على جسدها ثمة انحناءة لا تليق بمن في مثل صباها.

- وها أنا الآن يا عم (نوح)، أفشل في مراوغة الأقدار، فما أنال زفافًا كقطر الندى، وإنما أفوز فقط بمصيرها..

تمتمت بحروف بحت إثر نحيب الروح الصامت، الهاطل بغير دموع، حين كانت قد سيقت لتجلِس إلى جوار زوجها المستقبلي، وقد غالبها شعور أنها كمن وضعت قسراَ في غرفة عرض زجاجية، يطالعها المدعوون بفضول، لِيُقيِّمُوا، ويثرثروا، ويتسامروا، ترى نفسها كدمية عرض بلاستيكية، يَشاهدها العشرات وربما المئات، ولكن أحدًا لن يلتفت لها، فيأبه لحالها، ويهب لإنقاذها مما اقترفه أبوها من جرم تجاهها...

- لماذا رحلت يا (إسماعيل)!؟

همهمت بما تظاهر (عبد الرحمن) بأنه لم يسمعه، وإن قطب ما بين حاجبيه ضيقًا، وقد اعتراه ضجر من تحمل واقع راسخ هو أن زوجته، التي عقد قرانه عليها منذ لحظات، لا تراه! بل وتصر على تجاهله، غير أن ضجره كان لا يلبث أن يتضاءل، وينزوي في ركن النسيان، فور ظهور

مارد رغباته الجنسية البحتة، ليمارس سطوته على العقل والقلب، ويذكره بأن النيل من جسد معشوقته، قد أمسى على مبعدة بضع ساعات، فلا يليق بضجره المنبثق عن مسميات رنانة كالكرامة والرجولة، أن يفسد ما وصل إليه اليوم، وما هو على أعتاب الفوز به...

علت الزغاريد، وتمايلت الراقصات في ميوعة، ولم يتوقف عبد الرحمن عن ملامسة تفاصيل جسدها بأعينه الحبلى بأعتى أمارات الاهتياج، تذكر أقاصيص أصدقائه عن مغامراتهم العاطفية والجنسية في الجامعات التي التحقوا بها، واستدعى حسرته على الحرمان من ملذات كتلك، وقد أصر أخوه (إحسان)، القائم بمهام الأب الراحل، وحائز سطوته واختصاصاته بحكم الإرث، على إلحاقه بالكلية الحربية، خلافًا لأهوائه هو، بغية تقويمه، فمنحه مستقبلًا عمليّا، مستقرًا آمنًا. تذكر كيف شغلته طبيعة العمل بعد التخرج، وظروف الوطن، عن العيش والتعايش كمن في مثل سنه، حتى أمسى يلعن ذلك الوطن، الذي يطلب منه أن يحميه، دونما مراعاة لما يحب ويشتهي!

قبض بيسراه على كفها الأيمن فلم تبد مقاومة، شرع يداعب رسغها بأنامله كما نصحه أصدقاؤه المقربون، فلمَ تبدَ كمن حلّت بها القشعريرة كما أخبروه، فعاوده شكه الدائم في قدرته على الإتيان بمثل ما اعتاد أصدقاؤه تكراره.

هي لم تشعر بملامساته، حتى حين احتدت فبلغت حد القسوة، وحين بدأ الحضور في تهنئتها، وتوديعها، في إشارة لقرب انتهاء فقرة العرض العام، ودنو لحظة الامتهان الجسدي كما أسمتها هي، شعرت بقشعريرة باردة، تجوب كامل جسدها، وشهقت حين استشعرت كرة من ثلج تلامس ما بين ساقيها المضمومتين، فتنبهت أنها في غرفة النوم، التي اختارت أمها أثاثها، وقد تعرى نصفها السفلي، وسقطت عنه ورقة التوت، وانكفأ عبد الرحمن بحيث صار وجهه مواجهًا لموضع عفتها، محاولا المباعدة بين فخذيها المنغلقين، المعنونين بالرفض القاطع. لم تصرخ ولم تستسلم، وظلت

عيناها غير مغمضتين، متشبثتين بسقف الغرفة الأرجواني اللون، شعرت بثقل يعتليها، وقد قيدت ساقها اليمنى في إحدى أرجل السرير الخشبي بواسطة حزام جلدي، فصارت مقاومة الساق اليسرى يائسة يغالبها الخدر، وحين ارتكز بساعديه المفتولين على رسغيها الرهيفين، فتمكن من كامل جسدها الممشوق، بعد مقاومة صامتة دامت قرابة الساعة، اخترق حصونها بذخائر الثأر، منتقمًا من كل شيء، منتقمًا مما حُرم منه من ملذات، منتقمًا ممن تندر عليه من أصدقائه بقلة الحيلة لضعف الخبرات، منتقمًا من أخيه (إحسان) الذي عطل زيجته هذه شهورًا مضت كالدهر، منتقمًا من (إسماعيل) الذي انتزعها من براثنه في المرة الأولى، منتقمًا من الوطن الذي لم يُقَدِّر احتياجاته طيلة الوقت... من شعوره بالخزي الذي لم يفارقه منذ أن أولَى العدو ظهره، وترك رفاقه يستغيثون من خلفه، وهرب، وفي ذات الوقت، كان ينتقم من تجاهلها له...

دامت تموجاته فوق جسدها المموج أقل من دقيقة واحدة، قبل أن يفرغ مرتعشًا حمولته أينما اتفق له، ثم نهض متسارعًا لمعاينة دلائل البكارة، فلم يجد سائلًا غير منيه المتناثر، هاله غياب اللون الأحمر، فواصل التنقيب عنه مستخدمًا أصابعه كما أشار عليه أخوه من قبل، فما كان إلا أن غابت (عائشة) عن الوعي...

بإصرار من (مريم) زوجة أخيه، تم تشكيل لجنة ضمت أم (عائشة)، وأم (عبد الرحمن)، و(عبد الرحمن)، وأخاه (إحسان) و(مريم)، وقاما بزيارة لطبيب اختاره (عبد الرحمن) بمعاونة من (إحسان)، بعد ليلة الزفاف بأسبوع، قضته (عائشة) في منزل أبيها، محاطة بالريبة، مكبلة بالشكوك. فجاء قضاء الطبيب وحكمه، أن الله قد جعل لـ(عائشة) غشاء بكارة مطاطيًا، مراوغًا، يصعب فضه دون تدخل طبي، أكثر من شروحاته للأمر حين لاحظ ارتياب الزوج وأمه، واستفاض في تأكيداته أن الحالة ليست شائعة...

همست لها (مريم) في طريق عودتهم:

- فُضَّت بكارة القلب واستعصى على الغاصب فض بكارة الجسد، فباتت الفتاة النقية الطهور، على عذريتها.

حين عاد الزوج والزوجة لعش الزوجية، وقد فض مشرط الطبيب بكارتها أمام زوجها التعس، وأمه المتبرمة التي لم تتوقف عن اللكز والتبكيت، صدر عن عائشة ضحكتها الأولى منذ عامين، فنالت ضحكتها مما تبقى من أنقاض الثقة لدى زوجها الموهوم، المطعون في ذكورته، كما استشف من كلمات الطبيب وتهكمات أمه، عزف عن ملامستها شهوراً، وتشاغل بعمله، وزاد تشدقه بخدمة الوطن، وعلت نبراته حينما حل الحديث عن الدفاع عن الأرض المغتصبة، فلما عاد لمواقعتها، كانت لقاءاتهما أشبه بالمناوشات الحذرة، المكتملة فيما ندر، وحين أثمرت تلك المناوشات المنقوصة عن ارتفاع بطن عائشة ذات يوم، نما شارب عبد الرحمن فتركه هذه المرة لينمو أكثر من ذي قبل، فلما مر من أشهر الحملِ نصفها، اشترطت عليه عائشة أن تسمي المولود (إسماعيل) لو كان ذكراً، فماطل حتى أذعن صاغراَ بعد وفاة أمه، دنت لحظة الميلاد فاختارت أن تجالسها في أواخر أيام الحمل (مريم)، فغضبت أمها ولم تأبه هي.. جاء من رحمها من تمنت أن يعمر أرجاءه ذات يوم، واستقبلت (مريم) (إسماعيل) الصغير، فاختلطت دموعها بماء تحممه الأول. جمع حوار قصير بين (عائشة) و(عبد الرحمن) في ذلك اليوم، قرر على إثره (عبد الرحمن) التقاعد وتسوية معاشه، كان ذلك في عام ٧٢، وكانت الموافقة شبه مستحيلة في ذلك الوقت نظراَ لاحتلال الأرض وتأخر الحرب، بيد أن أخاه (إحسان) ساعده في تقديم شهادة تفيد اضطرابه النفسي، فلم يُقبل طلبه بالتقاعد رغم ذلك، ولكنه أحيل للشئون الإدارية، وأبعد عن الجبهة، وفي غضون شهور، دبر له أخوه أن يعين ملحقًا في سفارة مصر بكندا، رغم عدم استيفائه للشروط آنذاك، ليهاجر صحبة (عائشة) و(إسماعيل) الصغير، ويستقر هناك، لتنقطع أخبارهم للأبد.

لم تمانع (عائشة) الهجرة، وإن قضت لياليها الأخيرة قبل السفر في رفقة (مريم)، صحبة صبيها، لم يكن لديها ما يبقيها، وقد أمست مهاجرة بين الوجوه إثر استشهاد وطنها، غدراً، دون أن تبكيه أي من هذه الوجوه، تناساه الجميع، وعادت حفلات الربيع، وكأنَّ شيئًا لم يكن، علمت أن أخاه (إبراهيم)، قد باع بضعة قراريط من أرض التوابية، وأضاف إليها ما رده له أبوها من أقساط مهر إسماعيل، وقام بشراء بيت في الدقي، فاستشفت أنه يخطط للهرب بدوره، فزاد استمتاعها بالهجرة والهجران...

هرب (عبد الرحمن) من هزيمة وهمية، وخزي زائف، وغادر وطنه منكس الرأس، فلم يستحق أن يشارك في نصر العام التالي، وغادرت (عائشة) وطنًا فقد قدسيته برحيل (إسماعيل)، مرفوعة الرأس، منتشية بنصر زائف، وفوز واهم على خصم خيالي...

وكانت (مريم)، هي فقط من شهد ما نطقت به (عائشة)، مخاطبة (عبد الرحمن) فور ولادتها، حين قالت:

- ذلك (إسماعيل) آخر، عوضًا عمن تركته خلفك في الجبهة قبل أعوام، فاحرص على ألا تهرب هذه المرة..

(١٨)

خواطر متفرقة

من المصارحة الكبرى لنوح البنداري

ألفٌ مكسورة هي الأولى

إبراهيم

قُلت ذات صباح يا (إبراهيم):

- حين تعطي طفلًا بندقية، تتغير قسماته، ويعلو صوته، ويستشعر قوته، فيختلف منظوره لمن حوله، إذ إنه لا يعلم أن ما يهددنا به ليس سوى لعبة بلاستيكية، سوف يلهو بها ساعة أو ساعتين، ثم لن يلبث أن يلقي بها، ولكنه تأثير القوة، وسحر السيطرة المتعاظم إثر ملامسة السلاح...

فما بالك بمن حمل بندقية حقيقية لسنوات طالت؛ كيف يرى من حوله؟ كيف تأتي ردة فعله!؟ كيف يغضب، وكيف يثور!؟ وإلى أي مدى تراه قد بلغ في تلاوة طلاسم أسحار القوة، وطقوس تبريكات السلاح؟

فقلت ما أصابك يا صانع البهجة، حتى تمسي بمثل هذا التشاؤم؟

وكنت على علم بخوفك على أختك، والتي بلغت بك أن أعلنت لي صراحة عن رفضك لخطبتها من (إحسان الدمنهوري)، دون تبرير قويم، وتفسيرٍ سليم، ولكن فورتك المتصاعدة في قلبك، والتي ميزت أنا لبراكينها حممًا، تلمع في عينيك كالشرر، بدت لي أكثر مما يستدعي الأمر، خاصة وأن (مريم) لم تعارض الزيجة، كما عارضتها أنت.

وربما كان اندهاشي لكلماتك، أمر مرجعه اعتيادي لما هو من ذلك على النقيض، فقد كنت دومًا يا بُني نبع البهجة المتفجر في بيتنا، إذ اتخذت من طمأنة الآخرين وظيفة، وجعلت من احتضان آل البيت والتربيت على

أوجاعهم حتى تزول: هواية، فكانت إحاطتك بنا جميعًا، رسالتك المحببة، رغم انشغالاتك المتفرقة عبر مراحل عمرك الشابة.

وقالت (مريم) ذات مساء:

- تمنيت أن يتزوج (إبراهيم) قبلي.

وجاءت ليلة الزفاف فقالت:

- لن يمسني (إحسان)، حتى يرضى عن زيجتنا (إبراهيم).

نهرتها أمها، وقد رأت في كلامها تقليلًا وتحقيراً من سلطتي كأب، إلا أنني ابتسمت، فرحًا باطمئناني، أن صار لها ولـ(إسماعيل) أب بديل، يحمل أسفار الأبوة وأختامها، حين أنْتَقِل إلى البرزخ الأعلى، ولم لا أسعد إن رأت (مريم) فيك أبًا إضافيًا، وأنا ما زِلت على قيد الحياة؟ لا مجال هنا لتنافس أو غيرة، حتى وإن كانت (مريم) تكبرك بست سنوات، فطبيعة رسالتك التي سننتها لنفسك، جعلتك كالأب الذي يهرع إليه المخطئون للاعتراف، والتطهر من دنس الذنوب...

وقلت أنت بعد تفكير لفه شرود طويل:

- ليكن يا (مريم)، يبارك لكما الله، ويخلف عليكما بصالح الذرية، أتمِّي زفافك، واعلمي أنني باقٍ هنا لأجلك، فإن همستِ باسمي، حضرتُ كمارد علاء الدين...

أذكر أنك اختتمت كلماتك بالضحك، وظلت هي تحدق في عينيك، وتطيل النظر كي تتأكد من جديتك فيما قلت، جاءت تعتذر مني وتطلب مسامحتها على ما بدر عنها في ليلة زفافها، فتلوت عليها تبيانًا ما زلت أذكره:

- ما يضير امرأً، إن أمضى عمراَ يدعو ربه أن تطرح أرضه الزرع، فطرحت، فقضى عمراَ آخر، يحرص على ري الزرع، وحراسته وتقليمه وتهذيبه، ودعا ربه أن يحفظه، فلبى الله مناه وحفظ زرعه، فوجد يومًا أن زرعه قد نما، واستحال قبلة، لمن يبتغي الظل من حرقة الشمس، ولمن يتوق للراحة من بعد كدٍّ عظيم؟

ألفك المكسورة يا إبراهيم هي انكسار للكون، فَإن فُتحَت أَلِفُكَ صارت أَملًا، وصرت أنت الحلم المتعلق بآخر عربات قطار الوَطن، إنَ سقطْتَ، حاد القطار عن المسار، وإن رحلت غاب عن أيامنا التمني، والتحم الليل بالنهار، الوجوه المكفهرة الراكضة خلف قوت صغارها، ستفقد بسماتها، بغِيابك، يغادر راكبو القطار عرباتهم، قطعانًا بلا راعٍ، ورعاة بغير مُرَوج...

جِل حروف الهروب منقوشة في حروف اسمك...

الباء بوح بالسر، وبلوغ للغاية، وبراح مِفقود. والراء ربيع يتلوه رحيل، وركوض خلف الرؤى. والهاء هموم، وهوًى، وهالة من نور تحيطِ بالروح كما السوار إذ يحيط بمعصم.

أعلم أنك ستمسي يومًا هاربًا من الألم لا محالة، وأعلم أنك عائد لا محالة... فعندما تعود، كُن ألف أُلفة، تقرب بين القلوب، ولا تكن ألف أَسَى، تباعد بينها... صل ما كان بما هو آتِ، طُف حول يقينك...

ارجم أسباب الرحيل بالنسيان...

وتذكر كَلَم أبيك...

نون مضمومة

عينٌ مفتوحة
عزيزة

أنْسَحق، تدهسني حوافر جياد العجْز في سباقها المحموم صوب فوز جديد، أتفحص وجهي، فيبدو مختلفًا، أراقب ظلي، فأراه يأتي بخطوات هي خلاف ما خطوت، أمشي الهوينى في حارتنا، فأقطع الطريق من (خمارويه) إلى المنزل في قرون، الناس من حولي تبدو حركتهم متضاعفة السرعة، جرى ذلك ويجري، منذ أن رحلت (عزيزة).

لماذا أقص عليك هذا؟ لا أعرف، ولكن، كونك أول ابن من صلبي، ذكر أعني، يحجبه الخالق عن ناظريْ ملك الموت فينجو، وكونك ولدت في ذات يوم ميلادها، فدبرت الأقدار، أن أحتفل كل عام بميلادها من خلالك، كل هذا وغيره، جعلني أثق أني سأحكي لك كامل القصة ذات يوم، سأروي لك بعضًا من الأجزاء تباعًا، حتى تُكَوِّن في عقلك القصة التامة، فلا تقاطعني...

ليس لأمكم ذنب، فهي لم تبخل يومًا على زوجها بأيٍ مما يتمناه الرجال، ولم تقصِر في أي من مهام الزوجة والأم، بل كان واقع الأمر أنها تحملت ما لا تتحمله أغلب النساء، فلا تعيبوا يومًا عليها، ولا تغضبوها، ولا تستدعوا يومًا من ميراث الذكريات ما يؤلمها...

كنت في حاجة للاغتسال، حين دبرت الأقدار أن أجد نفسي في (أبو قرقاص)، والجسد يا (إبراهيم)، حين يرهق ويحل به التعب، يغتسل، فتتجدد خلاياه وينتعش، أما الروح، فإنها حين تنوء بأثقالها، وتضيق بها دروب قلة الحيلة، فإنها تتوق بدورها للاغتسال، وهذا ما وجدته، حين عانقتني الطبيعة في (أبو قرقاص). وحين سكنني الأمل مجددًا، لاقترابي القدَري من (عزيزة)، التي انتقلت بعد زواجها إلى (المنيا)، فجاء قراري بقبول البعثة، متسقًا مع فراري منها، إليها.

كنت لا أزال متأثرًا بزفافها قبل ذلك بأسابيع، حين وصلت، مُبْتَعثًا للتفتيش على المدارس الواقعة فيما بين (أبو قرقاص) و(ملوي)، فبرغم حداثة سني حينئذ، كنت أصغر من يعهد له بالتفتيش على المدارس في وزارة المعارف عبر تاريخها، كانت المدارس قليلة في ذلك الحين، وأغلبها فد أنشأه القساوسة في نهايات القرن الماضي، وبدايات هذا القرن.

وقرر الحكمدار الذي استقبلني شخصيّا، أن يرافقني خفير درك، اسمه (محروس)، فكان هو الرفيق، والحارس، والدليل.

برغم استمتاعي الدائم بتأدية فروض عملي، فقد وجدت متعتي الحقيقية في الارتحال بين القرى، حتى جاء يوم قص عليّ فيه (محروس) عن بلدته، حيث ولد وتربى، ألا وهي "تل العمارنة"، فكان قراري لحظيّا بزيارتها في الجمعة التالية، وكان الارتحال بغير عتاد كثير، مررنا بنجع اسمه "نجع شيبه" فنزلنا به ساعات علمت فيها كيف تتم صناعات التمور المختلفة، بمغادرتنا للنجع، تدلت خيمة الليل على قرص الشمس الشارد، فقررنا الاستراحة لساعات في "دير البرشا"، حتى تهل شمس الصباح على الصحراء من جديد...

كان هناك عرس في (تل العمارنة)، ألح (محروس) عليّ أن أصحبه إليه، ليعرفني على عائلته، وليشرح مظاهر وطقوس الأعراس لديهم، ولكن جسدي كان تعبًا، وعقلي كان متأملًا في (نجع شيبه)، وامتداد صف النخيل ما بين جامع النجع وكنيسته القابعة في الصحراء، وكأن الله أراد بإنبات النخيل بهذه الصورة، أن يصل المسجد بالدير، ليرسل رسالة فحواها، أنه هو الخالق من يمثل حلقة الوصل، والحبل السري الواصل بين بيتين من بيوته...

وصَرَخَتْ حيث بزغت من فراغ:

- قتلوه...

انْتَفَضْتُ شاهقًا، وقد شعرت بأن قلبي قد قفز فاستقر في بلعومي، توقف فمي عن إفراز اللعاب، فجف حلقي قبل أن تمر ثوان، حاولت التحدث فكبّلني حلقي الجاف...

كيان شفاف، يتكاثف تدريجيّا فتقل شفافيته، وتتضح معالمه، امرأة شابة، سمراء مليحة، نظراتها فاحصة، قسماتها الملتاعة ألقت في نفسي بتعاطف لفته طمأنينة، لم تلبث إذ تبخرت بفعل العجز عن درأ الظنون، تتبسم دون أن يجف فيض دمعها، طلبت مني شفتاها ألا أبتئس، ملبسها كأميرة، أو شبح أميرة، تكرر صارخة:

- قلت إنهم قد قتلوه، قتلوا الملك، مزقوه إربًا.

سخيّة في صرخاتها كانت، بخيلة في الإيضاح، شعرت بدوار يطوف بي، لم أنبسْ ببنت شفة، تحرك الطيف الآخذ في التجسد لأول مرة، واستقر بجواري، فوق فرَشتي الباردة، أغمضت عينيّ هروبًا، فرأيتها تواصل:

- رجال المعبد، كهنة الدين، كان يعلم أنهم سيقتلونه، ظل مرابضًا في معبده، رأيتهم يتجمعون، في طريقهم إليه، حاملين سيوفًا ورماحًا. أصر على أن يعبد الخالق كما يريد، ولكنهم أبوا أن يسلك منهجًا غير ما أتوا به وسنّوا، التفوا حوله في دائرة، كل منهم شاهرًا سيفه، وفي مقلتيه تقافزت كرات الدم والغضب، بعض منهم تتلمذ على يديه، غُسلَت دماغهم، نسوا أنه ملكهم، ظنوا أنهم بهذا يناصرون الرب، ولكنهم اختاروا البشر إلهًا من دون الإله بأفعالهم... قتلوه، مزقوه، نثروا بقاياه فوق الجبال، لتكون وجبة للطير الجارح، ولكيلا تكون له مقبرة...

قالت، فتزايد إيقاع الدوران، لأشعر أنني في قلب إعصار عاتٍ، أوُشك على مفارقة الوعي من فرط الفزع، كانت ترتدي زيّا لم تلبسه امرأة في (تل العمارنة) منذ عشرات القرون، وكان ما ضاعف من فزعي يا (إبراهيم)، هو أنها كانت حقيقية جدًا، بمرور الوقت تجسدت بكامل هيئتها فلم

تعد شفافة كما بزغت أول مرة، شعرت بأنني أرتجف، وسكنتني حمى مفاجئة، حين قالت:

- لا يمكنك أنت بالذات أن تتخلى عنه، ساعدني لنجمع أشلاءه، لا تتخلَّ عن (كيا)، الأرملة الحزينة، الحائرة بين الأزمنة، المذيبة لحواجز الأمكنة، لا تتركني أنت أيضًا!

أشارت بسبابتها إلى صدرها حين قالت (كيا) فعلمته لها اسمًا، تناولني نابًا بشريًّا، موضوعًا بقطعة كتان مربعة الشكل:

- هذا ما تبقى منه.

تقول ما كان لي آخر ما سمعت.

علمت فيما بعد، أن (محروس) حين عاد بعد انتهاء العرس، وجدني محمومًا... وقال لي إنني هذيت بما لا يصدقه عقل...

وقيل إنه ظل إلى جواري ثلاث ليالٍ، يندب فيها حظه العاثر، إذ عين مرافقًا لشاب ممسوس مثلي... وقص عليّ حكايات عدة من طفولتي وشبابي، وحكى عني حكايات أخرى لا أعرفها!

وقال الأطباء في القاهرة حيث حملت إليها بعد أيام من (ملوي)، أن نوعًا نادرًا من البعوض قد لسعني... وقال (المازني)عقب ذلك بسنين أنها كانت لعنة الفراعنة...

وقلت أنا يا (إبراهيم)، إن ما كان من الحمى والهذيان، ما هو إلا رسالة من الله أن أبتعد عن (المنيا)، وعن (عزيزة) وأن أواصل حياتي بعيدًا عنها، وهو ما نفذته، فتزوجت من أمك بعد ذلك بسنة، أنجبت لي (مريم) بعد تسعة أشهر من زفافنا، ثم عكفت على حرث حقولها، باحثًا في جنباتها عن بذور الذكور، مررت بإحباطات شتى، حتى قرر الخالق أن يهبني إياك يا بني، فجئت في يوم ميلاد (عزيزة)، فدار رأسي، فالله عز وجل، كان كمن يريد بي من جديد ألا أنساها، فلماذا كان ما كان في (تل العمارنة)؟ وماذا كان ما تم، إن لم يكن مشيئة الله بإبعادي عنها!؟

ولم تهدني سبل الحكمة، حتى الساعة التي أسطر فيها هذه الخواطر، إلى تفسير مريح، لواقع تجاهلته لسنين، ألا وهو أنني، حين أعدت إلى القاهرة، وجدت في جيبي، لفافة من كتان، تحوي نابًا بشريًّا...

ذلك مما لم أعلمه إلى اليوم...!

نون مضمومة

ألفٌ مكسورة هي الثانية

إسماعيل

وكطفل حملته، وظللت أهدهد الأمل كرضيع، محاولًا تهدئة نداءاته، وطمأنة الحلم المتسرب من نسيج الواقع البالي، إلى طيات الحلم الآخذ في التكون، وكطفل يستكين على صدري، يقبع ولا يغادرني...

عبر دوامات الأزمان، وارتحال الأبدان من مكان إلى مكان، وبين إقبال الغد وإدباره، ظللت أحمله كطفل، أدثره من صقيع اليأس، وأحيطه بما يتيسر من مشاعل التمني، المتأرجح لهبها ما بين اليقظة والرؤيا، وكطفل كبر، يومًا عن يوم، نما دون أن ألحظ نموه، حتى شب عن الطوق، ومزق أصفاده، وقطع بأظافره حبلًا سريًّا كان وصالًا بيننا، منذ أولى لحظات اللقاء، فرحل الحلم، كطفل جاء، وكطفل رحل... وبقيت أنا أبكيه، وأنادي عبر الدروب أصداء ضحكات كانت، أبحث بين النسمات عن رائحته، أشتمّ موضعه حيث كان بي لصيقًا ذات ليلة، ألملم ما بقي من الذكرى،

وأضمها،

أقسو عليها ولا أهدهدها...

وأظل أبكيه...

كما الأطفال...

نون مضمومة

ألفٌ مفتوحة ممدودة

آدم

بعرض سماء الصيف، مُدّت بذات الصفاء ألف لآل (البنداري)، من بعد انكسار سابق الألفين، فأولى الألفين (إبراهيم)، قد اهتزت همزته على بنيانه المتين، فترنحت، وثانيهما (إسماعيل)، قد صَنَع من همزته خوذة يتقي بها الضربات، هناك في قلب الصحراء، حيث الزمهرير والقيظ كتوأمين متلاصقين، يتقلبان على فراش السماء ما بين الليل والنهار.

(آدم) قد جاء مجدداً للرسالات، ومحرراً للإرادات، ومرطباً لأفواهنا بالابتهالات والتسابيح، ذابت لرؤياه جبال الثلج التي جثمت على صدري منذ رحيل (جميلة)، وأنهكت براءته جلادي الأثير، الذي صاغه ضميري، ليعذبني إثر رحيلها، فتوقف عن إيذائي، وساد الخيال شيئًا من سكون، فغمرت جنبات البيت، بسمات كانت قد غابت لوقت طويل، إلا أن بشائرها كانت قد هلت، مع حلول (أم خليل)، قبل عام من ميلاد (آدم)، يومئذ شعرت وكأن نسائم هائمة قد ألقت بمدها، مداعبة ستائر نوافذنا، وأخذ نسق التمايل يتصاعد، حتى علت أمواج الحبور لتغمرنا، بمجيء ملاكي الصغير، أول البشر، وأول الأحفاد.

(أم خليل) لم تعد مع (إبراهيم)، فغاب شيء من بريق كان قد خفت برحيل (أبو شنب)، قال (إبراهيم) إنها لقيت فتاها الغائب مصادفة، يوم ميلاد (آدم)، فاخترت -طواعية- أن أصدق قصته، رغم اختلاف الحدس في قلبي مع ما تشربت الآذان... آثرت أن أواصل احتفالًا لا يدرك غير الله متى تحل نهايته، وأخذت أجرع أنخاب الفرحة بالأحفاد، التي غابت منذ خمسة عشر عامًا، هي ما مضى من الوقت على زواج (مريم).

كان يشبه عمه (إسماعيل)، ذلك لمن رأى (إسماعيل) رضيعًا، وافقني أبونا (يوحنا) الرأي، ولو أطال الله عمر شيخي (الرفاعي)، ليبصره، لكان حتمًا من المؤيدين.

حديقتنا استعادت عافيتها، وأضحت يافعة فتية، فلانت أغصن الزمن المتيبسات، ومالت حتى لامست كتفي فربتت عليه، تناثرت ألوان في أرجائها، ونبتت أزهار لم ألقِ يومًا بذورها، واستعادت شجرة السرو الهرمة عنفوانها، فشبت شامخةً في موضع القلبِ من الحديقة، فقط حين تبسم (آدم) إثر مداعبتي له، حين كان مستلقيا على ساقي، جاعلًا من جلبابي الأبيض سريرًا معلقًا، في مجلسنا على بعد خطوات من شجرة التوت...

"رحمك الله يا جميلة".

طالما أتمتم بذات كلمات الترحم عليها، عند مطالعتي لشجرة السرو، فبجوار تلك الشجرة، كان مجلسها الأثير، ربما رُفع مقعدها من موضعه، ولكن الأرض المحيطة بالسرو، تحمل قطعة من روحها، ربما شكتني للشجرة في ليلة من ليالي الضجر، ربما بكت بجوارها، هذا ما أظنه، أما ما أعلمه، فهو أن الشجرة شاخت واصفرّت، قبل مرور أربعين يومًا على رحيل (جميلة)، وكأنها رفضت المياه التي تأتيها من غيرها، شجرة تأبى أن تروى، وتحزن على البستاني، فتكاد أن تلحق به، حتى تتحقق إحدى أماني البستاني، ويأتيه حفيد لم يمهله القدر ليبصره، فتستعيد شجرة السرو شبابها بمرآه، وتستدعي هيبتها وجمالها، لتشرئب من بعد جفاف وانكسار.

كبرت (مريم)، وما أثمرت...

وتبًا لعقارب الساعة، حين تلدغ أعذب الأوقات، وتسرق البسمات الآخذة في الاتساع، فقد كانت بالأمس طفلة، فصبيةً تزوجت في ريعان الصبا، فامرأة رزقت بزوج نضبت آباره، وجفت مياه الخصوبة في جوفه، فأمست أمًّا لأخويها بعد رحيل الأم، وواصل رحمها البكاء، ولعله يواصل حتى ينضب بدوره... ولكنها بندارية، حفظت الإرث فعملت بتعاليمه، وأبت أن تهجر زوجها، وارتضت بدور رسمته لنفسها، بحروف من القناعة والرضا، والإيمان بالمصير...

كنت قد انتزعت الرضيع من أمه، (دنيا)، قبل أن يتم عامه الأول، إثر توترات إعجازية، طرأت على علاقة الأم برضيعها، فالأم -العصبية بالفطرة- ضاقت ذات يوم بمهام الأمومة ومواثيقها، فثارت واستشاطت غضبا، سبّت ما سبّت من الأقدار والمصائر، وكأنها تعلن رفضها لقضاء من خلقها امرأة، ولعنت فيما لعنت، وليدها (آدم) وساعة قدومه.
الإعجاز لم يكن فيما صاغته (دنيا) من صورة قبيحة للأم، بل كان في رضيعنا (البنداري)، الذي اهتز كبرياؤه، وشرخت كرامته فرفض من يومها أن يلقم ثدي أمه، فكان فطامُه كما أراد به، انفصالًا واستقلالًا مبكرا، أعتقد أنه سيلقي بظلاله على مستقبل قريب، هو أصعب ما يكون إدراكه لمن هو في مثل سني...
كبرياء (آدم)، أسعد أباه، وأرهق أمه، وغمرني بالطمأنينة، إذ أنبتت الثمار ما غرسه الجدود، فتلاحمت بالجذور...
وصار بإمكاني الرحيل.

نون مضمومة

خواطر متفرقة

سطور مخطوطة على الغلاف الداخلي لكتاب للعقاد

حكمة منثورة

يكون المرء طفلًا... يتحدث كثيرا... ولا يطيق الوصاية فيرفض الاستماع، ويضيق بالتلقي، وتظل عيناه معلقتين بعنان السماء، منتظرا كوة الغد البارزة في صدرها، أن تنفرج. يتكلم كثيرا ولا يريد أن يسمع... ويغدو الطفل كهلًا يصمت كثيرا... ويظل على ضجره من التلقي، يذبل جفناه، وتظل عيناه معلقتين بذات الكوة في ذات الموضع، من ذات السماء... منتظرا هذه المرة، انقباضاتها من بعد طول انفراج...يصمت كثيرا.. ولا يريد ان يسمع...

نون مضمومة

خواطر متفرقة

داخل ورقة مطوية في كتاب تفسير الجلالين

شروح مطمورة

ولما قال (الشيخ الرفاعي) ذات ليلة، والأدخنة تتدافع من فمه وأنفه، فتلف وجهه بضباب يشع بغموض محبب للنفس، أن المشايخ وذوي العمائم، قد انتقوا ما ينقل وما لا ينقل، وعمموا شروحًا بعينها وتجاهلوا عن قصد تفاسير أخرى لم تَرق لهم، توقفت عن الغوص بدوري في موجات الأدخنة المتصاعدة، وسألته متشككا، فسألني: اقرأ سورة الفلق جهرا... فعلت، فطلب مني إعادة الآية الأخيرة، شريطة أن يفصل شهيق وزفير بين كل كلمة وأخرى، فرددت ضَجِراً:

- ومن... شر... حاسد... إذا... حسد!

ربت على كتفي، ضحك، ثم استفاض:

- الشر المقصود هنا، هو فعل يقصد به الأذى، وعليه، فإن الحاسد إذا حسد، فانتوى شرّا، ومضى في ترتيب ما يلحق الضرر بالمحسود، يقول لنا الخالق في هذه الحالة، أن نستعيذ به جل جلاله، من شرور هذا الحاسد ذي النوايا الخبيثة. ولو شاء الرحمن لقال "ومن شر الحسد"، ولكنه لم يفعل، لأن المقصود بشر الحاسد بالأساس؛ شيء ملموس وفعل معلوم، وليس شيئًا خفيّا ينتج عن "العين" التي فلقت الحجر!

يضحك فأتبسم، يطالع الأرضية الخشبية لغرفة الحضرة لوهلة، ثم يختتم شرحه:

- لماذا يترك المشايخ الناس على جهلهم بآية في غاية الوضوح والمباشرة كتلك، لماذا يكتفون بمشاهدة القوم، وقد أساءوا الظن بربهم، حين اعتقدوا أن الخالق قد يُنْزل إيذاءَ ببشر، لمجرد أن شخص حاسد مريض النفس، قد تمنى ذلك! المئات من علامات الاستفهام تتدلى من عمائم المشايخ ولحاهم، طَارَدْتُ المنطق، فكانت الإجابة التي بلغتها بعد

بحث غير قصير، هي أنهم يفضلون أن يبقى العامة جهلاء ما حيوا، وكذلك يحب الساسة، فالجاهل لن يجادل، ويسهل السيطرة على أفعاله، وتوجيه إرادته، ولعل في ذلك مزية لمن يود السيطرة على العقول. فحري بك أن تخشى من يؤسس لطمر الشروح، ويسعى لامتلاك العقول!

ثم جاءت ليلة استرق فيها (إسماعيل) السمع، إلى مجادلة أخرى مع الشيخ (سلامة)، أنكرت خلالها الاعتراف بصحة حديث نقله (البخاري) عن (أنس بن مالك)[٩٤]، يفيد بجواز الاستشفاء ببول الإبل، عقب أن أورده الشيخ (سلامة) في خطبة الجمعة الفائتة، فلاحقته همهمات مكبلة للمصلين. نبهته باستحالة صحة الحديث، لأن في تكملته، أن النبي حين علم بمقتل راعية الإبل، على أيدي من تداووا ببول نوقها، طمعًا في الاستئثار بالنوق، قد استدعى القتلة، وقطع أيديهم وأرجلهم، وفقأ أعينهم، ثم تركهم ليقضوا في الخلاء، وفي ذلك ما لا يستقيم مع خلق النبي، ولا يتسق مع ما ورد عنه في أكثر المواضع من تسامح ومغفرة ولين. قال الشيخ أن الحديث صحيح، فقلت إن النبي لا يفقأ الأعين، ولا يمثل بالأجساد، غادرني الشيخ متردد البسمات، خشية أن يفضي لي بشكه، فسألني (إسماعيل) بخبث:

- أتقيم حلقات لذكر فضائل سيد الخلق، وتذوب به عشقًا، حتى تنخرط في الشدو على إيقاعات مديحه، ومديح آل بيته، ثم تنكر سُنَّته!؟

احتضنت الفتى اليافع، وقلت باسم الثغر:

- إنما أنكر ما أنزهه عن الإتيان به، لأنني أحبه! وأصدق أنه حقًّا نبي هذه الأمة! الذي عفا عن قاتل عمه، وعمن أكلت كبده، وهو النبي الخلوق الذي أدبه ربه حين تمكن منه الغيظ، وتملكت منه رغبة الانتقام لذلك العم المغدور، فأنزل عليه آياته قائلًا "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين".

بدا على فتاي ارتياح، فغادرني عقب معانقة بثت في كلينا الطمأنينة، وسمعته يردد إحدى آيات سورة الفرقان، تعكس في فحواها تماثل قناعتينا:

- يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً.

نون مضمونة

(١٩)

أخي الغالي (يحيى)..

أكتب إليك وأنا لا أعي تحديدًا ما يعتريني من نقائض شعورية نادرة في اجتماعها، بل إنني أقرأ ما تخطه يداي الآن، فأجده غير متماثل مع أسلوب كتابتي وصياغتي للجمل طيلة حياتي، تعلم أن كانت لي محاولات شعرية متواضعة وسرية، لم ترقَ لتلامس ما بلغته أنت في بحور الشعر، عبر دواوينك الذائعة الصيت، ولكن؛ أنا لا أعلم ما حل بي منذ أن شرعت في قراءتها...

وأنا هنا أعني مذكرات أبيك يا (يحيى)، لم أصل لشيء محدد بالإمكان تلخيصه، ولكنني وجدت من المبررات ما يفوق الاستفسارات عددًا، طالما نالت مني سهام النقد ورماحه، لمجرد أن أبديت محبتي له، وهو أبي الذي ليس من الإمكان بمكان، أن يكون حبي له أمرًا اختياريًّا بحتًا، أنت لا تتخيل ما فعلته بي قراءتي لمدوناته، الأمر لا يتعلق بالمحتوى، بل هو بمثابة اتصال ذهني يتم بين القارئ والكاتب فور البدء في القراءة، أعلم أنه من الصعب إيضاح ما أريد قوله أكثر من ذلك، فقط تأكدت أنني أحبه، وأنني أحببته دائمًا، وأنني لم أطرده يومًا خارج أسوار القلب والعقل، لقد كان دائمًا هنا يا (يحيى)، كان دوما بالجوار، فقط أريدك أن تحضر، ربما أبدو لك مجنونًا! ولكنني أريدك أن تقرأ معي كلمات أبيك، أخشى أن أصور المذكرات أو أن أرسلها لك كي لا تضيع أو تهلك، فالأمر جد مذهل...

(شريف) يواصل البحث عنه عبر النافذة السحرية المسماة بالإنترنت، ولن تصدق ما يجده كل يوم، فأبوك كان، وربما لا يزال، من أشهر أساتذة الأنثروبولوجيا، وله دراسات منشورة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، كما أنه من أبرز المحاضرين عن تاريخ الحضارات وتطور السلوك البشري في عدة دول عربية، وبعض الدول في شرق أوروبا، الأغرب أن له نشاطات إنسانية أخرى متفرقة بعيدًا عن كل ذلك، أما ما استوقفني

فقد كان حضوره لجنازة المطربة (داليدا)[٩٦] عام ١٩٨٧، شاهدته يا (يحيى)! كان تسجيلًا لقناة فرنسية عن وفاة المطربة الشهيرة، ورأيته فيه، كان يضع باقة من الورود البيضاء على نعشها، باكيًا كان، وباكيًا صرت بمرآه، توصل (شريف) إلى تلك اللقطة عبر أشياء لا أفهمها، ولكن من أراني إياه كان أبي، هي لقطة تليفزيونية عمرها قرابة ربع قرن، ولكنني أشعر أن أبانا حي يا (يحيى)، (حواء) ما زالت على عزلتها، وأنا بحاجة ماسة لوجودك، فقط حاول أن تحصل على إجازة من عملك، شهر واحد فقط، فأنت لم تزرنا منذ خمس سنوات، قبل ذلك كانت ثلاث سنوات، لا بد من وجودك، أمك تسأل عنك كثيرًا، لا تقلق فالأمر ليس بخصوص عروس جديدة، هي فقط تفتقدك، ولا تجد في محادثة أيٍ منا ما تجده في محادثتك من طمأنينة واحتواء، بطبيعة الحال، لا شجاعة لدي لأخبرها بما وصلت إليه من حقائق عن أبينا الغائب، وربما لا ينبغي علينا أن نخبرها. قال (شريف) أنه سيرسل إليك شيئًا يجعلك قادرًا على مشاهدة اللقطة التي حكيت لك عنها من جنازة (داليدا)، حاول إقناعي بأن أرسل لك ما خططته للتو عبر البريد الإلكتروني، ولكنني لا أحبذ ذلك، وحقيقة أجهله! كما أن المحادثة الهاتفية لم تكن لتستوعب ما كان يجيش بأعماقي، وإن طالت بها الآماد...

الحقائق تتطاير من حولي كما الفراشات، بديعة وزاهية، وآن لك أن تشاركني مطاردتها، لا تخشَ وهنًا، ولا تأبه لظلال الماضي، فالأمر يستحق المخاطرة.

أخوك/ آدم البنداري

الكراسة الثالثة

(٢٠)

شتيت المتداخلات

المتداخلة الثالثة

في رحاب مليكة

هي التَذْكِرة العابرة، الواعظة الغاوية، الكاشفة الـمُنيرة، التي جُعلت لتُزيح المخاوف، وتدحر المُحَيِّرات

لقاء الإفاقة

العجمي - في عام ١٩٦٨

جهلًا ظننتها حلمًا، تسارعت الدقات مؤنسة وحدة قلبي الجزِع، اقْتَرَبَت فاقْتربْت، ابتسَمَت، سرت بأوصالي قشعريرة باردة، عجزت عن التفوه بمختلف الكَلم، اهتزت شفتاي شاكية صمتي...

- انتظَرتُكَ طويلًا.

قالت بهدوء زادني وهنًا وضعفًا، لاحظت للمرة الأولى شعرها الكستنائي المنبت، الرمادي الأطراف، وقد استفزته ريح لعوب، فشرع يتمايل فوق كتفيها، تابعت تموجات خصلاته حتى لامس منتهاه أعلى الفخذين منها... اكتست بثوب شاهق البياض، وجاء شعاع شمس المغيب، المثقل بمعاناة البشر، من خلفها، ليجسد لمخيلتي انحناءات جسدها وثناياه أسفل ردائها الملائكي، شَعَرت بملح حبيبات العرق فور أن لامست شفتاي، وبرغم نسيم ما انفك يداعب خصلاتها، كانت رهبة اللقاء تحيل النسمات من حولي جمرًا مستعرًا...

- اسمي (مليكة).

ازداد توتري حين راودني حدس بأنني أعرفها! شرعْت في السقوط بداخلي، كان النهار آخذ في المضي، أنهكته توسلاتي بالبقاء حتى ذاب في عميق البحر آخر خيوطه، مَلَكَت صولجان الأمر قبل أن أعي ماهيته.

كانت عيناها مثبتتين صوبي، وجسدي بأكمله غارق في نشوة الخَدَر، التقطت أنفاسي فور أن أحالت ناظريها عني. بزغ من بين أستار العدم من خلفها باب خشبي، يزين أعلاه أكاليل زهر، كانت تمر من أمامي متهادية، فتتبدل معالم الكون خلفها، تحول لون السماء وتغيرت هيئة الرمال، الباب لكوخ لم أبصره من قبل، تسللت مشاهد لموج وسفين عظيم إلى ناظري من فرجة الباب المكلل بالورود، تنبثق من رحم الشاطئ زروع وزهور على جانبي الطريق نحو الكوخ العتيق، لتصنع ما يشبه الممر،

للباب أكثر من ظل يعكسون وجود أكثر من شمس وقمر، تتسع فرجة الباب فأميز في جوفه عالمًا بأسره، يعلو الموج بداخل الكوخ حين نقترب من بوابته، ثمة كوخ يتوسط جزيرة في قلب المحيط، يتناثر رذاذ الموج الصارخ على وجهي وساعديّ، يتضح مرأى الكوخ مع اقترابي، فيبدو وكأن عمره ألف عام.

- هل مر (نوح) من هنا في رحلة الهروب من الفيضان؟

سألتها تَعباً وقد أدركت أنني لم أرَ ذلك العالم قبل أن تطالعه هي بناظريها، فتساءلت وقد لفَّني دوار له عطر فريد: أتراني أرى الحقيقة من خلال ردائها الملائكي الشفاف؟

- كل من قرأت، وسمعت عنه، مر من هنا يومًا... مرات ومرات.

أجابت، فألقت على متون حيرتي أطنانًا من التساؤلات المحمومة، شَرَدْت، احترمت صمتي حتى استحال سكونًا مقبضًا، فأزالته بخطوة واحدة صوبي، ترددت، ارتعدت حين أراحت كفيها فوق كتفيَ مطمئنةً.

- هل أنت مستعد للقائه؟

عيناها الواسعتان الرماديتان ألقيا عليّ سؤالًا مر بأذني أمرًا لا راد لقبوله، أومأت برأسي أي نعم، أمسكَت بكفها الأيمن رسغي الأيسر، شعرت ملمس كفها وكأنه قطعة من رخام أملس، رخو، لم أملك إلا ألا أقاومها، عبرتِ البوابة السحرية، لامس عنقي بعضًا من الورود المعلقة، فأغمضت عينيَ وقد حلت بجسدي قشعريرة باردة، عبرنا من فوق السفين وقد سكن الموج بغتة وكأنه يخضع لخطواتها أينما حلت، وما بين غمضة عين وانتباهتها، زال الدوار، وحلت روائح البخور محل العطر، فولجت وإياها في جوف الكوخ العتيق...

الكوخ من الداخل بدا أرحب مما بدا لي من خارجه، الحق أنه كان متسعًا مائلًا ميلًا طفيفًا نحو الأسفل، وكأن مشهد الكوخ من الخارج لا يعبر إلا عن بوابة وجلت لمرآها.

- لقد اصطفتك (مليكة) يا (إبراهيم).

قالها شيخ عجوز، فوجئت به قابعًا عن يمين الداخل إلى الكوخ، وقد أحاطت بمجلسه شموع عدة، مختلفة في لونها وشكلها، استوقفني أن استطال منها اللهب، حتى قارب أن يلامس لحيته البيضاء الكثة، التي تغطي من صدره المنتصف، فلم تجرؤ نار شموعه الموقدة على حرقه...

- "أنت لا تحلم يا إبراهيم،

بل أنت اليوم تغادر كابوسك، وتعيش موازيًا له...
اعلم أنك هنا الآن، ولكنك لن تبقى هنا للأبد...
طال الأمد بحلمك حتى اختلط عليك بالواقع...
قلبك ينبض في يأس...
ضعفك باطنه البأس...
فاملك زمام بأسك، حطم كافة أطر الأمس...
ما كان قد كان، وما مضى قد مر وانقضى...
فلا حاجة لك بعد اليوم لمجابهة الأقدار وتحديها...
تشبث بـ(مليكة)...
فهي واقعك... وهي بوصلتك الدالة على الحقيقة فيما كان ويكون...
بها تحيا، وفيها تحيا، ولأجلها تحيا...
هي لك من اليوم مشرق الشمس ومغيبها...
هي كاشفة الأسرار، وحاملة أختام الليل والنهار...
إن تبقَ فهي باقية، وإن رحلت فهي فانية...
إن أحبتك، مس خلودها روحك لتمسي خالدة حتى ينفخ في الصور...
وإن هجرتك فإنك ضال، تائه فقير...
بين الحياة والموت خيط حريري رقيق، لا تكاد أن تبصره دودة قز أنهكها خلقه...
نفس الخيط يفصل بين الواقع والحلم...
بين دنياك وكابوسك...
بين سعادتك فوق هذه الأرض وعبوسك...

هبها روحك، تهبك الدنيا...

هبها دنياك، تهبك سكنة الروح".

كان صدى كلماته يتردد مطولًا عبر الممر الآخذ في الانحدار في آخر الكوخ، حرتُ في أمري.

- "بفناء هذا الجسد...

تتحرر الروح فما تفنى...

وتواصل نسج ذاك الحلم الأبدي بالخلود...

وفي فناء هذه الروح، فناء للدنيا، وحلول لقيامتها...

واليوم تصحبك (مليكة)، وقد أذنت لها بأن تطلعك على ما لم يُرَد بك أن تَعيه...

وتذكرك بما أريد بك نسيانه...

صفحات كتابك ما زالت مبللة بالحبر...

فما سطرت باق لم يجف... ولعل في هذا اليوم ما يفيد".

غادرنا شيخها العجوز بعد أن أفضى بوصيته، بأن تلاشى كما البخار، ظلت كلماته تتقافز في أذنيَ صدًى واسترجاعًا، مرارًا وتكرارًا، لاحظت صحفًا مصفرة اللون، وقد ارتصت على يمينه، قبل أن ألحظ أن (مليكة) قد شرعت في مُغَادَرة الكوخ، وهي ما زالت قابضة على رسغي، تذكرت أن رأيت إبان الولوج في غياهبه، أطلال سفن ورميم متون متهالكة، جلست فوق الرمال النائمة، أجلستني قبالتها، كان القمر موشكًا على الاكتمال، فألقى سريعًا بخيوطه، حتى استطال ظلانا إلى اليسار وأوشكا على ملامسة كوخ شيخها العجوز، سكن الموج على ميمنتنا، وكأنه يسترق السمع إلى حديث أَدْرَكَ أن مولده قادم لا محاله، تمعنت الغوص في قسمات وجهها، تشربت من عينيها المزيد من مُسْكر الكَلم الصامت.

- (دنيا).. (فرانشيسكا).. (نادية عيسى)..؟

- كن حلمًا، أو بعضًا مما تظنه اليوم حُلمًا..

- (نوح أفندي)؛ أبي ومعلمي؟

- كان حلمًا، أو بعضًا مما تظنه اليوم حُلمًا..
- أمي (الحاجة جميلة) واريتها الثرى في الماضي الرقيب؟
- كانت حلمًا، أو بعضًا مما تظنه اليوم حُلمًا.
- (عبد الناصر).. العدوان الثلاثي.. والتأميم؟
- كانوا حلمًا، أو بعضًا مما تظنه اليوم حلمًا.
- (إسماعيل)؟
- رحل من حيث أتيت أنت.. ولكن سفرته ووجهته تختلفان عما تظن أنت!
- وأنت...؟
- منذ أن غادرنا شيخي وقد صرت لي ولدي ورضيعي.. رجلي وشيخي.. يومي وغدي.
- ومن تكونين!؟
- كم هالني تصور ألا ألقاك مجددًا، أراك تواصل بحثك المحموم كعهدي بك، ولكنك اليوم تعب، مقوض العزيمة، منقوص الإرادة، يقينك يتمايل مترنحًا بين ظلال الشك، ونسج الخديعة.
- ألتقينا من قبل!؟
- لقاءاتنا تجاوزت المائة لقاء، ولكن اجتماعنا في كل مرة له مذاق خاص، مخالف لما سبقه!

أخذني الشك حتى أنهكتني محاولات مضنية لاستدعاء ملامح أبي وأمي، فاستسلمت لواقع الحلم، أو لعله حلم الواقع بالإفاقة من متاهات الرؤى، تداخلت في ثنايا العقل جل تفاصيل حياتي... أهي نشوة الحلم؟ أم هو حلم بنشوة لقاء تلك الغامضة؟

عبثت بوهني أطياف من حضرة بيت شبرا، رأيت أطيافًا تتمايل هنا وهناك انتشاء بعذب الإنشاد، صوت الشيخ (الرفاعي) لبى استدعاءات ذاكرتي، فرن في أذني جليًا صافيًا، أعقبه آذان لصوت أعرف صاحبه الغائب، لم أستطع تمييز الوجوه، رأيتني ظلًا يقف خارج غرفة الحضرة، أسترق من

السمع ما تطيب به نفسي وتسمو، همسات (الست جميلة) من خلفي تؤنبني ولا تُثنيني، همهماتها تلومني ولا تمنعني، ظلال تروح هنا وهناك، وجوه بلا ملامح، وملامح ضاقت ذرعًا بوجوهها فمزقت أطرها وانطلقت ظلالًا وأرواحًا.

استحال جسدي طفلًا، أجلستني فوق فخذيها، أغلب الظن أنها أرقدتني، أخذتُ أطالع النجوم في ثوب السماء الداكن وقد ألقمتني ثديها، لم ألحظ أن تجردنا من ملبسنا، تسرب إلى فمي ترياقها دواءً مخلصًا من سموم كابوسي، يسيل من نهديها الرحيق متدفقًا كالموج الهاطل من أعلى الشلال، وأنا القابع في أسفل الوادي الخفيض، حيث يلتقي الموج بالطمي، كائن كما الجرة الخاوية، يلفني التوق لري الظمأ، حتى يغمرني الغيث، فأمتصّ من رحيقها المنهمر ما يشبع الحواس، ويفيض من الحواف، ليبلل الجسد المحموم..

- يا إسماعيل، لا تترك يد أخيك (إبراهيم).

انساب بوجداني صوت أبي (نوح أفندي)، فما لبث أن استدعى الصوت صورة مهتزة لـ(إسماعيل)، جاءني طفلًا متمردًا، يهوى تحطيم كل قيد وشرط، سارع منذ أن بلغ الرابعة من عمره في تكوين عالمه الخاص، كان طفلًا يصادق من يراه مناسبًا، وينفر من صحبة آخرين، وإن كانوا على مقربة منه، تقاليد العائلة وموروثات (البنداري الكبير)، لم تشغل باله يومًا، عجولًا كان، وعلى عجلٍ مضى.

تبسمت حين هبت، من موضع غير بعيد من ذاكرتي، رياح ذكراه، جاهدت لاستيضاح ملامح (إسماعيل) فبقيت مهتزة أشبه بالظلال...

وَاصَلَت (مليكة) التربيت بكفها على مقدمة رأسي، داعبت أناملها خصلات شعري الذي ما عدت أذكر له لونًا، طالعت عيناها الباسمتان الرءومتان، كسا جسدي العاري شعورٌ بطمأنينة لم يألفها، شرعت أستدعي نعاسي، فقاومني رافضًا إسدال الستار على هذا المشهد، مشهد بعثي وتكويني، ضممت ركبتيّ حتى أوشكتا على ملامسة صدري، فكنت كجنين

يتشكل في رحم الحقيقة. ما زال الرحيق ينساب في خلاياي بغير انقطاع، هبت بشائر رياح باردة حملت أطراف شعرها الرمادي صوبي، غطى القسم الأعظم من وجهي، شعرت أنني أتنفسها، أسكُنهَا، أتشرب منها رحيق الحياة، رحيق الشفاء، ورحيق التكوين.. حاولت جاهدًا أن أتذكر ملامحي، كل ما أذكره عن قسمات وجهي، أغلب الظن أن الحلم مصدرهُ، وكأنها تملك القدرة على الإبحار في مخيلتي، واستراق السمع إلى ما يجيش بصدري من تساؤلات...

- أراك كما أردت رؤيتك يومًا، وتراني أنت كما حلمت برؤيتي منذ خلقت، لا حدود هنا تغلف التمني، ولا مستقر لما ظننته حلمًا إلا بأن يتجسد جليّا أمامك، كن كما تكون، وسوف أراك كما أردتك أنا أن تكون، ملامحي لا أدركها، ولن أدركها إلا مما ستقصه أنت على مسامعي. واقع أم حلم؟ ربما أنا مُرسلة أليك لتواجه -عبر طيفي- أناك الحائرة..
- من هو الرجل العجوز؟
- هو شيخي، اعتدت أنت في لقاءات سابقة أن تسميه (الشيخ المليكي)، نسبةِ لاسمي، ستتذكر المزيد من كلماته، كلما ركض بنا جواد الزمن، عابرًا تلال الحقائق، كاشفًا ركام الأوهام، فقط فور أن تبدأ أنت في استدعاء اليقين الغارب، وتخط أول الصحف...

قالت، فتشبعت حواسي حتى فاض منها ما فاض، أجلستني أمامها مجددًا، تَمَدَدَتْ فوق الرمال فكثف القمر من خيوط ضوئه وأحاط بها حاميًا جسدها العاري، استحال اصفرار القمر احمرارًا طفيفًا وكأنه أمسى خَجِلًا بمطالعة عُرّيها، شعرت وكأن لضوء القمر حرارة تلفح وجهي وكامل جسدي، لم أقوَ على النظر صوبه، وإن أدركت أن للسماء قمرين! قمرٌ أغشى ضياؤه البصر، وكأنه يحاول حجب جسد (مليكة) عن ناظريّ، وآخر أقل حجمًا، وأغزر ضوءًا عن سابقه، وقد تقوقع غائرًا في كبد السماء. استطال بي جسدي، حتى تمددت إلى جوارها مأسورًا، مدت يدها، أمسكت

أمسكت يدي ووضعتها بموضع المنتصف من صدرها، هزت دقات قلبها أناملي المأخوذة المستكينة...

- أشعر بالبرد.

همست صادقة، مالت على يمينها حتى احتضنتني، قالت:

- ما بين سابع السماوات، والأرض المشبعة بخواطر البشر، يتدلى وتر من ضوء ناصع البياض، تتعثر به النسائم الشاردة، فتصدر عنه نغمات تأسر ألباب الطيور الصداحة، ما بين خرير وحفيف يفصل بينهما سُكون مستعار، تهب رياح العشق، فتغمر قلوب المحبين معزوفات الصمت المغلف بالوجد، ويظل الكون سابحًا في صمت العاشقين، حتى يهمس عاشق لمعشوقه: أحبك! فتتشابك أوتار الضياء ما بين نجم وقمر، تتعانق الأنغام، تتسلل من مسام الأرض شهقة خافتة، يتبسم الليل من خلف عباءته السوداء، ويصدر عنه زفير ارتياح، يلفح أجساد العاشقين، فيزيدهم التصاقا وانصهارا... تلك سيمفونية العشق كما أراد بها الإله أن تُصاغ وتكون.

شعرت أني أغوص في جُبٍ عميق، هبت الريح من جديد، وجاء زفير الليل أشد قوة من ذي قبل، تطايرت الرمال حتى وارت معظم جسدينا، تماوجنا كأننا نرقد فوق موجة بحر تصارع الوصول إلى الشاطئ، وكأن ثلاثتنا نقاوم وصول الموجة إلى الشاطئ، خشية أن يمتصها رحم الرمال العطشى، فيقهرها السكون.

دثرت الرمال كامل جسدينا فلم يمنعنا ذلك عن التنفس...

هل كنا نتنفس منذ البدء؟

صرنا جسدًا واحدًا، توحدت خلايانا، حتى غلبها النعاس فنامت، ونمت. كنا آخر اللاحقين بمتون سفينة نوح... بل أغلب الظن أن كنا أول الناجين من فيض غضب الإله. غلبني النعاس، فنمت... أو استيقظت...

ورقة ممزقة، كُتِبَ على طرفها العلوي كلمة:

"تمهيد"

وأسفلها، كُتِبَ بخط أسود غليظ، بحروف منمقة مزخرفة، كلمتان هما:

" فَاتحَةُ الصُحُف"

ثم مُزِّقت الصفحة أسفل هاَتين الكلمتين، فبقي منها ما لا يزيد من حجمها الأصلي عن الخُمس

الصحيفة الأولى

تجعل ظلمة فيصير ليل. فيه يدب كل حيوان الوعر. ٢١
الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها ٢٢
تشرق الشمس فتجتمع وفي ماويها تربض. ٢٣
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء ٢٤
ما أعظم أعمالك يا رب. كلها بحكمة صنعت، ملآنة الأرض من غناك. ٢٥
مزمور ١٠٤

ترنيمة آتون[٩٧]

معبد الوحي

كعبة التوحيد "أخيتاتون" - ١٣٣٦ ق. م

فراغ لا نهائي، تغلفه حلقات من نور يُغشي الأبصار...
تتكون في الآفاق سماء بكر في زرقتها،
وتترسب ما بين طرفة عين وانتباهتها جزر متناثرة...
يتفجر من صخرها محيطٍ يعكس صفاء السماء...
ويعلو موجه فيضمِ الجزر جاعلًا منها يابسة واحدة...
ينبثق من ثنايا اليبَس نخيلٌ يجود بطرح وفير...
تغرب شموس، وتمرق بالجوار نجوم وأقمار...
أمرّ عبر أطياف قوس قزح، فأتحسس الألوان للمرة الأولى...
يمتزج الوعي بالسراب، فيبرز من العدم غيم من قُطُف تحيطِ بي،
ليشوب الفراغ المتآكل احمرار...
وتحلق النوارس منتشية، فيعزز بياضها من سمو المشهد وجلاله...
يتضخم الغيم حتى يضيق بي مستقري،
فيلفظنيِ، ليصدر عني الشهيق الأول...
أفتح عيني، لأهوي من علٍ، صوب اللاشيء...

أستيقظ من سبات، أو من حلم يقظة عابر، لأجدني وحدي، أستشعر الغدر القادم، وأشتمّ خطواته تحبو بخسة في الجوار، وترنو إلى تلاوات أناشيدي، فلا أجزع، ولا أتوسل الصفح من بشر ضعيف، وأنا المتوكل على الإله الذي لا يضعف، ولا يمرض ولا يموت، تربت (مليكة) على كتفي مطمئنة، فأمسك بكفها المخملي، وأقبله، ثم أقودها صوب كوة جُعلت لتصافح وجه السماء فور انتشار خيوط الصبح، قلت:

أشرق في أفق السماء يا قرص الشمس الحي الذي لا يموت
يا من تقدر الحياة، فتشرق في شرق الأفق، كل صباح
لتملأ بلاد الأرض بجمالك البهي، أنت العظيم
القادر على أن تشرق الآن فوق جميع البلدان
لتغمر بأشعتك كل ربوع الدنيا من هنا وحتى آخر ما خلقت.

تردد خلفي (مليكة)، يلفح زفيرها ظهري، وقد اتكأت برأسها على كتفي وأحاطت خصري بذراعيها، تهمس مناجية رب الأرباب:

- يا من أطلت سماؤك الحانية من عليائها على الأرض الناعسة، فالتحمت بها، ونثرت ذرات النور في أرجائها، لنكون نحن نتاج ذلك العناق المقدس، بأجسادنا الأرضية، وأرواحنا السماوية، عمم حكمتك على البشر، وأنر قلوبهم كما أنرت قلوبنا، واهدهم السبيل إلى دروب التوحيد، قبل أن تصطبغ لوحات الختام بلون الدم المقدس...

خاطبتها بغير اسمها، فقُلت:

- ليت الأمر بهذه السهولة يا (كيا)!

لم يستوقفها الأمر قدر ما باغتني، فأجابت معترفة بكونها (كيا):

- تسرعت في معاداتهم...
- بل تمادوا هم في عنادهم، وتجاوزوا في مناوئتهم...

يراودني شعور أغلب الظن أنه غير حقيقي، بأن الأرض ترتج من تحتي، وكأنها تعكس دبيب جيوش تزحف نحو (أخيتاتون)، لا يليق بي الخوف، ولكنني إنسان، ربما كنت فرعونًا، ولكنني لست إلهًا! يتكرر هذا الشعور

عدة مرات في كل ليلة، ولم أعتده بعد، نصحني كبير كهنتي (موزاس)، ذات ليلة بعيدة، بأن أعقد هدنة مع كهنة (آمون)، وقد اشتعلت الأمور عقب قطع المعونة عن معابدهم، وتوجيهها لبناء (أخيتاتون)[٩٢]، وزاد من تسارع الأمور واحتدامها، ما أعقب ذلك من إرسالي لحملة تطهير، كُلفت بطمس معالم آلهتهم وتدمير أثرهم، ومطاردة كهنتهم.

هل أحلم مجددًا؟ لا يتسع الحلم لكل تلك التفاصيل، ولا يطول الزمن بالرؤيا لتشهد كل تلك الأحداث، أغلب الظن أنني أستفيق من حلم طويل غريب الأطوار، وأعود لحياتي، أحتضن الواقع بما فيه من مفرحات ومحزنات، وأحيا لحظات افتقدت مصداقيتها، حين غاب عن ناظري كل ما هو حقيقي!

كان الناس في (طيبة)، يميلون للإيمان بـ"آمون"، وكانت عقولهم مظلمة بغياب العلم، وتغييبه عنهم حتى يرتع الجهل في جنبات الألباب، عوضًا عن نور الإله، وكنت أعلم أن هذا ما أراده بهم كهنة "آمون" منذ الأزل، فكانت بداية الصدام بعد نداء التوحيد، هي فرض التعليم كجوهر للعبادة، وركن من ركائز الإيمان، وما في ذلك من مساواة، سوف تنشأ بين العوام والسادة!

كان "موزاس" بجواري حين كنت بصدد إصدار قانونٍ بمحو الجهل، وتعميم القراءة والكتابة كشرطين للعبادة، استقر جالسًا بجوار قدمي في معبد الوحي، وكنت أملي عليه ما يخطه في بردية، تعمم على ربوع القطر، فور الانتهاء منها:

مع ظهور نجم الشعرى اليمانية
تبدأ سفينة الرب في دورتها حول قبة السماء عبر بروجها وسماواتها
تصحو عين الرب فلا تغفل عن رؤية البشر ومراقبة أعمالهم طيلة دورتها
حتى تنقضي الدورة بسطوع نجم الشعرى اليمانية مجددًا من بعد أفول
فإذا انتهت سفينة الرب من دورتها
يتحتم أن تجد القوم وقد أجادوا قراءة وكتابة تعاليم آتون.

العلم أول أركان الإيمان، والجهل كفر برب السماء
فتعلموا، لتتعلموا كيف تعملون، فإن إتقان العمل صلاة تقربكم من الإله، وعين الإله لا تغفل عما تعملون.

أتذكر نص الرسالة كما دونها "موزاس" يومئذ، وكما أوحى لي الرب بكلماتها، وبتذكرها، تذكرت ملابسات أحاطت بوقت صياغتها، إذ كان الألم يعتصرني، عقب وفاة زوجتي، وما تلاه من أصوات لبكاء وعويل، تواصلت حتى في ساعات غفوتي، استقر الصوت في أذني راسخًا لا يغادر ولا يهادن، وقبعت صورة بناتي المنتحبِات في مقلتي لا تتزحزح، فكان الأمر يفوق التحمل، والفراق يزيدني اغترابًا، ويغمرني بحيرة، وقد كنت وإياها وصالًا بين الرب والعباد، حاملين للبركة التي لا تتحقق إلا باجتماعنا، وما تحل بفراقنا.

أزال الرب الشك وبدد حيرتي، فأوحى لي بمنح لقبها الملكي لكبرى بناتنا (ميريت)، فتواصل فيض البركات، وعكف العباد على التبرك والتعبد، وبقيت محزونًا، أتجرع مرار الذكرى، ووجع الرحيل، فما يطيب لي مضطجع، ولا تدوم لا مهاجع.

لا أذكر كيف نجوت من تلك الدوامة، لكن أغلب الظن أن النجاة كانت بمعونة من رب الأرباب، الإله المُشرق الواحد، "آتون"، الذي جادَ عليّ بهديةَ سماوية، ألقت في نفسي بخجل وقد أجزل الإله عطاءه عليّ، وأنا الفقير العاجز عن نصرته رغم طول أمد المحاولة، وقرب الاستسلام لإلحاح اليأس، والكف عن مطاردة الأمل في ردهات الزمان... فكانت هدية الرب، (مليكة).

حين رأيتها لأول مرة، كان ذلك عقب الإفاقة من اغتراب نفس طال، فبزغت كإشراق من بعد عصف مطير، ولا أجد خجلًا في الاعتراف بأنها كانت من مدت لي يديها، وآزرتني بإيعاز من الرب، فأعانتنيِ على النهوض من عثرتي، لأقبع في جنبات جسدها الفسيح الأرجاء، مبحرا، منبتًا الثمارِ، ومقيمًا لمعابد لم يلج بها، ولم يصلِّ بها غيرنا، طالت ساعات السبات ردحًا

من الأيام، حتى أفقت، فغدوت أكثر قوة برفقتها، وقد أثمرت زيجتنا فتاة وصبيًا.

ما أكثر تعدد أعمالك وهي على الناس خافية
يا أيها الإله الأحد الذي لا يوجد بجانبه شأن لأحد
خلقت الأرض على حسب رغبتك ولم يكن بجوارك أحد
إنك تضع كل إنسان في موضعه في الأقطار العالية
وكل إنسان له قوته وأيامه معدودات.

يردد (موزاس) ما سبق لي تلاوته عليه فدونه، كانت نوبات التجلي تباغتني من حين لآخر، كاشفة لمتون الوحي، مستجلبة النصوص من أقاصي اللاوعي، تغمرني بالتطهر والتحرر، فتطهر المختزن في الروح، وتحرر المكنون من طاقاتها، لتحلق بقرب سفينة الرب، وتستقر في ضيافة (آتون)، لتنهل في محرابه من العلم، ما يعضد مسيرة الرسالة، رسالتي، التي كلفت بها، فاختارتني لتبليغها، دون أن تمنحني حق الاختيار. أتبع أمر الرب، فيهبني موهبة الخلق، لأخلق مما يوحيه علي كلمات وأسطر، من شأنها أن تغير العالم، وقد جعل فوق متونها ما يكفي لتشييد أوطان متحابة، تنبذ الخلاف، وتقدس العلم، فتتوحد في محراب واحد، منخرطين في صلاة واحدة، لرب واحد لا يليق أن نشرك في عبادته أحدًا.

منذ أن زارتني والدتي الملكة المقدسة في (أخيتاتون)، وقد أمسى جليًا أن فصول النهايات قد شارفت على الاكتمال، فكهنة (طيبة) قد أعلنوا الحرب وأمسى الكون لا يتسع لكلينا، وقد ضاق ذهنهم باستيعاب حقيقة ثابته، مفادها أن الرب ملك للجميع، وليس ملكًا للكهنة دون غيرهم، الإله حق شائع، ونور ساطع، ومرفق مباح، للقوم أن يغترفوا منه العلم متى شاءوا، ليغتسلوا بنوره من ذنوبهم، ويقتاتوا على حكمته.

صباح اليوم مختلف، هادئ بما يريب ولا يطمئن، أتنقل ما بين مخدعي، ومعبد الوحي، عدة مرات، أحلق في أفق فسيح من الذكريات، فلا أشعر

بارتجاج العربة الملكية وقد مضت تذرع الطرقات بين المعبد والقصر، جيئة وذهاباً، يخامر قلبي شك كثيراً ما يراودني، ويداخلني تردد، فأبالغ في الحذر، الحرس أقل من المعتاد، أهمّ بمناداة قائدهم وتوبيخه لتقليل العدد والعتاد، ثم يتحول رأيي إلى الارتضاء بالمجهول القابع في رحم الغيب، لأواصل التنقل، العيون باتت تعكس النقمة، وقد اعتدتها تسبح في بحور من الرضا والخشوع، أتوقف في ممشاي متذكراً صلاتنا الأولى في (أخيتاتون)، فتنعكس على الجدران ظلال المصلين وقد اصطفوا من خلفي، تهتز شفاههم بذكر الرب ما بين سجود وركوع، تخشع وجوههم حين يذكر اسم الرب (آتون)، خفيضة أصواتهم حين يتوجهون إليه بالدعاء. ماذا حل بالعيون؟

صباح اليوم مغاير، منذ أن لامسني أول خيوط النهار، وأنا في ذروة بحثي الحثيث عن النعاس، قضيت الليلة الفائتة ما بين صحو وأرق، استدعيت أيام الصبا، وانتقلت إلى قصر أمي المجاور دون ملاقاة لحرس يعترضني أو يؤمنني، هرعت إلى فراشها الفارغ، فألفت برودته وقد نثرت فيه عطورها، مررت بالخزانة في طريقي إلى الفراش، فوجدت وسادتي الأولى، عانقتها، وحين بَلَغْت الفراش، سَقَطْتُ في وسادتي، ورحت أمتص منها ما علق بها من سبات الأيام الخوالي، بذلت ما يفوق المستطاع قدراً، حتى غادرت طفلًا فراش الملكة المقدسة، وعدت إلى مخدعي ملكًا يغلف تيجانه الأسى، ويمزقه ما يرد من أخبار عن شيوع الفوضى والاضطرابات في ربوع البلاد، خاصة في (طيبة)، وقد أمسى بها فصيلان متناحران، ما بين عبدة (آمون)، والمؤمنين برب الأرباب (آتون)، ماذا حل بقومي كي يتناحروا؟

صباح اليوم غير مألوف، سعف النخل ساكن، والطير يلفه الخمول فيتواثب ولا يحلق، (مليكة) عابسة، أو ربما هي (كيا) الآن، ولكنها لا تبتسم، غاب أخي عن المشهد في الأيام الأخيرة، ولكنه لم يكن قريباً قبل أن يغيب، بل منذ أن قَبِلْت رغبة الملكة المقدسة في أن يشاركني حكم

البلاد، مشاغلنا لم تتح لنا ما يلزم من الوقت لتبادل الرؤى، ورؤانا المتباينة -على ما يبدو- لم تتطلع جدياً، لتخصيص فسحة الوقت المناسبة لاجتماع كهذا، بيد أن كلًّا منا بدا راضياَ في انعزاله، منشغلًا بعزلته عن الآخر، فما عاد لي ونيس ولا شريك من بعد ذريتي البكر، سوى (كيا)، ناسجة الأمل، وحاملة مفاتيح كُوّات السماء المغلقات، اللاتي يقبع خلف كل منهن أمل، أو نقش مقتطف من أيام خلت، أو زمان مغاير، تفتح في ساعة الصفاء كوة، فأعانق المنتظر، وأستمتع باستعراض خير المنتقى من الماضي البعيد، وأصافح أزمنة لا علم لي بها ولا خبر، واليوم يخيم العبوس على محياها، فتتبعثر المفاتيح، وتتوارى الكوات في عباءة السماء، فماذا حل اليوم بـ(مليكة)؟

صباح اليوم قصير، هرب نهاره كما هو الحال ببعض الحرس، الذين تبخروا منذ مساء الأمس، مر أمامي استدعاء لستة عشر عامًا مضت، منذ حللت بهذه الأرض، قادمًا كالفاتحين فوق شعلة (آتون) التي لا تنطفئ، فرأيتني وقد توقفت فور أن وطئت قدماي تراب الأرض المختارة، (أخيتاتون)، لتنتهي رحلة البحث المقدسة، بعد ستة أيام أمضيتها في أحضان النيل، مسلمًا دفة سفينتي لمشيئة الرب، حتى يختار لنا مرساها ومستقرنا، أشرت إلى من صحبني ليتبعوني في تَحْنَان وتيه، فصافحتني بضعة وجوه من عائلتي، ووجوه كُثر لمن تبعني من القوم، مؤمنين بالرب الواحد، متيقنين من نُبوّتي.
استدعيت تماثيل لأبي وأمي، فدارت من حولي، كطيف من رؤى، وأخذت تصدر صوتًا يطن في سمعي، حتى تجسدا في هيئة شمس وقمر...

مساء اليوم مُقبض، طقسه حار كما لم يكن الحال يومًا بضفاف النيل، همست أمي المتمثلة في قرص الشمس، بأن الوقت قد آن لمراجعة ما انتهجتُ من أمور، وما سننتُ من تعاليم، شكوت لها غياب أخي، واغتيابه لي من قبل غيابه، فاعتراها كسوف لحظي، ليبرز وجه أبي المتمثل في قرص

القمر، بدا تعبَا، تمامًا كأواخر أيامه قبل انتقاله إلى العالم الآخر، أشحت بوجهي بعيدًا حين تذكرت انخراطه الغرائزي بالغانيات والجواري، وتصورت لو خصص لي من الوقت قسطًا قصيراً مما خصص لشهواته، ظل صامتاً في حضرة الملكة المقدسة، لسعتني بعوضة عابرة، وظلت متشبثة بذراعي فلم تخف زجري وتلويحي، حتى قتلتها فوق ذراعي، فغاب قرصا الشمس والقمر!

أميز في الأفق الغارق في ظلام سرمدي، بقايا سحب، وقد اتخذت هيئة عربات حربية مقبلة صوب أخيتاتون، تربت (مليكة) على كتفي:

- الأمر لا يبعث على الاطمئنان، لم أقابل في طريقي من القصر إلى معبد الوحي، سوى ثلاثة حراس، وهم أكبر سنًّا من المعتاد، الوزير وقائد الحرس متغيبان منذ ليلة البارحة.. هل أنت بخير؟
- لم أجد من الكهنة سوى (موزاس)، اختفى الباقون بدورهم، حتى كبار كهنتي، تركوا المعبد، وتبخروا فلم يعد لهم أثر...
- أشعر أن (أخيتاتون) قد خلت عن بكرة أبيها، ولم يعد غيرنا هنا، الصمت له صوت كالصرير يرعبني، والأصداء المتزايدة تؤكد صدق حدسي، لقد باتت أخيتاتون كمدينة للأشباح بين غروب وشروق.

تقول فأتساءل، من غَيّب الشمس؟

مساء الليلة حزين، توارت نجومه خلف سحب العربات الحربية الآخذة في الاقتراب، وقد أطل في مقدمتها كاهن غاضب من كهنة (آمون). أتساءل، هل يترك (آتون) نبيه الذي بشر القوم بوجوده، ودعاهم لعبادته، ليلقى مصيراً كهذا؟ ثم لا ألبث أن أتذكر، لقد نالت مني البعوضة فلم يمنعها (آتون) عن إيذائي، هل أقف على أعتاب الكفر برب الأرباب؟ تُعلق (مليكة) على أفكاري الصامتة:

- لم نُبَشِّر بالرب الواحد الأحد انتظارًا لعطاياه، وما كان وعظك في الناس ابتغاء عظمة وخلود، لقد بَلَّغت رسالتك، وآمن بها آلاف من المصريين، ولكن...

تصمت للحظات، ثم تردف وقد أولتني ظهرها مطالعة الظلام القابع متربصًا خلف معبد الوحي:

- ليتك تركتهم ليؤمن من يشاء، ويكفر من يشاء، أَمَرَك الرب بالتبليغ يا مولاي، ولم يأمرك بالوصاية! ما كان لك أن تُحَرِم دخول (أخيتاتون) على من لا يؤمن بـ(آتون)، فقد خلقت بذلك جدارا بين القوم، وعزلت (أخيتاتون) عن العالم.

لا تستوقفني كلماتها المتجردة من التوقير اللازم لشخصي المقدس، فأخلع عني رداء قداستي، وأزيح تاج الملك عن رأسي المتخم بالمخاوف، تؤلمني ذراعي حيث لسعتني البعوضة، فأتحسسها في دهشة، متملكًا مني الوهن شرعت أدلي باعترافات أضنى الروح حملها، وضاق بها كتماني:

- ما أنا إلا نبي.... قاتل!

تبهت هي، ولا أتوقف عن جلد الذات:

- أردت نشر رسالة التوحيد، وكتبت في ذلك تسع كتابات وافيات، خيل لي أن القوم، وهم يرتعون في الجهل، ربما يلزمهم قدر من الإجبار على الإيمان، وما كان لي أن أعلن ذلك، كما كان حريّا بي أن أوقف العنف، الذي انتهجه المؤمنون بـ(آتون) تجاه عبدة (آمون)، ما كان يليق بي، وأنا النبي المختار، أن أهدر دم أناس لم تلق كلماتي لديهم قبولًا، بيد أن بعض المؤمنين، قد اجتذبتهم عظمة السلطة، فراحوا يمارسون الإثابة والعقاب، بجذل واستمتاع...

- أنت محق يا مولاي!

تقول أثناء مرورنا إلى القصر الفارغ، عبر الطرقات الفارغات، حتى وقفنا بمقربة من القصر، وترجلنا تاركين عربتنا، حيث يغفو حارس مجهد وحيد، تهمس:

- سأذهب لأرتب خروجًا آمنًا للملكة (ميريت)، والأمير (توت عنخ)، وباقي الأميرات.

تُسرع (مليكة) -التي هي (كيا)- صعود الدرج، إثر إيماءة من رأسي، حتى تختفي عن ناظري فور ولوجها بهوه الرخامي الفسيح، يستيقظ الحارس إثر سعال متعمد صدر عني، فينتفض لينتصب أمامي مترنحًا، وقد كسا قسماته رعب حقيقي، أشير له أن يهدأ، فأميز في ترنحه سكرًا أو خدرًا، أشتمّ فمه فلا أميز أيًّا من روائح الخمر، تكاملت الصورة في عيني، حين شقت صرخة مليكة دثار الصمت...

وعندما تغرب في الأفق الغربي
تصير الأرض سوادًا كأنما حل بها العماء
ويخرج كل أسد من عرينه وكل زاحفة تخرج لتلدغ
وفي الصباح عندما تشرق في الأفق
تسوق الظلام بعيدًا يستيقظ البشر
ويقفون على أقدامهم
جميع من في السكون يؤدون أعمالهم
ما أعظم أعمالك.

يتسلل إلى مسامعي صوت (موزاس) في إنشاد خاشع، أتلفت فلا أتمكن من تحديد موقعه، اختفى سائق العربة الملكية بدوره، توجهت صوب الدرج، تبخرت مخاوفي ومس جسدي شيء من قوة الجن، لن يمس (مليكة) شر، أتقدم، فتهاب الأرض خطواتي الواثقة، وقد مضت تدك الدرجات الواحدة تلو الأخرى، يصدر النعل الخشبي صوتا لافتًا، يتعاظم إثر الالتحام بأصدائه المتشابكة، فتُفتح أبواب القصر...

ماذا يحل بي؟

مساء الليلة عجول، ككاتب يود الانتهاء من مؤلفه قبل شروق الشمس، فيعمل على ترقيع فجوات كتابه، ولملمة خيوط الأحداث بعزيمة خاوية من الصبر...

وقف كبير كهنة (آمون) متنمراً في بهو قصري، وقد تراص حوله ما يقارب عشرين كاهناً، مشكلين دائرة ترك في إطارها فسحة تكفي لمروري كما أرادوا، مرقت من حيث أريد بي، ووقفت في مركز دائرتهم، لاحظت (كيا) ملقاة على الأرض وقد سال من شفتها دم، وتناثر من حولها خوفها الجلي، لاحظت أيدي الكهنة وقد حملت كل منها سلاحاً، هتفت:

- لا يليق برجل الدين أن يحمل سلاحاً، لست بخائف بقدر ما أنا مشفق عليكم، أرى بينكم وجوهاً شابة، وبعضكم تتلمذ على يدي في معابد (آمون)، وجاء اليوم ليقتلني، فإن رأيتم في قتلي صلاحاً للبلاد، فأتموا ما جئتم من أجله، وإن كنتم لا تزالون في حيرة من أمركم، أحاجيكم، حتى أعود عما ظننت، أو تعودون أنتم عما اعتقدتم...

تقدم كبير الكهنة خطوة للأمام، وهتف بما ارتجت له جدران القصر:

- الملك العظيم، الفرعون الحاكم، نور الإله (إخناتون)[٩٨]، يرجوكم أن ترحموا ضعفه وترأفوا لحاله، وقد تخلى عنه الجميع، لم لا تطلب المعونة من إلهك (آتون)، أم أنه هرب بدوره!؟

يضحك الكهنة بعصبية ويتبادلون النظرات المتوجسة، بعضهم تصرخ عيناه برغبة في الثأر، وبعضهم يكاد يرجو كاهنه ألا يقتلني، يرفع الأخير يده إلى الأعلى، فيستل الجميع سيوفهم من مواضعها، ليقاطع الصمت أصداء صرير، أرفع رأسي وقد استعدت الإيمان بقدسيتي، وغدوت متأهباً لقبول ما يشاء الرب من مصائر، أتقدم خطوة صوب كبير الكهنة، وأجيب بذات الصوت الجهوري:

- الآلهة لا تهرب، كما أنها لا تترك معابدها وتماثيلها لتحطَّم دون أن تحرك ساكناً، ذكرني إذن، ماذا كانت ردة فعل (آمون) حين دمر الرفاق من المؤمنين معابده وتماثيله!؟

يقترب كبير الكهنة، يحمل عصا خشبية ذات رأس معدني بدلًا من السيف، تكاد أنفاسه تلفح وجهي في صراخه:

- أنت من بدأت هذا، أنت من خلق الفتنة، ودفع البلاد إلى ما آلت إليه من اشتعال الصراع، وعموم الفوضى، أنت من استعديتنا جميعًا، واليوم تُحَاسَب على ما اقترفته يداك الآثمتان.

تتراقص على محياي ابتسامة، أوليه ظهري، وأعلق على ما جاء به متجولًا بين الكهنة بثقة تقلقهم:

- بل قل إن الأمر اشتعل فور أن قطعت عنكم عطاياكم وقرابينكم، فحرمتم من مزية أن يكون المرء منكم كاهنًا، أنتم فقط مستفيدون، تتربحون مما تعملون، فما ابتغيتم مرضاة الإله، وما صدقتم في وعظكم للقوم...

يقف خلفي ممسكًا بكتفي، ويهمس في أذني بصوت كالفحيح لا يسمعه سوانا:

- نحن من نصنع الآلهة...

ألتفت له منتفضًا، أتفحص عينيه متحريًا الصدق فيما قاله، فتعكس عيناه ما يفيد بقناعته بما أدلى به للتو. تنتابني حيرة، وقد كنا ذات يوم من أقرب المقربين، هل نجح في خداع الجميع طوال الوقت؟

ألمح من خلفهم ظلًّا لرجل يسحب (كيا) خارج المشهد خلسة، أميز من زيه أنه (موزاس)، فيغمرني امتنان عميق نحوه، ويلفني ارتياح وقد أبعدها كاهن (آتون) المخلص، عن ملاقاة مصير مشابه لما أنا مُقبل عليه، أتذكر الحرس القلائل الباقين في محيط القصر، فأهتف مخاطبًا الكاهن ذا العصا الخشبية:

- لا تقتلوا من بقي من الحرس إذن، فإنَّ تفانيهم في أداء مهامهم، لا ينبغي أن يؤخذ كدليل إدانة ضدهم...

يضحك كبير الكهنة بصوت جهوري مزعج، حين تسلل خيط من ضوء القمر لينعكس على رأسه الصلعاء اللامعة:

- تأخر طلبكم كثيراَ أيها الفرعون الرءوف، فقد حصلوا على شراب مسموم قبل قليل، وسيقتات الطير على جثثهم صبيحة الغد...

أخطو بضع خطوات عبر دائرتهم، فيتحرك بعضهم، يرفع كاهنهم يده، فيتوقفون عن ملاحقتي، أصعد بضع درجات إضافية، فيظهر كرسي العرش الخاوي، غارقًا في ظلام خانق، يشعل أحدهم المشاعل المثبتة بالجدران فيغمر البهو ضوء يغالبه اصفرار. أقف مواجهًا لعرشي، موليَا ظهري لكهنة الإعدام، أتكأ بيدي على مسندي الكرسي، وأطرق في حزن لا يشوبه خوف، ولا يعوق انسيابه ندم حيالهم، وإن عكره شيء من ندم تجاه قومي، أشعر بزحفهم من خلفي، وألتفت لملاقاتهم، يشاغلني امتزاج المشهد الحالي، بمشهد آخر دار في ذات الموقع منذ زمن، فرأيتني وقد أجلست ولدي (توت عنخ) فوق كرسي العرش، وزينت رأسه بتاج الفرعون الحاكم، وأخذت أتلو عليه بعضًا مما نقله لنا الجدود من وصايا الحكماء، كنت أحمل بردية قديمة، وكان هو منشغلًا بفحص صولجان الملك وقد تركته بينِ يديه، كنت أردد الوصايا، وأعمل على إرسائها في أذنيه وكأنني أصبها صبا، حتى تترسخ في روحه، فهل استقرت ذات الوصايا في وجداني لأعمل بها؟

- لا تنشر الرعب بين الناس، فذلك مما يثير غضبة الرب فيعاقبك عليه. ستجد بين الناس من يقول ها هي الحياة قد أقبلت، فيمشى في الأرض مختالًا متكبراَ، فيجازَى بالحرمان من خبز فمه، وستجد من يقول ها هى سطوتي، وقد خيِل له ضلاله، أنه قد غدا قادراً على نول كل ما يشتهي بالباطل، وبينما هو يتفاخر بذلك، تنزل عليه النازلة، فلا يملك لها دفعًا، ولا لنفسه نفعًا.. وهناك يا بني من يتحايل على القوم، بغية اقتناء ثروة ظن هو أن حوزتها -حتمًا- تغنيه، وتبث نسائم الأمن في مستقبله، بيد أن المستقبل لا يهيئه امرؤ لنفسه، لأنه بيد الرب، فما من شيء هيأه المرء لنفسه قد وقع، وإنما يقع ما أمر به الرب، فعش مؤمنا، وارتع في بيت الأمان والطمأنينة، قانعًا بحاضرك، واثقًا

بمستقبلك، فيأتيك القوم من كل حدب وصوب، برزقٍ قُدِّر لك من حيث لا تعلم.

يهوي الكاهن بعصاته ذات الرأس المعدني على وجهي، فتشق وجنتي، ويتناثر منها الدم ساخناً، يسقط تاجي، وتتناثر بضع أسنان من فمي في بهو القصر، أسمع حفيف السيوف في هبوطها على جسدي، يقول كبير الكهنة مخاطبًا كهنته المختطفة عقولهم:

- ذلكم عقاب من تجرأ على معاداة (آمون)، فدنس معابده وحطم مجسماته، وطارد كهنته الأبرار، وأنزل بهم أشد العذاب، لن نترك في جسده ما يصلح للدفن، لن يبقى له أثر فوق الأرض، ولا في باطنها، ذلكم ما أمرني به (آمون)، فنفذوا مشيئة الإله، حتى ينفذ انتقامه سهمًا في قلوب كل من ضلوا السبيل إلى عبادته.

تهوي النصال حتى تتلاقي في أوصال جسدي المستسلم، يلفُّني خدر، بالتزامن مع غياب الشعور بالجسد، أستشعر انعدامًا للوزن، ما زلت قادراً على الرؤية، وإن لم يعد لي عين ولا جفن، يسود السواد ثم لا يلبث أن ينجلي سريعًا، فأميز أن إبصاري للمشهد قد أصبح من علٍ. أتابع الدماء وقد كست أغلب مساحة البهو، وحجبت الرؤية عن العرش وقد تزاحم عليه الكهنة، يمزقون ويقطعون الجسد، ويطحنون العظام بما يرضي عنهم إلههم (آمون)، تتعالى الروح فتترفع عن متابعة المشهد الدامي، وتسمو مغادرة للقصر، ألمح (موزاس) يركض في الصحراء العارية، وفي اتجاه آخر، تطايرت خصلات شعر (كيا) السوداء من خلفها كما الحرملة، وهي ترمح فوق صهوة جوادي الأثير، وإلى جوارها تمتطي ابنتي (ميريت) جوادًا آخر، لتشق كلتاهما الأرض، جارتين من خلفهما العربة الملكية، وعلى متنها "توت" وبناتي يطللن من نوافذها، يمضي الركب فيخلف من ورائه خيطًا من غبار يتصاعد فيحجب وجهتهم، تنقشع السحب كاشفة ممرًا نورانيًا يتصاعد إلى الأعالي كعنق الملكة المقدسة، أتردد لوهلة قبل أن أقرر التوجه

صوب عنق السماء الأجيد ، تتداخل الأزمنة فيباغتني طيف عابر لـ (نوح أفندي)، يطمئنني:

- لم يلق (إسماعيل) مصيراً كهذا...

يقاطعه حضور منتظر لـ(مليكة)، فأنظر حيث رأيتها للتو في هيئة (كيا)، فلا أجد الصحراء، ولا القصر، تتبخر (أخيتاتون)، فتربت هي على كتفي، لأستعيد الشعور بجسدي، أو ربما يستعيدني جسدي، أهتف بها:

- إني تعب...

تومئ متفهمة، وتهمس حانية:

- آن وقت الراحة...

أميز أطرافي وقد ظهرت، حين كانت نسائم رمادية تطوف من حولي جاعلة من جسدي مركزاً لإعصارها الآتي...

تعود سحب القطيفة المخملية لتحوطني، فأضمها في توق وحنين...

حتى غلبني النعاس فنمت، أو استيقظت...

فواصل ما بين الوعظ والشك
موروثات ومدونات منسية
جمعها ورتبها إبراهيم البنداري

الفاصل الأول

حكمة لعوب

في كتاب أضعته بعد أن مُزق من صفحاته نصفها، قرأت عن تساؤل لحكيم لا أذكره، عاش بمكان مجهول، في زمان لم أعاصره، إذ قال لتلامذته ذات مساء تحفه النسائم المنحدرة من سفح الجبل:

- ماذا لو تبادل الحلم والواقع أدوارهما فوق مسرح الحياة؟

فقال رجل في لباس الكهنة: لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع! وقال آخر كان متكئًا على ظهره متابعا لحلقات الدخان الصادرة من جوفه: يكون في ذلك انهيار لقيم المجتمع! وسرت همهمات وساد همز ولمز، حتى مرت بمجلسهم امرأة شبه عارية، تنسدل كالليل خصلات من شعرها المائل للحمرة، لتغطي نهديها الرابضين أسفل قلادتها النحاسية، فتَوَقَفَتْ متعثرة بسؤال الحكيم، وقالت بحروف متراقصات يتسقن مع هيئتها: بل بقيتم كما أنتم في ذات المجلس، تنقمون على الحلم وقد أمسى واقعًا، وتسخرون من الواقع وقد غدا حلمًا! فما أنتم للواقع مبدلون، ولا أنتم للحلم بالغون!

فكان أن توقفت متفكرًا فيما صفعتهم به المرأة، وفطنت لحكمتها المخبوءة خلف مظهرها اللعوب، ذلكم أن الحلم والواقع ينشآن في عقل المرء فيشكلهما، ويتشكل منهما، فجدير به ألا يخشى تحقق الحلم ظنًّا أنَ في ذلك مفسدة، وألا يكف عن مطاردة المأمول، شريطة ألا يظل ملقيًا بالمهمة على عاتق الرب، تاركا له مسئولية البحث واقتفاء الأثر!

قول مجهول المصدر
نقله بخط يده نوح البنداري

الصحيفة الثانية

يا لكثرة القديسين!
لا أستطيع أن أحصيهم جميعًا
لأنهم كثيرون مثل السنبل
كقول الكتب.
ذكصولوجية
تقال في ٢٢ أوت و٢٥ بابه

قد بلغ المُدَوِّن طُوَه[٩٩]!

طُوَه - القرن الرابع الميلادي

يلف الضباب ساعات الغفو ليكبل في الرؤى إبصاري...
ويجثم على صدري حين يتشبث بي صحوي...
فَيَحَيّر أمري، ويبعثر عبثًا أسراري...
والسر الكامن في ذاك الصندوق يُبَشِّر...
ويحذر... فيفيض الخير بمقدمه...
ويبوح النهر...
فتتماوج المشاهد من حولي وقد طوقت بعيون لا أجساد لها...
يبرز للعيون وجوه، فاغرة فاها...
أشعر أنني أُجرُّ جرًا، مساقًا إلى المجهول، وقد اصطفت الوجوه على جانبي الفراغ صانعة ما يبدو كممر لا أبصر منتهاه...
أميز رجالًا ضخامًا وقد رفعوني من تحت إبطي وهرولوا بي عبر الممر...
تتعالى صيحات بعض الوجوه: هللويا!
تغمض بعض الوجوه أعينها متمتمة بما لا يبلغ مسامعي...
تبكي أعين، وتشخص وجوه...

تتباين الانطباعات متأرجحة ما بين نقيض ونقيض...
يبدو في نهاية الممر تل صغير، ثبت فوقه صليب خشبي راسخ مستقره...
تتسارع هرولة الضخام، فيزداد احتكاك ركبتي المتدليتين بأتربة الطريق وأحجاره المتناثرة...
يدمي الجسد ما بالمقدور نسيانه...
ويدمي الروح ما لا يندمل ولا يُنسى...
غصة الخيانة تكاد لا تفارق حلقي الجاف...
أتساءل؛ هل بلغ القوم كلام الرب؟
هل يرضى عني الرب وقد خذلته فيما أرسلني من أجله؟
تحملني طاقة هائلة حتى أنتصب مثبتًا فوق الصليب...
تتعالى الصيحات بين نشوة ولوعة...
تؤلمني ملامسة الصليب لجسدي العاري حين يحكم الضخام وثاقي...
- ساعدني يا أبي... وسامحني!
أقول مخاطبًا السماء الباكية، فيستحيل ملمس الصليب مخمليًا ناعمًا كأسرّة الملوك!
تقترب مني غيمة رمادية صغيرة، حتى تلامسني فأميز لها ملمسًا كالقطيفة، قبل أن تتناثر قطعًا قطنية متباينة الحجم، في فضائي المثقل بوشاية البشر، وأتربة الطريق، ثم لا تلبث أن تتجمع من جديد، لتتجسد أمام ناظري فتاة بهية، متشحة بعباءة حريرية بيضاء...
- لا تخف.
تهمس، وتحوطني عيناها بحنان صادق...
أتلفت حولي، فأميز أن لم يبصرها غيري...
يُقبل الضخام نحوي وقد حمّلوا بمطارق وأوتاد معدنية...
أغمض عيني حين ثُبت أول الأوتاد فوق كفي اليسرى...
تهوي المطرقة، مصحوبة بنظرات كراهية تتقد في أعين الضخام...

أشفق على قتَلتي وقد امتلأت قلوبهم بالحقد فقفرت، وغابت عنها المحبة التي حكى لي عنها الرب في آياته...

تلامس المطرقة طرف الوتد...

تحتضن رأسي تلك الفتاة الخفية، الحريرية الملبس...

يهدر من السماء صوت رخيم:

- اذهب إلى (سوكيانوس) والي (أتريب)، مبشرًا ونذيرًا!

يدوي صوت عظيم لارتطام أو انفجار، ثم يتلاشى كل شيء، فأفتح عينيّ شاهقًا:

- يا مخلصي يا يسوع!

علا الصدر وهبط تباعًا، وارتجفت دقات القلب مضطربة، ومضت دقائق متوترة حتى هدأ كل شيء وانجلت ماهيته، استيقظت مطاردًا بذات الرؤيا القديمة بالسيدِ المسيح، وقد أعقب الرؤيا الأولى، تجوال وارتحال، وعذاب ارتضيته فداءَ لنشر الرسالة وتعميم الإيمان بالسيد المسيح... كان صباح رمادي آخر، مما اعتدت لقياه في (طوه)، كلما استرددت ساعات الصحو وما أندرها، المحبس فسيح، لا يضيق له الصدر كباقي ما اختبرت من محابس، وما اعتدت مرآه ككاتم أسِرار سجلات السجون في الإسكندرية، غسلت وجهي من إناء صدئ جُعل موضعه في الركن الأكثر ظلامًا في جنبات المحبس، وأخذت ألوك كسرة خبز مما أحضره لنا الحرس بالأمس.

كان (تادرس) و(يونياس) بعد نيام، حين ظهرت لي قديستي الخفية، من بعد غياب طال حتى اعتراني الشك في كل ما أراه، والريبة تجاه كل من أقابله...

- أكاليلك لا تزال مُعدة، ومعطرة في انتظارك (يوليوس).

قالت حين كنت ألوك آخر قُضم الخبز الجاف، ثم افترشت الأرض إلى جواري حيث تربعت مسندًا ظهري إلى الجدار الحجري البارد، اعتراني شعور بالراحة، ألفته في تجليات ظهورها وتجسدها.

- ما الهدف من كل ذلك!؟

تَـمْتَمْت بما سمعته هي، فاعتدلت في مجلسها حتى أضحت مواجهة لي، وقد استشعرت اهتزاز ثقتي وترنح إيماني، قالت:

- هي رسالة مُوكلة لك ممن لا يصطفي القوم اعتباطًا، ولا يكلف غير الصالحين، فلا يجزع قلبك، ولا تجنح روحك الطاهرة عن مسالكها الحتمية، فقط ذر خوفك، واتبع قلبك كعهدي بك منذ الأزل.

قالت ما أكد سابق ظني، ثم غادرت وقد أهالت على رأسي أطنانًا من الحيرة، سقطت في دوامة عاتية، ردتني إلى الماضي فأخذت أستعيد البدايات، وأتذكر...

حين بلغت سمنود{١٠٠}، عقب أول الرؤى، قصدت واليها (أركانيوس)، حتى كان أن لقيته دون عناء، وقد سبقتني وصولًا إلى الوالي أصداء ما حظيت به من تقدير واحترام، وما كان لي من حظوة ومكانة لدى حاكم الإسكندرية، قابلني بشوشًا، فحدثته عن الرب يسوع، ودعوته للإيمان به، فتشبث بادئ ذي بدء بكرسيه ذي العرش الذهبي، وطمست شهوة السلطة عينيه عن الأدلة الثبوتية المترامية بين السماء والأرض، فانقلبت بشاشته اقتضابًا، ثم استحالت غضبًا عاصفًا، فضرب بحسن السيرة عرض الحائط، وأنزل بي من العذاب ما ظن أنني أحيد به عن الطريق، وأعود لأجله عما انتويت.

شاء الرب أن أتحمل العذابات في سكينة، فكنت أقابل الجَلْد بالجَلَد، وأجابه القهر بالصبر، وأدفع البغي بالصلاة، حرقت النار وجنتي اليمنى فتركت بها ندبة لا تندمل، حتى أراد الرب أن يناصرني، فقلقل الأرض من تحت أقدام أصنامهم وكهنتهم، فَرَجّت معابدهم، وزعزعت عقائدهم، وزلزلت المعجزة كامل أرجاء (سمنود)، فساد صمت المتأملين أنحاء المدينة، وفغرت الأفواه، فتلا السكون ما جرى، حتى شق الليل خيط شارد من خيوط النهار، وتهدلت باقي الخيوط على نحر السماء المنبعثة من

مرقدها في دمس الظلام، فآمن بالرب يسوع معظم قاطني المدينة، وواليها (أركانيوس)، وحاشيته وآل بيته.

تجسدت في خلوتي في ذات المساء فتاة الحلم (مليكة) للمرة الأولى، فهلعت حتى سقطت أوراقي وكتابي المقدس، فتناولت الكتاب ومسحت عنه ما علق من الأتربة، ثم ناولته لي، وهمست:

- افرح يا خادم القديسين، فالأكاليل مُعدة لك.

حكيت لولدي (تادرس)، وأخي (يونياس)، عن ظهور (مليكة) الأول، فأكدا لي أنها ملك من ملائكة الرب، حتى أسمياها بالقديسة الخفية، حاولت استدعاء صفحات من الماضي البعيد، بحثًا عن وجهها وقد ميزته مألوفًا، فلم تسعفني الذاكرة، فكان أن عقدت العزم على الارتحال إلى (أتريب)، عقب الرؤيا الثانية، وقد علمت أن واليها قد عاث في الأرض فسادًا، وعذب المؤمنين، وما زال يطارد من أفلت منهم من قبضته الملطخة بدماء الأبرياء، وكان أن صحبني في ذاك الارتحال، والي (سمنود) المنضم بالأمس إلى جند الرب، (أركانيوس)، ولفيف من آل بيته ورجاله.

في الطريق من (سمنود) إلى (أتريب)، كثرت تجسدات قديستي، وتباينت مسبباتها، فهي تارة تتجسد لتعظني، فتعدد فضائل نشر الإيمان وانتشال العقول من ضلالاتها، وتارة تبرز في عدمي امرأة محبة، وعاشقة تكبلها الفضيلة.

ثم توقف ركبنا في الطريق بغية الاجتماع برجالات التدوين، ممن قدموا من كل حدب وصوب لملاقاتي.

كنت قد عملت منذ الرحيل عن (الإسكندرية)، على نشر ثلاثمائة رجل من خدمي ورجالي المخلصين، ممن يجيدون الكتابة، إلى كل ركن من أركان البلاد الشاسعة، ليدونوا قصص الشهداء والقديسين، ويعملوا على الاعتناء بالجثامين، ونقلها إلى مدافنها والصلاة عليها، خرجت من خيمتي على الجمع وهم في توق للقاء، فحدثتهم بما لم أرتبه مسبقًا، وصاغه لساني بإيماء من الرب:

- ذلكم قديسكم المُذَكِّر... جيء بي إلى هذه الدنيا، لأذكر بما يتوجب على المؤمنين اتباعه... وكلفت بتخليد ذكرى أولئك الأبرار...فأوحي لي أن أرسلكم في شتى بقاع الأرض، بحثًا عن المؤمنين والقديسين الشهداء، لتسجلوا أقاصيصكم عما كان ويصير، حتى أجمعها في كتاب واحد، في طياته حقيقة ما جرى، ذلكم كتاب "السنكسار".

داعبت الخيام نسائم رطبة، بَشَّت الوجوه بملامستها، وتفرقت الغيمات اللاتي كن للتو حاجبات لضياء القمر، تعالت الهمهمات تُسَبح بالرضا، وعلا بين الأصوات صوت والي (سمنود)، وتبعني الرجال حتى بلغنا مشارف (أتريب)، فأمرتهم بالتفرق كي لا يظن حراس المدينة أننا جيش قادم للاقتتال، وحرصت على تلقينهم مفاهيم المحبة، وأفضت في تلاوة الشروح عن قدسية إكليل الشهادة، وما فيها من انتقال لمجاورة الرب في الملكوت...

كان أن لقيت (سوكيانوس) والي (أتريب) بعد أسبوعين من دخول المدينة وتفقد أحوال المؤمنين، ولذا فقد كان غضبي المسالم في أوجه ساعة اللقاء، فدخلت عليه قصره غير آبه بحرس، غير عان بما ستحمله ردة الفعل، وقد كان القلب منتشيا بما كان في (سمنود)، متألمًا بما رآه في (أتريب)، مؤازرًا برفقة ولدي (تادرس) وأخي (يونياس)، و(أركانيوس) والي (سمنود).

- يا والي الظلم، أوليت على القوم لتعذب من يؤمن فيهم بمن وَلَّاك؟ وما أنت من دون رضائه بباق أو مُوَلَّى؟ أتعتقد بأنك في مأمن من انتقام الرب وسط حرسك وجندك؟ أليس الرب بقادر أن ينزع عنك الملك، كما نزعه عن كثيرين من قبلك، فخلت أيامهم، وزالت عروشهم؟

قلت فجاءت كلمات والي (سمنود)، لتلحق بكلماتي ما يعضد من توكيد:

- أخي (سوكيانوس)، يشهد الرب أنني أتيتك من بعد تمام يقيني بما قاله القديس (يوليوس) للتو، وقد شهدت من المعجزات ما ردني إلى الحق، وأزاح عن بصيرتي أستار الضلال، الرب حق يا (سوكيانوس)،

الرب محبة، فأفرغ قلبك من كل ما علق به من حقد وكراهية في أيام الضلال، ارحم عباد الله المؤمنين، وأوقف ما ينزل بهم من عذابات التنكيل، فلا تزال الفرصة سانحة يا أخي، فانضم إلينا...

أمر الوالي المتعجرف جنده فالتفوا من حول أربعتنا مشهرين سيوفهم، فصاح بهم (تادرس):

- أعيدوا سيوفكم إلى أغمادها، وأخفضوا حرابكم، فقد جئناكم دعاة سلام ومحبة، فما أشهرنا سيفًا في وجه أكثركم ظلمًا وأقساكم عملًا، وما حملت كلماتنا ما يبشر بذلك...

أشاح الوالي بوجهه، وقد ساوره الشك فيما هو مقبل عليه، فعقب (يونياس):

- ما بشرنا إلا برب يشهد على أعمالكم في سماواته، وما جئنا إلا لنوقف الدم.

زُج بنا في السجن، ونُكِّل بنا بما كنا نفقد له الوعي، حرّقت أيدينا وأرجلنا، وشُقّت صدورنا، وطبعت كفوفنا الدم على الجدران في محاولاتنا للتماسك، والنهوض من مراقدنا، حتى كان أن لقينا في ليلة، أرسل فيها القمر ضوءا شحيحًا عَبَر الجدران الصخرية، من حيث لا أدري، رجلًا يحتضر، وقد حمل جسده من الجراح والطعنات ما لا يحصى، أثخن جراحه فراقات الرفقاء من المؤمنين، ولم تؤلمه الجراح، عرفني بنفسه، فقال إن اسمه هو (يُحنس السنهوري)، وأفاد بأنه قادم من قرية تدعى (سنهور)[١٠١]، ثم حكى لي عن رؤيا مشابهة لما رأيت مرارًا، تجسد له فيها إبان الصحو ملاك الرب، وقتما كان منشغلًا بحرث حقوله وري زروعه، بهت باللقاء، حتى حدثه ملاك الرب، فأمره بالارتحال إلى (أتريب)، حيث يبشر المؤمنين، ووعده بنول ثلاثة أكاليل، هي إكليل البتولية، وإكليل الجهاد، وإكليل الاستشهاد.

قضيت برفقة القديس المضرج في دمائه عدة ليال، شاء الرب أن يتوقف التنكيل بنا خلالها، حتى تحسن حاله، واسترد شيئًا من مقدرته على

الحديث، فقص عليّ كامل حكايته، بيد أنني وقفت مشدوهًا خجلًا أمام الرب، إذ لم أظهر من الجسارة بعد، مثل ما أظهره ذلك الفلاح المؤمن الصالح، حتى جاء يوم فُصل فيه بيننا، فَوُضَعت رفقة ولدي وأخي، في محبس منفرد، وأخذ والي (سمنود) و(يُحنس) إلى حيث لم أعلم في حينها...

مضت الأيام متواليات متشابهات، وقَلّت جلسات التعذيب والتنكيل حتى انعدمت، وجاءت ليلة قمرية أخرى، فقام الوالي (سوكيانوس) باستدعاء أخي وولدي للقائهما دون استدعائي، فبقيت وحيدًا متشبثا بالسكون، متصفحًا سنوات العمر الفائتة، ما بين عملي في الإسكندرية، وزواجي، تذكرت أختي ووالدي، وتبسمت حين مر جواد الزمن بمواضع مستحبة، حتى قاطع لحظات الخلوة، تجسد لقديستي الخفية ذات الرداء الحريري، اعتدلت من مرقدي في وهن مُرَحبًا، فأراحت كفها على كتفي لتبقيني مستلقيًا بغية نيل المزيد من لحظات الراحة...

- ستخرج من محبسك هذا عما قريب، فالوالي قد أوشك على إبصار الحق، ولعل ذلك مما استدعى لأجله رفيقيك، وقد خشي مقارعتك بالحجج والبراهين، فتذكر حين تضم بَرَاحَك وقد استعدت حريتك، أن ترحل إلى (طوه).

أتبسم، وأتمتم بنبرات خفيضة لم يكن بوسعي رفع وتيرتها:

- عزائي أن في ذلك رحمة للمؤمنين، وسلامًا لأجساد من رحل من القديسين في دعواهم إلى الإيمان.

مسحت على جبيني، فشعرت ببرودة تراخت لها مفاصلي، فأشاحت بوجهها متفادية لقاء أبصارنا:

- رفيقك (يُحنس السنهوري) قد حمل إكليل الشهادة، فرفعه الرب إلى جواره.

صعقتني خبريتها، رغم التمنيات الدائمة بنول أكاليل الشهادة، حزنت لأجله، وقتما كان حريّاً بي أن أُمسي فرحًا، وقد نال الراحة المأمولة والسكينة المرجوة..

- يا (يسوع)، لماذا ينبغي أن تُسال كل هذه الدماء ليبلغ الإيمان بك قلوب البشر، كم من الأرواح قد أزهقت، وكم من الأرواح تنتظر دورها، مصطفة في صف طويل أمام مقاصل التبشير، وسيافي الولاة سفاكي الدماء؟

ربتت على كتفي، فانتفضت جالسًا وقد أزالت غضبتي ألمي.

- كان في آخر اللحظات جسورًا، قطع السياف ذراعيه وأوشك على قطع رأسه فراح يتشفى به ويسخر منه، فقال له "أين ربك الآن يا (يُحنس) لينقذك؟"، فكان أن رُفِعَت السبابة في يده المبتورة نحو السماء، وبقيت على وضعها حتى عقب أن قطعت رأسه.

أخذت أهز رأسي ألمًا بتصور المشهد:

- أبانا الذي في السماوات، فلتمجد اسم القديس (يُحنس السنهوري) كما تمجد اسمك، واسم القديسين الأبرار.

لم أحزن كما حزنت على (يُحنس)، وقد كان نقيّا مؤمنًا محبّا للرب كما ينبغي للعبد لصالح أن يكون.

في الصباح التالي، استفقت فلم أجد أخي وولدي قد عادا بعد، ثم جاء حرس كُثر فحملوني إلى حيث كانت العدة تعد لعقد احتفالهم، في معبد أصنامهم في قلب (أتريب)، فلقيت كلاهما وقد كانا مكبلين بعمودين من أعمدة المعابد، رفقة (أركانيوس) والي (سمنود)، فرحت بلقياهم وقد ظننت أنهم قد نالوا أكاليلهم بدورهم، ثم كان أن كُبلت بوثاق مُحكم إلى جوار ثلاثتهم.

سترت عتمة الليل الزاحف نحونا تماثيل الآلهة، وقد زينت بسعف النخل، والحلي استعدادًا لاحتفالية تعقد صبيحة اليوم التالي، وأخذت أسبح بين تيارات الشك، فـ(يُحنس) قد مات، وما قالته (مليكة) عن قرب إيمان

الوالي، ورؤيتها لنور الإيمان موشك على التسلل إلى قلبه المظلم، لا يتسق مع ما يجري من تأهب للاحتفال، تذكرت ما كان من معجزات الرب في (سمنود) فأخذت أصلي، وأخذ رفقائي يتضرعون إلى الله أملًا في الخلاص، فكان أن وجهتهم بالصلاة إلى الرب، بغية رحمة المؤمنين، وليس خلاص أربعتنا فحسب، فتوحدت صلواتنا وشقت السماء بحثًا عن عرش الرب، وطال بنا الصبر حتى كان أن أفل نجم في السماء، فحاد عن مساره، وبدا كأنه يسقط نحونا في تسارع مخيف، حتى استقر على مبعدة أمتار من رءوسنا الجزعة، لتتجسد من أنواره المغشية للأبصار (مليكة)...

بقي الرفقاء مغلقين لأعينهم، وكأنهم لا يقوون على إبصارها، دارت على رءوس أربعتنا مُقَبِلة، فلم يشعر بها سواي، ثم كان أن ارتفعت في السماء، ومرتِ فوق رءوس الأصنام بتؤدة، فكانت كلما مرت برأس، سقط أرضًا وقد سَوّده رماد عظيم، حتى فرغت من مرورها بكافة الرءوس، فعادت صوبي باسمة:

- لا تحزن، ولا تخف.

قالت ثم حَلَّقت، تجر خلفها رداءها الأبيض الشفيف، حتى استقرت في صدر السماء المتهدج، فعادت نجمة كما كانت منذ لحظات، فتح الرفقاء أعينهم، فعلت أصواتهم فرحًا، وأكثروا من صلواتهم طيلة الليل، حتى بزغ الفجر منعشًا، وهبت ريح متصابية نثرت الرماد في أرجاء (أتريب)، فاستيقظ أهلها في وقت مبكر عن المعتاد، وما إن خرج أول الحرس من مكمنه، حتى ساد هرج ومرج، ولم تمض دقائق إلا وقد كان الوالي (سوكيانوس)، يطوف بين رءوس الأصنام دهشًا، يتلفت حوله باحثًا بين الوجوه الشاحبة، عن تفسير لما جرى، فدار مرارًا وتكرارًا حتى كسا سواد الرماد أسفل ردائه، بقيت استغاثته الصامتة حبيسة مقلتيه، ورهينة عناده المترنح على حافة الشك، حتى بلغ موضعنا، فأخذ يطوف من حولنا متيقنًا من إحكام وثاقنا، أعياه التفكر، فقال محني الرأس، وقد دهست جياد الرب كِبَره وكبريائه:

- هل فعل ربكم هذا!؟

أشرنا برءوسنا إيجابًا، واشرأبت الأعناق، وكسا النظرات قوة وفخار، لا يليق بأربعة مكبلين مثلنا، حتى صرخ (يونياس):

- المجد لك يا (يسوع).

مزقت صرخته رباطة جأشهم، ففزعوا من صوته، وقد كان هو المكبل وهم الأحرار! تراجع الوالي المنكسر بضع خطوات للخلف، ثم أشار بيده لواحد من الحرس بأن يحل وثاقنا، فخشي الحارس الاقتراب، حتى غلف اليقين وجه الوالي، فاستل سيفه من غمده، ودار بيننا يمزق الوثاق تلو الوثاق، حتى حررنا، فالتفت إلى الجمع صائحًا:

- أشهد أن ربي هو رب هؤلاء الأربعة، فمن تبعهم نال رضائي وحمايتي، ومن عاداهم عاداني، ومن أراد البقاء على عبادته، فليرحل آمنًا عن (أتريب) قبل مغيب شمس اليوم، فإن حل الصباح وهو بيننا، آمن، أو قُتل.

تهافت القوم صوبنا، وقد ظنوا بنا قوة الآلهة، واستغرق الأمر أيامًا تلت، لشرح الأمر، ونقل إيمانهم من حيث استقر تحت أقدام أربعتنا، إلى حيث يليق به في علياء السماوات، على أعتاب عرش الرب العظيم، أما أول ما أتيت به، فور أن حل الوالي وثاقنا وأشهر إيمانه، هو أن طلبت منه أن يأذن لرجالي، بأن يحملوا جثمان (يِحنس) إلى (شبرا)، فوافق دون قيد أو شرط، ثم طلب مني المغفرة، فقلت:

- أمرني الرب ألا يسكن قلبي تجاه مؤمن شيء سوى المحبة، أما وقد صرت من المؤمنين، فقد غفرت لك ما كان منك أثناء ضلالك.

آمن الوالي بما أتيته به إيمانًا صحيحًا، وتبعه الكثيرون من قومه، فهدأت الأجواء، حتى شرعت أطبب القديسين والمؤمنين المصابين، وأعد الموتى منهم لملاقاة مثواهم الأخير، فمررت بين الأروقة المقبضة، وقد احتشدت بها آهات مرضاها، فكان الوضع الكارثي آخذ في التحسن ببطء، فهدأت نفسي، وصليت لمن رحل، وراجعت ما دوّنه رجالي عن القديسين

والشهداء، ثم كان أن صحبتني (مليكة) إلى مقابر الغرباء، حيث كان الرجال يهمون بنقل جثمان (يحنس)، كانوا قد صلوا على جثمانه ورفعوا البخور، بيد أن قطعة من جثمانه الآخذ في التداعي، كانت ناضرة تفوح بالحياة...

- سبابة القديس تلك، لا تلين يا سيدي، ولا تقبل الدفن، فكلما وضعنها في تابوت القديس سقط بنا، حتى أعيتنا المحاولة!

قال واحد من خدمي الأبرار، مشيراً إلى سبابة (يحنس)، فأعدت التجربة عدة مرات فتكرر ما رواه الخادم، اختفت (مليكة) فور ظهور الآخرين كعادتها، فأخذت أفكر، حتى أوحى لي الرب بأن أضع السبابة وحدها، منفردة، في صندوق خشبي آخر، فقبلت السبابة الأمر، واستقرت في موضعها بلا حراك.

حملت الصندوق معي متوجهًا إلى (طوه)، مستكملًا رحلة التبشير، كما وجهتني قديستي الخفية، فاختبرت بصحبة الصندوق أمورًا يطول شرحها، ويصعب تصديقها، بيد أنني خلصت من التجربة، بأن دونت وصية الصندوق في بردية، أوصيت فيها من يعهد له الرب بحمل الصندوق، أن يجدد كتابة الرسالة، وألا يسلمه من بعده إلا لرجل صالح، على أن يظل السر حبيس الصندوق ورسالته المتجددة...

ها هو النهار يمضي متباطئًا في محبسي في (طوه)، وقد طال الأمد بالسجن والتنكيل عن ذي قبل، صار أربعتنا خمسة بانضمام والي (أتريب) إلى رحلات التبشير، وقاطع ساعات التذكر والتأمل، مرور عابر لـ(مليكة)، حتى حانت لحظة رأيت فيها الخلاص القريب، والمستراح الأبدي، حين أمر (ألكسندروس) والي (طوه) بقتل خمستنا، فهتف الرفقاء:

- المجد لمخلصنا (يسوع).

شعرت بأن المعجزة لن تتحقق هذه المرة، حين كان الأمل يراودهم في تكرار ما كان في (أتريب)، ومن قبلها في (سمنود)، فنظرت صوبهم مبلغًا:

- لقد حانت لحظات سعينا إليها، ننال فيها أكاليل الشهادة، فاحرصوا على رباطة الجأش.

قابل المؤمنون الأمر برضاء وإن شحبت وجوههم، حتى ظهرت (مليكة) حين وضع رأسي فوق القاعدة الخشبية، وجُعِلَ مستعدًا لملاقاة السيف، كنت أولهم تطوعًا، وأكثرهم رغبة في نوال الإكَليل، تمتموا بأن المجد للرب في الملكوت، فكررت من خلفهم، ثم أضفت بأن المجد للرب، ولملائكة الرب الذين رافقونا وأناروا لنا المشاعل، فكانوا العون على بلوغ السبل، ومَعينِ الأمل المتجدد طيلة الدرب، فكرروا ما قلت من خلفي، ثم تمتمت بما لا يُسمع:

- والمجد لقديستي (مليكة).

كنت أراها في مواجهتي، في ذات الرداء الأبيض، وقد توج رأسها وشاح، له ألوان الزيتون، والضباب، وزهر الربيع.

مدت يدها صوبي دون أن تمسسني:

- حانت لحظات النهاية يا (إبراهيم)، وقد أديت إلى الله الرسالة التي أوكلها لك.

قالت فانتابني ألم بالغ في منتصف الرأس، وأخذت أمور متضاربات تمرق في عقلي ما بين الواقع والخيال، وددت الاستفسار عن الداعي من مناداتي بغير اسمي، فسبق السيف الكلم، تناثرت قطرات من الدم على ردائها الأبيض، وسقط رأسي بين يديها، فأغمضت عينيِ، ثم فتحتهما وقد شعرت بهواء يحف بي من الأرجاء كافة، فإذا بـ(مليكة) تمرق بين السحب باكية وقد ضمت رأسي إلى صدرها.

تتعالى دقات قلبها الملتاع...

نَمُرّ فوق مدن وبحار عدة.. يعبر أمامي صندوق سبابة (يُحنس)..

تسقط رءوس الأصنام.. تتزلزل الأرض فأشهد قبورًا تلفظ قاطنيها..

يخلو الكون إلا من تل صغير يتوسطه صليب خشبي.. أعود لأعانقه فيخترق الألم كفي وساقي.. أنادي أمي، فتظهر باكية وقد اعتلت إحدى السحب.. أراجع ما دونته وجمعته من سير الشهداء...

أضم "السنكسار" إلى صدري... يصيح مُنَادٍ من حيث لا أبصر:

جاءكم (يوليوس الاقفهصي)[١٠٢] مدون سير القديسين، فأحسنوا لقاءه.

تسكن الكون همهمات بمختلف اللغات..

تختفي (مليكة)... فأستعيد جسدي... وأعبر ممرًا مخمليًا له لون كالنبيذ... أستقر فوق جزر قطنية تملأ الأرض والسماء...

أتكور بحثًا عن دفء مفقود... حتى يغالبني النعاس، فأسلم له رايتي... فكان وجه أمي هو آخر ما رأيت...

حتى نمت... أو استيقظت.

فواصل ما بين الوعظ والشك

موروثات ومدونات منسية

جمعها ورتبها إبراهيم البنداري

الفاصل الثاني

حكمة كاهن

نقل لنا أعرابي عن أبيه الذي لا يذكر له اسم، نقلًا عن رواية نسبت لخادم تربى ببيت غلام بن قصي، عن جده لأمه سعود بن جابر الأنصاري، حفيد المأمون بن طلحة، أن جده قيس، حين نزل بجنوب أرض النيل في الأقصر، قد لقي عجوزًا ذا شأن يقال له (تمام)، فدعاه ذو الشأن ليقضي ليلته الأولى في رعايته، فقبل وتبعه حيث دلف عبر دهاليز متتالية، أفضت بهما إلى أطلال معبد كان مأهولًا في زمان سحيق، فاستقرا فوق أرض رخامية ملساء تشع بالبرودة، فأشعل العجوز الذي يقال له (تمام) سبعة مشاعل، ثم ثبتها في حلقات معدنية صدئة، برزت من الأعمدة الشامخة، وبدت وكأنها في ذات الموقع منذ الأزل، وجيء للضيف العربي بطعام ونبيذ تحاكى فيما بعد بمذاقهما الفريد، حتى داعب النوم جفنيه إثر الشبع، فالتفت يستفسر عن موقع المبيت، ليجد أن مضيفه قد تبخر!

هل يحلم؟ حار العربي في أمره، وضل طريقه بين الجدران بحثًا عن ذات الدهاليز التي أتت به إلى ساحة المشاعل، وقد استحالت في عينيه مقبضة من بعد طول استحسان، اعتراه توتر، فكان كلما اتخذ ممرًا، في قلب الحوائط المظلمة المحيطة به، تعرج به الممر في دمس الظلام، حتى أفضى به إلى ذات الساحة الرخامية ذات المشاعل، حتى خُيل له أن الحوائط المحيطة به قد تكاتفت وتقاربت، ثم تراصت صانعة حلقة محكمة الإغلاق، فَخَرّ العربي هلعًا، يندب حظه ويلعن أقداره، وسقط ليجيء مسقطه أسفل أحد الأعمدة الرخامية، ثم كان أن غلبه الخوف، فعجل بنعاسه.

لماذا لا يستيقظ من حلمه؟

مضى به الليل ساكنًا حتى أيقظته زقزقة عصفور، وقد بلغ موضعه متعلقًا في أول أضواء الصبح، فاعتدل ليجد أنه مستلقٍ بضفاف النيل فوق ثوب من الكتان الأبيض، وقد تربع من يقال له (تمام) مواجهًا لضفة النهر، عاري الصدر، ينسدل على كتفيه النحيلتين ما يشبه رداء كهنة لا أزرار له، تراصت كتب بجوار قدميه، وأخذ هو يداعب مد النهر بقدميه، موليًا ظهره للعربي، ود الأخير أن يصرخ بمضيفه، مستفسرًا عما جرى، فعاجله العجوز مستوقفًا بإشارة من يده، دون أن يطالع وجهه، ثم تحدث وهو يمعن النظر في كتاب أسنده على قدميه، فقال:

- تائه أنت، لأنك قضيت الليل تبحث في الظلام، وشغلك خوفك عن البحث في مدارات النور، فلهذا البهو سبعة دهاليز تفضي منه وإليه، يستقر باب كل منها أسفل واحد من الأعمدة السبعة، أسفل المشاعل، من هناك أتيت بك، ومن هناك رحلت، وبقيت أنت تفتش عن ضوء الأمل في جوف الظلام، حتى رقدت تعسًا يائسًا فوق أول مخارج محنتك، وبقيت مضاعًا، فقط، لأنك خشيت ملامسة النور!

مخطوطة قديمة مطوية
داخل غلاف غليظ لمجلد
تفسير الأحلام لابن سيرين
في مكتبة نوح البنداري

الصحيفة الثالثة

اتبعْ قلبَكَ طالما أنتَ حيّ
امسحْ جسَدَكَ بمَرهَمِ العجائبِ الحقيقيّةِ
للأشياء الألوهية.
أكثرْ من أعمالكَ الحسَنة... لا تَدعْ قلبَكَ يتراخى
انَظرْ، لا أحدَ اصْطُفيَ... ليأخذَ ما يَملكُ معهُ
انظرّ، لا أحدَ ممّنْ ذهبوا يعودُ.
من نشيد القيثار الأعمى - نص فرعوني

راحل ومرتحل وقافلة

القطائع - في أواخر عام ٨٩٤م

وجوه وُشَمت في صفحة السماء...
مغمض العينين تفحصتها، فأيقنت أنني لقيت معظمها في دروب العمر، ما بين مؤانسة ومعترك...
ألوان زاعقة، وأخرى باهتة، تمتزج في تماوج أخاذ، فينتج عن امتزاجها لون الشفق... تغرب شموس، وتشرق أقمار...
تَسَارُع للصور يدور بي في دوامة تنبثق من صدري...
أسقط من علٍ، أو يتعالى القوم من حولي إلى السماء...
تهدأ وتيرة الدوران... تئن الدوامة في هدوء، فيصدر عنها ما يشبه النواح... يصمت كل شيء، فأندفع عبر شريان مخملي من الظلام إلى النور... حتى يمزق السكون انبعاثي، وقد لفظني الشريان من حيث انتهى... لأواصل السقوط...حتى فتحت عيني.
هالني شحوبها، إذ تقوقعت في ذاك الركن القصي، انشغَلَت عن محيطيها فانعزلت، حتى كدت أشك أنها ترانا أو تسمعنا، كان صوت ذلك الرجل

الأشيب، لا يبعث بأي من ألوان الراحة والقبول، إلا أنه بدا لي قائدًا لموكبنا الموشك على الحراك، كان يسب ويلعن، ويصرخ في سيل من عبيد وجواري لا يحصى له عدد، تذكرت كلمات (نوح أفندي) عن عبيد (التوابية)، واستحضر مرأى ذاك الأشيب، مقولة حفرت في وجداني: عبيد الاختبار وعبيد الاختيار.

- يا (إبراهيم)، ثمة فارق لغوي ضئيل بين عالمين، اختلفا، فلم يجمعهما غير القهر، فما قولك بطفل ولد عبدًا؟ هو محض قدر واختبار من الخالق جل وعلا، (أبو شنب) مثلًا! اختطف حدثاً فأمسى عبدًا، وجاء هنا مع جدك صبيّا يافعًا، كان ذلك اختباراً وليس اختياراً، ولكن، هل تدرك كم من مرة عتق فيها جدك (أبو شنب)؟ هل تدرك أنني كاد أن يصل بي إلحاحي عليه حد التوسل، كي يغادر؟ أن يعود للـ(التوابية) أو إلى (السودان)، أن يتزوج، أن يكون له بنات وبنون؟
في رفضه للحرية، أضاف دونما أن يدري نقطة أسفل باء الاختبار، فصارت اختياراً! والعبرة هنا -إن قويت على استيعابها- مخيفة:
من نشأ عبدًا، وفُتِحَت له أبواب الحرية، تكور في زنزانته الاختيارية، جنينًا رافضًا خوض مخاض الولادة!
فمن اعتاد الأسر يرهبه الانطلاق، من ولد وعاش متشحًا بسواد الليل، يخشى أكثر ما يخشاه نور الصبح، إذ يتسرب إلى عنان السماء، يرتعد كلما زاده النور أملًا في إزاحة ستار الليل، وهو أمر لا يختلف كثيرا عما شُغلت أنت به...

- والله يا (نوح أفندي) لو سمعك زبانية البوليس السياسي لصرت أمرًا مقضيّا.

مازحته، تبسم، وأطرق برأسه قليلًا، وأجابني دون أن يطالعني في مكر ضاحك:

- وما شأن (أبو شنب) بالسياسة يا بني؟
- شأنه أن قبل ما أرفضه أنا اليوم يا (نوح أفندي).

- اللهم رد لنا (إسماعيل) سالمًا، وارحم (أبو شنب).
- ذهب أخي إلى الحرب، كي لا نعرض عبيدًا في أسواق النخاسة، لم يعلم أن المعركة لا تكون فقط في جبهات القتال، بل هنا أوجها في مواجهة السلطان قبل العدو...
- هو قد ذهب لتحرير الأرض فما عاد وما حُررت بعد، وأنت هنا تظن أنك تحرر العقول، فما حِرر منها قدر ما غُيب، ولكن يراودني إعجاب بمنهجك...
- يا (نوح أفندي)... لا تيأس.
- طالما ناديتني (نوح أفندي)، وكان (إسماعيل) يناديني (أبي).
- أبي.
- أفتقده.
- لن يذهب تعبه هباءَ، صدقني، سيعود...
- إن أردت أن تعضد أخيك، وتشد من أزره، فلا تتوقف، بشر القوم كي لا يحيلوا بصمتهم هذا الاختبار اختياراً... فعبد الاختبار أشرف وأنبل مائة مرة من عبد الاختيار، حتى وإن طال خضوعه، فهو قابل للتفجر في أي لحظة.

تفحصت ردائي، فهزني تساؤلي: من أكون؟

كانت (مليكة) تجالس تلك الحسناء، هل كانت تجالسها منذ البدء؟ لا أتذكر، جبال من قهر بدت ملقاة على كاهل تلك الصبية، هي في السادسة عشرة في أقصى تقديراتي مبالغة، عروس؟ تبدو من زينتها وحليها ثمة مظاهر عرسٍ، ولكن ثمة نقيض يرتسم على وجهها الشاب، ظلت (مليكة) تحاورها همسًا، لم أسترق السمع، كان عبيد الاختبار، يواصلون عملهم في همة صامتة، الرجل الأشيب غاب عن المشهد، فساد شيء من سكون.. كانت (مليكة) تحيط كتفيِ العروس الشابة كمن تواسيها، تعاظم فضولِي، نادى صمتي (مليكة) حائرا، أدارت وجهها صوبي، رأيت في عينيها انعكاسا لمشهد عايشته من قبل، فأتذكره، وقد مرقت الصور أمام عيني متسارعة،

حتى توقفت حيث وقفت تلك العروس في بهو سلطاني، صنعت أرضيته من رخام شاهق البياض تشوبه تداخلات من خيوط بنية متفاوتة في درجاتها، تخاطب من بدا من زيه سلطانًا شابًّا، مهزوما كان أم تعبًا؟ بدت على محياه سمات إرهاق، كانت تلك العروس تجلده بسياط كَلِمِها، دون أن يعلو صوتها...

- أحقًّا هذا ما تريده بي؟ أن أكون عروس نيل أخرى؟
- يا بنيتي، سوف يوفر لك الخليفة سبل الراحة والرغد كافة، ستعيشين في نعيم لا يفوقه سوى نعيم جنات الخالق.
- لا أريد، ابعث له بدمية.
- لا أستطيع تغيير أي شيء الآن.
- إذًا فأنا عروس النيل التي ستلقي بها في غياهب الخليفة، كي يطول بك الأمد فوق العرش.
- بل هو الخير لمصر.
- وافقت أن تزوجني (عليًّا).
- وأبى ذلك أبوه، أراد أن يزيدني شرفًا وكرمًا، بأن يكون هو زوجًا لك، فماذا أنا بفاعل؟
- لا أريد.
- ليس لأي منا حق الرفض...
- الخليفة ليس الله كي لا يُرد له مطلب!
- سأجعل لكي عرسًا ومتاعًا يتحاكى به المصريون لقرون وقرون.
- عروس نيل إذن...
- تلك إرادة الله، ولا راد لقضائه!
- وأين الله!؟

صرخت بما أذهل السلطان، وأخجل الأب، وشل لسانه، لتردف هي:

- كفاكم تشدقًا بتنفيذ مشيئة الرب، وكأنكم على حشايا الغيب مطلعون، حري بكم أن نبصر الله في أفعالكم، وحري بالله أن يوضح حكمته في بقائكم على سدة عروشكم...

يوشك على صفعها وقد اقترب منها مسرعًا، تظل ذراعه مثبتة فوق رأسه دون أن تهوي على وجهها الخالي من سمات الخوف، حاول أن يبلل شفتيه بلعابه وقد طال به الصمت، فكان فمه جافًّ وخاويًا كما هو قلبه. تضيف الفتاة:

- وهل أمرني الله أن أطيعك، حتى وإن جَعلت مني سلعة نادرة، غاية مشتريها الجِمَاع؟ أتحافظ على عرشك، بأن تجبر ابنتك على أن تفتح ساقيها لمن هو أكبر منك سنًّا؟ خسئت فعلًا، وخسئ ربك إن كان ذلك أمره الحق!

هوت صفعته هذه المرة، محملة بأطنان من العجز والخجل والحنق، اصطدمت رأسها ببلاط السلطان، وسال من فوق حاجبها دم مستكين اقترن بغيابها عن الوعي، هممت لأسحقه سحقًا، لولا أن كبلتني (مليكة) وقد تعلقت بخصري الأسمر. كانت تلك مجادلتها الأولى والأخيرة، وكان ما أعقبها هو -فقط- خضوع العاجز، واستسلام الزاهد في الحياة.

هل أحلم مجددًا؟

لا يتسع الحلم لكل تلك التفاصيل، ولا يطول الزمن بالرؤيا لتشهد كل تلك الأحداث، أغلب الظن أنني أستفيق من حلم طويل غريب الأطوار، وأعود لحياتي، أحتضن الواقع بما فيه من مفرحات ومحزنات، وأحيا لحظات افتقدت مصداقيتها حين غاب عن ناظري كل ما هو حقيقي!

عاد الأشيب، فقاطع صوته الأجش سيل استرجاع الذكريات القريبة، اقترب من العروس يهمس لها بشيء، في ردها علمت لذاك الأجش اسمًا، (ابن الجصاص)، تذكرته منذ الوهلة الأولى، ولم يعرفني، فمن هم على شاكلتي كُثر. دار حديثه عن ذهب، وحرائر، سألته الحسناء عن عمها (شيبان)،

فأجاب بأنه على رأس الموكب، صحبة عمتها (العباسة)، استشعرت أننا على وشك التحرك، فأغمضت عيني، وشردت بعيدًا...

نساء جلسن في خلفية المشهد، ورجال تصدروا صفوف الجالسين، رُتِّبَ الرجال بحيث صار أكبرهم سنًّا في المقدمة، فالأقل سنًّا من خلفه، يقف "ابن الجصاص" بين متقدمي الصفوف ولا يجلس، كنا وقوفًا، النصف الأعلى من أجسادنا عارٍ، على ميمنتي، كانت فتيات ونساء قد اصطففن في طابور عرض آخر، كن عراة النهود بدورهن، ولم يُستر من عوراتهن سوى قطع من قماش بالية وضعت فوق فروجهن، كنت أنا في صف الصبية، حين شرع "ابن الجصاص" في التجول بين البضائع، علمت من نقاش بين أحد التجار، بأن المكان هو سوق الدكة، في منطقة تسمى (باب الدريبة) في أرض الحجاز، توقف "ابن الجصاص" بداية بالمعروضات من الفتيات، اهتم بصغيرات السن ممن هن دون العشرين، كان يتحسس أجسادهن بكفه الغليظة، يكثر من إحكام أصابعه الخشنة حول النهود، تتأوه إحداهن من غلظته، فور أن ضغط على حلمتها البارزة في نهدها الصغير، فيبتسم حتى يلمع سنه الذهبي، كنت أعلم أن الإماء يعلو سعرهن كلما ازداد جمالهن، وقلت أعمارهن، ينادي الأجش من فهمت أنه طبيب، يصيح بالفتاة التي تأوهت للتو، يأمرها أن تباعد ما بين ساقيها، يمد الطبيب يده من تحت سِترها، ينهرها ألا تتحرك، يغيب لثوان قبل أن يؤكد لـ"ابن الجصاص":

- هذه بِكر.

يشير "ابن الجصاص" للتاجر الذي أتى بنا جميعًا إلى هنا، بأن الجارية صارت ملكه، ينقده بضعة دنانير، ويسوق بعض مرافقيه الفتاة إلى حيث لا أعلم، ثم يتحول إلى معرض الصبية، فلا يلبث أن يقف أمامي، كانت يداي وقدماي مغلولتين بسلاسل مثقلة بأحمال معدنية دون غيري، ينادي طبيبه، فأشعر بقشعريرة باردة بين ساقي، يطلب مني أن أفتح فمي، وأن

أخرج لساني، فأفعل، يفحص أسناني، ثم يفحص شعري، وساقيّ، وساعديّ، ثم يبادرني:

- أتتحدث العربية؟

يسأل، فيجيب التاجر بدلًا مني:

- "يعقوب" يجيد العربية وكذلك لغة البربر، هو في الخامسة عشرة، ولكنه من أشد المقاتلين بأسًا وضراوة.

نطق باسمي، فطالعت ساعديّ لأجدهما أكثر اسمرارًا مما عهدتهما، اقترب مني "ابن الجصاص"، شعرت بدوار إثر استنشاقي لأنفاسه كريهة الرائحة، يضع يده على صدري العاري، ويكرر ما فعله مع الصبية، أبصق في وجهه، فيرفع يمينه، ويهوي بها على وجهي بظهر كفه، يمزق خاتمه الغليظ وجنتي، وأشعر بنزف دافئ ينساب من وجهي، حتى يبلغ عنقي، يهوي التاجر على ظهري بسوطه عدة مرات، ثم يركل منتصف ظهري فلا أسقط، تلا ذلك اصطدام شيء صلب بمؤخرة رأسي، لأسقط مغشيًا عليّ، تمر لحظات سكون وإظلام، ينتابني دوار، فأفيق من شرودي إثر الاهتزاز.

بدا لي قصر السلطان بعيدًا، ما زالت (مليكة) تربت على كتفي العروس، ثمة نساء أخريات في مجلسنا هذا، منهن من بدا عليها مثل ما بدا على (مليكة) من تأثر، بدت في العقد الرابع من عمرها، وكأنها أعلى هاتي الجواري منزلة وقدرًا، كانت تدلك قدمي العروس دامعة العينين، لفت نظري مجددًا جمال تلك العروس، بدت كلوحة فنية من لوحات (صلاح زكي)، لم يرسم صلاح، منذ عهدته سوى (يولا)، حبيبة الصغر، إلا فيما ندر، فهل تشبه (يولا) تلك العروس؟ ثمة شيء مشترك...

- يا (صلاح)، ألم يستقر في مخيلتك عبر صفحات العمر نساء سوى (يولا)؟

تذكرت حواري معه، ومشاكستي الدائمة له بهذا الشأن، فترددت أصداء لصوته القادم من جوف الزمن:

- أنت تظن أنها رحلت، ولكنها لي باقية يا (إبراهيم). اعشقها، فاترك عامدًا بوابات الحصون غير موصدة، ليكون العشق في حَضْرتها اختراق، فاحتراق، أقترب، لاحترق، تنثرني الأيام رمادًا في محيطها، أضُاع، فتهدهدني ريح حانية، وتحمل ذراتي حتى أستقر في مكْحَلتها، يـُميتني الانتظار ألف مرة، حتى يُقَدّر لي أن ألامس أهدابها ذَات صباح مُشبع باللهفة، فأُبعث من جديد! لأعشقها، فاحترق من جديد، ويكون الـمَثوى بأي من خِزائنها، حقائبها، مشابك شعرها، أو بواحدة من قنان عطرها، منتظراً لحظات الوصال، فالبعث مرة أخرى! حتى وإن كَان الوصال في صفحات الخواطر، والبعث بين أبيات التمني، هكذا أنا، أدور في دورة عشق أبدي، باطنه الخلود، وظاهره الألم، كما يتبدّى لك بين الحين والآخر!

مع تسرب الليل إلى قافلتنا، ومع تشابه العروس و(يولا)، قضيت معظم وقتي في مرسم (صلاح) في شارع فؤاد، كان مرسمًا، وبيتًا، ومعرضًا، ونُزلًا للوافدين من بلدة (صلاح) في بعض الأوقات، كنت قد اعتدت تسميته مرسم (يولا) وكان لا يعارض، وهناك، طالما جمعتني به مواقف دامعة تارة، وباسمة في تارات، ضحكت وقد التصقت إحدى المضحكات بمخيلتي، فلكزتني (مليكة)، لأتنبه أنني أضحك بصوت مسموع، لا يعكس أي احترام لحالة الحزن العام في موكبنا، توقفت خجلًا، وطالعت الصَحْب المرافق لي، فبدت العروس أفضل حالًا حين أوشك الفجر على البزوغ، كانت تتحدث إلى كبيرة الجواري كما اعتقدتها، بصوت مسموع، كان الحوار دائراً عن قصور تتأهب لاستقبال موكبنا، على غير مبعدة من موضعنا هذا، وآلاف من الدنانير بحوزة (ابن الجصاص) الأجش، علمت أن عمها (شيبان) وعمتها (العباسة) قد زاراها إبان غفوتي، لعل ذلك ما جعلها تخرج مؤقتًا، من ذلك الحزن الجاثم على صدرها المرتج بفعل تحرك القافلة. هل تشبه (يولا) حقًا؟

توقفت القافلة، أو تباطأت، ثمة صبية ونساء ورجال قد اصطفوا على جانبي الطريق، هل نحن في شارع (خمارويه)؟ ورود وزهور فواحة العطر تُلقى على موكبنا، سعادة بدت على قسمات كل محيي العروس، وغابت عن وجهها هي...

يا الحنه يا الحنه　　　　يا قطر الندى

شباك حبيبي يا عيني　　　　جلاب الهوا

عذب الغناء قد انساب في خلايانا، رفعت (أسماء بنت خمارويه[5]) ستائر نافذتها، حيث تسلل إلينا إنشاد المارة المحتفين بمرورها، لم تعد تشبه (يولا)، هي فقط تغادر مصر كما غادرتها (يولا)، أو كما سوف تغادرها، لا أميز الفارق بين الأزمنة، أشرق وجهها، وبرز خداها الدائما الاحمرار إذ تبسمت، شاهد المصطفون تَبَسّمها، فعلا الصوت وازداد عذوبة، أميرة مصر هي، وهم يحيون أميرتهم في رحلة زفافها، نحو ما يجهلون، وتجهل هي... رنت في أذنيها كلمات أبيها، وما رواه عن صولات وجولات الدولة الطولونية بقيادة جدها، منذ توليه سدة الحكم بمصر، وكيف عمل على استقلال مصر عن الدولة العباسية. قاطعت ترانيم تفاخر أبيها كلمات خادمتها الأمينة، يوم أن حكت لها عن مؤامرة عمها للانقلاب على هذا الجد، والانفراد بالحكم، سقطت في بئر من الحيرة والشك في أمرها، أهي بنت تلك الأسرة العظيمة، التي سعت لاستقلال مصر عن الخلافة، أم أنها سليلة تاريخ آخر من التآمر وشهوة السلطة؟ أهو قدرها أن تسلم جسدها لذلك الذئب العجوز؟ وهل في استسلام جسدها لمخالبه الهَرِمَة، نصرة للوطن؟

- نصرة الوطن لا تتم في أسرة الخلفاء يا مولاتي.

خاطبتها لأول مرة منذ تحركت القافلة، كأن كلًّا منا لم يلحظ وجود الآخر خلال الأيام الماضية، كم مضى من الزمن منذ تحركنا؟ كنا ننزل قصراً تلو الآخر، وتقام لنا الأفراح بين كل وليمة ومأدبة، انسحبت (مليكة) من موقع أثير في مجلسنا، كانت قد احتلته منذ البدء، طالعتني (أسماء)

بعينين يقتضي وصف طفولتهما، عشرات اللوحات في مرسم (يولا) الخاص بـ(صلاح زكي)، تمنيت لو حباني الله بموهبة كموهبة (صلاح) في إبداع لوحات ينطق قاطنوها سحراً، إلا أن تجارب طفولتي، قد جنبتني عناء المحاولة...

- ظننت أن خرسًا أو بَكمٌ قد حل بك يا (يعقوب)!

ابتَسَمْتُ فواصَلَت:

- إذن فأنت تقرأ الأفكار كصديقتنا (مليكة)؟

سَأَلَتْ فاَبتسمْت...

- بل أظن أنك كنت تسرين لنفسك بتلك الكلمات جهراً، من دون أن تلحظي يا مولاتي.

نظرت صوب (مليكة) فأومأت الأخيرة برأسها تأكيدًا...

- اغفري لي زلتي يا صغيرتي، فما أجهدت به ذهنك يُضني حمله مُجْتَمِع طاقاتنا.

قلت فأجابت بابتسامتها الغائبة:

- طالما حيرني أمرك يا (يعقوب)، تبدو كمن توغل في أربعيناته، وصوتك لا يهرم، وكأنه لمن لامس عامه العشرين للتو، جبينك المتجعد، لا يتسق مع بريق عينيك الفريد!

- بإمكانك القول إن جسدي قد شاب قُبيل عقلي بقليل، أو العكس! لا أدري! لم أرَ مرآة منذ زمن طال حتى أوافقك أو أعارضك القول يا سيدتي...

نظرت لخادمتها ذاهلة، فأخرجت الخادمة مرآة فضية، من صندوق كانت تجلس فوقه طوال الوقت، رغم أن مجلسنا الآخذ في الحراك هذا لا يتسع سوى لأربعة أو خمسة أشخاص في أفضل حال، إلا أنني لم أمعن النظر في محتوياته، ولا في مرتاديه وجالسيه. تناولت المرآة بحذر، امتزجت في غضون ثوان صور من الأمس والغد، طالعت (مليكة) متوجسًا...

- لا تخف يا (يعقوب).

طمأنني صوتها، وحرّت في كوني (إبراهيم) أو (يعقوب)! أمسكتْ بالمرآة موليًا ظهرها لي، ترددت، أعادت (مليكة) جملتها الأخيرة، فقلبت المرآة صوبي مطالعًا وجهي...

- العمر رحلة، كلما مر منها يوم حرص على ترك أثر بجسدك، الأيام لا تتركك دون أن تتأكد أنك لن تنسى، ثمة تجعيدة، أو خصلة شعر ينسحب منها السواد مسلمًا ناصيتها لبياض الكهولة، ندبة جرح قديم، تشقق كفي مزارع حمل فأسه أكثر مما حمل أبناءه، اسمرار وجوه عمال سُخِّروا لحفر القناة، سواد تحت عينيك حين يخاصم النوم أجفانك، انحناءة ظهر (عباس السقا) رضوخًا لقربته الجلدية، تقرحات كف (عوضين) إثر استمرار تلاحمها بسلاسل مباخره...

استدعيت صوت (نوح أفندي) تارة أخرى، فواجهت وجهي الغائب، لا أذكر متى قصصت شعري آخر مرة، ولكنني اندهشت أن استطال حتى قارب كتفي، بدا من ساعدي وكتفي أنني مفتول العضلات، أشبه بتكوين المصارعين، تراوحت خصلات شعري بين الأبيض والأشهب، ما زالت ندبتي الأثيرة في موقعها، ذلك هو وجه (نوح أفندي) لو زالت ندبته، ووجه (إسماعيل) إن ذابت تجاعيده، هو وجه (آدم) إن عاد طفلًا، ولكنه أسود اللون، ويشبهني في ذات الوقت!

- أراك طفلًا رغم ما قالته سمو الأميرة.

قالتها (مليكة) باسمة.

- إن رأيتني طفلًا، فاعلمي أني أراك في غيبة الأقمار رحمًا، وإن أردتني رجلًا أذوب في خلاياك، فاعلمي أني أغوص اليوم في أعتى أمواجك عنفًا، وقبل ولوج الصبح، أرحل عن شطآنك ضجرا.

داعبتها، فمالت نحوي في جذل، جذبت مداعبتي أميرة مصر الشابة حتى جلست إلى جواري.

- كلماتك عذبة.
- هي لا تقل عذوبة عنك يا مولاتي.

- ماذا تفعل لو كنت مكاني...؟
- ماذا ترين؟
- أشعر أنني لا أرى...

هاجمتني أسراب الضباب، فرأيتني جالسًا في الصفوف الأمامية بجوار (إسماعيل) و(صلاح زكي)، نشاهد عرضًا لفرقة (إسماعيل ياسين). كان ذلك في عام ١٩٦٠ على الأرجح، لا أذكر اسم العمل، بيد أن (القصري) في ذلك اليوم كان يبعث فينا من الضحك ما يرتجّ له المسرح، حتى توقف فجأة، وصرخ: (أنا مش شايف).

ضحكنا جميعًا، إلا أن (إسماعيل) لم يلبث أن قال حزينًا:

- هو لا يمثل، هو فعلًا غير قادر على الرؤية.

توقف العرض، وفي غضون يومين من بعد تلك الواقعة، سرى بين الصحف والمجلات نبأ إصابة (القصري) بالعمى، واعتزل الرجل الفن، وبقيت صرخته وكأنها عالقة بصوان أذني، حتى استدعتها أميرة مصر حين قالت إنها لا ترى، وفي كلا الأمرين عجز، ما بين عجز الإبصار، وغياب البصيرة عمن أرسل تلك الفتاة اليانعة، صوب المجهول...

لا أذكر متى غلبني نعاسي، أذكر أن حوارًا طويلًا قد جمعني بأميرة مصر، حدثتني عن أبيها الذي قاد جيوش مصر وهو دون العشرين من عمره، وكيف أنه أنجبها وهو في مثل عمرها الآن. اختلط حوارنا هذا ببعض من بقايا حلمي الواهن بـ(يولا) و(صلاح زكي)، وسوق العبيد و(ابن الجصاص)، لم يتوقف (نوح أفندي) عن التجول بذاكرتي الحائرة بين واقع الأميرة وحلم (يولا)، وفتاة سوق العبيد، حتى حين اجتذبني من ذلك كله؛ (عبد الفتاح القصري).

لم أستطع أن أحصي كم من مرة توقف موكبنا، ونزلنا بأفخم القصور لنقضي ليلة أو ليلتين، ثم كنا نشرع مواصلين من بعدها المسيرة صوب بغداد. (ابن الجصاص) كان يواصل شراء مقتنيات العروس في كل توقف لموكبنا المهيب، مر تسامرنا عبر بلاد كُثر، ودهس موكبنا في طريقه بضعة

أشهر، حتى جاءنا (شيبان بن طولون) ليبشر العروس الثكلى، بأن رسولًا من الخليفة العباسي قد لقيه صباح اليوم، وأنها سوف تنزل بقصر (صاعد)، حتى يعود من مجابهة من يدعى (حمدان) في مكان اسمه (قلعة ماردين). شرحت لي (مليكة) فيما بعد كلا الأمرين، ولكنني نسيتهما الآن، ربما لم تشرح (مليكة)، لست على ثقة من أمري!

على مشارف بغداد كان مستراحنا الأخير، طلب (ابن الجصاص) أن أرافقه في جولة شراء هي الأخيرة، إثر مغادرة بعض من حراسه رفقة الأميرة (العباسة) إلى (صاعد)، بغية الإشراف على مراسم استقبال العروس، لم أشأ مصاحبته، فأنا هنا كبير حراس الأميرة، ولا يجوز بي تركها، ألحت على (مليكة) في الذهاب برفقته فثارت غضبتي تجاهها، أذنت لي مولاتي، فذهبت بصحبته، وعلمت فيما بعد أن (مليكة) أرادت أن تنفرد قليلًا بـ(قطر الندى) قبل تمام زفافها، لتقديم بعض النصح، فيما يخص أسرار ليلة الزفاف وخباياها. أخذت أختلس النظر صوبه طيلة الطريق، هل يذكرني؟ هل يعلم أنه هو من اشتراني فأحضرني إلى مصر منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود؟ يقاطع تساؤلاتي مشهد مقبض، شيخ سبعيني، يجلس القرفصاء أمام إناء نحاسي، تصب له طفلة عارية المياه من دورق نحاسي، فيتوضأ، الطفلة ذات الأعوام العشرة، تقف كما ولدتها أمها، على قارعة الطريق أمام بيت هذا الشيخ، فتصب له الماء ليتوضأ، متهيئًا للقاء ربه! يلقي عليه (ابن الجصاص) التحية فيجيبه بابتسامة، فأعلم أنهما ينتميان لذات الفصيل من المخلوقات...

بحوزة (ابن الجصاص) مالٌ لا ينضب، ومكرٌ لا يعرف للأمانة طريقًا، هذا ما علمته من تجوالنا، أموال مصر تنفق على زفاف أميرة حسناء، تزف رغم أنفها، بيد من يسرق منها كل ما تطال يده، هو لص عتيد إذن، وكم كنت حالمًا حيت توجهت لـ(شيبان) عم (قطر الندى)، فور عودتنا لأخبره بما شهدت ورأيت، ثار (ابن الجصاص) ووافقه (شيبان): تشكك في أمانة

سيدك أيها العبد، سيدك هذا، إن تبول، فإن ما يصدر عنه أطهر منك وأنقى، اغرب عن وجهي.
طُرِدْت مع (مليكة) من عربة (قطر الندى)، فأمرت هي بعودتنا، فوعدها (شيبان) بدراسة الأمر، ثم تهرّب منها، جاء موقعنا المستحدث في آخر القافلة على مبعدة منها، وصرت حارسًا للمنقولات، بدلًا من حراسة الأميرة، ولم نرها طيلة يومين هما الأخيران في هذه الرحلة.
في صباح دخولنا، نودي في بغداد بألا يعبر أحد نهر دجلة، وبأن يتم إغلاق كل الدروب والطرقات التي تفتح على شاطئ دجلة، حاولت و(مليكة) أن نقابلها فلم يسمح لنا، رأينا صعودها قصر صاعد، فبكت (مليكة)، واعتراني شعور معتاد بالعجز، كبيرة خادماتها كانت في رفقتها، رأيتها زائغة العينين، تنظر صوب جموع مستقبليها بغير اكتراث، منهن زوجات أخريات للخليفة (المعتضد)[١٠٤]، أغلقت أبواب القصر، غابت (قطر الندى)، ذهب (ابن الجصاص) و(شيبان) وباقي قادة الموكب، لحضور مأدبة هنا أو هناك في انتظار تعطف الخليفة بالعودة، من حيث أتم مهمته بقتل ذاك الثائر (حمدان)، ليلقاهم، حتى آثرت الشمس لنفسها أن ترحل عن هذا المشهد المقبض، فلملمت خيوطها في وقت رأيته أبكر من المعتاد، وسلمت صولجان السماء لليل، فانقض على مشهدنا الجنائزي الحزين، مغلفًا أطره بالمزيد من حلكة تليق بالأمل الضائع في بلوغ نهاية مغايرة...
هربنا من القافلة، وأفقت لأجدني نائمًا وقد توسدت رأسي فخذ (مليكة)، أيقظتني، وأشارت صامتة نحو النهر، رست سفينة كبيرة وخلفها سفن أربع أقل منها حجمًا، فُتح قصر (صاعد)، وخرج منه موكب نسائي على رأسه (قطر الندى)، كانت تلك هي السفينة التي ستقلها إلى الخليفة، ليتم زفافه بها، أغلقت أنوار (صاعد)، فُتحت أبواب االأسوار، حُرِّرَ الصبية، فأخذوا يواصلون اللهو على ضفاف (دجلة)، غابت (قطر الندى)، وغاب معها حلم آخر.

- هل أحببتها؟

أرادت (مليكة) مداعبتي، فنالت محاولتها قسطًا بسيطًا من النجاح إذ تَبَسّمْت...

- أحرسها منذ أن كانت رضيعة يا (مليكة)...

سألتها فزالت عنها ميوعة كانت وشيكة الطفو على سطح جسدها المرمري الأخاذ، احتضنتني كوليدها، أَسَرّت لي بما أسال دموعي:

- لا تقلق لأمرها، هي لن تتعذب كثيرًا، ولن تحيا أكثر من ألفي يوم آخرين في هذه الدنيا...

واصلت متابعة السفن الآخذة في الغوص في أفق النهر، "انظرّ، لا أحدَ ممّنْ ذهبوا يعودُ". تقول، فأنادي (قطر الندى) بأعلى الصوت، تحتضنني (مليكة) مجددًا، نقترب من ضفاف دجلة، بللت قدميَ مياهه العذبة، همست لإحدى موجاته الوليدة:

- يا من أتيت بهذا الكون من ضلعي، ولمست أول ما لمست من دنياك صدري، عودي إليّ فإنني، ما زلت نعْمَ المُسْتَقَر والقَدَرِ، أنا ها هنا، ما زال صدري عاريًا يدمي، وقد انتهيتَ كما بدأت، لأجلك: قد كنت آخر الناجين وأول البشر.

كان بعض الحِرس ينادون بأن (يعقوب النصراني) قد هرب، حين كنت أداعب صلِيبًا معدنيّا، تدلى من رقبتي، واستقر تحت أسمالي البالية في موضع السِرّة، واصل الموج حفيف تلاحمه الهامس برمال الشاطئ، تسلل إلى مسامعي ذلك الهمس المتلاحم، مشكلًا عزفًا موسيقيّا فريدًا، بدا وكأنه أسمع صبية (بغداد) فسحرهم، غادر منهم الصبي تلو الآخر حتى خلا الشاطئ وانفرد (دجلة) بي وبـ(مليكة). فأخذت أتمتم من وحي أصداء الماضي القريب:

يا الحنا يا الحنا   يا قطر الندى

شباك حبيبي يا عيني   جلاب الهوا

غلبني النعاس، فنمت، أو استيقظت.

فواصل ما بين الوعظ والشك

موروثات ومدونات منسية

جمعها ورتبها إبراهيم البنداري

الفاصل الثالث

غواية!

عبر قرون خلت، دأب ذوو الدين، كلٌّ على رشق الآخر باتهامات مفادها تحريف كلمات الرب المنزلات، فهذا يقسم أن فلانًا حذف ما يضنيه وأضاف ما يشتهي، وذلك يزعم أن علانًا صاغ كتابه من ألفه إلى يائه، بيد أن خديعة الكون الكبرى، التي تفوق ادعاءات هذا وذاك، كمنت في أيدي أنثوية رقيقة، امتدت فوق إدراك الذكور، فتسللت إلى رسالات الرب، لتغير صفة الشيطان، من أنثى، إلى ذكر!

فما من باب للأطماع طرق، إلا وقبعت خلفه امرأة، وما ممر للشهوات دلفه امرؤ، فعوج به عن المسار، إلا واستقرتِ في نهايته أنثى، وما من كلمة حق تقنع بها الباطل، إلا وصدرت إرضاءً لتاء التأنيث...!

الشيطان، إذن؛ امرأة! حتى اسمه: إبليس، يقال مذكرا، وربما عُني به التأنيث، كملكة سبأ؛ بلقيس! ولذا، ربما كان اسمها منذ الأزل إبليس!

يا الله...! فكم ذبت في خلاياكِ يا إبليس منذ أن أدركتكِ بصيرتي، فكشفت عن جسدكِ الأنثوي المطمور في صحف الخبايا، منذ أن أنزلتِ آدم إلى هذه الأرض، مغويا تعسًا! ربي، كم أعشق الغواية!

كلمات لـ (صلاح زكي)

من هوامش مذكرات

إبراهيم البنداري

الصحيفة الرابعة

علمني الطريق الذي أسلك فيه، فإني إليك رفعت نفسي، إياكم أيها الناس أنادي وإلى بني البشر صوتي، أمِل أذنك واسمع كلام الحكماء، ووجه قلبك على علمي

المزمور ٨/١٤٢ | الأمثال ٤/٨ | الأمثال ١٧/٢٢

حُمّى

الفسطاط - ١٢ ديسمبر ١٢٠٤

أحلّق فوق البحار ملامسًا للسحب...
تحف بي نسمات رقاق، يحمين ولا يزعجن...
معلق في قدم طائر النورس مضيت بين المدن....
شهدت تفجر أول البراكين، وطاردتني الحمم في سريانها، حتى اهتاج الموج...
فهب من أحشاء المحيط فيضان يُفني ولا يَذر...
أشهد انحسار البشر فوق متون خشبية هائلة...
واحتمائهم من غضبة الموج، وقسوة الريح...
يِصنع للمتون أشرعة بيضاء فتمسي كالسفين...
يلحق بالمتون قسم من البشر...
ويضل البعض الطريق، فتعرج بهم الممرات الجبلية من أسفل الوادي إلى المجهول...
يزداد الموج اهتياجًا فيَقلَع الأشرعة من متونها...
تتقوس متون السفين متلاحمة، صانعة بتوحدها تابوتًا أسطوانيًا ضخمًا...
يتسرب ما بقي من البشر وسائر الأحياء عبر فرجة في ظهر التابوت إلى قلبه...
يعلو الموج حتى يكاد أن يلامس الغيم المطير...
يرتبك طائر النورس فيكاد أن يسقطني...

ينغلق التابوت، وتتلاطمه الأمواج فلا تتمكن من بلوغ باطنه...
يلهث طائر النورس، ويطول به السفر، وقد تبخرت الأرض من تحته، فلم يعد له مستقر...
ألهث بدوري، وتتهدج أنفاسي المثلجة وأنا المشدوه بما أطالع...
تغمرني نشوة الكشف، فيغيب الخوف عن مرافقتي...
أحصي رفقة النورس الواهن مشرق أربعين شمسًا ومغيبها...
تنقشع السحب، وتتبخر الغيمات رويدًا رويدًا...
حتى تبرز أولى قطع اليبس... فيحط عليها النورس...
وما يكاد يفلتني لألامس الأرض المرجوة... حتى أستيقظ... فأنتفض للاطمئنان على مريضي الأغر...
كان مرضه يتعاظم، فيتمكن كل يوم من إحكام السيطرة على جسده، تجتث براثن الموت أنفاسه يومًا بعد يوم، هزلت عظامه فبرزت، أجلس بجواره، أحاول أن أطببه، فأدرك بخبرات السنين المتراكمة، أن النهاية صارت أقرب إليه من حبل وريده، ذَبُل الرجل، فكان من يراه، يكاد ألا يصدق أن هذا ما فعلته الحمى الصفراء في أسبوعين فقط، قبلها، كان ذلك هو جسد الفارس، الرجل، والسلطان.
تجتاحني ذكريات مترامية عبر أزمنة ولّت، فأراني جالسًا إلى جواره في لحظات الاحتضار، كان هذا منذ ما يزيد من الأعوام عن عشرة، ولكن تلك اللحظات، ظلت لصيقة بعيني، وكأنها تشبثت بمحجريهما، فبدت دومًا وكأنها حدثت بالأمس، حضرت لحظات مماثلة من قبل، عشرات المرات، ولكنها لم تكن يومًا، لحظات احتضار سلطان، هذا الفارس العادل، يعد العدة ليرحل، وما أرى خيرًا لبلادنا من بعده...
باغتتني ذكريات هروبي من (قرطبة)[١٠٥]، ومرت أمامي المشاهد متسارعة، لهثت مخيلتي خلفها، حتى استقرت على شاطئ (سبتة)[١٠٦]، هناك حيث رأيت (مليكة) لأول مرة، كنت في منتصف العشرينات، يائسًا، حانقًا، خائفًا، أرغمني هؤلاء (الموحدون) على الرحيل، فلم يكن أمامي

بين خيار الموت، وتغيير الملة، سوى الهرب، اقتحم الموحدون منازلنا، وقتلوا الكثير منا، حاولت الدفاع عن واحدة من جاراتنا، فشق سيف أحدهم وجهي فأدمى وجنتي بما لا يداويه زمن، هربت مع عائلتي، قاصدين (فاس) على الجانب الآخر من البحر، حيث استقر قسم عظيم من مهاجري اليهود، كنا قد جاوزنا منتصف الطريق، حين قررت قافلتنا المبيت في (سبتة) حتى الصباح، الهوان القابع على صدرِي إثر الهرب من دارنا في (قرطبة)، أطاح بالنوم بعيدًا فلم يعرف لعينيَ طريقًا، كنا على مقربة من الشاطئ، حين أطلت الشمس من أعماق البحر...

- كم أكره (الموحدون)!

تمتمت، قبل أن تغشي أنوار مفاجئة بصري، فأحاول أن أحجبها بأن أرفع ساعدي أمام وجهي...

- يستحقون كراهيتك.

تقول (مليكة)، فتخفت الأضواء على الشاطئ، وتعود الشمس لتغوص في قاع البحر، يصبغ السواد السماء، وترتص لآلئها من جديد مشكلة ما نعرفه نحن بالنجوم، استغرق تعارفنا أيامًا -وربما أسابيع- حتى أمست مُرافقَتي، حتى زمان ليس ببعيد، حَدثتُها عن مرارة الهروب، ولوعة فراق حَيَاتي دونما ذنب أو جرم، شعرت بكراهية للمسلمين بوجه عام، فقد حدثني جدي، أن ما جاء بأجداده إلى (قرطبة)، كان أيضًا الهرب! فقد هربوا قبل مئات السنين إثر غزوات العرب المسلمين لديارهم، واستقر بهم الحال في (قرطبة)، واليوم يهربون منها، ليصير الـمرتحل إلى (فاس) هذه المرة، فإلى متى يظل الهرب منهاج حياة، نتوارثه من أجدادنا، ونورثه لأحفادنا!؟

- ميراث الخوف ما زال يؤرقك، أليس كذلك؟

يقول السلطان المحتضر، فأهرع نحوه، جسده ساخن، وجبينه مندى بحبيبات العرق:

- لا تتحدث كثيرًا يا مولاي، لا ترهق جسدك.

أقول صادقًا، فيردف:

- لا فارق، فإني أستشعر روحي وقد همت بمغادرة هذا الجسد، كنت أود ميتة أخرى، ولكن الله العليم بذات الصدور، قد قدر أن تكون ميتتي هنا، على سريري، فلا راد لقضاء الله، ولن تكون آخر كلماتي إلا أن الحمد لله رب العالمين.

جاءت كلماته خافتة، نطقها مسبلًا عينيه، وقد أمسى غير قادر على فتحهما، ابتسامة الرضا على وجهه ألقت في نفسي بطمأنينة، فأصابتني عدوى الرضا.

تقول (مليكة)، أن النفس هي حاكمة الجسد، والروح هي حارسته، وما النفس إلا نداء الأهواء وأطماع الشهوات وقد التصقت بالجسد الفاني.

لم أفهم كلماتها، ولكنها حين قالت إن البكاء ما هو إلا نتح الروح الحبيسة، مسّت كلماتها قلبي...

- تضيق الروح بمحبسها، وإن افتقدت الجرأة على مغادرتها، فالنفس لا تكون مطيعة لهوى الروح إلا فيما تستحسن، النفس أمارة بالسوء، والروح تضيق بالشرور، ومن هنا ينبت ثمّر التضاد بينهما، فالروحِ بطبيعتها نفحة من روح الإله، والإله لا ينفح من روحه شرا، ولا سوءا، هي النفس إذن جاذبة الخطايا، وكذا الجسد إذ يطيعها فينساق خلف ما تصبو إليه النفس من آثام، لينتج عن ذلك ما أسماه الهندوس بـ(الكارما)[١٠٩]. وما أراد الإله من الروح إلا أن تنقل قطعة منه، لتغرسها في قلب كل جسد، لتقاوم شرور ذلك الكيان الطيني، وتنتصر للخير النوراني الإلهي. من هنا يأتي الحساب والعقاب، ومن هنا كان تكرار التجربة، سر ذلك الكون الحبيس، وفحوى رسالة الروح في الأرض يا (موسى). فقط ابحث عن الدلالات على ما أقول وما أكثرها، فتش في كتب السماء، وأبحر بين ينابيع الوحي، التي تفجرت على أيدي الأنبياء، وإنك حتمًا لمن المُدركين.

هل أحلم مجددًا؟ لا يتسع الحلم لكل تلك التفاصيل، ولا يطول الزمن بالرؤيا لتشهد كل تلك الأحداث، أغلب الظن أنني أستفيق من حلم

طويل غريب الأطوار، وأعود لحياتي، أحتضن الواقع بما فيه من مفرحات ومحزنات، وأحيا لحظات افتقدت مصداقيتها حين غاب عن ناظري كل ما هو حقيقي!

أستعيد كلماتها، التي كانت وحياَ قادني إلى إنجاز مخطوطي البحثي الأهم (دلالة الحائرين)، في معرض كلامها، خاطبتني فقالت (موسى)، فهل أنا (موسى)؟ هل كنت (موسى) وسأمسي يومًا (إبراهيم)، أم أنني (إبراهيم) وقد أصبحت اليوم (موسى)؟

بعد هجرتنا من (قرطبة) بسنوات قلائل، مات أمير (الموحدين) الملقب بـ(الكومي)، وتوارث المسلمون الحكم كعادتهم، راودني أمل في أن نبحر شمالًا صوب (قرطبة) فيعود وصالي بـ(أنابيلا)، معشوقتي، وأجمل بنات (قرطبة)، إلا أننا توجهنا شرقًا إلى بيت المقدس، بقيت على أملي بلقائها، فلم تمر أشهر حتى استقر بنا الحال في مصر، و(الفسطاط) تحديدًا.

- يا أيتها النار، اجعلينا أنقياء من الخطايا بالكامل، كما كنا قبل أن تلدنا أمهاتنا، عساك تضعين عنا أوزار خطايانا من كل جانب.

تقول (مليكة) وقد انهمكت في إشعال النار بالحطب على الشاطئ، حاولت إثناءها عن ذلك بأن ريح البحر حتمًا ستطفئ جذوة نارها، فتتبسم، ولا تجيب...

- في (التوابية)، الفرن مصنوع من الحجر الطيني، والنار تلهبه كل صباح ومساء، الطين يقاوم النار إذن، فإن كان الإنسان مخلوقًا من الطين، فلماذا لا يقاوم جسده النار كالطين!؟

أتمتم، فأشك في أمري، أتحسس جُدُر الزمان والمكان، حتى أهوي على شاطئ (مليكة) من جديد، تشاغلت عن إلحاح السؤال المتقافز في عقلي: من أكون؟ سمعت (مليكة) تمتمتي حول أفران الطين في زمان غير زماننا، فأطلقت ضحكة صافية، ثم أشارت لي بأن أقترب، ففعلت.

- من أكون؟

قلت حائرًا، فناولتني كوبًا فضيّا مزخرفًا بلغة لم أميزها، طلبت مني أن أملأه من مياه البحر، ففعلت، جلست إلى جوارها، فطلبت مني أن أتذوق ماء الكوب، فأخبرها عن مذاقه، أطعتها متضجرا، فرشفت رشفة من ماء البحر المر:

- هذا ماء مالح بكل تأكيد، ما خطبك؟
- واثق أن ما بهذا الكوب ماء وملح؟

أومأت برأسي أي نعم، فأخذت مني الكوب، وسكبت فيه بضع قطرات من قنينة تحتفظ بها في صدرها، طلبت مني أن أتذوق من جديد، ففعلت.

- لقد صار حلو المذاق، أشبه بمعصور الخوخ الطازج.

قلت، فسألتني وقد هدأت قسمات وجهها، فبرز جمالها الأخاذ مبهرًا على ضوء النجوم الخافت.

- هل رأيتني وقد أزلت الملح من الكوب؟

هززت رأسي نافيا، فعادت لتسأل:

- أي أن الملح لا يزال بالكوب، فهل بمقدورك أن تراه أو تتذوقه؟

أخذت منها الكوب مجددًا، ورشفت رشفتين من مشروبها، فما لبثت أن هززت رأسي مؤكدًا أنه لا أثر لملح بهذا الكوب الآن.

تقول (مليكة):

- الملح ما زال في الكوب يا (موسى)، ولكنك لا تشعر به، ولا تراه، ولا تتذوقه، وهكذا دنياك، ليس كل ما لا تراه ولا تشعر به بالضرورة غير موجود، ما بالكوب ليس معصور الخوخ، بل هو معصور الكمثرى المحلّى بعسل النحل، وبالتالي فليس كل ما تثق بوجوده موجود أيضًا، لقد جرعت من نفس الكأس ثلاث مرات، الأولى مرة، والثانية والثالثة كانتا حلوتين المذاق، أليس كذلك؟

أوافقها، فتقترب مني، تمسك بمؤخرة رأسي وتقربها من صدرها حتى يلامس وجهي صدرها المُعطر، تفك بيديها شيئًا في ظهر ردائها، فيسقط

رداؤها أمام وجهي، كاشفًا نهديها الناصعي البياض، تباغتني شهقة قصيرة، وأنا أمعن النظر في حلمتيها البارزتين، ولونهما الأشبه بلون ثمرة اللوز، أرتجف، فتزيد من التصاق وجهي بنهدها الأيسر، تأتي بالكوب، وتفرغ منه قطرتين فوق ثمرة اللوز، وتطلب عيناها مني أن أرشفهما، أفتح فمي، وأقترب منها مترددًا، قبل أن أنقض عليها، ممتصًا منها رحيق النشوة المختلط بمشروبها السحري، ترفع (مليكة) رأسها، وقد ارتكزت بذراعيها على الأرض من خلفها فصار وضع جسدها ما بين الجلوس والاستلقاء، أفلت ثمرة اللوز من فمي، وقد أصابني دوار خفيف، في طياته متعة محمومة، جزء آخر من جسدي يبرز مُلحًا، مطالبًا بالمزيد من مُسكر المُتع، فتعتدل (مليكة) في جلستها، وقد كسا الاحمرار وجنتيها، تهب ريح باردة فلا تطفئ النار التي أشعلتها من خلفنا، ولا تطفئ النار المتقدة في جسدي، تقول:

- فإن سألتك الآن عما قطفت من صدري، هل تقدر أن تميز إن كان ما تذوقته للتو حلوًا، أم مر المذاق!؟

يباغتني سؤالها، أحاول التذكر، كان ما امتصصته من جسدها للتو، حلو المذاق، بل كان حلوًا ومرًا في آن واحد، لست بواثق، تلاحظ ترددي، فتستفيض:

- كل ما حولنا في هذا الكون، موجود، إدراكك الإنساني لا يكتمل فيشمل كل الموجودات، ولا يدرك الغيبيات، ما تذوقته عدة مرات في غضون دقائق، قد حمل لك ثلاثة انطباعات، فأنكرت الموجودات، واستحضرت نقيضها، هذا نتاج خبرات حياتية مكتسبة، وقد اختزنت في عقلك الباطن، وامتزجت بأهواء النفس، ما بين شهوة ورغبة، ما بين حلم وتمنٍ. تلك كانت إجابتي عما يخص النار والطين، ليس كل ما تراه موجودًا، وليس كل ما غاب عن بصرك خيالًا، إن أردت أن ترى الله، فلا مجال أمامك إلا أن ترى الطبيعة أولًا، فتروضها، ثم ترى ما

خلفها، فلا مجال لعلم إلهي، دون إلمام بعلوم الطبيعة وأسرارها الخفايا، والآن، إن أردت، أخطو بك فوق النار، فلا تؤذيك يا (إبراهيم).

كنت أفكر في طرحها، بدا بعضه مشوشًا في أول مرة، ولكنه أمسى أكثر وضوحًا مع تكرار استدعاء الموقف، وددت أن أستوثق، لم يستوقفني ندااتها لي بـ(إبراهيم) أو بـ (موسى)، فقد كان الأمر المؤكد بالنسبة لي هو أنها موجودة، جن أو إنس، واقع، أو نسج خيال، لم أعرف في حينها ماهيتها، ولكن الخوض في النار دون أن تؤذيني، كان أمرًا أثار فضولي، وحماستي، فقبلت عرضها.

- فكر فيمن تحب، مُرّ قدميك بأن يحتفظا بملمس رمال الشاطئ الباردة، واخطُ خلفي.

كانت قد نثرت الحطب المشتعل، فصنعت منه ما هو أشبه ببساط من نار، لا يتجاوز من المساحة مترين، رفعت رأسها إلى أعلى، نظرت صوب النجوم، وخطت الهوينى فوق الحطب المشتعل...

- فعلت ذلك أول مرة وقد كان عمري خمسة أعوام.

قالت ضاحكة، اقتربت مستعدًا، متأهبًا لدوري، صاحت:

- لم تحرقني النار ألا يوم أن استهزأت بها، فناصبتها العداء، وتحديتها أن تحرقني، وضع شيخي شَالَهُ فوق عيني، وربطه بإحكام، ثم طلب مني أن أتحدى النيران، فمررت فوقها مغمضة العينين، وفي منتصف الطريق صرخت من فرط الألم، وقفزت على الرمال متألمة، أزاح شيخي الغمامة عن عيني، فوجدتني كنت أخطو فوق الرمال الباردة، والنيران على ميسرتي، لم يخطُ أحد فوقها! حرق الخيال المرتعد قدمي، ولم تفعل ذلك النار، وها قد انتهيت، فلتتبعني إذن.

استدعى قلبي (أنابيلا)، فتأبطت ذراعي، وسرنا بمحاذاة سور الكاتدرائية [١١٠] في (قرطبة)..

- طالما أذهلني التصميم المعماري لهذه الكاتدرائية.

تقول، فأوافقها، أحيط كتفها بذراعي وأضم جسدها الصغير، محاولًا تدفئتها من ذلك الصقيع، ورياحه القاسية التي لفحت وجوهنا، فكادت أن تجمدنا...

- تصميم مختلف بحق، ولكن هذا مرجعه أنها صممت لتكون كاتدرائية، ثم عُدلت لتكون مسجدًا وكنيسة في ذات الوقت.

لم تكن تعلم هذه الحقيقة، فذهلت، فتحت عينيها على اتساعهما، فبدت زرقتهما كلون سماء الصيف، وقد انعكس على صفحة مياه البحر، وإن فاقت عينيها البحر في تموجهما، أضُيف:

- عندما جاء هؤلاء العرب إلى هنا أول مرة، تقاسموا الكاتدرائية مع روم قرطبة، فكان نصف المبنى كنيسة، ونصفه الآخر مسجدًا.
- إذن، ففي هذا البناء اجتمع إلههم وإلهي!؟

تقول مندهشة، حين تصادف أن وقفنا في موقع يتيح لنا مطالعة أعمدة المبنى، ما من كنيسة أخرى في الأرض، نقش على جدران مبانيها آيات قرآنية، أعمَلت العقل فلم أجد ما يخالف الشرائع في الأمر، دوّت كلمات (ابن رشد)[١١١] صارخة من أحد كتبه:

- الله لا يمكن أن يعطينا عقولًا ويعطينا شرائع مخالفة لها، إنّ الحكمة هي صاحبة الشّريعة، والأخت الرّضيعة لها، وهما المصطحبتان بالطّبع، المتحابّتان بالجوهر والغريزة.

أضم رأسها إلى صدري، ثم أبحر في عينيها وقد أحَطْتُ خصرها بذراعيَّ، أقول باسمًا:

- (أنابيلا)، إله البشر واحد، وفعل البشر مختلف، إلهك هو إله المسلمين، وهو أيضًا إله اليهود، إلهي!

تغزو حيرة مُحياها، فتلقي عينيها العابثتين على كاهلي بأطنان من التساؤلات، تختلط الجدية بالعبث إذ تجعل من أناملها مشطًا تمشط به مقدمة شعري، تضيف:

- أنت إلهي الوسيم...

أضحك، أُسر لها بأني قد اشتقت لخُلوتنا، تشيح برأسها في ميوعة، ولا تجيب، أعلم أن ذلك من الصعوبة بمكان، وقد أوشك أمرنا أن يفتضح في آخر مغامراتنا، جذبت أنات الدلال، الصادرة عن شفتيها، وقد التحمتا بشفتيَ، انتباه زوج من ديوك الروم الغافية إلى جوارنا في حظيرة أبيها، فساد هرج ومرج، ذكرتها بذلك.

- كدت أن تختنق تحت أكوام التبن حتى أنتهي من شغل أبي وأخي عنك.

تقول باسمة، وقد بلغ الشبق في عينيها ذروته، أشعر بحمو في قدمي...

- لا تتوقف، فقد أوشكت على الانتهاء.

تصرخ (مليكة)، فأتذكر أنني ما زلت سائرًا على النار المتقدة، بدا ألم على وجهي فاستشعرت هي، أنني أوشك أن أغادر تلك البقعة الآمنة من ذاكرتي، والتي عزلتني عن النار، تنبهني، فأثب وثبة أخيرة، لتلامس قدماي الآمنتان رمال الشاطئ من جديد.

أفتح عينيَ، فأجدني جالسًا إلى جوار السلطان الآخذ في الاحتضار.

حرت من أمري، وقد عبرت ومضات من رحلة العمر أمامي، تنبهت أن هذا السلطان، هو سلطان المسلمين، هو الحاكم لمن جردوني من وطني، ونزعوا عن قلوبِ قومي سُتُرَ الأمان، جالس أنا هنا، أطببه.

- ستطبب يومًا سلطان المسلمين، ولكن الله سيوكل لك هذا بعد أن تتجرد من موروثات الغضب، وجدليات الثأر.

تقول (مليكة)، الجالسة إلى جواري وقد انتهينا من السير حفاة على مشتعل الحطب، شعرت حينها بنشوة، اختلطت بنشوة امتصاص رحيق نهديها قبل ذلك بقليل، أقول:

- فإن أعدت عليك سؤالي عن أفران الطين، وفعل النار بالبشر، هل تتفضلين عليّ، وأنا الكاهن المتتلمذ في محرابك، وتعيدين الشرح، وتكررين ذات التجربة والتطبيق!؟

قُلت باسمًا، وعينيَ مثبتتين على نهديها، تتبسم في جذل، ثم تستلقي على الرمال، ينكشف من جسدها فخذيها، تطالع السماء لبرهة، ثم تغمض عينيها، دون أن تفارقها ابتسامتها، تهمس:

- بل أطلب منك أن تبحث عن بقايا ذات القطرة، فأغلب الظن أن جزءًا منها قد انزلق من فوق صدري! فتش عنه يا (موسى)...

تسلم جسدها، وتتقد النيران في حطبها، أقترب منها، أتحسس ما انكشف من جسدها...

- ناديتني بـ(إبراهيم)، فمشيت على النار ولم يمسني منها ضررٌ، والآن تنادينني بـ(موسى)، فتراني أقدر على شق البحر كما فعل النبي!؟

أهمس، فيقاطع ومضات الماضي ذات الصوت الواهن:

- النبي لم يشق البحر يا (موسى)، الله هو من فعل ذلك.

يتمتم السلطان، فهل جهرت بكلماتي الأخيرة؟ يردف:

- الوقت قد حان يا (ابن ميمون)[١٠٧]، استدعِ القاضي العادل، أبلغه بأن ينبه قادة الجيوش ليكونوا على أهبة الاستعداد، فقد يشعل موتي الأوضاع التي هدأت للتو.

يقول السلطان (صلاح الدين الأيوبي)[١٠٨]، وقد بدا أنه يسترد جزءًا ضئيلًا من قوته، كان كفيلًا بأن يستشعر الخطر المحدق بالبلاد حال موته، كنت أعلم أنه راحل لا محالة، ناديت أحد حراسه، وأبلغته بإرسال من يحضر القاضي العادل إلى مرقد السلطان، دمعت عينايّ...

- سبحان الله الذي لا إله إلا هو، تبكيني يا (موسى) ولم أرحل بعد؟ كم أود أن يشهد الكون بأسره ذلك، طبيب يهودي، يبكي سلطان المسلمين، إذ أدرك كلاهما بعد الخوض في فيضانات الدم، والقتال، والحرب، أن لهما ربًا واحدًا، هو الخالق القاهر الوهاب، الذي أسلم له نفسي، وإليه المصير...

يتمتم بما بدا وكأنه آخر كلماته، أود التماسك، أقول:

- منذ عامين، قَصَدَت بلاطك السلطاني امرأة مسيحية من بلاد الفرنجة، بعد أن سُرق منها ولدها ذو الأعوام الثلاث، وبيع في السوق عبدًا، فماذا فعلت أنت يا مولاي؟ أرسلتني لأشتري الصبي مجددًا من مالك الخاص، وأعدته إلى أمه! أليس كذلك؟ ألست أنت من أرسلني لأطبب ملك الإنجليز؟ إن لم أبكِ من هو في مثل عدلك، فمن أبكي يا مولاي؟
- قرأت بعضًا مما تكتب.

يقول فيتغلغل الحزن في أعماقي حتى يتخللني، أسأله: "أحقًّا؟"، فيضيف:

- ندمت على حرق دار الحكمة، وطمس تاريخ الفاطميين، فور قراءتي لكلماتك، ولكن الوقت لن يسعفني لأصلح ما كان، فكن أنت شفيعي أمام التاريخ.
- سأفعل يا مولاي، سأفعل.

أذرف الدمع، فيرحل، دون أن أدرك إن كان قد سمع عبارتي الأخيرة أم لا، أستعيد لحظات موته مرارًا وتكرارًا، وأستدعي تلك اللحظات كل ليلة في الأيام الأخيرة، مر على ذلك قرابة العقد من الزمان، ومضى على رحيل (مليكة) ما لا أذكره، فقد حضرت بناء المعبد في العباسية، وربما لم تحضر! تداخلت الأحداث بالتواريخ في ثنايا عقلي العجوز، عمري يناهز اليوم العام الثاني والسبعين، ظلت إلى جواري حتى انتهيت من كتابة مخطوطات (دلالة الحائرين)، لا تتسع كتب التاريخ لسرد ذكرياتي معها، فمن خلالها رأيت متع الدنيا، وزهد الآخرة، رأيت الخيرات والشرور، الشرك والإيمان، ورأيت الله.

(مليكة)، و(ابن رشد)، الذي عكفت على دراسة كتبه طيلة سنوات وسنوات، شكلا لي نبراسًا أضاء لي الطريق صوب الحقيقة، حتى لامستها، وجردتها من أوهام الأولين، فبدت جليّة ساطعة، فراشي هذا حشاياه خليط من تجاربي الحياتية، وأنفاسي الآخذة في التصاعد توحي بأن نهايتي قد باتت وشيكة بدوري، أرخي جفوني، أتذكر مولاي (صلاح الدين)، أحلق في فضاء قرطبة فوق مسجد كاتدرائيتها، أو كاتدرائية مسجدها، ألامس

الآيات القرآنية المنقوشة على جدارها، تناديني أمي (موشيه)، فيذكرها أبي أنه يجد اسم (موسى) أكثر استساغة بين العرب المسلمين، أراني أقتل أمير (الموحدين) في حلمي، يشبه كثيرًا (جابر عباس)، ثم أطبب (صلاح الدين) منذ زمن بعيد، أقبل (مليكة)، وأفترش أرضية الحظيرة مع (أنابيلا)، أحاضر لتلامذتي في معبدي:

- "ما يُحصل العلم الإلهي، إلا بعد العلم الطبيعي، إذ إن العلم الطبيعي متاخم للعلم الإلهي، ومتقدم له بزمان التعليم لمن نظر في ذلك، ولذلك جعل فاتحة كتبه ورسالاته سفر التكوين، وهو العلم الطبيعي!".

أرى بعضًا من تلامذتي يتناقشون، أتبسم حين أستشعر أنهم مقتنعون. تجوب (مليكة) بين التلاميذ في المعبد، أشير لها أن تقترب فتختفي بغتة، تتثاقل أنفاسي، ويقل تسارعها تدريجيًا، أشعر أنني أسقط في بئر عميقة، أسمع صدى أنفاسي الخافتة حتى تتوقف، أشعر أنني أتقزم حتى أمسي رضيعًا، قوة إلهية تقذفني من علِ، ألامس سطحًا مخمليًا حانيًا، أتشبث به، أحاول أن أتذكر ملامح (مليكة)، فأجد صعوبة في ذلك، أقاتل لاستعادة عناوين مؤلفات (ابن رشد) فلا أستطيع، كل ما رسم العقل من لوحات يذوب أمام ناظري، أحاول الصراخ فلا يصدر عني صوت، يخفت كل شيء، تنطفئ الأنوار، يسكن الكون من حولي، أتكور جنينًا في رحم الخوف من المجهول، يمر طيف (صلاح الدين) أمامي كآخر ما أرى.

أسقط، فيعود النورس ليلتقطني...

ويعود بي من حيث أتى...

لا أهاب الفيضان، وقد حل بي وهن العظام الهرمة...

تسلل نداء إلى مسامعي من الفراغ المحيط بي...

فصبوت نحوه مثقلًا بالخور...

استسلمت لأصداء النداء المبهم...

حتى غلبني النعاس.... فنمت، أو استيقظت.

فواصل ما بين الوعظ والشك

موروثات ومدونات منسية

جمعها ورتبها إبراهيم البنداري

الفاصل الرابع

كُنافة رمضان

حكى لي أبي عن بيوت الله منذ نعومة الأظفار، فعلمت أن لكل ذي دين بيتًا يلقى فيه ربه، فيدعوه ويقيم شعائره وصلواته...

تعلمت أننا سواسية...

اعتاد أبي أن يحرص على معايدة جيراننا الأقباط واليهود في أعيادهم، وأفراحهم، ومآتمهم، وكان يقبل معايدتهم لنا في أعيادنا...

ففطنت لأن الأمر سيّان.

أبي يُحَفِّظ القرآن، ويشرح معاني الكلمات غير الدارجات، ولكنني لم أر منه أن اختبر تلامذته في الفهم، كما اعتاد امتحان جودة حفظهم للآيات!

وكذلك كان الأب (ميخائيل) يفعل، كما روى لي أصدقائي الأقباط...

فتيقنت أننا متشابهون.

وكانت لنا في شبرا، جارة مسيحية يقال لها (أم ميشيل)، تحرص على معايدة جيرانها المسلمين، بأن تدور على أبوابهم في أول أيام رمضان، موزعة ما تتقن صنعه من الحلويات الشرقية، خاصة الكنافة، التي لا يزال مذاقها راسخًا في فمي إلى اليوم، لا ينافسه مذاق، ولا يمحوه شراب، بيد أنني أذكر في طفولتي، أن أطلقت عليها لقب (أم كنافة) بدلًا من (أم ميشيل)، وانتشر اللقب بين جيرتنا، بأن أذاعه أخي وأصدقائي، حتى بلغ مسامعها، فضحكت وقد وجدت في طياته إطراء تستحقه، لمهارتها في تحضير الكنافة.

كان لي أب طيب، رقيق الطباع خفيض النبرات، وقور إذا صمت، فصيح إذا خطب، يود الجميع، ويُجِلّه كل من داعب ظله جدران البيوت في حارتنا، جيئة أو ذهابًا، يشار له بالفخار، ويأخذ القوم بمشورته إذا شب

بينهم خلاف، فيقضي بينهم كحكيم زاهد في سلطته الممنوحة قسرًا، وكان حين يفترش الحصر المفرودة أسفل تكعيبة العنب، في أول الحارة، حيث تعقد دومًا مجالس الصلح، في كنف بيت (الحاج النبراوي)، يصمت الحضور، وتوقد أولى مشاعل الصلح.
وكانت لي أم، كاشفة مُنْتَظرة كالشروق، صادقة حين تهمس وحين تبكي، تتجاهل صياح الديوك المضللة طيلة الليل، وتصحو مع نسائم الفجر، لتوقظ الديك الصادق الوحيد، ليصيح في القوم، موقظًا ومذكرًا.
غاب أبي عن بيتنا ذات يوم، فشحبت السماء، وافتقدت مروره جدران الحارة، ذبل العنب في تكعيبته، فاستحال خضارها اصفرارًا، لكن رمضان عاد، فعادت (أم ميشيل) لتوزع الكنافة بإيقاع أبطأ من ذي قبل، هرمت العجوز وتغضن وجهها، تهدل غطاء رأسها فلم تعد تعنى بإحكامه، ضمر فاها، ولم يبقَ من أسنانها، سوى ما يلزم لبعض الحديث، شاخت حتى انحنى ظهرها، وبقيت صواني الكنافة، راسخة فوق رأسها العنيد، واصلت طوافها بين الأبواب، غير ملتفتة لنداءات الجسد، وأنّات جيدها الناحل، حدثتني حين قابلتها مُعَايِدَة، فحمل زفيرها الواهن شيئًا من رائحة الزمان الراحل، حملت معايدتها الحلوة المذاق إلى أمي فرحًا، ثم ما لبثت أن تراجعت خَجِلًا، وقد تذكرت غياب أبي لأول مرة عن طقوس رمضان، فدمعت عيناي، وأقسمت ألا أمس الكنافة، حتى يعود وأقتسمها معه، فربتت أمي على كتفي مواسية، وقالت:

- أبوك لم يمس كنافة (أم ميشيل) يوما!

فقلت مستنكرًا إنني رأيته يأكلها مرارًا، فأردفت مهيلة الحقيقة على رأسي الصغير:

- لم يأكل سوى صنيعتي أنا، فأبوك لا يأكل ما يطهوه الأقباط ويِعدونه!

طال الغياب بأبي فلم يعد إلا جثمانًا ليضمه ثراه، وقضيت سنين الترقب وما أطولها، أعد العدة للقائه، حتى استقر على شفاهي سؤال، عقدت العزم على أن يكون أول ما أسأله، حين يلفظه منفاه فتحين ساعة لقياه:

- لماذا لم تأكل الكنافة يا شيخ (عبد الحميد)؟

ورقة بخط نوح البنداري
وجدتها مطوية في كتاب
(إبراهيم الثاني) للمازني

الصحيفة الخامسة

نبكي على مصر وسكانها   قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهـــورة   بــعد أن كانت هي القاهرة

بدر الدين الزيتوني

عناق على باب زويلة[١١٢]

القاهرة - أبريل ١٥١٧

فتحت عينيَ، فلم أدرك إن كنت أستيقظ مغادرا سرداب الحلم، أم أنني أسقط في أغواره وقد انتهيت للتو من بنائه من حولي!؟

الجدران المحيطة بي مخملية ناعمة، مكسوة بحرائر قانية الاحمرار، أهوي عبر النفق غير عالم بما ينتظرني في نهايته، يطول الانحدار حتى أميز نشأة السماء النورانية الأولى، وقد تكاثفت كالبخار متجسمة فوق رأسي...

الانحدار يغدو بزاوية أقل حدة، فيقل تسارعه، ويتعاظم إدراكي بما يحيطني من متغيرات...

فرشاة تحلق إلى جواري كفراشة أرجوانية اللون، ترحل فأميز أنها قد رسمت بجوار ساعديّ، ضفتين طينيتين، ما ألبث أميزهما حتى أشعر ببلل في منحدري، أطالعه لأجدني وقد أمسيت منحدراً عبر نهر متموج المسارات...

أستطلع ملامحي المنعكسة على صفحة الماء الرقراق، فأجد وجهًا لطفل رضيع...

أستلقي بظهري إلى الوراء، فتحملني موجات النهر الوليدة، بعناية تبث في أوصالي الأمان المأمول...

ينعق ضفدع على ضفة النهر، أتوجه إليه بناظري مستكشفًا، فتنبت زروع، وينبثق من قلب الضفاف أشجار ونخيل...

أعود فأختلس نظرات لما يجود به النهر من انعكاس لوجهي، بين ثنايا موجه العجول، فأجد وجه الطفل وقد غدا شابًا، أتعلق بالتفاصيل، وأتشبث بقسماتي، فأتتبع وجه الشاب في تحولاته إلى طور الرجولة، يتعاظم حاجبيّ، ينبت شارب ويتكاثف مُظَلِّلًا بأنفي المدبب، تغور عيناي في محجريهما، يطول شعري حتى يتكئ على كتفي المكتسيتين بعباءة أنيقة...

تبرز للنفق نهاية، تشرق فيها شمس، وقد أحاط بها قمران متباينان في حجميهما...

أكاد أبلغ مخرج النفق...

تستقر عمامة سوداء على رأسي، وقد التفت حولها عدة مرات، كأفعى تحيط بفريستها، تستقر على رأسي، فأعلم لها اسمًا لا تألفه أذني، هو "الناعورة"...

ألامس نهاية النفق، فيغمرني الضوء الدافئ...

وأفتح عيني، لتحتشد الحقائق في رأسي، وتتكالب عليّ بغتة، مذكِّرة، ومنبهة من قادم الأمور، أستعيد الأحداث الأخيرة، فيعود لي قلقي الأثير، ليؤنس توجسي الدائم.

كان الجميع بعدُ نيام، وزقزقة العصافير توحي بتسلل أنوار الفجر حول مبيتنا، فرجة صغيرة في القطعة الخشبية المثبتة على النافذة لتحجب النور، وتطمس ماهية القابعين خلفها، ما زالت تُسَرب الضوء عبر مسام حائطها الطيني، مختلطًا بنسائم باردة، تطمْئن ولا تفزع، وتنقل رائحة، حملتها من شطآن البحر المتوسط، حتى موقعنا هذا في "البِحيِرة"، غابت "الناعورة" عن رأسي، فداعب النسيم بعضًا من خصلاته، واختلفت هيئتي، وقد اتشحت بلباس العرب الهوارة، تمتمت حين اختلطت في نفسي أمور عدة:

- طال الأمد بالهروب، فمتى وأين يحل المصير؟ فتنسحب أستار النهايات، كاشفة مخابئنا الجوّالة؟

- صحوت مبكرَا كعادتك.

يقول (شربك) مربتًا على كتفي، حين كنت أطالع الأفق المقبل، المُشبك في أجنحة الطير المحلق في الفضاء، قادمًا نحوي، حاملًا ما لا أعلمه من الأقدار، وما أهاب. كنت أعلم أن (شربك) هو الأكثر إخلاصًا، والأشد ولاء، لشخصي، وللوطن المثخن بالجراح، وكان يعلم أنني لا أثق بأحد، كما أثق به هو.

تفتح في أفق السماء فرجة، تعبر منها الشمس قادمة من العالم الآخر، لتتدلى من صدر سماء الصبح، مرشدة ومضيئة، أقول لـ(شربك):

- ماذا عساه النوم يفيد؟

- قلت إننا بإمكاننا التناوب، ولكنك لا تستجيب يا مولاي.

أتبسم لسماع كلمة مولاي، وأنا السلطان الطريد، الراكض بين رعيتي طالبَا حمايتهم، وأنا المنوط بي حمايتهم. يقول (شربك) وكأنه يسمع ما يجول بخاطري:

- لم تدخر جهدًا يا مولاي السلطان، وما كان الحال ليؤول لما آل إليه، لولا خيانات الأمراء المتوالية.

أنظر صوبه معبراَ عن صادق امتناني، وأعود لمجابهة المصير المخبوء في طيات الأفق، ينتابني شك وتردد، فتحاصرني حيرتي من أمري، وكأنني قربان إلهي وقد أتم استعداداته للنهاية، فتوقف قبيل نحره بثواني، ليفكر، ويراجع المشاهد الأخيرة من قصته! هل أشك في صحيح ما اتخذت من قرار بالمقاومة، هل تهتز ثقتي بحتمية رفع لواء الوطن، وبذل الروح فداء لذلك؟ هل أعاتب الذات على الوقوف في وجه الغزاة، دون انبطاح أو مساومة؟

- ألم تظهر بعد!؟

أسأل، فيجيبني (شربك):

- من تقصد؟

أزفر وقد نفد صبري، فتملك الحنق من نبراتي:

- ذات المرأة، التي أسألك عنها كل صباح، فتجيبني بذات الاستفهام!

مولاي السلطان، قصصت عليّ لقاءاتك بتلك السيدة الغامضة، مرارًا وتكرارًا، وعلمت أنها قد أنقذتك أكثر من مرة في "الريدانية"[١١٤]، وكذلك حين طاردنا "عرب عزالة" في "زخا"، ولكنني أكدت لك، في كل مرة، أن أحدًا لم يشاهد في ميادين المعارك، امرأة بمثل ما وصفت من حسن، ترتدي رداءَ حريريّا فضفاضًا ناصع البياض، ولها شعر بعضه كستنائي، وبعضه رمادي طويل، يتوِجه إكليل من الزهر! تلك أوصاف تليق بعابرة حلم، وليس شريكة حرب!

أزفر مجددًا، أتجاهل عباراته المُشككة، وقد وجدت له العذر في شكه، ثم أرفع ساعدي إلى السماء:

- ربي أنت المطلع على الغيب، العالم بأنني زهدت السلطنة، والشهيد على طول الرفض لتولي مقاليد الحكم، قبل القبول، نزولًا على رغبات ملحة للأمراء، و(الشيخ أبو السعود)، اللهم أنت الحق، فانصر الحق إن الباطل كان زهوقًا، وأنر لي دروبي الحالكات، وأظهر لي مُخَلِّصَتي، واغفر لي، فإنك أنت العفو الرحيم.

يتسلل إلى سمعي صهيل خافت لجوادي، فأتوجه صوب مبيته رفقة (شربك)، الذي أشهر سيفه بمجرد تحركنا، طالعت انعكاس وجهه المتوتر فوق نصل السيف، ثم قلت مجترا شيئًا من مرارة معتادة:

- ولى زمن السيف يا (شربك)، وأتانا زمان البارود والرصاص، كم من معارك سطر فيها السيف تاريخًا، وكم من سيف غيّر مجريات الحياة التي نعيشها نحن اليوم!؟ هل كنا لننال الكسرة تلو الأخرى، لو كان (ابن عثمان) قد قدم لنا بجيوشه، حاملين السيوف والمقاليع، فقط!؟

يوافقني متلفتًا حوله في جدية وانتباه، فأصارحه بما يشغلني، مربتًا على ظهر الجواد المتأهب لجولة أخرى من جولات الهرب:

- يراودني ذات الحلم منذ ثلاث ليال، فيه سقوط وعناق، فأستيقظ في كل مرة متحيرًا، بين الانقباض والانشراح بما رأيت!

- هل رأيت ابنتك (عين الحياة) مرة أخرى يا مولاي؟
أهز رأسي إيجابًا، ثم أروي رؤياي منكسرًا:
- أراها واقفة على ضفة نهر، من موقعي على الضفة الأخرى، تمد لي يدها فيخلو المجرى من نهره، ويمسي كأخدود عميق له حواف بارزة مدببة، ولا يبصر المرء له قاعًا، تناديني، فيبرز بين الضفتين جسر خشبي، مثبت بحبال غليظة، أهرول فوق الجسر آملًا الوصول إليها، فينهار تحت قدمي، وأسقط ملاحقًا بصراخاتها الملتاعة...
أعاود الكرّة مرة أخرى، فيعاد المشهد بذات التفاصيل، ويتم كل شيء بذات الإتقان، لا يُستثنى من ذلك فيكفر بالتكرار، سوى الجسر، الذي يتضاءل في كل مرة، حتى يمسي كالحبل المشدود بين الضفتين، ثم تجيء ثالث المرات، فأنجح في عبور الجسر المتداعي، فأبلغ (عين الحياة) وأعانقها بتوق، ليسقط كلانا في جوف النهر الخاوي، فأفيق فزعًا منزعجًا من سباتي القصير.
يبدو (شربك) شاردًا، أظنه لاحظ ما لاحظته منذ دقائق، حتى يؤكد الظن بقوله:
- عفوًا يا مولاي، أعلم إنك مهموم بمصير ابنتك إن أصابك مكروه، لكنني أود أن أنبهك أن الأتربة المتصاعدة في الأفق القريب، تدل على مقدم زائرين على صهوات جيادهم.
أطالع الأفق من حولي، في مختلف الاتجاهات، ثم أعقب على حديثه بهدوء من لا يعنيه الأمر:
- الأتربة تتصاعد من حولنا في ثلاثة اتجاهات، قوام كل مجموعة ممن يطوقوننا الآن لا يقل عن عشرة جياد، لقد حنث (الشيخ حسن) بالقسم.
- لقد أقسم وأخوه على كتاب الله سبع مرات ألّا يشي بك!
- تلك وشاية أخرى يا (شربك)، ولكنني أريدها آخر الوشايات، فمر رجالنا ألا يقاتلوا.

- كنت تلحظ علو الغبار عن الأرض منذ البدء، فعمدت صرف انتباهي، ولم تنبهني يا مولاي، أليس كذلك!؟

ينبثق رجالي من العدم في غضون ثوان دون تنبيه من (شربك)، اعتادت خلاياهم استشعار الخطر، فما انفكوا يحيطون بي بعصبية ظاهرة، أهدئ من روعهم، بنثر ذرات من الهدوء في جنبات مبيتنا المتأجج توترا، فكنت أتبسم في الوجوه، وأربت على الأكتاف، ولسان حالي يؤكد: أديتم مهمتكم، ولم يشوبها تقصير، فارحلوا.

بيد أن طلبي هذا قوبل باستنكار عنيف، ورفض صاخب، هاجمتنا قوات (ابن عثمان) الغازي، فسقط رجالي الواحد تلو الآخر بالبارود اللعين، بيد أن سيوفهم قد ألحقت أضرارًا بالغة بعدوهم، رغم انعدام التكافؤ في العدد والعتاد، أشهرت سيفي بدوري حين ميزت ثلاثة رجال فقط يحاربون بجوار (شربك)، رفعت سيفي عاليا، ثم ألقيته أرضًا، فانغمس في قلب الأرض تعسا، وصرخت:

- ها أنا ذا!

ساد الصمت، وسرى بين الجياد والرجال، حتى تشربته مسام الأرض المضرجة بالدماء...

- لن نخرج في حربك يا سلطان مصر، ما لم ينل كل منا مائة دينار عوضًا عن الثلاثين دينارًا التي عرضتها للتو، عم الخراب ولم يعد لدينا شيء، لا مال ولا دواب، فانقُدنا ما أردنا، أو اذهب لحربك وحدك.

دوت عبارة عسكر المماليك الجلبان في رأسي وأنا أرى رجالي يتساقطون في عزة، وقد أبوا أن ينسحبوا، تاركين من ورائهم سلطانهم المُراد، فأدركت الفارق بين الإيمان بالوطن، والعيش فيه، ولعنت (الأشرفي) الذي فتح أبواب (حلب) أمام سلطان الترك، و(خاير بك)، الذي استبدل بملبسه رداء آل عثمان، وترك بين أيديهم أموال وثروات مصر، التي خرج بها

(الغوري)[١١٣] للقتال في "مرج دابق"، فما نصر سلطانه (الغوري)، وما صان أمانته في (حلب).

أوعزت لـ(شربك) أن ينجو بنفسه، فهرب رفقة رجلين هما قوام ما تبقى من قواتنا، صاح فجاءني صوته من خلف إحدى التلال:

- سأعود يا مولاي، سأعد العدة وأجمع من الرجال ما استطعت، لن أتركك...

لم أهَب رجال (ابن عثمان) حين أحاطوا بي، ومددت يدي من أمامي فكبلوهما وقد وضعوا كفًّا فوق الأخرى، سار بي الركب إلى القاهرة طيلة ليال ثلاث لم نتوقف خلالها ولو للراحة والمبيت، فلما بلغت القصر، نما إلى علمي أن (شربك) قد شرع في مناوشة قوات الغزاة بالفعل، فأثار ذلك عجبي وإعجابي، وجاء عدة رجال، فساقوني من مدخل القصر إلى واحدة من غرفه الفسيحة، حيث جيء لي بطعام وشراب، تناولت منه ما يبقيني حيّا.

هل أحلم مجددًا؟

لا يتسع الحلم لكل تلك التفاصيل، ولا يطول الزمن بالرؤيا لتشهد كل تلك الأحداث، أغلب الظن أنني أستفيق من حلم طويل غريب الأطوار، وأعود لحياتي، أحتضن الواقع بما فيه من مفرحات ومحزنات، وأحيا لحظات افتقدت مصداقيتها حين غاب عن ناظري كل ما هو حقيقي!

الأحداث منقوصة، والمشاهد مبتورة، والشك يحوم حول الشخوص كافة، وقد عجزت عن استحضار الماضي للتيقن من الحاضر، أحار في كينونتي حين تقفز أمور في ذهني بغتة، وتذوب أمور أخر بين طرفة عين وانتباهتها، تبدو الأشياء جلية في آن، ثم أفقد الترابط بين الحدث والآخر في آن آخر، تتداخل الألوان، وتتشابه الوجوه، تذوب خيوط، وتبزغ من باطن الأرض ورود، وينبثق نخيل، ثم يذوي منها ما يذوي، وما يبقى راسخًا في عيني سوى وجهين، وطيف مخَلّص!

تجوس عيناي في قصري، ثريتان عملاقتان، بقيتا لتتنازعا ملكيته مع الأعلام العثمانية الحمراء، وقد كست جل حوائط القصر، رفقة لوحات يسكنها غرباء متشابهو الشوارب واللحى، يداعب بصري طيف لابنتي وهي تركض الدرج صعودًا وهبوطًا، تضحك، فتشرق من عينيها المتبسمتين براءة الحياة، وَجَلْت متخيلًا مصيرها، فاستحضرت لحظات وداعي لها، ولأمها في الأمس القريب، جنحتُ عن الحاضر، وركضت أبحث بين الطرقات عن زمان أهدأ وتيرة، عله يمهلني لأحتضنها مجددًا، قبل الرحيل الأخير، فلم ينل سعيي من النجاح المبتغى، عدت لأهيم بين اللوحات المثبتة على الجدران، فشعرت بغربة تزيد من انفصالي عن لحظات الواقع، حتى ردني للواقع حضور صهري (جان بردي الغزالي):

- أقسمت ألا تعاديني حين داعب نصل السيف نحرك في "بهنسا"[١١٧]، وأخطأت حين عفوت عنك، وقد كان حريّا بي أن أقتص منك لخيانتك، لي، ولعمي السلطان (الغوري) في "مرج دابق".

أقول، يبتسم ببرود القوي، دون أن تغيب عن مخيلتي، صورته مستكينًا مستعطفًا في آخر لقاءاتنا، حين جاءني محاربًا منذ أسابيع، أشيح بنظري عنه، وأعرض عن مطالعة وجهه الثعباني المقيت:

- لا أصدق أن "خوذر" الرقيقة، يمكن أن تكون أختًا، لمن في مثل وضاعتك (جان)!

أردفت بكراهية صادقة، فقال بنبرات هادئة، تكاد برودتها أن تلف جسدي برداء من زمهرير:

- لا شأن لك بـ(خوذر) بعد اليوم، ولا صالح لك بـ(عين الحياة) كذلك يا (طومان باي)[١١٦]، آن الأوان لتعود لقالبك الأثير، وموقعك الذي يليق بك، خادمًا للسلطان، ومسئول انتقاء واختيار ملبسه، أليس كذلك؟ أم إنك كنت معنيًا بأحذية السلطان كذلك!؟

اخْتَتَم كلماته محاولًا استفزازي وإثارة غضبتي، معايرًا بما لا أخجل منه، مذكرًا بما لا يشين.

- أعلم ما تضمره في نفسك نحوي منذ زمن طويل.

أقول ثم أثب خطوة واحدة للأمام قابضًا على رسغه:

- ولكن لا تنطق باسم زوجتي وابنتي.

ينقض الحرس عليّ في محاولة لتكبيلي، قبل أن أكسر ذراعه كما انتويت، ليعم هرج ومرج قصير الأمد، انتهى حين ميزت احترام الحرس لشخصي، وإن منعوني من إيذاء (الغزالي)، فاستعدت استكانتي الأولى، وعادت قناعتي لتغمر نفسي بالطمأنينة:

- ما أنت إلا مخادع كما قال عنك الشيخ (أبو السعود) ذات يوم.

يقول منشغلًا بتحسس رسغه الموجوع، طائفًا بنظراته القلقة حولي، كان يهابني كعهده فلم يلحظ وهو الحر، أنني مقيد الفعل منزوع الإرادة.

- شيخك هذا، حين طلبت منه العون في إدارة شئون القطر، توحش وتفحش، فهو إذن، له ما له، وعليه ما عليه، ولم أره راجح القول والفعل كي يؤخذ منه، فينقل عنه، بيد أنني لا أصدق أن يقول عني ما قلت...

يكاد أن يعلق فأستوقفه معارضًا:

- وإن حاد القوم عن العقل، فرأوا النقل عن الشيخ (أبو السعود) مستحسنًا، فلا يستقيم أن ينقل عنه من هم على شاكلتك.

يضيق بهجائي، فيحمرّ وجهه، ويشير للحرس:

- خذوا الأسير إلى مولاي السلطان، فهو في انتظاره.

أُمرّ رفقة الحرس بجواره، فيقترب مني ويهمس بأذني:

- والله إنك هالك لا محالة يا سلطان العار.

يغلف الحقد حروف كلماته، ويفيض مقته ليغمر نبراته، فتلفح وجهي رائحة كريهة، هي رائحة الكراهية، أجيبه صارخًا فترتعش جدران القصر لصياحي:

- العار كُنية من هرب، ولقب من خان، فترك قومه ووطنه وانضم لجيوش الغازي، العار يليق بمن خرج محاربًا سلطانه، وزوج أخته،

فَخَرّ بين يديه مستعطفًا باكيَا، العار ميثاق الجبناء، وشريعة ناقضي العهود، العار جدير بأن يذكر مضافًا إذا ما قيل اسم كاسمك، أو نودي باسم كـ(خاير) و(حسن بن مرعي)، والعشرات من الخونة والوشاة، أما أنا، فقد أديت رسالتي، وعشت مرفوع الهامة، وسأقضي شامخ الرأس، وقد ظلت ألويتي تقاتل، وألفت رايتي أن ترفرف خفاقة فوق النيل ما كنت حيًا...

زاغت أنوار المشاعل، وارتعش ما يصدر عن الشموع من ضوء، تسارع الإيقاع ليواري (الغزالي) عن ناظريّ، إبان صعودي الدرج قاصدًا لقاء الغاصب، مررت ببهو القصر، حيث اعتدت عقد الاجتماعات، ولقاء الملوك والرسل، قبع السكون على الألسنة، فتوقف سيل الكَلم، وبقيت أصداء صيحتي الأخيرة تنعكس من كل حدب وصوب، حتى بدا وكأن كل حجرات القصر، قد فتحت أبوابها لتهتف بذات الصيحة في وجه الغزاة، أرخى الحارسان من إحكام قبضتيهما على ساعديّ وقد تفهما مكانتي، حين كان الغرباء، ممن سكنوا اللوحات المعلقة ينحنون احترامًا لمرور سلطان مصر الأشرف.

فوق الدرج الرخامي، تناثرت ذكريات، وكُتبت حكايات، وتَشَظّت قصاصات من الماضي القريب، مر على الجدران ظل هلامي أبيض، ميزت ملامحه، فتطايرت لحظات الحاضر مجددًا، واجتذبتني أقاصيص الدرج حين علا صوتها ملاحقًا بأصداء شتى...

كانت (عين الحياة) تجلس فوق قدمي جذلة حين عاتبتها أمها:

- صار عمرك عشرة أعوام يا أميرة مصر، فلا يليق بك أن تتدللي على أبيك كما الأطفال الصغار.

تمادت في غنجها فألقت برأسها على كتفي، لتتظاهر أمها بالغيرة، فتقبل ضاحكة:

- لا يحق لأحد أن يجعل من كتف السلطان متكئًا سواي!

تعلو ضحكاتنا حين كانت (خوذر) تحاول استعادة موقعها بإزاحة (عين الحياة) من مجلسها، حتى قاطع صفاء الأجواء هتاف كبير الحرس:

- رسول من شيخ العرب (أحمد بن بقر) يا مولاي يرغب في لقائك، يقول إن الأمر مهم، والحدث جلل.

أشير بيدي، فتنهض (عين الحياة) صحبة أمها مغادرة، تتعثر الفتاة الصغيرة بإحدى الدرجات فتسقط ضاحكة وقد تمزق ثوبها إثر السقطة، أشير بيدي من جديد لقائد الحرس فأقابل العربي مبتسمًا:

- لقد بلغ العثمانية العريش.

على الحائط قطع زجاج ملونة صغيرة الحجم، دقيقة التصميم، وضعت بمهارة لتبدو وكأنها إفريز من بلور، يعكس الحقائق بألوان مختلفة، فكان أن طالعت صور رسول (بنِ بقر) في إطار أحمر اللون، قانِ كدم الظباء، جاء صوته ممطوطًا مزعجًا، وكأنه يزف البشارة ولا يذيع مقبض الخبر، وكانت تلك بداية لكل شيء...

للدرج سور أسس من أعمدة رخامية قصيرة بيضاء، يصل بين قممها رخام بني مرصع بالخشب والزجاج الملون، والدرج نفسه، يمتد ملتويًا لما يقارب الثلاثين ذراعًا في صعوده صوب غرف المبيت والاستراحات وقاعات المجالس، حتى ليبدو في أعين الدالف إلى القصر كأفعى عملاقة، لها جلد يعكس الضوء بألوان شتى. بيد أنني حين خرجت للقاء جيوش ابن عثمان في (الريدانية)، وكان ذلك اليوم آخر عهدي بالقصر، وقفت طويلًا أمام تصميم الدرج، وتساءلت عن مصممه، وعن السر في تصميمه الملتوي، الذي يطيل المسافة صوب الأعالي، وقد كانت لتقصر إذا ما جعله مستقيمًا، تقاطعه في المنتصف زاوية قائمة وحيدة!

ضمرت البهجة وانزوت، وذبلت زروع الحياة المنبثقات في قحلة أيامي المقبلة، حين حان وداع (خوذر) و(عين الحياة)، طاردتني صورة ابنتي منذ أن عانقتها عيناي رضيعة، حتى أثقل عضدي حَملها، وتسللت إلى المشاهد (خوذر) في لحظات الصفاء والدلال، اعتصرت قلبي لوعة لا يليق بي

إظهارها، فآلمتني وقد ضاق الصدر بكتمانها، أخذت أستنبط ما قد يحل بهما من بعدي، فزادتني الاحتمالات غمّاً وكمداً...

- فخامة السلطان يرغب في لقاء الأسير.

قال نفر من الحرس المرافق لي، مخاطباً آخر توقف بمنتصف الدرج مستعلماً عن وجهتنا، كانت إجراءات الأمن والترقب أكثر مما سننته أنا من قبل، ربما يرجع ذلك لما لاحظه العثمانية، من شيوع الخيانة بين أمراء المماليك وشيوخ العرب، استوقفنا حارس الدرج للحظات، غاب خلالها للتأكد من صدق ما زعم زميله، ثم عاد ليأذن بمرورنا، مررت بجواره فكان كمن لا يراني، حتى بلغت نهاية الدرج الرخامي، فتوقفت مطالعاً للقاع، حيث كنت منذ وهلة قبل الصعود، حضرتني واقعة أخرى، شهد عليها الدرج، حين كان أن استدعيت الشيخ (أبو السعود) غاضباً لما نما إلى علمي من تجاوزه، ولج إلى القصر من بابه الضخم، فكان يبدو كقزم من حيث وقفت في ذات الموضع بقمة الدرج يومئذ...

- ما أذن لك لتشنق وتأمر بالقتل يا (أبا السعود)؟

كانت تلك المرة الأولى التي أناديه فيها باسمه مجرداً من لقب الشيخ، إذ رأيت أن أنزع عنه لقبه وقد بدر عنه ما لا يليق به، كان حائراً متوتراً، وإن تظاهر برباطة الجأش:

- ما كان مني سوى درأ للمفاسد، وقصاص من المفسدين في أرض مصر يا مولاي (طومان باي).

قال مريداً بكلماته أن تسدل هالة من القوة حوله، فجاءت مهتزة مرتعشة النبرات، وقد استشعر قدميه مثبتتين فوق أرض لينة، فأوعز لي ضعفه بأن أزيد من وتيرة المحاسبة:

- من أذن لك بشنق موظف من موظفي القصر؟ من صور لك في ذلك حقاً يحق أن يتبع؟ من هيأ لك أن تنزل بالناس ما تتصوره أمراً من الله بالقصاص؟ ماذا جرى لتأتي بما فعلت مع (الزيني بركات) يا (أبا السعود)؟

كانت مخاطبتي له باسمه العاري من الكُنى، المجرد من التوابع، يزيد من حنقه، ويزلزل الأرض اللينة من أسفله...

- أما الموظف فقد كان من المفسدين في الأرض، وأما (الزيني) أو (بركات بن موسى)، فهو من الخطأة يا مولاي كما تعلم، وخاطبتكم في شأنه فقلتم "مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله".

قال فشقت صرختي أروقة القصر:

- ما اقتضاه رأيك فافعله، كانت تلك ثقة في رجاحة عقلك، وعدل حُكمك، فما كان لك أن تدك رأسه بالنعال، وتنزل به ما أنزلت من ذل وامتهان، وقد كان الرجل من ولاة الحسبة!

يفقد بوصلة الحديث، فيضل بين الكشف عن ولهه بأمور السلطة والحكم، ورغبته في الاحتفاظ بما يهال عليه من توقير، بوصفه بالشيخ ورجل الدين، كنت على علم بمكر (الزيني) ودهائه، وما ينال القوم من شروره، ولكنني لم أكن لأطلق أيدي (أبو السعود) في الأمر أكثر من ذلك. أين غابت (مليكة)؟

- مولانا السلطان مستعد للقاء الأسير المملوكي.

يقول الحرس الوقوف على باب كبريات غرف المجالس، فيفتح الباب، ويستعيد الحرس المرافق بي، شيئًا من صرامتهم وغلظتهم بمرأى سلطانهم، فيكاد كلاهما أن يدفعني دفعًا صوب بهو المجلس، مما أعاد لي تساؤلًا قديمًا عن أثر السلطة على الجسد، وتأثيرها السحري على العقل، وقفت في منتصف البهو مخاطبًا من بدا سلطان العثمانية، وحييته بتحية الملوك، حيث كان الأمر بالنسبة لي، لا يخرج عن إطار لقاء سلطان محارب، بسلطان غاصب...

- ظننت أنني قد نلت منك في (الريدانية) فقتلتك! ولكنني علمت خطأ ظني فيما بعد.

أقول مخاطبًا السلطان، وقد اشرأب عنقي فخارًا، فيجيب بابتسامة تغلفها مرارة صادقة:

- كان ذلك وزيري (سنان) باشا.

أهز رأسي متفهمًا، غير مبالٍ بتحسره على فقدان وزيره، وهو الذي قتل آلافًا في أعقاب مواجهاتنا في (بولاق).

- يا (طومان باي)، كما من مرة أرسلت لك بطلب للهدنة والتصالح، فأبيت الصلح، وقتلت الرسل، فما كان ينبغي لك أن تقتل رسولًا أتاك بالسلم، وقد كان بإمكانك أن تحقن دماء المسلمين، فعاندت وكابرت.

يقول متحركًا بين الحضور في مجلسه، فأميز بين الوجوه التي لا أعرفها، وجوهًا أعرفها، فها هو (خاير بك)، و(الغزالي)، و(حسن بن مرعي) وأخوه، وأربعة آخرون من أمراء المماليك، الذين تبخروا منذ أن تقارعت السيوف لأول مرة، استوقفتني كلماته الكاذبات عن قتل الرسل...

- لما أقتل أو آمر بقتل رسول في يوم من الأيام ما حييت، وإن كان ذلك قد حدث، فما هو إلا شر من فعل محيطيك من الأمراء والخونة.

قلت بثبات فرفع حاجباه، دهشة أو إعجابًا، ثم أردف:

- وفيم كان رفضك للمهادنة والصلح إذن؟ ألم تجد في آيات الله ما يدعونا للسلمِ والحوار؟

صدرت عن ركبتي المرهقتين ارتعاشة، فأخذت خطوة للأمام محاولًا مواراة الوهن الجسدي، حتى لا يظن بي خوفًا أو ترددًا، بيد أن سلطان العثمانية (سليم)[١١٥] قد لاحظ ذلك، فأشار لي بالجلوس، ففعلت كما يليق بسلطان، وأجبت تساؤله الأخير:

- يا سلطان الغزاة، لا يليق لك أن تتشدق بعبارات كحقن دماء المسلمين، فجيشك قد أباد من المصريين قرابة عشرة آلاف، وحرق مئات البيوت، ونهب جنده خيرات المصريين، لا لذنب سوى أن خرجوا يؤازرون سلطانهم، قاصدين إجلاء المغتصب عن أرضهم، يا سلطان الدم، فيم ذكرك لآيات الله وقد اعتلى جندك المآذن ليهيلوا رصاص بنادقهم على رءوس المصريين في (بولاق)، فلم تفرق رصاصاتهم بين

العامة والدهماء، والمقاتلين النبلاء، فزادوا من إجرامهم، حتى أمست القاهرة كمدينة أشباح خالية، مستكينة وقد أنهكها وباء عظيم...

يجلس فوق كرسي خصص له على رأس المجلس، ويظل حاجباه معلقان قرب منبت الشعر في رأسه الدائري الضخم، يداعب لحيته، ويطالع وجوه محيطيه، يبدو كما يتذكر أمراَ يؤرقه، فيذهب ظني إلى أنه قد استدعى بمخيلته، يوم أن أطلقت في خيامه جمالًا تحمل فوق سنامها نارًا في (الريدانية)، وقد قيل لي يومئذ، أنه فر من خيمته وهو يصيحِ فيمن حوله كالمجنون. لا يدوم تفكره كثيراَ، فما يلبث أن يردف متأنيا، كمن يلوك الحروف قبل لفظها:

- كيف تَدَّعي مؤازرة المصريين لك، وقد دعا الشيوخ باسمي في مساجد القاهرة منذ حللت بها، فأمّنت من ورائهم جموع المصلين!؟

ينتابني الضحك حتى تدمع عينايّ، فيضحك السلطان بدوره مستغربًا، ثم يعتدل صارمًا:

- أتهزأ بكلماتي أيها المملوك!؟

يسكن المجلس ويلف الحضور رهبة يشوبها الترقب، تتسع الأعين تأهبَا للقادم، وتتراقص ابتسامة على شفاه الوشاة، أشعر بدنو الأجل، فيزداد التوق للقاء خليلة الروح (خوذر)، ويحترق قلبي بمرور طيف (عين الحياة)، غابت مُخَلِّصَتي، وقد كانت نجمة تضيء لي المخارج إلى سبل النجاة، في كل مرة يضيق بي الدرب، خفتت أضواء السماء بغياب (مليكة)، فأيقنت أن النهاية دانية، وقد سئم الجسد مغبات الحروب، وغابت عن العين المهاجع، وطال الشوق لوصال الأحبة، أثقلت الوشايات جسد الوطن النازف، فتشرذم محبوه، وتصدر الدساسون المشاهد، وسكنوا القصور، وعاثوا في الأرض، يمتصون الخيرات، ويجتثون الأمل من قلوب الصغار، هَادَنَت الأجواء أجراس الكنائس، فصامت عن الرنين، ترنحت المآذن بمتضارب الأدعية، وزاغت هيئة الشيوخ في تحولاتهم، ففقد بنو

وطني الأمن، بغياب القادة، والأمل، بنضوب الثقة في مشايخهم، وأيقنت أن مصر مقبلة على سنين صعاب، يلزم فيها التوحد، ويتحتم فيها نبذ الخلاف.

اعتاد المصريون في الأشهر الأخيرة التغني باسمي، وصياغة القصص عن عظمة بطولاتي، وعقد الأمل عليّ كمخلص أوحد، وذلك مما جعلني أرى في نهايتي، إشعالًا لجذوة المقاومة من جديد، وليس إخمادًا للظاها كما يظن البغاة، ناداني سلطان العثمانية بالمملوك، قاصدًا السباب، فلم يهز ذلك ثقتي، ربما جئت لأب وأم غير معلومين كشأن غالب المماليك، وربما ربيت في معسكرات المماليك وأبراجهم، متدربًا على أمر وحيد هو القتال، وربما نُظر لي في ريعان الصبا كأداة حرب، لا يميزني شيء عن جوادي، ولكنني ها هنا، سلطان مصر (الأشرف أبو النصر طومان باي)، بذلت حياتي فداءً لمصر، وقد كان بوسعي أن أبيت الليلة قرير العين، مؤنسًا بأحضان زوجتي وابنتي، إن قبلت ما عرض عليّ مرارًا من اتفاقيات الخنوع، ودعوات الاستسلام، بيد أن كرامة الوطن كانت وما زالت، هي الحق الجدير بالاتباع دون غيره، والله عليم بذات الصدور.

تصدر عن نفر من الحرس صيحة مُقَاطعة لسيل فكري:

- فسر ضحكاتك للسلطان أيها الأسير...

أنتبه، فأعتدل في مجلسي معدلًا هندامي البالي، الشاهد على الحروب بين النصر والوبال، ثم لا ألبث أن أجيبه بجدية وقناعة:

- ماذا إن نزلت ببلادك غاصبًا، فطلبت منك أن تسلم لي وطنك صاغرًا، هل تقبل الركوع أمامي، إن أدركت أن بحوزتي جيوشًا تفوق ما لديك عدادًا وتعدادًا؟ هل تسلم لي بني وطنك نظير سلامتك أنت وعائلتك؟ هل ترفع رايتي على قصرك؟ هل ترى بنو وطنك ينحازون لسلطانهم، أم يلقون برايات استسلامهم تحت أقدام الغزاة؟ أنا سلطان مصر، وقد وُلِّيت أمرها باختيار جندها وأمرائها ومشايخها، وألحوا عليّ

خمسين نهاراً، حتى قبلت أن أُنَصَّب سلطانًا على البلاد، فمن من المصريين قد اختارك لتولي أمرهم!؟

يصمت مفكراَ، ويهز رأسه في استساغة لقولي، فأعاجله بما يكون ختامًا لكلماتي معه:

- حدثتني عن الشيوخ، فدعني أتلُ عليك إيضاحًا لعلك تعلمه وتُبّطنه، دعا لك أئمة المساجد يوم الجمعة اللاحق لدخولك للبلاد، وحين أنزلت بك الهزيمة، وكبدتك ما لم تتوقعه من خسائر في (بولاق)، عادوا ليدعوا لاسمي في صلاة الجمعة التالية، وعاد جندك ليَقّتِلوا ويسرِقوا القوم في شتى أنحاء البلاد، فتوقفت الأدعية، حتى تفوقت علىّ جيوشك في (بهنسا)، فعاد الدعاء باسمك أنت يا سلطان الغزاة، فهل تجد في ذلك ما يسرك، وهل تستنبط منه ما يشرفك؟

إن الشيوخ في نهاية الأمر، إناس يودون العيش في سلام، حارِ البعض منهم بين نصرة كلينا وقد رفعت أنت راية الإسلام، ولم يرِّ مني ما يخالف ذلك، وداهن البعض منهم الحاكم صاحب القوة، وأخذوا ينافقونه ويكتسبون عطفه، فدعوا في كل صلاة لمن ظنوا به قوة تفتك بالآخر، وصمت قسم آخر، وإني والله أميل إلى توقير الصامتين، عن أولئك المداهنين ممن تعجلوا بالدعاء لكلينا!

سرت في مجلسنا همهمات، وابتسم السلطان العثماني القصير، ذو الرأس الأصلع المستدير، ثم ما لبث أن أعاد الصمت، ووأد أنصاف الكلمات المترددة فوق شفاه الجلوس بأن رفع يده إلى الأعلى، مال على (خاير بك) مستشيراَ، فهمس الأخير بما لا يبلغ مسامعي، مال على آخر لا أعرفهِ فهمس بشيء بدوره، طالعني طويلًا، وتفحص وجهي، حتى استقر بعينيَ وقد تلاقى ناظرانا، دارت في الأعين محاورة أشد وطأة، وأعتى في تحدياتها، حتى أشار لحرسه بما يعني أن يأخذوني:

- خذوا (طومان باي) إلى محبسه، واحضروا له ما يشاء من طعام وشراب، لا تجلبوا له لباسًا جديدًا، دعوه متدثرًا بهزيمته، واعتنوا به، فلا يسيء أي منكم معاملته.

مر على لقائنا سبع عشرة ليلة، قضيتها ما بين اليقظة والوعي، متنقلًا بين وجوه أفتقدها، مبحرًا عبر الزمان القريب، قابعًا في خيمة الأسر، كان محبسي منذ البدء في تلك الخيمة، وقد أحاط بها الإنكشارية{١٣٤} مشهرين سيوفهم صباحًا وعشيةً، فكانت هيئاتهم توحي بأنهم يؤمنون ويحرسون شخصي، ولا يهددونه من مغبة محاولات الهرب، حتى جاء نهار تسرب فيه إلى خيمتي هلام مجنح أبيض اللون، فأخذ يتشكل من حولي، متخذًا هيئة سرب من الطير وقد تقدمته (مليكة)...

- طال الشوق للقياك يا مُخَلِّصَتي.

همست، فاقتربت مني في طور تجسدها:

- ذلك خلاصك الأخير.

قالت باسمة، فأومأت برأسي متفهمًا، حين اقتحم الحرس الخيمة مطالبين إياي بالخروج، ففعلت وقد علقت عيناي بـ(مليكة)، وأطياف طيرها حين ارتفعوا في السماء، مفسحين الفراغ لمرور موكبنا، تقدمني مئات الحرس في مسيرة مهيبة، وقد أشهروا سيوفهم بلا طائل، كبلت يداي بالحديد، وأخذ القوم المصطفون على جانبي الطريق، عبر طرقات القاهرة، يدعون لي بالنجاة، ويمدون أيديهم مسلمين ومودعين، فكان أن آزرني ذلك، وزاد من إصراري على لقاء الموت شجاعًا جسورًا، كنت أرد التحيات بثبات، متجنبًا وصال الأعين، خشية أن ألقى (خوذر) و(عين الحياة) بين الوجوه، طال الطريق بموكبنا، فتشاغلت بمتابعة طيف (مليكة) المحلق فوق الرءوس، وتنامت إلى مسامعي ثرثرة الحرس، فقيل إن (ابن عثمان) قد حضر ليشهد الإعدام، وقال آخر إنه أرسل وزيره لينوب عنه ، وقال نفر آخر من الحرس، وقد بدا أعلى رتبة من معظم المحيطين بي، إن سلطان العثمانية، كان قد قرر ألا يزهق روحي بعد لقائه بي، بيد أن شخصًا يدعى

(الزيني)، قد أشار عليه بأن يفعل، وقد أبلغه أن المصريين، لا يصدقون أنني قد وقعت في أسره، فاستجاب له (سليم).

بلغ الركب مبتغاه، فوقفت أمام رجل نحيل، هو المعنيّ بإزهاق الأرواح، وأخذت أتفحص المشنقة المتدلية من الأعلى، ليستقر طرفها المعقود على مقربة مني، تبسمت مخاطبا الرجل وقد لاحظت توتره:

- نفذ ما أمرت به يا رجل.

يسارعِ الرجل بإحكام الحبل حول عنقي، فأستوقفه للحظة، ثم ألتفت مخاطبًا الجمع المحتشد:

- رَدِّدُوا الفاتحة من خلفي ثلاثًا، ولا تنسوني من فضائل دعائكم...

أرتل الآيات، فيرددون من خلفي، وقد شخصت أبصارهم، وسال الدمع من شتى المقل، حتى انتهينا من ثالث التلاوات، فالتفتُّ لأطالع الرجل المتردد مجددًا، وأومأت له بما يعني أن ينهي الأمر...

ينتهي من إحكام الحبل حول عنقي سريعًا، ولا يغطي وجهي، فأجد ذلك مستحسنًا، تصدر قرقعة من حيث لا أدري، فتفتح الأرض من تحت قدمي، لأهوي صوب اللقاء، فأراها واقفة على ضفة نهر، من موقعي على الضفة الأخرى، تمد لي يدها فيخلو المجرى من نهره، ويمسي كأخدود عميق له حواف بارزة مدببة، ولا يبصر المرء له قاعًا، تناديني، فيبرز بين الضفتين جسر خشبي، مثبت بحبال غليظة، أهرول فوق الجسر، آملًا الوصول إليها، فينهار تحت قدمي، وأسقط ملاحَقًا بصرخاتها الملتاعة، يصرخ القوم:

- الله أكبر، انقطع الحبل.

أنهض مجددًا، فور أن ربتت (مليكة) على وجهي، تئن عظام جسدي إثر السقوط، ويؤلمني عنقي، تسيل دماء من جرح غائر في وجنتي اليسرى، يسود هرج ومرج، حتى أحُمل لأستقر من حيث سقطت، يصيح صائح من علٍ في الرجل النحيل، بأن يعيد تنفيذ الأمر، فيسارع بلف الحبل حول عنقي مجددًا، مرتعش الأيدي، وتصدر قرقعة هي الثانية، أعاود الكرة

مرة أخرى، وأحاول عبور الجسر صوب (عين الحياة)، فيعاد المشهد بذات التفاصيل، ويتم كل شيء بذات الإتقان، لا يستثنى من ذلك فيكفر بالتكرار سوى الجسر، الذي يتضاءل في كل مرة، حتى يمسي كالحبل المشدود بين الضفتين، ويعتريني ألم مضاعف لسقوط آخر...

- تلكم آية من آيات الرحمن!
- الله أكبر كبيراً!
- أطلقوا سراحه!

تتعالى الصراخات، ويهتاج القوم، حتى يكادوا أن يخترقوا جدار الحرس المحيط بمشهد الإعدام، يصيح ذات الصائح من حيث يُسمع ولا يُرى:

- اشنقه مرة أخرى، اشنقه حتى يموت، أو تموت بدلًا منه.

تعاونني (مليكة) على النهوض، فلا أقوى، أشعر أن ساقي اليمنى قد كسرت، ولا أستطيع أن أحرك ظهري، يجذبني الحرس من أكمامي الطويلة البيضاء فتتمزق، يواصل الدم انسيابه على وجهي، يعلو صراخ الحشد الثائر، حتى يسلموني لذات الرجل المرتعش، وقد كسا الدمع وجهه الملتاع، أومئ له بعيني ألا يحزن، فتصبغ نظراته الدهشة، يزمجر الحرس في وجهه، فيسرع بإعادة الكرة، حتى تجيء ثالث المرات، وتصدر ذات القرقعة، فأهوي دونما سقوط، وكأن بئرا هائلةً قد ابتلعتني للأبد، أستقر بحافة ذات الجسر المتداعي، فأنجح في عبوره، لأبلغ (عين الحياة)، وأعانقها بتوق، ثم يسقط كلانا في جوف النهر الخاوي، فيسود سكون، وتتباعد أصوات المحتشدين، وقد هادنت حناجرهم العثمانية، تهدأ ثورتهم، ويبزغ من السواد المطبق، وجه نوراني ذو بياض شفاف، هو وجه مُخَلِّصتي الأثيرة، تحتضنني وقد اكتمل تجسدها، يكتمل تجسد الطير المرافق لها بدوره، فما ينفك يحلق من حولنا طَرِباً حبوراً، يخيفني صرير الصمت، فتهمس حانية:

- لا تجزع.

تنثر عيناي المتشككات، مئات الأسئلة في الفراغ المحيط بنا، فتجيب بذات الكلمات:

- لا تجزع.

أود التساؤل عن مصير (خوذر) و(عين الحياة)، فيقبع السؤال في حنجرتي ولا يفارقها، أبارز الصمت الجاثم على شفاهي المثقلات بالتساؤلات، فيأبى أن يبرح محله، أدفعه حتى يرتعش وجهي من فرط المقاومة، فيجيئني صوتها، وقد رفرف من حوله الطير، مصدراً ما يشبه الأصداء:

- لا تخف يا (إبراهيم)، فقد انتهى الأمر.

يعتصر الألم رأسي، ويغيب الألم عن جسدي تدريجيّاً، أود أن أطبق بكفيَ على جانبي رأسي، علَّ ذلك يخفف من حدة الألم، فتحتضنني (مليكة) وتضمني إلى صدرها، يسيل الدمع من مقلتينا، ويسري حتى ينزل بصدرها فيبلله، ويبلل وجهي، تغيب أسباب الحديث، فأعانق الصمت وَهِنًا، ويلفني دوار، حتى أرحل، أو أعود...

تملكني اشتياق للراحة والنعاس، فنمت...

أو استيقظت.

الفاصل الخامس

أسئلة غير مشروعة!

هل كل من يجيد ترتيل القرآن وتلاوته، مجيد لتطبيق ما تلاه ورتله؟
هل نالت سطوة السلطة، وعظمة الموقع، من الأنبياء كسائر البشر؟
هل يغمض كاهن الاعتراف عينيه عن مطالعة تفاصيل جسد المعترفة؟
هل أنزل الله كلماته، ليكون حفظها عن ظهر قلب هو أساس العقيدة الراسخ؟
لماذا أنزل الله كتبه وأرسل رسله، وهو المطلع على الغيب، العالم بما ستؤول إليه كلماته، من مقدسات سماوية، إلى أدوات سلطوية؟
الله غاية؟ أم وسيلة بلوغ للغايات؟
لماذا صعد النبي في معراجه إلى السماء مارًّا من القدس، ولم يصعد من مكة مباشرة؟ هل خلت سماء مكة من الأبواب؟ أم أن المسجد الأقصى الذي أسرى له النبي، لم يكن يوماً بالقدس؟
من أقنع المرأة أن جسدها عارٌ يتوجب عليها احتقاره، لتقدس استتاره خشية أن تمسه الأعين، حتى خاصتها؟
ولماذا يحق للذكر أن يباهي بجسده العاري دون تحريم أو تجريم؟
لماذا وعد الله الذكور بحور العين من فاتنات العذارى، ولم يعد الإناث بالمثل؟
هل جعلنا الله جنسين، ليحق لجنس واحد أن يشتهي الآخر؟
لماذا لم يورد الله الأحاديث القدسية في القرآن؟
لماذا يعاقبنا الله في الإنجيل على خطأ واحد، بعقاب يدوم طيلة العمر، حين نخطئ اختيار الشريك؟ أين رحمة الله بالعباد؟

لماذا توقفت رسالات الله، وغاب الأنبياء، رغم حاجتنا الماسة للتذكرة الإلهية المستديمة؟

من يدخل الجنة من أتباع الديانات الثلاث؟ ألا تتسع جنة الخالق لتشمل الصالحين جميعًا على اختلاف دياناتهم؟

لماذا يَعْزُف الناس عن مشاهدة الأفلام الدينية، رغم أنها تحوي مُختلف أنواع الحبكة الدرامية!؟

هل يعد مشركًا من يسوق تلك الأسئلة، وهو على دراية بالأجوبة؟

هوامش نقلها إبراهيم البنداري
في الأغلفة الداخلية لكراسات المذكرات
ومن غير المعلوم ان كانت تخصه
أم تخص أبيه نوح البنداري

الصحيفة السادسة

"ما يصنع من الشهيد شهيدًا، هو القضية وليس الموت"
نابليون بونابرت

لا تُيبسُوا ثَراي

القاهرة - سبتمبر ١٧٩٨

يُوَارَى الأمس في طيات الغيب، ويختطفه الماضي من أيدي تتشبث به، بغية استدراك، أو استكمال، فلا تأبه الأرض بصراخات البشر وتوسلاتهم، وتواصل دورانها غير مكترثة، بما يحيق بالبشر من أمور، وما يجثم فوق صدورهم من يأس...

تدور الأرض، لتستمر الحياة...

وأراقب الأرض من علٍ، محلقًا في فراغات الفضاء، حيث كانت الأرض، ككتلة صماء لا ملامح لها، أنظر خلفي لأجد امرأة متشحة بالبياض، وقد دثر وجهها شعرها، المنتشي بمداعبة ريح لا تمس سواها، تدفعني بقوة، فأمرق نحو الأرض كشهاب مشتعل. في طريقي أشهد تغير لتضاريس الأرض، فتبرز الجبال وتعلو الهضاب، وتسري الأنهر في مجاريها، حتى تصب حملها في باطن البحار والمحيطات، تتقعر الأرض مشكلة الوديان، وتميل هابطة من فوق سفوح جبال أخذت تتراص وتتشكل في لين ويُسر، أقترب، يحلق بجواري طير، يقترب حتى يمس ريشه مسامي، تلحق بِه بلابل بنية اللون، سوداء الرءوس، تغرد بما يشبه الكلمات، أغمض عيني، وأسترق السمع مجدداً إلى ما تغرده، فيأتيني صوت أنثوي يردد:

- تدور الأرض لتستمر الحياة، فلا تهادن اليوم، ولا تقايض بالغد شيئًا.

أقترب من الأرض، فيعلو موج البحر المحتضن لشواطئ (الإسكندرية)، فتبدو مدينتي الناعسة كعاشقة تكورت، واحتمت من الريح بأن أسكنت جسدها مخدع البحر، عشيقها الأزلي.

أفتح عيني جزعًا، وقد قاربت على الارتطام بالأرض، أغمضهما متوجساً، فيدوي صوت انفجار تُصم له الآذان، فأستيقظ، وأشرع في استعادة الواقع بشكل تدريجي.

من أكون!؟

أنا من جفت في دروبه آبار الأماني، فأخذ يبارز اليأس، وكلما بدا له أنه قد صرعه، وتفجرت عيون الأمل في طريقه المتشعب، واختلطت بما يفيض من ينابيع التمني، هبت رياح الغدر، ودارت به أعاصير اليأس المنبعث من الرقاد، فما يفيق إلا وقد طمرت رمال الصحراوات ينابيعه، وجففت عيونه، ليعود كما أراد به أبوه دومًا، مبارزًا لليأس، مطاردًا للتمني... يُفرز الكَرب أملًا جديدًا، أرعاه فيرعاني.

أحاول استدعاء أيام مرتحلات، فأرتحل عبر فضاءات الأزمنة، غير مكبلٍ بمحبسي الضيق، متمسكًا بخيطٍ من ضوء خافت، ينسكب كعصير من النور، من بقعة ما في سقف الغرفة التي احتجزت بها، يغمر الأرض المجاورة لقدمي، ويِصْدرُ صوت في سريانه كالخرير، فيعيدني إلى معشوقتي الأولى: (الإسكندرية).

تماوجت الأطياف، واندفعت بينها وجوه دفعتني للتبسم، وأنا العالم بقرب دنو الأجل، والمرحب بالموت بعد ساعات قلائل، عمي يبدو باسم الثغر، طالت رقبته واشرأبت، يشير نحوي بسبابته، "أثمرت أطيب مما بذرت يا ولدي". يقول، فتسري قشعريرة بجسدي، تتصاعد حدتها كلما تصورت لحظة إعدامي، فتنقض على توتري أبيات "أبو الطيب المتنبي"، مستبدلة القلق، بالسكينة والفَخار:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريمٌ   بين طعن القنا وخفق البنودِ
واطلب العز في لظى ودع   الذل ولو في جنان الخلودِ.

منذ زمان غير بعيد، حين غادرني المندوب الإنجليزي، جارّاً أذيال الخيبة، متبوعًا بلعناتي ولعنات شعبي، أخذت أفكر، إن كنت قد اتخذت القرار الصحيح أم لا، هل جنَّبت أهل الإسكندرية احتلالًا إنجليزيّاً ماكرًا، أم أن قصة المندوب الإنجليزي بخصوص أسطول الفرنسيين القادم إلينا، صحيحة وافية؟

رفضت حتى أن يبقى ببوارجه في مياهنا، وأبيت أن يتسوق أو يتبضع رجالاته وجنوده في أسواقنا، فرحل، ولكنني تساءلت: هل انتهى الأمر بذلك، أم أن البداية كانت قد غدت وشيكة؟

عبرت بوابات الإسكندرية المتهالكة، وحدي بلا حرس، صوب قبلتي الدائمة، الواقعة بأي من شطآنها، وقفت وقد أوليت الموج ظهري، تفقدت عيناي أسوار مدينتي الذابلة، المحتمية بأربعة مدافع هرِمة كما الليوث المسنة، شكرت الله أن لم ير المندوب الإنجليزي تلك المدافع التي هددته بنسف أسطوله بها، وأخذت أتحسر على زمان مماليك البحر العظام، الذين بنوا هذه الأسوار، وتركها العثمانيون وبكوات هذا الزمان للتآكل والفناء.

كان الغروب يشاركني حسرتي، فأسرع في تأدية مهامه بإظلام المشهد، وإخفاء الأسوار عن ناظريّ، استدرت لأستطلع البحر، محملًا بهموم تأمين ثمانية آلاف روح، هم قوام شعب الإسكندرية، فرأيتها، وكمن سقط في غَور ماء سحيق، واستقر في أعماقه محدقًا صوب الضوء القادم من أعاليها، أخذت أطالعها.

تكحلت بسواد الليل، وتطيبت بقطرات من ندف السماء المعطر، أطلت بعنق أجيد، مجاورة للقمر، فتزينت بلآلئ السماء. ترمش، فتتذبذب الأنوار في عيني، تحدق فيّ، فأتعلق بأهدابها مغادراً بئري الغائرة، لأنزلق في عينيها، وتتكلم:

- جميع أرواح البشر خالدة، لكن أرواح الصالحين خالدة ومباركة.

نَثَرَتْ بعضًا مما تركه لنا (أفلاطون) من تلال الحكمة والوعظ، فاستعدت شيئًا من وعيي.

- من أنت؟

قلت، وقد لاحظَت عباءتها المصبوغة بلون الغروب، حين هبت رياح، بدت وكأنها لا تحيط سوى بجسدها، أهاجت خصلات من شعرها الرمادي، ولم تلامسني، تبسمت هي، واقتربت مني حتى أوشكت على ملامستي، فسكنت الريح:

- ألا تذكرني يا (محمد)!؟

تقول فأهوي من علٍ، إذ أذكر بغتة أن التقينا من قبل، تذوب الملامح تحت وطأة حرارة اللِقاء المتصاعدة، اندثرت الشمس واختبأت بصريم النهار الراحل، وظلت حرارة اللقاء في اضطراد متواصل، تحدق فيّ فتسبر أغوار الماضي، تلتقط منه ما يقلقني، وتلقي به حيث لا أجِد له طريقًا، تمر أمامي أطياف اللقاءات السابقات، أراها تلملم أجزاءَ من جسدي، وأراها تسقيني من نهدها ترياقا، يزيل من عروقي سموم من سبقها إلي، فأستغفر الله التواب الغفور، لا أقوى على غض البصرِ، حين تباغتني المشاهد الضبابية وأنا مغمض العينين، وكمن تتلو عليّ وحيا، متناغمًا كما الترانيم تقول:

- الأمر سواء، فما كان من ذاك اللقاء، سوى تبديل للأسماء.

تقول، فأقطبِ حاجبي، كنتيجة لألمٍ يتزامن مع عدم الفهم، أعيد كلماتها عليها، متحاشيا وصال الأعين، مكتفيا بتواصل الألسن:

- قُلت ما بالإمكان قوله.

تجيب وقد نسج الغموض بسماتها:

- أهلي وناسي، هل يصيب قومي ضِرر بما اتخذت من قرار!؟ هل أُقتل؟

أتساءل، فتتبخر ابتسامتها تدريجيا، وتطالع الموج الحابي على ضفاف قدميها بشرود أخاذ:

- لكل اقتتال قتلاه.

- لست متشبثًا بالحياة، ولكنني قلق وأشعر بقرب ساعتي، فهل أقتل؟
تتلاحم خصلاتها مع ذبالة الشمس الراحلة، فتنسج واحدة من أبدع ما رأيت من لوحات، تهمس بحنان أم، وقد انعكس على ثغرها الباسم رغبة وصال العشاق:

- سأراك مجددًا يا (إبراهيم)!
- هل أقتل كـ(إسماعيل)!؟
- الدلالات الدامغة، تفيد بأن النهايات واقعةٌ واقعة، فلمَ العجلة في إدراك المأمول، واستنباط المجهول!؟ فقط اعلم أن لقاءنا هذا لن يكون خاتمة اللقاءات...

ينساب الوحي من بين شفتيها الورديتين، فأستغفر الله مجددًا، تغيب كما أشرقت، بغتة، فَتَلُفُني اللحظات الحيارى، ما بين تعدد المُخَاطَب في كلماتها، وبين بعض ما تفوهت به دون إلمام بفحواه، يقاطع تداعيات الأمس القريب دخول المترجم، كان له اسم نسيته عدة مرات خلال محاكمتي، دلف إلى محبسي بتهذيب معتاد، سألني:

- سيد (محمد)، ما زال بإمكانك افتداء حياتك بفدية مالية، خصوصًا وأنك تملك من المدخرات، ما يفيض عما حُدد لك من فدية.
- أما أموالي، فإنني والله ما ادخرتها لأفتدي بها نفسي، وإنما ادخرتها لمحاربتكم، وتطهير تراب وطني من دنسكم. وأما الموت يا بني، فإنه إن كان مقدراً، فلن يحول بيني وبينه ثلاثون ألف ريال، ولا كنوز قارون وسليمان...

قلت بقناعة، وتفاخر بُعث في أوصالي من جديد، عقب ارتباك لا يشوبه الخوف، تذكرت خيانات الأقربين، وصورت مخيلتي صورة لخادمي (ليشع)، وهو يعترف للفرنسيس بموضع مدخراتي، في لوحة تشبه عشاء يسوع الأخير، قاطع الخيال الـمرسل دخول (رشيد)، والغضب يكاد أن يفجر دماغه المحتقن حد الاحمرار:

- المشايخ قبلوا بوقف القتال، والعُربان انسحبوا إثر طلب المشايخ، أهي خيانة ام استسلام!؟

استترت بالصمت، حين كنت أعيد حساباتي، حتى لا تنتشر عدوى الإحباط، بين فرساني المرابطين برفقتي، في قلعة "قايتباي"، يتابع (رشيد):

- لا أحد يقاتلهم في كامل أرجاء المدينة يا شيخ (محمد)، كيف يعقد المشايخ هدنة ويلتزمون بعهد، دون الرجوع إليك، ألست قائدنا!؟

استرجعت صوراً، اقتطعتها ذاكرتي، عبر الساعات القليلة التي سبقت حديث (رشيد)، دماء في كل شبر، وعويل في القسم الأعظم من بيوت مدينتي، وشهيد خلف كل باب، ووراء كل حجر، العسكر الفرنسيس يمزقون جسد (حماد) الإسكافي وزوجته إرباً، عقاباً على إمطار جنودهم بالأعيرة النارية، ويجوبون بأشلائهم حواري الأنفوشي. توقفت عند كلام (رشيد)، ووجدت في بحور الدم المهتاجة سبباً لاستسلام المشايخ، طالعت سفن (بونابرته)[١١٨] القابعة على شواطئنا عبر مسام سور القلعة، وتساءلت عن الأمد الذي أصمد خلاله، رفقة ثلاثمائة مقاتل، هم قوام ما تبقى من فرساني، في مجابهة هذه السفن، يرن صوت (الشيخ الرفاعي) "وكم من فئة قليلة"، يجافيني اليأس فأجافي المنطق. وأقرر أن أواصل.

قالت (مليكة):

- كان اليأس محيطًا بجسدي كمعطف ثقيل كالح اللون، أعجز عن فك أزراره، فيقهرني وأنا أراك تقاتل الفرنسيس، رجوت الله أن تستجيب لمندوب (بونابرته) حين جاءك طالباً الصلح والتوافق، كنت أعلم أنك تُضْمرُ شيئًا، ولكنني فرحت بقرارك بقبول وقف حمام الدم، وبموافقتك حللت أزرار معطفي، وكان لقاؤنا الأول...

أكرر الاستغفار، إن كانت حقيقة، فإنه حقيقي أيضًا أنني لم أمسسها، وإن كنت قد عشقتها، وفي وقت ما: اشتهيتها، صارحتها بمخاوفي من الإتيان بالمعصية، وأنا الأزهري المرتاب بما لقيه بين المناهج والمناهل:

- اعلم أنني غاويتك لا محالة، غوايتي ليست للانغماس في ملذات الجسد، وإنما أغويك لتبصر، وأغويك لتتحرر من مخاوفك، ومن أوهامك، وأصنام المخاوف التي تشيد من حولك، حتى وإن حررتك من ذلك بأن وهبتك جسدي، ففي ذلك ما يجاوز الشهوات، ويسمو عن الماديات والملموسات.

أعود لمحبسي من حيث كان لقائي بها، الضوء آخذ في الانسكاب، وإن تغير لونه تاركًا انطباعًا بحلول الظهيرة. غادرني (فانتور) حزينًا فتذكرت اسمه! القنصل (ماجون) فشل بالأمس كذلك، وبدا لكليهما رفضي، لافتداء حياتي بالمال، كضرب من الخبال والذهان، يمر ما أتذكر من طيف أبي أمامي في محبسي، فأفتقده، يبرز عمي بغتة، "لن تنجب الإسكندرية قبانيًا في مثل أمانتك"، يصرخ ضاحكًا، فأتذكر أيام عملي بالموازين، والجمارك، يلُفني حنين لأيام خلت، أفتقد أمي، فأتكور في محبسي جالسًا، بأن أرحت ذقني على ركبتي المثنيتين، وقد أحاطت بهما ذراعي المشبكتين، أطالع عمامتي الراقدة إلى جواري، وقد لطختها بقع من دم متناثر، لا أذكر صاحبه، ولكنني أثق بأن مصدره هو أحد هؤلاء الفرنسيس دون شك.

هل أحلم مجددًا؟ لا يتسع الحلم لكل تلك التفاصيل، ولا يطول الزمن بالرؤيا لتشهد كل تلك الأحداث، أغلب الظن أنني أستفيق من حلم طويل غريب الأطوار، وأعود لحياتي، أحتضن الواقع بما فيه من مفرحات ومحزنات، وأحيا لحظات افتقدت مصداقيتها حين غاب عن ناظري كل ما هو حقيقي...!

أهذِّب لحيتي البيضاء بأطراف أصابعي، يتعاظم شرودي وتتتابع نوباته بغزارة لم أعهدها، فأتعلم أن النفس، حين تدرك اقتراب النهايات، تستدعي البدايات، وتتشبث بالذكريات، تمنيت لو كان لدي من الوقت، ما يفي بتدوين بعض من تجربتي هذه، ولكن الحراك المتواصل حول محبسي منذ أذان الفجر، يوحي بأن الأمر بات أقرب من البارحة، ولعله يكون اليوم. أنا لا أخشى الموت، ولا أهابه، لست مدينًا لأحد، ولا تتدلى من

رقبتي ديون معلقات لم أؤدها لأصحابها، ولا ذنب لأحد يثقل كاهلي، لن ترعبني ضمة قبر، ولن يهزني تخيل الإعدام رميًا بالرصاص.

إني خائف، وهلع، لا لشيء سوى لأمر وحيد في تفرده، ألا وهو النسيان، لا أريد أن ينساني قومي، لا أريدهم أن ينسوا قصتي، لا أريدهم أن ينسوا ما دفعني صوب هذه النهاية، فإن نسوني، تألمت، وإن تذكروا، فواصلوا نحت دروب الحريةِ عبر هضاب الأسى ونحيب الربى، أمنت في مرقدي، واستحال ثراي حريراً مخمليًا...

خفت هدير الذكريات فجأة، فساد صمت له صوت كحفيف الأفاعي، مزقت من عمامتي قطعة بحجم كفي، ثم وخزت إبهامي بطرف معدني، برز من أحد أضلاع الباب الحديدي، القابع على يميني، فاصلًا بين السجين والسجان، خَطَطْتُ بقطرات الدم، على ما مزقت من عمامتي، جملة واحدة، هي سكرات الموت المتدثرة برجاءات الرحمة، فقط لمن لا تدركها بصيرته، وهي وصيتي، لمن يعرفني من قومي:

- "لا تُيَبِّسُوا ثَراي"!

كان القوم قد زحفوا صوب المسجد، حيث دعوتهم قبلها بساعتين، للقاء مصيري، أسطول الفرنسيس صار في مرمى البصر، وحانت لحظات حاسمات، يتشكل من حروفها، مستقبل أطفال كانوا للتو يلهون بجوار عتباتهم، وتاريخ يدرسه أطفال يأتون بعد عقود من الآن.

امتلأ المسجد كما لم يمتلئ يومًا، حتى في صلوات العيد، رجال شاردون، ونساء خائفات يحملن أطفالًا يتملكهم الضجر، شيوخ وعجائز، الكل يحتفظ بحذائه تحت إبطه، والبعض حفاة بالسليقة، كان هذا ما رأيته من موضعي فوق المنبر...

- خلعتم أحذيتكم، وبينكم يهود ونصارى، وفي هذا ما يلزمنا من وحدة، نرجوها، ونتمسك بها في قادم الساعات...

قلت فهمهم المسلمون بامتنان، وأطرق المسيحيون صمتًا، وارتفعت أعناق اليهود زهواً، فسردت عليهم ما كان، منذ زيارة المندوب الإنجليزي، وتحذيراته، حتى ظهور بشائر أسطول الفرنسيس في الأفق، غمر جمعنا الصمت للحظات رأيت أننا في أمس الحاجة إليها، فصرخت:

- الساعة ساعة الحق، والحق لم يحل بالأرض بأمر الرحمن ليكون من نصيب الغزاة، وعلى الباغي تدور الدوائر، لا أمان لجائر، ولا مهادنة لمحتل، ولا استسلام لمن يحرقون الزروع ويسبون النساء، فلنحيَ كراما، أو نقتل تحت رايات عزتنا...

هاجت الحناجر إثر ما جرعته من تلاوات الحماس، وآيات المقاومة، نساء الإسكندرية، رفضن مقترحات تفضي بإبقائهن في أواخر الصفوف، تَقَرّرَ أن أقود الفرسان، والمرابطة في (قايتباي)، وتشكلت من العوام مجموعات استطلاع ومراقبة، ومجموعات أخرى تعمل عمل الحمام الزاجل في نقل الأخبار، واختير قوامها من بين الصبية الأسرع ركضًا، النساء والشيوخ أعدوا العدة في منازلهم لاصطياد الغزاة، الشيوخ والقساوسة اعتكفوا للصلاة، نسجت في غضون ساعات، ملحمة مصرية سكندرية خالصة، بنيانها التعاضد والتلاحم، ضُربت في ذلك اليوم أمثال يقف أمامها التاريخ للتدوين والإجلال، حتى أعلن الحمام الزاجل، أن أول قوارب الفرنسيس، الحاملة لطليعة أفواج المنزلين من الغزاة، ستنزل بشواطئنا في غضون دقائق.

ارتبك الفرسان المصطفون كالبنيان الصلد، فصاح بهم (رشيد)، بما فحواه، أن الله قد اختارني لموقعي هذا، دون باقي القادة وسائر البشر، وعليه، فإنهم إذ ينخرطون في طاعتهم لي، إنما يرضون الله ورسوله، فلم أشعر إلا وقد قاطعته هادرا:

- كفاكم زجّا لله في أفعال البشر، كفاكم متاجرة بالخالق ورسله، حسبنا أننا نحرر أوطاننا من خاطفيها، حسبنا أننا على حق، حسبنا أننا نؤمن بالله، ونثق في قضائه، اجعلوا ثقتكم بربكم قوة دفع، وانطلقوا من

ذلك إعصاراً يبيد الغزاة، لا يميز الله شيخكم عن أصغركم في شيء، ولا يرضي الله إرضاء لبشر وإن كان شيخكم، قدر ما يرضيه صالح أفعالكم. وكانت تلك إشارة الحرب...

- حان الوقت يا (شيخ محمد).

قالها جندي فرنسي ببرود يجمع ما بين القسوة والتشفي، معلنًا حلول الموعد، ودنو الأجل، أطلب منه أن أصلي ما يكون آخر تواصل للجسد مع الخالق، يصمت، يتلفت حوله، ثم يومئ برأسه موافقًا، ولا يغادر، قمت للصلاة، مرتلًا آيات ربي في خشوع وقناعة بالأقدار، أصلي صلاة جنازة، وأدعو لوطني، ولأهلي، بألا ينسوا ما كان، أضم قبضتي على وصيتي القصيرة، المخطوطة على قطعة العمامة، منذ بدء الصلاة حتى التسليم واقفًا، أنتهي من الصلاة، فأخاطب السجان:

- إني مستعد.

يبدو لي الموت كصديق لدود، ألقاه من بعد غياب طال، وأشعر أن لنا ذكريات كُثْر، جمعت بيننا من قبل، هو يعلم أنه لم يِّرهبني يومًا، وأنا أثق بأنه عادل في خياره، آمن في ارتحاله إلى حيث السكينة والسكون، من بعد ارتحالات قصيرات بين جنبات الدنيا، بحثًا عن الحقيقة.

هو الحق الساطع في سماء التمني، والشمس الغاربة في آفاق الإيمان، هو نداء، يعلن الوصول إلى المبتغى، واكتمال الرؤيا، وحلول الميعاد.

أنهكني البحث عن الحقيقة، بين أهوال الحروب، واستعذاب المقاومة، تناثر دم الرفاق من حولي، وبعد لحظات يتناثر دمي، وما الدماء إلا نخب الحرية المقدس، الذي نتجرعه بألم مخلوط بالفخار والزهو، ليصبح الموت على قوة غاية، ويمسي العيش برقاب متدليات، عاراً، تقرع أنخاب الحرية، كي تنتزعه من أحلك كوابيس الانكسار، غازلتني الحقيقة، من بعد مراوغات، حتى إذا ما لامستها، فلامستني، انقضى الغرض من التجربة، وأمسى لقائي بصديقي اللدود حتميّا.

كان ستة من الجنود قد اصطفوا عل ميسرتي، حين ساقني السجان على حمار تتقدمه طبول تعلن التباهي بالخسة، صوب ميدان الرميلة، بحيث أكون مواجهًا لكتيبة القتلة، رفضت أن يضع غمامته على عيني، كما رفضت أن يحكم وثاقي في الوتد اللصيق بظهري.

- أتراني هارب من بنادقهم؟ لن يراني قومي موثقًا، مغمّى العينين كالدواب، في آخر لحظاتي.

وقف الكاهن القاتل، القاضي "ديبوي"، ليتلو على العامة حكمه الهزلي، عَبْر ذات المترجم الذي أنسى اسمه، بصياغة تحذرهم من المقاومة، وتجعل من شخصي عبرة لمن يجرؤ على معارضة جيش "بونابرته"، نظرت له بذات السخرية المُحتقِرَة، التي اعتادها مني إبان جلسات المحاكمة، حاول أن يظهر التشفي، ولكنه فشل، إذ هاله أنني ما زلت الأقوى رغم ما يكبلني من أصفاد وأثقال، بينما هو، لا يزال هاويا، في أسحق آبار الضعف والشك.
التف الجنود من حولي إثر أمر من الكاهن "ديبوي"، قاومتهم كثيرًا وهم يهمون بوثاقي، حتى لمحت "رشيد" بين الجموع الغفيرة، التي جاءت لتطوف من حولي بالرميلة، مودعة لي، ألقيت له بوصيتي القماشية، أثناء التلويح بذراعي مخاطبا جموع الطوافين:

- كونوا مثالًا للتضحية والفداء، لا ترضخوا للمستعمر، وقاوموا طغيانه مهما كان العنف والعناء...

تعالت الحناجر الدامعة بالنحيب وضجت بالنداءات "مع السلامة يا شيخ محمد"، "كلنا كُرَيِّم"، "يسقط الاستعمار"، ودَّعتهم باحتضان صورتهم بعيني اللامعتين، وأدرت وجهي حين جاء الجنود الأمر بإطلاق النار...

- لقد فقدت ثلاثمائة رجل، في غضون ساعتين، كيف شحذت همم العامة، وخلقت من كل منهم محاربًا ضاريًا، ومقاتلا جسورًا؟ ما حكايتك يا (شيخ محمد)؟

قال (بونابرته)، بعد أن أمر بطانته بأن يحلوا وثاقي، ففعلوا، فلم يلبث أن ناولني بندقيتي، التي كانت بحوزتي، حين جاء قرارنا بالاستسلام حقنًا لدماء قومي. كنت أجفف الدم المنساب من وجنتي اليسرى بمنديل أمسى مضرجا بدمائي، وقد كان الجرح خلال معارك سبقت قبل الاستسلام بساعات، حين علمت أن بعضًا من قادته قد أصيب بجروح نافذة، وعلمت أيضًا أنه أمر بعودة المصابين من كبار الضباط إلى (فرنسا) حيث يتولى علاجهم، صديقه، وجراحه الخاص، البارون "جورج كوفييه". وكنا قد بذلنا ما في الوسع، حتى نفدت ذخائرنا، وزاد حنق الفرنسيس وذهولهم من قسوة تنكيلهم، بمن يقع بأسرهم، وعلمت أن القتل كان يسبق حتى التحقق من أسماء الأسرى، فكان قراري بالاستسلام منطقيًا، خصوصًا وأن رسائلي لـ(مراد بك) و(إبراهيم بك)، لن تؤتي ثمارها قبل أيام وربما أسابيع.

- أنا لا أخلق من البشر محاربين أشداء، فالخالق هو الله، أنا -فقط- أذكرهم بفضائل الحرية...

يتبسم الفرنسي الماكر، يومئ برأسه وتلمع عيناه، بما أوحى لي بأنه كمن لم تعهد أذناه استقبال كلمات كهذه، خاصة وإن جاءت من رجلٍ مستسلم، يفترض أن يحيط الانكسار والتذلل بمشهده، وقد سار محني الرأس. يعجبه ما قلت، فيردف:

- سأبقيك كما أنت يا (شيخ محمد)، حاكمًا للإسكندرية، وآمل أن تبدي من الولاء للإمبراطورية الفرنسية، ما أبديته من ولاء لحكومتك...

يقول فأنتفض، أود أن أصرخ أن لا ولاء لي لغير الوطن، ولكنني أتراجع، فأقرر التظاهر بالموافقة، حتى أعد العدة لدحر قواته من جديد... وهكذا، حاولت، فنجحت في دعم المقاومة في عدة مواقع، وفشلت، في مواضع أخرى، أشرفت على تدريبات الرجال، وموّلت المقاومة قدر ما استطعت، حتى سقطت في براثنهم، أبيّا شامخًا، حوكمت فتفاخرت بمقاومتي للاستعمار، ساوموني حتى أقايض حريتي بالمال، فأعيش بين القوم منكس

الرأس، فأبيت إلا الموت على ما قنعت به. علمت أنه قرر التخلص مني، منذ أن رفضت أن أدنس صدري بشارتهم، المتكونة من ثلاثة دوائر من الجوخ، رصت فوق بعضها بحيث تكون الأكبر بالأسفل،

فالأصغر ثم الأصغر، فيظهر جزء من كلِ دائرة، لتكون الدوائر الثلاث، بألوانها السوداء والبيضاء والحمراء، مصغراَ لعلم إمبراطوريتهم الجديدة..

- في رفضه لارتداء "الجوكار"[١٣٩] رفض لوجودنا، وفي الإبقاء عليه، قربان نقدمه لأهل الإسكندرية، ولكن، فقط حتى تهدأ الأمور...

دوت أصوات الرصاصات.

أغمضت عيني، فجاء ألمها أقل مما توقعت، وأبهت مما رسمت لي مخيلتي البشرية الملتاعة، شعرت وكأن شظية من نار قد اخترقت رقبتي، واثنتان قد استقرتا بصدري، الألم يتصاعد ثم ينسحب بغتة، عمي يطل من السماء باكيَا كرضيع يبحث عن أمه، الدوار يتملكني، تمسك (مليكة) بيدي، أسقط أرضًا، أو تهبط السماء في مواجهتي، رجل في زي المصريين يشبه (جابر عباس)، ينقض بخنجره على رقبتي، إثر إشارة من الكاهن الفرنسي، أشعر بخدر في موضع غرزه لخنجره، لا أشعر بألم خلاف الندبة الغائرة في وجنتي، تسقط عمامتي، فيمسك الرجل ذو الخنجر بشعري، ويرفع رأسي لأرى جسدي ممدداً على الأرض بغير رأس، يصرخ القوم الملتاعون، ترتفع رأسي، بعد أن ثبتها على نبوت خشبي، كان مثبتًا بخصره كما السيف، ينادي المنادي:

- هذ جزاء من يعادي الإمبراطورية الفرنسية، يا شعب مصر، هذا شيخكم (محمد كُريم)[١٢٠]، وقد نال جزاء خيانته لـ(بونابرته).

تختلط الدموع والنحيب، بأصوات الطبول، يكاد رأسي أن يسقط، فتمسك به (مليكة)، وتريحه ليتكئ على صدرها، تدمع عيناها:

- لا تخف يا (إبراهيم)، لن أتركك.
- هذا هو القاضي الذي طالما حلمت به أمام المقصلة، ماذا يجري!؟

أقول فتصمت، أو تقول ما لا أقوى على سماعه، أشعر بنعاس يتملكني، قبلها بثواني، رأيت فريقًا من القوم ينقض على جسدي فيحمله، وفريقًا آخر كان على وشك الانقضاض على حامل رأسي، تهمس:

- سامحني، فقد كان حتميّا أن تعيد كتابة الصحف!

تنتحب، ثم تربت بيدين بللتهما الدموع على وجنتي، تتبسم وقد كسا مقلتيها الدمع، فأبادلها التبسم الواهن...

تدور الأرض، لتستمر الحياة...

ويلتفت الأمس ليطالع ما كان من بعد رحيله... حاولت المواصلة، حتى هزمني سلطان النوم، فنمت، أو استيقظت.

الفاصل السادس

حكمة سائق!

- انقلب الهرم يا أستاذ (إبراهيم)!

قال السائق أشيب الفودين بعد تعارف قصير، حين كانت سيارته العجوز تشق الطريق الناعس، وقد أخذت في التسارع ابتهاجًا بقرب عناق الشمس، وبحر الأفق البعيد، وقتما كان الوطن ينطلق في سباق محموم نحو المجهول، مطاردًا بتبعيات اغتيال السادات الأسبوع الماضي، في ذروة احتفاله بنصر نُسب له دون غيره...

السائق يلوك لفافة التبغ، وكأنه يقبلها فيمتص منها رحيق الحياة، يتشبث بها حين توشك نيرانها على الاستسلام لعصف الريح المندفعة من النافذة نصف المغلقة على يساره، وما تكاد النار تخبو، حتى يعاجلها بإشعال لفافة أخرى، فيتبادل النار والرماد أدوارهما طيلة الوقت، ما بين الموت والبعث، تعبق رائحة التبغ الأجواء، فتسارع الريح بتشتيتها، قبل أن تزكم الأنوف، وتطبق على الصدور...

السائق فصيح بحق، يوحي مظهره العام بانتمائه بصورة أو بأخرى، للفتات المتبقي من الطبقة المتوسطة، التي سحقت إبان العقد المنقضي، تستتر صلعة رأسه بـ"بيريه" بني اللون، شبيه بما يستخدمه (صلاح زكي)، وباقي الرسامين في أغلب الأوقات، ويلتف شال رمادي رث حول نحره، فيدفئه، رغم تراكم رماد التبغ على أطرافه...

- أيام الانفتاح، انفرط العقد واختلط الحابل بالنابل، واليوم نخط بأيدينا فصلًا جديدًا من فصول التخبط بين ردهات الحاضر والأمس، لم يعد في العقول فسحة تكفي للاهتمام بالغد!

يقول السائق ما يدفعني للتبسم، والإثناء على بلاغته، يقاطع كلماته ذات النبرة الهادئة، بضع قبلات تجمعه بطرف لفافة التبغ، ليداعب دخانها أحباله الصوتية، فيأتي صوته رخيماً كما الراوي العليم، يلفني انبهار بالرجل الستيني، حتى أنني حين وصلت غايتي في العجمي، وتوقف هو حيث أردت بمواجهة الشاليه، بقيت أستمع إليه، متشبثا بأطراف محاورتنا قرابة ساعة من الزمن، رغم ضيق الوقت المتاح، وقد عرجت بالوطن في رحلة سفري من بغداد قاصدًا الدار البيضاء، بغية استرجاع ما تركت خلفي من متعلقات وأوراق، منذ عدة سنوات، إثر رحيلي المفاجئ دون ترتيب، أو وداع لأحد، سوى أبنائي.

علمت أنه كان موظفًا في واحدة من شركات البترول ذات يوم، ثم جاء صباح، أبلغ فيه بفصله من العمل، دون إيضاح يفسر، أو تحقيق يقضي باستحقاقه الفصل! لم يحزنه استرجاع تلك الذكرى، بقدر ما أحزنه مروره بذكرى أخويه...

قال لي عم (يونس)، أنه فقد أخويه في ظروف مأساوية بحق، وقد قتل أحدهما في ألمانيا، في الستينات، إثر معاداته للأنشطة اليهودية، ودفاعه عن حق العودة للفلسطينيين، فعاد في تابوت مهمل، وطُمست ذكراه ، فلم يعد يذكره أحد في وطنه، وحكى لي أيضًا عن أخيه الأكبر، ما يحزن ويروع، فقال أنه قد زج به في السجن، إثر مشادة مع واحد من المخبرين ذات مساء، فقيدت حريته لما يزيد عن الخمسة أشهر، اعتمل فيها في نفسه ما اعتمل، حتى لفظه الجب، فأخرج من محبسه عليل القلب، مطعون الكرامة، منزوع الإرادة، بيد أن جسده، فيما تلا خروجه، قد تحوصل وانعزل عن الكون، حتى آثر الموت، عن العيش ذليلًا، تحت شمس غادت تلفح بحرارتها من تشاء، وسماء تظلل بسحبها من تشاء.

كان الوقت المتبقي على انطلاق قطار (القاهرة)، لا يتجاوز الساعات الثلاثة، وكانت طائرة (المغرب)، تقلع مساء الليلة ذاتها، غير أنني تناسيت

كل ذلك، وانخرطت في التشبع بما تبثه في وجداني تلك الحالة الفريدة، الشديدة المصرية.

تحدثنا عن الحب ومعشوقات الصبا، فشرد قائلا:

- ولى زمان يبث فيه العاشق نجواه، ويبوح بشكواه دون تحذر أو خوف...

سألته عن استسلامه للخوف، وتحصنه بالاختفاء عن الأنظار بين مسام الزمن، سائلًا إياه -أي الزمن- فقط مواصلة الركض، فلمعت عيناه حين أجاب:

- عندما يهرم المرء، تتباين الأولويات في احتياجاته، وتختلف رؤيته للأمور، فتميز عيناه ألوانًا دون الأخرى، ليغدو الأمان ذروة المبتغى، سابقًا في أهميته كل ما اعتبره يومًا من الضروريات الأساسية، كالحرية والكرامة والعدل والمساواة... يهرم المرء، فيصبح على استعداد لبذل جل طاقاته، وما يفوق وسعه، للحصول على الأمان، فقط الأمان، وإن اضطر، ارتضى مقايضته بكل ما سبق!

طالعت الضوء المنبثق من مصباحي سيارته، ليشق نسيج الظلام القابع على الشاطئ اللصيق بالشاليه، فبدا لي كضوء الفنار إذ يسطع ليبدد خوف راكبي البحر، وسرعان ما اقترن ذلك بقناعتي بأن كلم العجوز، يحمل ما يضيء العقل كما يبث ضياء الفنار ما يزيح العتمة، ويفسح طرق البحر أمام السفن العابرات...

تبطاءت عقارب الساعة حين وقفت متأملًا كلماته، حتى لاحظ هو اختلاسي النظر إليها بين الحين والآخر:

- لقد تأخرت يا بني، حري بك مواصلة الركض، بحثًا عن كل مأمول، قبل أن يجبرك الزمن على مقايضة المأمولات بالموجودات، فتنحني أمامه صاغرًا متضرعًا، راجيًا إياه أن يقبل المقايضة.

نقدته أكثر مما طلب فشكرني بامتنان، وأعاد لي ما زاد عن طلبه، وقفت مشدوهًا مبللًا بالخجل، مكبلًا بالحيرة:

- شكرا يا عم (يونس)، أتمنى أن ألقاك مجددًا حين أعود لمصر، فكيف لي أن أجدك؟

أحاطني بنظرة رءوم، صادقة في امتنانها، داعب لحيته النابتة، وأزاح الـ"بيريه" عن رأسه اللامعة، ثم أشعل لفافة تبغ أخرى، قبل أن يهز رأسه رافضًا:

- نلتقي إن قدر لنا اللقاء، دع الأمر للخالق!

شكرته مجددا بنبرات هامسة، فقال وقد بدأ الحراك:

- بالمناسبة، منذ سبعة وعشرين عامًا، كان والدي هو رئيس الجمهورية، ولكنه الآن مأسور قانع بالأسر، وقد أُجبِر على مقايضة الحرية بالأمان، له، ولنا!

فرش الليل أستاره القاتمة على المشهد، وتحركت سيارة عم (يونس) دون أن يصدر عنها صوت، حاملة عم (يونس)، وذكريات عم (يونس)، وأوجاعه، وميراث الحكمة المطمورِ عن الأعين، بين تلك الجدرانِ الصفيحية، كنت أودع السائق متذكرًا يوم وداعي مصر، حين تسللت عابرًا مخاوفي، ومراوغًا ما عزمت عليه لأقبل (حواء)، وأودع (آدم) بكلمات مختصرة، لا أعلم إلى اليوم ما أستوعبه منها، أخذت أتابع سيارة عم (يونس)، وقد سكن الكون، وكأنه خلا من الكائنات، وبقيت أنا ذاهلًا أمام باب الشاليه، أتفحص الأرض الحالكة تحت قدمي، محاولًا لملمة ما بعثرته كلمات العجوز للتو، مستعينا بضياء الفنار البعيد...

الصحيفة السابعة

لا تعمر الأوطان إلا إن رأت.... مجموع من في أرضها إنسانا

ع. ن.

حلوى السلطان

الآستانة ١٨٩٦

تفصدت حبات العرق فوق جبيني المنهك...

خارت قوى الحلم، وتنازعت في العقل أفكار شتى، حين كنت أغادر الحلم الفائت...

أو أخطِ أولى أسطر حلم وليد...

حارت في مخيلتي المتشابهات، حتى أمسى ما أَلِفت لقياه، غريبًا مقبضًا...

ما عاد شيء يباغتني...

الكون يتشكل من حولي مجددًا...

فينشأ في دائرة أقبع أنا في مركزها، وتدور من حولي أطوار الخلق الأول...

تظلل السماء الأفق الشفيف، متجسدة بلون رقيق في زرقته...

تجري الأنهار متدفقة من عنانها، صوب الأرض المتكونة، من توحد الصخور المتشظية...

يخترق نسيج الأرض قمم رواسيها ذات الأطراف المدببة...

تتكون وديان... وتنشق عن طاعة الأرض جزر

فتتفصل صانعة عوالمها، منفردة عن سائر اليبس...

تتسارع النباتات مارقة من مسام الأرض إلى الأعالي، ناسجة مروجًا وغابات... يبزغ قمران في صدر السماء...

يكتمل المشهد، فينحي الخالق فرشاته جانبًا، ويوحي للطير أن ينطلق فرحًا، لينشر البهجة بين المخلوقات المأخوذة برهبة لحظات الخلق...

تتلون السماء باللون البنفسجي الساحر...
وتنشأ النجوم من عدم لتنير السماء احتفالًا...
يمتد من فوق قمر السماء الأصغر ممر مخملي يستقر تحت قدمي...
أخطو فوقه بثقة العالم بما يقودني إليه...
وأمر فوق صخب المخلوقات المنتشية، وقد انطَلَقَت في أديم الوادي الظليل... أسمو حتى أن أكاد ألامس السماء في مروري إلى المجهول...
فما أكاد أفعل، حتى يغشي بصري ضوء ساطع أمسى مألوفًا...
ليسود السكون...وتصمت الاحتفالات...
ليبدأ كل شيء، أو ينتهي... فأستفيق...
استعادت السماء زرقتها، وفقدت بريقها، وقد ضاقت على اتساعها بحمل الأدعية المعلقة، ملايين البشر توجهوا إليها، وحملوها برجاءات وتمنيات، صيغت في سياق الأدعية، وكلَّفوها بإيصال الأمانة إلى الخالق، فتسرب منها ما تسرب، وعلق بها أغلب الدعاء المتصاعد من الأفئدة، عبر السنين المتراكمة، ما بين هموم الحرب، وسنوات الجوع، وفساد الحاكم، وأزمنة الوباء، وغيرها من مسببات الألم ومستدعيات الخوف، فهل استحق الداعين ألا تتحقق أدعيتهم؟ أم شاب الاستجابة تباطؤ لا يعلم حكمته سوى الله؟
ينسحب الليل جاراً رداءه المقبض من خلفه وقد حل الصباح، الفراغ يحيط بظلال المنازل بمودة عاشق، وتأهب حامٍ، فيبدو كبساط فسيح يحيط بكتل من سواد مطبق، يتسلل من نوافذها المغلقة بصيص من نور، مشبك ببعض من آمال القابعين خلف الجدران، وبعض من أدعيتهم الراجية المتوسلة:

- يا رب...

وللصباح أنفاس رخية، رقيقة، تهب بحنو فتحيط يقظة القوم المتأنية بنسمات باردات منعشات، يزفر صدر السماء عدة مرات، ترتعش نسماتها، حتى تسري اليقظة كما الوباء بين الأجساد الراقدة، خلف جدران

محابسها الاختيارية، تتراجع ظلال الحلم واهنة، كاشفة الستار عن يوم جديد، تتراقص فيه آمال، وتترنح فيه ذكريات، وتتصاعد فيه المزيد من الدعوات:

- يا رب...

قالها (عرابي) عدة مرات، بالتزامن مع تصاعد وتيرة الخيانة، وهروب رجالاته ممن ظن بهم الوفاء، وقلتُها مرارًا بما لا تتسع الأرقام لذكر عددها، حين مضيت كاشفًا، متخفيًا، بين الكفور والنجوع، طيلة عشرة أعوام، كانت هي الأكثر تأثيرًا في شخصي، والأغزر علمًا، والأكثر إثراء وصقلًا لما جادت به الدنيا عليّ من علم ومعارف.

خطف التأمل جل ساعات صباحي، حتى عانقت سماء الظهيرة قرص الشمس الحارق، دفست يدي في ممر من نور خلق في منتصف غرفتي، وقد انبعث من فرجة صغيرة في نافذة الغرفة، كشريان من ضياء يبرز في جسد الظلام، فقددت يداي حرارة الطقس المفاجئ لمنتصف الخريف، ثبت يدي في موضعهما، أو ثبتا هما دونما رغبة مني، وقد وجدتا في لفحة الشمس، استدعاءً لأيام مشابهة، طُفْت فيها تحت السماء، متدثرًا بحرارة الشمس، مستظلًا بالفراغ، متنقلًا بين مزارات الشيوخ وموالد الغجر، هاربًا من ضوضاء الحياة الزاهية وغوغائيتها، عابرا من مسامها، لأجوب بين الوجوه الصادقة، متشبعًا بأصدق الأدعية، تمسني الحقيقة كما يمس الجن بني البشر فأتبعها، فما أكاد أوشك على الابتعاد عنها، إلا ورنت نحوي، أو أجبرتني قوة خفية، على الزحف صوبها.

هل أحلم مجددًا؟ لا يتسع الحلم لكل تلك التفاصيل، ولا يطول الزمن بالرؤيا لتشهد كل تلك الأحداث، أغلب الظن أنني أستفيق من حلم طويل غريب الأطوار، وأعود لحياتي، أحتضن الواقع بما فيه من مفرحات ومحزنات، وأحيا لحظات افتقدت مصداقيتها حين غاب عن ناظري كل ما هو حقيقي!

- يا رب...

دائمًا ما يأتيني (كمال أغا) من ذلك الطريق، حيث تحف الشجرات الباسقات بخطواته، بدءًا من الأفق الظليل الكائن في كنف قصر السلطان، وحتى يمين الدار، حيث تختال حديقة غناء، بما تحويه من نخيل شامخ وشجيرات وارفة، وتبثُ في نفسي نقيض ما تفشيه ميسرة الدار الموحشة، وقد كانت وكأنها جُعلت خصيصًا، لتشتت أنظار القادمين من البلدة الفقيرة أسفل التل، عن داري...

الشجر المنتحي في عليائه، ليوشك على ملامسة الشجر المنتصب على الجانب الآخر للطريق، يذكرني بطريقي اليومي صوب مكتب التلغراف في (بنها)، حيث إبداعية المشهد، ورتابة الحياة في أقبح صورها، كانت أذني قد اعتادت ترجمة الأصوات الصادرة عن جهاز التلغراف، حتى أمست أصوات البشر تتصادى مبهمة إذا ما بلغت مسامعي، وحين نقلت للعمل بذات الوظيفة في قصر الأميرة (خوشيار)، ازدادت حواسي شرودًا، فثقل سمعي، وزاغ بصري لمرأى الذهب، وقد تزينت به الأعناق، وتدلى من السيقان ملامسًا للنعال، فسكنتني غربة، ولفني التوق لما فات، وتملكت مني صبوة لوصال أيام خلت، دأبت فيها على التجوال رفقة "الأدباتية"، فكانت الكلمات حياة، ترياقًا ومذاقًا، لهو وترفيه، ورسالة تجوب هائمة بين العشاق، وكانت اللغة سر حياة الأمة، يترجم اللسان بها خواطر القلب، ويجلو بنات الأفكار، ويؤلف القلوب... أنعم الله عليّ، فأخطأت أذني المنشغلة باستدعاء أصوات البشر، وملامسة مفردات اللغة المسموعة، ترجمة واحدة من التلغرافات الواردة، فكانت مكافأة الدنيا لي، بطردي من وظيفة لم أستسغها يوما.

يرتجّ جسدي، إثر نوبة سعال أخرى أمست معتادة في الأسابيع الأخيرة، بقدر الألم الناشئ عنها، جاء ارتياحي بكلمات الطبيب، حين قطع بأن ما أصابني فاعتلَّ به جسدي، لم يكن السل كما ظن سلفه، هدأت روعتي، وألفت السعال، فلم يعد يسبب ذات الألم السابق، أو هذا ما ظننته حين بزغت عربة (كمال أغا) في الأفق البعيد، مقبلة نحوي، تجرها جياد هجينة

ما بين العرب والفرس، أو أن هذا ما قيل له حين قُدِّم هذان الجوادان، رفقة أربعة جياد أخرى كهدية لسلطان العثمانيين، من أمراء أحد الممالك الخاضعة لسطوته، فكان أن أضحكتني مفارقتين في الأمر، أولاهما هو نجاح الجياد في الوصول إلى تهادن فشل في بلوغه البشر، وثانيتهما تشابه يجمعني بهما وقد غادر كلانا موطنه قسرا، وإن جاءا هما كهدية قَيِمة، وجئت أنا، طريدًا بلا قيمة...

أين اختفى (فاهان)؟

أنهض من مجلسي فوق الأريكة، المجاورة للنافذة المفضية إلى الحديقة، فيدور رأسي المتخم بالأحداث، أستعين بحافة المنضدة المجاورة للنافذة متكئًا عليها، وأعود لمجلسي الأول، لتستعيدني سخريتي، فأتمتم:

- حرم الله عليّ معاقرة الخمر، فامتثلت لأمره، بيد أن العقل بقي ثملًا بتناول الحقائق، مستعذبًا استدعاء ما تعتق بالذهن من الأزمنة العابرة، مترنحًا بين الكشوف، فهل في ترنحي هذا ما يغضب الإله، ويقطف ثمر المعصية!؟

يقترب (كمال أغا)، حتى يكاد أن يقاطع استحضار مشهد آخر من الماضي القريب، أغمض عيني متشبثًا بما كان، وأظل في (الآستانة)، تقطر خطواتي حزنًا في تجوالها بقصر السلطان، جيئة وذهابًا، ويشخص بصري حيث غادر السلطان بهوه يومئذ، بعد أن أهال علي اتهامات لا أدرك مصادرها، ولا أعي تفاسيرها، أخذتني الدهشة فلم أحرك ساكنًا لأبرئ ساحتي، وأنا النابه الفصيح صاحب البلاغة التي يتحاكى بها القوم، أخذت عيناي تجوب أرجاء البهو الفسيح، حتى توقفتا أمام (كمال أغا)، الذي ظل ساكنًا محايدًا طيلة جلسة التقريع، التي خضعت لها على حين غرة، آلمني أن لم يهب ليدافع عني، فيدفع ظنون السلطان بالحجة، ويقارعه بالبرهان والدليل، فكان أن طلبت منه إبان مغادرتي، أن يُعلم السلطان باعتذاري عن مواصلة ما عهد لي به، من التفتيش على المطبوعات العثمانية كافة،

فاستحسن الرجل قراري، وعدت إلى مسكني هذا تلاحقني الظنون، ويطاردني طيف مستشار السلطان (الصيادي أبا الهدى)، شامتًا متشفيًا...

- يا رب.

خاصم النوم أجفاني، فعكفت على كتابة خطاب للسلطان الجائر، فيه رد للاعتبار ودرء للظنون، ولا يشوبه استعطاف أو اعتذار عما لم يبدر مني... وحملت لي الأقدار في تلك الليلة الليلاء، أن يجمعني آخر لقاء بخليلة الروح، وصاحبة الدرب، (مليكة)!

"ولعلك يا مولاي السلطان (عبد الحميد)، مُلمّ بما أتى بي من المحروسة إلى الآستانة، طريدًا غير منكسر، وشريدًا يضم في ضلوعه الأوطان، وقد كان نفيي ممهورًا بارتضاء خديوي مصر، الذي لا يجرؤ أن يقرر منفردًا مذعنًا لإملاءات "كرومر"، بمعزل عن الاستظلال برأيكم المنير...

وحقيقة، فقد غمرتموني برعايتكم منذ أن وطأت قدماي الآستانة، وفاق كرمكم مجتمع التمني، وقد عهدتم لي بوظيفة كريمة، وأنعمتم عليّ بمسكن تخلب رؤياه الألباب، وتهجع بين جدرانه النفوس...

بيد أن رعايتكم الكريمة يا سيدي، لن تثنيني عن إشهار كلمة الحق، ودرء الظنون، وتحصين كرامتي مما اتهمتموني به، مرتكزين على دسائس أناس، أقل ما يقال عنهم إذا ذكروا، أنهم غير جديرين بثقتكم...

أما بعد...".

- هذا كَلِمٌ من خير المنتقى يا (عبد الله)، ما زلت تنتضي قلمك سيفًا في وجه الطغاة، فتنهمر كلماتك هادرة بفصاحة لا تبارى.

قالت (مليكة) بدلال، فشردت عن المكتوب وتجولت ممتنًا في ثنايا وجهها الملائكي:

- ما أشبه الليلة بالبارحة.

أردفت وقد احتوتني بنظرة من عينيها، أطالت من تفحصها لوجهي، فعدت لأمرق عبر بوابات الزمان...

جالت في خاطري هيئتها في مختلف الصور، وطافت الأمكنة من خلفها متباينة متغايرة، فما ظل راسخًا في مشهدي، سوى وجه صبوح صاغه الخالق من ذرات النور، وجسد يتمايل ما بين عري واستتار، وزمان يراوغ المكان، ومكان يحجب دلائل الزمن...

يبقى الأمس مراودًا لليوم، والليل يكشف ستر السماء مد البصر وقتما شاء، والقمر حارس أمين على ما يطمره الظلام، يفوق في نوره شمس الصباح في ذروة بهائها، فقط، حين يحين موعد اللقاء بـ(مليكة)، فتقبل قادمة من أقدم كتب الحكايات، هاربة من أسطورة لم تروَ بعد...

- أكمل...

همست صادقة، فأطعت، وأفضت في رد المظالم، حتى قاطعتني طرقات مهذبة، صادرة من باب الغرفة الصغيرة المغلقة بجوار المستراح، متبوعة بكلمات تقطر حياء:

- هل غادر ضيفك يا سيدي؟

تمتم (فاهان) يومئذ بلطف وتأدب، فجاءت نبراته خفيضة كدت ألا أميز كلماتها، وكان من عاداتي، أن أحرص على ألا يقاطع شيء لقائي بـ(مليكة) حين تتجسد في خلوتي، فاستأذنت خادمي الشاب أن يظل حبيس غرفته، حتى ينتهي لقاء أخبرته كذبًا أنه بالسيد (جمال الدين الأفغاني)[١٢٢]، أنيس المنفى، وربيبِ الثورات، والعالم الوحيد بسره سواي، وحين جاء استعلامه الرهيف حاجبًا لضجره، أجبته معتذرًا أن الضيف لم يغادر بعد، فعاود الاستتار بالصمت...

- خادمك هذا رقيق للغاية.

قالت (مليكة)، أومأت برأسي موافقًا، فأردفت مسترسلة:

- حريّ بك أن تحتاط كي لا يفتضح أمره.
- باستثناء السيد (الأفغاني)، يعتقد الجميع أنه أبكم لا يسمع ولا يتكلم.
- وهل هو ماهر في تصنع ذلك؟

- دربته فأتقن وأجاد، أنسيتِ أنني من الضالعين بأمور المسرح وفن التشخيص؟

ضحكت فأشاع سحرها في الأرجاء عبقًا، وتعطرت النسائم المتسربة من فواصل النافذة الخشبية، بأنفاسها...

لماذا لا يسمع (فاهان) صوت (مليكة)؟ فيستفسر عنه؟

طرق (كمال أغا) الباب ثلاثًا، فبرز (فاهان) من العدم، ليردني إلى لحظات الواقع، فتح الباب مكتفيًا بمد يديه مفرودة إلى جواره، مشيرًا صوب مجلسي الأثير كترحيب بالضيف الكريم:

- طال الشوق للقاء يا سيد (عبد الله)!

قال (كمال أغا) بمرح مصطنع، وعبر الباب في خطوات سريعة، وقد حمل لفافة ورقية تفوح منها رائحة طيبة.

- فيم أرسلك مستشار السوء؟ أم أن سلطان البحار هو من أوفدك هذه المرة؟

نظر الرجل حوله مرتابًا، ثم تبسّم لسخريتي، حين اطمأن لعدم وجود أحد، بخلاف الفتى الأبكم (فاهان):

- لا يسلم المرء من لسانك يا سيدنا.
- من يأمر بإيقاف السفن وقد مخرت في عباب البحر، ليعيد من على متنها رجل مثلي، هو حتمًا سلطان البحار، وملك المحيطات!

كانت ذكرى العام الفائت تمزقني، وكانت الإحباطات عاتية في زلزلتها لكياني، حين كان أن استجبت لطلب خديو مصر (عباس حلمي)[٣٨]، بالعودة إلى الوطن وهجران المنفى، إبان لقائي به على هامش زيارته للسلطان العثماني في ذات العام، جاءت كلمات الخديو يومئذ لتزيح عن كاهلي أثقل الهواجس، وأخبث المنغصات، وتبث في أوصالي شيئًا من أمل غاب يوم أن خمدت انتفاضة (عرابي)، وقد كان الخوف من الموت بعيدًا عن الوطن، يؤرق مهجعي.

- يا رب...

تشبثت بأواصر الدعاء، حتى دبرت أموري، ودسست كتبي وملبسي في صندوقين خشبيين، وركبت البحر قاصدًا وصال الوطن البعيد، وكدت أعانق المأمول حين أوقفت السفينة نيران المدافع، فلحق بها جند السلطان، وأسرعوا بخطى صامتة صوبي!

جفلت لمرآهم، وقد هموا باستعادتي من شرنقة الحلم، فنزعوا عني حريرها الشفيف، دونما إيضاح قد يهدئ من تساؤلاتي الملتاعة، قُفِزَ بي من السفين إلى قارب صغير رفقة الصندوقين، أخذ مجدافا القارب يختَرقان الموج بعناد المُصِرّين، فكانا وكأنهما يمزقان ما بقي عالقًا بشغاف القلب من أمل، تقطعتَ خيوط الحرير التي كانت للتو تثبتني بسفينة الحرية، فكان لصوت ولوج المجداف بالماء، ألم بالقلب، وغصة بالحلق، اختلط الدمع برائحة اليود، فكان أن أرْسلت لمرافقة ذات الهاجس من جديد.

- ما أملت في لحظة الممات سوى مغفرة من الله، والتحاف بتراب الوطن! وقد كدت أن ألامس ذاك التمني لولا وشاية أبو الضلال، وعنجهية سلطان البحر!

لم أعِ إن كان الأغا يتفهم ما أقوله عن التعلق بتراب الوطن، والتوق للدفن في أراضيه، أم أنه كان يهز رأسه، تعاطفًا مع ما يترسب في عقله من اعتقاد بجنوني! كنت أعلم بزيارته منذ أن أرسل لي رسوله رفقة أول شعاع للشمس، معلمًا بموعد قدومه، فأخذت أفند الاحتمالات الآتية بصحبته، ما بين استدعاء من السلطان، وقد راجع أموره فاتضح له ما أوقعه عليّ من بغي، أم أنه استدعاء من السلطان، وقد وجد في كتابي له، ما يتماس مع محرمات الخطاب، فيتعارض مع شرائع محادثة السلاطين، أم أن الأغا قادم لينزل بي من العقاب، ما يظنه السلطان مستحقًا! راودني شيء من قلق، وقد كان في بعض الاحتمالات ما يخيف، غير أن من قضى أعوامًا مستظلًا بالهرب من ظلم الطغاة، مستعينًا بالبشر في مجابهة القدر، لم يكن ليخشى غضبة سلطان، ووعيد ملك، ومكائد واش جبان كأبي الضلال الصيادي...

- لم تجب سؤالي بعد!

قلت مستدركًا بهدوء، وقد أعادت لي الأفكار المتصارعة، شيئًا من مرح أيامٍ خلت، وأوقات محببة إلى نفسي، قضيتها في ظل توترات مشابهة، هاربًا من عدو أشد غلظة من سلطان الأغا.

فطنت لأنني مشتاق لأيام التنكر والتخفي، فضحكت!

- لا ريب أن ما يضحكك يا سيد (عبد الله)، هو أمر ساخر آخر مما تجود به قريحتك!

أومأت برأسي موافقًا، ثم أعدت سؤالي بمختلف الصيغ:

- لا شك أن زيارتك لي، لهيِ أمر من دواعي السرور يا (كمال أغا)، بيد أن فضولي لا يزال يلح عليّ، بغية إدراك المبتغى من الزيارة، وما أراد السلطان بإيفادك! فلعل بالإمكان إنزال الحبور، بقلب سلطان البحر الجسور!

يراوغ من جديد، ويزدادِ اقترابًا:

- هل لك أن تتلو عليّ، ما سبق وأن نظمت من بيتي شعرٍ، في هجاء السيد (أبو الهدى الصيادي)؟

همس باسمًا إثر التفاتة أخرى، للتأكد من أن الجدران، قد صمت آذانها عن حديثنا، ضحكت مقهقهًا، وقد لفت سلوكه انتباهي، واستدعى سخريتي:

- هذا الذي قد كان قبل دخوله   دار السعادة مقرفًا شحاذا
  والـيــوم صـورتـه تبيـن أنـه   أضحى بأقبح حيلةِ أستاذا!

ضحك الأغا، فتمايل جسده النحيل ذات اليمين وذات اليسار، فغدا أشبه بشراع مركب صيد، تتلاعب به أمواج مزاجية الهوى، حتى استقر متكئًا على كوعه الأيمن، مائلًا بجسده نحوي:

- جئتك بإيعاز من (السلطان عبد الحميد)[١٢١]، محملًا بما يطيب لك من الحلوى العثمانية!

حين أوشكت على الانتهاء من خطابي للسلطان الجائر منذ وقت ليس ببعيد، كانت (مليكة) تتهادى أمامي جيئة وذهاباً، شاردة، وكأنها تفكر بأمر من جسام الأمور، عكفت نسائم الهواء على التمهيد لاقتحام الفرجة بين مصراعي النافذة، حتى نجحت فاستحالت النسائم ريحًا، فُتح أحد المصراعين على اتساعه، فانطلق عجيج الريح، يتلاعب بأطراف شعرها الرمادي، وظل إكليل الزهر مثبتًا فوق قمة رأسها، لا يهتز ولا يهادن، تراقص ثوبها الحريري الأبيض، مبرزًا الكثير من منحنياتها، مرت كاعبة من أمامي، وقد عج نهداها، حتى أوشكا على الفرار من محبسهما الأثير، استغفرت الله ثلاثًا، وقد ربتت عيناي على قسم غير يسير من جسدها الخلاب، واستفاضتا في تفحص ذاك الحسن آسر الألباب.

- أكمل.

قالت، فعدت لغضبتي تجاه السلطان سريعًا...

- فيم كان شرودك؟

سألت فاختطفت من الزمان برهة أو برهتين، قبل أن تجيب:

- ما زالت حكاية (فاهان) تؤلمني!

تساءلت في حينها سرّا، وأنا أتلفت حولي كما يفعل (كمال أغا) طيلة الوقت:

- إن كان (فاهان) لا يسمع (مليكة) لما أظنه في أمرها، فلم لا يسمعني وأنا أتحاور معها!؟

"إننا سنقف بين يدي عادل قاهر، يقضي بيننا بالحق، وهو خير الحاكمين".

قلت، فأومأت مستحسنة ختامي لكتابي، ثم ما لبثت أن قبلت وجنتي مودعة، على وعد بلقاء لم يحن إلى اليوم...

أغلب الظن أن لفافة الأغا، تحمل في طياتها ما يحيرني!

- أمن بعد شكه العظيم، وظنه بأنني انتقدت ما يأمر بطبعه، وادعيت بتحريف التاريخ فيما تطبعه المطابع، وكل ما شابه ذلك من أكاذيب

بثها، وما زال يبثها مستشاره (الصيادي) الخبيث، هل يعيد لي السلطان اعتباري، بأن يرسل لي لفافة من الحلوى!؟

صمت الأغا، ونعق البوم حين فتح اللفافة، ليناولني قطعة من الحلوى المغطاة بالفستق الأخضر، أشار لي (فاهان) من حيث لا يبصره غيري أن أتمهل...

- أرسلت لأمي وأخي، إبان مرضي الأخير طالبَا منهما المجيء، وقد استشعرت في حينها دنو الأجل.

حط غراب على واحد من مصراعي النافذة، حين قلت مخاطبَا جالب الحلوى، فأجاب وقد غابت ابتسامته للمرة الأولى:

- نعلم ذلك...
- أما وقد قر في يقيني خطأ ظني، وأقر الطبيب بشفائي، فإنني أود أن أرسل لهما، ما يطمئنهما، ويجنبهما مشقة السفر، لذا وجب الاستئذان من القصر كما هي العادة، فكما تعلم، فإنني ممنوع من الكتابة! إلا مستأذنًا، مُستأنسا!...

عاود التبسم إثر التفاتة أخرى نحو الفراغ المطبق بمجلسنا، اختفى (فاهان)، ومددت يدي متناولًا حلوى الفستق من الأغا.

- يا رب...

قلت ما اختتمت به زفيرَا حارًا، حمل ما كتم في صدري منذ زمان طويل، لفح الزفير وجهه فأجاب بحروف متوترة:

- لا مانع يا سيد (عبد الله)، فقط أعطني الخطاب، ولسوف أراجعه، ثم أرسله لهما كما جرت بنا العادة.

ناولته الخطاب في مظروفه المغلق، ثم قضمت نصف قطعة الحلوى، فكانت حلوة المذاق حقًّا. عاود البوم نعيقه بنسق متصاعد، طار الغراب، فعاد (فاهان) ممتقع الوجه، وقف بجواري مستأذنًا في تناول قطعة من حلوى السلطان، فناولته ما ابتلعه دفعة واحدة، ثم غاب عن ناظري.

- كان خطابك للسلطان قاسيَا يا سيد (عبد الله)، فما كان لك أن تترك عملك، وتخسر راتبه الضخم، وما كان لك أن تخاطب السلطان بمثل ما قلت...
- ما كان خطابي له سوى ذروة التهذيب، وما حملت كلماته، سوى أقصى ما لدي من طاقات ضبط النفس.
- هو سامحك على أية حال.
- من قضى عشر سنوات، لا شاغل له سوى قدحِ زناد الأمل في نفوس البسطاء، ليس بمقدوره أن يستعطف حاكمًا، ليسامحه على ما لم يقترف! وإن كانت المداهنة من طباعي، لكانت قد أعانتني في مجابهة من طردوني من مصر مرتين، أولاهما إلى يافا، وثانيتهما لحيث نجلس اليوم، طوردت عبر ردهات الزمان والمكان، فتطايرت كما الزئبق، وتسربت من بين أيدي الطغاة، امتصتني مسام الوطن، وذبت في ثنايا طرقاته، كما يذوب النهار على مذبح الشفق، فهل يحق لي الخوف؟ وهل يستقيم أن أبتلعِ المهانة، دونما استدراك قد يدفع المظالم!؟

كان بعض مما قلته، مقتبسا من كلم السيد (جمال الدين الأفغاني)، وبعضًا آخر مما شرفت بتلقيه مباشرة، عن السيد (أديب إسحاق)[١٢٣]، أخذتني العزة بما قلت، فاشرأب عنقي من فرط الفخار، وقد وجدت في محاورتي لـ(كمال أغا)، استعادة لمجابهات الماضي وما أكثرها، غادر رسول السلطان، تاركًا لفافة الحلوى، رفقة وعد سلطاني بقرب فك الأسر، ودنو موعد الرحيل إلى الوطن، ليعتريني شعور بنصرٍ طال الشوق للقياه، جذلت، وأغمضت عيني مبحرًا فيما كان، مرتكزًا على نشوة اللحظة، قاصدًا معانقة كل مُفتقد...

مرت الأحداث مرتبة من الأقدم إلى الأحدث، فاحتضنني أبي بزهو وقد اجتمع برجالات القرية، معلنًا إتمامي حفظ القرآن الكريم، وأنا ابن التاسعة، استطال جسدي سريعًا، فاجتذبني سُمّار الليالي من شيوخ الأدب والزجل، لفح رذاذ الموج المتطاير وجهي وأنا مار بمحاذاة شاطئ

الإسكندرية، دُرت مع الأدباتية بين القرى، في محاورات زجلية، ومبارزات شعرية، ارتحلَ عقلي بعيدًا عما أراد بي الوالِد من مستقبل أزهري يباهي به، فَحدْت عما ابتغاه، حتى قاطعني غاضبًا، ومضى ليفرغ إحباطاته في ورشة نجارته، شردت أسترجع ذلك، حين تعالى صوت ماكينة التلغراف في (بنها)، طرفت عيناي وما نعستا، فجفلت حين مرت الأميرة (خوشيار) من أمامي، قبل أن تمسي ملكة، سترتب الأقدار أن أكون لولدها من المعارضين، آلم عينيّ انعكاس الحُلي الماسية في مرورها، فأسدلت عليهما الستار مطرقًا، يغشي بريق الذهب أعين أمثالي من العوام، ممن حُمِّلَت أجفانهم بطبقات من أتربة الطريق. يا الله! ما أطول الطريق بين الحاكم والمحكوم!

وقفت أخطب في جمع من الناس عن المساواة، فاستحسن كلماتي السيد (جمال الدين الأفغاني)، تعالت الأصوات في اجتماع جمعية مصر الفتاة، فانسحبت، مرت من أمام عينيّ المسبلتين، أعداد "التنكيت والتبكيت" متوالية، فوجدتني وقد انخرطت رفقة أخي، في مراجعة إيراد اشتراكات المجلة، زاد الوارد عن المحسوب، فشرعنا نتبادل الضحكات الصافية، وقد غلف وجهينا كساء من الرضا، أشعر ببرودة تسري بأطرافي، وألم يتصاعد في معدتي، فما ألبث أن أستعيد أيام الجوع والترحال.

ناديت (فاهان) فلم يجب...

شرم برم حالي غلبـــــان   أهل البنوك والأطيان

صاروا على الأعيان أعيان   وابن البلد ماشي عريان.

ترددت أصداء زجليتي الأشهر من أفواه بعض العرابيين، حين هموا باستضافتي، واتسعت ابتسامتهم بما يكفي لإخفائي عن الأعين، كان الشكر يفيض من حدقتي، كلما مررت بموقف مشابه، منذ أن أثقلت الخيانة والوشاية كاهلي (عرابي)، فسقط في التل الكبير، فنُفي الحلم النقي في قلوب البسطاء، قبل أن ينفي (عرابي) إلى (سيلان)، وهربت أنا من ذاتي الثورية، إلى ذاتي الأخرى، المتيمة بالتجوال منذ عهدي بالأدباتية.

استعذبت الترحال، وطربت بملامسة حبات العرق إذ تتكثف فوق جبين الفلاح، الساكن الأصلي لمصر في كل زمان وأوان، استلزم الأمر شيء من فنون التخفي ومهارات التنكر، فتمتعت باستعادة حياة المسرح، واستدعاء ذكريات فرقتي المسرحية، وتوغلت فيما كان في أيام الطفولة من متابعتي لخيال الظل، فضحكت!

لماذا لا يجيبني (فاهان)؟

تقافزت كما البرغوث بين القرى، حتى أمسى من الصعوبة أن أتذكر أسماءها جميعًا، أَلِفَ العرابيون، حين ضاقت بس السبل، وكثرت المداهمات، أن يتركوا لي ما يتيسر من مأكل ومشرب، في مواضع بعينها، فكانت السواقي أحد أهم المواضع الأثيرة، بيد أن بعضهم كان يربط "سرة الغوْث"، كما كنت أطلق عليها، في إحدى تروس الساقية، بعد أن يحل رباط الدابة، فتظل معلقة يسري من أسفلها التيار مداعبَا، فكنت أخشى طيلة الوقت، أن ينال الماء من السِر قبل أن أبلغ مواضعها.

أتذكر ما آل إليه الحال من جوع وفقر حينئذ، وكيف استحالت طقوس التنكر واقعًا لا يُحاكيه أبرع المُشخصين، فأتبسم رغم قسوة الذكرى. ورغم تصاعد وتيرة الألم، مددت يدي المكسوة بالعرق متناولًا قطعة أخرى؛ كانت الحلوى حلوة بحق!

داعب وجهي خيط كغزل الحرير، ففتحت عينيّ بصعوبة، وأنا ألوك الحلوى في تمهل ووهن، ليطالعني إشراق لوجه (مليكة) وقد مالت برأسها على وجهي، حتى داعبت وجهي أطراف خصلاتها الرمادية اللون، تبسمت، ثم حاولت أن أعتدل، فلم أقوَ على الحراك، قطبت ما بين حاجبي مستغربًا حالة الخوار المباغتة التي تملكت مني، غص حلقي من فرط البرودة، ونضب من فمي اللعاب:

- أين (فاهان)؟

سألتها بخفوت، فلاحظت شحوبِ وجهِها، وميزت بريقَ دمعٍ يتلألأ في حدقتيها، ثم كان أن أغمضت عينيّ قسرًا، وكان السقوط...

حدث في واحد من أصفى صباحات العام المُنصرم، أن تنبهت وقد وقفت ببوابة الحديقة المواجهة للقصر، فاردًا ذراعي، في ذروة واحدة من نوبات التثاؤب، إلى صوت أنين خافت، يصدر من بقعة ما، خلف شجرة التوت ذات الساق العملاقة، دنوت من الشجرة حذرًا، وقد تسلحت بشوكة حديدية، مما يشتغل به البستاني في تهذيب الزروع، فتصاعد الأنين مختلطًا بالتهدج، وقد امتزج بانتحاب طفل أو فتاة، مددت عنقي خلف ساق الشجرة، فصرخ الفتى الشاحب بكلمات عربية هجينة:

- أرجوك، لا تؤذني! لن أخبر أحدًا!

كان كلانا فَزِعٌ بملاقاة الآخر، أثقلت التساؤلات المتكاثرة من حولنا ألسنتنا، فاكتفينا بمحاورات الأحداق...

أراجع الأمر برمته في زمان لاحق لتلك الواقعة، فأظل دَهِشًا، وقد عجزت عن إيجاد تفسير، لما قد يؤهل، ويعين فتى في العاشرة من عمره كـ(فاهان)، على الهرب، من مذابح الأرمن المسيحيين في (ديار بكر)، إلى (الآستانة)، قاطعا ما يجاوز الستمائة ميل في رحلته الإعجازية تلك! هائمًا بين البلدان، والوجوه، قرابة الأشهر الست!

حين التقينا، ذررت الرحمة في قلبه الملتاع، فاستكان وضمر صامتًا حتى أخذه النعاس! كان كلما استفاق فزع وهلع، حتى اعتاد عقله المفجوع الأمر، فأفاق في يوم هادئ، ليقص علي، ما شاب له قسم غير يسير من خصلات شعره البني، أذهلتني قدرة الإنسان على الإفساد في الأرض، وأنا القادم من حرب، قُتل فيها المئات، وأعدم على إثرها العشرات، ونفي الكثيرون، عجز الخيال عن تصوير مجازر كتلك، حتى في أعتى لحظات اليأس، وأقسى أوقات الخوف، غرقت في صمت لفني وتدثرت به محتجبا عن الكون، طيلة أيام تلت روايته لما كان، تبادلت مع (فاهان) صقل لغتينا، فتحسنت عربيته الهزيلة كثيرا، وأتقنت بدوري بضع كلمات أرمنية، وبضع جمل كان (فاهان) ينفجر ضاحكًا كلما حاولت تلاوتها، صرنا رفيقين لا نفترق، وشعرت نحوه بما لم تمنحني الأقدار الفرصة

لإدراكه.. نسجت خطة محكمة، لحمايته مما قد يلحق به إذا ما تكشفت هويته، فكان أن أشعت بين القوم انه فتى أبكم، وهبه لي أبوه ليرعاني حتى أعود إلى دياري، وشعت بين الحرس، أن أباه كان رفيق دراسة في القاهرة أيام الصبا، ثم كان أن عكفت على تدريبه على الأمر، بحيث لا تصدر عنه أي ردة فعل لما يحدث من حوله، أو يقال، كالتفاتة، أو تغيير لزاوية الإبصار، أو ارتباك عام، أتقن الفتى ما أُملي عليه، وتشربته فطرته معززة بغريزة البقاء...

- أحسبك الآن مستعدًا لمواصلة العيش، واستعادة الحياة التي لفظتك من قبل، سأعمل على أن يكون وضعك هذا مؤقتًا، حتى أجهز ما يلزم لإرسالك إلى خالك في (الإسكندرية)، لا أملك أن أطالبك بنسيان ما كان، ولكن، فقط، لا تخف!

كان قد استعاد شيئًا من قابليته للتبسم، فكنت أجد في ذلك مستراحًا لكلينا، ومهربًا من مُقبضات الرؤى، خاصة وقد كانت تخيلاتي لما قصه علي، من مشاهد فقدانه لعائلته، مؤرقة صادمة...

- أشهد الرب إنني مدين لك بحياتي يا سيد (عبد الله)، وقد جعلك لي فيما سلكت من الدروب نبراسًا، يبدد الخوف، وينير العقل.

قال يومئذ، فتعانقنا، وقضيت تلك الليلة أقص عليه ما كان من مطاردات وهروب في قرى مصر، رويت له عن مهارات التنكر، وحكيت له كيف كنت أتنكر خلال الترحال في هيئات متغايرة، فكنت القس، ومجذوب الموالد، والشيخ الطاعن في السن... وكان (فاهان) يدهش بسماع ما أقص، رويت له عن منفاي الأول في (يافا)، وعن أبي وأمي وأخي، تلوت عليه المئات من أبيات الشعر، وحكيت له عما جرى في بر المحروسة، وكيف اختطفت دنانير الذهب الرجال من حول (عرابي)، وقصصت عليه قصتي الساخرة عن (زعيط)، الفتى العربي الذي تفرنج حين سافر إلى (باريز)، فعاد ليحتقر حياته الأولى، فضحك، حتى انتهت ليلة البوح الأولى، بأن

حملته غافيًا إلى فراش أعددته له منذ يومه الأول في رفقتي، طالعته غافيًا، ثم تمتمت في أذنه مقاطعًا حلمه المبتور:

- وأنا كمسلم، أخذت كلمات الرب كما أنزلها، فنهلت منها، وعملت بها، وبما أوصاني نبيه الكريم، مدين لك باعتذار عما فعله بك بنو ديني، كنت أود أن أصارحك بذلك الاعتذار منذ زمن، بيد أن فداحة الجرم أثقلت لساني، فأمسيت خجلًا من تلاوته على مسامعك يقظًا.

تُفتح عيناي دون إدراك مني، فأطالع وجه (مليكة)، وقد اصطبغ بالبياض فزال احمرار وجنتيها الأزلي، تساءلت:

- أين (فاهان) ليسرع باستدعاء طبيب يرحمني من ذاك الألم المتعاظم.

تربت على كفي الثلجي وتطرق أرضًا، فتجيء كلماتها وكأنها صادرة من جب بلا قاع:

- حاله ليس أفضل من حالك، في الواقع أظنه أسوأ منك حالًا!

تتكاثر الأصوات خلف كلماتها، تكررها، فتنطلق كجيوش تصم بأصدائها الآذان.

- حلوى السلطان، كانت مسمومة يا (عبد الله)!

قالت (مليكة) ما جاء متسقًا مع ما يعتريني من أعراض التسمم، فهالني تصور (فاهان) وهو يلاقي ذات المصير القاتل، تذكرت تناوله للحلوى منذ قليل، من بعد سابق تنبيهه لي بعدم تذوقها. تردف (مليكة):

- أظنه قد استشعر الخطر، وقد لاحظ عزوف رسول السلطان عن تناول الحلوى رغم تحاكيه بطيب مذاقها!

أنظر لها مستغربًا ما تحويه كلماتها من استنباطات بشأن تصرف (فاهان)، فتردف:

- لقد قرر الفتى أن يشاركك المصير، فإن كانت الحلوى طيبة، بقيتم معًا، وإن كانت مسممة، رحل كذلك برفقتك!

أهز رأسي وقد بدأت أفقد التحكم بأطرافي، أخذتني المفاجأة فصعقتني، حاولت الرفض، فأبى عقلي إلا أن يصدق ما جاءت به (مليكة). تضاءل الألم أمام الحقيقة الصادمة، فخفت حدته.

- يا رب!

تزيد الأمر إيضاحًا:

- هو معذور يا (عبد الله)، فهو بالكاد قد أوشك على استعادة الرغبة في الحياة من خلالك، هو لا يِحدث سواك، ولا يكترث بأمره غيرك، فما جدوى الحياة إن لم تكن أنت إلى جواره!؟

تمتمت فاتنتي وقد هلت في مقلتيها بشائر الدمع، وددت أن أواسيها فعجزت، حاولت النهوض فسقطت على وجهي، فشق وجنتي جرح غائر أبى أن أرحل دون أن يوثق عجزي بندبة لا تندمل، الجدران تتلاشى من حولي، يغيب صوت الغربان ويحل بالبوم خرسٌ، يحلق السكون في فضاءاتي المتداخلة، فأكاد لا أسمع سوى أنفاس (فاهان) الخافتة، المنبعثة من حيث لا أدري، ينفرد بي مندوب (الخديو عباس)[٣٨] في ركن قصي من المطبعة، يبلغني برفض الإنجليز ما اتخذه من منهج، يشيع بأن نهضة مصر لن تستقيم، إلا بسواعد أبنائها.

صحف القصر تهاجم مجلتي وشخصي، وتنبري جريدة (المقطم) لتحصي فوائد ومزايا الإدارة الإنجليزية للقُطر، وتشيع عني بين الناس كل كذب وزور، اللورد (كرومر) يأمر بنفيي مجددًا، فينصاع الخديو لأمره، ويغير منفاي من (يافا) التي نفيت إليها عامًا من قبل، إلى (الآستانة) حيث أظل تحت عيني السلطان، وبطانة السلطان، وحاشية السلطان...

كان عزائي أن أكون إلى جوار السيد (جمال الدين)، فأعددت العدة للرحيل في الموعد الذي حدد لي، طلب الخديو لقائي فحُملت إليه صاغرًا، ليقف أمامي مبررًا مواسيًا منفعلًا، شرح ما رضخ له من ضغوط اللورد، وكيف لم يكن هناك مفر من الانصياع له، ثم اختتم خطبته الانهزامية،

بأن وعد وأقسم ألا يطول بي المنفى أكثر من عام واحد، كما كان الحال في (يافا)، فاخترت أن أصدقه...

أصون الود والوعد، آملًا من السلطان أن يفي بقسمه، فيعيدني إلى وطني كما تعهد، فأكتب في العدد الأخير من مجلتي رسالة وداع للقراء، أتحاشى في أسطرها، ذكر أي مما يخص أمور السلطة والحكام، وأشكر الخديو الصاغر لقضاء المحتل، وأدعو لسلطان البحار الأعظم، بسداد الخطى وحسن التدبير، قبل أن يأتي بمذابحه الدموية ليبيد آلاف الأرمن المسيحيين دون رحمة...

لم أقدر على مصارحة القراء بحقيقة الأوضاع، طمعًا في سرعة العودة، فادعيت كذبًا أنني راحل في رحلة علاج في أوروبا، حتى حان الأوان، فوقفت أمام المطابع في الليلة الأخيرة، متوترا، ذرعت الأرض جيئة وذهابًا كمن ينتظر مولوده الأول، حتى خرج آخر فرخ ورق من المجلة، فتأملته دامعًا، ثم اختفيت دون وداع لأحد.

- يا رب!

تراخت الأنفاس وخفتت فاعتل انتظامها، الاخضرار محيط بي، والسماء تستعيد زرقتها الأولى، تتقعر الرؤى فأعود لذات الدائرة مستقرًا في مركزها، (فاهان) ملقى على وجهه في بقعة من الفراغ، يحيط به كهان ممن يحملون الصليب، أراقب منزلي من علياء السماء، وقد زالت جدرانه، فأمسى له باب يفضي من حدائق السلطان إلى خراب العوام، يسيل دمع السيد (جمال الدين)، حين يقف بباب المنزل الشامخ كمسلات الزمن السحيق، يطرقه فلا يجيبه أحد، تزف السماء (فاهان) المنتشي بلقاء عائلته المغدورة، تحتضنني (مليكة)، حين ألمح (كمال أغا) يمزق الخطاب الذي تسلمه مني للتو، فتتكشف الحقائق، كخيط من نور يمر في ثوب الليل الحزين، يتناثر فُتات الخطاب، فتتطاير الكلمات مع الريح، ويُضَلَّل التاريخ، فيرتكز على خطابي الأول لاستنباط أسباب وملابسات الرحيل، وتسطر أحرفه المترنحات أكاذيب عن توغل السل في جسدي، تتصاعد من

حولي أصوات مختلطة للأدعية العالقة بأبواب السماء، ويتهادى أمامي ما يشبه البلورات الزجاجية، وقد احتشد في كل منها أصوات متداخلة لأدعية حبيسة...

تقول (مليكة)، حين انتهت من متابعتها لرحيل (فاهان)، رفقة عائلته وكُهانه، فالتفتت صوبي، وقد لاحظت انشغالي بالأصوات فور أن زال الألم وتلاشى:

- تلك أدعية لم تبلغ أسباب الإجابة بعد، فلم تُلبّى، ذلكم أن الداعي لم يسطر في صُحفه ما يؤهل أدعيته لعبور البوابات...
- وهل تصم السماء آذانها عن دعاء المحتاج والمقهور؟

أقول متفحصًا تلك البوابات العملاقة، مصارعًا شكي في عدالة السماء، وقد أغلقت أبوابها النورانية الشفيفة، بمزاليج لا تعد ولا تحصى...

- بل لم يأت الداعي بما يتسق مع دعائه، فَحرَم على أدعيته بلوغ ساحة العرش الفسيح.

أغمض عيني منصتًا إلى سيل الأدعية الحيارى، مختلطة بابتهالات وترانيم بمختلف اللغات، أميز بين الأصوات كلمة (يا رب) وقد جاءت بحروف باكية تنشج ألمًا، أشيح بوجهي متأثرًا، لأجد وجوهًا ألفت لقياها، وإن لم أميزها، خاطبني البعض باسمي فقال لمحيطيه: ذلكم (عبد الله النديم)[١٢٤] خطيب العرابيين، ثم ناداني بعض آخر فقال: ما جاء بك هنا يا (إبراهيم)؟ فعصف بي دوار مباغت...

يمر طيف (كمال أغا) من أمامي فأشير صوبه مخاطبًا (مليكة)، أصيح مناديًا، فتلتفت نحوي باسمة وقد ناديته باسم آخر هو (جابر عباس)، أصرخ:

- من يكون (جابر عباس)؟

استسلمت لكوني (إبراهيم)، وواصلت (مليكة) التسكع في رفقة المجهول، حتى أولتني ظهرها على حين غرة، ثم صاحت بنبرات لم يغب عنها الدلال:

- حانت لحظات القطاف المر.

افترقت عنها لأواصل السقوط، فكنت مستكينًا كمن اعتاد القفز بين النجوم، تكورت كما الأجنة، حتى جاء الارتطام بأرض سمراء رخوة، امتصتني حتى واراني ثراي، وأهيل على جسدي التراب، فتحت عيني جزعًا! فلفظتني الأرض مجددًا، لأنطلق كما السهم مارًّا عبر ممرات جعلت جدرانها حمراء زلقة، حتى جاء الاستقرار فوق وسادة مخملية، وقد أحطْتُ بظلام دامس، يبعث على النعاس، ولا يبث الخوف...

ساد السكون، وتلاشى كل شيء، بدأت ذاكرتي تتداعى، فحاولت استدعاء وجوه أمي وأخي، والسيد (جمال الدين)، و(فاهان)، فعجزت مخيلتي عن نسج الملامح، ولم يعد بمقدوري سوى استدعاء ملامح (مليكة) لتؤنس لحظاتي الباقيات...

تمتمت ببيتي شعر لم أميز كاتبهما ومناسبتهما:

أُوَدِّعُـــكُـــمْ وَاللهُ يَعْـلَـمُ أَنَّـنِـي
أُحِـبُّ لِـقَـاكُـمْ وَالْـخُـلُـودُ إِلَـيْـكُـمُ

وَمَـا عَـنْ قِلًى كَـانَ الرَّحِـيلُ وَإِنَّمَا
دَواعٍ تَبَـدَّتْ فَـالـسَّـلَامُ عَـلَـيْـكُمُ

قاومت النعاس حتى صرعني...

فنمت... أو استيقظت.

تتمة ما جاء منقوصًا

قالت (مليكة)، وقد عاونها الشيخ (المليكي) في حمل الصحف السبعة، بحيث يصير بإمكانها مطالعتها:

- أظنك نسيت، أو تناسيت إعادة كتابة التتمة لثالث الصحف.

عقدت حاجبي مستذكرًا، وقد أحاط بِي فراغ بارد، وبقيت أطالع قسمات وجهها المتلون بالعبث، أشحت بعيني عنها منهكًا، فاستقرتا على الشيخ (المليكي)، ناديت الحقيقة فيما بين يديه، أومأ الشيخ برأسه، ووضع الصحف على الأرض، فانسدلت جدران الكوخ العتيق من حولنا، لنعود إلى داخل الكوخ، من بعد طول إبحار بين ألواح الصحف، رفع لوح الصحيفة الثالثة أمامه، وهبط بناطريه من أعلى الأسطر نحو أسفلها، حتى توقف، وطالعني:

- هي على حق يا بني!

أحاط بي فراغ من جديد، وقد تطايرت أركان الكوخ المظلم إثر كلماته القاضية بحتمية إتمام ما هو منقوص.

كنت تعب الروح، منهك النفس، تتسرب الحقائق من ردهات عقلي المشطور، فتنساب في فراغ لا نهائي، مكونة لوحةِ متماوجة على وشك الاكتمال، تضرعت عيناي إلى (مليكة) وشيخها، طالبَا الكف عن مواجهتي بما لا طاقة لي بحمله...

- فقط بضعة أسطر، وتنتهي من زيارتك لمملكة النور، فتحيا أبدًا محاطًا بذات النور الكاشف، مكلفًا بالكشف المنير، والتدوين، ليس لك أن تحل بمملكة (مليكة) سوى مرة واحدة، في كل دورة من دورات الروح، في سفرتها الدائمة بين عتبات الزمان والمكان، وليس بمقدورك أن تلتقي (مليكة)، سوى مرة واحدة، منذ أرسى الله الجبال، وحتى يجعلها كالعهن المنفوش، حين تحل القيامة، لا يُستثنى من ذلك إلى من اصطفته هي...

قال الشيخ ما استعصى عليّ فهمه، فأطرقت شتيت أمرين لا جامع بينهما، فرح بانتهاء المهمة، وحَزنٌ بفراقها المحتوم. شعر الرجل بحيرتي فأردف:

- أما (مليكة)، فهي الحرة المتجردة، ساحرة القلوب، وسابية الألباب، المارقة بيسر بين عتبات الزمان والمكان، لها أن تغادر مملكتها، وتعود إليها وقتما شاءت، يحق لها العبور بين الصحف، وما من أمر عصيّ عليها، سوى تغيير ما خطه بنو البشر في صحفهم!

تقترب منه (مليكة)، حتى يتلامس كتفاهما، ويصطفان سويّا، وقد امتد ثوبها من خلفها ليظلل مساحة واسعة من الفراغ الآخذ في الاتساع، ذكرني اصطفافهما وقد انعكس لكل منهما عدة ظلال، بالمتراصين خلف الشيخ (الرفاعي) في الحضرة، فيتراقص وشاح أخضر من خلفهم لا يلبث أن يتلاشى، يقتربان مني، ويردد كلاهما في آن واحد:

هي التَذْكِرة العابرة، الواعظة الغاوية، الكاشفة المنيرة، التي جُعلت لتُزيح المخاوف، وتدحر المُحَيِّرات.

تتردد ذات الجملة كثيرًا، مُلَاحَقَة بأصداء لا حصر لها، فأذوب مجددًا، وتأخذني دوامة يستقر مركزها في نهاية الصحيفة الثالثة، أغمض عيني، وأدور، حتى تبتلعني... وتطاردني كلماتها الآمرة:

- أكمل ما لم تتمه بعد.

نشوة القتل

دمشق في عام ٨٩٥

أتسلل رفقة (مليكة) صوب غرفته، حرس كُثر يجوبون الممرات حول الغرفة، ويملأون الأرجاء في كل ما قد يفضي إليها، السلطان مرهق بعد يوم آخر مشحون، رآنا نفر منهم فتبادلنا التحية، كنت مرتدياً زي الحرس بدوري، فاستعادت خطواتي الطبيعية تلقائيتها، بدلًا من خطوات المتسللين، واريت وجهي بوشاح، وقد بدا مرة أخرى، أن لا أحد يرى (مليكة) سواي، باب الغرفة السلطانية أقرب مما ظننت، أتوقف متظاهرا بتعديل لباسي، تسبقني (مليكة) بالوثب داخل الغرفة، لا أعلم لماذا تتسلل بمثل هذا الحرص، إن كان لا يراها بشر غيري! ألحق بها، السلطان غارق في النعاس، كان في نومه قد ارتدى حلته كقائد للجيوش، فاغرًا فاه، ويصدر شخيراً مضجراً، نظرت صوب (مليكة)، وأخرجت خنجري من مرقده، أخرجت من صدرها قنينة صغيرة، سكبت ما بها على قطعة قماش اقتطعتها من ردائها للتو، أخذنا نمرر القماش المبلل بالسم على نصل الخنجر، مراراً وتكراراً، اقتربنا من السلطان الغافي، رقدت مليكة بكامل جسدها فوق رأسه، في ذات الوقت الذي أغمدت فيه خنجري في منتصف صدره، صدرت عنه رجفات متقطعة، سللت خنجري ثم أغمدته في ميسرة صدره هذه المرة، رفعت (مليكة) جسدها عن وجهه فور أن خمدت رجفاته، ثبتُّ خنجري في موضعه، بأن واصلت ضغطه في جسد السلطان، رغم أنه لم يقاوم، نظرت إلى مقلتيه، فتأكدت من سريان مفعول السم، ظل فاغرًا فاهُ، وغابت عن عينيه دلالات الحياة، وزال بريقها.

احتضنت (مليكة) فاحتضنتني بقوة، دمعت عينانا فرحًا، تشابكت أصابعنا في جذل طفولي، غادرنا الغرفة أقل حرصًا على ألا يرانا أحد، ابتعدنا حتى اختفينا بين ظلال الأشجار الوارفة، في موضع ليس ببعيد عن مرقده، ظللنا نراقب، حتى بدأ الفجر يحذو حذونا بالتسلل صوب مرقد

السلطان القتيل، دخل أول الحرس عليه، وساد ارتباك عظيم، تبادلنا نظرات رضا، واستغرقتنا لحظات حبور، قبل أن نولي جثة السلطان ظهرينا، حين صاح منادِ:

- السلطان (خمارويه)[{١٠٣}] قد قتل...

يتابع أحدهم مشيراً صوبنا: قتله (يعقوب النصراني).

أتذكر (قطر الندى)، أركض، أسمع حفيفًا اعتدت سماعه مرافقًا لانقضاضة الأسهم، أشعر بدوار يتملك مني، أمد يدي لأتشبث بـ(مليكة) فلا أجدها، أشعر بسيخ من النار يخترق منتصف ظهري، أحاول أن أواصل الركض، فأسقط، أنفاسي تتثاقل، أسمع أقدامًا مهرولة تقترب مني، أحاول الشهيق فأشعر أن رئتي قد أغلقتا بإحكام مرير، أمد يدي، أحاول القبض على حفنة من الهواء، أريد أن أتنفس، لا هواء، زفير بلا شهيق يعضده، تسيل دموعي، دوار يعصف بي، أقاومه، لا أميز إن كنت جالسًا أم راقدًا، تمر أمامي وجوه العبيد المعروضين في (باب الدريبة)، الطفلة العارية ما زالت تصب الماء على ساعدي الشيخ العجوز، الشيخ لم يصلِّ بعد، هو فقط يتوضأ، ينعكس على الماء المسكوب صورة قس له عمامة أزهرية، تتردد في أذني كلمات (نادية عيسى) في خطاب توديعها الصادم لي، يناديني (نوح أفندي) ممسكًا بيده طفلًا هو (إسماعيل)، يهزمني الدوار فأسقط في براثنه، حتى ظهرت (مليكة) بردائها الشفيف من جديد، فارتفع صوت الشيخ الغائب مؤذنًا لصلاة الفجر...

غلبني النعاس حتى تملك مني،

فنمت،

أو استيقظت.

فواصل ما بين الوعظ والشك

موروثات ومدونات منسية

جمعها ورتبها إبراهيم البنداري

الفاصل السابع

جَـارٌّ ومَجْـرُور

وقفت باسمة أمام مرآتها البيضاوية، الفضية اللون والصنع، تداعب بأناملها بضع خصلات هرمت قبل أوانها فاتشحت بالبياض، طالعت النتيجة الورقية المصلوبة على ذات الحائط منذ الأزل، ثم مدت يدها لتمزق من أوراقها ما يجاوز السبعين يوما، هي ما مضى منذ أن غادر الدفء فراشها مجدداً، فاحتل صقيع الوحدة ساعات ليلها الطويل، الغارق في أحلام اليقظة...

مدت يدها مداعبة نحرها، ثم أغمضت عينيها وقد سرت بجسدها قشعريرة باردة مُستحبة، نشأت في جيدها ثم انتشرت بمحاذاة عمودها الفقري، حتى تلاشت تاركة خلفها أصداء من اللذة، وأصواتًا مشروخة لنداءات الرغبات الحبيسة.

هزت رأسها بدلال، ثم أخذت تطالع الشمعدان النحاسي الذي لم يحركه أحد من موقعه، منذ وفاة أبيها، تذكرت أنها نقلت حاجياتها إلى غرفة أبيها، منذ أن غاب أخوها، فخطت بخطوات واثبة نحو الشمعدان لتوقظ شموعه الناعسة، حتى شاع شيء من الدفء، حين استطال لهب الشموع خجلًا، باهتًا مبهوتًا.

نقلت الشمعدان من موقعه فوق المنضدة الرخامية إلى مرآتها السحرية، أعادت تحسس الخصلات البيضاء، قبل أن تلحظ أن ثوبها الصيفي الشفيف ممزق فيما تحت الإبط...

حسمت أمرها سريعًا، فهمّت بالبحث عن أدوات الحياكة، حيث وضعتها منذ القدم في علبة صفيحية مستديرة، تبسمت وقد تذكرت أن العلبة المنشودة ذاتها، قد حوت ذات مساء، تلك الحلوى الفريدة، التي لم ينضب

مذاقها من فمها إلى اليوم، منذ أن جاء بها أخوها من خليلته ذات الأم الأوروبية، قبل زمان بعيد.
بحثت عن العلبة حتى وجدتها في صندوق قديم، مهمل، لم تعد تتذكر ما يحويه، راودها الفضول للكشف عن خباياه، فأخذت تجر الصندوق بصعوبة بالغة، بعد أن خلعت عنها ثوبها الحريري، فغمر الزمان جسدها الناضر بأتربته، عقاباً له على مواصلة تحديه لسنوات عمرها التي تناهز من العقود خمساً، ورفضه للاستسلام رغم خيانات خصلات الشعر المتعاقبة، تهدجت أنفاسها، فألقت بجسدها تعبة على المقعد المواجه للمرآة، وقد أنهك المجرور جارّهُ، أخرجت أدوات الخياطة، ثم أخذت تحيك ما تمزق من ثوبها، بعناية وآلية من اعتاد الأمر.
كانت تختلس النظر إلى جسدها العاري بين الحين والآخر، حتى انتهت من مهمة إصلاح الثوب فأعادت ارتداءه، حتى ستر نهديها، فقامت بعقد طرفيه أسفل الصدر منها، بحيث ظل باقي جسدها عارياً، أخذت تتحسس بطنها بروية، حتى استفاقت من شرودها، حين داعبت وجنتيها بضع قطرات ساخنة من دمع الرجاء...
تذكرت الصندوق، فنثرت محتوياته بطفولية مفتقدة، ففاجأ المجرور جارّهُ بأن لفظ قطعًا من أرق أوقات الطفولة، أثواب قديمة، أربطة شعر، أحذية صغيرة، وعرائس قطنية، انتشت بكشفها حتى انحنت مُقَبِلَة صندوقها، ثم شرعت تتفحص مقتنياتها، فلاحظت عدة ثقوب وتمزقات في أنسجتها. تناولت معدات الخياطة، هجرت مرآتها واستلقت على الأرض نصف عارية، غير معنية بشيء سوى ترميم الماضي، وسد الثغرات التي تركها الزمان في أنسجة أعذب الأوقات. انهمكت في الأمر، وأخذها الحماس حتى أنهكها، فلم تأبه بآلام ملحة أخذت تسري بمفاصل ذراعيها وكفيها، كانت كما العازفة على أوتار الخيوط والإبر، كاسية ما عُرِي من عرائسها، واصلة ما تقطع من أوصالها، أذابت معزوفتها عدة ساعات من الزمن، حتى انتهت منها، فساد الصمت، وشعر الجارّ بفائق الامتنان للمجرور...

وقفت تتأمل إنجازها حين انتهت من تجميل الذكرى، وطوقت عيناها ما رممت من مقتنياتها بحنو مكبوت، غمرها الزهو، وقد أعادت لها رونقها، وبثت في جنباتها ما ظنته لا يعود إن رحل، لمعت مرآتها حين انعكست على صفحتها الزجاجية ابتسامتها المتسعة، قبل أن يأخذها مسّ من السعادة فتشرع في التقافز أمام مرآتها في جذل، محتضنة واحدة من عرائسها القطنية المبعوثة من الرقاد، محتفلة بقهر ذلك الزمان سفاك السنين...

أنهكها احتفالها، فهدأت واستقر جسدها أمام مرآتها، فتفاجأت حين وجدت خصلاتها البيضاء في موضعها، بيضاء كما كانت قبل أن تصرع الزمن!

شعرت بزيف نصرها، فتحسست بطنها الخاوية:

- هل كتب عليّ الله ألا أسمع يوما كلمة "أمي"؟

تهدج صوتها في حوارها مع الذات، ألقت دميتها القطنية، ثم استحالت كلماتها انتحاباً حين توجهت باستفسارها إلى بارئها:

- لم لا ترزقني بصبي، كم وهبت مريم العذراء صبيّا دون زوج أو خليل؟ لم لا تحل معجزتك بي؟

تتنبه لعريها فتسارع بستر ما ظل من جسدها عاريًا، تتمتم استغفارًا، وتعيد ترتيب المقتنيات في صندوقها الخشبي العتيق، ثم تعاود جره باكية، حتى استقر في منتصف الغرفة، حين خارت قواها، فافترشت الأرض إلى جواره.

- لم أرد نبيّا... فالأنبياء يطاردون، ويحاربون، وبعضهم يُقتلون!

قالت وقد غمر الدمع وجهها، وطمر الزمان حلمها الآخذ في الضمور، فالتقطت دميتها القطنية التي ألقت بها للتو، وأعادت احتضانها، وأخذت تمر بأناملها المرتجفة في خصلات شعرها القماشي، تربِت عليها، تواسيها، وتجفف عينيها الباكيتين.

أولت الصندوق الخشبي ظهرها وقد التصقت به، فأشاع الماضي في جسدها دفئًا اعتادت غيابه عن فراشها...

يبحر الوقت كقارب أضاع الموج مجدافيه، فسار بلا هدى..

يتعالى صوت عقارب الساعة حتى يمسي مزعجًا..

تتكور كجنين ويظل ظهرها ملاصقًا لمنبع الدفء..

يتملك منها نعاس وقد غاب عن إدراكها ما مضى من وقت..

يصيح الديك في غير موعده

فيغفو الجار بجوار المجرور...

ويصمت الزمن...

يصيح الديك في موعده...

فأفيق مع صوت المؤذن لأدون رؤياي عن (مريم)!

إبراهيم البنداري

يناير ١٩٧٧

صحيفة مجهولة

نبي وعصا

بعض من حلم لم يكتمل - بدون تاريخ

كنت أنا و(مليكة) في البدء، ظننت أننا وحدنا في هذا الكون الفارغ، تخيلت أننا قد وجدنا ضالتنا بعد عناء طال، فانتهينا من كتابة صحفنا فوق الألواح الفارغة، حين تنامى إلى مسامعي سيل منِ همسات لا تنقطع، تتصاعد في هدوء فتحيل سكينتي وسكوني ضوضاءً صاخبةً.

كنت أرى أمامي ما يشبه في تكوينه الجسر، هو مصنوع من الخشب، أو هو قطعة من خشب عتيق متهالك على الأرجح. كنت لا أرى مد البصر سوى هذا الجسر، وجدتني أسير فوقه مترددًا، لم أكن واثقًا إن كان هذا هو طريقي، أم أنني قد ضللت إليه الطريق؟ استعدت سكينتي عندما جاءني صوت (مليكة) من خلفي يطمئنني.

دائمًا ما يبثُّ صوتها الطمأنينة في قلبي، تهدهدني نبرات صوتها الحنون، فتعيدني طفلًا في طور التكوين، وقد تشبث بجدار رحم أمه، خوفًا من ملاقاة هذا العالم، والخوض فيما هو غير مأمون، يريحني وجودها، فأندفع لأشق طريقي، دون أن أبصر لهذا الجسر نهاية.

كان الجسر بغير أسوار تحيط به على الجانبين، وكان شاهق الارتفاع، بيد أنني أمعنت النظر في الهوة السحيقة على جانبيه، فلم أبصر لها قاعًا، وكم أربكني ذلك الخوف من السقوط، منذ نعومة أظفاري.

شردت كعادتي، فوجِدتني أقف مستندًا بمرفقي على السور، فوق سطح بيت البنداري، موليًا ظهري إلى الشارع، وأمامي كانت (مريم) تضحك، تسخر من خوفي أن أنظر إلى الأسفل، وهي القادرة على ذلك، برغم كونها

فتاة في العاشرة من عمرها! أحاول أن أتحداها، فأستدير متأنيَا، أطالع المارة من فوق الطوابق الثلاثة حيث أقف، أفتح عيني المغمضتين، فلا أخاف! أصيح لمرأى (أبو شنب) قادمًا صوب بوابة البيت بأنني لم أعد أخاف، تشجعني ابتسامته الصامتة كعادته، تأخذني الشجاعة، فأرفع قدمي اليسرى فوق السور، متأهبَا للوقوف عليه بكلتا القدمين، تجذبني يد (مريم) المغلفة بصرختها، أتظاهر بالعدول عما لم أكن يومًا جادًّا في فعله، ألتفت إليها فتُضحكني نظرة الهلع في عينيها، تدرك حيلتي، فتنهرني، وتأخذني من يدي لأشاركها مهام إطعام الطيور. أفتح عيني مجددًا، فأعود فوق الجسر المخيف، أسير و(مليكة) من خلفي تهمس لي بأن لا أخف، وتؤكد: إني معك إلى الأبد.

بعد مسيرة قصيرة، أخذت الضوضاء تتصاعد، وبدأ الدبيب من خلفي، يوحي إلي بأنني كقائد لجيوش لا حصر لجنودها، وقد وقفت على أعتاب الخوض في حرب ضروس، شعرت بأن هذه الكتائب من خلفي، فقط، تنتظر إشارة بدء من يدي!

- اضرب الجسر بفأسك يا (إبراهيم).

هتفت بي (مليكة) وكأنها تقرأ أفكاري مجددًا، فوجئت بأن يديّ قد حملتا منذ البدء فأسًا، صحت معارضًا بأن الجسر هو ما عليه نسير، فإن سقط سقطنا معه! تصمت (مليكة) للحظات شعرت خلالها أنني أفقد شعوري بالجاذبية، بدا لي أننا نسير إلى الأعلى! توقفت لوهلة، فدفعتني الجموع من خلفي للمضي قُدمًا، دون أن يتخطاني أي منهم، أمعنت النظر في السماء، وقد أمست في مواجهتي، فإذا بالسماء وكأن لها عينين مخيفتين ضخمتين كأعين المردة! تحدقان فيّ، اقشعر بدني، وعجزت عن إحالة ناظريّ عنهما صوب أي شيء آخر، كانت العينان آخذتين في الاقتراب كلما سرنا قدمًا، تيقنت أننا نسير إلى الأعلى، لا جاذبية للأرض إذن! هما عينان كدوامتين، لا ريب أنهما تجتذبان الأرواح الهائمة مثلي، لتقتات على أحلامها، أغلب الظن أن لا حياة فيهما...

- اضرب الجسر بفأسك يا (إبراهيم)!

هتفت (مليكة) مجدداً، اعتراني بعض من خوف وكثير من قلق، عاودني خوف من الارتفاعات ظننت أنني قهرته في الرابعة من عمري، وددت لو ناديت (مريم) لتأتي حامية مُطَمْئِنَة كعهدي بها، تنبهت لأن صوت (مليكة) قد جاءني هذه المرة أبعَد من ذي قبل، فبدأت أفقد شعوراً بالأمان طالما أمدني به قربها، رفعت يدي بالفأس عالياَ، ثم هويت به على الجسر ضارباً، تتبعني الجموع من خلفي، فتهوي بفئوسها ومطارقها على جسد الجسر المتداعي إثر ضربتي الأولى، التي كانت إشارة البدء كما ظننت.

شردت، فأطل أبي وأمي بوجهيهما من بين عيني المارد في السماء، بدا (نوح أفندي) وكأنه يستحسن ما أفعل، وأطلت أمي بوجه اعتادت ثناياه القلق والتوتر، تحسست بعيني وجهها، فأحسسته مبللًا بالدموع، فبكيت...

شرعت بالخروج من شرنقة الماضي مرة أخرى، فأخذت أكيل الضرباتَ لجسد الجسر، تسارعت ضرباتي، فصرت أشعر وكأن الفأس قد غدت جزءاَ من يدي، انهمر العرق على وجهي، وبدأت عضلات يديّ الآليتين تئن، صرخت منادياً (مليكة)، فجاءني صوتها أبعد من المرة السابقة:

- اضرب يا (إبراهيم) بالله عليك، أيقظهم مما هم فيه غافلون.

شرعت أضرب...وأضرب...مغمض العينين أضرب، بحماس أشعلت كلمات (مليكة) النار في حطبه، كنت أسحق أوصاله بضرباتي، كمن ينتقم ممن سلبه كل شيء، عاودني شرودي، حين كان الجسر تحت قدمي آخذ في الاهتزاز.

كنت في شارع (فؤاد)، قبيل لحظات من مدفع الإفطار، والشارع شبه خالٍ من المارة، وكنت أنا أمد الخطى، فتعكس الطرقات أصداء متوترة لخطواتي، يضخمها السكون فتخيفني، كنت حريصًا على ألا أنظر خلفي، ربما أكثر من حرصي على مشاركة العائلة في الإفطار، كعادتنا منذ زمن

بعيد، بيد أننا برحيل (نوح أفندي)، شاع الصمت في بيتنا، فلف الحناجر ثقل، وأثقل الألسنة وهن...

كنت أعلم أن الانشغال بالسياسة هو أمر جد خطير، ولكنني، ومع إيماني بعبد الناصر كأغلب بني جيلي، كنت أحمِله، وحاشيته، مسئولية رحيل (إسماعيل) ومن بعده (نوح أفندي).

صباح اليوم قادتني قدماي دون سابق ترتيب صوب مجلس الأمة، وقد كنت، وبعد عبث في الميراث الصحفي الخاص بـ(نوح أفندي)، قد أعدت كتابة مقالة (أحمد حسين)[١٢٥] "ربَ السجن أحبّ إليّ" والتي نشرت عام ١٩٥١، وكذلك مقالة (حلمي سلام) "هذا الفساد الأعظم" والتي نشرت في سبتمبر ١٩٥٢، وهاتان المقالتان بالتحديد كان (نوح أفندي) يؤرخهما كأحد المظاهر الاستباقية لثورة ١٩٥٢، وكذلك اعتبرهما عاملين كاشفين لما دار بمصر قبل الثورة، ربما أكثر من حريق القاهرة ذاته!

بيد أن أبي الراحل، قد ظل رغم ذلك؛ ملكي الطباع والهوى، لم يحب يومًا هؤلاء الـ(ضباط) كما كان يصفهم، كان لا ينسى حقيقة أنهم قد سلبوا منه، قسمًا هائلًا من أراضي العائلة المتوارثة، فدأب على تحذيري طوال الوقت، من فظائع انتقامهم وعظائم شرورهم، حيال كل من يجرؤ على مواجهتهم، ولو بالقلم...

- القلم في عيون هؤلاء الضباط يا (إبراهيم) أشد خطرًا من كل ترسانات الأسلحة، هم يعلمون ماهية السلاح، ويدركون سبل استخدامه، وحتى تعطيله إن لزم الأمر، ولكن القلم هو ما يجهلون، وما خشي ابن آدم شيئًا قدر ما جهل، وإن جهل المرء شيئًا، اتخذ منه عدوًّا لدودًا.

أذن المؤذن لصلاة العصر، فاستنبطتُ أنني في موقعي هذا منذ ما يزيد عن الست ساعات، كان (أنور السادات) يخطو خارج مجلس الأمة، الضباط والحرس، والمتنكرون من أفراد البوليس السياسي، منتشرون من حوله، مختلطون، لا تميز منهم أحدًا عن آخر، نفس الوجوه، نفس التحفز العدواني غير المبرر، كنت بدوري متسمرًا، مختبئًا خلف أحد الأكشاك،

على الجانب الهادئ من الطريق، حيث أخلي من المارة، مراقبًا موضع مرور موكبهم المهيب بعد لحظات، نطقت بالشهادتين، وألقيت ما بجعبتي من أوراق، قضيت الليل بأكمله أخط كلماتها، وأنسخها الواحدة تلو الأخرى، تناثرت وريقاتي تحت أقدامهم، فالتفت الجمع صوبي، طبعت في عيني لحظة توقف فيها (أنور السادات)، ثم انحنى ملتقطًا إحدى المنثورات، ليطالعها في ثوان معدودة، ثم يعقد حاجبيه لوهلة، قبل أن يبتسم بهدوء، ويرفع يده لرفاقه الذين كانوا يهمون بافتراسي ألا يفعلوا.
أدركت ما فعلت، فأطلقت لساقي العنان، مسابقًا الريح عدوًا، وعندما علا صوت دقات قلبي، مختلطًا بأنفاسي المتلاحقة، توقفت، عدلت من وضع نظارتي الطبية، أخرجت من جيبي منديلًا، أجفف به ما أساله الفزع من عرق على وجهي ورقبتي، هدأت دقات قلبي، وأمست أنفاسي منتظمة. جلست على الرصيف في شارع (فؤاد)، تذكرت طفلي (آدم)، فكرت في غده الذي ما أملت إلا أن أحيله أفضل من يومي هذا، استرجعت مداعبتي له صباح الأمس، وتصورت أنه كان من الممكن، أن يصبح غدًا يتيم الأب، دمعت عيناي، شردت، فلم أميز ما مر من الوقت، قبل أن ألاحظ وجودهما!
كانا اثنين من المخبرين، بذات المعطف الكلاسيكي المميز، وقد التحم بكفيهما هراوتين أدرك جيدًا أوجه استخدامهما، كنت أواصل مد الخطى، محاولًا إسراع وتيرتي، حريصًا في ذات الوقت على ألا أنظر خلفي، أغلب الظن أنهما كانا يراقباني منذ البدء، أسرعت الخطى قدماي، فكادتا أن تلتفا حول بعضهما البعض، شرعت في الركض، بحثت عيناي اليائستان عن أي شخص قد ينجيني منهما، الشارع شبه خالٍ، قررت أن أقاوم حين جذبتني يد أولهما، التفت إليه فشعرت بهراوة رفيقه وقد هوت على قدمي، شرعت أواصل المقاومة، وأنا طريح أرض الشارع الخالية، لم يوقفني الدم السائل من الجرح بساقي، عن توجيه الضربات العشوائية تجاه كل ما تناله يداي...

- يا (إبراهيم)، الحياة معركة، قد تنهزم فيها وقد تنال من الانتصارات ما لم تصل إليه بتخيلاتك يومًا، قد يصرعك الواقع، وقد تصارع أنت قدرك فتصرعه، ولكن، لا تزهُ كثيرًا بنصرك فالحياة دول، وإن أبصرت ملاك الموت مقبلًا تجاهك، فتقبل الموت، ورحِّب بالهزيمة، ولكن إياك أن تنحني لغيرِ من خلقك، تواضع عند النصر، وكن شامخًا لحظة الانكسار، تمسي جديرًا بمحبتي ومحبة القوم لك...

رنت كلمات (نوح أفندي) في أذني، قررت أن أنهض، كانت أطرافي الأربعة الواهنة تحاول أن توقف ضربات هذا أو ذاك، أظنني قد وقفت في النهاية، وقد كان الدوار يتمكن مما بقي من مقاومتي. وقفت، فتحتَ عينيِ لأواجه أحدهما، وقد رفع هراوته التي أبصرت لها الآن طرفًا معدنيًا مدببا في قمتها، ابتسمت له، وهو يهوي بها على وجهي، رأيت في عينيه نظرة خوف طمأنتني! شعرت بسائل ساخن ينساب فوق وجنتي اليمنى، واصلت الابتِسام، ترنحت، ثم أظلم كل شيء.

فتحت عينيِ، فوجدتني لا أزال فوق الجسر، أواصل تقطيع أوصاله بآلية لا تكل، تجاهلت أنات ضلوعي وعضلاتي ومضيت قُدما كما أرادت (مليكة).

الجسر يهتز، أشعر به مترنحًا كأنفاسي، بدأت أبصر له نهاية، ثمة نهاية لهذه المعاناة إذن، أسرعت الخطى صوب الأمام، أو للأعلى على الأرجح، الاهتزاز يتصاعد، شعرت بالخوف من جديد وتساءلت عن سبب عدم سقوطي حتى الآن! صرخت مناديًا (مليكة)، جاءني صوتها أبعد من كل المرات السابقة، حتى أنني لم أستطع تمييز حروف كلماتها، لعلها لم ترد ندائي فتخيلته؟ هل كانت مليكة خلفي منذ البدء؟ هل تخيلت صوتها طيلة هذا الوقت؟ حاولت النظر للخلف للمرة الأولى فلم أقوَ على تحريك رقبتي قيد أنملة، حينها بدأت أميز لأعين المردة أفواهًا وأنيابًا، وتراءت لي أعين وأعين أخرى في المشهد خلف هاتين العينين، بدأ الجسر يتزلزل من

تحتي، أيقنت أنني هالك لا محالة، تتردد في أذني كلمات (مليكة) مرة أخرى:

- أيقظهم مما هم فيه غافلون...

بدأت أميز كلماتها، وإن جاءت نبرات ندائها الأخير أشبه بالصراخ، احترت في أمري وأمرها، بدا جسد الجسر، وكأنه قد شيّد من أوتار خشبية، مجدولة تشبه في هيئتها الحبال، أو لعلها تشبه ضفائر (فرانشيسكا)...

عبرت حكايات كثر مما جمعني بـ(فرانشيسكا) فور ذكر ضفائرها، فمرت أطيافها مداعبة نسيج الحلم، أفقت من حلمي أو لعلني عدت إليه، لست واثقًا، غمرني طيف من ألوان، فاضت منه أضواء، تحتل المشهد فتغشي البصر، ثم لا تلبث أن تنحسر دون مقدمات، رأيت جدائل الجسر تفرز من بين أنسجتها ما بدا كدموع إنسان، هل يبكي الجسر؟ هالني ما أطالع بعينين قد ألفتا مشهد كل ما ليس مِن المعتاد رؤياه، هلعت. ناديت (مليكة) مجددًا فلم يفارق ندائي شفتيّ، قررت التوقف، فتوقفت، أطحت بفأسي بعيدًا، عاد السكون من جديد، شرعت مستديرًا، أصبو للعودة من حيث بدأت، حين أدركت أن الجسر ينهار.

الشيخ ما زال يتوضأ... الطفلة عارية... ولا مكان معد للصلاة... من يُغسل (هارون)؟ تتناثر الأحكام والآراء المتباينة، بلهجات تتماوج فيما هو بين الحدة واللين، التشكيك والتوكيد... الجسد مسجى بلا روح... يجهل مصيره... يركض (خليل) خلف ظل أمه في طرقات (كفر سعادات)، حتى يكاد أن يلحق بها فتتبخر، يتناثر جسدها كحبات رمال على شاطئ (الأنفوشي)، الشيخ ينهض من مجلسه، ويمد يده مربتًا على مؤخرة (سارة بارتمان) العارية، فتعلو الصيحات في (بيكاديللي)، يعود الشيخ (عبد الحميد) ليتناول كنافة (أم ميشيل)، تصرخ (مليكة) بصوت هادر:

- أيقظهم مما هم فيه غافلون...

انهار كل شيء من حولي، كان السقوط هادئًا رغم كل شيء، كنت أهوي من حيث لا أعلم نحو ما لا أبصر ولا أدري، صرخت فأعلمني صدى صوتي

بأنه ليس هناك من صارخ سواي، تلاشت الجيوش من خلفي، ولم أبصر في سقوطي منهم أحدًا إلا (مليكة)، كانت تهوي على مقربة مني، وخصلات شعرها تتطاير من حولها وقد أغمضت عينيها، وطبعت على شفتيها بسمة هادئة، وقتما كانت عيون المردة المتزايدة في الفضاء اللانهائي من حولي، تحدق صوبي بدهشة.

سمعت صوت ارتطام كاد أن يصم أذني، وتلا ذلك تحركات مرتبكة للأعين في السماء، كنت لا أزال أهوي، وكانت (مليكة) متشبثة بطرف ردائي. عاد السكون، فبدأت أشعر بنشوة غير مبررة، بدأت أغيب عن الوعي، حين تنامى إلى أذنيّ المتألمتين، صوت عميق تخيلت أنه صادر من أحد أصحاب هذه الأعين الضخمة:

- مات نبي الله سليمان.

خارت قواي، اجتذبتني غيبوبة رمادية أشبه بسحب الخريف، غلبني النعاس، فنمت...

أو استيقظت!

فواصل ما بين الوعظ والشك

موروثات ومدونات منسية

جمعها ورتبها إبراهيم البنداري

الفاصل الأخير

اعتراف أمام كَاهِن رَحَـل

إني جارم خطّاء أثيم...
فكن أنت اليوم كاهن اعترافي...
وهبِ لي مِن مستراحك الديمومي، ما يسمح بأن أستلقي بضفاف ذكراك، راوياً حكاءِ... فقد قالوا يا ولدي إنك مُضاع... مفقود... لا وطن لك ولا جثمان... فأودعت ذكراك ثرى قلبي...
واريتك بالدمع والصمت، وجعلت لك بالأضلع سرادقًا منصوبًا، بقيت أجوب بجدرانه، وقد طمرت السر في ثنايا أعمق أنسجة القلب، وأكثرها مواتًا...
فكنت أنا المُعَزِّي... والمُعَزَّى، الدافن والمدفون...
ألم أقل لك إني جارم خطاء أثيم؟
باركت أخاك في كل بيت من بيوت الله عرفانًا وامتنانًا، وجئت أنت، فترفعت عن تكرار الحمد، وزهدت الرغبة في شكر المعز المذل، ظنًّا أن البلاء قد رفع، والابتلاء قد زال وولى بغير رجوع، فعاد وأخذك إلى جواره، وقتما كان حريّا به استدعائي، فهل جعل الله منك فداءَ لي، ولإخوتك؟
وإن رضيت بأمره وقضائه، ماذا أقول لـ(إبراهيم) وهو الذي قد كفر بالأضاحي منذ عهد طويل؟ منذ أن أبصر للشاة دموعًا تسيل قبل النحر بلحظات! فما بالك إن كنت أنت الأضحية يا (إسماعيل)؟
وإن دثرت في طيات الفؤاد مأساتك، فجعلت بين الواقع و(إبراهيم) سدًّا يحجب عنه ما كان، ماذا أقول لـ(مريم) وقد جعلت منك ولدها الغائب،

واستدعت في رفقتك أمومة مفتقدة، جالت في رحابها، وامتصت من زهرها رحيقَ حنوٍ، لم تتوقف يومًا عن نثره من حولك، وبثه في أوصالك، كلما مررت قادمًا أو أدبرت مرتحلًا، ماذا أقول وقد كانت بوجودك منتشية مظفرة، لا تحسب الزمن، ولا تأبه ببكاء الرحم الذي لا ينقطع؟

قلت لك، إني جارم خطاء أثيم!

فها أنا ذا، أقف حاسدًا (جميلة)، إذ منَّ عليها الله بالرحيل قبل أن يزورني اليوم ذلك الضابط المتجهم العبوس، تاليًا عليّ ما يقضي باحتسابك في عداد الشهداء، ولكن أمك تستحق عطف الله، وهي الجديرة برحمته يا بني، فقد حاق بها من ظلمي الشيء الكثير، ظلمتها في كل مرة تجولت فيها وتركت خطاي لتقودني إلى (خمارويه)، باحثًا عن أثر من الماضي، تاركًا رفيقة الحاضر تداعب وحدتها وتأنس بالفراغ المحيط بأنفاسها، وفي كل ليلة أغمضت فيها عيني لأبحث عن (عزيزة) بين ردهات الحلم ويقظات التمني، وهي راقدة إلى جواري، خاضعة، مستسلمة، قانعة بالمصائر...

كم لامني صمتها، وكم أدهشتني قوتها ومثابرتها، وكم آلمني فراقها قبل أن أتلو عليها ما يليق من عبارات الاعتذار، ولكن...

أليس الله هو من رزقني بـ(إبراهيم) في يوم ميلادها؟

أليس الله هو من غرس بالفؤاد عشقها نبتًا صغيرًا، وتركه لينمو ويترعرع، حتى ضرب بجذوره في شتى بقاع الروح، فتشبث بحواف الجسد؟ أيكفر المرء إن عاتب ربه!؟

ألم أقل لك يا إسماعيل، إني جارم خطاء أثيم؟

ماذا أقول اليوم لـ(عبد الناصر) وقد هادنته حين سلبني ميراث الجدود بدواعي العدل والمساواة، ثم رضخت له حين سلب معيته أملي في نشر نتاج التأمل والتفكر، فعاد ليسلبني إياك يا ولدي؟

ماذا عساه يفيد الحزن؟ وما يثمر العمر إن واصلت سقياه بالدمع؟

هل أواصل مهادنة الحاكم، أم أواصل إتقاني لأداء دور المحكوم؟

لم يعد بالعمر ما يغري بالثورة، وما عاد بالجسد ما يؤازر الخيال...

حتى وإن أمم الحاكم الأرض، والفكر، والبنين؟
هل أنتفض؟ أم أقنع بقضاء الله؟
هل أضم السر إلى قلبي حتى يحين الميعاد يا بني؟
لعل ذلك ما أنا فاعله، ففي إذاعته ضرر لمن أحب وتحب، وفي كتمانه تعجيل باللقاء...
سأظل على إيماني بلقياك ما بقي لي من العمر...
وسأعتنق السر كسبيل للخلاص من حياتي التي قفرت بغيابك...
كافراَ بكل ما قد يجعل ذلك اللقاء مستحيلًا...
فاقبل يا (إسماعيل) رجائي، وكُن كاهن اعتراف أبيك...
وارفق به إذ جاءك مسدلًا فوق ذنوبه ذاك الجلباب الأبيض...
وتشبثت يداه بمسبحة جدك...
اقبل رجائي... حتى أحَمِّل روحكِ بأسرار أثقلت الجسد فَنَاءَ بحملها!
فإني أقف الآن بين يديك مفضياَ بما لدي معترفًا...
أعترف بأنني قد أمضيت عمراَ في مدح حبيب الله المصطفى...
وعمّدت أخاك...
ولا يعلم سواك الآن، أنني حضرت به في مهده، صلاة في معبد اليهود في شارع (عدلي)...
دفنت القبطي بجوار المسلم، محققًا رسالتي التي كبلتها سلطات الحكام...
حفظت كتاب الله... وفهمته قبل الحفظ...
ووقفت برحاب ذكراك، معترفًا كما يليق بمسيحي صالح....
فأين الخطأ فيما أتيت؟ قلت لك...
ما أنا -دون شك- سوى جارم خطاء أثيم!

نوح | يوم اندثار الأمل - عام ١٩٦٧

فاتحـة الصُحُـفْ

قراءة الصفحة الممزقة من مُفتتح المدونة الثالثة

تجلس، فأجلس...

تضع عن يمينها بضعة ألواح، هيئتها كورق البردي، وكذا لونها، بيد أنها بدت أكثر صلابة، كل لوح، حجمه كالجريدة إذا ما فتحت لتقرأ، الريح القادمة من كل اتجاه لا تقدر أن تحرك هذه الألواح، ظللت محدقًا فيها، ناقلًا بصري بينها وبين الألواح من حين إلى حين. كانت ترتب الألواح، حين هدأت الريح التي لم أستدل على مصدرها، رفعت رأسي صوب السماء الخدرة، لم يعد أمرا مربكًا أن أطالع قمرين، وقد تشاركا سكنة صدر السماء ، ومراقبة أنفاسها الناعسة، يصدر عنها شهيق، فيعم السكون كامل الكون، يلي ذلك زفير بارد، يلفح وجهي الشارد، فيعيده إلى مشهده الأول...

رداؤها الحريري، الكاشف بتفاخر عن استدارة فخذيها المرمريين، عبر فتحته الممتدة إلى ما لا نهاية، يبدو وكأنه كافٍ ليقيها زفير السماء البارد، أراقب منبت صدرها، حيث يواصل نهداها سعيهما الحثيث للهرب من أسر ذاك الرداء الحريري الشفاف، الذي يظهر من جسدها الإغريقي أكثر مما يستر، ألاحظ أن صدرها في صعوده يعم ذات السكون، وفي هبوطه تهب الريح، وكأنها والسماء لهما ذات الشهيق والزفير! تتكلم:

- تلك صحفك (إبراهيم).

تقول فلا أجيب.

- انتقيت لك منها سبعة ألواح، حبرها لم يجف تمام الجفاف، أذن لي شيخي بأن أطلعك عليها، حتى تهدأ سريرتك، وتسكن حيرتك، فتتحرر...

تردف، أود التحدث، ثقل يفاجئ لساني فيمسي كمن به بَكَم.

- لا تحاول أن تتكلم...

تقول مشفقة:

- اعلم أن هذه أصعب لحظاتك معي، عقلك، وروحك، وخلايا جسدك، يقاومون، تظن أن لا طاقة لك بمجابهة الحقيقة، فإن جابهتها، تثق بأن كتمان السر ضرب من ضروب الخيال، ولكن معرفتك، زائلة لا محالة، وذاكرتك في نهاية الأمر، ستضيق بحمل أسرار لن تستوعبها، وستهوي منها الحقائق، الواحدة تلو الأخرى، إنه النسيان، أكبر نعم الرحمن التي يبخل العبد على خالقه بحمد فضائلها، اليوم تتذكر لتنسى، وتنسى كي تعود يوما لتتذكر...

أرتجف كالمحموم حين تضع الصحف أمامي مع آخر كلماتها، تتزايد رجفاتي بمطالعة أولى الصحف، قبل أن ينطلق الفضول من مقلتي سهماً يتمايل بين الألواح السبعة، وقد رتبتها أمامي جنباً إلى جنب. أشعر بدوار، أغمض عيني، أفتح فمي على مصراعيه متضرعًا للهواء أن يسكن صدري، تمزق مقلتي أواصر أجفانها لتطالع الصحف من جديد، فأتأكد من صدق نظرتي الأولى، فالصحف السبع، فارغات! يظهر عليها بين البرهة والبرهة، خطوط بلغات مختلفة لا تلبث أن تختفي في غضون ثواني، حروف تتقافز أمامي، تستقر على الصحف لوهلة، ثم لا تلبث أن تتطاير كالزئبق، حروف بلغات عدة، عربية، عبرية، فرعونية، ولاتينية، وبعض آخر لم أميزه، أهز رأسي، فألحظ أن لا حدود لجسدي، أغوص في الضباب من حولي بأعين مرتابة، لا جسد لي، فقط صوت (مليكة):

- تجرد يا (إبراهيم)...

تعيدها أكثر من مرة، الحروف المتقافزة آخذة في التزايد، تتكاثف، ثم لا تلبث أن تبدأ في التشابك، لتستحيل كلمات متقافزة، أميز للحظة اسمي قبل أن يتطاير مجدداً، تظهر أسماء أخرى، أشعر بوقع لها في نفسي، تلك أسماء مألوفة!

- اكتب يا (إبراهيم)، روحك هي قنينة حبرك، أنت الكاتب لكل ما تراه أمامك، تجرد، أعد كتابة الفصول الأخيرة، حتى تتحرر للأبد...

صوتها يأتيني بعيداً تلاحقه الأصداء، يشرق وجهها جليّا، في قلب الصحف، يبزغ بغتة أول مرة، يختفي عدة مرات، ثم يستقر، فتحدثني صورتها النابتة من الصحيفة الأولى:

- اتبعني...

تقولها، وابتسامتها البكر تزين ثغرها، فأطمئن، أتضاءل أنا، أو تتضخم الصحف، فأمسي كحرف بين سطور الصحيفة الأولى، وقد بدأت حروفها في الاستقرار، تختفي باقي الصحف، فيسود ظلام، وسكون لا تقاطعه سوى أنفاسي المسحورة، أشعر أن الثقل الضاغط على أحبالي الصوتية قد زال، فأصرخ: أريد قلمًا...

يهدر صوتي، ويدوي وكأن له ألف صدى، أميز في الأصداء المتلاحقة اختلاف نبراتي، وكأن أصدائي تنبع من حناجر أخرى، تردد ذات الكلمات بذات الطريقة، وبذات التوتر، ولكن أي منها ليس صوتي! يهمس صوتها الأنثوي في دلال من حيث لا أدري:

- لست بحاجة لقلم، فما تفعل، ما تقول، وما يدور بمخيلتك، يسطر فوق صحفك، آمن بما ترى، لا تخطُ خطوة واحدة للخلف، روحك الآن متحررة، تحلق بك، فوق أطلال الماضي، تنتقي من بينها ذكريات بعينها، لتحط عليها، وهناك، فقط كن على سجيتك، وستجدني دومًا إلى جوارك، كعهدنا معًا منذ الأزل.

أمرق في ردهات الأسطر، الحركة من حولي سريعة غير متسقة مع ما اعتادت عيناي، يستحيل لون الصحيفة كالسماء الآتية بعد غيم مطير، سكون، تداعبه زقزقة عصافير صغار، أحلق فوق هذا كله، أو يحلق هذا كله من تحتي، يهدأ الإيقاع تدريجيّا، تبدو أسطح منازل على مبعدة من موقع تحليقي، أسطح بيضاء، توحي وكأن السماء قد ندفت بالثلج مؤخرا، تبدو إلى جوارها جبال شاهقة في عليائها، يخترق قممها المدببة نسيج إحدى الغيوم الرمادية الشاردة، أسمع شهقات الأمواج إثر التحامها المأمول برمال الشاطئ الباردة، تشرق شموس في غير موضعها، أحلق

صوب الفراغ، أستدعي لوحة (نادية عيسى) حيث فرغ الرجل من خلع جلده، وأخذ يتابع ظلال الأجنة، السحب من حولي متنوع لونها، تلقي كل منها بأثر فريد في وجداني، تلك السحب الوردية هي سحبٍ الحب، حيث يقضي العشاق أماسيهم، وهذي السحب السوداء حتمًا سحب الغضب، أما هذه السحب الزيتونية اللون، والتي يماثل لونها عيني أمي، فهي سحب الرضا والطمأنينة لا ريب، سحب شفافة تذكرني بجسد (نادية عيسى)، تلاحقها فتكاد تلامسها سحب أخرى حمراء بلون شفتي (فرانشيسكا)، تلك سحب (إبراهيم)، سحبي أنا حيث نثرت بعضًا من أشلائي فوق مروج الهوى، وينابيع الشهوة، تبرز سحب بيضاء، شامخة، أبية، هي حتمًا مرقد (نوح أفندي)، تطاردها غيمة سمراء راضية بسمرتها غير المألوفة، أغلب الظن أن تلك السحب هي مستقر (أبو شنب)، أطارد السحب، وأبقى معلقًا إذ فشلت في الهبوط على الأسطح البيضاء، وعجزت عن السمو لملامسة السحب، وتقول (مليكة): اسكن جسدك فور أن تجده.

فأقرر أن أفعل...

(٢١)

حكمة وسطى

كشف مخبوء

وما نحن إلا أسئلة نثرها الرب في الأرض، لتبحث عن إجابات مخبأة لا يعلم مستقرها سواه، كلنا مُكلفون، محمّلون برسالة البحث عن إجاباتنا، أين الله؟ وماذا أراد بخلقنا؟ كم جسدًا تسكن الروح في سعيها لإيجاد الإجابات؟ أسئلة صادمة مشروعة، طمر الله أجوبتها في كل حدب وصوب، بين المشارق والمغارب، فوق التلال، وأعلى الهضاب، في خبايا الأنهر وأسفل رواسي الجبال، لم يجعل الله بيننا سؤالًا غُيبت إجابته، وما أمرنا بما هو أكثر قدسية من مهمة البحث والتنقيب، حتى تتحقق الرسالة حين يلتقي السؤال بالجواب، فتسمو الروح، وترتقي، وتتجرد من ماديتها الأبدية، وتسلك دروب النور...

الشيخ المَلِيكي

(٢٢)

أخي الغالي آدم...

خطابك أثلج صدري، وأكمل في مخيلتي حلقات اعتدتها غير مكتملة، أنا أشعر بما تمر به، وددت لو حادثتك هاتفياً، ولكنني غدوت الآن أكثر قناعة، بأن الكتابة، تغني حتما عن مئات الدقائق من الحديث، خاصة حين يتعلق الأمر، بـ(إبراهيم البنداري).

سأزيدك من الشعر بيتاً ظننته غير مكتمل:

كعادتي، حين أختلي بنفسي بعيدًا عن طواحين العمل الذي لا ينتهي، أقوم بكتابة الشعر، وفور بداية التكون لأول الأبيات، أحرص على تسجيلها بصوتي، كي لا تتوه مني عبر طرقات الذاكرة المزدحمة بأمور شتى، ولذلك، فإنني وكما رأيتني آخر مرة، أحتفظ دوما بجهاز تسجيل صغير، يصاحبني ولا يفارقني في أوقات الفراغ، ولولا ذلك لما تمكنت من إصدار دواوين شعري، خاصة الأخيرِ منها؛ (مغمض العينين بصيرٍ).

منذ ثلاثة أعوام تقريبا، قررت بعد تردد وخوف لازماني لسنوات، أن أجري عملية تصحيح الإبصار المسماة بـ"الليزك"، كنت أرفض الاستغناء عن نظارتي وكأنها صديقة، أو رفيقة درب، حتى أقنعني طبيبي أن أستبدل بعدساتها عدسات لحفظ البصر، بعد إجراء "الليزك"، وبذلك أصحح بصري، ولا أستغني عن شريكة الكفاح.

في إحدى مستشفيات الكويت، أجريت تصحيح الإبصار، ومكثت هناك ليلة واحدة للمتابعة والاطمئنان، إذ ارتفعِ منسوب السكر في الدم في ذات ليلة إجرائها، وهكذا، قضيت الليلة متفكراً، فكنت أسجل من حين لآخر بيتاً من أبيات إحدى القصائد في طور مخاضها، غفلت دون أن أدري، حتى أقلقني شعور غريب بأنني لست وحدي، فاستيقظت، تأكدت من صدق حدسي، وقد كان رجل عجوز يجلس على حافة سريري، مربتاً على ساقي، كانت الإضاءة خافتة بطبيعة الحال، وكان بصري لا يزال غائماً

مشوشًا، ضغطت متوترًا على زر التسجيل، دونما سبب واضح، فقال الرجل ما حفظته عن ظهر قلب، بعدما أعدت سماعه مئات المرات فيما بعد، قال العجوز:

"أغمض عينيك يا بني... حتى تنقل ملكة الرؤية، من الجسد إلى الروح، الحواس مَعْنِيّ بها الجسد، فأما الروح إذا ما أرادت الإبصار، وشرعت في الاتصال، فإن أول ما تقوم به هو أن تغمض العينين، لتنفصل عن عوالم الجسد، وتحلِّق في فضاءات خلقها الله للإنسان، فنسيها وتناساها، منشغلا بمتع الحواس...

فماذا إذا ما قبلت عشيقة تهواها، ألا تغمض عينيك!؟

وإذا ما عجز الجسد عن أدراك المأمولات، فأتاك بها العقل في حلمك، ألا تكون مغمض العينين!؟

وإن فاض بك حمل الروح فأضنى الجسد، فبكيت، هل تبكي دون أن تغمض عينيك!؟

وحين تلقي برأسك المثقل بأنصاف الأحلام، فوق صدر أمك الذابل، ألا تغمض عينيك؟

فإذا ما هرم فيك الجسد واعتل، أو حارت روحك في إطارها، فدعوت ربك في صلاتك بالنجاة، ألا تغمض عينيك!؟

وأما إذا ما طاردتك فكرة وألحّت عليك فتملكت منك، ألا تغمض عينيك لتلحق لها!؟

اعلم -يا بني- إنك تغمض عينيك لترى، لا لكيلا ترى، ولكي تعلم، لا لكيلا تعلم، أعمل بصيرتك إن غاب البصر عن الجسد، وثق بأن روحك قادرة على رؤية ما يعجز عن إدراكه إطارها الفاني...

انظر: تلك امرأة منتقبة قد مرقت من أمامي الآن، هي تخفي عينيها وتظن أن في ذلك حجبًا لها عن الكون المحيط، وترتدي عباءة قاتمة تتسع لامرأتين، تظن أنها تحجب جسدها عن ذات الكون وقاطنيه. هي لا تفعل ما تظنها فاعلة، هي لا تخفي عينيها لتحرر الروح فيها، إنما هي تكبلها،

وتخشى جل ما تخشاه أن تتحرر هذه الروح، فترى ما هو خارج هذه العباءة، فما تلك العباءة سوى قضبان محبس ينسجه الجسد حول الروح، ليكبح جماحها..
حرر روحك يا (يحيى)، تجد إجابات لأسئلة أحاطت بك منذ الصغر، أغمض عينيك لتدرك أن الإجابات كانت دوما بالجوار، ولم تفارق يوما ضفاف الأسئلة الحائرة، ستعود لك مقدرتك على الإبصار عما قريب، ستعود تدريجيّا، وربما بدأت بالفعل، سيكون بصرك أقوى من ذي قبل بفعل جراحة "الليزك"، فماذا عن بصيرتك!؟ وقدرة روحك على إبصار الإجابات، بعد حديثنا هذا!؟".
حين أنهى حديثه فَتَحْتُ عينيّ على اتساعهما، فرأيته بوضوح نسبي عن ذي قبل، وجهه مألوف، وإن كانت رؤيتي لم تكن صافية بعد، نهض فشكرته، فابتسم على ما أظن، ورحل دون أن يضيف كلمة واحدة، سألت الممرضة الآسيوية عنه، فقالت إن رجلًا هنديّا انتظره بالخارج، كان يخاطبه بالدكتور، فاطمأنت نفسي، بأن أقنعتني بأنه أحد كبار أطباء الإبصار بالمستشفى...
كان ذلك حتى رأيت ما أرسله لي (شريف) يا (آدم)، فقد ارتدَّ الموقف بأكمله ليزلزلني، إذ إن الرجل الباكي في جنازة (داليدا) هو نفس الشخص الذي زارني ذلك اليوم في المستشفى، بدا أصغر سنًّا بطبيعة الحال في الجنازة، ولكنه ذات الشخص، لقد زارني أبي ذلك اليوم يا (آدم)، وكم اختلفت حياتي منذ تلك الزيارة. حتمًا سأسمعك التسجيل بصوته عما قريب حين نلتقي.
أعلم ما يعتريك الآن من توتر، وفرح حذر تغلفه قشعريرة محببة، ولكن أريدك أن تتمالك أعصابك حين أعلمك الآن أنني قادم في بداية شهر مايو، أي بعد شهر من الآن، قادم للأبد يا (آدم)، تحدثت إلى العضو المنتدب للشركة التي أعمل بها، وشرحت له ما أشعر به، فوافق على نقلي إلى فرع

الشركة بالقاهرة، سأتحصّل على راتب أقل بطبيعة الحال، ولكنني سأفوز بما لا يوفره المال...

أريدك أن تخبر أمك بذلك حتى تكون أنت من يزفّ لها البشارة، فلنتوقف عن لومها، لن يصلح العتاب ما أفسده الزمان الرامح بغير توقف، ربما وددت لو تركت في منزلنا صورة واحدة لأبي، كانت لتمكنني من التعرف عليه حين جاءني، ولكنني تعودت التوقف عن استخدام كلمة "لو"، فور صدور ديواني القادم المعنون بها، ذلك خبر آخر، هو الأخير في كتابي هذا...

فقط اعلم أنني لم أحضر إلىِ القاهرة منذ أن رحلت حورية، فقط، لأني لم أعتد رؤيتك ضعيفًا منكسراً، كما حملت الأقدار، أن يتبع ذلك بفترة وجيزة، رحيل الحاج (عبد الصبور)، ولكن حسبي أنك الآن كعادتك، قادر على بث الطمأنينة في قلوبنا جميعًا، وقد جاءك المدد من بين أوراق أبينا الغائب...

كانت تلك كلمات عجز عن نطقها اللسان في مكالماتنا الهاتفية.

سلامي لـ(حواء) و(جنة) و(شريف)، وقبل ذلك وبعده، للوالدة الغالية...

يحيى إبراهيم البنداري

(٢٣)

شتيت المتداخلات

المتداخلة الرابعة

سنوات استكشاف النفس

ما بين مليكة والحاضر والأمس

وداعًا سيد القوم

بالأمس كان يئن، وكان الأمس دوري في زيارته والاطمئنان على أحواله، التي لم تعد تسرّ بطبيعة الحال، نوح أفندي كان قد أصدر ميثاقًا يقضي بأن يتناوب على تمريض خادمنا الأمين، رجالات المنزل الثلاث، وليلة البارحة، وجدته في أسوأ حالاته، كان ككومة عظام هرمة، كل ما يثبت انتماءها للحياة، هو ارتفاع بطيء ينتابها إثر الشهيق، يتلوه انخفاضِ مباغت مع الزفير، توقف عن هذيانه المعتاد، الذي لم أفهم معظمه، نظرًا لالتباس وغموض حروفه المثقلة بثلاث وثمانين خريفًا، وكذلك لتعثري الدائم في فك طلاسم لهجته الفريدة. رحلت عن غرفته، بعد أن أضأت له كل الشموع المتاحة، كما يفضل هو منذ الأزل، وانتابتني حالة من الكآبة والتشاؤم.

قال الطبيب أنها أعراض الشيخوخة لا غير، وأوضح أن أعضاءه المسئولة عن وظائفه الحيوية، أمست تعمل بكفاءة متدنية، لا لمرض أو التهاب أو عدوى، بل لأن فترة صلاحيتها، قد أوشكت على الانقضاء.

حين جاءني (إسماعيل) مهرولًا مساء اليوم الموعود، تيقنت أن الفاجعة التي تنطق بها قسماته الملتاعة تخص (أبو شنب)، رغم اعتلال صحة أمي، وتدهور حالتها يوما بعد يوم، كان شعور راسخ يملي عليّ أن (أبو شنب) سيكون أول من يستدعي ملك الموت في منزلنا هذا.

قال (إسماعيل) أنه يحتضر، فركضت وإياه الدرج، حتى تربعنا بجوار سريره المتراقص الظلال، بفعل تراقص ضوء الشموع التي لا تنطفئ، ثم ما لبث (نوح أفندي) أن لحق بنا دون أن أعلم ما استدعاه في تلك اللحظة المتأخرة من الليل، بيد أنه ظل على مبعدة من سرير خادمه، وقد عكس ضوء الشموع عينيه اللامعتين.

كانت أنفاسه تتباطأ، حين كانت عيناه معلقتين بـ(نوح أفندي)، مرت لحظات متثاقلات، استجمع هو خلالها ما بقي لديه من كليل القوى، ليهمس بفحيح هزيل ضامر:

- لا داعي للعجلة...

تبادلت و(إسماعيل) نظرات استعلام صامتة عن مقصده، وقت أن كان (نوح أفندي) يهز رأسه إيجاباً وقد ازدادت عيناه لمعانًا.

بقينا نتجرع اللوعة، من كأس أسى لا تنضب، سكنت أصوات الأنفاس واللهاث، وبقي صوت شهيقه المتباطئ، وزفيره الخائر.

علِى يسار مرقده، خزانة خشبية صغيرة، لا يتجاوز ارتفاعها عن الأرض مترا واحدًا، تعلوها مرآة تماثلها حجمًا، لها إطار خشبي، يجعلها تبدو كأنها والخزانة قطعة واحدة، كنت أتفحص كل هذا وقت أن كان العجوزِ الأمين يشير بعينيه لنوح أفندي، يقترب منه، فأبتعد رفقة (إسماعيل) نظراَ لضيق الحجرة، مفسحين لأبينا مساحة ملائمة، فينحني حتى تكاد أذنه أن تلامس فم (أبو شنب)، يهمس العجوز المحتضر بما تجحظ له عينا (نوح أفندي) لمسمعه، ينبش الفضول مخالبه في صدرينا، ويشير (نوح أفندي) لنا بالمغادرة، فنطيعه، صاغرين حزانى.

حين جلسنا على درج المنزل القريب من حجرته، انهمرت دموع (إسماعيل)، عكفت على تهدئته دون جدوى، همهم ببضع كلمات، تبينت في حروفها المدغمة بفعل النشيج، همومه المختلطة، المتنقلة ما بين مرقد (أبو شنب) بجوارنا، وغرفة أمي في الطابق الأعلى، كنت أتساءل عن أمد تماسكي، وكم سيطول قبل أن أنهار بدوري؟ أشعر برعشة في أنفاسي، وبرودة بأطرافي، أحتضن (إسماعيل) بذراعٍ واحدة، كانت تطوقه منذ أن فاض دمعه، يخرج (نوح أفندي) مكفهراَ من غرفة (أبو شنب) ويأمرنا بعدمِ الدخول، أسأله إن كانت آلامه قد توقفت، يومئ برأسه إيجاباً، معلنًا وفاة (أبو شنب)...

شرخت صدري آهة مكتومة، طالت حتى شعرت وكأنها قد شطرت ظهري إلى نصفين، مال جسدي يميناً حيث يجلس (إسماعيل)، فتظاهرت أنني أحتضنه، بهت (إسماعيل) وشحب وجهه، ثم انتفض ونهض، قفز الدرج في وثبات سريعة صوب غرفة أمه، فبدا لي كأنه، إذ فقد أول المؤرقات، قد هرع ليطمئن على الثانية.

مرت أمامي خيالات، صور، مضحكات ومبكيات، أطلقت العنان لدمعاتي الحبيسة فور رحيل اسماعيل، وددت الركض حتى منزل (نادية عيسى) والارتماء فوق صدرها، فمنعتني مسئوليتي تجاه الجثمان المسجى على بعد أمتار من مجلسي، حتى ظهر (نوح أفندي)، وبرفقته، الأب (يوحنا)، والشيخ (سلامة) شيخ المسجد المجاور، المقرب إلى (نوح أفندي) بصفته أنجب من تتلمذ على يدي (الشيخ الرفاعي) رحمه الله. كان الأب (يوحنا) كهلًا مريضًا، فسارع ثلاثتنا بإجلاسه، قبل أن يلحظ أبي التساؤلات الصارخة في مقلتي، عن سر حضور الشيخ والقسيس معًا، وعلاقة ذلك بوفاة (أبو شنب)!

دلف الى حجرة المتوفَّى، حين لمحت (مريم) تقف متشحة بالظلام أعلى الدرج، سمعت صوت (نوح أفندي) يناديني، تسارعتِ دقات قلبي، فاستأذنت الشيخ (سلامة) والأب (يوحنا)، وهرعت ملبيًا نداء المنادي، فوجدته جالسًا على حافة سرير (أبو شنب)، كان يربت على ساقيه الباردتين بحنو، وقد بدا على وجهه إرهاق بالغ، سألني بصوت خفيض يناسب الحدث، ويتسق مع حدوثه في ذلك الوقت المتأخر من الليل:

- هل تعلم عن (أبو شنب) ما لا أعلمه!؟

قال فأجبت دون تفكير:

- اسمه الحقيقي (هارون) كما قال لي ذات يوم، غرق أبوه قبل ولادته، واختطف من أمه ليمسي عبدًا، وارتحل بصحبة تاجر للعبيد حتى اختاره جدي ليعمل لدى عائلتنا، يقول إنه ولد بالتزامن مع نزول الإنجليز بمصر بعد اندلاع الثورة المهدية في السودان...

كنت على ثقة بأنه على وشك الكشف عن أمر جلل، فتعجلته:

- ماذا حدث؟ بماذا أسر لك قبل رحيله؟

يرفع رأسه، ويصارحني:

- قال إنه مسيحي!

دار رأسي، فافترشت الأرض بجوار قدمي أبي، تفحصني وجهه المكفهر بريبة لم أعتدها منه، دام شكه لثواني، ثم تلاشى، وقد تذكر رصيدًا ضخمًا لأمور جمعتنا، تلاقينا فيها عبر جسور من الثقة والمصارحة.

أخذ يكرر ذات السؤال مرارًا وتكرارًا:

- لماذا أخفى الأمر؟ ماذا رأى مني لينكر دينه!؟

حلق تساؤله الملتاع في سماء الغرفة، عاد (إسماعيل) فقبل الجثمان، وغادر في صمت وقد هدأت روعته بالاطمئنان على أمه، بذل (نوح أفندي) جهدًا جهيدًا كي يظل على صلابته المعتادة، شعرت بتوتره المتصاعد، وشعر هو بملاحظتي له، فغادر الغرفة الصغيرة المربعة الأضلاع، وقد بدا ظله مهزوزًا على ضوء الشموع.

- حانت لحظات الراحة والسكينة يا عم (هارون)، فتشبث بها، ولا تخف...

تمتمت باكيًا وأنا أحكم تدثير جسده الهزيل بغطاء السرير، ثم توقفت حين أوشكت على تغطية وجهه الأسمر الهادئ، فلم أقوَ على ذلك، عاودت افتراش الأرض بجواره، فكان أن غفوت، أو ربما غبت عن الوعي لدقائق، رأيته فيها باسما متأنقًا، مُطْمَئنًا:

- لا تجزع ولا تدمع يا (سي إبراهيم)، فإني بخير...

- هل فارقت دنيانا حقًّا؟ هل هذا حلم، أم أن وفاتك منذ دقائق كانت هي الرؤيا!؟

- أنا لا أعلم. فقط زالت آلامي، واعتقدت أنني أنا الحالم بك! الضباب محيط برؤيتي كما يكون الأمر في الأحلام والرؤى، صوتك يأتيني وقد

اقترنت به أصداء كثيرة، غير أنني أشعر بطمأنينة لم أعتدها، وراحة لم تألف مصاحبتي!

تساءلت للحظات عن طبيعة الحالم، وماهية زائر الحلم، فاختلطت الاحتمالات، ولم أقوَ على تمني أي منها، حتى استيقظت بغتة، وقد صدر عني شهيق عميق، وكأنني كنت محرومًا من التنفس للحظات طالت، طالعت سريره من خلفي فوجدت جثمانه قابعًا بذات الوضع والموضع، مسحت ما تبقى من متيبس الدمع على وجنتي، حين تراقصت أنوار الشموع، فاعترتني قشعريرة باردة، دفعتني للصعود خلف أبي، حيث استقر في غرفة المسافرين رفقة الشيخ والقسيس، دلفت إلى الحجرة فلم ينتبه ثلاثتهما لوجودي، وقد علت نبرات النقاش المثقلة بالذهول. قال (نوح أفندي):

- لماذا أخفى الأمر؟ ماذا رأى مني لينكر دينه!؟

يصمت ثلاثتنا لبرهة، فيقول أبونا (يوحنا):

- اعتقدت أنني عايشت بالفعل أكثر الأمور عجبًا وأعتاها استنكارًا، ولكن الزمان دائمًا ما يأتي بالجديد!

يصمت الشيخ (سلامة)، ثم يجيب على تساؤل أبي اللانهائي:

- ربما بدأ ذلك بمجيئه أول مرة رفقة أبيك رحمه الله، وقد وجده رجل أزهري ومحفظ للقرآن، فقرر إخفاء الأمر!

أتنحنح فيتنبهون لوجودي، يسأل أبي عن (إسماعيل) فأجيبه بأنه غادر المنزل منذ دقائق، دون أن أعلم وجهته. يتساءل الشيخ (سلامة):

- ماذا لو كانت لحظة هذيان في ساعة موت؟ ماذا لو لم يكن مسيحيًا، ماذا لو كان مسلمًا وتنصر.. أو مسيحيًا فأسلم؟

يزيد تساؤله من حيرتنا، فيصدر عن (نوح أفندي) إيضاحًا قاطعًا:

- لن تغير أي من هذه الاحتمالات من حقه في أن يُصلى عليه، فيدفن، يا شيخ (سلامة)، فقط أريد التوصل إلى واقع الأمر، ولهذا أصررت على مجيء كليكما برفقتي.

غادرت اجتماعهم مسرعًا فور تذكري لحقيقة فاصلة، من شأنها أن تنهي الجدل القائم، وتريح الجثمان المسجّى بالأسفل، إذ قفز إلى ذهني بغتة، أنني رأيت (أبو شنب)، يقبل مصحفًا صغيراً رمادي اللون، أكثر من مرة، بل إنه أقسم عليه ذات يوم قائلًا (والله العظيم هذا حدث)، وذلك في ذروة مشاحنة احتدم فيها نقاشه، مع شخص لا أذكره، في ليلة من ليالي الحضرة.

لحقت بي (مريم) المكلومة، تأبط كل منا ذراع الآخر، فكنا نعتضد ببعضنا بعضًا، سألتها عن أمي، فقالت ما معناه أن بصاقها يزداد احمرارًا، كانت عيناها محمرتين، وقد سال من دمعها الكثير، ولجنا إلى حجرته الصغيرة، كان لها سقف مائل، يرجع إلى مرور الدرج أعلاها صعودًا إلى المنزل، وكان لديه في غرفته خزانتان خشبيتان، الأولى صغيرة الحجم، موقعها بجوار سريره المعدني ذي الأعمدة القصيرة، وتعتليها مرآة ضخمة، أما الخزانة الثانية، فقد كانت أكبر حجمًا، وكان موضعها أسفل الجزء المنخفض من السقف المائل، شرعت و(مريم) نفتش صغرى الخزانتين على عجل، فلم نجد بها ما يفيد، سوى إمساكية لشهر رمضان، مضى عليها ستة أعوام، في جوف الخزانة وجدت (مريم) كرباجه الأثير، الذي لم يستخدمه سوى لشق وجهه منذ سنوات طوال، فرغنا من الخزانة الأولى، فانتقلنا آليًا إلى الخزانة الأخرى، وجدت (مريم) صورة لي في طور الصبا، ووجدت بدوري صورة أخرى أحدث لـ(إسماعيل)، فبكيت، وكان دمعي أكثر سخونة عن ذي قبل، قاطع ترنيمة الصمت نحيب (مريم)، لم آبه لما تمليه عليّ سنوات عمري التسعة والعشرون، من تماسك مفترض، وصلابة مرجوّة، خارت قواي وقد استدعيت المئات من المواقف التي جمعتني به، وجاوز حزني على فراقه ما توقعته، خاصة وقد كنا على علم بأن رحيله مسألة وقت ليس إلا، ولكن، ما أقسى الواقع حين يقارن بالمتوقعات، وما أصعب لحظة فراق تقارع الذكريات، فأسقط بينهما مهزومًا، في معركة لم أخض أيًّا من فصولها!

- تماسك يا (إبراهيم).

همست بحروف هي ما بين الشهيق والنواح المكتوم، غامت رؤيتي قليلًا، وتشوشت بفعل سريان الدمع، جففت وجهي بقطعة من ملبسه، وجدت أسفلها مصحفه الرمادي الصغير، الذي استدعاني لهذا البحث القاسي، كان غلافه قد انفصل عنه، فتناولته برفق، ناولت صوري وصور إخوتي إلى (مريم)، وأبقيت كتاب الله في يميني، مطالعًا غلافه الداخلي، حيث طبع عليه بخط مزخرف أنيق "إنجيل يوحنا"!

جحظت عينا (مريم)، وصرخت قسماتها "لماذا؟"، راجعت الغلاف الرمادي، كان غلافًا جلديًا أنيقًا، مخطوطًا عليه "القرآن الكريم"، فوجدت له جيبًا صغيرًا في الجزء الداخلي منه، كان الغلاف تحفة فنية يدوية الصنع وفقًا لتقديري، ربما يمثل كنزًا أثريًا، إذا ما وقع بين يدي خبير، يقدر أن يستنبط زمان ومكان صناعته، بيد أنني، حين مددت سبابتي مستطلعًا ما يحوي الجيب الداخلي، وجدت ورقة شبه بالية، مطوية على هيئة مثلث، وقفت بجوار الشموع قاصدًا قراءتها، تحركت المرآة الضخمة وقد اتكأت على أحد جوانبها، كادت أن تهوي أرضًا لكن (مريم) لحقت بها، بيد أنها كانت قد تزحزحت قليلًا، لتُبرز جوالًا قماشيًا مطويًا، وقد علق بعناية خلفها، جلست بجوار قدمي هارون، ناولتني (مريم) الجوال، ربتُّ على قدمي خادمنا الأمين كما فعل أبي منذ قليل، وأنا أطالع صورة السيدة العذراء، وقد حملت وليدها النبي، في رسم متقن، سكن اللوحة التي أخرجتها (مريم) من الجوال للتو.

كان حبر الحروف المخطوطة في الورقة البالية، منعكسًا في مواضع طيها، جاعلًا من قراءتها أمرا بالغ الصعوبة، لاحظت فقط، أن ما بين يدي خطاب، ذيله توقيع (عبد الكريم البنداري)، أعدت طي الورقة، ودسستها في جيبي لأقرأها لاحقًا. طاردتني نظرات (مريم) بفضول، فاحتضنتها، ثم اتخذت الدرج إلى الأعلى، صاعدًا بروية لا تلائم الحدث والتوتر الناشئ عنه، تابعت (مريم) حتى دلفت إلى حجرة أمي، توقفت لبرهة مستعيدًا

زخم الأحداث، حتى بلغني شيء من الحديث الدائر في غرفة المسافرين، وقت أن كان الشيخ (سلامة) يوضح طرحًا ساقَه في غيابي:

- لا بد من تغسيل الجثمان يا (نوح أفندي)، والطقوس لدينا تختلف عن مثيلتها لدى الأب (يوحنا)، غير أنني قصدت بتساؤلي، موضع الدفن، وكيفيته، فهل سيوارى التراب في كفن، أم في تابوت!؟

يقاطعه الأب التعب:

- وكذلك أين نصلي عليهِ!؟ عرفه أهل الحي مسلمًا، وعليه، فلن يستسيغ أي قبطي أن يُصلى عليه في الكنيسة...

فيجيبه الشيخ (سلامة) مطرقًا:

- بلى، ولكن لا يستقيم الأمر كذلك، إن صلينا عليه في المسجد، وقد علمت أنه مسيحي.
- نصلي عليه هنا، في غرفته، فقط ثلاثتنا، وينضم إلينا (إبراهيم) و(إسماعيل)...

يدوي اقتراح (نوح أفندي) ليذهل رجلي الدين، قبل أن يجيبه أبونا (يوحنا) وقد تبسم واهنًا:

- ما زلت على عهدي بك يا (نوح)...

أدخل الحجرة معلنًا عن كشفي الفاصل، عارضًا إنجيله ذا الغلاف القرآني، ليتمتم (نوح أفندي):

- ماذا رأى مني لينكر دينه!؟

قال ثم نظر صوبي:

- كاد أن يتعارك مع أبو (ريمون) حين أشاعت زوجته الثرثارة أنك مسيحي، أتذكر؟

أومأت برأسي إيجابًا، فأردف:

- فعل ما فعل، مناصرة لك وقد وجدك مهمومًا بما قيل، لم ينزعج وقد بدا عليك استنكار لدينه، بل انتفض لأجلك أنت، فقط!

قال مشدوهًا فبكيت، تباطأت الدقائق، وارتعشت عقارب الساعة، شرد الشيخ (سلامة)، وأغمض أبونا (يوحنا) عينيه، فلف المشهد سكون لا تقاطعه سوى أصداء أنفاس الجلوس، كنت قد استنفذت قسمًا هائلًا من طاقتي، عبر الدقائق التي قضيتها في غرفته، وكان شعوري متوافقًا مع (نوح أفندي)، غير أن عقلي لم يقو على استبيان الأسباب، واستدعاء المبررات، وإن بدا الأمر أيسر على الذهن بعد ذلك بأيام قصار.

عاد (إسماعيل) لينضم إلينا، اقترب مني وهمس لي بأن (نادية عيسى) تنتظرني أمام باب المنزل، كان الوقت متأخرا، إلا أنني كنت في أمس الحاجة للقائها، نظرت له بامتنان، وقد كان غيابه لاستدعائها كما استنبطت، ثم أسرعت متلهفًا للملتقى، قالت بصدق حين جلست على عتبة باب البيت:

- البقاء لله يا (إبراهيم)، قلبي معك، فأنا أعلم مدى تعلقك به، رحمة الله عليه، نشكر الرب إذ أزاح آلامه وأنهى معاناته...

كانت تعلم أنني ما زلت متألمًا برحيل عم (عبد الفتاح) قبل أسابيع قليلة، وكانت تثق أنني ما زلت متيمًا، متشبثًا ببواقي الآمال الراحلات، جلَسَتْ، فجلستُ بجوارها، هادئًا منهكًا، ربتت على ركبتي مواسية، فأحطت كتفيها بذراعي، كنت بحاجة لها أكثر من أي شيء، وقد بات الفؤاد مشطوراً إلى شطرين، امتلأ أولهما بلوعة فراق (أبو شنب)، وسكن الرعب ثانيهما، وقد أمسى وضع أمي في تدهور مضطرد، متصاعد، لا يُهدئ من وتيرته زيارة طبيب، أو وصفات حكيم، كنت أنا و(إسماعيل)، نلهث في سباق محموم في الاتجاه المعاكس لرحيلها الداني، كنا نركض في مضمار من التشاغل، هاربين من ملاقاة مصيرها المحتوم، ناسين أو متناسين، أن أطرافنا مكبلة بمرقدها، بحبال سرية لا تنقطع، راضين بمواصلة الركض، متيقنين أننا لن نجني من سباقنا هذا، غير اللهاث.

أزاحت يدي من فوق كتفها المستكين، وهمست بنبرات جادة:

- أنت الآن على مشارف الزفاف، ولك خطيبة في (التوابية)، ولا يصح أن يراك الناس هكذا، فيظنون بك ما ليس بك...

قالت فتذكرتِ (دنيا) للمرة الأولى في ذلك اليوم المشحون، فاعتدلت في مجلسي، مقطباَ حاجبي في ضيق، فضحكت هي ضحكة قصيرة:

- سأراك مجدداً عما قريب.

قالت كذباً، ما تعلم أنه لن يتحقق، فكان ذلك لقاؤنا الأخير، قبل سفرتها المفاجئة التي تلت ذلك بأسابيع، تاركة لي بضعة أسطر في خطاب لم أقو على التخلص منه فيما بعد....

نَهَضَت مُغادرة، فأخذت أتابعها حتى صارت على مبعدة أمتار من مجلسي، متخيلًا مصيري وإياها إن قبلت سابق طلبي بالزواج منها، حتى قاطعني صوت (إسماعيل) من خلفي:

- لا بد أن تحضر، أبي يصر على إتمام الغسل والصلاة على (أبو شنب)، في غرفته هنا!

سارعت بصحبته، لأجد الرجال الثلاثة وقوفًا في ذات الغرفة حيث تركتهم منذ دقائق، وكان (نوح أفندي) يقول:

- أنت تعلم كيف تكون صلاة الجُنَّاز يا أبونا، وتعلم ما ينبغي أن يُتلى من مزامير في حضرة المتوفَّى، سنُغسله، فنصلي عليه ونرفع البخور، ونسكنه نعشًا يحمله أربعة منا، ثم نشد الرحال إلى (التوابية)، حيث يدفن بمقابر عائلتنا، بإمكانك البقاء يا شيخِ (سلامة) وحضور الغُسل، وبإمكانك إن حضرت أن تتلو ما تراه مناسبا من آياتنا وأدعيتنا، ذلكم ما أنا فاعله، بقيتم أم رحلتم، إكرام الميت دفنه يا سادة...

قال وهم بمغادرة الحجرة مستأذنًا الشيخ والقسيس، غادر فبقيت أنا وإسماعيل باحثين عن ردة فعلهما، تبادل أربعتنا النظرات، ثم كان أن تبسم أبونا (يوحنا)، وهمّ مغادراً خلف (نوح أفندي)، منادياً إياه:

- ولكن لا تقام الصلوات ولا يرفع البخور خارج الكنيسة يا (نوح)، تمهل...

يقول مغادراً الغرفة خلف أبي المرهق، فيأتيه صوته من أسفل:

- سيحصل على ما يليق به يا أبونا، كان رجلًا صالحًا.

يومئ الشيخ (سلامة) برأسه موافقًا، ويردد:

- صدقت والله يا (نوح أفندي)، كان ذلك العجوز صالحًا، ولم نرى منه يومًا ما ينفر، فلم يغتب أحدًا، ولم يدخر جهدًا في معاونة أي من أهل الحارة، ولم يسمع عنه يومًا أن آذى بشرا ولا طيرا...

يقول الشيخ مغادراً خلفهما، فيمسك (إسماعيل) بيدي منبهًا، قبل أن يقول بعزيمة وإصرار تمنيت أن أمتلكهما يومئذ: هيا!

وقف الشيخ (سلامة) خارج الغرفة، معلنًا أنه سيكتفي بقراءة ما يتيسر له من الآيات والأدعية أمام الباب، احترامًا لقدسية الطقوس التي سوف يؤديها الأب (يوحنا)، ندلف أنا و(إسماعيل) إلى الغرفة، فيطلب أبي أن يبقى منا واحد فقط لا غير، على أن يغادر الآخر نظرًا لضيق الغرفة، يرمقني أخي الأصغر بما يعني بأنني الأحق بالبقاء، فيرحل عن ثلاثتنا ويستقر جالسًا تحت قدمي الشيخ (سلامة)، تأتي (مريم) ببخور أتت به من حيث لا أعلم، فيلتقطه منها أبونا (يوحنا)، تغادر (مريم) لتستقر هَلعَة إلى جوار أمي، يُجرد (نوح أفندي) وأبونا (يوحنا) (هارون) من ملَابسه، وأساعدهما لنضعه فوق خشبة، صنعاها بأن خلعا أحد بابي الخزانة الخشبية، ووضعاها بوضع أفقي فوق كرسيين صغيرين، سجي الجثمان عاريًا وقد سترت عورته، يأتينا (إسماعيل) بسطلين من الماء، وقطعة قماشية بيضاء، كما طُلب منه...

- أي قبلة نوليه وجهه؟

يسأل أبونا (يوحنا)، فيجيب (نوح أفندي) قاطعًا، قاضيًا بأحكام القادم من الأمور:

- غسله كما يكون الغسل في الكنيسة.

يهم أبونا للشروع في الغسل، يطلب مني ومن أبي مساعدته، فيعهد لي بغسل رأسه، تستفسر عينا (نوح أفندي) مني عن مقدرتي على الإتيان بذلك، فأومئ برأسي إيجابًا.

تغمرني سكينة مفاجئة، وشعور بالراحة والهدوء، يربت أبي على ساعدي، ثم يميل رأسه نحوي، ويهمس:

- ذلك تدريب على قوادم الفجائع، ركز، عملية الغسل لا تختلف كثيرًا بين المسلمين والأقباط، ما سوف تراه الآن، هو -تقريبيًا- ذات ما أنت معني به يوم أن ألقى ربي.

يقول، فأهز رأسي شاردًا، دون أن تفارقني ذات الطمأنينة التي حلت بي منذ دقائق، يبدأ الشيخ (سلامة) في تلاوة سورة الفجر، في الوقت الذي هم فيه أبونا (يوحنا) بتلاوة الأدعية والآيات، فاختلطت كلمات الخالق وأدعية المخلوق، وتسربت إلى مسامعي متداخلات من أسطرها، وكلماتها: **وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**، اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك، اذكرني يا إلهي متى جئت في ملكوتك، اذكرني يا قدوس متى جئت في ملكوتك، **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ**، أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لأن لك المجد إلى الأبد، **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**، مبارك الآب والابن والروح القدس الثالوث السماوي، نسجد له ونمجده، **وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**، من أجل قيامة الأموات الذين رقدوا وتنيحوا في الإيمان بالمسيح، يا رب نيح نفوسهم أجمعين، **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ، فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**، بولس عبدنا ربنا يسوع المسيح الرسول المدعو المفرز لكرازة الله، **كَلاَّ بَل لّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**، ارحمنا يا الله بعظيم رحمتك، نطلب إليك، فاستجب وارحم، **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا**، يا رب

ارحم، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا، يا رب ارحم، **كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**، أيها المخلّص أرحْ نفسَ عبدَك مع أرواح الصدّيقين الراقدين. واحفظها للحياة السعيدة التي أعددتها، يا محبّ البشر، **وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**، أيتّها العذَراء الطاهرة النقيّة وحدَك، التي حملت الله ولبثَتْ بتولاَ، اشفعي في خلاص نفس عبدك، **فَيَوْمَئِذٍ لّاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**، أرِحِ يا رب نفس عبدك هارون في راحتك، حيث جميع قدّيسيك يستريحون، لأنك أنت وحدك غير مائت، **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي**، يا رب ارحم...

تتراقص ألسنَة الشموع، ينتهي الغسل سريعًا، نؤمن خلف أبونا في صلاة الجِنّاز، وقتما يؤشر لنا لنفعل، تتصدر أدخنة البخور مشهدنا، حتى يوضع الجثمان في نعش لا أعلم من أتى به، وقد قمنا متعاونين، بإلباسه أبهى حلله التي لم يلبسها يوماً، وضعت إنجيله ذا الغلاف القرآني في جيبه المجاور للقلب، كما هو، قبل أن ندثره متأنقًا، في كفن ناصع البياض، ونحكم إغلاقه!

الشمس تقدم متكاسلة من خلف الأفق الباهت، ألاحظ تواجد سيارة لنقل الموتى، متوقفة عند ناصية الحارة البعيدة. علمت من (إسماعيل) أن الشيخ (سلامة) كان وراء استدعائها، حانت لحظة رفع النعش، هممت رفقة أبي وأخي لنرفعه، قبل أن يشير (نوح أفندي) بيده، لنتوقف، وقد نسينا أن (أبونا يوحنا) لن يقوى على مشاركتنا حمل النعش، (جابر عباس) العائد إلى منزله مع شروق الشمس كعادته، يتوقف مستفسرا عن المتوفى، عارضًا المساعدة، ينهره (نوحٍ أفندي) بعصبية تفصح عن قدر إنهاكه وتوتره، يتوارى المرابي متبرمًا، فيتطوع الشيخ (سلامة) بالحلول محل الأب العجوز، ويقبل (نوح أفندي) بطبيعة الحال.

يتقدمنا الأب يوحنا مسرعًا خطاه قدر استطاعته، نرفع أنا و(إسماعيل) القائمين الأماميين للنعش، وقد اتفقنا على أن نخفض ظهورنا قليلًا حتى تقل وطأته عن (نوح أفندي) والشيخ (سلامة) في المؤخرة، يسأل الشيخ أبانا، إن كان قد تواصل مع أحد في (التوابية) لتهيئة القبر، فأفاد بأنه كان قد أرسل ابن (عبود) الفكهاني إلى (التوابية)، لحظة أن توفي (أبو شنب)، ليعد العدة، ويمهد التراب لاستقبال الجثمان.

يتهادى موكبنا الجنائزي، يشق أنوار الفجر المنسكبة من السماء، تخلف خطواتنا الباكيات غبارًا، يبدو لـ(مريم) الواقفة أمام باب المنزل، وكأن ركبنا هذا قد امتطى غيمة رمادية، أو لفه ضباب حانٍ، ليخفيه عن أنظار أهل الحارة الناعسة، وحين سألت أبي عن العين التي قرر أن يدفن فيها (أبو شنب) في مقابرنا، أفاد دون تردد:

- إلى جوار عمك (إمام).

تتسع الحدقات مستغربة أن تضم مقابر المسلمين مسيحيًا، حتى يردف هو قاطعًا:

- لن يضل الله مستقره بأية حال من الأحوال!

يؤمن الشيخ والقس، ثم يميل نحوه الشيخ (سلامة)، ويهمس:

- لا أصدق حديث بول الإبل...

يربت أبي على ساعده مطمئنًا، ويجيب:

- ولم أصدق يومًا، أنك تصدقه!

نمضي في سيارة الموتى، تطوف بها تمتمة (نوح أفندي) المستمرة:

- سيد القوم خادمهم...

تزف ركبنا كلماته الخافتة، فنمضي غير منشغلين بالطريق، بقدر انشغالنا به، وبتداخل كلماته مع أدعية الشيخ (سلامة)، التي أخذ يرددها طيلة الطريق إلى (التوابية)...

أستغفر الله الحي القيوم أستغفر الله الحي القيوم

أستغفر الله من المعاصي والذنوب

استغفر الله من كل ذنب أذنبته في سواد الليل
وفي بياض النهار ولا يعلمه أحد سواك
وما أسررت وما أعلنت
أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير
اللهم إنّا نسألك الراحة عند الموت
والعفو عند الحساب
والنجاة من العذاب
يا خير المسئولين ويا ذا الجلال والإكرام
أستغفر الله الحي القيوم
ثم أستغفر الله الحي القيوم
وأستغفر الله من كل ما كان سيئه عند الله مكروهًا.

حسن البنداري الثاني!

وقال ابن العم بعد ترحيب حقيقي، أعقبه جلوس، فمصارحة:

- حلمت بأبي، وقد ارتحلت بصحبته الى صحراء قاحلة، قاسية، ليس في جنباتها ما يظللنا، أو نقتات عليه، فلا زرع فيها، ولا شجر، ولا ثمر ولا تلال، لها سماء حارقة نضبت فيها السحب، انسكب العرق على جسدينا غزيراَ، حتى بلل ثيابنا، وقفنا بحجر لم يقاطع انسياب الرمال سواه، أمرني أبي أن أضاجع الحجر، جزعت فنهرني، وددت عصيانه فدفعني، حاولت التشاغل بمتابعة شجرة بزغت من عدم، فصفعني، ففعلت ما أمرني به حتى أدمى الحجر ذكري، وحين فرغت، طالعته فلم أر دمًا، فارتعبت، إذ إن مرأى الدم يفسد الحلم، أما وقد غاب، فإن للحلم دلالة لا محالة...

- وما كان أول ما فعلته فور استيقاظك يا ابن العم!؟

سألته عالمًا إجابته، مستدرجًا لها، فقال بحروف واثقة أثقلها جزع اجترار للمشهد، فجاءت بطيئة:

- بصقت ثلاثًا على يساري، بعد أن اطمأننت على ذكري بطبيعة الحال.

ضحكت حين أوشك على ملامسة عضوه مجددًا حال ذكره له في حديثه، تزعجه ضحكاتي، فيشيح بوجهه ويطوح بيده:

- ما كان لي أن أصارحك بهمي، وإن طاردتني بفضولك.

ربتُّ على كتفه معتذرًا، وإن ظلت ابتسامتي راسخة على محياي، كنت أحبه رغم تغيراته وتلونه الحربائي، ربما هو فعل الدم بين الأقرباء، ربما هو تعاطفي مع غالبية ذوي العقول المظلمة، ممن لم تتح لهم فرص التنوير. قلت:

- منذ سنوات عدة، طلبت منك أن تحطم أصنامك لتتحرر من عبوديتك المختارة، ولم أتصور أن يبلغ بك عشق التحرر حد نكاح الأصنام.

قلت فقهقه بصوت ضخم يرن وكأن له أصداء تنبع من جوفه، ارتج جسده السمين، داعب ذقنه الحليقة المائلة للاخضرار، عدل من بنطاله القماشي حتى يتسنى له حشر قميصه بداخله من جديد، أخرج منديله القماشي ليجفف عرقه. حين دخلت فتاة إلى الدكان، فنهض لاستقبالها، أشارت صوب قطعة أو قطعتين من قمصان النوم المعروضة، استدعى إحدى العاملات لاستشعاره الخجل، وانصرف بعد أن تحسس جسد الفتاة بعينيه اللاهثتين.

- ماذا جرِى لتجارة السبح!؟

قلت مخفيًا ضحكة متصاعدة في أعماقي، فأمسك بيدي، واصطحبني إلى حيث غرفة صغيرة مغلقة، كتب عليها مخزن، فتحها ودلف بصعوبة عبر بابها الضيق، تبعته حتى توقف أمام باب صغير آخر، طلب مني أن أفتحه، ففعلت، لأجد السبح وسجاجيد الصلاة، وقد تم ترتيبها ورصها بعناية فائقة...

- سيجيء يوم، نعود فيه لتجارتنا، ونخرج بضائعنا من تحت الأرض، ونقف بنيانًا مرصوصًا أمام أعداء الله، فاحذر هذا اليوم أن تلقاني...

قالها مقطبًا حاجبيه، فدهشت لجديته المفاجئة، لاحظت احتفاظه بعباءة عمي (إمام) في ذات الحجرة الصغيرة، ربت على كتفه مجددًا مهدئًا من روعه، فلانت ملامحه بغتة، وبدا كمن يكظم غيظه ونقمته، غير المبررين، كنت في ذروة مرحلة التنقل الدائم، فيما بين (شبرا) ومستشفى الخانكة، لم أكن أتذكر بعض التفاصيل في حينها، فقد كنت أبيت ليلتي في فراشي في شبرا، وأستيقظ لأجدني في المستشفى، وحين غادرت المستشفى صباح اليوم، قفز إلى ذهني (حسن)، فقصدته مباشرة، قبيل المرور بالمنزل، للراحة والاغتسال. قال وكأنه يسمع أفكاري:

- ماذا حل بك يا (إبراهيم)، عهدتك أرجحنا عقلًا، وأكثرنا هدوءًا، هل الأمر له علاقة بزوجتك؟

قال وهو يتابع ذات الفتاة، في طريق عودتنا من مخزن البضائع والآمال، أجبته:

- بل أراك أنت أكثرنا حكمة ودهاءَ يا (حسن)، فأنت لم تجد غضاضة في التخلص من قناعاتك، فتخلصت مما قبع منها في لحيتك التي أمست حليقة ناعمة، واحتفظت بما تبقى في مخزنك الصغير هذا، أما أنا، فآفة عقلي هي البحث، بيد أنني أعتقد أن عقلي لم يقوَ على اللحاق بي فيما بلغته عبر دروب البحث، وشعابه الكاشفة للحقائق...

يقول وعيناه مثبتتان على جسد الفتاة، وكأنه يتخيل جسدها في واحد من قمصان النوم التي تستعرضها مع عاملته المُحجبة:

- ربما أنت محق، ولكن، ماذا جنيت من بحثك سوى...

توقف وقد ابتلع آخر كلمات جملته، ربما أراد أن يقول أنني لم أنل غير الجنون أو الخبال، لم أجبه في حينها، لأنني لم أكن واثقًا مما يخص جنوني من عدمه، تحصنت بالصمت الحذر، وشعر هو بضعفي فرأف بحالي وأدار دفة الحديث، صوب الزواج ومعضلاته الاجتماعية والجنسية. كنت أراه رجلًا طيبًا، لا يقصد الشر، ولا ينتوي أذى، ولكنه، يقف مني على النقيض، فأنا أقدس الحرية، وهو يحتقرها، ويفعل كل ما بوسعه، لاختلاق ما يقيدها، ويعيق سريانها، فلا تصل إلى من حوله، كيلا يتفوقوا عليه بامتلاكها، كان مكتظًا بالنقائض، يقتبس بعض الآيات والأحاديث، ويلبسها ثوب مراده، ثم يطلقها كأحكام نهائية لا نقاشٍ فيها ولا جدال، يمسك بسبحة، ويتاجر في أزياء الفراش العاريات، متابعًا أجساد زبائنه بشبق مكتوم، ليجمع بين قناعتيه الأزليتين، صلاحه هو، وفساد الآخرين.

- هل جربت ذلك الحجر السحري من قبل!؟

قال فاتحًا قبضته، كاشفًا عن حجر متوسطِ الحجم، بنفسجي اللون، مائل إلى السواد، سطحه أملس، رفعت عينيَ إليه مستفسرًا، فقال بابتسامة زهو تليق بالعلماء:

- هذا حجر جهنم يا ابن العم، هو حجر صخري، ولكنه قابل للذوبان، أذب قطعة منه في زيت الورد، وضعه على سيفك إذ يمسي مشهراً، ولا تنسني من فضائل دعائك.

قال الشطر الأخير من جملته غامزاً، فضحكت، وقد لفت نظري تشبيه السيف المشهر، وما يحمله من دمج للجِماع بالقتال، شكرته دون أن أقبل هديته:

- الآن، أنا لست نادماً على مروري بك فور خروجي من المستشفى، فقد أزلت الكثير من همومي ومخاوفي، ربما دون أن تقصد...

قلت فيما بين الضحك والتبسم، فربت على كتفي.

- لم تجب عن سؤالي بعد، ماذا حل بك!؟ لولا أنه قد مر قرابة العامين على رحيل زعيمك الخالد، لظننت أن حزنك عليه، هو ما أدى بك لحالك هذا، ولكنك لم تعد على ما يرام منذ أن مات، هل أنا محق؟ أم أن الأمر قد بدأ برحيل عمي (نوح)، عقب استشهاد (إسماعيل)؟ هل هي مشكلة مع زوجتك؟ ما خطبك لا تجيب؟

قال ما قال، فلاحظت أنني لدي أسباب عدة للجنون. عاودت الضحك، فغمرني بنظرة شك تفيد بأنه موشك على التيقن من جنوني، قلت:

- زعيمي الخالد؟ أعلم أنك تكرهه كما كان عمي رحمه الله، ولكن يا ابن العمِ، أنا لا أعلق صورته في بيتي، بينما تعلقها أنت في دكانك هذا!

قلت، مشيراً إلى صورة "جمال عبد الناصر"، المعلقة على الحائط من خلفه، مجاورة لصورة أخرى لـ"أنور السادات"، وقد توسطتهما آية "أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"، شرد مفكراً. فشردت بدوري، وقد أمسيت أستعذب الشرود، والانفراد بذاتي في حوار دائم لا يفارق أسوار العقل، كنت على ثقة أن سفر (عائشة النبراوي) برفقة زوجها، أمر يؤرق روح (إسماعيل)، ولكنني كنت كعادتي، عاجز عن تغيير المصائر، وتبديل مسارات الأقدار، كان بيت الدقي قد اكتمل، وأمسى جاهزاً لاستقبالنا، ولا يعيق انتقالي هذا شيء، على ما أذكر!

- هو حيث يستحق، لا تغضب مني، فهو لم يكن جديراً بمجاورة السبح وسجاجيد الصلاة، أما وقد اختلف الحال، وتبدلت البضائع، فإنني لم أجد غضاضة في أن يكون موضعه بجوار قمصان النوم الفاضحات، هذا موقع يليق به...

قال وقد ارتسمت على محياه أقسى علامات الغضب والكراهية، كنت أعلم ما مر به حين اعتُقل في نهاية الستينيات، وكذلك كيف تم التضييق على عمي في تجارته حتى أوشك على الإفلاس، كانت لديه أسباب للكراهية، بيد أنه لم يمتلك الحجة المنطقية، الكفيلة بتبرير تناقضاته...

- هذا موقع يليق به! إذن، خبرني عن موقعك أنت فيما بين زيارتك لي، يوم أن جئت تعاتبني على تغيير قفل غرفة الحضرة، وزيارتي لك اليوم. أرى أن موقعك صار أقرب إليه عن ذي قبل...

أجادله على ثقة بعدم جدوى الجدال، فيردف متذكراً:

- رأيت (عبد الناصر) في حلمي أيضًا، ذات الحلم الذي رويته لك منذ قليل، كان يقف تحت الشجرة البازغة من العدم، وقد علقت في أفرعها من حوله، مشانق تتدلى من دون أجساد، كان ينظر لي، وقد اعتليت الحجر كما أمرني أبي، شعرت بخوف، ولكنني لم أتوقف...

صاغ عقلي عدة تفسيرات منطقية لحلمه العجيب، كانت مختلفة لم يبلغ أي منها حد التكامل، فقد كان الخوف من "عبد الناصر" جليّا، وقد اقترن ظهوره بالموت، كما كانت هناك ازدواجية، بدت جلية، إذ يقر ضمنياَ، أنه اعتاد أن يفعل ما لم يلامس يومًا قناعته، ولكنه -فقط- يفعله! إلا أن أغرب ما يعكسه حلمه هذا، ربما، هو انعدام مقدرته هو، على ملاحظة ما دونته أنا للتو!

تحول عن الحلم، ونسي "عبد الناصر"، حين جاء الطعام محمولًا على طاولة خشبية دائرية، أشبه بالطبلية، وقد غُطي الطعام فوقها بقطعة من قماش أخضر، أنزلنا الطعام من فوق رأس حاملته الصغيرة، التي لم

تكن ظاهرة للأعين أسفل حملها، فبدت فتاة في الخامسة على أقصى تقدير، لم أعرفها حتى قال أبوها:

- تلك هي (مريم)، ابنتي من زوجتي الثالثة، أنت تعرف (رقية) رحمها الله، أليس كذلك؟

قال فهززت رأسي بما يعني أنني لا أذكر، فأوضح هو، أنها كانت تقطن في الأميرية، على مقربة من الفتاة المسيحية التي ذبت عشقها بها، تظاهرت بالتذكر، وأنا أتفحص الطفلة الخجلة، مددت يدي فصافحتني، وقتما كان هو يردف، وقد ألقى بين يدي برغيف، فابتعدت طفلته مغادرة:

- بسم الله يا (إبراهيم)، ماتت (رقية) وهي تضع (مريم)، لم أجد غضاضة في تسميتها بـ(مريم)، ولم تعارضني أي من زوجاتي، وما كان لهن أن يفعلن بطبيعة الحال، حزنت على أم (مريم) كثيرا، لدرجة أنني لم أعقد على امرأة عوضًا عنها، سوى العام الفائت فقط... لا بد أن تجرب ذلك الحمام المحشو، لا ينبغي لك أن تخجل، فما قضيته برحاب منزل عمي في طفولتي، يُحتم عليّ أن أدعوك للغداء يوميا طيلة عام كامل، لكي نمسي متساويين! المهم، طالما تحدثنا عن الذرية، فلندعُ الله أن يتمم نعمته عليك بالمزيد من ثمرات القلوب.

قلت "آمين"، ثم تذوقت الحمام الشهي، كان طيب المذاق بحق، وإن لم أعلم أي من زوجاته الأربعة قد طهت طعام اليوم لأرسل لها بتحياتي. فرغت من الطعام سريعًا، وظل هو يحفزني على تناول المزيد فلم أقدر، أخذ هو يلوك الحكايات مختلطة بالطعامِ المتطاير من فمه، كان شرهًا كعهدي به، ولكن وزنه كان قد ازداد كثيرا منذ آخر اللقاءات، كما كان كعهدي به أيضًا، ثرثارًا لا يكل الحديث.

حكى لي عن زيجاته الخمسة، وإن كنت قد عاصرت أولى زيجاته فقط، قبل أن تختطفني الأيام وأشياء أخرى، علمت أن أمه قد توفيت منذ عشرة أعوام، أي قبل لقائنا الأخير بثلاثة أعوام، بيد أنه قال إنني حضرت جنازتها، فلم أتذكر! قال إن له عشرة صبية وست إناث، فشعرت أنني قد

فارقت الزمن لأمد غير قصير، أخذ يتحدث عن الساسة، والنكسة، والحرب التي لا تدق طبولها أبدًا، تحدث عن البرجماتية، فخلط بينها وبين الميكافيلية، تدخلت مصححًا، فاستمع جيدًا، ولم يقتنع، فظل كلاهما بالنسبة إليه، أمرين يصبان في إناء واحد، هو أن الغاية تبرر الوسيلة، فتوقفت عن تلاوة الاعتراضات، توقف هو بدوره، وطالع اللاشيء في الأفق البعيد، ثم همس بقناعة صادقة:

- أتعلم؟ أثق أن الله يحبني، وأشعر أنه راضٍ عني...

أجبته في غبطة مصطنعة، وإشفاق باسم:

- طوبى لمن كانت مرضاة الله مرافقة لخطاه، ولكن أنى لك التيقن مما شعرت؟

مال بظهره إلى الوراء، مستندًا عل ظهر الكرسي الخشبي، عقد ساعديه لوهلة، ثم مال صوبي، بعد أن تفحصت عيناه المارة، للتأكد أن أحدًا لا يسترق السمع إلى محاورتنا، خاصة وقد كان هو بصدد الكشف عن سر مهم، فقال:

- بناتي الست، ولدن وقد ختنت فروجهن! دون أن يمسسهن بشر!

أويلزم المرء من بعد ذلك برهان على صلاح ما أتى، ورضاء من اتبع!؟

قال، فحل بعقلي صرير، أدى بي إلى صمت مطبق، حتى طالعت السماء، فوجدت قرص الشمس على وشك المغيب، وتذكرت ما جئته من أجله، فشكرته على السؤال عن (مريم) و(دنيا) إبان غيابي، في كل مرة أفقت فيها لأجدني في الخانكة عوضًا عن فراشي، كان لدى (دنيا) إرث يكفيها طيلة العمر، ولكنني كنت أصر على أن يبقى إرثها مصونًا، منفصلًا عن كلفة حياتنا اليومية، كما كانت (مريم) تعلم أنني لن أقبل، ولن أسمح لـ(دنيا) أن تقبل، أن تسهم أختي الكبرى يومًا، ولو بالقليل في تكاليف الحياة في منزل شبرا، فكان ما يرسله لها (إحسان) من الإسماعيلية تارة، ومن الجبهة تارات، يظل في دفتر توفير، فتحه لها أبي قبل وفاته. لذلك، كان غيابي عنهم قاسيًا وإن كان قسريًّا، ولولا أن (دنيا) كانت من النساء

اللاتي يُتقنَّ أمور التدبير وفنون التوفير، ولولا أن (مريم) كانت قد اختارت أن تحيا بلا متطلبات، لحدث ما لا يسر في فترات غيابي، رغم إيراد الأرض الوارد بغير انتظام من (التوابية).

نهض ابن العم ليزيل آثار غارة الغداء عن يديه وثيابه، فاستمتعت بنوبة شرود أخرى، تخيلت فيها مصير (مريم) لو كان الله قد منّ عليها بالذرية، ثم تخيلت حياتها، إن كان أبونا قد وافق على زيجتها من (حسن)، فشعرت بامتنان لأبي الراحل، وتأملت لمرآها، تذبل رويدًا رويدًا، وقد فارقت عامها الأربعين، وجاء مصيرها مشابهًا لمصير شجرة أمي، ليبدأ ذبولها من أسفلها إلى أعلاها، تمامًا كشجرة السرو، فكان أن ذبل رحمها، مبكرًا، بعد أن مل البحث عن ماء الحياة في جنبات زوجها، الذي أمسى معنيًا بالحرب أكثر من الفراش، فتحول إلى غزوات الرمال في سيناء، إثر ما لاقاه في غزوات الأسرة من فشل يتلوه إخفاق.

كان ما أذكره، قبل الغياب الأخير، الذي لم أذكر في حينها كم طال به الزمن، أن (مريم) كانت تمارس الأمومة المفتقدة في (آدم) و(حواء)، وكانت (دنيا) تجد في ذلك راحة، وكانت تستعذب الحصول على أوقات أكثر من الفراغ والسكون، تذكرت خالتي (أنيسة)، فلم أميز إن كانت حية، أو كانت قد فارقت دنيانا، غالبني صداع شق رأسي إلى نصفين، فأمسكت بدماغي وكأنه على وشك الانفجار، عاد (حسن) فاستأذنته في الرحيل رغم انتظاري لـ(حازم) ابن (عبود) الفكهاني، فرفض بشدة، وأصر على اصطحابي إلى المنزل -غير البعيد- وقد لاحظ ألمي، رفضت، ثم أشرت لـ(حازم) حيث لاح في الأفق بعد طول انتظار، حاملًا أقفاصًا من الفاكهة، وضعها أمام منزل (حسن) المقابل لدكانته، فنهرتني نظرات ابن العم الغاضب:

- ما هذا يا (إبراهيم)، أترد لي ما أهديته لأهلي في غيابك!؟

- كما قلت يا (حسن)، هم أهلك، وأهلك أهلي، أشعر بتقصير إذ لم ألقَ أبناءك وأغلب زوجاتك من قبل، تلك هدية متواضعة لهم، ولا علاقة للأمر بما كنت أنت ترسله إلى بيتنا، خلال فترات غيابي المتقطع...

بدا عليه شيء من اللين، وإن ظل على رفضه الآخذ في التلاشي، شدّ على يديّ مودعًا، أحاطتني نظرات تعاطف في عينيه، ولسان حاله يبكي ما آلت إليه أحوالي، فاحتضنته، بتعاطف مشابه، وقد هالتني مساحة الظلام القابعة في عقله. هممت بالرحيل، فاستوقفني نداء أشبه بالصراخ، صدر عن صبي جاء صوبنا مهرولًا مناديًا أباه، الذِي كان يحتضنني للتو، خطا (حسن) بضع خطوات صوب ولدهِ مستفسرًا، ثم مال على وجهه مصغيًا، قبل أن يلتفت نحوي بشوشًا مبشرًا:

- مبروك يا ابن العم، فقد رزقك الله بصبي...

عاود احتضاني -مهنئًا هذه المرة- فلم أحتضنه بدوري، وقد سقطت في حيرة من أمري، تزايد الصداع حتى شعرت بطنين في أذني، فتسمرت في موقعي، محاولًا التذكر: هل كانت (دنيا) حاملًا!؟

قالوا يحيى!

المكوث الأول | حكاية عدلي خالد

قلت له أننا في رحاب مشفى، وأغلب الظن أنها مصحة للأمراض العقلية، عارضني فاستشهدت بعدة حالات ظلت محيطة بنا خلال الليالي الطويلة السابقة، مثل (فخري عبد الملاك) و(سعيد عبد العال)، اللذين كان عدم اتزانهما ملحوظًا إذا ما قورنا بباقي النزلاء في عنبرنا نصف الخالي، فقال (عدلي) أن الأمر كله مصطنع، وكان يصر أننا في المعتقل، ويثق في أنه لم يغادره بعد، وكانت لديه جملة يعيد تكرارها في مختلف المواقف، ودونما سبب:

- مؤكد أنه لا يعلم...

سألته مرارًا وتكرارًا، عن ماهية من لا يعلم، وحقيقة ما لم يعلمه، فكان يشيح بوجهه في كل مرة، وقد استاء من سؤالي عما لا يُسأل، وكَلَّ من مرافقة الجهلاء ممن هم في مثل انعزالي عن العالم...

- انعزال، أصاب عقولكم بالهزال.

قال ذات مرة، في ذروة عرضه الواثق لقناعاته، وقد كان يحثنا على مساعدته في حفر نفق يمر في غياهب الأرض، ويفضي بنا لما هو خارج أسوار المعتقل.

مع تكرار الطلب، واختلاطه بالتمني، واجتذابه لأحلام الحرية القابعة في شتى قلوب الحاضرين، توقفنا عن تصحيحنا لمفهوم المعتقل والمستشفى، وانحسرت استفساراتنا عن كيفية الحصول على أدوات الحفر!

ثم رأيتني وقد كنت في انسياق خلف أعواد البخور في غرفة الحضرة، وقد صدر عنها خيط من دخان شفيف، فتحت باب الفارانده فإذا بمروج هابطة تحت قدمي، ملآنة بأشجار وشجيرات، ونخيل متراصة، بحيث لا يمكن للمرء أن يطّلع على ما تخفيه من خلفها.

شحت الشمس في نثر خيوطها المألوفة، فطالت بالسماء عتمتها، ناداها الطير للسطوع، فتوارت متخاذلة خلف قمم الأشجار القابعة في الوادي الخفيض، فرغ الوادي من ساكنيه الافتراضيين، تناثرت أشلاء وأعمدة لخيام فارغات، وقبع في منتصفها، من حيث مر الإعصار العاتي، (نوح أفندي).

- تلوت عليك تبيانًا يقضي بقدسية تشبثك بحلمك، وتحسست برفقتي آيات شهيدات على فضائل ما تلوت، فأمرتك بري الجذور حتى لا يذبل الحلم في رحم الأرض مهملًا، فما خطبك قد استغرقك الحلم واجتذبك، حتى قبعت وإياه في باطن المجهول!؟

قال لائمًا، ثم مد يده، فأطبق على كفي ومضى، فتبعته. مرقنا من حيث تكشفت لناظره فرجة فيما بين سيقان الأشجار، عبرنا، فكان سطوع الشمس مغشيًا للأبصار، فاحتمينا منها بساعدينا، وزاد هو من إطباقه على كفي، توقفنا أمام كوخ خشبي شبيه بكوخ (الشيخ المليكي)، ولكنه أصغر حجمًا، على ناصيته لافتة سوداء، خط عليها بحروف بيضاء "معهد تحفيظ القرآن"، انتزع (نوح أفندي) اللافتة، وتناول قطعة قماش بالية بزغت إلى جواره، وانهمك في إزالة كلمة "تحفيظ" حتى زال معظمها، فتناول من الهواء قلمًا، كان يدور حول رأسه المنسكب منها العرق حتى بلل فوديه، وخط حيث أزال الكلمات للتو كلمة مغايرة، وهي "شروح"، ثم أعاد اللافتة إلى موضعها، وقد أمست "معهد شروح القرآن"، وجلس لاهثًا موليًا ظهره لحرقة الشمس. قال:

- كلمات الرب المرسلات، قد هبطن على هذه الأرض، في رسائل إلهية، ممهورة ببلاغة خالق الكلم ورب الكليم، فحري بنا، عوضًا عن التحفيظ، أن نتوسع في الشروح، ونبحر في المعاني، فإن استوعب العبد ما حوت رسالة ربه، حفظها في قلبه، وإن تلعثم لسانه في حفظ المفردات...

أيقظني (عدلي) في تلك الليلة الحارة، وقد تراءى له أنني أهذي، وقد كنت على ما يبدو أكرر كلمات نوح أفندي دون قصد، وكنت في حينها غير قادر

على استيعاب ما أتى بي إلى المستشفى، ولكنني كنت أستشعر أن للأمر صلة بعلاقتي بـ(مليكة)، وكانت الأفكار تستغرقني في بحث محموم، عن أحقية كلتا الحياتين بمسمى الحلم، كنت أظن في أغلب الوقت، أنني أحلم بأنني في الخانكة، أو لعلها كانت العباسية، وكنت أخلد إلى النوم كي أستفيق، وكأنني أستنجد بالنعاس ليرد لي صحوتي الغائبة، وحين أيقظني (عدلي) في تلك الليلة، أفقت على إحباط متكرر، فاعتدلت في فراشي وقد جففت وجهي بطرف منامتي، طالعت وجهه المنهك، الدال على مجافاة النوم لجفنيه، وتوقفه عن مداعبتهما، قال بثقته المعهودة:

- تظنني مجنونًا يا أستاذ (إبراهيم)، وها أنا أراك تهذي، ولا يزال ظني بك أنك من أنبه العقلاء...

شكرته في جفاء يلائم الموقف، واستلقيت منقلبًا إلى وضعي السابق، آملًا في استكمال اللقاء مع (نوح أفندي)، فانقض على ساعدي ليمنعني من الاستلقاء، ثم تنبه أنه يزعجني فتراجع، مردفًا:

- لقد كتبت إليه خطابًا، لأؤكد له أنني ملتزم بميثاق الثقة، قانع بأن ما كان ويجري، خفي عن إدراكه، مطموس كي لا يبلغ علمه، أفلا تساعدني على إرسال الخطاب خلسة من المعتقل، لعله يصل إلى أيديه!؟

في الصباح التالي، أتاني بالخطاب وقد وعدته بالمساعدة، فدسه في جيبي دون أن يلاحظ ذلك أي من الجلوس في عنبرنا، كان عدد الحضور قليلًا محدودًا، إلا أن الشكوك والهموم المتجولة في الأعين الموتورة، كانت تثقل الهواء فيجثم على الصدور مقاومًا شهيقنا، الوحشة سابحة بين الأسرة، والصمت موال النهار الحزين، كنت في أجواء مُثلى لدراسة مجموعة من المرضى النفسيين، مجموعة بدا لي من تفردها وكأنها منتقاة لغرض الدراسة، وكنت أحد أهم عناصرها كما قال معالجي ذو المعطف الأبيض ذات يوم غير بعيد.

أشرت إلى (عدلي) بأنني ملتزم بعهدي معه، وذكرته بأن إرسال الخطاب مشروط بأمرين، أولهما قراءتي له، تفاديًا للوقوع في أية مسائل أمنية إذا ما جاء بالخطاب ما يخالف السلطات، وثانيهما أن يمدني باسم وعنوان المرسل إليه، أومأ برأسه مترددًا ثم غاب عن ناظري ردحًا من الوقت.

أمسكت بتلابيب الفراغ، وأنا ألوك شيئًا ما على سبيل الإفطار، اعتصرت ذهني، وكأنني أعاقبه حتى يبوح بالمحجوب عن عقلي الواعي، كانت أنسجة الحلم والواقع متداخلة، بيد أنني ذهبت لاعتقاد (دنيا) بأنني ممسوس، وفندت زعمها، حتى وجدته بعيدًا عن الواقع الذي أحياه مرغمًا، كنت إذا حل المساء أسارع للوقوف بجوار النافذة الوحيدة، التي كان زجاجها غير مشوب بكسر أو شرخ يشوه المشهد، حتى أستطلع السماء، باحثًا في طيات جسدها الناعس عن أقمارها، فكنت إذ وجدت لها قمرًا واحدًا، تيقنت من زيف ما أحياه، وقد ألفت العيش مظللًا بسماء لهما قمران، رفقة (مليكة)، ثم أعود لمساورة شكي، متسائلًا؛ وماذا إن كانت مرافقة (مليكة) هي الحلم!؟ وكان ذلك الحلم الممطوط، الذي عدوت في ردهاته ما بين الطفولة والصبا، هو في حقيقة الأمر، حياتي الحقيقية!؟

عاد (عدلي) ليحوم من حولي، فتحيطني عيناه بألف سؤال عن تنفيذ ما وعدته، فأعاود تذكيره بالشرطين اللذين لم ينفذ أي منهما، فيومئ موافقًا ثم يختفي مجددًا، كان المعالج ذو المعطف الأبيض قد طلب مني المواظبة على تناول قرصي دواء كبيرين الحجم، في الصباح والمساء، كان للدواء تأثير مهدئ يفضي إلى النعاس الطويل، تناولت قرصي الصباح، وتأهبت لاستقبال (نوح أفندي)، أو معانقة (مليكة)، أغمضت عيني، وأنا أتساءل عما سوف أبصره وألقاه عندما أفتحهما مجددًا، تمتمت "يا الله يا ولي الصابرين"، أسبلت جفني، وشعرت أنني أسقط في هوة سحيقة، صرخت، فأيقظتني (مليكة) في جزع:

- ماذا رأيت يا (إبراهيم) هذه المرة!؟

عانقتها وقد كانت جالسة على طرف سريري المعدني، المثبت على الشاطئ، طالعت السماء فوجدت قمريها الأثيرين يتنافسان في إحالة الليل الحالك نهاراً يغشي الأبصار، فتنفست الصعداء، رويت لها ما أذكره مما كان، أصغت باهتمام، ثم قالت:

- لا أعرف، الأمر يصعب شرحه، ويطول به الأمد أيامًا وشهوراً...

ثم تقدمها ظلها وقد طبعت قدماها بضع خطوات على الرمال الباردة، بدا أنها تفكر في الأمر، قبل أن تقول قاطعة:

- آمن بحدسك، واتبع قلبك في إملاءاته وإن تضاربت.

سكن البنفسج رداء السماء، لونًا وعطرًا، أغمضت عيني، ثم فتحتهما لأجيب صرخات (دنيا):

- لا أذكر، قلت إنني لا أذكر!
- أنت تفقد عقلك، وتتفوه بما يقيم بيننا جداراً فاصلًا، يفارق بيننا حتى يأتي يوم يحكم فيه الله على ما فعلته...

واصَلَت الصراخ، فأطبقت كفي على أذني هربًا من الضوضاء، وقد أمست تؤلمني أكثر مما تزعجني. يصيح (نوح أفندي):

- ستوب!

يتجمد المشهد، وتبدو (دنيا) كتمثال شمعي لا حياة فيه، يقترب منها أبي الراحل، يربت على وجهها البارد، ثم يلتفت نحوي معلقًا:

- أداؤها تقليدي يا (إبراهيم)، الغضب لا بد أن ينعكس في قسمات الوجه، أكثر مما يُعبر عنه برفع نبرات الصوت، سنعيد المشهد بدون صراخ أو عويل.

بدت صورته مهزوزة مشوشة، وتلونت باللونين الأبيض والأسود، مضى وقد تذيلت خطواته شريحة من ضوء، وكأنه صادر من جهاز عرض سينمائي عتيق، لاحقته بناظري حتى توارى في رداء الظلام من حيث أتى، ثم جاءني صوته من علٍ:

- أكشن!

يهرول (آدم) و(حواء) عراة فوق هضاب عاريات لا يستر عوراتها زرع أو نخيل، أنادي ذريتي فينتابهما هلع لسماع صوتي، تطل (دنيا) من فوق سفح تل حجري، تشير لهم بسبابتها أن يقتربان، فينفذان أمرها، يمران في مسعاهما لبلوغها تحت ناظريّ، ويقتربان حتى يكون بإمكاني ملامستهما، فقط إن مددت ذراعي، ولكنني لا أفعل، يعبران على مرمى حجر مني فلا يلاحظان وجودي، تهمس (مليكة) من حيث لا أراها:

- لا تيأس، سيمضي بك وقت غير قصير في طور الاستفاقة، سيتذكرانك ذات يومٍ.
- بل هما يعرضان عن دربي، وينزحان عن شطآني!
- لا تخف، كل رحيل يتلوه لقاء لا محالة.

يغيب صوتها وتتردد الأصداء، يقاطعها بكاء طفل وليد، يعكس الألم أو الخوف، تتهدج أنفاس الرضيع إثر صدق أسباب النشيج، فيلف الكون سواد كئيب خانق، يدوي صوت (نوح أفندي):

- لا تخف يا (يحيى)! سيعود وإن طال به البحث.

يعلو لهاثي متزامناً مع خفوت صوت الرضيع، فاختفاؤه، أتمتم:

قال (يحيى)! قال (يحيى)!

يوقظني (عدلي) بوخزة في كتفي:

- من هو (يحيى) يا أستاذ (إبراهيم)؟

اعتدل في مرقدي مبلل بالعرق المعتاد، أقطب حاجبي ولا أجيبه...

- أتيت لك بالعنوان.

يهمس متلفتاً حوله في ارتياب، فأتلفت حولي بدوري، متناسياً أن الجميع نيام في ذلك الوقت السابق لأذان الفجر، ثم أطالعه في إشفاق تعب، أخرج الخطاب من حيث وضعته أسفل وسادتي، وأطلب منه أن يخط العنوان على المظروف، يفعل ثم يمضي إلى فراشه، وقد ارتسم شيء من الراحة العابرة على وجهه الدائم القلق، أطالع الظرف فيما تيسر من ضوء النافذة

المجاورة، التي تعكس للسماء قمرًا واحدًا، فأميز اسم المرسل إليه: جمال عبد الناصر حسين!

طالعت اسم المُرسِل، فلاحظت اسمه الكامل لأول مرة، (عدلي خالد)، توقفت قليلًا، وقد بدا اسمه مألوفًا، نهضت من فراشي واقتربت منه فكان شاردًا، جلست إلى جواره، قلت:

- أذكر أنني سمعت اسمك من قبل، هل التقينا؟

تجيبني حيرته، فأشرع في معاونته على التذكر، وأنا الحائر من يقظتي، الآخذ في تحسس اللحظات بريبة، محاولًا تمييز الحقائق عن السراب:

- ربما التقينا في مجلة الرسالة، أو في معهد الفنون، أو في شبرا، ماذا تعمل؟

يقول هامسًا:

- أنا صحفي في الأهرام، معني بالشئون الفنية، كنت بالأحرى!

أرفع حاجبي دهشًا:

- إذًا فقد رأيتك في مبنى الأهرام بالتأكيد، لي أصدقاء من المحررين والمتدربين، لعلك تعلم "نعيمة المصري"؟ هي تعمل في القسم الفني، بل هي في الحوادث على الأرجح، هل تعرفها؟

يعود للوراء، ويعيد تفحص وجهي، ثم يقول بكلمات ممطوطة يراد بها التأكيد:

- لم أعدها بشيء إن كان ذلك ما أتيت من أجله!

شعرت ببرودة في صدري، وتصارعت الاحتمالات في محاولة لاستنباط ما يقبع من وقائع خلف كلماته، ملأت صدري بشهيق، تلاه زفير، فاستجواب:

- ما حكايتك يا (عدلي)؟ أنت صحفي، تبدو من هواة العلاقات الغرامية مع زميلاتك، تتحدث دومًا عن المعتقل، وتريد إرسال رسالة إلى جمال عبد الناصر، صارحني، فقد يكون في ذلك المستراح لعقلك المجهد!

استلقى على فراشه، أرخى ساعده على عينيه وكأنه يتأهب للنوم، ومضت لحظات متثاقلات، جاءني بعدها اعترافه:

- ذات ليلة في شتاء عام ٦٦، وفي نقاش مع زميل من المحررين، قلت إنني لم أؤيد إعدام "سيد قطب" الذي جرى منذ شهور، واحتدم بيننا الحوار حتى انفعلت، وكان خصام بيننا. كانت وجهة نظري في حينها أن إعدام الرجل، سيزيد من حجم مؤيديه ومعتنقي فكره، وسيجعل منه رمزاً، وسيمنحه شعبية تفوق ما امتلكه في حياته عشرات المرات، عقب تلك المناقشة، غادرت إلى منزلي حيث أقطن وحيدًا في "عابدين"، كانت ليلة الخميس، وفي الصباح التالي، عقب صلاة الجمعة بقليل، ألقي القبض عليّ، وجئت إلى هنا، ولكن في عنبر آخر حيث يكون الاستجواب، ولا أدري لماذا لم أخرج حتى اليوم، وقد اعترفت بخطيئتي، وتعهدت بعدم التحدث فيما لا يعنيني، ووقعت على كل ما طُلب مني توقيعه، بعدما زج أحدهم بورقة في مكتبتي، خط فيها "الشهيد هو من يشهد على أن شرع الله أغلى من حياته"، لم أكن أعلم أن من قال ذلك هو "سيد قطب"، ولم أعلم إلى يومنا هذا، من أين جاءت هذه الكلمات لتسكن مكتبتي، التي لم تضم أرففها يوماً سوى كتب الشعر والأدب!
- أنت في مصحة للعلاج النفسي يا (عدلي).

يرفع ساعده ويطالعني في هدوء لا يخلو من السخرية، ثم يعيد ساعده لما كان عليه، يتنهد، ويضيف:

- أما صديقتك (نعيمة)، فهي في واقع الأمر نعمة مؤقتة، أنزلها الله لتحيل حياتي الراكدة جنة غَنّاء، وكما كان الحال بأبينا (آدم)، تشبعت وارتويت من إكسير سعادتها، وما كادت سكينتها تحتل سماواتي، حتى كفرت بما جاءني الرب، وطمعت في المزيد، فزال نعيم الله بغير عودة. وكرجل شرقي نفعي أصيل، لامتني على استكشاف أراض غير ما جادت علي به، فتشدقت بحريتي، وحنثت بما قطعته من وعود، لم أكن بحاجة لتلاوتها.

يرفع المؤذن صلاة الفجر، فأخفي عنه أن من أذن للتو كان جدي الغائب، يردد الشهادتين من خلفه، ويطالع النيام من حولنا للتأكد من خلودهم للنوم، ثم يفضي بفحوى خطابه الغامض:

- يا أستاذ (إبراهيم)، (عبد الناصر) لا يعلم ما نحياه من هوان وامتهان، هو لم يعلم ما جرى لي، ولم يوعز لزميلي ليشي بي لدى الأمن، أردت أن أخبره، أردت أن أقص عليه الحكاية، وقد افتتحتها وختمتها بثقة صادقة أنه لا يعلم، أنا أحبه، وهو يعلم أنني أحبه، ولا سبب لديه لأن يعتقلني، فيجري لي ما جرى! أيعقل ذلك؟ هل يقبل (جمال عبد الناصر)، أن أعتقل لما يزيد عن العامين دون جرم، هم زبانيته من فعلوا فعلة كتلك لا ريب، هم أولئك المنتفعون الذين في قلوبهم مرض، سحرة فرعون، وسدنة الحاكِم الأزليون...

قال صادقًا وقد اعتدِل في مرقده جالسًا، وشرع يطوح يديه في الهواء من حوله، أغمضت عينيَ المرهقتين لبرهة، ثم فتحتهما لأتأكد إن كان الحوار الجاري فصلًا من فصول الحلم المتناثر، أم واحدة من أوراق صحف الواقع المهترئات، مرت خلالهما (مليكة) من أمام عينيّ المُطبقتين، هامسة ألا أخاف، بقيت أطالع وجه (عدلي) المحدق فيّ، وقد غمرنا صمت بارد، أخذت أراجع ما أذكر حدوثه، وأطارد التواريخ عبر ردهات عقلي، ثم نظرت حولي بدوري، قبل أن أهمس له وقد تيقنت مما أنا بصدد مصارحته به:

- أمّا ما تظن أنه يعلمه أم لا يعلمه، فعلم ذلك عند الله، أما الخطاب، فلا أظن أن فائدة قد تعم بإرساله، وأغلب الظن أن الخطاب سيرد إليك، محملًا بالمزيد من الاتهامات يا (عدلي)، لا لسبب، سوى أن (عبد الناصر) قد مات!

نخيلٌ يلامس الغيمات الشاردة، وضباب يلف سيقانه الممشوقة، أنهر من الحليب والنبيذ تجري من أسفله، تناديني (مليكة) من حيث مستقري

فوق واحدة من عوالي النخل:

- اقفز يا (إبراهيم)، لا تخف...

أتردد فتعيد توكيدها بحتمية هجران الخوف، تتصاعد أصوات دقات طبول من حيث لا أدري، فيزداد توتري، يستحيل نداء (مليكة) صراخًا، في ذات اللحظة التي أميز فيها صوتًا لطنين يتعالى من خلفي، أدير وجهي لاستطلاع مصدر الطنين، فتهاجمني ريح عاتية، تقتلعني من مكمني، وتلقي بي على مبعدة من (مليكة)، أفتح عيني، فأجد وجوه زملاء العنبر، تحدق فيّ في قلق، وقد أخذ أحدهم بضع أوراق وجعل منهم وسيلة للتهوية، يرفع أحدهم منديلًا داميًا من فوق شفتي فأتنبه للألم المتصاعد حيث أزاح المنديل. تحيط بي همساتهم، فتمنحني تفسيرًا:

- لَكَمَهُ (عدلي).
- نزفت شفتاه كثيرًا.
- استدعيت طبيبًا ولم يأت أي منهم بعد.
- مؤكد أنه أخبره عن موت (عبد الناصر).
- لماذا لم يحذره أحد.
- هو قد انتحى جانبًا، وابتعد عن المجموعة منذ قدومه.
- مسكين (عدلي)!
- هو لا يتحدث مع أحد، بقدر ما يتحدث خلال نومه.
- (عدلي) هو الأكثر جنونًا هنا، كان ينبغي عليهم عزله، هو لا يدرك أنه هنا منذ ما يزيد عن أربعة أعوام.
- بل المسكين هو هذا الوافد الجديد.
- كلاهما مجنون، ولن يهتم الأطباء ولو قتل أحدهما الآخر.

تنقلت ما بين متابعة (عدلي) عن بعد، وارتحالي مع (مليكة)، ومطاردة طيف (نوح أفندي) لخطواتي المرتعشة، تابعت كشف الحقائق، وتحسس جوانب الردهات التي تنقلني من عالم إلى الآخر، توقفت أمام بعض الثغرات، حتى استيقظت في ليلة، لأجدني في غرفتي في بيت (شبرا)، ومن

حولي يلهو ولد وبنت، وعلى مقربة مني صوت بكاء رضيع، يصدر من فراش صغير مجاور، سألت طفليّ عمّن يكون الباكي، فقالوا:

- هذا (يحيى)!

غُسْلُ بمَاء البَحْر

ظل الرجل محدقًا فيها، وكأنه يشك أنه يعرفها، أخذ يدور حولها دون أن تلاحظه هي، ولكنني انتبهت لاتجاهات نظراته، فوجدت وجهها قبلته، كان سبعينيا، التحمت لحيته البيضاء بشعره الأبيض، فأمسيا كدائرة من ضوء تحيط بوجهه، لتبث نوعًا من الطمأنينة فيمن يطالعه، وجهه المتغضن يروي آلاف الحكايات، شفتاه على وشك التفوه بالسؤال الأول، غير أن الشك يكبح كعادته الجماح.

وهي، منشغلة بتقييم المعروض من البضائع، دونما اكتراث بالمارة، كنت أعلم أن عقلها لا محل به للانشغال بغير قضيتها الأساسية، ولكنَّ شيئًا من التسارع قد انتاب ضربات القلب، حين شَرَعْت في نسج احتمالات، غزلتها مخيلتي، لهذا الرجل، ومن قد يكونه...

أيعقل أن يكون ما أظنه؟ تشابكت الاحتمالات في عقلي، ونشأ بينها صراع حاد، المنطق يؤكد أن فارق السن بينهما لا يتجاوز عشرة أعوام، وهذا كفيل بأن يدحض النظرية التي يتمناها الفؤاد الشغوف، فهذا العجوز لا يمكن أن يكون (خليل)...

- الست (هدى)!؟

قال العجوز المتردد أخيرًا، فتوقف صراع الاحتمالات في مخيلتي، والتفتت صوبه (أم خليل)، بهدوء مر كالدهر، ضيّقت عينيها، واقتربت من وجهه مدققة، انكمشت زوايا عينيها حتى أضحت وكأنها مغمضة العينين، استغرق الأمر بضع ثوان حتى تنبئها عيناها الضبابيتان، عن شخص المتحدث، وقالت متسائلة:

- (عويس)!؟

ابتهج العجوز واتسعت ابتسامته، فدفعت بلحيته خارج إطار المشهد، فبدا أصغر سنًّا، بدا حذرًا في ابتساماته، رغم أن غبطته المنتشية باللقاء كانت جلية...

- مضت أكثر من خمسين سنة يا أم الغالي.

يقول ذاهلًا، تتبسم هي بامتنان خجل، فيردف:

- هجرتِ (كفر سعادات)، وهاجرت أشياء عدة بصحبتك دون أن ندري، انفرطِ العقد برحيلك، وارتحلت خلفك العائلة تلو الأخرى، مات العمدة تلو العمدة، غابت "السعادات"، وصار الغجر والعرب يتجنبون المرور بالكفر، فهجرت طرقاتنا بهجة الموالد.

لماذا رحلت؟ ولماذا قطعتِ صلتك بنا طيلة تلك العقود يا أم الغالي... تشرد، وكأنها تستعيد ما يقصه، أتوتر، خشية أن تعاودها نوبات الألم المفاجئ، المتزامنة مع ذكر (خليل)، فاقترب منها، وتقول:

- مر زمان على ما كان، وكبرت حتى صرت أكثر مني هِرَمًا يا ابن (زليخة).

تقول باسمة، فيهتز ضاحكًا، يمسك يدها ليجلسها على مقعد مجاور:

- والله زمان يا ست (هدى)...
- (أم خليل) يا (عويس)، أنسيت اسمي، بعد أن وسع الله رزقك وصرت من أعيان التجار، نسيته، أم نسيت صاحبك (خليل)!؟

يرتبك العجوز، الذي تَكَشّف لي أنه أصغر سنًّا مما ظننت، يتشبث بدفة الحديث، ويكدُّ كدًّا حقيقيًا في محاولة لتغييرها، إلا أنها كانتِ قد علقت بصخور (خليل)، البارزة من عيني (أم خليل) الجاحظتين، الـمِرتابتين...

- التاجر وتجارته تحت أمرك يا (أم خليل).

يقول، ولا يزال مرتبكًا مترددًا، تحيطه المرأة العجوز باستفسارات صامتة، تغلق عليه سبل الهروب كافة، ينهار على مقعد مقابل لها، يزفر صائحًا:

- لماذا لم تعودي!؟ لماذا لم تتركي أثرًا نتتبعه؟ لماذا كان اجتزاز الجذور من (كفر سعادات)؟ لماذا لم تخبري أحدًا عن وجهتك؟ حملتِ (سعاد) على كتفك، وتشبثت بكفك (فاطمة)، ناداك الشيخ (عتمان)، وهرولت خلفك أمي، ولكن قاربك الصغير، كان قد انزلق في ضباب النهر، وتدثر بضوء الفجر الشاحب، فتوارى عن الأنظار، طيلة خمسين سنة...

- هل تعلم عن (خليل) ما لا أعلمه يا (عويس)؟
- أعلم أنكِ لو عدتِ إلى (كفر سعادات)، لاختلفت النهايات...

يقول مشوحًا بيديه بعصبية أفرزها الحنق، وقف ودنا برأسه من المرأة العجوز، أردف:

- ارتحلت أمي ثلاثين يومًا، فيما بين القرى والنجوع، تبحث عنكِ، حتى حيث استقرت أسرة زوجك فيما بعد، لم تجد لك أثرًا...

تضع كفها على جبهته، وتحدق في عينيه وقد أوشكَت على سبر أغواره، ثم لا تلبث أن تدفع رأسه للخلف لتبعده عنها، تهب واقفة، وتتحدث فيجيء صوتها أقرب للفحيح:

- انتظرت ما يكفي، سنين كانت قد مرت، سلبتني (كفر سعادات) ولدي، ولم تحفظه، غدوت إذا ما أبصرت النخيل المنتصب على ضفاف النهر، كأسوار القلاع المحصنة، أرميه بسهام الحقد والكراهية، وأمزق ساقه بفأس (أبو خليل)، كيف اختطف ولدي على مرأى صف النخيل؟ كيف تركه ليذهب؟ كيف يقف ساكنًا دون أن يدافع عنه، وهو الذي طالما استظل به، واقتات على تمره، فضمه السعف ساعات وساعات!؟ ألاحق أسراب الأوز المترنحة في الطرقات، ألومها على اختطاف (خليل) من بينهم، دون أن ينبهوني! أقذف الحمامات العائدات إلى غياتهن بالحصى، إذ عُدن دون أن يحملن خبرًا جديدًا عن (خليل)، أعاتب شمس الصباح، حتى يغيبها قمر المساء الحزين، فأعاتبه بدوره، كرهت (كفر سعادات)، وأهل (كفر سعادات)، كرهت الحقول والنخيل، كرهت الأوز والحمائم، كرهت المواشي، رجوت الجميع أن يذكروني بملامحه، فلم أنل غير بسمات الشفقة، ودموع المواساة.
قررت أن لا حياة لي ولبناتي في (كفر سعادات)، قررت أن نبدأ حياتنا في بلاد أخرى، لا تدرك لـ(كفر سعادات) طريقًا، فكان الرحيل.

يبكي الرجل، ينتحب، يهوي على مقعده، يتمتم بحروف متقطعة من بين شهقات النشيج:

- كلنا أحببناك، وكل من في الكفر بذل وسع طاقته بحثًا عن (خليل)، ألا تتذكرينَ بكائي وأنا أنده باسمه، وقد حجبتني عن الأنظار نواصي الذرة حين غصت في جنباتها، كنت أخاف حقول الذرة، وأصدق حكايات النداهة، ولكنني مكثت في ظلماتها ليلتين أبحث عنه! لم يُقَصِّر أحد، ولم يتصور أحد أن يُهَرِّبُه الغجر ملفوفًا في حصيرة!

استعاد عقلها صباه، ليعيد بث مشهد الهروب أمام عينيها، تمسك بالمجدافين، يضربهما الغضب ليشقا النهر، ويفسحا المجال أمام موكبها الحزين للمضي قدمًا صوب اللامعلوم، بعد أن أمسى المعلوم كريهًا مرفوضًا، تعلو الموجات على جانبي القارب، وينخفض منسوب النيل حيث يمضي قاربها متسارعًا، شَعَرَت لوهلة وكأن مجدافيها قد أمسيا ملامسين للقاع، وأنهما شرعا يتواثبان كعكازين أو كجذعي شجرة، فأمسى القارب يركض، محلقًا كالطائر، والنيل ينساب تحت ناظريها يؤمنها ولا يلامسها، كان الزمان في غير مواسم الفيضان، فمضت آمنة نحو الشمال، دثرت بنتيها بجوالين من الخيش، وأبحرت حتى نفدت مؤنها، فاستقرت ذات صباح على ضفاف تجهل قاطنيها، ويجهلونها، فتنفست الصعداء، صنعت في قلب القارب فجوة كبيرة، شقتها بحجر مدبب، كان بحوزتها منذ غادرت (كفر سعادات)، ربتت على القارب، وتركته ليغوص في أعماق النهر الأمين، وكأنها بذلك تقطع سُبل العودة. تصاعدت فقاعات الهواء من قلب النهر، وابتعد القارب عن ناظريها رويدًا رويدًا، تكالبت عليه الأمواج فسحبته للقاع، طمأنت ابنتيها، وتذكرت زوجها الراحل، كان هذا القارب هو آخر ما اعتلاه (أبو خليل) قبل موته، إذ إنها كانت قد حرمت عليه، وعلى نفسها متاع الدنيا، منذ غياب (خليل)...

اعتادت تحريم الملذات، فأمست لا تفتقدها...

- "ملفوفًا في حصيرة"!

رددت آخر كلمات (عويس)، قبل أن تمسك بتلابيبه بسرعة خاطفة، فاجأت الرجل وفاجأتني:

- ومن أين لك بمعلومة كتلك!؟

الصبي مليح، وجهه أبيض متشرب بالحمرة في موضع الخدين، تزين رقبته شامة في جانبها الأيسر، ترقبه فتاة غجرية، منذ أن وطأت قدماه سوقهم الصغير، عقب مغيب الشمس، وقد جاء بصحبة عدة صبية في مثل عمره. الصبية خمرية، تخمر جسدها قبل الميعاد، لها عينان واسعتان بلون شعرها الفاحم، يموج شعرها خلف ظهرها، ليلتحم بسماء المساء الحالك السواد، فيبدو شعرها وكأنه بطول الليل وعرض السماء، حلق ضخم مثبت في أنفها، ملتقى نهديها يبرز بفجور من فتحة جلبابها الواسعة، تقترب من (خليل)، تثبت عينا الصبي بنهديها الناصعي البياض، بخلاف وجهها الخمري، يزداد وجهه احمراراً، غطاء رأسها يكشف من رأسها أكثر مما يخفي، تربت على رأسه، يقترب منها، يتكشف فيما بين نهديها منديلًا بلون البنفسج، تمسك برأسه، وتدسه حيث المنديل، يغمض عينيه، وترتعش أوصاله، ويشعر ببرودة تسري بأطرافه، تخور قواه فور ملامسة مسامها، تتطاير خصلات من شعرها فتداعب رقبته، قبل أن يدور رأسه، بفعل الرائحة المتصاعدة برويّة من المنديل، يثقل جفناه، يغالبه نعاس، ويسود سواد بلون خصلاتها المتطايرة...

- هذا مما أخبرني به (خليل).

تنهار على مقعدها وكأنها سقطت من فوق سفح جبل أرهقها صعوده، ترتعش شفتاها، تلين عضلات ساعديها التي كانت للتو متشبثة بـ(عويس) بصرامة وقوة، تلامس أناملها الأرض على جانبي المقعد. أتدخل من بعد صمت طال:

- هل تعني أن ولدها حي يا أخي!؟

قلت بلهفة، في لحظات غابت فيها الحكمة عن عقلي، واستقرت بعقل (أم خليل) العجوز، فجمعت سؤاله المتألم عن عدم عودتها، ونحيبه

الملتاع، مع ما تكشّف عن لقائه بـ(خليل)، فاستنبطت أن القصة ليست من ذوات النهايات السعيدة...

- عاد بعد رحيلها بعشرين سنة، أخذ يبحث عنها وعن أختيه طيلة سنوات تلت عودته، علمت أن الغجرية قد اصطحبته معها في ارتحال دام، حتى بلغ هو الحِلُم، فتزوجته، وأنجب منها بنين وبنات، قالت له أنها كانت مسحورة، وأنها رأته ذات مساء في رؤيا، تحقق منها كل شيء حتى رأته، فعلمت أن في اقتران جسديهما، خلاصًا من سِحْرِهَا وإفلاتًا ممن سَحَرَهَا، غادرت قومها لأجله، ولكنها لم تجرؤ على مرافقته في زياراته الدورية لـ(كفر سعادات) فيما بعد، تبخرت الآمال، وتكالبت عليه ظلال اليأس، فقطعت ما بقي من الحلم معلقًا بشغاف القلب، وانقطعت أخباره، حتى لقيته مصادفة العام الماضي، كان ذلك هنا، في ذات الموقع الذي تستقر فيه أمه الآن، علمت أن له تجارة ودكان عطارة في (الإسكندرية)، وعلمت أنه جاء ليشتري لوازم سبوع أول أحفاده، صبية أسماها باسم أمه، سألني عنها فأخبرته أن لا جديد، تتبعت أخباره عن طريق بعض الأصدقاء فعلمت أنه يحيا حياة طيبة، ويسبق ذكره ما تطيب له النفس من شيم الرجال، سافرت إلى الإسكندرية الشهر الماضي، وسألت عن دكانته الواقعة بـ(الأنفوشي)، فعلمت...

يقول إبان التحول من الوقوف، إلى افتراش الأرض تحت قدميها بالتزامن مع آخر كلماته، تطبق كفها على فمه، تمنعه من تلاوة الحقيقة، تغرق دموعه كفها المرتعش، ولكن هدير الصمت المتنامي، المتصاعد مع إيقاع ارتفاع وهبوط صدرها، كان كافيًا لأن أدرك ما كان، فَسَقَطْتُ على أقرب مقعد بدوري...

تعالت ضحكاتها، المقترنة بالنحيب والنشيج، ذرفت السماء من المطر ما يليق بالمشهد، وصرخ الرعد فكان صوته كالنواح، حين كنا ننطلق بالسيارة على غير هدى، ظننت أنها قد جنّت، ولكن وجهها ظل باسمًا، رغم غزارة

ما تجود به الأعين من دمعٍ، ظل حبيسًا طيلة ستة عقود، هدأ إيقاع أنفاسها المتهدجة تدريجيًا، وبدت تجاعيدها وكأنها تتلاشى، مع سقوط الأحمال عن كاهلها...

يلمع البرق في قلب سماء الليل، فيكشف عن بعض من الغيم القادم ليجثم على صدر السماء المنفعل، أتذكر تلك الليلة، فتجيئني ومضات البرق، وكأنها خطوط تقافزت على وريقة صغيرة، صادرة عن جهاز رسم القلب، تبدو الدقات غير منتظمة. تهدأ أنفاس (أم خليل):

- خذني إلى الإسكندرية.

قالت حين كنت قد انعطفت بهدوء لشارع (خمارويه)، أومأت برأسي إيجابًا دون نقاش، أوقفت السيارة في بقعة مظلمة من الطريق، هرولت نحو دكان (عبود) الفكهاني، وجدني لاهثًا فأجلسني، سألته عن بنات هذه السيدة، التي أتى لنا بها بعيد رحيل (أبو شنب)، أو عن طريقِ أيِ من أقاربها، فقال بعد تساؤلات واستفسارات قاطعتها بكياسة نَجَحَت في مواراة الحقائق:

- لا أعلم عنها شيئًا في الواقع، حدثني عنها ابن ابنة خالي القاطن بدمنهور، وأتاني بها بعد أن استأذنت (نوح أفندي)، المعضلة هنا، أن قريبي هذا قد استدعي مجددًا للجيش منذ أسبوعين، ولا أعلم متى يمكنني رؤيته.
- قلت لك أن الأمر إرادي بالأساس.

قالت باسمة، حين قطعنا منتصف الطريق نحو الإسكندرية، بدا لي وجهها أقل هرَمًا عن ذي قبل، وإن طفت على محياه أمارات الوهن والضعف، خيوطَ من اللعاب تصل بين شفتيها حين تتحدث، أربت على كفها فأجده باردًا كقطعة ثلج...

- الموت، حين تفقد أسباب الوجود، يمسي كصديق تشتاق للقائه، وفي ملاقاته، اجتماع بمن تشتهي لقياه...

أردفت وقد أمسى صوتها كالصادر من طيِّ بئر قصيّة، كيف عرفها "عويس" بعد ستين سنة!؟ المؤكد أن ملامحها اختلفت! هل هي محض مصادفة؟ أم أن القدر ساقه ليقاطع دروبها، حتى يُعْلمها بحلول الميعاد!؟ كانت متشحة بشال يغطي رأسها، ويحجب كامل عنقها، فهل سقط شالها، أو تزحزح لوهلة، حتى يتسنّى له أن يلحظ شامتها؟

- لا يفترض بك أن تحزن لأجلي، قضيت عمرًا أحلم بلقاء، هو الآن على وشك التحقق، فإن أردت، شاركتني غبطتي، ولتكن ابتسامتك آخر ما أرى يا بني.

قالت وهي تربت على ساقي، دون أن تنظر إليّ، أمعنت النظر في قسمات حيرتني فيها آيات السكينة والرضا، ما اعتاد من أسنانها المبيت خارج فيها، بدا وكأنه يميل نحو الداخل، فيتوارى عن الأبصار إذ أطبقت شفتيها، تهمس مغمضة العينين، دون أن تتلاشى بسمتها الآسرة:

- إذا ما وصلنا الإسكندرية، فبلغنا شاطئها الذي لم أره يومًا، فوجدتني وقد أسلمت الروح لبارئها، لا تجزع، بل اضحك! فقليلون هم من يرتادون الشطآن، برفقة جثامين لم يمهلها القدر لتداعب الموج يومًا، لو انقلبت الأوضاع، لضحكتك دون أن أرثيك، بل وربما دفنتك في قلب رمال الشاطئ!

نظرت صوبي أثناء نطقها بآخر الجمل، فلمحت في عينيها رجاءَ دفع بالدموع إلى عينيَ، جاء بكائي حنقًا وعجزًا، طوّقت الدهشة أفكاري، وتمنيت أن ينتهي الأمر بأن يكون حلمًا، أستفيق بين لحظة والأخرى، فتفلتني براثنه.

- روت لي جدتي، نقلًا عن جدود الجدود، أن كان لمصر ذات يوم سلطانًا، شنق بـ(باب زويلة) بأيدي الأتراك، وكانت له ابنة تدعى (عين الحياة)، حزنت من بعده حتى ماتت كمدًا وهي ابنة العاشرة! منذ ذلك اليوم، لم يقتل الحزن امرأً بفراق أمه وأبيه، بل عاش في قلوب ثكالى، لآباء

وأمهات، غاب عن ناظرهم بنين وبنات في عمر الزهور، لم يكن (خليل) كـ(عين الحياة) يا سي (إبراهيم).

ظل السؤال عما تحمله المصائر في قادم الساعات يعتصر ذهني، شهقت (أم خليل)، فتحت فمها قدر استطاعتها، وملأت صدرها بهواء الإسكندرية التي لمحت بالكاد شاطئها، فجاء الزفير من بعد الشهيق خافتًا، متأنيا، متدرجًا، أوقفت السيارة بجوار الكورنيش، كان الوقت متأخرا، حتى أن المدينة الساحرة قد بدت وكأنها قد خلت من المارة، وأطبق ظلام الليل على شواطئها مستأثرا بها، نظرت صوبها، وقد مال جانبها الأيمن متكئًا على النافذة المجاورة لها، فأدرك قلبي من اتساع ابتسامتها، وتوقف صدرها عن آليات الصعود والهبوط، أن اللقاء المأمول، قد تم أخيرا، عقب انتظار عقود ستة.

دوت ضحكاتي، المختلطة بدموع حارت فيما بين الابتئاس والحبور، أخذت أطالع جثمانها المنتشي، فتستغرقني المرأة، وتتردد في أذنيّ خاتمة كلماتها، على الشاطئ مركب صيد رست بضفافه، وكان وصالها بالأرض هو حبل ربط به طرفها، وانعقد طرفه الآخر في وتد خشبي ثبت في قلب الرمال، بجوار الوتد مركبا صيد، يبدو أنهما تخضعان لصيانة ما، بحيث رفعتا بكامل هيكليهما على رمال الشاطئ، وجعل لهما متكأين خشبيين، ثبتا فوقهما، ينعكس ضوء القمر من طلاء حديث، ينعكس وقد غطى أجزاء منهما دون الأخرى، غمر الضوء الشاطئ، وتسرب من فُرجة بين القاربين، فتشربت بقعة من الرمال أسفلهما من ضوئه أكثر مما جاورها، فبدا المشهد وكأن مستطيلًا ذهبيا، قد رسم فوق الرمال!

لم يمض وقت طويل بين ميلاد الفكرة، وتنفيذ الوصية، وصية امرأة ليست كأي امرأة أخرى، امرأة، أسترجع ما جمعني بها من ذكريات محدودة، فأضعها في منزلة الأوطان.

كان طرف أحد المجاديف مدببا، فهون عليّ عناء الحفر، لم يظهر أحد في الإسكندرية، غَسّلْتُ الجثمان بماء البحر، دون أن أخلع عنه سترته، فقط

أزلت غطاء الرأس، وربطت شعرها بعناية خلف رقبتها، حتى تبدو شامتها جليّة، فتسهل من مهمة (خليل) في التعرف عليها، توقفت حين وجدت في باطن الرمال لفافة قماشية، تمعنت النظر فيها، ثم وضعتها في جيبي، وأكملت ما أنا بصدد إنهائه، وجدت في أحد القاربين، لفافات أقمشة، انتقيت منها أبيضها، وجعلته كفنًا لها.

حين انتهيت من إهالة الرمال على الجثمان الباسم، وقفت لأعدل من هندامي، ابتسمت، وشعرت براحة تسري في عروقي، وقد حققت لها أملًا من آمالها، ولا يعلم غير الله، متى تحقق لهذه المرأة أمل من قبل، حين انتهيت من ري قبرها الشاطئي بمياه البحر، وألقيت بجسدي في السيارة، امتلأت شوارع الإسكندرية على حين غرة، فعلق قلبي بعيون وأنظار المارة، خشية أن يكون أي منهم قد شهد ما كان.

غادرت السيارة، بادلت بعض المارة التحية فردوها بابتسامة مضيافة، شرعت الطمأنينة في التمدد بداخلي، أتابع القبر الرملي، فلا أراه يشغل أيّا منهم، وضعت يدي في جيبي، ومشيت الهوينى، فتذكرت اللفافة القماشية، أخرجتها من جيبي، حللت رباطها فوجدت لفافة أخرى بلاستيكية وقد أحاطت بصندوق من القطيفة الزرقاء، حين بلغت الصندوق الصغير، وفتحته، وجدت قطعة قماشية أخرى، كانت قديمة بحق، خط عليها بلون أسود، كلمات يدوية لم أميزها في البدء، ثم ما لبث ضوء القمر أن كشف لي كلماتها الثلاث:

"لا تيبسوا ثراي".

طالعت ثراها، فوجدته نديّا، قاطعني مرور شاب في ملابس الصيد، على مقربة من قبرها فيما بين المركبين، استوقفته، طالبته بالمساعدة، فسألني باهتمام حقيقي عن كيفية مساعدتي...

- لدى ابنتي قطة صغيرة، توفيت اليوم، فأخذت ابنتي هذا الصباح، وقمنا بدفنها في تلك البقعة من الرمال، كل ما أوده، أن يرعى أي من الصيادين هذا الموقع من الشاطئ، فيواظب على ريه، وترطيبه، وعدم

العبث به، أعلم أن كلماتي هذه قد تعكس لك جنونًا، ولكن ابنتي هي أغلى ما أملك، وأثق أنها ستطلب مني زيارة قبر قطتها عما قريب...

تفهم الرجل قصتي، رغم عدم اقتناعي الشخصي بها، منحته جنيهًا كاملًا، فتعهد برعاية القبر، وتهللت أساريره، وأقسم بكل ذي قسم، أنه لن ينكث بالوعد ما دام حيا.

غادرته، ثم تذكرت أنني لا أعرف موقعي بشكل دقيق، سألت أحد المارة، فأفاد أنني في (الأنفوشي)، سألت عن المزيد من التفاصيل، فقال أن أشهر ما بالمنطقة هو دكان العطارة الواقع على ناصية الشارع المقابل لنا، وقفت بباب العطارة المغلق، وقرأت لافتته الخشبية الضخمة:

- عطارة خليل أبو شامه.

توقفت، جلجلت في الطرقات ضحكة جزلة صدرت من أعماقي، قررت البحث عن سنترال لأهاتف أبي، وشغلت بغتة، بالاطمئنان على (دنيا)!

<u>ملحوظة</u>: علمت فيما بعد، أن (فاطمة) و(سعاد)، بنات (أم خليل)، قد زارتا بيتنا في (شبرا) للسؤال عن أمهما بعد ذلك اليوم بقرابة العام، وأخبرتهما (دنيا)، أن أمهما قد وجدت أخاهما (خليل)، ومضت برفقته، فلم تعاود كلتاهما الزيارة أو الاستفسار.

لم أدر ما طيب العناق على الهوى ... حتى تــرفق ساعدي فطواك
وتأودت أعطاف بانك في يـــدى ... واحمر من خفريهما خـداك
ودخلت في ليلين؛ فرعك والدجـى ... ولثمت كالصبح المـنور فاك
وتعطلت لغة الكلام وخاطـــبت ... عيني في لغة الهوى عـيناك
لا أمس من عمر الزمان ولا غــد ... جُمع الزمان فكان يوم رضاك

أحمد شوقي

ترانيم لا تُخْشِعْ | عناق الماضي

ألقيت بنفسي فوق المقعد الأحمر، فاهتزت أعواد البامبو تحت وطأة العظام الواهنة، وتماوجت بلطف، قبل أن تستقر سريعًا، ويستقر فوقها جسدي الرامح يومًا بعد يوم بين عتبات العمر، أمسيت قادرًا على مطالعة شيخوختي، وقد قبعت على غير مبعدة من مضماري، أرحت ساعديّ على المنضدة ذات السطح الأخضر الأملس، أخذت أنقر بقلمي على المنضدة، فجاءت النقرات كإيقاع أشبه بالمارشات العسكرية، أحكمت إحاطة عنقي بالوشاح الصوفي البني، هربًا من برودة نسبية استشعرتها في النسمات المحيطة بي، أخرجت جريدة من حقيبتي، ورسمت على حوافها دوائر متقاطعة، حالكة في مركزها، باهتة في حوافها، استبدلت القلم الأزرق بآخر أحمر الحبر، وشرعت أجمل دوائري وأزينها، حتى غدت كدوامات متحركة، أخذت تتسع شيئًا فشيئًا، حتى ابتلعتني.

هو الترقب الذي أعرفه، هو الانتظار في صورته الغامضة، حين يتأرجح بي بين عالمين من السعادة والرهبة، فما ألبث أن أتبسم، حتى تسري رعشات الرهبة كقشعريرة باردة، تبدأ من منتصف الظهر حتى تستقر بمؤخرة الرأس، غصة تستقر بالحلق وتفارقه، كمدٍّ وجزر، ينحسر ليطمس الخوف، ثم يعود ليغمرني بالفزع.

تتناثر في قلب الدوامات حكايات، وجوه، شفاه وضفائر، نهود وسيقان ملساء كما أعمدة الرومان الرخامية، ينثر فيض الذكريات عطورًا وروائح

تميز الأزمنة، وتحدد الأماكن، فتداعب البسمات تارة وتناجي الدمع تارات، أعين تهمي وقد ترددت من خلفها أصداء لضحكات أشخاص أعرفهم، تتعانق النبرات والكلمات، فيفرز العناق ظلًّا من ظلال الماضي، يتراقص على إيقاعات لحن عذب ينساب بين العابرين في دوامتي، فيشدو عبد الوهاب:

أين من عيني هاتيك المجالي   يا عروس البحر يا حلم الخيالِ

أعاود النقر على المائدة الخضراء، مردداً قصيدة (علي محمود طه) التي أُوحي له بها، في اغتراب مماثل لاغترابي هذا، وقد تَدَثَّرت برداء عبد الوهاب الموسيقي الأنيق...

كان عمري خمس سنوات حين غنى عبد الوهاب الجندول، واليوم أناطح الستين من العمر، وما زالت الأغنية تصبغ ساعاتي بذات البهجة والانتشاء، هل كان حبي للأغنية تقرباً من (نادية عيسى)، التي كانت تعشقها؟ أم هو انعكاس طبيعي لعشقي لـ(محمد عبد الوهاب)!؟

أخذت أتنقل ما بين مطالعة الساعة، وتصفح الوجوه المجاورة، والتربيت على المقاعد الفارغة، طالما اجتذبتني مطالعة تلك المقاعد الفارغة، وطالما شردت إذ أطالعها، متخيلًا، إذا ما تَمَكَّنَت ذات يوم، من البوح بأسرار زائريها، كَم الحكايات التي ستقصها على مسامعنا، خاصة هنا، في "كافيه دي فلور"{١٢٦}، فأحد هذه المقاعد، قد استمع لاعترافات "سارتر"{١٢٧} في طور المهد، وعاصر مقعد آخر صياغة "سيمون دي بوفوار"{١٢٨} لصرختها الخالدة "الجنس الآخر"، وشهدت إحدى هذه الطاولات الخضراء، المخطوطة الأولى للعديد من إبداعات "جياكوميتي"{١٢٩}، وبضع لمسات من "بابلو بيكاسو"{١٣٠}، ممتزجة بكلمات خلدت صاحبها "أرنست هيمنجواي"{١٣١}، وها هو "كافيهِ دي فلور" يستقبل (إبراهيم البنداري)، في واحدة من أكثر لحظاته توتراً وترقبًا، هنا في قلب "باريس"، حيث كان الماضي لصيقًا بي على طول الخط، ولم أنتبه يومًا لألامسه! أعود لانشغالي بالمقاعد الفارغة، متسائلًا عن شاغرها القادم، وما يحمله من هموم

وأحلام، بين طرفة عين وانتباهتها، تختلف الوجوه، وتتوالى الأجساد ساكنة لهذه المقاعد، يظل المقعد كاتمًا للأسرار، وحاجبا للأخبار، تتعالى الضحكات، فتهتز المقاعد مع ارتجاج أجساد الضاحكين، وقد ملأت الأشداق حكايات بشوشات، يرحل الضاحكون فيأتي من بعدهم أناس تنضح من وجوههم الحسرات، يفترشون المقاعد وينشجون بالبكاء، فتهتز ذات المقاعد إثر النحيب، تنثني أعواد البامبو، وتتمدد وتنفرد، ولا تشي يومًا بأسرار زائريها، الذين لم يبدُ عليهم التأثر بالبرودة مثلي!

الانشغال باستشراف القادم، وتخيل بوح الجماد إن أتيح له أن يفضي بما لديه، من بعد كتمان عظيم، كانا موضوع روايتي الممنوعة "ترانيم لا تُخشع"، فإن كان كتاب (نوح أفندي) قد منع من النشر، لأن طرحه لا يلائم الوضع الحرج، الدقيق، الدائم، فإن روايتي تلك، قد مُنعت فصودرت بُعيد نشرها بأيام، لأسباب أخرى...

- ميولك السياسية جلية في وضوحها يا أستاذ (إبراهيم)، وإسقاطاتها السياسية لن تخطئها عين خبير مثلي.

كانت تلك كلمات شخص لم ينسه أبي، هو (عبد العزيز القاضي)، مانع الإبداع، ورقيب الضمائر، صهر ابن العم (حسن)، والذي علمت فيما بعد، أنه كان قد أوصى بأن يراجع هو أي مخطوطة يحمل صاحبها لقب (البنداري)!

- في روايتك، أحجار طريق تتكلم، لتشكو ثقل موكب الوزير في مروره، وصنم يهرب من عابديه، لأنهم صاروا يتلون ترانيم لم يتلها على مسامعهم، والبطل الأساسي للرواية هو المسئول عن جر عربة الوزير، وهو رجل مصاب بالفصام، فيبدو يمينيًا تارة، ويساريًا تارة أخرى، يرسل لنفسه خطابات، محاولًا إقناع ذاته بأمور متناقضة، في نهاية الأمر، يطلق الصنم الرصاصة على الوزير، وقد صار ينازعه في ألوهيته، فتقرر الرصاصة أن تحيد عن مسارها وتستقر في قلب بطل الرواية، ليسقط الجميع أرضًا، وتنتهي من حيث بدأت، بشكوى أحجار

الطريق من ثقل الموكب، وقسوة الصدام والاصطدام، ثم لا تلبث الأحجار أن تردد الترانيم...

حين قرأ ملخصه العبثي لروايتي الحبيسة، نظر صوبي كمن كشف سرّاً من أسرار الكون، قبل أن يردف بابتسامة صورها لي (نوح أفندي) في مصارحته ذات مساء:

- فأما الوزير فهو النظام، بل وربما تقصد رأس النظام، ربما تكون الأحجار هي الشعب، والصنم يرمز إلام إذن؟ لست واثقًا، سنرى، أما الشخص المصاب بالفصام الذي يجر العربة طيلة الرواية، فربما ترمز لنفسك به، كان من الممكِن أن أتغاضى عن تفسيري هذا، لو كان اختيارك للأسماء أكثر ذكاءَ، فقد أسميت بطل روايتك "نجاح" وهو أسقاط على فشله المستمر، أما الوزير فكان اسمه "عبد القادر" وهو على وزن "عبد الناصِر"، وهكذا كانت مهمتي أسهل مما توقعت، كان أبوك أكثر منك دهاءَ، حين جاءني بكتابه العجيب منذ بضع سنوات!
- أنت تحب الكلمات المتقاطعة يا سيد (عبد العزيز) على ما يبدو! بيد أن تفسيرك خاطئ تمامًا.

حينئذ، داعب مخيلتي بعض منِ محاورات أفلاطون، كما كان الأمر مع أبي، بيد أنني تملصت منها، حرصًا على التماسك ورباطة الجأش، ثقة في أنني لا أملك ما امتلكه (نوح أفندي)، من توازن نادر، وثبات مُحيّر.

ثمة شاب منهمك في كتابة شيء ما على طاولة قريبة، ربما كانت تلك طاولة (هيمنجواي) المفضلة ذات يوم، ماذا كان "هيمنجواي" ليجيب (عبد العزيز القاضي) في ذلك اليوم إن واجه ما واجهته!؟

يغمرني الفضول ويدفعني لتخيل تفاسير الرقيب (القاضي)، وفكه لطلاسم "العجوز والبحر"، و"وداعًا للسلاح" إذا ما عرضت عليه قبل طباعتها! الشاب المنهمك في الكتابة، يتوقف عن الانهماك، ويطالع ما خطت يداه، قبل أن يمزقه بعصبية وتوتر، يبدو وكأنه تخيل معي مراجعة (عبد العزيز القاضي) لما يكتب!

- ما الهدف من قصتك إذن؟ ما الدرس المستفاد، وأين العظة المنثورة في السياق الروائي؟ لا أجد شيئًا من ذلك! فقط تحريض فج على السلطة القائمة.

حين قال (القاضي) ما مزق أواصر إرادتي على التماسك والتحصن بالهدوء، تكاثف غضب محتدم ليحتل القسم الأعظم من مرآي، فعصفت به حتى اصفر وجهه:

- وماذا نجني من ليَ أعناق القصص، حتى يبحن بما لديهن من عظات، القصة هي محض حكاية، قد يرمز كاتبها لشيء، وقد يسرد واقعًا عايشه دون أن يرمز لشيء بعينه، قد يلحق القارئ به عبر الصفحات فيدرك مقصده، وقد يضل القارئ المقصدَ إثر تلعثم الكاتب، وربما لا يكون هناك مقصد من الأساس، القصّ حرفة، ولا ينبغي للكاتب، أن ينبري في محراب الكهنة، ليقدم مواعظ الآحاد، وخطب الجُمَع، كفاكم تفتيشًا لعقولنا!

بعد خسارتي المبكرة لمعركتي الرقابية، تطوع صديق لي هو (يونس العقيد)، ربما بواعز من رغبته -آنذاك- في رد الجميل، لمن نشر له أول أعماله القصصية، حيث كنت قد نشرت له ولصديقه (جلال الغيطي) أول أعمالهما الأدبية، فشاء القدر، أن أكون سببًا في بلورة موهبتهما الحقيقية، لتُنزَّل أعمالهما الوليدة على يديّ، فصان (العقيد) الود، وحفظ الجميل وقبض عليه، فكان أن عكف على نشر روايتي، بعد أن قام بتغيير أسماء الشخوص، فاستخدم أسماءَ أجنبية هربًا من الرقابة، وأضاف رتوشًا تجعل الزمان والمكان، بُعْدين مطموسين لذات السبب، وتقدم بالرواية لإحدى الجوائز التي تنظمها الدولة، فجاءني استدعاء من القائمين على الجائزة، دون أن أعلم ما قام به (العقيد)، يومئذ، واجهت اتهامي الثاني، بسرقة الرواية، واقتباسها عن عمل أجنبي، ذهب البعض لافتراض صاحبه الأصلي، فقط، لأن أبطال الرواية، يحملون أسماءَ إفرنجية! طَبعت منها مائة نسخة، فتمت مصادرتها بعد طباعتها بأيام معدودات، ولم يبق مما طبع

سوى خمس نسخ على وجه الأرض، إحداها كانت بحوزتي، حتى فقدتها في رحلة سفر منذ عشرة أعوام، بينما حصل كل من (صلاح زكي) و(العقيد) و(جلال الغيطي)، و(نادية عيسى) على نسخة منها.

- رفض أبوك تزويج ابنته لابن أخيه، لمجرد أنه يحفظ كتاب الله، فهل تراني أثق بما يريد هو، أو تريد أنت ترويجه بين القوم!؟

قال (القاضي)، المتقع، بعد هدأة فورتي، واستفساري منه، قبل مغادرتي، عن سر تربصه، فبادرته بما أملى عليّ إله المنطق:

- كيف تكون خادمًا للنظام، ومدافعًا عن الإخوان المسلمين، في آن واحد!؟

تبسم، ففاحت من فمه رائحة كريهة، قبل أن يُردف بما أصاب إله المنطق بالحيرة:

- أحدهما رابح لا محالة! فماذا أجني من معاداة أي منهما؟

كشف (القاضي) عن منهجه، فاختلت موازين العدالة كافة، وتنبهت لواقع أن كليهما يحمل سلاحًا لا يطلق النار، ليخيِّر البشر بين أمرين لا ثالث لهما: الموت أو الحياة، الحرية أو السجن، الجنة أو النار!

غادرت مكتبه كما غادره أبي، ناقمًا على الحياة، مقررًا التوقف عن محاولات نشر الرواية، فظلت أسيرة أدراجي. وحين حاول بعض من الأصدقاء مساعدتي كما أشرت، كان النشر، فالمصادرة!

تأخرت مُدرسة الرسم...!

امتلأت أغلب مقاعد "كافيه دي فلور" خلال شرودي الأخير، هززت رأسي بتوتر، لأنفض منها (القاضي) و(العقيد)، وروايتي الضائعة، فتبخرت لوحات نسجتها الذاكرة، عبر الدقائق الماضية، فبرز (جلال الغيطي) بغتة، وكأنه كان قابعًا منذ البداية في بقعة رطبة داكنة، خصصتها له، حين تَهَرّب من التواصل معي منذ عامين، وقت أن وددت أن أستعلم عن روايتي المفقودة، مستفسرًا، إن كان لا يزال يحتفظ بنسخته منها، وإن كان

بمقدوره إرسالها لي، ولكن (الغيطي) بارت أرضه، وجف غيطه فغاب حصاده، فترفع عني، متشبثًا بحبال واهنة، ربطته مؤخرًا، بمنصب أدبي رفيع، في إحدى الصحف القومية، هززت رأسي بعنف هذه المرة، فهوى (الغيطي) من موقعه المظلم، واختفى، فأمسيت قادرًا على معاودة الانغماس في طقوس الانتظار...

توحشت كثيرًا رؤيتها، وطاردتها في الحلم كثيرًا، حتى تفرغت لمطاردتها في "بروكسل"، طيلة الأسبوع الماضي، فعلمت أنها لم تستقر هناك عقب هجرتها من "مصر"، سوى قرابة العامين، رحلت بعدهما لتستقر في "باريس"، حتى يومنا هذا.

توقفت كثيرًا أمام خياري الدائم لأصعب الدروب، وأكثرها مشقة، بغية الوصول إلى المبتغى، فقد كان بالإمكان مخاطبتها، أو ربما كان عليّ أن أتنبه لعنوان المُرْسِل في خطاباتها، لولا عادتي الأخرى الغريبة، في التخلص من الأظرف، والاحتفاظ بخطاباتها، في حقيبة جلدية خَصّصْت نصفها لخطاباتها، والنصف الآخر لخطابات (صلاح)، فلماذا أفعل ذلك!؟

نهاية الأمر، وخلاصة منهاجي الفريد، هي أن إصراري على مفاجأتها، بالبروز أمامها من عدم، قد كلفني بحثًا مضنيًا قوامه عشرة أيام، وسحب من رصيد الصحة المعتلّة بطبيعة الحال، وسفريات عديدة بين البلدان والدول، واستجوابات لأشخاص ارتاب معظمهم في أمري، لأحصل على رقم هاتفها في نهاية المطاف، من السفارة المصرية في "باريس"، عن طريق شخص، هو قريب لأحد معارف صديق قديم لي!

أين أنتِ يا مُدرسة الرسم؟

عاودتُ النقر بالقلم على المنضدة الخضراء، حتى تلعثم الإيقاع مع مد (عبد الوهاب) للألف في ذروة شدوه:

أين من واديك يا مهد الجمال   أين عشاقك سُمار الليالي

فوجدتني مبحرًا بضفاف حنجرته، زائرًا لوطن اغتربت عنه، فاغترب عني.

شرعت أتخيل ما قد يبدو عليه اليوم (حواء) و(آدم)، و(يحيى)، و(ملك)،

وقد تراوحت أعمارهم اليومِ ما بين بداية العشرينات وبداية الثلاثينات، ثم أخذت أتحسس وجنتي، باحثًا مرة أخرى عن موقع ندبتي فوق إحديهما، حين كانت سيدة مألوفة، تهبط بتؤدة من فوق دراجتها ذات المقعدين، متأبطة العقد السادس من عمرها، تضع الدراجة في موضع مخصص لذلك على مقربة من مجلسي، يبدو على قسماتها تردد متسق مع ما يجيش بصدري، عيناها تجولان بين الجلوس، تبثان إشارات الحيرة، تدققان في أدق تفاصيل المارة بين القادمين والمغادرين، حتى تصافحت عينانا، فاتسعت ابتسامتها، لتشمل كامل مساحة "كافيه دي فلور".

كانت تلك مُدرسة الرسم، وقد ارتدت قميصًا ناصع البياض، مكسوًّا بمعطف قصير رمادي اللون، فرضته برودة الجو، القميص ينتهي بنعومة فور ملامسته لسروالها البني، المنحسر بدوره عند حدود ركبتيها، الرافضتين لمواكبة الطقس البارد... كانت تلك معشوقتي، النبضات الهاربة من صدري الخاوي برحيلها، والقمر الغائب عن فضاءاتي، شغف اللقاء، ونقمة الرحيل، قد ذابا وامتزجا بمرآها، عقب انتظار دام اليوم قرابة الساعة، ونشأ منذ ثلاثين سنة...

طالعت ساعتي فعلمت أنها جاءت في تمام الموعد المتفق عليه، وفطنت لأنني جئت مبكرًا، هربًا من الانتظار في الفندق.

حين احتضنتني (نادية عيسى)، سحق عناقنا ثلاثة عقودٍ باعدت بين جسدينا، وقفز آخر لقاءاتنا ليستقر بالأمس القريب، طُمِسَت الأصوات من حولي، فاعتقدت أن عناقنا قد لفت الأنظار، قبل أنَ أتنبه أنها قد عزلتني عن الكون بتطويقها، حين تسربت الأصوات المطمورة إلى مسامعي، فشعرت وكأنني أحاول استراق السمع، وقد غمرتني الأمواج في قلب المحيط.

احتلني طنين محبب، اختلط برعشة ثلجية سرت في عروقي، صدرت عنها آهة خافتة، تخشى من فرط رقتها أن تلامس حدود التأوه، فتنبهت أن معصميِ الهرمين، قد استعادا عنفوان أيام خلت، وأخذا يعتصران خصرها،

بما يفوق تحمل جسدها الدقيق، ففككت أسرها، وظلت هي محيطة لعنقي بذراعيها الجذلتين، قالت:

- صرت عجوزًا يا (إبراهيم).

اغرورقت عينانا بقطرات من فَرِح الدمع، وتراقصت على شفاهنا بسمات متصابيات.

- ظننت أنني صرت هرمًا، حتى لقيتك الآن.
- لم يعد لدينا الكثير.
- بل لم يكن لدينا الكثير لنحيا من أجله، والآن قد صار...

استجابت خصلات شعرها بميوعة لمداعبات النسائم العابرة، فتطايرت كاشفة عن غزو الشيب لقسم منها، واستسلامها لذلك الغزو في دعة ورضاء. سرنا الهوينى قاصدين مجلسي الأول، فاقتحم (عبد الوهاب) ممشانا، لتردد أصداء خيالاتي من خلفه:

مر بي مستضحكًا في قرب ساقي   يمزج الراح بأقداحِ رقاق

قد قصدناه على غير اتفاق   فنظرنا، وابتسمنا للتلاقي

خطاباتنا منذ رحيلها منتصف الستينات، كانت سخية في تعدادها، متحفظة في خبرياتها، تبث الطمأنينة لدى كل منا، بتوكيد أن الآخر باق، حي يرزق، ولا تروي ظمأ الفضول، الذي بقي طامعًا في الحصول على إجابات لأسئلة لم نسألها، خشية أن تأتينا إجاباتها بغير ما يشتهي كلانا...

- لم تتزوجي!؟

رنت ضحكتها صافية لها ألف صدى، عقب سؤالي الخَجِل، ثم ما لبثت أن رفعت كفيها أمامها، مبرزة خلو أصابعها من تيجان الخطبة والزفاف، أمعنت النظر في أناملها، قبل أن أغوص في عينيها، ولسان حالي يستفسر عن الماضي بعد الاطمئنان على الحاضر، قربت يديها من وجهي، فلم يبدُ أي أثر لارتداء خاتم من قبل.

- أما أنت فلن أسألك، هكذا أنتم الرجال، تتأكدون من خلو حقلكم من البوم، وتبيتون كل ليلة بحقل.

ترددت قبل أن أردف: - تعلمين بزواجي الأول والذي تزامن مع هجرتك... حاصرتني نظراتها حتى دفعت بي نحو حافة المصارحة، فتلعثمت، ثم أردفت مطرقًا: - أما ما أعقب ذلك، فلست بواثق من حقيقته!

تجاهلت (نادية) تلميحاتي الضمنية بعدم ثقتي فيما أعايشه، شَعُرت أنه كان حَرِيٌّ بي ذكر (مليكة) و(ملك)، أو أن أتجرأ لأقص عليها ما أنبته زواجي الأول من ثمرات الذرية، لم أكن بزواجي من (دنيا) خَطيًّا، كي أخجل من فعلتي، وكأنني أنا الهارب من غربة النفس إلى اغترَاب الأوطان، ولكن؟ ألست بالفعل كذلك!؟

فحتى (مليكة)، لم أكن مُخيرًا في ارتحالي برفقتها، حتى ما عدت أميز الصحوة عن السبات، والحلم عن اليقظة، فحين اجتذبتني (مليكة)، سرت خلفها مأسورًا، مسحورًا، كمن قص عليّ (أبو شنب) حكايتهم إذ نادتهم النداهة، هل هربت (نادية)؟ وهل كان هروبها من (المجهول)، أم من المعلوم!؟

حين انتهينا من احتساء قدحي القهوة، جَلَسْتُ على المقعد الخلفي من دراجتها المذهلة ذات المقعدين، وأخذتني في جولة سحرية عبر طرقات مدينة النور، حيث الزهور تطل من النوافذ وتتدلى من الشرفات...

- منزلي قريبٍ من هنا، سأعد لك طعامًا مصريًّا بنكهة فرنسية، ثم نلتقي شخصًا خاصًّا، لن أفصح لك الآن عن ماهيته.

قالت فوافقت، ثم سَألْت:

- دراجتك فريدة يا (نادية)، ولكن ما حاجتك لدراجة ذات مقعدين!؟

تَعمّدَت أن تسلك طريقًا علمت فيما بعد أنه الأطول، وصولًا لمنزلها، بغية إتمام أحاديث كنا قد شرعنا في استكمالها في (كافيه دي فلور)، بعد توقف دام ثلاثين سنة، سألتني عن (صلاح) فأخبرتها خَجِلًا أننا لم نتواصل منذ لقائنا في "تونس" منذ ثلاثة أو أربعة أعوام. سألتها عن أمها فقالت دون خجل، أنهما لم تتواصلا منذ قرابة العشر سنوات، فتطاير خجلي لتحل محله الدهشة، المغلفة برغبة حقيقية في احتضانها من جديد...

- الحياة مشاغل.

قلت مواسياَ، فغيرت دفة الحديث لتواجهني بما ظل حبيس صدرها:

- أليس مريباَ أن لم تذكر لي، ولو لمرة واحدة، في أي من خطاباتك، عن أي شيء يخص حياتك؟ كنت أعلم موقعك على الخريطة من أختام البريد، لم تذكر شيئًا عن زوجتك وعن أبنائك، إن كان لك أبناء، علمت بمصادفة أنك غيرت مسيرتك، وتحولت عن الصحافة والأدب، إلى علم الاجتماع على الأرجح! لست واثقة! لم يتعدَّ أي خطاب منك الأسطر الثلاثة، كيف ذلك!؟ كيف وقد كنت وإياك ذات ليلة، نقطع خيوط النهار المتسربة إلى غرفتي كي يطول الليل، ولا يأتي الصباح فنفترق، كنا لا نكف عن الحديث، لم نرتب يوماً كلماتنا، ولم نختر مواضيع النقاش، كانت لقاءاتنا تفريغًا لطاقات العقل والجسد... فماذا حل بك!؟

تدافعت كلماتها مخترقة ستار المواراة الذي أحطت نفسي به لفترات طوال، المؤسف أن لم يكن لدي إجابة واحدة تقنعني، كي تقنعها، قلت مطلقًا سراح العتابات الأسيرة:

- ترفقي بي قليلًا يا (نادية)، فما عهدت الهَاجِر يعاتب الـمَهْجُور من قبل! ليس لدي إجابات وافية لتساؤلاتك المشروعة، بيد أنني أظن أن ما كان مني، قد نبع من صِراع بين شعورين متناقضين، امتزجا في روحي فجاء خليطهما محيرًا كما ذكرتِ، أما أولهما فهو الغضب المصحوب بالنقمة عليك، إثر رحيلك المباغت، مكتفية بورقة تحوي بضعة أسطر، تضرج نار الشوق ولا تغني عن الغضب، ولا تفي بأجوبة كان لها أن تصاغ بما يليق بالحدث، وهو ما نتج عنه الاقتضاب، ومحاولة إثبات أن حياتي، بعد أن طُوِيَت صفحتك، مستمرة كالنهر في سريانه، وأما ثانيهما، فهو الهوى، والعشق الراسخ في قاع الفؤاد المكلوم بغروبك عن سماواتي الحزانى... كنت أتواصل معك لأطمئن أنك على ما يرام، لأنني لم أتصور أن يمسك مكروه رغم الفراق، ولم أقو على تصور حياتي إن مسّك مكروه، وفي ذات الوقت، كنت مرغمًا على حفظ

ماء وجهي، وطمس العاطفة في كلماتي، واختزال المكنون بين الضلوع، في بضعة أسطر تلغرافية، خاوية في مظهرها...

توقفنا أمام بابها الخشبي، المصبوغ بلون الفستق، الذي يبدأ أسفل درجتين حجريتين منخفضتين عن نهر الطريق، وينتهي بنصف دائرة في قمته، له قبضة نحاسية معلقة في منتصفه، تستخدم للطرق، ومن حوله تراصت الزهور وعلقت قصاري الورود الصغيرة، إطار الباب محاط باللبلاب الصاعد حتى سطح البناية ذات الطوابق الثلاثة.

مدخل حالم، لبيت سيدة أتت هاربة من عوالم الواقع، ناسجة عوالمها الحالمة، بين أوراق ولوحات الرسم.

- أتعلم!؟ تلك واحدة من أبرز مشاكلك، تظن دومًا أن لا حل لديك، ولا منطق فيما تظن، وواقع الأمر، أنك لديك تفسير قويم لكل شيء...

قالت باسمة، بميوعة ردتني لكورنيش روض الفرج، حين تأبطنا أحلامنا وترجّلنا عبر الوجوه العابسة، متشابكة أصابعنا، متشابهة مواجعنا، صوب اللاشيء، قدومًا من اللاشيء!

وكم هو غريب ذلك الحنين الدائم للأمس، حين يستدعي الماضي، فيقدم من زاوية مظلمة مطمورة في ثنايا الذاكرة، ليغزل شبكته الحريرية المحكمة الراسخة الأركان، فتسد فجوات الزمان، لتصل الأمس بالحاضر، وكأننا لم نفترق!

للأمس بريق لا يخفت، وللماضي سحر لا يزول، وإن تكالبت عليه وعود الغد البارقات، ولحظات الحاضر المشرقات، يظل للأيام الراحلات عبق فريد وأثر عجيب، فحتى آلام الأمس البعيد، يظل لاستدعائها مذاق عذب، لا يتسق مع مرارها!

وكم هو محير أمرنا نحن معشر البشر!!

أنا من ضيع في الأوهام

أنا من ضيع في الأوهام..

أنا من ضيع في الأوهام عمره...

يقتحم (عبد الوهاب) مخيلتي محذراً، حين كنت أتفحص إحدى لوحات (نادية)، التي تراصت على حوائط منزلها، بتناسق بهي محبب للنفس، سكنت اللوحة امرأة عارية الصدر، نصفها السفلي ليس لإنسية، وإنما هو خليط من دخان، قوامه طيفان متعددة ألوانهما، سكن طرف كل منهما مصباح نحاسي عتيق، شبيه بما جاء في قصص (علاء الدين).

- أراك ما زلت متعلقًا بالنهود!

قالت مشاكسة، فلم أجبها بحقيقة مفادها أن ما اجتذبني للوحة، لا يمت بصلة لعري المرأة فيها، وإنما أجبتها بذات الطريقة:

- التعلق بالنهد... يبدأ من المهد.

تضحك بميوعة فطرية، أربت على كتفها فتحيط خصري بذراعيها فرحة، حين دلفت من إحدى الحجرات المظلمة، فتاة يافعة، تكاد خطواتها الحالمة الرقيقة، أن تشرئب، كي تلامس عامها العشرين، تجمدت ساكنًا.

- هل هذا هو السيد (إبراهيم) يا أمي؟

تقول الفتاة بحياء باسمة، فتضحك أمها وتمد جسور التعارف:

- بالفعل يا (فاطيما) ، هو كذلك.

تقول مترقبة ردة فعلي، وقد تشبثت مقلتاها بأهدابي، منتظرة فورة الانطباعات الأولى، رغم ذلك ظلت على بسمتها الأثيرة، تمد (فاطيما) يدها فأصافحها، ثم تقبلني وتحتضنني بحفاوة وترحاب صادق، لفني شعور مفتقد بالأبوة فتملك مني، ورحت أربت على كتفيها، وأنا أخاطبها ضاحكا:

- وماذا قالت لك (نادية) عني!؟ ذم أم مديح!؟

ضحكت الشابة الخمرية الرقيقة، وقصت عليّ عدة مواقف ضاحكة جمعتني بأمها أيام الغرام الأول، فتعالت ضحكات ثلاثتنا، حتى في اجتماعنا على منضدة الغداء، تبادلنا النكات حول محاولات (نادية) الدائمة في المزج بين الطعام الشرقي والغربي، بيد أن لحم الضأن الذي

قامت بشوائه في ذلك المساء، كان مميزًا، وإن لم أدرك خلطة التوابل التي صاغته بها، ليجيء بهذا المذاق الرائع...

تمثال حجري أخاذ للسيدة العذراء، توسط مكتبة خشبية ضخمة، في مواجهة منضدة الطعام، رسخ مرآه سابق قناعتي بأن (نادية)، قد وجدت سكنة روحها، في المسيحية، كدين وحياة، لم تكن ترتدي صليبًا، كما لم تدقه وشمًا في رسغها كعادة الأقباط الشرقيين، ولكنها كانت مسيحية صالحة.

أخذنا نلوك مع الضأن، سنوات الفرقة الطوال، فاختلط مذاق الطعام بالأيام الخوالي، وتداخلت قرقعة الضحكات مع أصوات تلاحم الأطباق بالملاعق، غابت إيقاعات الحروب، وتهادى جندول عبد الوهاب على إيقاعات اللقاء. استأذَنَتْ (فاطيما) حين لامست عقارب الساعة حوافَ الواحدة صباحًا، وغابت في ظلام غرفتها محتضنة النعاس، وبقيت مستلقيًا على الأريكة القطيفية الأرجوانية اللون، متكئًا برأسي على ساقي (نادية)، مبحرًا وإياها في حكايات ثلاثين عامًا، بدا من تفاصيلها وكأن كلانا قد أعد العدة لهذا اليوم، فظل قابضًا على أدق التفاصيل حتى ينثرها في صحبة الآخر، يوم أن يكون اللقاء، الذي كانت حتميته يقينًا راسخًا في قلبينا.

علمت أن (فاطيما) هي ابنتها بالتبني القسري، أما التبني فهو أمر مفهوم يعني أنها ترعى من هي ليست ابنتها، وأما القسر، فقد جاء من طبيعة الموقف ذاته، حين طرقت بابها ذات مساء، امرأة مغاربية متدثرة بحجاب أبيض وصفته بأنه مُحكم، ألقت رضيعتها بين يديها فور أن فتحت الباب، ثم لاذت بالفرار، قالت المرأة (اعتني بها... سأعود لاحقًا)، وغابت بين الأزقة المتكحلة بالظلام، هربًا من الشرطة التي كانت تطاردها، فتش أفراد الأمن بيوت المنطقة في تلك الليلة، بما فيها منزل (نادية)، ولكنهم لم يعثروا على ضالتهم، فانحسروا بمثل ما ظهروا من سرعة، عَلِمَت هي منهم أن المرأة مهاجرة غير شرعية، دأبت على السرقة، فراحوا يطَاردونها منذ شهور، قال الضابط إنها مغاربية، ولم يحدد بلدًا بعينه، عَلِمَت فيما بعد، حين

التقت ذات الضابط في متجر قريب، عقب مرور شهور على استلامها هدية السماء، التي أسمتها هي (فاطيما)، أن المرأة قد ألقي القبض عليها، بعد أيام من مداهمة الشرطة للحي، وتم حبسها ثم ترحيلها بالفعل إلى وطنها الطارد لقاطنيه، ربما لقسوة معيشتها، وربما لطبيعة كونه، بلدًا عربيًا! مر على تلك الواقعة ثمانية عشر عامًا، ولم تعد المرأة لاستلام رضيعتها، التي أمست عروسًا في ريعان الصبا.

أخذنا نتبادل طرح الاحتمالات، عن مصيرها، وعن سبب غيابها، فلم تخرج كلمات كلينا عن سيناريوهات مختلفة للموت.

- مثل هذه السوداوية في التخيل الفرضي لمصير المرأة، ربما تكون أحد أسباب هجرة الشباب لأوطاننا هذه.

قلت ساخرًا فضحكت، ولأول مرة منذ زمن لا أقدر على تحديده، أثقلت الراحة ودسامة الضأن جفني، فأغلقتهما باسم الثغر، حين كانت (نادية) تعبث بخصلات بيضاء نبتت في مقدمة رأسي، معلنة أفول الشباب.

أسلمت سماء الليل أمرها للصبح المتسلل إلى فراشها المعتم، فأخذ يداعب حواف نجماتها المتنمرات بأن مرر أشعته الوليدة فيما بينهن، دار في مدارات منسية لم تمسسها شهب منذ زمن طويل، ثم راح يجوب بضوئه حولهن مرارًا وتكرارًا، حتى هدأن وغمرتهن السكينة فأفلن، لامس قرص الشمس، المنبثق من مبيته اليومي في قلب النهر جسد السماء، فهاجت الريح، وصدر عن حفيفها ما يشبه الشهيق، انطلقت الطيور من أعشاشها دفعة واحدة، فعلا صدر السماء وهبط عدة مرات، حتى بلغ قرص الشمس مستقره قرب كبدها، فارتعشت نسمات الصبح المنتشية بضم النور، وانسحب الليل جارًا من ورائه عباءته الحالكة، تاركًا الشمس لتغزل من خيوطها رداءً نورانيًا، يستر عري السماء التي أنهكها السهر، فغفت باسمة قريرة العين.

رأيت في حلمي (أم خليل) تبحث عن خليل، وتحاول حث أم (فاطيما) على مواصلة البحث، ومطاردة الأمل، حتى وإن خفتت أنواره الأولى،

رأيت (أبو شنب) و(نوح أفندي)، طاردني ذئب عوضين، فلم أخف، اصطحبت (عم عبد الفتاح) إلى حفل زفاف (صلاح) و(نعيمة)، شَدَت (يولا) بأعذب أغانيها الفرنسية في حفل الزفاف، لهوتُ مع (إسماعيل)، احتضنت أبناء (مريم)، تحاورت مع (أبو شنب) وعمي (إمام) في قبرهما المشترك، وبتُّ ليلتي في حضن أمي، لاستيقظ على ساقي نادية العاريتين، وقد بللتهما قطرات من عرقي، فاتضح لي أنها غفت جالسة كي لا تقلقني!

عقب إفطار شهي، سبقه تناول كلانا للعقاقير الطبية، التي يستخدمها مرضى السكري، وقرح المعدة، قصت علي بضعة مواقف، قليل منها عن دراستها للرسم، ثم عملها كمدرسة للرسم، وعن دروس الرسم المجانية، التي تمنحها لغير القادرين في الكنيسة، وتمحور كثير مما قصته حول ابنتها بالتبني، عن طفولتها الموثقة بألبومات الصور، التي مررنا بها كلما استلزم الأمر، عن دراستها للموسيقى في مكان نسيت اسمه الآن، عن صديقها الأول، وعن صديقها الثاني وخطبتهما الوشيكة، كان جليّا أن (فاطيما) هي محور عالمها، ونقطة ارتكازها الدائمة، لِم ألمها إذ لم تذكرها يومًا في خطاباتها بدورها، كما لامتني هي على قِصر الكلمات، وفقر المحتوى في كتاباتي لها، لم أتوقف عند عدم ذكرها لأي سحابة حب، مرت في سمائها عبر السنوات الماضية، لأنني لم أجرؤ أن أقص عليها ما مررت به بدوري! كلما تَشَعَّب الحوار، عاد ليستقر ويطوف حول (فاطيما)، قفز إلى ذهني سؤالًا ملحّا، فأطلقته:

- قلت إن أمها كانت امرأة مُحكمة الحجاب، ورأيت في غرفة الطعام تمثالًا للسيدة العذراء، فعلى أي منهاج سماوي نشأت (فاطيما)!؟

افترشت الأرض بجوار الأريكة الأرجوانية، فردت ساقيها، وتعلقت عينيها بالثريا الضخمة المتدلية من سقف الغرفة، تماوجت على شفتيها بسمة زهو، وبرقت عيناها، فأشعتا طمأنينة تكفي كلينا، قالت:

- هي اليوم، في الثامنة عشرة، اتفقت وإياها، أن تقرأ الكتب السماوية، وتراجع شرائعها وأحكامها، منذ بلغت السادسة عشرة، على أن تختار دينها، بحلول عامها الواحد والعشرين، زارت معي مصر أكثر من مرة، مررنا بكنيستنا في شبرا، وزرنا "السيدة عائشة" و"السيدة نفيسة"، وكذلك كانت لنا محطة بالمعبد اليهودي في شارع "عدلي".. تحدثت (فاطيما) مع رجال الدين كافة، ناقشتهم جميعًا فيما تاقت نفسها لمعرفته، وكررت الأمر هنا في (باريس)، ولكنها قالت إن صحائح الأديان، لا تزال عالقة بمواقع تنزيلها الأولى، وجزمت أن سحر كلمات الرب، وقوة فعله وأثره، يخفت كلما ابتعد المرء عن الموقع الجغرافي لنزول الوحي.
- وهل اتضحت ميولها، أم ما زال طريقها في بدايته!؟
- أعتقد أنها بلغت من الطريق منتصفه، فقد انتهت من تحديد مواضع الرفض!

قالت فرفعت حاجبيّ ذاهلًا، فأردفت ضاحكة:

- هي -وفقًا لعوامل الوراثة- ترفض تعدد الزوجاتِ! كما أنها لا تقتنع بتحريم الطلاق لدى أقباط مصر إن لم يكن مسببًا! وتجد رفض اليهود الأرثوذكس للزواج ممن يتبعون ديانات أخرى أمرًا لا يُعقل، وكذلك إجازة الأمر للذكر وتحريمه للأنثى لدى المسلمين، ناهيك عن الرفض التلقائي لفتوحات السيوف الإسلامية، ودموية حكام الكنيسة الناطقين باسم الرب هنا في أوروبا إبان عصور الظلمات، تكره ظلم المرأة في قوانين الميراث الإسلامي، حزنت حين قرأت قصة قتل عمر بن الخطاب منذ قرون، وأحزنها بشدة اغتيال "رابين"{١٣٨}منذ أيام! العنف باسم الدين يرعبها بحق، هي تقرأ الآن عن البوذية وتدون ملخصاً عن "الكنزا ربا"{١٣٧} الكتاب المقدس للصابئة المندائيون{١٣٦}، وهكذا يا عزيزي، أعتقد أنها على وشك الانتهاء من قائمة المرفوضات...

ضحكنا، وأعجبني إصرارها على منح فتاتها حرية لم يمنحها بشر لبشر من قبل، وطربت بفلسفتها، حين منحتها اسم عائلتها، وحريتها المطلقة، وقصت عليها حكاية أمها الحقيقية، كي تتحرر هي بدورها من الخوف الذي كان ليلازمها لو لم تفعل... أخذت أتذكر بضعة أسطر من "غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة"، الذي منعه "القاضي"، وقت أن كانت تبدي إعجابها بتفهمي للأمر، ثم كان أن لبّت مطلبي، فأمسكت بفرشاتها وألوانها، وأخذت تصيغ بعض من خواطري أشكالًا ورسومات تقطر حياة فوق الورق، وقد أردتها كأغلفة لأفكار روايات لازالت تتناحر في مخيلتي، فخلقت ريشتها في ذلك اليوم كاهن يعترف، وحكيم يتربع فوق موج البحر، ودمية قماشية بالية، ويدان تتضرعان إلى الله بالدعاء...

حين حانت لحظة الرحيل، تعانقنا كما كان العناق بالأمس، ناولتني نسخة روايتي الضائعة حين عَلِمَت بضياعها، فقدمت لها بدوري نسخًا من خمس روايات أخرى، نشَرتها خارج مصر خلال العقود الثلاثة المنصرمة، فتهللت أساريرها وعانقتني مجدداً، لم أمهلها الوقت لتلاحظ أن الروايات الخمسة كانت مهداة إلى (ن. ع)، فأخذت أشرح لها ماهية الأنثروبولجي[٩٥]، وطبيعة اشتغالي كمحاضر في هذا التخصص، لم أخبرها عن رحلة بحثي عنها في "بلجيكا"، سألتني إن كان لقاؤنا القادم سيكون في هذه الدنيا، أم في جنات النعيم، قلت:

- أعدك ألا تمر ثلاثون عامًا أخرى قبل أن أراك مجددا!
- سأفتقدك إلى الأبد...

قالت جملتها الأخيرة بفرنسية ناعمة، ضاقت معاجم الكلمات بتوصيف ما أشعر به، فعجزت عن النطق بما يليق بذاك الشعور من كلم في شتى قواميس اللغات! تبسمت دامعة، فمسحت بدوري دمعة كانت على وشك الفرار من مقلتي، قالت: لم تسألني سؤالًا كنت على يقين أنه سيكون في طليعة تساؤلاتك. أطرقت واهنًا، وأجبت:

- لا جدوى من اعتصار الماضي، بحثًا عن أجوبة ملت تساؤلاتها، حسبي أنك سعيدة، وحسبك أنني أواصل البحث عن سعادتي...

صعدت الدرجتين الحجريتين، لأستقر في نهر الشارع شبه الخاوي، أبحرت على مبعدة منها، لوحت بيدي دونما التفات قد يبرز ضعفي، غُصْت بين أمواج المارة، طالباَ منهم إخفائي عن طريقها، طاردت الضياع بين طرقات لا أعلمها، قبل أن أتوق للعودة إليها، وفور أن أدركت محطة القطار، شعرت بحنين حارق لأبنائي وبناتي، فقررت أن أواصل التدوين، لأرسل لهم كل ما دونته، وقتها أطل عبد الوهاب مجددا ليصدح:

ذهبي الشعر، شرقي السمات   مَلِح الأعطاف، حلو اللفتات
كلما قلت له خذ قال هاتِ   يا حَبيب الروح يا أنس الحياة

قصاصة من جريدة الأهرام[٩٦]
بتاريخ ٤ مايو ١٩٨٧

إنتحــــار دالـــيـــدا

كتبت / نعيمة المصري

أعلنت الشرطة الفرنسية عـن العثور بالأمس على الفنانة الشهيرة داليدا، وقد توفيت داخل منزلها، وذلك إثر بـلاغ من خادمتها أفاد بالعثور على المطربة الشهيرة في سريرها وقد فارقت الحياة، كما أعلن المتحدث باسم شرطة باريس أن المؤشرات الأولية ترجح بقوة انتحار (داليدا)، حيث عثر بجوارها على ما يدل على تناولها لكمية كبيرة من الأقراص المهدئة، كما عثرت الشرطة على رسالة خطية تركتها الفنانة الشهيرة كتبت بها " الحياة لم تعد تحتمل... سامحوني".

الفنانة الشهيرة كانت قد ولدت بالقاهرة، وتحديداً بـحـي شبرا في ١٧ يناير ١٩٣٣ لوالدين ايطاليين مهاجرين هاجروا لمصر بدافع الفقر الشديد وهرباً من المعارك الطاحنة فـي ايطاليا ابان الحرب العالمية الأولى، وجدير بالذكر أن اسمها الحقيقي هو (يولاندا)، كما كان يعرفها الـمـصريـون أيـضاً بـ (يولا).

حققت الفنانة الراحلة أول خطوة نحو الشهرة بعد فوزها بلقب ملكة جمال مصر ١٩٥٤،لتسافر بعد ذلك إلى باريس وتبدأ رحلتها مع عالم الشهرة والأضواء.

جدير بالذكر أن المطربة الراحـلـة كـانت قد قـامـت بـدور البطولة العام الماضي في فـيـلـم (اليوم السادس) لـلـمـخـرج يوسف شاهين.

"إليك يا أنبل حروف العشق، وأسمى معانيه...

كما تعلم منذ البدء، حكايتنا لن يُقدر لها الإفلات من مصيرها المحتوم، وبرغم يقيني الدامغ، المدعوم بمختلف الأدلة، أن عشقنا الفريد، قد لا يبعث من جديد إذا ما واراه هجران، أو طوقه نسيان، وبرغم أنني لم اختر من حطام هذه الدنيا سواك عشيقًا وخليلاً، وبرغم أن ما يباعد بيننا اليوم، هو أمر لم يختره أي منا، وقد ورث كل منا ديانته عن أمه أو أبيه، لا أجد بالفؤاد ما تملكه أنت من القوة والعناد، فلا أجرؤ إلا على الرحيل، لأطمس أصوات طبول حرب يقف حَمَلَتهَا في ذروة تأهبهم على أعتاب فراشنا، قبل ارتفاع إيقاعاتها، وعلو صخبها، وصخبهم، ما بين تبجح، وتطفل، واقتياد للحلم خارج مخادعه، فتعريج خبيث بين دروب الفتن، ومسالك التعصب الغرائزي، والتطرف الأجوف...
سأرحل يا (إبراهيم)، لأنني أحب أن أحفظ لحياتك سلامها وسكينتها، ولأنني أعلم أنني لم أنتمي يوماً لهذا العالم، فاغفر لي، وعِدْني أن تقطع على نفسك عهداً بألا تبحث عني، على أن أعدك ألا ألومك ان حنثت بذلك العهد..."

سأحبك دوماً يا (إبراهيم)...

نادية عيسى

المكوث الثاني

حكاية فخري عبد الملاك

- قتل زوجته!

همس لي (سعيد) بذلك، حين سألته عن الرجل الذي لا يتوقف عن رسم الصلبان على الحائط. بعد أن أفقت صباح ذلك اليوم، لأجدني قد عدت إلى المصحة، لم يكن (عدلي) حاضراَ، سألت عنه فلم يجبني أحد، فتشاغلت بذلك الرجل الذي ملأ الأرض والجدران صلبانًا، وقد بدا حَرِيّاً بالمتابعة، تساءلت عن كيفية ترك الأطباء لأقلام كتلك بين يدي مجموعة أشخاص، يدركون خطورة ما قد يقترفونه بها من أذى، ثم عدلت عن عجبي، واستبدلت به الاعتياد!

مع زوال الصداع تدريجيّا، اجتاحتني حالة من الملل، ومضى عليّ ردح من الزمان، توقفت فيه عن التنقل بين العوالم، فكان استقراري في ذلك العالم ذي القمر الواحد، بمثابة استرخاء في ديمومة من سكون، لا يقاطعها سوى نهنهة من هنا، أو بضع ضحكات من هناك.

كان عدد النزلاء في تزايد إذا ما قورن بمروري السابق، فبقيت في مهادنة مع معظمهم، معتاداً تبادل البسمات مع البعض، وتحاشي نظرات مدججة برِمَاح الارتياب، يوجهها صوبي البعض من آن لآخر، حتى جاء مساء، تقوقعت فيه بأن غرست ركبتي في صدري، كجنين يداعب خيالاته قرب حلول المخاض، وشرع هو في نوبة أخرى من نوبات دق الصلبان، على الحوائط الملآنة بخواطر القوم، ترقبته حتى خلد الجميع إلى سبات، لم يجافه سوانا، ومرت ساعات المساء الهشة مترنحات، فمضين دون أن أشعر، حتى توغل بنا الليل، فأوشكت مراقبتي أن تنهار أمام إلحاح من سلطان النوم، غفوت لوهلة، ثم استرجعت صحوتي سريعًا، لأجده وقد

انتصب إلى جوار سريري، رامقًا إياي بألفة وأنَفة مستغربة، ثم نطق بما جمّد أطرافي:

- ها أنا أمامك، فماذا تريد مني!؟

قلت بجرأة فاجأتني:

- ينتابني فضول بشأنك، فلا أقدر أن أتوقف عن متابعتك، أنظر إلى هؤلاء النيام، خلف كل منهم، حكاية جديرة بالاستكشاف، وكشف يليق به أن يُحكى كما ينبغي، أنا لا أهابك، ولا يرعبني ما يقال إنك مجنون، فكوني هنا، يمنحني ذات الصفات التي قد أخشاك بسببها، والأمر إذن سواء، إذن لنتفق، إن قصصت علي قصتك، تلوت عليك حكايتي! ولن يضيرك في شيء إن توقفت عن رسم صلبانك، خاصة وقد ضاقت بها الجدران، وأمسيت تجد صعوبة في إيجاد مواقع فارغة لتسكنها إياها!

أنهيت كلماتي بلهاث لا يتسق مع محتواها، المفترض به أن يعكس الثبات، فنشبت أظافري في اللحظات الساكنات، محاولًا رسم التماسك على محياي، قبل أن يسقط قناع ثقة، لم يلائمني يومًا، اختصر هو صراعي مع الذات، فقال مشيحًا بوجهه:

- ليكن، ولكن لي شرطِ...

أومأت برأسي مستفسرا، فأوضح:

- سأقص عليك ما جرى، دون أن أنظر صوبك أو تنظر صوبي، ليس لك أن تقاطعني معلقًا او مستفسرا، إلا حين أسألك، سأجعل منك كاهن اعترافي، فلا تخن ثقتي، واحذر ان تُخَيب ظني...

قبلت دون إدراك لثقل المهمة وخطورتها، فقط، كنت أرى (فخري)، بمثابة حائل يقف بيني وبين السقوط في لُجين معتاد من المُحيرات، أجلسني في فراش مجاور يخيم عليه الظلام، منثور في جنباته بكارة تضفي له ألقًا وهيبة، إذ لم يفترشه أحد من قبل، وقبع هو في مرقدي حيث يتسرب ضوء القمر الوحيد، ليكشف بعضًا من وجهه، فيغدو بإمكاني رؤيته دون أن

يراني، غمرني ذلك بشيء من الراحة المرجوّة، وطلبت منه أن يبدأ حكايته، ففعل...

(فخري عبد الملاك مرقص)، الرجل الأربعيني الخمري البشرة، أمضى حياته على مقربة مني في (شبرا)، دون أن نلتقي يومًا، وإن كان يعلم حارة "البنداري"، غير أنه لم يعرف آل بيت "البنداري"، وإن سمع بهم، وهكذا، مضت بنا السبل في طريقين متوازيين، تشرق علينا ذات الشمس، في ذات الوقت، وتغيب دون أن يجمعني لقاء عابر، سواء بـ(فخري)، أو بزوجته (تريز).

(تريز) فتاة يسارية الفكر، متحررة في أيديولوجيتها، تود أن تحارب الفقر والجهل، ولكنها لا تملك السلاح الملائم، ولا تدرك ساحة القتال، تزوجها (فخري)، عقب قصة حب جامعية تقليدية، بين طالبة ومعيد، نبتت حتى أثمرت، بين أروقة كلية حقوق في جامعة عين شمس، فكان قطافها إكليلًا، تلاه زواج اشترطت هي من قبله، تأجيل الإنجاب لعامين، أو ثلاثة أعوام، فرضخ متظاهرًا بالرضا، وقد كانت الأعوام العشرة الفاصلة بين ميلاديهما، يشعرانه طيلة الوقت بأنه منقوص من سمات الشباب، وحرفية الانطلاق، التي كانت تجيدها (تريز) كأفضل ما يكون!

حتى جاء يناير ١٩٧٢، بأحداث ساخنة أذابت صقيع الطقس، وطمست برودته[١٣٢]. كانت (تريز) قد تخرجت بالفعل في العام السابق، إلا أن أصدقاء لها، من طلبة الليسانس في حينها، قد تواصلوا معها، فانضمت إلى المظاهرات الطلابية التي اجتاحت البلاد في حينها، ووجد (فخري) نفسه، منقادًا خلفها في مظاهرات، يدرك انعدام جدواها، ويثق كمسيحي -يرى نفسه صالحًا- أن نتائجها، لن تغير شيئًا في أوضاع أقباط مصر، غير أنه كان دائمًا ما يحرص على مشاركتها اهتماماتها، وتلبية رغباتها، لعله بذلك يعوضها، عن كونه رجلًا اعتياديًا، في كل شيء، خاصة حين يجمعهما الفراش، فيفضي بما لديه بطريقة نمطية، دون أن تلامس هي آفاق شبق، سمعت عنه من صديقاتها غير المتزوجات، ولم تنله هي في زواجها، رفقة

(فخري)، ذلك الزوج التقليدي، الذي لولا عشقه الجارف لها، وميراث أبيه الضخم، ومحبتها المحسوبة له، لما ارتضت به زوجًا من الأساس.

- الوهم نصف الداء، والاطمئنان نصف الدواء، والصبر أولى خطوات الشفاء...

قلت بعد تفكير قصير، حين قطع سرده بغتة، وسألني إن كنت أراه مجنونًا، استدعيت مقولة "ابن سينا"{١٣٥} فأراحته إجابتي، سألني عما أتى بي الى مصحة للأمراض العقلية، إن كنت على تلك الدرجة من رجاحة العقل، وحضور الذهن، فأجبته:

- لست على يقين إن كانت ظالمًا أم مظلومًا، لم أتوصل بعد إلى الحقيقة، وإن كانت تتكشف يوما بعد يوم، يستفزني إيقاعها البطيء، فأتسلح بالصبر، حتى تتكشف، أو ينقذني منها انتقال آخر، لعوالم أكثر وضوحًا... أتعلم؟ ما قولك برجل أفاق ذات يوم، فحطم أكوابه وكئوسه، وأفرغ كل ما يختزنه آل بيته من حليب، ثم هرع الى حظيرته المجاورة، ولقم ضرع البقرة الناعسة، وشرع يرتوي كمن طال به الظمأ!؟

- حري به أن يرافقنا هنا!

قال وقد ارتسمت على وجهه أولى ابتساماته منذ لقائنا الأول، شعرت بالرضا، ثم رفعت حاجبي وهززت رأسي اعتراضا على إجابته، أردفت:

- في ظني أن إجابة كتلك، كانت ما ساقني إلى هنا! أنت تراه مخبولًا! وأنا أراه يود الحصول على الشيء من مصدره، فأخذ يبحث عن أصول الأشياء، لأنه فقد ثقته بما أتاه به القوم، وما وجدهم عليه من سنن وتقاليد! قبل أن تنعتوه بالجنون، حاكموا أولئك القوم، كي تستبينوا أسباب كُفره بما وجدهم عليه من طقوس وعادات!

كان مطرقًا مائل الرأس، لا ينظر صوبي طيلة اعترافه، وكنت أمر بحالة نادرة من الاهتمام الإنساني، والفضول البشري الحذر. لم يعلق على جملتي الأخيرة، وواصل مستكملًا...

رسمت النهايات أول خطوطها المتسارعة، إبان المظاهرات، كانت فورة (تريز) لا تهدأ، وباتت حنجرتها إذ تواصل هتافاتها كجمرة لا تنطفئ، حتى تسرب إلى أذنيه ملاحظات محيطيهم، حول التنافر الملموس في طباعهما، وقد ظل طيلة يومين من التظاهر، هائمًا في سكون لا يليق بالظرف، ولا يتسق مع المشهد، كانت هي مصدر الزئير ومحركة الإرادات، كانت بجسدها المتناسق الصغير، يُنظر إليها من الأسفل، وقد اعتلت الحالة الثورية، كقائد يخوض غمار حرب ضروس، وكان هو في نظر الجميع، كما هو في نظرها، رجلًا تقليديًّا، جاء ليحمل زوجته على كتفيه، كي تتفرغ للهتاف، ولا شيء أكثر من ذلك...
حين اقتادتهما قوات الأمن إلى قسم الشرطة، ثم منه إلى مقر أمني آخر، كان هو الملتاع مرتعش الخطوات، متلعثم الإجابات، ميز المحقق الفرعوني ارتباكه، فأدرك أنه سيكون أسهل من يدلي باعترافات تفصيلية، بشأن من خطط وشارك فيما جرى، قرر أن يهدده بـ"تريز"، فأتى بكليهما من محبس منعزل عن الآخرين، فك وثاقه وأزاح غمامته، وترك غمامتها كما هي، ترك خفيرين مفتولي العضلات إلى جواره، وتركها هي موثقة اليدين، معصوبة العينين، ثم أخذ يتحسس جسدها، بأن رفع حافة ردائها، كاشفًا عن فخذيها، صَرَخَت، وحاولت التملص والابتعاد، فمنعها حائط بارد من خلفها عن الذهاب بعيدًا، أزاح الغمامة عن عينيها، فوجدت (فخري) ثابتًا بغير حراك، نادت فيه رجولة ظن هو أنها منقوصة، فأدرك بصمته أنها أمست غائبة، ظلت تحدق فيه ذاهلة، فأطرق أرضًا، وكانت الفرصة سانحة على طريق ممهد للمحقق، أن يحصل على مبتغاه من اعترافات وإفادات، بيد أنه ما لبث أن علت أنفاسه، وقد اشتهى "تريز" عقب ملامستها الأولى، فمد يده ملامسًا أسفل بطنها، فارتعشت صارخة، وأشاح (فخري) بوجهه بعيدًا، يوعز المحقق لخفيريه باقتياد الزوج الصامت خارج المحبس، فينفذا ما أمرا به، فينفرد هو بها، لينقض على ثورتها

المكبلة، يجثم على جسدها الصغير وقد أزاح الأستار عن المبتغى، وينال ما صبت إليه عَلويته الزائفة..

وكانت مخافتي الأولى، حين شرع (فخري) في مخاطبتي، وقد قرن اسمي بلقب خاص، هو (أبونا)، فجاءت عبارته صادمة، فقد بدا لي منذ أن شرع في اعترافاته -إذا ما تناسيت عادته في رسم الصلبان على الحوائط- كرجل رزين، متدثر بالحكمة، لا يمكن أن يصدر عنه فعل عنيف كالقتل، كانت تموجات تداعب عقلي المتحوصل في قصته، من حين إلى آخر، وكنت قد اعتدت تمييزها، إذ تبدأ في أغلب الأوقات بصوت مفاجئ لـ(نوح أفندي)، أو مرور مباغت لـ(مليكة)، فكنت أقاومها بالانغماس في تخيل مسرحي، للمشاهد التي يقصها الرجل على مسامعي، فإذا بي أقاوم الخيال، بخيال بديل!

تسارعت وتيرة الأحداث فيما بعد الخروج من حيث حقق معه، واغتُصبت هي، فكان أول ما فعلته (تريز)، هو جمع حاجياتها كافة، وهجران منزل الزوجية، والانتقال إلى بيت العائلة، حيث تؤنس أمها الأرملة. مأساة (فخري) الحقيقية، هي أنه ظن، أن بإمكان الزمان الرامح، المحمل بأحداث وحكايات لا تُحصى، أن يسقط من ذاكرتها ما جرى، فينجح في مداواة ما دعسته الأقدار، في مرورها الهائج بردهات حياته الراكدة، وخُيل له لسبب أو لآخر، أن بإمكان امرأة، أي امرأة، أن تسامح زوجها، وقد رأته يشهد انتهاك جسدها، دون أن يحرك ساكنًا، ويهرب من صرخاتها بإسبال عينيه، والاكتفاء باستكانة لا تليق إلا بكل ضعيف ذليل، تغذى ظنه على سذاجته، وقلة خبرته بشئون المرأة، وانعدام الدليل بافتقاد أبوين غيبهما الموت منذ زمن طويل، وحين رفضت وساطة القس في إنهاء الأمر، منح لذاته الحِق في انتقادها، واتهامها بالمبالغة في ردة فعلها، وطاف بين القوم ساعيًا لا يكل، ليرجم ذكراها بما يرضيه من ذم وسباب...

- ثم أرادت أن تحصل على طلاق من الكنيسة!

حين قال تلك الجملة، توج حروفها غضب مستعر، وغيظ ما زال مكتومًا في صدره، رغم ما اقترفت يداه، شرح لي مسمى الطلاق، وكيف أنه لا يكون إلا لعلة الزنا، ثم فند الحالات التي يسمح فيها بالتطليق، لاكتشاف الكنيسة ما يبطل عقد الزواج، ومن ثم، كانت مهمة "تريز"، في الخلاص منه، أقرب إلى الاستحالة، وكان هو يدرك ذلك، ويراهن على إطالة الأمد، حتى يتملك اليأس من غضبتها فتستلين، وتعود لتمنحه ما لم يمنحه غيرها، في ظلام الحجرات، وعلى أضواء الشموع، التي لم تمل يومًا التحديق في قدها المكتمل النضج...

تعجبت حين ذكر في اعترافه، تفاصيل لقاء جنسي جمعه بها ذات ليلة، وكيف أنه طلب منها، في ذروة التلاحم، أن يأتيها من دبرها، فقبلت له أن يعتلي ظهرها، ليسكن رجفته موضعًا لم يطأه من قبل، فينتشي، ويبدو عليها نوع من الارتضاء بالأمر، كنوع من التجديد، وككسر لرتابة التكرار.

قال حين انتهى من روايته:

- يا أبونا، أليست كل امرأة تعتاد أمرًا كذلك، تصبح في عداد المومسات؟

هلعت، ثم أجبته محاولًا عدم استثارته، متحسسًا موضع لكمة (عدلي خالد) منذ زمان لا أميزه، قلت كاظمًا غيظي:

- كيف تكون مومسًا من تضاجع زوجها كما يشتهي!؟ الأمر ربما يكون ضارًا، ومحرمًا في بعض العقائد، وعليه فهو أمر قد ينتقص من العقيدة، ولكنه لا ينتقص من الشرف!

قلت، فزفر إذ لم تنل كلماتي شيئًا من رضائه وقبوله، فعاد ليروي لي عن المزيد، من محاولاته لإصلاح الأمر، وكأنه يبرر جرمه، بسرد كم المجهودات التي بذلها لرأب الصدع، دون استجابة من (تريز)، التي ظلت في صراع محموم معه، تَحَوّل مع الوقت، لصراع مع الكنيسة، يقبع هو في بؤرته، حتى كان ما أذهب عقله...

- كفرت بالرب، وغيرت عقيدتها من أرثوذكسية صالحة، إلى بروتستانتية كافرة[١٣٣]!

كنت قد قرأت شيئًا، عن انسلاخ العقيدة البروتستانتية عن الكنيسة الأرثوذكسية في القرن السادس عشر، وقرأت أيضا عن (مارتن لوثر)، مؤسس تلك الطائفة الجديدة آنذاك، والتي قامت بالأساس على معارضة السلطة التعليمية البابوبة، وكذلك معارضة سلطة الكهنوت، وحصر كافة أمور الدين في الإنجيل فقط، كمصدر أوحد لكلام الرب، بيد أنني تعجبت لتعصب (فخري)، الذي أباح له توصيف الطائفة البروتستانتية بأن أتباعها كفرة! حتى استرسل هو، بعينين أمستا قادرتين، على الإتيان بأقسى الأفعال، وأبشع الجرائم:

- أسرار الكنيسة السبعة قائمة على طقوس محددة، وهذه الطقوس ترتكز على قيام الكاهن بها: التناول، التوبة والاعتراف، المعمودية، الزيجة، الميرون، ومسحة المرضى، أمور قائمة على الكهنوت، أما وقد كفر البروتستانت بالكهنوت، فهم قد كفروا بالكنيسة، وكفروا بالرب بالتبعية، هم فقط يجيدون حفظ الآيات دون فهم! فلا هيكل في كنائسهم، ولا يعترفون بالبابا! أليس في ذلك كفر يا أبونا!؟

عجزت عن إبداء الرأي الفيصل في حينها، خاصة وقد كنت آنذاك، غير ملم بعدة أمور، بيد أنني حين تعمقت في دراسة علم الإنسان فيما بعد، توقفت كثيراَ عند تلقي الإنسان للأديان، واستيعابه المتفاوت لتعاليمها، فاستخلصت من دراستي ما يفيد، بأن (فخري عبد الملاك)، لم يكن سوى نسخة قبطية من (حسن البنداري)! كما ذهبت لتوصيف (نوح أفندي)، وما أتى به من دعوة للتحرر من قيود كبّلتنا بها أفكار الأولين، بأنه كان النسخة المسلمة، من (مارتن لوثر)!

بتحول (تريز)، من الأرثوذكسية، إلى البروتستانتية، أصبح عقد زيجتها من (فخري) باطلًا كأنه لم يكن، وحصلت -بعد عناء إضافي- على حكم كنسي بالبطلان، واحتفلت بذلك، كما ذكر زوجها وقاتلها، وكأن في فراقهما عيدًا جديراَ بالفرح، بيد أنه ذكر أيضًا، أن ما جرى لها في استجواب الأمن على يد المحقق، لم تصارح به أحدًا، ولم يبرح السر صدرها المشروخ، حتى أتاها

(فخري) ذات ليلة، وشق ذلك الصدر، بسكين ضخم حاد النصل، فتحرر السر، وحلق رفقة روحها الجزعة، ليطمئنها، ويتلو عليها ترانيم سلامٍ، وقد زالت عنها مسببات الألم، وظلت حبيسة جسدها، الذي ظل مضرجًا في دمائه عدة ساعات، حتى جاءت الشرطة إثر استدعاء من القاتل، لتجده قابعًا إلى جوارها، وقد أخذه نحيب لا ينقطع، أسال من مقلتيه الدمع ليمتزج بدمائها الدافئة...

انتهى من اعترافه، وطالعني بنظرة باردة، يحفها دمع جف بضفاف مقلتيه، فور مغادرتهما، تلاعبت بأطرافي قشعريرة غير محببة، حين قال:

- طلب مني المحامي أن أقف أمام القاضي لأصرح بالحقيقة التي قصصتها عليك للتو، دون حذف أو إضافة، وبلا اختصار أو إطالة، ففعلت، لتقرر المحكمة نقلي إلى هنا عوضًا عن إعدامي، وما زلت لا أدري، أي العقابين أشد قسوة: الموت؟ أم الحياة؟

نهض بعد جملته الأخيرة، فيبست ساقي، وأصابني خرس، فلم أقوَ على الصراخ مستنجدًا من شروره، ولكنه، تقدم تجاهي حتى وقف قبالتي، ربت على كتفي، ثم احتضنني ممتنًا، وعاد إلى فراشه، بعد أن أكد لي معلومة أخيرة:

- لست مجنونًا يا (إبراهيم)!

كان ذلك ختام رواية (فخري) لما جرى، والتي جاءت ملتزمة بأحكام وأعراف ذلك العالم أحادي الأقمار، وبالتالي، لم يتسنَّ لي الاستماع إلى رأي (تريز) بدورها، وقد لقيت مصرعها، واحتجبت عن الظهور في مملكة (مليكة)، حيث للقمر الفضي وليف يؤنسه، ويشاركه كشف الحقائق المخبأة.

نمت، فطالت بي ساعات النعاس، وغمرتني غفوتي بعدة أحلام متقاطعات في أزمنتها، أفقت وقد اعتلاني طفل يداعب عامه الثاني، وجلس على يميني ولد وفتاة، منشغلين بصراع وهمي بين دميتين قطنيتين، كان الصغير القابع على صدري يضحك، ضحكت لضحكاته، ارتج جسدي، فأدركت أنني

ممدد على الأرض في غرفة نومي. تنبه (آدم) و(حواء) لضحكاتي فأقبلا ليهاجماني بدعة، تشع طفولتها ببراءة افتقدتها طويلًا، يكاد الطفل أن يسقطِ فأمسكَ بتلابيبه فلا يقع، طالعت وجهه الباسم، ثم التفَتَّ إلى (آدم) هامسًا؛ من هذا الطفل؟ فأجاب:

- هذا يحيى!

صورة مريم

يا أولي الألباب، كم من مراعٍ نضبت آبارها، فهاجر حُماتها تباعًا، وانقطعت قنوات جُعلت لها ريًّا، فصمدت واصطبرت، فما اندثرت وما ذبلت، وإن طال بها الظمأ، والتف حولها العطاشى.

يا من تتفكرون في عظمة الخلق، وتُشغلون بحُرمة العشق، ذروا ما وجدتم عليه آباءكم، واصطفوا حول ذات الضفيرتين إذا ما انسدلت ستائر الشفق، لتباهوا بعظمة ما خلق، ذلكم إن من شق البحر لموسى، وجاء من البتول بعيسى، قد صاغ لكم من وحيِ الأولين، آية تَرَدُّكُم عن الكفر، وتقيكم مغبات الضلال والتضليل، وتُسَيَرِكُم صوب صواب السبيل.

يا من تبعتموني، وأنا المبشر والدليل، والسائل والتفسير، قد لحقت (مريم) بمركب (نوح)، فأنبتت متونها مروجًا، سكن تلالها الحائرون، هربًا من أسئلة حيارى، وعقول خواء، وقلوب سكارى...

يا بني آدم قد غادرت سماواتنا الحيرة حيث حلت، وسكنت بها، وأمست بشأنها إذا أطلت، فقد غابت البهجات، وما فارقت شفتيها البسمات، عقرت أشجارها فغاب عنها مذاق الثمر، فما كانت من التواقين، ولا الساخطين، وما ناجت أقمار السهر.

أسماك أبونا (مريم)، كما أسمى البتول أبونا الذي في السماوات، ووهبك الرحمن مفاتيح قصور الرضا، فكان الرضاء حبورًا بمرافقتك، فخورًا بتلاوتك لترانيم القناعة، فوق كل سجاجيد الصلاة...

جاءت البشارة حين انسابت تلاوة السماء بسورة مريم، لتختلط السورة في ثنايا العقل بالصورة، فكان في تلاوة السورة، استدعاء للصورة، وفي مطالعة الصورة، تردد لأصداء تلاوات السورة.

هي (مريم)... فقط.. (مريم)..

الحانية الصلبة... الرقيقة الحمول..

هي ذات الفراش المقعر في جانبه الأيسر حيث مرقدها..

أو هو المحدب في جانبه الأيمن، حيث خلا ممن يقطنه، طيلة سنوات لا تذكر هي عددها.. حالمة تقلب جسدها بين المضاجع، والمواجع، فوارت عن الأنظار مواجعها، وما أثمرت رؤاها، فظلت باردة مضاجعها..
هي الفريدة، المتفردة عن سائر جنسها.. وهي الطاهرة النقية، القوية الناعمة الأبية...
أتراني أسوق لكم الأدلة على نورانيتها، وبهاء طباعها؟
اسمعوا يا أولي الألباب، فاعوا:
أرأيتم من يقبع في أحشائها هم، فتأسره ولا تطلقه؟ أرأيتم بتولنا وقد كبلت همها بأواصر الزمان العابر؟
أرأيتم من تؤمن بما هو مخبوء في حشايا الغيب، فترتضيه من قبل أن تدركه!؟
تلكم فتاتنا، وقد اعتلت عروشها بين شجرات السرو في مروجنا، وملكت صولجان حظوتها، فجلست تضفر خصلاتها الميالة للحمرة، تتابع شغَّالات النحل، وقد حملن حبات لقاح، قد غبن عن سكنة رحمها الباكي، فأخذت تبادلهن البسمات!
مبحرة في أبديتها الحانية البيضاء، عابرة كنسيم مداعب للألباب، لا يعلو لها صوت، وإن نطقت، غابت عن صوتها الأصداء، تقول ما تقول مرة واحدة، فلا تعيد التمني، ولا تكرر الرجاء، هي البتول في رغباتها، الصوفية في عشق آل بيت البنداري، المداحة صمتًا، والباكية صمتًا، نوارة النهار وقمر المساء...
جاءها القوم بزوج، فأومأت إيجابا كما يليق بالإماء، أعتقها أبونا ذو الألف عام، وقد استشعر قلبها ميالًا لغير ما أتاها القوم، فعاودت الصمت والإيماء، ألقت بجسدها بين أمواج صاخبات عاتيات، تعرت كما أشرن عليها النساء، ناجت بذور الثمر، فتناثرت ما بين جفاف وجفاء، طرحت شجيراتها صبارًا، أدمى الفؤاد شوكه، وغيّب عن مسامعها ثغاء الظباء...

وقفت ترقب القوم يحزمون أمتعتهم، ويرحلون، إلى حيث تحل السكينة، وتغيب شموس العناء، أخ مغدور، وأب مقهور، وأم اختطفتها الأسفار قبل الميعاد، وأخ غادر، غَادَر، سَافَر، هَاجَر، مزق الأوصال، وأغرق متون البقاء.. وبقيت... هي... كما هي.
تسقف عراء طفولتنا، وتعيش بأحلام مسقوفة، لا يغادر حلمها مستقرها، ليظل ثراه حيث كان مخاضه، فلا ينال حريته يوماً، ولا يطالع السماء... هي... كما هي..
لا تأبه بشقاء، ولا تمل لقيا أقدارها العرجاء..
حممتني... رضيعًا... وحممت أبنائي رُضّعًا..
وما بين ذلك وذاك، تساقطت خصلات صهباء، وأمست ضفائر الطفولة، هزيلة بيضاء... توغلت في جيدها أنات الزمن، فتشققت، وتلونت، فلم تبكِ أطياف الوعود الغادرات، لم تجتر المحن، ولم تَرِث ما راح أدراج الرياح، وما سكن منها قصور الهباء..
سقطت من فمها قواطعه، وواحد من أنيابه، حين انشغلت بمن تربي، وانخرطت في طقوس الحكائين، متخذة من قص الماضي، على مسامع المسافرين إلى غد لن تدركه، حرفة تشاغل عنها نوبات البكاء، وإن ظل في بكاء الروح، بوح بالمؤرقات.
حين حُملَت ضفائرها البيضاء، فوق محفة بيضاء، وسكنت إحدى الأسرة البيضاء، وانحسر القوم من حولها، فكان اللقاء، ضحكنا كما ينبغي للضحك أن يكون، وبكينا كما يليق بالبكاء، قصصت عليها وقصت علي، وأعْلَنْت الهدنة مع طواحين الهواء، أعدنا حساب العمر، ما بقي منه، وما مر، وعدت أن تحفظ السر، ورَحَلْت خلْسة، وبقيت هي ليلة أو ليلتين، باسمة، حتى خفتت أبديتها، ولبت لمناديها النداء.
كنت على بعد أيام وأميال، حين علمت بحلول القضاء، قرأت النعي في الجريدة، استدعيت خلوتي، وتشبثت بعزلتي حتى عزلتني، وجلست إلى

جوار مذياعي العتيق، وقد ضبطته على إذاعة القرآن الكريم، منتظرًا تلاوةِ سورة مريم..

سابحًا في فراغ لا نهائي..

أوله فضاء..

ونهايته فناء...

قالوا يحيى!

المكوث الثالث | ما قبل التحرر

حكاية سعيد عبد العال

كان ذلك آخر مرور بالمصحة النفسية، وفقًا لما أذكره، أحب تسميتها بذلك الاسم، ولا أحب تسميتها بمستشفى الأمراض العقلية، حيث إن المرض النفسي، لا ينتج بالضرورة عن عطب عقلي، أو خلل بوظائف المخ. وكان ذلك المرور الأخير مختلفًا عما سبقه، فبادئ ذي بدء، كنت في هذه المرة أذكر من أتى بي، وما قادني إلى هناك. كانت الوقائع تتكشف كل صباح، والوعي بما يجري يتعاظم، فيحيل قصور التهيؤات رمادًا منثورًا، ينبثق من ركامه ريشة، تشبه تلك التي كان أسلافنا يستخدمونها للكتابة، تتطاير الريشة متهادية، حتى تتلاشى الأتربة وتنتهي الضوضاء، وتنقشع السحب، فتتعرى السماء، كاشفة لونها البنفسجي السحري، وتهم الريشة لإكمال لوحة، في جنباتها كامل الحقيقة.

وقارئ كلماتي هذه، ربما يجد في نسيجها تشبيهات بلاغية، مما قد يستحسنه، أو ينفر منه، بيد أنها لم تكن كذلك، بقدر ما كانت توصيفًا حرفيًا، لما كان يدور أمام عيني، فور أن يُسدل جفني الستار، على يوم آخر من التكرار... وكما هو معتاد، سألت عن (فخري عبد الملاك)، فقيل لي أنه غادر ذات نهار رفقة مجموعة من الأطباء، ولم يعد، كررت سؤالي عن (عدلي خالد)، فجاوبني ذات الصمت المطبق، والتهرب الحذر، الذي لا يليق بمن هم في مثل حالتهم النفسية أو العقلية!

- أنت مجنون!

دوت حولي أصداء لصرخة (دنيا) بالأمس، لتستدعي أواخر اللحظات الفاصلات في حكايتنا، كان (آدم) حائرًا مبهوتًا، وبجواره وقف طفل آخر يشبهه، وكانت (حواء) تنتحب في ركن قصي من موضعنا، حين كان إيقاع المحاورة يتسارع، فتعلو الأصوات، وتترنح العقول، وتهوي مشعلة فتيل الأزمة، ليدوي الانفجار:

- لا يمكن لهذه الحياة أن تستمر، لا يحق لك مجرد الشك.

صرخات (دنيا) تصم الآذان كعهدها، تقول ما أجيبه بجملة تكرر إلقاؤها كثيراَ، وظلت مستعصية على فهمها:

- قلت إنني لا أذكر!
- كل هذه السنين ولا تذكر؟ بماذا تسمي إنكارك لطفل غرسته أنت في أحشائي!؟ وبماذا تراني أجيبك عن سؤالك الدائم، عن كيفية حدوث ذلك، والإصرار على تذكيرك بليلة اللقاء، وتفاصيل ما جرى فيها!؟ ماذا أسمي ذلك إن لم يكن شكًّا؟
- لا يجوز تسميته بخلاف ما يحمله من حقيقة، مفادها؛ إنني أطلب مساعدتك، لأنني أريد أن أتذكر، فحريّ بأي رجل، إن شك بامرأته أن يراقبها، لا أن يطلب منها العون! كفاك تشبثًا بحواف مرآتك الصدئة، ففي هذا العالم شخوص غيرك، انظري حولك، علك تبصرين في عيون من حولك، أنك تذبلين بضفاف بحيرتك، وقد أوشك النرجس على الانبثاق من ثناياك...

يقاطع (سعيد) ذلك الاتصال المتواصل مع الماضي، بأن انتابته نوبة تشنجات قصيرة، اعتادها هو، وكدت أنا أن أنساها، كان (سعيد) هو أكثر النماذج التي قابلتها في مروري المتكرر، تشابهًا مع مرضى المصحات العقلية والعصبية، الذين ظهروا في السينما المصرية، فكان سريع النسيان، كثير التشنجات، متلعثمًا إذا تكلم، وطفلًا إذا غفا، عنيفًا إن غضب، حكيمًا حين يهدأ.

- ما حكايتك أيها العابر الفريد!؟

تفردي كما يظن، مرجعه أنني الوحيد الذي تعددت زياراته، وتكرر مروره أكثر من مرة خلال الأعوام الأخيرة، لم أكن على دراية بما ينبغي عليّ قصه على مسامعه، ولكنني لسبب ما، تلوت عليه ملخصًا لأواخر الموجعات، وكان هو يستمع بهدوء مريح، حتى اختتمت كلماتي، بسرد حواري بالأمس مع (دنيا)، فاعتدل في مجلسه، وتنحنح متوترَا، ثم قال:

- أتوقع أنك ناصريّ الفكر، ربما تكون فنانًا أو كاتبًا أو رسامًا، لأنك تشعر بكل حرف من حروفك، وتثقل خواتم الكلمات مما يُفيد بالتوكيد على ألمك، يعلو إيقاع أنفاسك حين تتوغل في دروب أضناك المرور عبرها، ربما تكون علتك، هي إنكار كل ما كان من مجريات الأمور، بعد عام ١٩٧٠، بما فيها ولدك الذي تُقر دون أن تدري، أنه من صلبك! تعذبك أحادية زوجتك، وتنفر من عقلانيتها المادية، وربما تكون على صلة بأي من عِلية القوم، لأنك تعود وتذهب، وتستقبلك أبواب المستشفى في كل مَرة، وكأنها بوابات نادي الجزيرة.

ضحكت بعصبية، واعتراني قلق لقدرته على سبر الأغوار بمثل هذا اليسر السلس، لم أكن واثقا مما ذكره عن ١٩٧٠ وما حوته من رحيل مفاجئ لـ(عبد الناصر)، ولكنه أجاد استنباط مهنتي، وكذلك شعوري تجاه (دنيا)، ولم يحالفه التوفيق فيما يخص عِلية القوم، ولكن كلماته جاءت مذهلة في مجملها. ظللت أحدق فيه، ويحدق فيّ، حتى اقترب مني، وهمس في أذني متلعثماً:

- دكتور سعيد عبد العال، أستاذ الاجتماع وعلم النفس، كلية آداب عين شمس...

هبطت عليّ كلماته مفسرة لما سبقها، فازداد قلقي وقد تزايدت احتمالية الصحة، فيما أورده من تحليل لشخصي.. مرت (مليكة) أمامي هاتفة:

- أنت تحلم...

انتفضت من مرقدي، فاستقبلني ظلام حالك، نهضت مسرعًا صوب نافذتي المفضلة، فكانت الغيوم قد وارت جسد السماء دون أن أبصر أقمارها، ارتعشت بوصلتي، فتحسست الطريق حتى بلغت فراش (سعيد)، فتح عينيه بغتة، فانتفضت من جديد، قال بعد تلعثم: - تعلم أنه ابنك...

غرقت في أعتى نوبات الحيرة، واختبرت ما لم أختبر طيلة ارتحالي، بين ألواح الصحف في مملكة (مليكة)، تمددت على إحدى الغيمات الرمادية، مطاردًا ذبالات حلم رحل، فبزغت هي إلى جواري، جمعتنا حوارات حريرية،

رقراقة كأجنحة الفراشات في نعومتها، تعريت، فتعرت، وتجردت من كل شيء إلا حكمتها، والتوق لرؤيتي وقد عانقت الحقيقة. انفردت بي، حين كنت مختلياَ بحلم آخر، فاقتحمت خلوتي الشفافة، ومزقت أواصر التمني بعناق أب يجمعني بأبنائي الثلاثة، وعناق طفل يجمعني بـ(نادية عيسى) أو (فرانشيسكا)، وعناق ضرير بضياء (نوح أفندي)، تموج وجهها، وأخذت قسماته تتغاير، لتتبدل ملامح الوجه، بينها، وبين (نادية) و(فرانشيسكا)، لأميز تشابهًا محيراَ في قسمات ثلاثتهما. تلكم هي (مليكة)، مخلوقة نورانية، نفذت بجلال أنوثتها في خصوصيتي، فاستقرت بمنطقها الأخاذ وطرحها الإعجازي في مسامي، تهادت فوق هوامش كتاباتي، فألقت بظلالها على كلماتي المترنحات، سَبَت القسم الأعظم من ساعات يقظتي، وأغلب ساعات الغفوة على ندرتها، تأسرني بتلاوتها وتفاسيرها لخبايا الكون. تظهر (مريم) فوق إحدى السحب المجاورة، فتشير لي، وألوح لها، ثم لا ألبث أن أعتدل صارخًا في (مليكة):

- لقد سئمت! أين الحقيقة فيما بينك وبينهم؟
- كلنا حقائق، نؤمن بأنك حقيقة، فاحرص ألا يخيب لنا ظن حيالك، جميعنا.

تقول، فأردف باكيَا:

- داعبتني نسمات حالمة ذات صباح، فأسلمت رقبتي للحياة المقبلة، غمرتني بقبلات مسكرات، ثم وضعت رقبتي فوق قاعدة المقصلة، وتركتني، منتظراَ سقوط النصل.. تشاغلت بالبحث عن الحقيقة، فما سقط النصل، وما برحت موضعي، فبقيت في ديمومة من الخوف، والترقب، والشك.
- يداك غير مكبلة، فإن أدرت رأسك مرة واحدة، وطالعت ما خلفك، لعلمت أنه لم يكن هناك نصل من الأساس، النصل كان وهمك الوحيد فيما رأيت، والموت ما عاد جديراَ بإخافتك، وقد مَسّك نور البيان، واقتحمت برفقتي مملكة الأسرار، فعلمت أن الموت انتقال، وفرصة

لإعادة المحاولة، لغرس بذور الخير التي نثرها الخالق، في جنبات كل منا.

يقول (سعيد) من حيث يجلس على حافة فراشي، مجففًا عرقي بمنديل ورقي:

- المقصلة تشبيه بليغ حقًّا، ولكننِي لم أفهم المقصود بأن الموت انتقال!

كنت أهذي، فبدا لي ما رأيته جديرا بالهذيان وقد بالغت التداخلات في اقتحام مشاهده المنقوصة، وكأن عقلي المنهك قد أمسى مطية للامعقول، ارتحلت أسراب السراب فهجعت واستكنت، قال هو:

- برغم أنكِ لم تهتم، إلا أنني سأقص عليك حكايتي كما قصصت أنت عليّ جزءًا من قصتك في وعيك، وجزءًا أكثر تشويقًا إبان هذيانك هذا...

- قل ما شئت..

هممت وقد استعادتني مداركي، فاستفقت، تعبًا أخذت أصافح الوعي تدريجيّا، وأستمع لبعض مما استفاض هو في قصه على مسامعي، فقال حين كنت أطارد جذلًا بضعة فراشات في حديقة المصحة في الصباح التالي:

- قالوا إنني شيوعي، فقلت إنني اشتراكي، فقالوا إن الأمر سواء! وهمس لي صديق بأن جزاء الاشتراكية، سيكون أحدّ وأقسى، لأنها ستقود إلى اتهام مزدوج، أوله اشتراكية وآخره ناصرية!

انتبهت لحديثة، وبدا لي مستغربًا، ربما لأنني لم أعد معنيًا بأي من أمور السياسة، أو بالأحرى، بأي من أمور الدنيا، لم أتفهم متى أمست الناصرية اتهامًا، وكيف يكون بإمكان ذات السدنة، أن يتحولوا من ردع كل من يعارض عبد الناصر، إلى رجم كل من يتبع أيديولوجيته! تابع (سعيد) بعد نوبة تشنجات عابرة:

- لقد تصور، بعد تخلصه من معارضيه، أنه قد ملك الشمس والقمر في يمينه، والوطن وقاطنيه في يساره، صار يتصرف منفردًا، وتملك منه طاووس الفرعون الإله، فتقمصه، وصار كلاهما ينطق بلسان الآخر، انتشر الإخوان المسلمون علانية في شتى ربوع البلاد، واتخذوا من

الفكر الشيوعي عدوّا معلنًا، جاءوا وقد عقدوا صفقة مع النظام الحاكم، حتى بات بعضهم يصف "السادات" بالأمير، وقائد جيوش المسلمين!

كان يقص عليّ أحداثًا، في صياغة أشبه بمقال سياسي، وكنت أنا أستخرج من كلماته، حقائق ووقائع سقطت من ذهني، إبان ارتحالي المحفوف بالشك، فاستعدت عبارات غابت عن مخيلتي كالعبور، وتحرير الأرض، ثورة التصحيح، ووضع الإخوان على الأرض لضرب باقي التيارات، لاحظت ابتعادي قليلًا منشغلًا بمطاردة الفراشات، حين جاء صوته بعيدًا عن ذي قبل، فاقتربت لأجده يردف بعصبية متصاعدة:

- الهدف هو ضرب المقاومة الحقيقية، ودحر أصحاب المنطق، والقضاء على ذوي الطرح السياسي القابل للتطبيق، يتحدثون عن ازدهار الحريات، ولا يتوقفون عن التباهي بالعمل على قانون جديد، تعود من خلاله الأحزاب للحياة السياسية، والواقع أننا نعيش قمعًا أسوأ مما عايشناه العهد السابق، ونحيا مسرحية هزلية فجة.

كنت أدرك محتوى الطرح الذي يحاول إيضاحه، فـ(عبد الناصر) كان دكتاتورًا واضحًا لا يواري، ولا ينكر دكتاتوريته، أم الآن، فـ(السادات)، المستفيد حتمًا من تجربة سلفه، أصبح يقمع المعارضة الحقيقية، بمعارضة وهمية، دون أن يتدخل هو بشكل سافر، مكتفيًا بالمتابعة الجذلة، وقرع أنخاب التحول الديمقراطي، مع الغرب!

تملك مني صداع، فتشاغلت بالفراشات مجددًا، عزفت أذني عن سماع المزيد من حكايات (سعيد عبد العال)، وانتحيت ركنًا قصيًا من الحديقة، حتى تمت إعادتنا إلى عنابرنا في الوقت المحدد لذلك.

خفتت حدة استدعاءات الماضي، وقل التداخل، فكان أن ألفت العيش تحت سماء يقتات على صدرها قمر واحد، وأمست فكرة القمرين مستغربة، علمت أن (عدلي خالد) قد مات هنا في سريره، دونما سبب

واضح، فحزنت، حاولت الاستعلام عن مصير (فخري عبد الملاك) فلم أصل لشيء...

- أصبحنا أحد احتمالين، إما معادون للوطن منقوصو الوطنية، وإما أعداء للإسلام منقوصو العقيدة! وفي هذا -فقط- لنا حرية الاختيار.

يقول (سعيد) ذات مساء، مطلقًا ضحكة عصبية مضطربة، فيحيرني ما يقبع خلف كلماته، ينخرط آخرون معه في مناقشات سياسية، تصبغها العصبية ويغيب عنها المنطق السليم، فألاحظ أن أغلب قاطني العنبر من أصحاب الفكر، وذوي الرأي، أنتظر مجيء الوقت المحدد للنزوح إلى الاخضرار، ومطاردة الفراشات من جديد، يلفُّني هدوء المُنْتظِر، حتى يغزو حرم الصمت مرور -أمسى نادرًا- لـ(نوح أفندي) رفقة (الشيخ الرفاعي)، أقص عليهما ما قاله (سعيد) عن انتقاص الوطنية والعقيدة، فيمتعض الرجلان، يتحدث (نوح أفندي) عن الوطنية الحقة، وكيف يكون محلها القلب فلا يمكن إخضاعها لأية معايير أو مقاييس، ويسوق أمثلة عن أناس فقراء الحال، وقد اعتنقوا عشق هذا الوطن، واتخذوه عقيدة دونها الشرك بالله، ينتهي من سرده فيعتدل (الشيخ الرفاعي)، وتأتي كلماته خافتة دامغة في ذات الوقت:

- بيننا رجل، إذا ما أراد مناجاة خالقه، وعكف على الدعاء بما فيه الخير والسكينة، فإنما يناظر السماء ويرفع يديه صوب عنانها، ويمدهما قدر المستطاع، بينما رجل آخر، إذا ما أراد التواصل مع ربه، فقط، أسبل جفنيه، لتنهمر من شفاهه الكلمات تقطر ابتهالًا وقناعة... أما الأول، فقد رسخ في يقينه أن الله يسكن السماء، فتوجّه إليها حين ابتغى وصاله، وأما الثاني، فقد فطن لأن الله يسكن قلبه، فاكتفى بأن أغمض عينيه، حتى يقف أمام عرش الرحمن، ملقيًا بأحمال وهموم أثقله حملها، على أعتاب بواباته ذي الجلال والإكرام.

غادراني فغمرني ارتياح محبب للنفس، بقيت كامنًا في صومعتي المختارة، متحصنًا بالتظاهر بالنوم، توالت موجات النقاش السياسي، تهدر، فلا

تخيف ولا تؤرق، وقد كنت عليمًا بأن مآلها كزبد البحر، فورة، فخباء واندثار. وبقي السؤال معلقًا في ذهني، ما هي حكاية ذلك الرجل؟

علمت بما يخص أيديولوجيته السياسية وقناعاته الوطنية، ولم أعلم بعد ما أتى به إلى هنا، كانت طريقته في القص خطابية تبعث على الضجر، ومناقشاته مقالية تأريخية، طالما استدعت نوبات الملل ليطبق على نصف ساعات نهاري القصير، فنفرت من مجالسته، وبقيت قلقًا إذ قصصت عليه حكاياتي، وهذيت في حضوره بما لم يعلمه غيره من أسرار وخبايا...

أشار عليّ عقلِي الباطن، بأنني وقد كُشف له سري، يتوجب عليّ الاطلاع على سره اتقاء لشره، فانتظرت حتى أطفأ الليل جذوة النقاشات المحتدمة في الآونة الأخيرة، واجتذب سلطانه أغلب النزلاء إلى مملكته حيث يرتعون بين حلم وسبات، وقمت بزيارة خاطفة إلى فراشه، حين كان يقظًا يقاوم نداءات الغفو، همست:

- لم أفهم حكايتك بعد، ماذا أتى بك بعدِ كل ما قلت؟

يتلعثم ويغمض عينيه كمن يعاني ألمًا عابرًا، ويجيب:

- ما أتى بي شيء، غير ما قلت!

قاومت ضجري من مراوغته، ثم قلت بغيظ:

- أقصد ما أفقد عقلك اتزانه، صدمة ما، أنت تفهم، أمور كتلك...

أسبل جفنيه، بعد مطالعة متأنية لسقف العنبر، لمحت خلالها بريقًا لامعًا في مقلتيه، قال:

- أفهم ما تقصد، ولكن تلك هي الحقيقة، لم يحدث لي ما يذهب عقلي، وقد حُملت إلى هنا من حرم الجامعة مباشرة، كنت ألقي محاضرة، حين اقتحم بضعة رجال ضخام المدرج، واقتادوني خارجه، لم أعلم هويتهم وقد جاءوني في لباس مدني، بيد أن الطلبة قد اعتراهم غضب عارم، وأخذوا يصرخون ويهتفون، وكان هتافهم هو آخر ما سمعت قبل أن أفقد وعيي...

صمت لبرهة، طالعني كمن يتحقق من مدى تصديقي له من عدمه، ازداد لمعان عينيه، حتى بدا وكأنهما قد اغرورقتا ببشائر دمع، أردف:

- القصة بدأت حين جئت إلى هنا، تحقيق وتعذيب فتحقيق وتعذيب، تعرية، فإغراق بالماء، ثم توصيل لجسدي بأسلاك من ذوات الـ٢٢٠ فولت، ثم تحقيقٍ وتعذيب، وهكذا، حتى أمسيت كما تراني الآن، بيد أنني لست نادماً، ولا يضايقني شيء، سوى أنني قد أصبحت كثير النسيان، مهترئ الذاكرة...

حملت سره في صدري، ومضيت في نفق طويل يفضي إلى فراشي البارد، انعكس على جدران النفق الملساء أصداء لأقاويل الزعماء حول الحرية، والعزة والكرامة، والتحول الديمقراطي، بَلَغْت مرقدي فخرست ألسنتهم، اختلست نظرة صوب (سعيد)، فوجدته -لأول مرة- ينشج بالبكاء، كطفل مُضاع في طرق غريبة، تدثرت في فراشي حتى غطيت رأسي، طاردتني أصوات لحفيف نصل المقصلة في سقوطه الوهمي، ثم سقطت في سبات عميق، غابت عنه الأحلام والرؤى، لأول مرة منذ سنوات...

وكنت حين استيقظت دهشًا، وقد ألفت النوم خليطًا من الصحو والمنام، والتمني، جاءني معالجي، ذلك الشاب المليح ذو المعطف الأبيض، كان ذات المعالج في كل مرة، جلس إلى جواري فوق الدكة الخشبية، حيث يحيط بي الاخضرار، بادرني:

- كيف الحال اليوم يا سيد (إبراهيم)؟
- أشعر بِتحسن، وأمسيت أكثر استقراراً عن ذي قبل.
- كم قمراً رأيت لسماء الأمس؟
- كان الغيم جاثمًا على صدر السماء فلم أتبين.

صمت المعالج، أطرق وهز رأسه بروية، فأضفت:

- ولكن المتعارف عليه، أن للأرض قمراَ واحدًا!

تبسم، ثم ربت على ركبتيَ، فَأَرْدَفْت:

- فإن ظهرت زميلتك الخمرية تلك متسللة من تحت عباءة الليل، صار للسماء قمران من جديد، وآمنت أنت أيها العاشق، بما حاولت إثنائي عن تصديقه، طيلةِ الشهور الأخيرة.

قلت باسم الثغر مشيراََ بعيني صوب طبيبة شابة، تحاور كهلًا على مبعدة خطوات منا، وقد أجلسته على أريكة خشبية مماثلة لما أجْلست عليها، ووضعت كفه بين كفيها، ومالت برأسها صوب رأسه المطرق، وأخذت تحدثه بما لا يجاوز نطاق مسامعهما، قطب الطبيب ما بين حاجبيه، وشحب وجهه حتى كاد أن يحاكي بياضه معطفه، ربّتَّ على ركبتيه:

- ليس بالعشق ما يفزع، ربما فقط يصاحب التطرق إلى أموره خجل حلو المذاق، وألم خفيف نستعذب استدعاءه بين الحين والحين..

غمر احمرار وجهه، وضحك ضحكة قصيرة، ثم تلفت حوله وهز كتفيه، وقال: - لا أعرف، ربما أتفق معك على جمالها الملفت، ولكنني لم أتحدث معها في أي أمور خارج نطاق العمل، أظنها مهتمة بعملها فقط، أنت تعلم، ربما يكون لديها خليل أو عاشق، خارج جدران هذه المستشفى!

أسندت ظهري على الأريكة، وأخذت أطالع السماء وقد اتسعت ابتسامتي:

- كل شيء جائز، ولكنك لن تعلم حتى تريد أن تعلم. إن أردت نصيحة مخبول مثلي، فاعلم أن جسدها يرتجف حين تلامسه نظراتك الفاحصة، وخطواتها تفقد آليتها وتضيع اتزانها حين تشعر بمراقبتك لها جيئة وذهاباََ، فإن التقت أعينكما أطرقت أرضًا، وإن تفحصت وجهها ارتعشت شفتاها، وتعذرت بأي شيء لتهرب، قبل أن تلقي بجسدها بين ذراعيك، لا تبدو كفتاة تتلهف للقاء خليل أو عاشق خارج هذه الجدران...

قلت ثم اعتدلت مشيراََ له بسبابتي: فعشيقها قابع خلف هذه الجدران! تلفت نحوها فكانت وحيدة، وقد غادرها الكهل وظلت هي في ذات الموقع، تختلس من حين لآخر نظرات هائمة واقع الأمر أنه هو قِبلَتها،

ارتبك، وغمرته سعادة الشعور بالعشق حين يغمر المرء، وقد اعتاده على ما يبدو صادرًا من ضلوعه، مسافرًا بلا عودة.

- سيد (إبراهيم)... أرجو ألا تغير دفة الحديث مجددًا.

قال مستعيدًا جديته المصطنعة، فأجبت بذات الصرامة وذات الافتعال:

- قلت لك: من المتعارف عليه أن للسماء قمرًا واحدًا!

تبسم مجددًا، ثم واصل استبيانه للأمر:

- وبم تسمي (مليكة): حلم أم واقع!؟

- هي أرق من أن تكون واقعًا، وأسمى وأجل من أن تغدو محض حلم عابر، لن تفهم مرادي، ولكن إن كان استفسارك بُغية التحقق من وضعي العقلي، فهي لا تنتمي لعالمكم هذا...

بدا على وجهه استحسان، وقد رآني أخلع عني سرمدية (مليكة) لأول مرة، أو هكذا كان ظنه، بيد أنني كنت لا أزال في حيرة من أمري، وأمرها، كنت أثق أن ما مررت به، من زيارات لسابق حيواتي، حقيقي دامغ في صدقه، ولكنه، وقد سكن الإيقاع من حولي، وقلت التداخلات، قد أصبح منافيًا للمنطق، غير أن إيماني بخصوصية ما جرى، وحقيقته، ظل راسخًا لا يتزحزح.

- كم طفلًا لديك يا سيد (إبراهيم)!؟

قال حين كان يدون شيئًا في أوراقه، فباغتني صداع مفاجئ، تمكن من فكيّ فألجمني، سارعت بإطباق كفي على صدغي، فسألني قلقًا:

- هل أنت على ما يرام!؟

كان شابًا في مثل سني، وربما يصغرني بأربعة أو خمسة أعوام، طبيب، يمثل الجانب الخير من دنياي، منذ أن حطت قدماي بالمصحة أول مرة، له شارب رفيع، وأدب رفيع، ومعطف قديم بال، شارف بياضه على الاصفرار، له عينان زرقاوان تقبعان خلف عوينات سميكة مقعرة، تضفي على مظهره بسمات رُعب لا يليق به، جاءني صوته صادقًا في قلقه، وددت الإجابة بما يود سماعه، حتى يسمح لي بمغادرة المصحة، ثم

التبس عليّ الأمر، هل حقًّا أود الخروج؟ أوليس العيش بين جدران هذا المحبس الرقيِق، أكثر تحملًا من المعيشـــة مع (دنيا)؟ إذن، هل أجيبه بما يبقيني حبيسًا بذات الأسرة البيضاء أبد الدهر؟

- (آدم)...

هز رأسه مشجعًا، ولسان حاله يصرخ بأن أكمل...

- (حواء)...

يواصل اهتزازه بوتيرة متصاعدة، يزول الصداع بمثل ما بدأ من فجائية مربكة، ترجوني عيناه المقعرتان أن أستطرد، أعتصر ذهني، ثم أهتف مراوغًا حملي المتأرجح بين الشك واليقين:

- كيف مات (عدلي خالد)؟

يزفر بخيبة أمل، ثم يجيب:

- لم يمسسه أحد بسوء إن كان ذلك ما تتصوره، نام ذات مساء، فلم يستيقظ في الصباح التالي، ذلك ما كان، وبالإمكان أن أقسم لك إن أردت! ألديك أي مؤرقات أخرى، مما تود الاستعلام عنه؟
- أين (فخري عبد الملاك)؟
- رحل إلى مصحة أخرى وفقًا لطلب قُدِّم من محاميه نيابة عن عائلته، علمت أنه نقل إلى مصحة يعمل بها طبيب من أقربائه.
- ولماذا يُعَذّب (سعيد عبد العال)!؟

تلفت حوله في ذعر، وألصق سبابته بشفاهه الجافة، مستعطفًا صمتي، اختُطِفَت رصانته عنوة، فتنقلت عيناه هلعة بين مُقبل ومدبر، تتضرع، تطلبَ المغفرة من إثم لا يدركه هو، وتنشد مهادنة مع جلاد خفي، ومُحَقق لم يظهر بعد...

- لي ولد آخر، جاء في غفلة مني، حين شغلني الارتحال بين مأمول ومعقول، لم أنكر أنه من صلبي، ولكنني، قد قلت مرارًا أنني لا أذكر، وكررت ذلك ما بين تلميح وتصريح، ظننت أنه غرس حل في هباء

ليتعلق بأستار العدم، هاج القوم، توسلت العون دون طائل، سألت من هذا يكون، فأجمعوا بأن قالوا: هذا (يحيى)!

قلت فلانت ملامحه، وتهللت أساريره، فأردفت هامسًا:

- أنا العابر من مسام الواقع إلى الخيال، الزائر أينما حللت، والمسافر بلا دفة، هربًا من مطارده الاتجاهات، ماذا يضير امرؤ مثلي، إن أقر بالنسيان؟ فطلب البيان؟

غادرت المصحة في اليوم التالي، قال المعالج أنه أبلغ عائلتي هاتفيًا بموعد خروجي، فلم أجد أحدًا في انتظاري، لم أحزن، وأوقفت واحدة من سيارات الأجرة المتعطشات لوصال الزبائن، ابتعت نسخة من جريدة الأهرام، ثم جلست بجوار السائق، سألني بآلية عن وجهتي، عقدت العزم على الرحيل، وقررت ألا يكون الرحيل بدون وداع لذريتي، بيد أنني أجّلت ذلك، حتى أختلي بنفسي لبعض الوقت، كرر السائق سؤاله، فأجبته بذات الآلية:

- العجمي!

(ملك)

ميلادٌ، فرحيل

وجاءت أمسية، سكن فيها الكون، وكتم الزمن أنفاسه مشدوهًا، فتجمدت عقاربه، واسترق الطير النظر إلى تلاحم جسدينا، في بقعة من أرض خلاء، محاطة بأنهر من ماء مُسْكر، وبدا لي قرص القمر الأكبر، من حيث طالعته وقد اعتلتني (مليكة)، وانطلقت في سِباق محموم عبر مضمار من الشبق المتأجج، وقد تسلل مقتربًا، متفحصًا جسدينا المتوحدين، في تلصص دهش، وبدهشة تليق بالمتلصصين، النسائم العابرة توقفت أمام تموجاتنا المتناسقة مع أمواج من شهيق وزفير مستعرين، رفعت رأسها إلى الأعالي، ومالت بخصرها إلى الخلف، فاشرأب نهداها المتنمران، وانعكس ضوء أحد الأقمار عليهما، فبدوا كهرمين، يخفيان أسرار الكون منذ قرون خلت، وكنت أمد يديّ الحالمتين باحثًا عن كشف الخبايا، وفض بكارة الغيب، حين زحفت أمواج النهر محدقة بنا، متأملة فعل الغرائز بالبشر، إذ تنزهت عقولهم عن الخوف، وكفرت بالمحرمات، واعتكفت في صومعة من العشق، ولا شيء سواه.

كنت قد انتهيت في ذات النهار، من إعادة الصياغة لختام الصحيفة الثالثة، وكنت أشعر أن القادم يحمل في خباياه صورة من صور الوداع، صارحتها، فتجردت، غادرت مملكتها برفقتي، وطرحت مخاوفي أرضًا، وافترشتني فافترشتها، وامتص كل منا من رحيق الآخر ما يجاوز المبتغى، ويفوق التمني، فإذا بها، حين داعبت أهدابنا أضواء النهار الحابي، واستفاقت متأوهة، وقد داعبتها أدخنة الغرام الآخذة في التلاشي وقد انطفأ سعير اللقاء الجسدي، أشارت إلى بطنها، وهمست ما سمعته بعينين نصف مغلقتين "أحمل في أحشائي طفلة لك".

تنقلت ذاهلًا ما بين الحلم والواقع، في رحلات متلاحقات، متعاكسة الاتجاهات، ومضت أغلب فترات حملها أثناء حلمي بعالمي الأول، ونعاسي

بصحبتها، حتى أفقت ذات نهار مشابه، فوجدتها تحمل رضيعتي النورانية، عارية ناعمة، ساترة عورتها برداء من ضوء خافت، ألقمتها ثديها، وقد أمست ثمرتي اللوز داكنتين عما اعتدتهما، فامتصت طفلتي رحيق الحياة، حتى نما جسدها في أيام ما ينموه الطفل عبر أشهر عدة، كان لها شعر فضي غزير، يتغير لونه مع انعكاس الضوء ومصدره، فهو رمادي في ضوء القمر، وأرجواني في لحظات الشفق، كستنائي في لحظات الغروب، مائل للاصفرار إذ تحكم السماء شمس الشروق..

فإذا مر على مولدها عام، ميزته (مليكة) بخسوف القمرين في كبد السماء، وفي حضرة (الشيخ المليكي)، إبان زيارة تبريك وترحيب بالمولودة، وإذا بالطفلة شغلت باللهو على الشاطئ، أسميتها (ملك).

وكانت (ملك) هي أكثر من حملت من ذريتي، المتناثرة فيما بين المعقول والمأمول، والمشتتة عبر دروب الحقيقة والخيال، بيد أنني أحببتها، في نوبات الصحو، وفي جولات الخيال، كانت هي من رأيته في شتى المواضع، وفي أغلب المواقع وأهمها، فكانت في شبرا، وفي بلاد القمرين حاضرة، كانت في الثالثة من عمرها لبقة كابنة عشرين، كانت تحسب الفعل لقياس ردة فعلها، تتوقف عن لهوها إن علا صوت المؤذن أو دقت أجراس الكنيسة، تمسك بيدي فتطبق أناملها على أصابعي في الصحو والنعاس، تأخر كلامها، فكانت عيناها تُفضيان بمختلف التعابير، فتُغنيان المرء عن أبلغ الكلمات وأعظم الأحاديث.

وكانت إذا انفردت بشاطئها الحائر بين العجمي وبلاد أمها، عبثية تلهو بأمواج الطفولة المرحة، وإن توغل الجزر فغاب الموج وانحسر، كبرت بتسارع زمني ملموس، يغمرني بحيرة تدفعني دفعًا حتى أمسك بتلابيب العقل الواهن، فأستفيقِ من حيرتي وقد أجلستها على قدمي، قاصًّا عليها خلاصة العمر، ومختصرًا لما أذكر من الأيام ، صارحتها بشكي وحيرتي، وحكيت لها عن إخوتها، فتمنت عيناها لو يتيح القدر فرصة تجمعها بهم، حكيت لها عن حضرة جدي وأبي، حكيت لها عن (إسماعيل)،

وبكيت أقدار (مريم) بين يديها الرقيقتين، شكوت لها قسوة هجران (نادية عيسى)، وألم الفراق حين يجتث من حيواتنا أقرب الأقربين، استفضت كثيراً في سرد مطول لحكايات (نوح أفندي)، فباحت عيناها بأنها تمنت لقياه، ثم أطرقت كمن يشكو سوء تدابير المصائر، فأومأت برأسي موافقًا، ثم اصطحبتها عبر الصحف السبعة حيث قبعن في ذات الموقع في محراب (الشيخ المليكي)، جزعت عيناها لرؤية كهنة (آتون)، وبكت حزنًا على (يوحنس السنهوري) والسلطان (الأيوبي)، واعتراها هلع بمتابعتها رحلة الأميرة (أسماء) صوب حتفها، بغضت (بونابرته) وكرهت (الشيخ حسن)، أحبت (النديم)، واستلذت جلسات التنكيت والتبكيت، وانتشت وقفزت صارخة في جذل لمقتل (خمارويه)... صاحبتني، فاختطفتني من الزمان بشقيه المتناقضين، حتى بدا لي أنها تشبعت، وانتفعت من مرافقتي، فتكلمت بعد أن ظننت كل الظن أن سماع نبراتها، قد أمسى ضرباً من الخيال الـمضاف إلى التمني، قالت بنيتي:

- أبتاه قد طال غيابك عن إخوتي، وما أظنهم قد نهلوا من معارفك مثل ما نهلت، وعلموا شيئًا مما تعلمته وتلقيته بين يديك، سأظل أنتظرك رفقة أمي، فلن أذهب، ولن تغيب...

قالت فاستدارت، خطت صوب أمها الواقفة على الشاطئ القريب، تابعت ظل (ملك) فكان يزداد طولًا كلما اقتربت من أمها، وكانت تنمو، وتكبر، حتى بلغت مبتغاها، فمضيتا وقد تقاربت أطوالهما، سارا فوق الرمال الدافئة، حيث تداعب أقدامهما الموجات الوليدة، توجها صوب الشمس الغاربة وقد توسطت قمري السماء المتأهبين للسطوع، تقارب ظليهما، وتمددا كلما توغلا في باطن المجهول، تسارعت دقات قلبي، وعلت حين تلاحم ظلاهما فأمسى لهما ذات الظل الواحد، طالعتهما مقاوماً غشاوة أضواء القمرين المتصاعدة، تيقنت من تطابقهما وقد التحم جسداهما، بهتّ، ووجلت حين تقارب القمران بدورهما، وتوحدت الأضواء وسطعت

بقوة، ثم خبت بغتة ليلف القمر خسوف، فميزت عيناي المرهقتان السماء وقد سكن صدرها قمر هائل، وحيد.

كانتا تغربان بدورهما مع الشمس، والقمران المتوحدان قابعان تحت ظلال الخسوف، خلا الكون من حولي، وغمرت الرمال كل شيء، بزغ من خلفي باب خشبي قديم، لا يضاهي بهاءه باب الكوخ الأول، الذي مرقت من بوابته يوم اللقاء العظيم، هذا الباب الخشبي عتيق، تئن أخشابه بفعل الزمن، وتصدر عنها أصوات خافتة وكأنها تود أن تبوح بما كانت عليه شهودًا، لاحظت تشكل الباب في قلب الفراغ، حين صدر عن مفاصله الصدئة صرير أعادني للوقوف أمام بوابة منزل نادية عيسى، منذ زمن لم أعد أذكره، كانت ضلفتي الباب تنفرجان رويدًا رويدًا، الحياة بعدها كما هي في حارة البنداري، الأطفال منشغلون باللهو هنا وهناك، عبود الفكهاني يلمع ثمرات التفاح بقطعة قماشية مغمسة بالزيت، بقايا أرجوحة إسماعيل لا تزال في موضعها وإن تهالك مجلسها، يتعالى الصرير، أقترب حذرًا من الباب، أتلفت فلا أجد لـ(ملك) و(مليكة) أي أثر، يتعاظم الصرير ويتضخم حتى يمسي مزعجًا، أمد يدي لأقبض عل مقبض الباب، فتجذبني قوة خفية، لأهوي في فضاء لا نهائي، حتى أسقط على ظهري، الألم أقل من المتوقع، بيد أن الدوار يكبل أطرافي، ويهيل الخوف على مداركي، أشعر بالنعاس يتسلل إلى أجفاني، سلطان النوم يلقي بأستاره السحرية على وجهي، قاومت وهنًا فكان السقوط في غياهبه سريعًا، سمعت إبان الولوج في عوالم الغيب حفيف نصل المقصلة في هبوطه المتسارع، حتى دوى سقوطه مُصدرًا جلبة عظيمة، لم أشعر بألم، ثم ما لبثت أن رضختُ أخيرًا، لغفوة، حقيقية، عميقة...

راودتني رغبة في الاستسلام، مقترنة بدوار يصدر عنه ألم حاد.

شعرت وكأنني فقدت الوعي وانسحبت من جسدي، متهيئًا للقاء ربي...

أتراني استيقظت للأبد!؟

(٢٤)

تنويه

وأنا عاكف على تدويني هذا، أغلب الظن أنني قد ألبست الشخوص بعضًا من سماتي ومفرداتي، فأنطقتهم بلسان عربي فصيح، لا لنقص في عاميتهم، وإنما لسببين لا ثالث لهما:

أما أول الأسباب فقد كان الانصياع لما اعتاد قلمي نهجه إذا ما لامس الورق فانتشى بالوصال...

وأما ثاني الأسباب، فإنما كان سدًّا لفراغات الذاكرة، وملئًا لثقوب شابت رداء السرد، فحرصت على إخفائها مراوغًا لمواضع الزلل...

نهايةً، فما أردت من تدويني هذا سوى نقل الخبرات وتعميم نتاج التجربةِ، والطرق على مواضع حري بنا أن نكف عن إهمالها، فما أردت اشتهاراً، وما اجتذبت القارئ للانشغال بهوامش ونوافل لا حاجة له بها، كمعرفة لوني المفضل، ووجبتي المفضلة، وطريقة ممارستي للجنس...

فإن لامس القارئ بعضًا مما وصفت في أوراقي، تُوجت تجربتي التي كُلفت بها بنجاح لم أطارده...

وإن غاب المضمون بين المتون، عكفت على إعادة المحاولة...

والله شهيد على القول، والظن، والفعل.

(٢٥)

خاتـمة التدوين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المرسلين والنبيين، إبراهيم الخليل، وداود، وكليم الله موسى، وعيسى ابن مريم، ومحمد بن عبد الله، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، أما بعد:

قليل من الحلم يعين المرء على مجابهة الواقع، وقليل من الواقع حتمي لتحقيق ذات الحلم، فإن حلمت أنني أرى الواقع كما تمنيته، ثم أفقت من سباتي لأجد الحلم متجسدًا في واقعي جِليّا، كيف يتسنى لي أن أميز ذاك الخيط المتآكل، بين عالمين تشابها في جِل المآسي، وتناقضا في عذب الأوقات؟

مرتحلًا عبرت البوابات بين حيواتي، وشتيتًا حرت في متداخلاتي، وغريبًا أمسيت بين العالمين، وبقدر نعومة الانسياب من عالم تجاه الآخر، وسهولة الانزلاق عائدًا من هذا إلى ذاك، كانت الاستفاقة من الحلم، والمقدرة على تمييز حدود الواقع جد مرهقة، طلبت العون فلم يلبِ نداءاتي أقرب الأقربين، وقد ظننتهم لي في شدتي مددًا، آثرت الصمت ففاق الناقمون قدر الصامتين عددًا، رحلت كي لا أرجم، أو ألعن، دثرت في طيات مأساتي معاناتي، مضيت وما أراني بنادم أبدًا...

أنا حورس الباحث في علياء السماوات عن أسرار المناجاة، أجوب الكون حالمًا بأن ألملم يومًا أشلاء أوزيريس لأدرك ماهية ما كان، فإن علمت حقيقة ما جرى، صار الغد جليّا في ناظريّ، كالأمس إذ أدبرَ.

أنا ذاك العصفور الضائع بين أغصان الشك، أصارع مخاوف القوم وأوهامهم، منتظرًا بزوغ شمس اليقين، فإن بدا أول أضواء الحقيقة في السمو فوق أنقاض الليل، هربت من مواجهته، خوفًا من مكاشفة، أثق بأن في جعبتها من الصدمات، ما يفوق صبري، ويدير أمري رأسًا على عقب.

أنا السابح بين الأزمنة الحبلى بآثامكم.
أنا المارق عبر السماوات الثكلى، المثقلة بتكرار الذنوب...
أنا المُبَلِّغ والمُبَلَّغ.. أنا الباعث والمبعوث..
أنا من عايشت ذات الحدث والحديث، مرات لا أدرك تعدادها...
قد ذابت الأمكنة، وتحللت الأجساد في باطن الأرض..
وبقيت شاهدًا على دورة التاريخ الأبدية..

أقيموا شعائر صلواتكم.. وانحروا أضاحيكم..
مجدوا كهنتكم وأولياءكم...
أوفوا بنذوركم ولا تذروا طقوسكم... ثم توقفوا..
اعقلوا ما أنتم فاعلون..
وألقوا بعقولكم بين صفحات كتابي..
لعلكم تجدون في طياته، ما يطهركم من الدنس، ويغسلكم من الشرور، ويقيكم أرجام الغافلين، فتستعيد عقولكم بكارتها، وقد زالت غشاوتها، ويتجدد إيمانها، وقد أبصرت صواب السبل من بعد ضلال طال اختياره.

أنا إبراهيم نوح عبد الحميد البنداري
انتهيت اليوم من تدويني هذا غير واثق بأهمية ما سوف يحوي وجدية ما سوف يعرض، إلا أنني أتركه بين أيدي أجيال سوف تأتي من بعدي، يقيمون، ويبحثون، ويفسرون ما حملته حروفها بين الزيف والحق، بين الضلال واليقين، فأما ما أصبت فيما ذكرت، فهو مَنٌّ منَ الله عز وجل، وأما ما أخطأت فيما رأيت، فمن الشيطان، وما أراه كَان على مبعدة من قلمي وتدويني..
والحمد لله رب العالمين من قبل ومن بعد.

في وقت ما بين عامي ١٩٩٧ و١٩٩٩

(٢٦)
وصية أولى | منقولة

ها قد أتاني الهِرَم، وتمكن من لساني الخرف
فهرول بي إلى وهن الشيخوخة، مُجَدِّدًا عجز الطفولة
قبعت بين جدران الأمس طيلة اليوم
ففطنت أن العينين قد ضعفتا
فما عادتا تميزان جميلًا عن قبيح
سكب الزمان شمعًا في أذنيّ
فثقل سمعي كمن به صمم
صمت الفم وما عاد يطرب إذا ما تحدث
الوعي شارف النهايات
وما عدت أتذكر الأمس، زمانًا ومكانًا
صار كل طيب خبيثًا، فما عاد لشيء مذاق
شاخت العظام، وأنّت المفاصل
فصَعُبَ القيام والقعود
وضاقت بي أسباب الوجود
فليأذن لي الرب إذن، قبل اللقاء
أن أضم إلى صدري سند شيخوختي
ذريتي من بنين وبنات
لأسمعهم الأحاديث والأقاصيص
فيسمعون القول ويصدقونه
وينغمسون في نصائح السلف ممن أطاع الآلهة
لعلهم يحذون حذوهم ويكررون الفعل بالمثل
عسى الله يخفف بؤس الرعية ... على ضفتي النيل

الحكيم بتاح حتب[٦٦] | ٢٣٥٠ ق. م - ٢٤٥٠ ق. م

(٢٧)

إلى ذريتي

آدَم، وحَـوّاء، ويَـحيَـى
وأحْفَـادي الـمُحبِّـين، شَرِيف وجَـنَّـة
تَحِيَّـة تَلِـيقَ بِأمَـد الغِيَـاب
أمّا بَـعْدَ،
هَا وَقَدْ رَمَحَ بـي جَوَادُ العُمْر عَـبْرَ طُرقات الزَّمـان والـمَكَان
حَتَّى طَعَنَ الجَسَدُ، وشَاخَ القَلْبُ، وسَكَنت الرَوح
فَدَنـا المِيعَاد وأقْبَل الأوَان..
وهَطَلت الأيَّـام بِـمَـا تَـنْدَمل بِـه الجُرُوح..
فَدَاوَت وتَدَاوَتْ..
وَجَادَت بِوَافِـر التَفَاسير وأكْمَـل الشُّرُوح..
يحِـلَّ مَوْعَدَ اللِّـقَـاء...
فَـأَتْرُكُ خَلْفِـي أَمْتِعَةَ السَّفَر، ودَوَاعِـي الضَّجَر...
وأهْبِطُ مُسْتَقراً بِمَطَار القَـاهرة، فِـي تَمَـامَ السَّاعَـة العَاشِرَة...
مَسَاء يَـوم مِـيلَاد "عَـزِيـزَة الـحُسَينـي"...
فـإن قَرَأتَـم... كُنْتُـم فِـي الانْـتِـظَـار
وإنْ نَسِيـتُم...
يُغَادِرُ الْمُنْـتَـظَر...
ويَـعُودُ لاسْتِـرجَـاع أَمْـتِـعَـة السَّفَـر...

إبراهيم نوح عبد الحميد البنداري
الثاني والعشرون من أبريل من العام ٢٠١٠

اجتماع

يقرأ (شريف) الخطاب عدة مرات، ثم يضعه في مظروفه مجددًا، فتتلاقى النظرات، ويطفو التوجس على القسمات، يحلق ذات السؤال فوق الرءوس: هل حقًّا يعود؟

يجلس (يحيى) متوسطًا أمه المحتجبة عن الجمع بالصمت، وأخاه المحتفي بلقائه المأمول، تتساءل عيناه عن موعد الوصول المرتقب. تقول (حواء) بابتسامة غابت عنها طويلًا، فبدت قسماتها وكأنها لا تألفها:

- هو يريد لقاءنا، فقط إن كنا قد قرأنا ما أرسله.

تعكس الوجوه ابتسامات عصبية، تقول (دنيا) بنبرات تناسب سنوات عمرها السبعين:

- لم أشأ القدوم، لولا (يحيى) لما جئت، لم يعد لدي طاقة لتحمل مثل هذه السخافات والألغاز، هو يصر على الاستخفاف بنا جميعا.

يُهدئ حفيداها من روعها، فتهدأ، يحاولان ممازحتها فلا تستجيب، يقاطع التوتر ضحكة تصدر عن (آدم)، يتبعها (شريف) بقوله:

- بل هو يعلم أنكم إن كنتم قد أهملتم قراءة ما وضعه بين أيديكم طيلة هذه الأعوام، فلا طائل من اللقاء، ولا داعي لمحاولة لمِّ الشمل وقد ظهرت مغبتها..
- سأرحل الآن، لا طاقة لي بذلك.

تقول (دنيا) وتهم بتنفيذ مقولتها، فيتشبث بها (يحيى):

- أتوسل إليك، اتفقنا على طي صفحات الماضي، وهجران العيش بضفاف ما كان، وتثبيت الزمن عند اليوم الأخير قبل ولادتي، لا تأبهي بوضعي الآن، ولا تأخذك رغبة في الثأر لي ولكِ، فقد رسخ في يقيننا براءته، وقر في قلوبنا تعاطفًا لا يرضيكِ، وانجلى ما غاب عنا وطُمس منذ رحيله، فلا تناطحي ما توطن في دواخلنا جميعًا، وأنت أولنا...

يقول فترفع حاجبيها، وتتراجع بظهرها إلى الخلف، تطاردها كلمات (مريم) عن روابط الدم، تنفض رأسها هربا مما يطاردها، ثم تردف بحروف متباطئة:

- أمسيت تتحدث مثله يا (يحيى)!

يحف الهمس بالشفاه الشاردة، فلا تُطْبق ولا تنطق، ويطوف التساؤل الديمومي بين العيون المثقلات بمحاولة استطلاع القادم، يصير للصمت صوت أشبه بالصفير الخافت، تتشربه الآذان فيزيد من توتر الجمع المضطرب، تتمتم (حواء) بصوت مسموع:

- من الـمِلفت أنه ذكر (شريف) و(جنة)، يدل ذلك على أنه كان يتتبعنا كما كنا نتتبعه خلال الأشهر الماضية!

يضحك (آدم) مجدداً، مفرغًا قسطًا من توتره وترقبه، ثم يقول واضعًا مذكرات أبيه إلى جواره، بعد مراجعتها:

- لقد علمت موعد قدومه، من منكم تمكن من حل اللغز!؟

تتنمر (دنيا)، فتكاد عيناها الخضراوان أن يندملا في خبايا وجهها المتغضن، تنظر صوبه في حنق، فيضغط (يحيى) على كفِها الذي لم يتركه بعد، مواصلًا محاولاته لتهدئتها، ترفع (جنة) يدها عالياَ:

- أنا أيضًا علمت، وبدون مراجعة للمذكرات كما فعل عمي (آدم) خلسة.

تقول جذلة بما يذيب شيئًا من الجليد المتراكم في الغرفة، ويزيد من حماسة (شريف)، فيهتف بدوره:

- وأنا كذلك، فإجابة اللغز أمر لا يسقط من ذاكرة مرهفي المشاعر مثلنا.

يقول، ثم يمد يده إلى (جنة)، فيتعانق كفاهما، ويتورد وجه الفتاة خجلًا، يقطب (آدم) حاجبيه، ويهم بالتساؤل، ثم لا يلبث أن يتمهل، وقد خُيل له أن لمعة قد تراقصت في عيني (حورية)، المطلة على مجلسهم من إطار صورة الزفاف، الراسخة على الحائط المواجه له، يغمره خليط من النشوة والجزع، حتى تعلن الفتاة المكتسية بالاحمرار:

- أنا و(شريف) قررنا ألا نفترق، فقد جمعنا حب صادق، يُقدم ولا يؤخر، فعقدنا العزم على إعلان رغبتنا هذه، إذا ما نجحنا في مراسلة جدي والعثور عليه، فقد كان هو من جمعنا بادئ ذي بدء.

تهب (حواء) واقفة، وتخطو صوب ابنتها، يهب (يحيى) للحاق بها، ويعتدل (آدم) في مجلسه، تهتف (دنيا) بهدوء لا يتسق مع أمارات الغضب المتراقصة على وجهها:

- اتركها لتؤدب ابنتها يا (يحيى)...

تغمض (جنة) عينيها، كمن يتوقع تلقِّي وابل من الصفعات، شعرت بخوف يكبل جسدها، وهز من ثقتها بأن (حواء) حتمًا لن تؤذيها، يقف (شريف) أمامها حاميًا مستأسدًا بما يليق بحداثته، يتوقف الزمن لوهلة، ويكتم الجمع أنفاسهم، فيحتبس الشهيق للحظات في الصدور، حتى ينطلق زفيرًا وقد احتضنت (حواء) ابنتها، لتتباطأ إيقاعات القلوب المتوترة، من بعد تسارع لحظي.

- هناك أمر آخر...

يقول (شريف)، فتنتحي صوبه الأعناق، تقاطعه عمته:

- لن أجد لك شريكًا أفضل من ابن (حورية) و(آدم)، وقد عاش حياته بين جدران يغلفها العشق، وتُليت على مسامعة أصدق آيات الوفاء.

تتبرم (دنيا)، وتصيح بابنتها:

- أنت أيضًا صرت تتحدثين مثله، ماذا حل بكم، أي سحر قد وجدتم في أوراقه التي قرأتموها؟

- وأنا أبارك ارتباطكما بدوري.

يهتف (يحيى)، فيهم (آدم) ليعقب، لتقاطعه أمه مجددًا:

- أي مباركة يا (يحيى)، الولد لا يزال دارسًا لم يكمل سنوات دراسته، كما أنه يصغرها!

- حنانيك يا أمي، فالمشاعر أمور لا إرادية، فإذا حكم القلب وقضى بأمر، فلا راد لحكمه، ولا معارض لقضائه.

يقول (آدم)، مخاطبَا أمه، مثبتًا عينيه على صورة زفافه، فتواصل أمه استنكارها الكَلمي والإيمائي، والحركي:

- لا فائدة، صِرتم تتحدثون بلسانه، هلم يا (يحيى)، خذني إلى بيت (شبرا) فقد أمسيت بينكم غريبة.

يهدئها الحفيدان مجددًا، رغم إعلان معارضتها لما صبا إليه قلباهما من وصال، يجلس الجميع، فتلف الأجواء هدنة مرجوة من السكون، يخترقها (آدم) وقد تنبه لأمر ما:

- قلتِ أنك، مع (شريف)، قد راسلتما جدكما يا بنيتي، هل هذا صحيح؟

تومئ (جنةَ) مزهوة برأسها، مفيدة بالإيجاب، فيضيف (شريف):

- وما كان خطابه الذي صعقكم استلامه بالأمس، إلا ردًّا على خطابنا!

يقول، ثم يتوجه بخطوات هادئة واثقة صوب أبيه، فيحتضنه، تدمع عينا (حواء) وابنتها، وقد طال اشتياقهما لعناق كهذا، واغتبط الجمع لمرأى الوصال المنتظِر، تعلق (دنيا)، فتجيء نبراتها متهدجة:

- اللهم جمِعهما ولا تفرقهما بعد اليوم.

يقول (شريف) وقد هب واقفًا:

- قلت إن هناك أمر آخر، فلم يلتفت لكلماتي أي منكم!

يعتدل الجلوس، وتتوجه أنظارهم صوب الفتى المنتشي بالعشق، فتردف (جنة): - بل أمران، لا أمر واحد.

تتكاثف الحيرة على الوجوه، وينفد صبر (دنيا) الناقمة، فتصرخ في حفيديها متعجلة الإيضاح لما يقصدان. تقول (جنة) وقد وقفت بجوار نتيجة الحائط مشيرة إلى تاريخ اليوم:

- اليوم هو التاسع والعشرون من أبريل، مما يعني أنه يصل بعد أسبوع من الآن...

يهز (آدم) ساقيه متوترَا:

- أسبوع واحد! ذلك أقرب مما ظننت...

يقول ضاغطًا على حروف كلماته، كمن يستوثق مما يقول، يردف أخوه:

- ولكنه يكفي لقراءة مذكراته...

يومئ له (آدم) موافقًا، فيتبسم (يحيى)، وتهتف (دنيا):

- يصل أو يواصل هروبه، الأمر لا يعنيني، جئت هنا احتفاءَ بعودة (يحيى)، كنت أشعر أن شيئاً ما يجري، شيئاً ما ينساب أسفل مياه الزمن الراكدة، بيد إنني ما كنت لأحضر جمعكم هذا، إن علمت بموضوع الرسالة التي وردتكم بالأمس، لقد ضاق بي حديثكم، وحزنت لمرآكم، وقد تجاهلتم ما تبثه سيرته في نفسي، من حزن وضيق.
- تمهلي يا أمي...
- من الجيد أن تتذكر أنني أمك يا (آدم).

تنتفض (حواء) بغتة، وتقف مواجهة أمها بما أرهقها حمله:

- كلنا قرأنا قصته، وعلمنا ما مر به، وآمنَّا بحكايته، فما بالك يا أمي لا تلينين؟ ما خطبك تصرين على وضعه في قفص الاتهام أبد الدهر؟
- أنا أمكم، وأنا أبوكم، أنا من أفنى عمره يدثركم بالحنان والرحمة، أنا من قضت ليلها تقص عليكم حكايات الطفولة إذا ما داعب النوم أجفانكم، وأنا من باتت تحرس أحلامكم إذا غفيتم، أنا الأجدر بالعطف، وأنا من يستحق الاهتمام، وليس (إبراهيم)، هو لا يستحق!

تأتي أواخر الكلمات مثقلة بالدمع، ثم لا تلبث العجوز أن تنتحب، فيعود السكون ليتصدر المشهد ، يتباين المكنون في الصدور، يتسمر الحضور في مواقعهم، تظل عينا (آدم) متنقلتين بين نتيجة الحائط وصورة الزفاف، فكان كمن يرقب مرور الأيام السبعة الفاصلة ما بين اللحظة واللقاء، ويتفحص وجه (حورية) في ذات الوقت، يربت (يحيى) على أمه مواسياَ، (حواء) تظل واقفة في ذات الموضع، كفا (شريف) و(جنة) تواصلان العناق وقد ازدادا التصاقًا، يغلف الصمت الحذر النظرات، حتى انتهت (دنيا) من انتحابها، حين تسللت نسائم ربيعية من الشرفة المجاورة، فاهتز الكرسي الهزاز لمرورها، حين مرقت لتلطف الأجواء المشحونة، تتطوع (جنة) لتخترق جدار الصمت، معتصرة ذات الجرح الذي لا يندمل:

- ما قلتِ غير الحق يا جدتي، ولكنك في انتقامك من جدي الغائب، إنما ألحقتِ بهم ضرراً مماثلًا لما لحق بك، فقد أخفيتِ صوره، وحجبتِ عنهم خطاباته، وحرصتِ فقط على تلقينهم كراهيته، فما فلحتِ في إكراههم على كراهيته، وما استطعتِ عزلهم عنه ومنعهم من عناقه، ولو من خلال حفنة من الأوراق، تلك فطرة الحياة، وهذا ما سنه الله، فغرسه في وجداننا منذ المهد، وحذرتك منه عمتي (مريم)...
- قد تخرس الألسنة وتطمس الأبصار، بيد أن الدم، الذي يسري في عروقنا، وعروقه، حتماً سيصدر من النداء، ما يعجل بالملتقى.. ولو بعد حين...

تضيف (حواء) إلى ما بدأته ابنتها، فتتساءل المرأة العجوز:
- ومن تكون (عزيزة الحسيني) التي يعود في عيد ميلادها؟

يضحك (يحيى) و(آدم)، وتعلو البسمات باقي الوجوه، فتشعر العجوز بحرج يستفزها، وتعيد تلاوة السؤال بنبرات أكثر عصبية من سابقتها، تجيبها (جنة):
- كانت فتاة من (شبرا) عشقها جد أمي، وتصادف أن يكون ميلاد جدي (إبراهيم) في عيد ميلادها، المقصد من كلمات جدي أنه عائد في يوم عيد ميلاده.

ترفع (دنيا) حاجبيها وتصدر عنها شهقة قصيرة، بالتزامن مع رجوعها بظهرها للوراء، جاعلة من مسند الأريكة متكأً، تومئ برأسِها موافقة، متذكرة لبعض مما قالته حفيدِتها. يقاطعهما (شريف) ضجرا:
- يا قوم، قلت إن هناك أمرَ آخر...

يهتف أبوه: - قلت مراراً، ولم تقل ما هو ذلك الأمر!

يلوحِ (شريف) بالظرف المرسل، ثم يخرج منه ورقتين مطويتين، ويعلق مفسرا:
- أما أول الأوراق فقد حوى خطابه الذي تلوته على مسامعكم، أما ثانيهما، فهو ما وجدته مطويّا بعناية كما الأعمال السفلية كما كان

جدي (عبد الصبور) ليقول إن طالعها، لم يلتفت لها أي منكم، لصغر حجمها، وللانشغال بمحتوى الخطاب الأول، والآن، ليخمن كل منكم ما تحويه تلك الوريقة الصغيرة!

- أنت أيضا تتحدث مثله! ماذا حل بكم؟

تقول دنيا في سخط، وإن داعبت شفتيها أولى البسمات منذ بدء الحديث، تتوالى التخمينات والتوقعات، وتتقاطع الأصوات، حتى يستوقف (شريف) سيلها المنهمر، مشيرًا صوب عمه (يحيى):

- حدسك صادق يا عمي، بالفعل، هي وصية! وبرفقتها خطاب مجهول، وقائمة بأشياء سوف يرسلها لنا جدي تباعًا على ما يبدو!

تتعالى الأصوات منادية بالاطلاع على الوصية، أو تلاوتها على مسامعهم، ينتهي الأمر بالاتفاق على أن تقوم (جنة) بقراءتها، تهم بالقراءة، فتشير جدتها بيدها مستوقفة:

- أما الصور والخطابات التي حرمت منها أمك وإخوتها يا بنيتي، فهي في حقيبة بنية اللون، وضعتها في سيارة (يحيى) ظهيرة اليوم، كنت أعلم أنه يرتب شيئاً، بإمكانكم الحصول عليها وقتما تشاءون.

تصطبغ الوجوه بدهشة تليق بالمقال، وتلتقي الأعين ما بين استحسان واستفسار، فتهتف (جنة) وقد اتسعت ابتسامتها لتشمل كامل وجهها:

- إليكم الوصية...

وصية ثانية

إلى بنيني، وابنتي، وأحفادي

اقرأ...
ثم اقرأ...ثم اقرأ...
ثُـمَّ أعْملْ عقْلَـك...
لتُحَلِّـق فَوقَ الأزْمنَة...
كَـيْ تَـتَفَحّـصَ مَا قَدْ كَان
أو لتُؤَسس مَا سَيَكُون
فَارْجُمْ خَوْفَكَ، وَاقْصُمْ قَيْدَكَ
لا تَهْجُر رُوحَكَ قَابِعَة فِي سَتْرٍ مَكْنُون...
لا تُذْهِبْ طَاقَتك هباء
قَاوم، حَرِر... وَاعْلَم إنَّـك إذْ تَتَحَرّر
قَدْ تَلْقَانـي وقدْ أَنْهَيْتُ رِسَالَةَ عُمْرٍ
عشْتُ خلَالَهُ صَخبًا تَعبًا
لا أُؤمنُ يَومًا بِسُكُونَ
كُنْ بريّـا في رَغَبَاتك... حينَ تَتُوقُ لضَم الحَق
حِينَ تَوَدُّ وِصَال يَقَـين... في أعْتى لَحَظَات الشَّكِ
وَإنْ طُورِدْتَ كَمَـا المَجـنُون
كُـنْ، كَـمَـا أنْتَ، نُورَانـيـًّا
حِينَ تَمُـرّ بِـطَيف العشْقِ
وَحِينَ يـمَسُّك نُور الصِّدْقِ
قِفْ وَتَـذكَّـر... كَيْـفَ بَدَأت؟
وَاعْـلَـم يَوْمَ ختَامِ الـدُنْـيا
مَاذَا أرَدْت؟ وَأَيـنَ تَـكُون؟

إبراهيم نوح عبد الحميد البنداري

إلى حامل الصندوق

يا من يأذن له الرب بحوزة هذا الصندوق..
لتعلم قَدْر صاحبه وقَدَره..
فهو الذي قد ترك الرب من جسده الفاني، قطعة لا تفنى..
تنوء بحملها مدافن القديسين وتلفظها الأرض إن واراها ترابها..
تلكم سبابة رجل صالح، آمن بالرب فأشارت صوبه في عليائه حين حانت لحظات النهاية واستشعر صاحبها دنو الأجل..
ذلكم ما حفظ الرب من جسد يُحنس السنهوري، الفلاح المصري النقي، الذي تجسد له ملاك الرب في خلوته بحقله الغني الشاسع، وأمره بالجهاد فأبى إلا أن ينفذ وصية الرب...
يا من آمنت بالرب..
ويا من لم تجد للإيمان دربًا وطريقًا..
فظننت بنفسك الضلال..
اعلم أن الرب قد اصطفاك حين خصك بحمل الأمانة، التي لا يحملها إلا كل صالح، نقي، طهور، فاعمل على ألا يحملها من بعدك سوى رجل صالح يختاره الصندوق.
واعلم أن الصندوق يجب أن يحاط طيلة الوقت بالكتمان وإلا استرده صاحبه الجالس في كنف الرب، فاحرص ألا يعلم أحد مما قرأت للتو شيئًا، وأعد كتابة تلك التعاليم كلما بليت أو كادت..
فالسر يقرأ ولا يسمع..
وينقل وما يقال.

يوليوس الاقفهصي

قائمة المقتنيات

(ذلكم ما حملني به الزمان، وورثني المكان، بين أثر وبرهان)
(مقتنيات ترد تباعًا من عدة جهات وفقًا للشركة القائمة على نقل البضائع)

١. صندوق خشبي ورثته عن (عوضين) درويش حارتنا: يرجى عدم فتح الصندوق حتى أعود.
٢. نسخة أصلية من مجلد يحوي كافة أعداد مجلة (الأستاذ) للشيخ عبد الله النديم.
٣. ملف يحوي نسخًا ضوئية من مقالاتي في مجلة "الرسالة".
٤. روايتي الحبيسة "ترانيم".
٥. خطابات (إسماعيل) الواردة من الجبهة قبل الحرب.
٦. متعلقات (إسماعيل) التي سلمت إلى (نوح أفندي) عقب استشهاده.
٧. صندوق ورقي يحوي نسخة أصلية من كتاب الوالد نوح أفندي البنداري (غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة).
٨. كتاب السنكسار.
٩. خطاب (نوح أفندي) إلى (عزيزة الحسيني).
١٠. خطاب جدي (عبد الكريم) الذي دفنه في (التوابية).
١١. أكمام بيضاء لقميص أبيض مضرج بالدماء.
١٢. نسخة أثرية من كتاب دلالة الحائرين للعلامة (موسى بن ميمون).
١٣. لفافة كتانية تحوي نابًا بشريًّا حصلت عليه من (نوح أفندي).
١٤. قطعة قماشية بيضاء مكتوب فيها "لا تيبَسوا ثراي".
١٥. خنجر أثري حصلت عليه من صديقي (عدنان الحلبي)، وقد قال أنه المستخدم في قتل سلطان مصر خمارويه.
١٦. شجرة العائلة.

إبراهيم

(٢٨)

حكمة أخيرة

روحك مرتبطة بهذه الأرض، فكلما أُبعدت عنها عدت إليها من جديد، أذهلتني مراقبتك، ودهشت لكونك ملتصقًا بذات التراب دون غيره، وتَوّاق لضم ذات الطين وإن دُثرت بحرائر الملوك..

ولهذا اصطفتك (مليكة)...

روحك تواقة للعلم، مطاردة لنور الكشف العظيم، ميالة للمقاومة، جانحة إلى الانتقام في بعض من تجسداتها، تهيم طاردة لليأس، وجالبة للبأس، مؤمنة بقداسة الوطن، ناسية متناسية لمكائد البشر، تقارع الخطر، وتنازع الغاصب في ملكية ما غصب، تمر بين الحيوات لحكمة وسبب، تغزل من كلمها سيفًا ينازل الحَزَن، ويجابه الزمن، فلا تخف، ولا تنسَ ما وهبك الله وإن تكالبت عليك المحن.

فما الحقيقة يا بني سوى أخدود ضيق، يمر بين ربوتين شاهقتين، صنعت إحداهما من الواقع، وثانيتهما من الحلم، فإن جنح المرء إلى ربوة الحلم، تقاذفته لطمات الواقع، وإن عطف عن الحلم فعرج ليستقر بربوة الواقع، تقارعت آمال الحلم المطوية أمام ناظريه، مصدرة نداءات يئن بصخبها، وهكذا دواليك، يظل المرء متنقلًا بين الربوتين، متناسيًا أن الأخدود الفاصل بينهما، هو منذ البدء صنيعة يديه!

وهو فقط، ما طال به البحث عن مبلغه!

واليوم تحررت يا (إبراهيم)، وقد جابت روحك بين أجساد سكنتها عبر الأزمنة، وبَعثْت فوق الصحف بحروف لا يجف حبرها، أجسادًا واراها الثرى، وأثمر سعيك نبتًا نورانيًا يزهر بالحق المبتغى، فالتقى السؤال بالإجابات، وصار المكنون معلومًا...

اليوم قد أنجزت المهمة، وأتممت سياق التذكرة، وصار بمقدورك استدعاء ما شئت من بين الصحف المطوية، فأغمض عينيك، وأعمل قلبك، واتركه

ليقود روحك صوب ما استدعت من أوراق الماضي، ليستقيم تقييمك للواقع، وتجف منابع الدهشة...
اذكر من غاب يا (إبراهيم) واستدعه غدوة وعشيّا، وان تعثر استدعاء الجسد، استدعي ما تركه الجسد فوق الصحف من عمل لا تجف أحبارها...
مزق ما تلي عليك، وأعد كتابة الصحف في كل مرة يجوس في مقلتيك الشك فيما قرأت، توقف عن استخدام الحروف، وارسم صحفك، زينها بمن تحب، وبمن وددت لو لم يغب، امحِ من صحفك العنف، أزل كل إثم ترتكبه الأجساد بحق أرواحها، صحح ما أتى به من سبقوك بالمرور من هنا، دَوّن ما أوتيت من حكمة، واحذر الإتيان بخطيئة النسيان، واعلم أن إكسير الوفاء هو مفتاح الدعوة.. مطلقها وملبيها، كعهد كهنتنا منذ الأزل..
اليوم نتلو عليك قسم الكهنة وقد غدوت من الأخيار الـمُبَشِّرين، ليمسي التدوين واجبك المقدس، في كل جسد تحل به، إلى أن تقوم الساعة.

الشيخ الـمَـلِـيكي

(٢٩)

توطئة

وقفت غير قادر على المواجهة، تمنيت أن يأخذني النعاس في رحلة انقطاع عن الوعي، تدوم حتى أتجاوز الموقف، أرسلت (شريف) ليلتقيه داخل الصالة، وبقيت خارج صالة الوصول، قابعًا في سيارة (يحيى)، هو أيضًا لم يقوَ على المواجهة، و(حواء) آثرت أن يكون اللقاء في المنزل فظلت حبيسة غرفتها، راجية (جنة) ألا تغادر حتى تَلقى أباها، القادم محملًا بعقود من الزمان الهارب، أمي لم تبرح بيت شبرا، أما (يحيى)، فيبدو أنه قد شاركني ارتعاشة المفاصل، فأبى أن يحرك ساكنًا، وها هو مستلق إلى جواري، محاط بذات الخليط الفريد، من اللهفة والخوف. هل فهم (شريف) تخوفي؟ هل شعر بما يعتريني من شك؟ هل يعلم كم أحب جده؟ هل يستمر تواصلنا الذي بدأ بقراءة ما دوّنه أبي؟ ويزداد بحضوره، أم ينتهي بعودته؟ هل يبقى (يحيى) إلى جواري كما وعدني؟

سعدت بعودته، بما تحمله من دعم لجهد جهيد، بذلته رفقة (جنة) لانتشال أبي من مناجاة خاتمته، والآن وقد اكتمل النصاب، واجتمع الشتات فالتأم الجرح، يحل أوان الحصاد، أفكر، وأتخيل، فيستغرقني الترقب حتى أكاد أن أشتبك مع الضابط الواقف داخل صالة الوصول، فاصلًا بين القادم والمنتظر، الكل قد وجد مستراحه في مراوغة لحظة فاصلة كتلك، أبي وعمي ينتظران بالخارج، وإن كنت -لأول مرة- أجد ما يبرر هروبهما من المواجهة، وخلاف ثلاثتنا، لم يحضر أي من الباقين، (جنة) أرادت أن ترافقني ولكن أمها رجتها باكية أن تظل إلى جوارها، فرضخت لتعاطفها مع أمها، وتركتني وحدي، أواجه التحام الماضي البعيد، بالماضي القريب، وانصهارهما في بوتقة الغد، دمعت عيناي فور الإعلان عن وصول طائرته، تذكرت أمي، وقد رحلت، وهي الأكثر جدارة بحضور تلك اللحظة، وقد كانت من بدأت هذا الحراك المتأخر للبحث عن جدي الغائب،

منفذة لوصية جدتي (مريم). الوقت يمر متباطئًا كعادته حين يفترض به العدو، أجلس القرفصاء إلى جوار إحدى الحوائط وقد اكتظت المقاعد بالجلوس المترقبين، اللهم هبني من لدنك صبراً جميلا...

يا الله، ارحم ضعفي، وشد من أزري، فأنا في أمس الحاجة إلى مددك، اللهم لا تؤاخذني إن ظلمته يومًا، واغفر لي إن لعنته يومًا في سر أو جهر، أنت العفو الرءوف، العالم بما يجيش في صدري، الشهيد على أنني منذ أن لقيته في المستشفى في الكويت، قد سكنت روحي، وهجعت نفسي، وعملت بنصحه في ضوء تعاليمك السماوية، واليوم ألقاه، لأول مرة وقد قاربت الأربعين من عمري، وها أنا يا ذا الجلال راضٍ بقضائك، واثق فيما قدرته ولا يزال خفيًا عن مداركنا. هل تأخرت الرحلة!؟

تأخر (شريف) كعادته، اعتدلت في مجلسي، لألاحظ أن (يحيى) المتكئ برأسه على مقود السيارة يقظًا وقد ظننته ناعسًا، يبادرني بابتسامة منهكة ثم يغمض عينيه من جديد، أربت على رأسه بحنوّ، كم أحبه، وكم أنا سعيد بعودته، ليتني عملت بنصيحة عمتي (مريم) حين قالت ذات ليلة بعيدة، أنني إن ساعدته في الهرب، فلن يعينني هو على العودة! لم أفهم عبارتها في حينها ولم يستقر فحواها في قلبي، حتى اتضحت معالمها حين أمسى افتقادي له، واحتياجي لوجوده، ألمًا راسخًا، يتصاعد بوتيرة متسارعة كلما غربت شمس، أو خُسف في دروبي قمر جديد.

القمر مكتمل في هذه الليلة، لعل في ذلك فألًا حسنًا، كانت عمتي (مريم) تعشق القمر في اكتماله، وقالت إن أبي حين كان يتغزل في جمالها ويداعب حسنها، كان يصفها بأنها "قمر ١٤"، لم يحب أحد أبي كما عشقته عمتي (مريم)، ولم يؤمن به أحد ويدافع عنه كما كانت هي طيلة عمرها! (آدم) يشع توترًا بجواري، حاولت النوم هربًا من أعراض الترقب، فظل (آدم) يربت على رأسي وظهري حين اعتقد أنني غفوت، لم أتفهم كيف سمح

لفجوة كتلك أن تباعد بينه وبين ابنه (شريف)، وهو أب مفعم بالأبوة، يفيض من قسماته حنان يكفي عشرة أبناء وليس ابنًا واحدًا، يروي ظمأ من بترت طفولتهم بابتسامة حانية، ويعوض من هجرت دروبهم معاني الأمان، مثلي! من الجيد أن أرى علاقة (آدم) و(شريف) بمثل هذا التحسن المضطرد الآن، فأخي هذا قد خلق ليكون بالأساس أبًا!

الأبوة غريزة، أم فضيلة، أم خُلُق، أم تكليف؟ تَحَكُّم في المصائر أم تمهيد للطرقات وتنوير للدروب؟ هل بمقدور امرئ أن يستقيل من وظيفته كأب بين ليلة وضحاها؟ أوليس هذا ما فعله جدي، وكاد أبي أن يعيده معي دون أن يدري؟ هل كان هروبًا من الماضي، أم نفورًا من الحاضر؟ هل ضاق جدي ذرعًا بما كان؟ أم ضاق ذرعًا بتصور ما سوف يكون؟ هل كان الماضي بما حمله من مؤلمات ومنغصات، جدير بذلك الهجران؟ لماذا يغيب عن جنازة أمي، ويكون حاضرًا في جنازة (داليدا) ؟ لماذا تخلى عن عمي (يحيى)، وناضل في عدة جبهات حتى تمت إعادة رفاة سيدة جنوب إفريقية ماتت منذ قرنين من الزمان، من فرنسا إلى أقاصي القارة السمراء؟ قرأت عن "سارة بارتمان" في مذكراته، ورأيته حاضرًا في صورة جماعية مع نيلسون مانديلا، التقطت خلال الاحتفال بنقل الرفات عام ٢٠٠٢، ولكن، لماذا ارتأى جدي أن رفاة تلك الأفريقية، أحق بالرعاية من بنيه!؟ هذا الرجل لا يتوقف عن إدهاشي! أمضينا الأيام الفائتة في سماع تسجيل عمي (يحيى) له، وقراءة خطاباته المخبوءة وقد أطلقت جدتي سراحها، فَرِحنا نطالع صوره عبر الأزمان المتعاقبة حتى ألفنا مرآه، احترمت جدتي رغباتنا في النهاية، وانسحبت موكلة صمتها ليعلن اعترافها المنتظر بالندم، فهل يعود؟هل يحضر اليوم كما جاء في خطابه، أم يواصل نثر المحيرات، فيواصل الغياب عن الحاضر، مؤثرًا معانقة ذات الماضي من جديد؟

الماضي يقترب مع دنو اللقاء، حتى يبدو على وشك ملامستي، أهابه ولا أخافه، ألومه ولا أتوقف عن عشقه، فالقادم فوق صهوة الماضي، من بلدان

العجب وممالك الخيال، هو أبي، الذي هُجر دون إدراك، وعاد وقد استعادته المدارك... يعلو هاتف (يحيى) معلنًا عن اتصال من (شريف)، فأتنبه أن هاتفي مغلق وقد نفدت طاقته مثلي، أقترب من أخي محاولًا استراق السمع لحديث فتاي المغوار، الذي ذهب منفردًا لاقتياد ركب الماضي إلى سيارتنا هذه، تنتهي المكالمة سريعًا، ويقول (يحيى) أن الطائرة قد هبطت، وأن (شريف) قد تحقق من أسماء القادمين على متنها، يتوقف (يحيى) عن الكلام، ويتفجر الدمع من مقلتيه، فأجزع، أهدئ من روعه بأن أرحت وجهه المبلل فوق صدري المتهدج الأنفاس، فقال: اسمه موجود بين القادمين، لقد جاء بالفعل يا (آدم)!

لقد عاد، حاملًا مفاتيح خزائن الأسرار، عاد من رسَت أبياتي بضفاف ذكراه، غضبًا ورضاءً، ليبث الحياة في أوردة (آدم)، ويمنحني أسباب التشبث بجذور ظننت خطأً أنها لفظتني ذات يومٍ، هو من بيده فك الطلاسم، وإعادة الغرس، هو من جمعنا غيابه، وحتمًا سيؤلف وجوده بين قلوبنا أجمعين. يواسيني (آدم) حتى أهدأ وأستكين، فينخرط هو في بكاء طفل رضيع، هل يلتقي المأمول بالمعقول أخيرًا، هل ترضخ الحياة لأمانينا، فتنفح من روح الإله نسمات تحيل صيفنا ربيعًا؟

أيُعقل هذا؟ لقد حضر كما قال، وأوفى بما قطعه من عهد بالعودة، طلبت من الموظف إعادة التأكد من وجود اسمه بين الحضور، فأكد ذلك، أخرجت هاتفي، واتصلت بـ(جنة) فجاء صوتها لاهثًا، أخبرتها فأعلمت أمها لتتعالى أصوات تجمع ما بين البكاء وفَرِح الصياح، أنهت الاتصال في غمرة ابتهاجها، قرأت الفاتحة لأمي، ولعمتي (مريم)، أخذت أجري عدة اتصالات أخرى لنشر الخبر، كأنني أؤكد لنفسي ما سمعت، حتى توقفت حين بدأ ركاب الطائرة في الذوبان في صالة الوصول، وقفت فوق كرسي قفز منه شاغره للقاء حبيب، ثم استوقفت أحد الوافدين سائلًا عن رحلته وخط سيرها، فأجاب: - نعم، هذه طائرة المغرب.

(٣٠)

العودة

"ابنتي وقرة عيني (ملك)...
مر من صفحات الزمان قرابة أربعة عقود، منذ أن دونت ما دونته من حياتي أول مرة، وكم آلمني أن لم أتلق منك ردًّا، كان ليشع الضياء في دروب حلكت، فانحرفت عن مسار أردته لها ذات يوم، بيد أنني، لن أرمك بوابل من سهام اللوم، ربما لأنك لا تستحقين، وقد أيقظتني اليوم واحدة من الحقائق الغافيات، وهمست لي بسر صغير، فحواه، أنني لم أرسل لك شيئًا بعد! صباح اليوم، وأنا منهمك بترتيب سفري إلى (القاهرة)، وجدتني أبحث عن عنوانك، كي أرسل لك ما لم يرسل، فتكشفت أمامي حقيقة أخرى، هي أنني لا أعلم لك عنوان، فهل يدرك كلانا، ما تُفضي به وقائع كتلك؟ وهل تتسع مداركنا لتشمل كامل الحقيقة؟
تساءلت، إذن لمن أرسلت ما دونته أول مرة؟ فأجبت على تساؤلي مذكرًا بأنني أرسلته إلى بيت شبرا! اقترنت قناعتي بأهمية التدوين، بإيماني العميق بقدسية نقل المعارف الدنيوية، عبر حيوات متشابهات، متراميات في ردهات الأزمنة المتناحرة، تحمل كل حياة رسالة، تتناغم مع ما قبلها وما يليها، في نسق فريد أبدعه بارئها.
نسجت كلماتي بإيمان صادق، وقد شحذ من همتي، رغبتي في تنفيذ وصية (الشيخ المليكي)، الذي مرق في سماواتي، في فترات عدة من حياتي الأخيرة، مناديا بحتمية التدوين، بعد التنوير...
لسبب ما، أعدت تدوين ما أرسلته إلى (شبرا) عدة مرات وقد ظننت في حينها أنني فقدت المدونات الأصلية، وكنت كلما انتهيت من تدوين، وأضعته، أعدت كتابته، وهكذا أمسى لدي عدة نسخ لذات المدونات، خطتها ذات اليد، لذات الشخص، وحوت حكايات متشابهات، ولسن متطابقات... ثم جاءت ليلة ماطرة، رعدت فيها السماء، وزجرت في وجهي

حين كنت على أهبة الخروج من صومعتي، فأجلستني لأجمع تلك النسخ المدونة، ولأقارن فيما بينها، قضيت في ذلك أربعين يوماً، حتى انتهيت، فكان التشابه المحوري، هو رغبتي في ألا أنسى، وحرصي على أن يعلم أبنائي ما جرى، دون تدقيق فيما يسرد من وقائع، اختَلفت ما بين تدوين وآخر، فاعتراني غضب العاجزين، وقد ضاقت بي سبل التحقق من الذات، وصار القسم الأهم من حياتي مطموراً حيث لا أعلم! بيد أنني في ساعة من أواخر ساعات الصفا، وجدت ما دونته في جلساتي مع دكتور (روجيه)، إبان إقامتي في تونس في فترة من فترات العمل على واحد من أبحاثي، قال الدكتور (روجيه) آنذاك أن الحقائق مسجلة في قلمي، فإن حار العقل في أمره، وتلعثمت الكلمات فوق الشفاه، فاستدعيت قلمي ليسكن يميني، باحت حروفه بالحقيقة، وأمست هوامشه المستراح، أما ما دونته رفقة دكتور (روجيه) في حينها، فقد كان نسخة طبق الأصل من تدويني الأول، الحاضن للحقيقة الوحيدة فيما دونت. حدثني في الليلة التالية لكشفي هذا، صديق هندي، قضيت برفقته عدة سنوات خلال إقامتي في (أبو ظبي)، ولبيت دعوته لزيارة الهند في أحد الأعوام، حيث استنار عقلي بمطالعة الخبايا، وتحسس الخفايا، ودحر المزيد من الأضاليل والترهات، رويت له ما وجدت من مدونات، فأشار عليّ بحرق الزور، وإحالة الأباطيل رماداً، لطرد السحر، ودفع شيطانه الجاثم على صدري منذ زمن طويل، نفذت وصيته وحرقت نسخ المدونات التي حرفتها يدي الحائرات بإملاء من عقلي في نوبات التشوش، ليس إيمانًا بأنني مسحور، ولا دفعًا للشياطين، وإنما بغية إرساء حقيقة واحدة، في كل ميناء تماست به رحلتي، حفظًا للتاريخ، وتحقيقًا لقدسية التدوين.

قبل الاختتام، أترك تدويني الوحيد، بين يدي أبنائي، وما الحكم على المدوِّن لأحد سواهم، ذلك الأب الغائب، والطيف العابر في خيالات الطفولة، الإنسان، صاحب الفكر وصاحبه، وما حملته رؤاه ما بين حق وضلال.

حبيبتي (ملك)، هذه كلمات وداعي لك، وكم هو عجيب أن تفيض عيني بالدمع وأن أخط هذه الكلمات، الآن، بعد أن تيقنت من استحالة اللقاء، وتشككت في سابق اللقاءات، بيد أنني يا صغيرتي أودع معك أشياء عدة، لها ما لها، وعليها ما عليها، ذكريات وحكايات، قصاصات ومخطوطات وصور، نسجها من نسجها، فبزغت أمامي واقعًا ملموسًا، أنحيها جانبًا عن مجال رؤيتي لأول مرة، وأستعد للقاء أبنائي الذين لا يتذكر أحد منهم ملامحي، فقط بعد أن أنثر رماد هذه الرسالة بدورها، بعد حرقها، فور الانتهاء منها، وها قد انتهيت...

فإن حطَّت ذرة رماد ذات يوم، في موضع مرت به قدماي وأنا أبحث عنك، أو أطاردك ظنًّا أو يقينًا، وإن ذابت ذرة رماد أخرى، في بحار مشطتها، منقبًا عن إجابات لتساؤلات لا طاقة لبشر على تلاوة إجابتها، أو اختلطت ذرة رماد مما أحرقت، بقطرة مطر، سقطت على أرض قاحلة، فأزهرت بدفئها من رحم الرمال العطشى نبتًا يافعًا، هب ليواجه واقعه الصحراوي، بغزل أحلام تقطر اخضرارًا... فاعلمي أنني -رغم كل ما سبق- أحببتك أكثر مما أحببت نفسي، أكثر ما أحببت (مليكة)، وأكثر مما أحبني أبنائي، وإن كنت أجد لهم في ذلك كل عذر وتبرير.

رحلت ذات صباح، مطاردًا من الأمس، مكلفًا بسبر أغواره، وأعود هذا المساء، هاجع النفس وقد أضاعتني ضوال السبل، فإن أراد الله يا (ملك) أن يؤجل خلاص الروح من هذا الجسد البالي، فسوف أحرص على تعويض أبنائي وأحفادي عما أرغمت على حرمانهم منه، وأما إن آثر الإله تحرير روحي من إطارها، فكل ما آمله، هو أن يجد أبنائي وأحفادي في مدوناتي هذه، فوق متون أوراقي، ما يشفع لي أمامهم قبل اللقاء المحتوم.

(إبراهيم البنداري) | ٦ مايو ٢٠٠٩"

ينتهي العجوز من كتابه، ثم يعاود قراءة أقصوصة لـ"علاء الديب"، قوامها صفحتان من القطع المتوسط، يرى هو بين سطورها حيوات آلاف من

البشر، ضلت بهم دفات السفن، فحادت عن سبل الحلم، واستقرت في مستنقعات الحاضر الموهمات، يعيد فتح أوراقه، ويخط بيمينه:

"هل كان هروبي، دون أن أدرك في حينه، هو أمر منشأه خوف من ملاقاة مصير كمصير (سالم)، مسافر "علاء الديب" الأبدي!؟

هل لاقيت مصيراً مختلفًا بترحالي بين الأمكنة والأزمنة!؟ أم أنني عدت كما مضيت، هل استغرقني الخيال، أم تملك مني الخُبال؟ أم تُراني عاقل العقلاء أخطو على أسطر الزهو، متبخترا على إيقاعات الخيلاء!؟".

فرغ من خط كلماته الأخيرة على واحدة من أوراقه التي يعكس اصفرارها قدمها، عندما تنبه أنه أسند أوراقه على مجلة أتته بها المضيفة، وزين صدر غلافها، تنويه لحوارٍ مع واحد من كبار الحزب الحاكم في مصر، مرفق بصورة لهذا الرجل الحزبي البارز، ضحك لمطالعة صورة ابن عمه (حسن البنداري) وقد اصطبغ شعره بسواد لا يعكس حقيقة سنة التي تناطح الثمانين، أفرط في ضحكه حتى انتبه له الحاضرون، حين كان طيار طائرة مصر للطيران القادمة من (المغرب)، يطلب من المسافرين ربط الأحزمة، استعداداً للهبوط بمطار القاهرة.

حمل سنواته التي ناهزت الخمس والسبعين، وبدا نشيطًا بشكل لا يتسق مع عمره، انتصب متأهبَا، وبدا مظهره لافتًا لباقي المسافرين، بشعره الأشهب الذي طال حتى التقى بمنبت كتفيه، لحيته المشذبة القصيرة التي اختلطت ألوانها بين الأشهب والأبيض، حلّته البنية العتيقة الطراز، أسفل معطفه الشتوي ذي اللون الرمادي الداكن، نظارته ذات الإطار الأبيض، وحقيبته "السامسونايت" السوداء، التي برز منها أطراف لبضع أوراق، توحي بأن صاحبها أغلق حقيبته، دون اكتراث بترتيب ما بها.

هبطت الطائرة بنعومة، أدرك العجوز من موقعه بجوار النافذة أن طقسًا ماطراَ في انتظاره، أمسك بمظلته البيضاء التي كانت بجواره منذ البدء، بدأ المسافرون في المغادرة، انتظر حتى يصير آخرهم، علت ضربات قلبه، تبسّم، أخذ يرقب وجوه المغادرين بين شارد ومتلهف ومتردد، طالع

انعكاس وجهه في زجاج النافذة، فلم يجده متوجسًا أو قلقًا، عقد العزم ونهض، توجه بخطوات سريعة صوب باب الطائرة، لفحه هواء عنيف بارد فور أن وطئت قدماه أولى درجات سلم الهبوط.

- ليس هذه وقت العتاب...

قال باسمًا مخاطبًا الريح، وقد وجد في عنفها لومًا وعتابًا، تكاثرت قطرات المطر على عدستي نظارته، فأمست الرؤية مشوشة، كانت ورقته المصفرة لا تزال مطوية في يده، دسها في معطفه، وقد أجل حرقها، حتى يعقد المطر هدنته مع تلك المدينة المثقلة بهموم قاطنيها.

قادته قدماه حتى صالة الوصول والريح تواصل عتاباتها، أنهى إجراءاته سريعًا وقد كان لا يحمل بخلاف السامسونايت، إلا حقيبة واحدة صغيرة ألقى بها على كتفه، توجه صوب باب الخروج حيث صالة الاستقبال، وحيث المئات من البشر يبحثون عن أحبائهم، تذكر أنه لا يذكر ملامح أبنائه، ولا يملك سوى بضعة تخيلات مشوشة من طفولتهم، هم أيضًا لعلهم لا يعرفونه اليوم، ولعل خيالهم، لن يعينهم على تصور ما قد يفعله الزمان بوجه المرء طيلة خمسة وثلاثين عامًا، لعلهم لا يعلمون أن إزميل الزمن لا يرحم...

- تجاعيد وجهي أشبه بالأخاديد.. فليبحث كل منكم في خباياها عن ماضيه.

تمتم مخاطبًا موجات البشر التي لا ينقطع وصولها ورحيلها بغير نسق محدد، بحث عن مقعد فارغ يريح عليه جسده، لمحه شاب صغير باسم، تلمع في عينيه دموع جفت منذ قليل، نهض الشاب تاركًا له مجلسه، شكره العجوز، واستراح على مقعده، أخرج ورقته المصفرة مجددًا، قبل أن يجيبه الشاب:

- على الرحب والسعة يا جدي.

طالع الشاب، وتفحص ملامحه بهدوء، تبسم، ثم أطرق أرضًا، شعر بغربة تلُفه، وبأن تمنيات معلقات، قد تدلين من السماء حتى بلغن مجلسه،

هائمٍ الروح تشبث ببعض منهن، فاختلط الواقع بالمأمول، وظل هو مشتتاً، تتضارب في عقله أفكار عدة، وتتداخل الوجوه والأماكن في مخيلته، فيطوف في حلقات من أطياف الماضي، وظلال الحاضر، حتى يستقر في دائرة لها أكثر من مركز، فتزداد حيرته، وتتعاظم دوافع قلقه.

تمت بحمد الله

محمد سمير ندا

بدأت كتابة الرواية في ١٠ مارس ٢٠١٠
وانتهيت في القاهرة يوم ٣١ يوليو ٢٠١٥

قول مأثور

"إن كل ما أصبو إليه حين أعانق قلمي وأوراقي، هو أن أحرك العقول فيما أكتبه، لست ممن يكتبون لقارئ يداعب النوم جفونه، بل أزعم إنني ممن يؤمنون، بأن القارئ شريك في مضمون الرواية، وقيمتها المستخلصة، بالسلب أو بالإيجاب، ذلكم أن القارئ لا يُملَى عليه انطباع بعينه، بل يُكَوِّن (منفردًا) عالمه الخاص على متون ما أكتب"!

سمير ندا | ١٩٣٨-٢٠١٣

الهوامش

(١) **الملك فؤاد الأول**

هو فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا. حكم مصر من عام ١٩١٧ حتى وفاته عام ١٩٣٦.

(٢) **الملك فاروق**

ولد في عام ١٩٢٠ وهو ابن الملك فؤاد الأول من الملكة نازلي، آخر الملوك المصريين، الذي تولى حكم مصر إثر وفاة والده عام ١٩٣٦ تحت الوصاية حتى بلغ عامه الثامن عشر في يوليو ١٩٣٧، واستمر فوق عرشه حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢. توفي في منفاه في روما عام ١٩٦٥، ولم يتأكد سبب وفاته ما بين ادعاءات موته بالتخمة (الإكثار من الطعام)، وأقوال أخرى بأنه قد تم اغتياله بالسم.

(٣) **الأمير محمد علي توفيق**

الأمير محمد علي باشا توفيق، ولد بالقاهرة عام ١٨٧٥ ابن الخديو محمد توفيق وشقيق الخديو عباس حلمي، وكان وصيا على العرش ما بين وفاة الملك فؤاد الأول وبلوغ الملك فاروق سن الرشد، وتوفي عام ١٩٥٤.

(٤) **علي باشا ماهر**

سياسي مصري بارز، ذو أصول شركسية، شارك في ثورة ١٩١٩ وتولى وزارة المعارف عام ١٩٢٥ وشغل منصب رئيس وزراء مصر أربع مرات، كما شغل منصب رئيس ديوان الملك فؤاد في عامه الأخير. توفي عام ١٩٦٠.

(٥) **أسماء بنت خمارويه**

أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لقبت بقطر الندى نظرًا لما أحاط حفل زفافها من مظاهر الأبهة والعظمة، حين زوّجها أبوها من الخليفة العباسي المعتضد بالله. توفيت قبل أن تبلغ عشرين عاما عام ٩٠٠م.

(٦) **حي أرض اللواء**

حي سكني في محافظة الجيزة، في عام ٢٠٠٦ بلغ تعداد قاطنيه ٨٣٤٢٠ مواطنًا.

(٧) **أحمد شوقي**

أحد أعظم شعراء العربية في العصور الحديثة، لقب بـ"أمير الشعراء"، ولد لأب كردي وأم من أصول تركية عام ١٨٦٨، وتوفي عام ١٩٣٢.

(٨) **مهنة "السقا"**

وظيفة قديمة نشأت واستمرت حتى منتصف القرن الماضي. وهو الشخص الذي يعمل على نقل المياه من الخزانات إلى البيوت في قرب مصنوعة من جلد الماعز.

(٩) **جمال عبد الناصر**

أحد قادة ثورة ١٩٥٢، ولد عام ١٩١٨، وكان ثاني من يتقلد منصب رئيس الجمهورية منذ عام ١٩٥٦ وحتى توفي عام ١٩٧٠.

(١٠) **البوصيري**

هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري ولد عام ١٢١٣ في قرية بوصير في بني سويف، وهو شاعر اشتهر بمدائحه النبوية. أشهر أعماله البردة المسماة "الكواكب الدرية في مدح خير البرية"، توفي عام ١٢٩٥.

(١١) **طقس العماد**

طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان للحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المُعمّد بالماء والرشم بزيت الميرون. ويعتبر سر المعمودية أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية.

(١٢) **وفاء قسطنطين**

مهندسة زراعية مصرية، وزوجة لكاهن مسيحي في محافظة البحيرة، قيل إنها اعتنقت الإسلام وأثير حولها جدل عظيم في عام ٢٠٠٨ بعد عودتها إلى الكنيسة وترهبنها، اختفت عن الأنظار منذ ذلك التاريخ، ما بين ادعاءات إسلاميين بأنها قد قتلت، وتأكيدات الكنيسة أنها على قيد الحياة، على إثر اختفائها قام تنظيم القاعدة لاحقًا بقتل ٥٠ مسيحيا في أحد كنائس بغداد.

(١٣) **لوحة العشاء الأخير**

اللوحة الأصلية من إبداع الفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي عام ١٤٩٨، وتحمل تصويرا لآخر ما احتفل به يسوع مع تلاميذه، قبل أن يتم اعتقاله ومحاكمته وصلبه. وهو الحدث الذي أسس لسر القربان، وقدّم فيه يسوع خلاصة تعاليمه.

(١٤) **الكنيسة المرقسية في الإسكندرية**

أول كنيسة في إفريقيا نظرًا لتأسيسها في ذات الموقع الذي شيدت فيه الكنيسة الأولى: كنيسة بوكاليا، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى الشهيد مارمرقس الذي دفن بها عام ٦٨م، حتى سرق جسده ونقل إلى روما عام ٨٢٨م.

(١٥) **الشمّاس**

الشماس هو خادم الكنيسة وهو من يقوم بمعاونة الكاهن في أداء الخدمات الدينية والصلوات الكنسية.

(١٦) **مسجد السيد البدوي**

أكبر مساجد مدينة طنطا ومحافظة الغربية، وأشهر مساجد منطقة الدلتا، وبلغت مساحته بعد إعادة بنائه في القرن الرابع عشر الهجري ٦٣٠٠ متر. وهو مربع الشكل. وهو عبارة عن صحن تحيط به الأروقة من جميع الجهات وتغطي الصحن قبة مرتفعة، وفي الجهة الغربية للمسجد ثلاثة أضرحة أكبرها ضريح السيد البدوي.

(١٧) **بهاء طاهر**

أديب وروائي مصري كبير من مواليد عام ١٩٣٥، ينتمي إلى جيل الستينيات، فاز بجائزة البوكر العالمية للرواية العربية عام ٢٠٠٨ عن روايته "واحة الغروب". حاصل على ليسانس آداب شعبة تاريخ عام ١٩٥٦ من جامعة القاهرة، ودبلوم الدراسات العليا في الإعلام شعبة إذاعة وتلفزيون سنة ١٩٧٣.

(١٨) **محمد المنسي قنديل**

من كبار الروائيين المصريين، ولد بمدينة المحلة الكبرى بمحافظة الغربية في عام ١٩٤٩م، تخرج في كلية طب المنصورة عام ١٩٧٥م، فازت روايته "قمر على سمرقند" بجائزة مؤسسة نجيب ساويرس للأدب عام

٢٠٠٦، ووصلت روايته "يوم غائم في البر الغربي" إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العالمية للرواية العربية عام ٢٠١٠.

(١٩) إبراهيم أصلان

واحد من أبرز كُتّاب جيل الستينات من القرن الماضي، ولد بقرية شبشير الحصة التابعة لمركز طنطا بمحافظة الغربية عام ١٩٣٥، أُدرجت روايته "مالك الحزين" ضمن أفضل مائة رواية في الأدب العربي. رحل عن عالمنا عام ٢٠١٢.

(٢٠) يوسف زيدان

باحث ومفكر وفيلسوف مصري متخصص في التراث، ولد عام ١٩٥٨ في مدينة سوهاج، له عديد المؤلفات والأبحاث العلمية في الفكر الإسلامي والتصوف وتاريخ الطب العربي، علاوة على منتجه الأدبي المتميز، الذي أهلّه للفوز بجائزة البوكر العالمية للرواية العربية عام ٢٠٠٩.

(٢١) مكاوي سعيد

روائي مصري من مواليد القاهرة في عام ١٩٥٦، درس التجارة في جامعة القاهرة، وحصل على لقب شاعر الجامعة عام ١٩٧٩. من أشهر أعماله "تغريدة البجعة"، التي بلغت القائمة القصيرة لجائزة البوكر العالمية للرواية العربية عام ٢٠٠٨.

(٢٢) خيري شلبي

كاتب وروائي مصري. ولد بقرية شباس عمير بمركز قلين بمحافظة كفر الشيخ عام ١٩٣٨، حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ١٩٨٠، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في ذات العام، وجائزة أفضل رواية عربية عن رواية "وكالة عطية" عام ١٩٩٣، وجائزة التفوق عام ٢٠٠٢، وجائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن رواية "وكالة عطية" عام ٢٠٠٣، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب ٢٠٠٥، رشحته مؤسسة "إمباسادورز" الكندية للحصول على جائزة نوبل للآداب. رحل عن عالمنا في عام ٢٠١١.

(٢٣) نجيب محفوظ

الروائي المصري العظيم، صاحب أول جائزة نوبل عربية عام ١٩٨٨. ولد في حي الجمالية عام ١٩١١، ونال عدة جوائز مصرية وعالمية خلاف جائزة نوبل وقلادة النيل.

بسبب روايته الممنوعة لفترة طويلة "أولاد حارتنا"، تعرض لمحاولة اغتيال بالطعن على يد شابين لم يقرأ أي منهما الرواية!

(٢٤) جارسيا ماركيز

جابرييل خوسيه جارثيا ماركيز، روائي وصحفي وناشر وناشط سياسي كولومبي، ولد في مدينة أراكاتاكا الكولومبية عام ١٩٢٧، قضى معظم حياته في المكسيك وأوروبا. يعد من وراد مدرسة الواقعية السحرية أو العجائبية التي تنتمي لها رائعته الخالدة "مائة عام من العزلة". حصل على العديد من الجوائز والأنواط والأوسمة خلال مسيرته الحافلة، وأهمها جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢.

(٢٥) باولو كويلهو

روائي وقاص برازيلي. ولد في ريو دي جانيرو عام ١٩٤٧، مارس التمثيل والإخراج المسرحي وتأليف الأغاني قبل تفرغه للكتابة. عينته الأمم المتحدة سفيراً للسلام عام ٢٠٠٧، رواية "الخيميائي" هي روايته الأشهر، حيث تمت ترجمتها إلى ٨٠ لغة وبلغت مبيعاتها ١٥٠ مليون نسخة في أرجاء العالم كافة.

(٢٦) أوناسيس

رجل الأعمال اليوناني المولود في عام ١٩٠٦. يعد أحد أغنى أغنياء القرن الماضي، كان يملك أسطولًا من السفن التجارية وناقلات الزيت، وأسس الخطوط الجوية اليونانية عام ١٩٥٧، اشتهر حفل زفافه على جاكلين كينيدي عام ١٩٦٨ كأحد أكثر الأعراس ترفًا وبذخًا في التاريخ الحديث.

(٢٧) إبراهيم عبد القادر المازني

شاعر وناقد وصحفي وكاتب روائي مصري يعد رائد الأدب الساخر في النصف الأول من القرن العشرين. ولد عام ١٨٨٩ في القاهرة، ويرجع نسبه إلى قرية "كوم مازن" التابعة لمركز تلا بمحافظة المنوفية. من أشهر أعماله "إبراهيم الكاتب"، و"إبراهيم الثاني"، كانت له نقاشات ومجادلات ثقافية وشعرية عديدة، وله مقالات صحفية أدبية واجتماعية جمعت في كتاب حصاد الهشيم، وكذلك كتاب صندوق الدنيا. توفي عام ١٩٤٩ في القاهرة عن ٦٠ عامًا.

(٢٨) يباشيف

هو ميخائيل أرتسيباشيف، كاتب روسي من مواليد عام ١٨٧٨، أشهر أعماله رواية (سانين)، التي ترجمها إبراهيم المازني إلى العربية باسم "سانين - ابن الطبيعة". توفي عام ١٩٢٧.

(٢٩) العقاد

هو عباس محمود العقاد، المفكر والشاعر والكاتب الفيلسوف المصري المولود في أسوان عام ١٨٨٩، لأب مصري وأم كردية نزحت مع عائلتها من ديار بكر. عمل بعدة وظائف حكومية وكان عضواً بمجلس النواب في وقت من الأوقات، له ما يزيد عن المائة كتاب والخمس عشرة ألف مقالة، نال عشرات الجوائز. توفي عام ١٩٦٤ دون أن يتزوج.

(٣٠) كتاب "دلالة الحائرين"

أحد أعظم كتب المفكر الحاخام العربي "أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي"، كتبه في القرن الثاني عشر كرسالة مكونة من ثلاثة مجلدات إلى تلاميذه. تحمل تفنيدًا لآرائه بالشرائع اليهودية، واللاهوت اليهودي وعلاقة الفلسفة بالدين، هو أشهر كتب الديانة اليهودية انتشاراً في الأوساط غير اليهودية، كما نال الكتاب شهرة واسعة في المجتمعات اليهودية، ما بين إعجاب، وتعرض للنقد، بلغ حد الحظر وحتى الحرق من قبل بعض المتطرفين اليهود!

(٣١) ديكارت

هو الفرنسي رينيه ديكارت المولود في عام ١٥٩٦، وهو فيلسوف وعالم رياضيات وفيزيائي، لقب بـ"أبو الفلسفة الحديثة"،

نسبة لكتابه العظيم "تأملات في الفلسفة الأولى" الذي كتبه عام ١٦٤١، ويعد حتى اليوم بمثابة المرجع القياسي لمعظم كليات الفلسفة حول العالم. رحل عن عالمنا في عام ١٦٥٠.

(٣٢) بحر البسيط

أحد بحور الشعر، وسمي بالبسيط لأنه انبسط عن مدى الطويل، وجاء وسطه فعلن وآخره فعلن.

(٣٣) الوحدة مع سوريا

كانت أولى ثمرات حلم عبد الناصر بالوحدة العربية، وربما آخرها. تمت عام ١٩٥٨ بتوقيع ميثاق الجمهورية العربية المتحدة، بين كل من جمال عبد الناصر وشكري القوتلي رئيس سوريا آنذاك. انتهت الوحدة سريعًا عام ١٩٦١ إثر انقلاب عسكري في دمشق، لتبدأ مراحل تشكك الشعوب في قابلية الوحدة العربية في التحقق من الأساس!

(٣٤) حرب ١٩٦٧

كانت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ وعرفها المصريون بالنكسة، عقب تدمير القسم الأعظم من القوات الجوية المصرية في مطاراتها، وخسارة سيناء. عكست هزيمة ١٩٦٧ حالة التراخي والتفكك في حكومة عبد الناصر، وشهدت واحدة من أكبر حالات التضليل الإعلامي منذ نشأة الأدوات الإعلامية، أعقب الهزيمة تنحي عبد الناصر ثم عودته إثر تظاهرات شعبية، ونتج عنها الإطاحة بعبد الحكيم عامر وزير الحربية آنذاك، وما تلاه من انتحاره الغامض. نتج عن هزيمة ١٩٦٧ شرخ نفسي غائر في صدور أجيال عاصرت الهزيمة، واعتنقت الحلم، وأجيال أخرى لحقت بها، ولم تلحق بالحلم.

(٣٥) مصطفى كامل

زعيم سياسي مصري. ولد في عام ١٨٧٤ في قرية كتامة التابعة لمركز بسيون بمحافظة الغربية، كان والده ضابطًا في الجيش المصري. أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء، ويعد من أكبر المناهضين للاستعمار وعرف بدوره الكبير في مجالات النهضة التعليمية وتأسيس الجامعة الوطنية، والمناداة بتوثيق الروابط مع الدولة العثمانية، أثمرت جهوده المتواصلة في فضح جرائم الاحتلال في المحافل الدولية خاصة بعد مذبحة دنشواي التي أدت إلى سقوط اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر. توفي عام ١٩٠٨ عن ٣٤ عامًا.

(٣٦) جريدة "لو فيجارو"

لو فيجارو (Le Figaro) صحيفة يومية فرنسية ليبرالية محافظة، يتم تحريرها في باريس، تعتبر إلى جانب صحيفة "لوموند" الفرنسية أحد أهم صحف الرأي الفرنسية. تأسست عام ١٨٢٦.

(٣٧) حادثة دنشواي

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ في عهد الخديو عباس حلمي الثاني، قامت جماعه من الضباط الإنجليز برحلة لصيد الحمام بجوار قرية دنشواي في محافظة المنوفية، بدعوة من أحد اعيان القرية، أثناء الصيد، أصابت

رصاصة طائشة جرنًا من أجران الفلاحين، فاشتعلت به النيران، ثار الفلاحون وهاجموا الضباط الإنجليز، فأصاب الإنجليز الذعر وأطلقوا سيقانهم للريح، وكذلك أطلقوا نيرانهم بلا هدف، فأصابت واحدة من سيدات القرية فأسقطتها جريحة، أحاط بهم الفلاحون وقاموا بضربهم. فهرب منهم الضباط، ليموت أحدهم متأثرًا بضربة شمس، فعقد المحتل الإنجليزي محاكمة هزلية ترأسها قضاة مصريون، أصدرت حكمًا بالأشغال الشاقة على ١٢ فلاحًا، وجلد البعض، وإعدام ٤ فلاحين.

(٣٨) **الخديو عباس حلمي الثاني**

هو ابن الخديو توفيق ابن الخديو إسماعيل بن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا، سابع حكام مصر من أسرة محمد علي، نصب خديويًا على مصر في يناير ١٨٩٢ قبل يوم من وفاة والده المريض، حكم مصر حتى عزله الإنجليز في سبتمبر ١٩١٤. في عهده وقعت حادثة دنشواي وكان آخر حكام مصر الذين لقبوا بلقب خديو. توفي في منفاه عام ١٩٤٤.

(٣٩) **اللورد كرومر**

اللورد كرومر إڤلين بارنك، رجل دولة ودبلوماسي وإداري مستعمرات بريطاني. ولد في عام ١٨٤١، أمضى لورد كرومر في مصر ما لا يقل عن ربع قرن قابضًا على زمام السلطات (١٨٨٢ - ١٩٠٦) وأتيح له قبلها أن يقضي وقتًا في الهند، درس خلاله مناهج الاستعمار البريطاني هناك، وقد عمل أول مرة في مصر مندوبًا لصندوق الدين المصري ١٨٧٧، ثم ما لبث أن عين بعد الاحتلال البريطاني مباشرة مندوبًا ساميًا ومعتمدًا لبريطانيا. رحل عن مصر في أعقاب حادث دنشواي، وتوفي عام ١٩١٧.

(٤٠) **ثورة ١٩١٩**

احتجاجات شعبية نشأت وتصاعدت ضد السياسة البريطانية في مصر عقب الحرب العالمية الأولى، بقيادة الوفد المصري الذي أسسه ورأسه حينها سعد زغلول ومجموعة كبيرة من السياسيين المصريين، وجاءت غضبة المصريين على الاحتلال الإنجليزي إثر تغلغله في شئون الدولة الذي بلغ جد إلغاء الدستور وفرض الحماية وإعلان الأحكام العرفية، واستئثار المصالح الأجنبية على اقتصاد الدولة، ونفي سعد زغلول إلى جزيرة مالطا. بدأت أحداث الثورة في صباح يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩، بقيام الطلبة بمظاهرات واحتجاجات في أرجاء القاهرة والإسكندرية وعدة مدن وأقاليم أخرى. تصدت القوات البريطانية للمتظاهرين بإطلاق الرصاص عليهم، مما أدى إلى سقوط قتلى وجرحى. استمرت أحداث الثورة إلى شهر أغسطس وتجددت في أكتوبر ونوفمبر، لكن وقائعها السياسية لم تنقطع واستمرت إلى عام ١٩٢٢، وبدأت نتائجها الحقيقية تتبلور عام ١٩٢٣ بإعلان الدستور والبرلمان، وما تلا ذلك بعودة سعد زغلول، وتشكيله للوزارة عام ١٩٢٤.

(٤١) **هيرمان هسه**

كاتب سويسري من أصل ألماني، ولد عام ١٨٧٧ في ألمانيا، عاش بداية شبابه مع عائلته المحافظة المدافعة عن البروتستانتية بشكل مفرط، وكان هذا السبب -على ما يبدو- هو أحد أهم دوافعه للهرب والاستقلال عن السلطة العائلية، والاعتماد على نفسه والانخراط في مجال العمل وبشكل قاس. ألف روايات فلسفية عديدة ومتنوعة؛ وكان يغلب على بعض الروايات طابع التفكر العقائدي المتشكك مثل روايتي "سانين" و"دميان". حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦، وتوفي عام ١٩٦٢.

(٤٢) سدهارتا

أحد أهم أعمال "هيرمان هسه"، وتدور أحداثها في عصر بوذا في الهند عام ٤٥٠ قبل الميلاد، لتحمل صفحات الرواية ذلك السحر الذي يرحل بالقارئ إلى العوالم الروحانية المنبثقة عن تلك الفترة، وتحكي عن رحلة "سدهارتا" الذي عاصر بوذا، وسمع تعاليمه، لكنه يرفض التبعية له ولأي معلم آخر، فيقرر المضي في رحلة بحث عن الذات، بغية الوصول إلى اليقين والسلام.

(٤٣) الثورة المهدية

سميت بالثورة المهدية نسمة إلى زعيمها "محمد أحمد المهدي" وقامت عام ١٨٨٥ ردًا على مظالم الحكم التركي المصري. وقد بنى محمد المهدي دعوته على فكرة دينية تقوم على المهدي الذي يظهر في أواخر الزمان ليملأ الأرض عدلًا من بعد تفشي الظلم والجور، فاستجاب السودانيون للمهدي بقوة مكنته من هزيمة القوات الحكومية وقتل الجنرال البريطاني "تشارلز جوردون" الحاكم العام، والسيطرة على السودان. توفي المهدي بعد انتصاره بفترة قصيرة، ليخلفه "عبد الله التعايشي" الذي حارب أهل الحبشة، وحاول غزو مصر واستمر حكمه حتى عام ١٨٩٩ حين غزا الإنجليز السودان وألحقوا بجيوش المهدية هزيمة نكراء في "كرري"، وتوالت المواجهات حتى قُتل الخليفة في معركة "أم دبيكرات" لتنتهي المرحلة المهدية، وتبدأ فترة الحكم الثنائي للسودان.

(٤٤) ثورة عرابي

هي الثورة التي قادها أحمد عرابي في فترة بين عامي ١٨٧٩ و١٨٨٢ ضد الخديو توفيق ومعيته الأوربيين، بهدف خلق حياة نيابية دستوريه في مصر. سماها أعداؤها من الرجعيين "الهوجة" و"العصيان العسكري". بدأت بحوادث قصر النيل وعابدين في فبراير ١٨٨٢ ليشكل إثرها محمود سامي البارودي وِزارة الثورة، التي ضمت أحمد عرابي وزيرًا للجهادية والبحرية. واستمرت المواجهات مع الخديو وحليفه البريطاني، حتى كان القصف الإنجليزي للإسكندرية، الذي تلاه انتصار عرابي في موقعة كفر الدوار، ثم توالت الخيانات والوشايات التي تداعت إثرها الثورة، وبدأت فترة الاحتلال البريطاني لمصر. تم نفي عرابي إلى سيلان نهاية عام ١٨٨٢ عقب انهيار الثورة، ولكنه عاد في عام ١٩٠٣ ليبقى في مصر حتى يلقى ربه عام ١٩١١.

(٤٥) محمد نجيب

سياسي وعسكري مصري، ولد في السودان عام ١٩٠١، التحق بكلية جوردن ثم بالمدرسة الحربية وتخرج فيها عام ١٩١٨، وكان أول ضابط في الجيش المصري يحصل على ليسانس الحقوق علاوة على شهادته العسكرية. هو أول رئيس لجمهورية مصر بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣، يعتبره البعض قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي انتهت بعزل الملك فاروق وإسقاط الملكية. تولى منصب رئيس الوزراء عام ١٩٥٤، وتم عزله في ذات العام، وحددت إقامته، فاختفى عن الأضواء حتى توفي عام ١٩٨٤.

(٤٦) منطقة أتريب

تقع داخل مدينة بنها في محافظة القليوبية، ويرجع إنشاؤها إلى الأسرة الرابعة الفرعونية، وهي الأسرة التي أسسها الفرعون سنفرو حوالي عام ٢٦١٣ قبل الميلاد. وكانت عاصمة المقاطعة العاشرة أو المقاطعة الأتريبية كما كان يطلق عليها، وكان معبود ساكنيها المفضل هو الإله حورس. عمر مدينة أتريب يزيد اليوم عن ٤٦٠٠ سنة.

(٤٧) ملوي

تقع جنوب محافظة المنيا حيث يحدها من الشمال مركز أبو قرقاص ومن الجنوب مركز دير مواس. وتبعد مدينة ملوي عن القاهرة بمسافة ٢٧٠ كم، وعن مدينة المنيا عاصمة الإقليم بمسافة ٤٥ كم.

(٤٨) أبو قرقاص

هي إحدى مدن محافظة المنيا المصرية، وتقع إلى الجنوب من مدينة المنيا، أي أنها تقع بين مركز المنيا (شمالًا) ومركز ملوي (جنوبًا)

(٤٩) يُحنس السنهوري

قديس مسيحي ولد في قرية سنهوت من أب اسمه مقار وأم اسمها حنة. تقول الرواية القبطية لحياته، أنه في يوم من الأيام، وهو يرعى غنم أبيه، ظهر له ملاك الرب وأراه إكليلًا من نور وطلب منه أن يمضي للجهاد باسم السيد المسيح، فاستشهد في أتريب.

يرقد جسده في شبرا الخيمة، وله قداس سنوي يقام في ذكرى وفاته يوم ٨ بشنش وفقًا للتقويم القبطي.

(٥٠) فان جوخ

هو "فينسنت فيليم فان جوخ"، أحد أشهر وأعظم الرسامين الهولنديين، وواحد من أهم فناني المدرسة الانطباعية، عانى من نوبات متكررة من المرض العقلي، إلا أنه كان يعد أحد أشهر فناني التصوير التشكيلي. رسم خلال السنوات الأخيرة من عمره أكثر من ٨٠٠ لوحة زيتية.

(٥١) جان جينيه

شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي، ولد عام ١٩١٠ في باريس لأب مجهول، عانى كثيرًا في بداياته وسجن أكثر من مرة، بدأ حياته شاعرًا فكتب أولى قصائده في السجن، كما

كان الحال مع أولى مسرحياته فيما بعد. عرف بأسلوبه الغني المتميز، وناقش في مؤلفاته قضايا الإنسان كافة ما بين مجابهة الشر والألم والجنس، كان من أشهر المدافعين عن حقوق اللاجئين الفلسطينيين وزار المخيمات في لبنان والأردن. من أشهر أعماله مسرحية "الخادمات". توفي في عام ١٩٨٦.

(٥٢) السيدة خديجة

خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية، ولدت عام ٥٥٦م، هي أم المؤمنين وأولى زوجات النبي محمد وأم كل أبنائه ما عدا ولده إبراهيم، وظلت على ذمة النبي حتى لقيت ربها عام ٦٢٠م.

(٥٣) ورقة بن نوفل

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى بن قصي، ابن عم خديجة بنت خويلد، زوجة النبي محمد، عرف عنه أنه كان يقرأ التوراة، كما عرفه بعض المؤرخين بصفته نصرانيا. شغل منصب قس مكة حين نزل الوحي على النبي محمد. حتى أن النبي محمد قد وصفه بالقس في أحد الأحاديث النبوية، بيد أن المؤرخين قد أجمعوا على درايته الواسعة بعلوم الأديان كافة، هو أول من بشر السيدة خديجة بنبوة محمد. وفي أواخر الأعوام نقل عنه أنه كان ضريرا، عرف عنه نظم الشعر، وتوفي عن عمر جاوز المائة عام.

(٥٤) أفلاطون

هو أرستوكليس بن أرستون، فيلسوف يوناني، وعالم رياضيات، ولد عام ٤٢٧ ق. م. له إرث لا يقدر بثمن من المحاورات الفلسفية، وهو أيضاً مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي. أسس أفلاطون المنهج الأول للفلسفة الغربية، وكان تلميذًا لسقراط، وكان تأثره بأفكاره وإعدامه الظالم جد عظيم. ومن الثابت تاريخيا وفاته عام ٣٤٧ ق. م في نفس يوم ميلاده.

(٥٥) مليتوس

واحد من ثلاثة رجال تولوا توجيه الاتهامات لسقراط في "محاكمة سقراط" التي صاغها أفلاطون.

(٥٦) سقراط

فيلسوف يوناني، ولد عام ٤٦٩ ق. م. يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية، لم يترك أي كتابات، ومعظم ما نقل عنه مستقى من روايات تلامذته عنه. تعتبر حوارات "أفلاطون" من أكثر الروايات شموليةً وإلمامًا بشخصية "سقراط" الذي تمحورت إسهاماته حول علم الأخلاق بالأساس. توفي عام ٣٩٩ ق. م، بعد أن رفض تغيير ما صدر عنه من أفكار أطروحاته، فحكم عليه بالموت بأن يتجرع سمّ قاتلًا.

(٥٧) شهدي عطية الشافعي

سياسي شيوعي مصري، ولد في مدينة الإسكندرية عام ١٩١١، انضم إلى تنظيم "إسكرا" الشيوعي في شبابه، وكتب بالتعاون مع محمد الجبيلي وثيقة "أهدافنا الوطنية"

التي نشرت عام ١٩٤٥. أسهم في تأسيس اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، وكتب كتاب "تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦" الذي يعد واحدًا من أهم القراءات الوطنية من المنظور الماركسي. نشر عددًا من القصص القصيرة. تدهورت علاقات الشيوعيين بالنظام الناصري بسبب معارضة الشيوعيين العراقيين والسوريين للوحدة المصرية السورية بقيادة عبد الناصر في فبراير ١٩٥٨. تم اعتقاله عام ١٩٥٩ مع مئات من الشيوعيين. وحوكم أمام محكمة عسكرية، وعرفت قضيته آنذاك بقضيه الـ 48 نسبة إلى عدد المعتقلين بها، نُقل من سجن الحضرة إلى أبو زعبل، حيث تعرض هناك إلى أنواع التعذيب كافة: الضرب بالجنازير، والتعرية والسحل بالخيل، فقضى نحبه من شدة التعذيب في يونيو ١٩٦٠.

(٥٨) سيد قطب

هو سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، من مواليد قرية موشا بمحافظة أسيوط علم ١٩٠٦، وهو كاتب وأديب ومنظر إسلامي مصري وعضو سابق في مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين ورئيس سابق لقسم نشر الدعوة في الجماعة ورئيس تحرير جريدة الإخوان المسلمين. يعتبر سيد قطب من أكثر الشخصيات تأثيراَ في الحركات الإسلامية التي وجدت في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، ويرجع إليه بعض المحللين والمؤرخين التأسيس لمنهج العنف وأيديولوجية التكفير في التيارات الإسلامية، تم إعدامه في ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م.

(٥٩) محمد علي الكبير

هو "محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القوللي" المولود في مقدونيا عام ١٧٦٩، لُقب بعزيز مصر، وهو مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، وعُرف بأنه مؤسس مصر الحديثة. استطاع أن يعتلي عرش مصر عام ١٨٠٥ إثر مبايعة أعيان البلاد ليكون واليًا عليها، بعد أن ثار الشعب على سلفه خورشيد باشا. استمر في حكم مصر طيلة ٤٣ عامًا، ليكسر العادة العثمانية التي كانت لا تترك واليًا على مصر لأكثر من عامين، خشية ارتباط الشعوب بحاكمها، توفي في عام ١٨٤٩م.

(٦٠) بوجيرو

هو ويليام أدولف بوجيرو، رسام أكاديمي فرنسي ولد في عام ١٨٢٥، ينتمي للمدرسة الواقعية. انتقى أسلوبه من الأساليب السائدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فصار مزيجًا من الكلاسيكية الحديثة والرومانسية مع لمسة من المثالية. تتناول معظم أعماله المواضيع الأسطورية والتمثيلية والتاريخية والدينية، متجسدةً في البورتريهات وصور العراة وصغار المزارعين.

(٦١) كافيه ريش

أسسه ألماني في عام ١٩٠٨م، وقد شُيد على أنقاض قصر محمد علي بوسط القاهرة قرب ميدان طلعت حرب، يعد أكبر تجمع للمثقفين والسياسيين المصريين والعرب منذ بدايات القرن الماضي. يقع قرب ميدان طلعت حرب، وتأسس عام ١٩٠٨. بيع

المقهى عام ١٩١٤ للفرنسي "هنري بير" الذي أعطى له اسم "ريش" ليتشابه بهذا الاسم مع "كافيه ريش"، أحد أشهر مقاهي باريس القائمة حتى اليوم. قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى اشتراه تاجر يوناني مشهور من صاحبه الفرنسي، وعمل على توسعته وتطويره، ثم انتقلت مليكته إلى المصري مجدي ميخائيل، الذي رحل عن عالمنا في عام ٢٠١٥.

(٦٢) **آتوم وتاسوعه المقدس**

الإله آتوم معبود هليوبولس، بدأ وجوده الذاتي وفقًا للاهوت المصري القديم، من فوق قمة تل أزلي انبثق بدوره من المياه. والتاسوع يمثل الآلهة التسعة الأوائل، وهم: رع إله الشمس وخالق العالم، جب إله الأرض، الإلهة نوت ربة السماء، الإله شو إله الهواء، الإلهة تفنوت ربة الشمس والقمر، الإله ست رمز الشر والعنف، الإلهة إيزيس ربة السحر، الإله أوزيريس حاكم مملكة الموتى، والإلهة نيفتيس ربة المنزل.

(٦٣) **هليوبولس**

هي مدينة الشمس بالمصرية القديمة أو بالإغريقية هليوبولس كما أسماها اليونانيون وتقع في ضاحية مصر الجديدة بشمال شرق القاهرة.

(٦٤) **ممفيس**

مدينة مصرية قديمة أسسها الملك نارمر عام ٣٢٠٠ ق. م، وكانت عاصمة لمصر في عصر الدولة القديمة من الأسرات الثالثة وحتى السادسة وكان تعبد الإله بتاح، ومكانها الحالي بالقرب منطقة سقارة على بعد ١٩ كم جنوب القاهرة بقرية ميت رهينة.

(٦٥) **الإله بتاح**

في الأساطير المصرية فإن الإله بتاح ما هو إلا تأليه للربوة المقدسة في قصة بدء الخليقة الإنيادية، أهمية بتاح في التاريخ يمكن فهمها من كون الاسم الغربي لمصر Egypt مشتق من الهجاء اليوناني للكلمة "ح-وت-كع-بتاح" (التي تُكتب أحيانا: حت - كا - بتاح)، وتعني "معبد كا بتاح) وهو معبد في منف. وتقوم قصة بتاح على أنه نادى الدنيا لتبزغ في الوجود، بعدما رأى الخليقة في قلبه أثناء منامه، ليناديها فتكون.

(٦٦) **الوزير بتاح حتب**

وزير مصري قديم عاش في أواخر القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وأوائل القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. عمل بتاح حتب وزيراَ في عهد جد كا - رع مؤسس الأسرة الخامسة، وله عمل أدبي من أهم أدبيات الحكمة الفرعونية القديمة، وهو الوصايا أو التعاليم عن الأخلاقيات والمعاملات الإنسانية، وصلت إلينا هذه الوصايا عن طريق برديات منقولة من النص الأصلي، منها بردية بريسي من الدولة المصرية الوسطى، وهي محفوظة الآن في المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس. كما تعد تعاليم أو وصايا بتاح حتب مثابة أول تعاليم أخلاقية وسلوكية في التاريخ، وقد سبقت الكتب السماوية كافة.

(٦٧) **أتمون أجدود**

هو الاسم الذي عرف به ثامون هيرموبوليس. رُتب الآلهة في ثامون هيرموبوليس في أربعة أزواج من الذكور والإناث هم نون/ نونة، وكذلك آمون/ آمونة، ثم كوك/ كوكة، وحوح/ حوحة، وفيه كانت الآلهة تمثل بضفادع والإلهات بحيات. خلقت آلهة الثامون التل محتورت الذي ظهر فوقه الإله رع حسب رواية مدرسة هيرموبوليس لأسطورة الخلق المصرية.

(٦٨) هيرموبوليس

مدينة مصرية قديمة، تحوي العديد من الآثار اليونانية والرومانية، التي لا تزال بقاياها موجودة حتى يومنا هذا، تقع في محافظة المنيا، لم يتبق من هذه المدينة القديمة التي تقع على بعد ٨ كم شمال "ملوي" إلا القليل الذي يمكن مشاهدته، وهو عبارة عن بعض البقايا من عصري الدولة الوسطى والدولة الحديثة، وأطلال ساحة رومانية بها بازيليكا ترجع إلى العصور الأولى للمسيحية.

(٦٩) آمون

أحد الآلهة الرئيسيين في الميثولوجيا المصرية، وهو رب "طيبة"، ورأس ثالوثها، وعضو ثامون "الأشمونين". اندمج مع المعبود "رع" تحت اسم آمون - رع، وبذلك رُبط آمون بعقيدة الشمس، وتبوأ مكانة الإله الرسمي للدولة منذ الأسرة الثانية عشرة، واستمر كذلك معظم فترات التاريخ المصري القديم.

(٧٠) طيبة

مدينة فرعونية قديمة بمصر العليا، وإحدى عواصم مصر القديمة إبان المملكتين الوسطى والحديثة أيام قدماء المصريين، وموقعها اليوم هو مدينة الأقصر، كانت مركز عبادة أمون-رع واهتم أغلب فراعنة مصر وعلى الأخص خلال الدولة الحديثة ببناء المعابد فيها، ويوجد بها حوالي ١٤ من أهم المعابد المصرية، ومن أشهر آثارها على الضفة الشرقية للنيل بهو الأعمدة بالكرنك ومعبد الأقصر الذي بناه رمسيس الثاني، أمام بوابة معبد الكرنك كانت توجد مسلتان أخذت إحداها لباريس بفرنسا عام ١٨٣٦م، وهي تزين ميدان "كونكورد" فيها. وفي نهاية شمال المدينة تنتشر مجموعة معابد الكرنك وقد بنيت على مدى ١٥٠٠ سنة، لتصبح أكبر منشأة دينية في العالم. تشتهر ببهو الأعمدة الكبيرة التي يبلغ عددها ١٣٤ عموداً. وبها بحيرة اصطناعية من عهد الفراعنة.

(٧١) سيد درويش

هو مؤسس النهضة الموسيقية في مصر والوطن العربي. ولد في الإسكندرية عام ١٨٩٢، تعلم العود وكتابة النوتة في الشام بمساعدة الأخوين أمين وسليم عطا الله، قام بالتلحين لكافة الفرق المسرحية في عماد الدين أمثال فرقة نجيب الريحاني، جورج أبيض وعلي الكسار، حتى قامت ثورة ١٩١٩ فغنى "قوم يا مصري". وهو ملحن النشيد الوطني المصري المعمول به حتى اليوم (بلادي)، ولا تزال أسباب وفاته عام ١٩٢٣ غير مؤكدة حتى اليوم.

(٧٢) عبد الفتاح القصري

أحد عمالقة الكوميديا في السينما المصرية، ولد عام ١٩٠٥ كان والده صائغًا ثريًا، درس في مدرسة "الفُرير" الفرنسية، ومن شدة تعلقه بالتمثيل التحق بفرقة عبد الرحمن رشدي ثم فرقة نجيب الريحاني ثم بفرقة إسماعيل ياسين. توفي عام ١٩٦٤ بعد تطورات درامية على الصعيدين الشخصي والصحي ألمت به في أواخر أيامه، قدم قرابة الستين فيلمًا، كان آخرها فيلم "سكر هانم".

(٧٣) سكر هانم

آخر أفلام عبد الفتاح القصري، يعد من أشهر أفلام الأبيض والأسود المصرية. الفيلم بطولة عبد المنعم إبراهيم وكمال الشناوي وعمر الحريري وسامية جمال وحسن فايق إلى جانب عبد الفتاح القصري، ألفه أبو السعود الإبياري وأخرجه السيد بدير، وأنتج عام ١٩٦٠.

(٧٤) صلاح أبو سيف

مخرج مصري كبير يعتبر رائد الواقعية في السينما المصرية، ولد عام ١٩١٥م في محافظة بنى سويف مركز الواسطى قرية الحومة، بدأ العمل بالمونتاج في ستوديو مصر، ومن ثمّ أصبح رئيسًا لقسم المونتاج، ثم عمل مساعد أول للمخرج كمال سليم في فيلم "العزيمة"، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة السينما، قدم مُخرجًا نحو أربعين فيلمًا نال عليها جوائز وأوسمة كثيرة في مهرجانات عربية ودولية، وتوفي عام ١٩٩٦م.

(٧٥) علي أحمد باكثير

هو علي بن أحمد بن محمد باكثير الكندي، ولد عام ١٩١٠ في جزيرة سوروبايا بإندونيسيا لأبوين من حضرموت. نزل بمصر عام ١٩٣٤ والتحق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا) حيث حصل على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية، تنوع إنتاجه الأدبي بين الرواية والمسرحية الشعرية والنثرية، ومن أشهر أعماله الروائية "واإسلاماه" و"الثائر الأحمر"، ومن أشهر أعماله المسرحية "سر الحاكم بأمر الله" و"سر شهرزاد" التي ترجمت إلى الفرنسية و"مأساة أوديب" التي ترجمت إلى الإنجليزية. توفي في عام ١٩٦٩م.

(٧٦) شجرة الدر

لقبها عصمة الدين أم خليل، خوارزمية الأصل. كانت جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بمكانة عالية حتى أعتقها وتزوجها وأنجبت منه ابنها خليل. تولت عرش مصر لمدة ثمانين يومًا بعد وفاة السلطان، ثم تنازلت عن العرش لزوجها أيبك التركماني. لعبت دورًا تاريخيًا مهمًّا أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر، قتلت في عام ١٢٥٧ بتدبير من زوجة أيبك الأولى، انتقامًا لمقتله على يد شجرة الدر.

(٧٧) مقهى الاكسليسيور

يقع في شارع طلعت حرب بجوار سينما مترو، وله واجهة على شارع عبد الخالق ثروت، أسسه يوناني يدعى جناكليس، وكان من أوائل الأماكن التي أدخلت الشاورما إلى

مصر. اشتراه تاجر مصري في الستينات، وكان ملتقى للأدباء والمثقفين حتى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي.

(٧٨) محمد أنور السادات

ولد في عام ١٩١٨ بقرية ميت أبو الكوم بمحافظة المنوفية. عضو الضباط الأحرار، وثالث رئيس جمهورية مصري، حررت في عهده سيناء من خلال حرب ١٩٧٣، يختلف المؤرخون حول سياساته الاقتصادية في السبعينيات، وكذلك يؤخذ عليه محاولته خلق موازنات سياسية في الشارع المصري، بين قوى المعارضة من الشيوعيين، إلى الإخوان المسلمين، حقق السلام على الأرض من خلال اتفاقية كامب ديفيد والتي قاطعته على أثرها معظم الدول العربية. قتل في احتفالات ذكرى أكتوبر في حادثة المنصة الشهيرة في عام ١٩٨١م.

(٧٩) معاهدة كامب ديفيد

اتفاقية تم التوقيع عليها في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ بين الرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيجن بعد ١٢ يوما من المفاوضات في المنتجع الرئاسي كامب ديفيد قرب واشنطن تحت إشراف الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر. وتنص على التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل من أجل تحقيق الانسحاب من الأراضي التي كانت لا تزال محتلة في سيناء، وإقامة علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل بعد المرحلة الأولى من الانسحاب. ولا تزال هناك بنود في الاتفاقية لم تعلن إلى اليوم.

نتج عن الاتفاقية تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٨٩. من جهة أخرى حصل الزعيمان مناصفة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٨ بعد الاتفاقية، تقديرا للجهود الحثيثة في تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط، وفقًا لمنطوق الجائزة.

(٨٠) ناجي العلي | حنظلة

هو ناجي سليم حسين العلي رسام الكاريكاتير الفلسطيني المولود في عام ١٩٣٧، تميزت رسوماته بالنقد الساخر للسياسات العربية والإقليمية، ويعتبر من أبرز رواد الحث على التغيير السياسي باستخدام الفن كنوع من التكثيف والشحذ للفكرة، ابتكر شخصية "حنظلة" وهي لطفل عربي أصلع، يولي ظهره للقارئ منذ عام ١٩٧٣، يقول ناجي العلي عن حنظلة، أنه بمثابة الأيقونة التي تمثل الانهزام والضعف في الأنظمة العربية. له أربعون ألف رسم كاريكاتوري، اغتاله شخص مجهول في لندن عام ١٩٨٧م.

(٨١) المُعْتَزِلَة

المعتزلة فرقة إسلامية تنتسب إلى واصل بن عطاء الغزّال، تميزت بتقديم العقل على النقل، وبالأصول الخمسة التي تعتبر قاسمًا مشتركًا بين جميع فرقها، من أسمائها القدرية والوعيدية والعدلية. سموا معتزلة لاعتزال مؤسسها مجلس الحسن البصري بعد خلافه معه حول حكم الفاسق، وجواز تكفيره من عدمه، إذ كانت فلسفتهم تقوم

على أن الفاسق أو الخطاء، حكمه في الدنيا أنه ليس بمؤمن ولا بكافر. وأنه يظل على هذا الحال فإن تاب أصبح مؤمناً وإن لم يتب حتى موته يخلد في النار، من أشهر المعتقدين بفكر المعتزلة، الجاحظ والخليفة المأمون.

(٨٢) حسن البنا

هو حسن أحمد عبد الرحمن محمد البنا الساعاتي المولود في المحمودية من أعمال محافظة البحيرة، هو مؤسس حركة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨ في مصر والمرشد الأول لها ورئيس تحرير أول جريدة أصدرتها الجماعة سنة ١٩٣٣، أسس منهجًا ينبذ فكرة الوطنية، باعتبار أن الولاء ينبغي أن يكون فقط لله والإسلام، وليس للأرض والوطن، حمل منهجه نزعات تكفيرية، ودعوات ضمنية لاعتبار العنف أحد الحلول الواردة، انطلاقًا من اختيار السيفين كشعار للجماعة، تم اغتياله عام ١٩٤٩م.

(٨٣) البوليس السياسي

هو جهاز أمني يعرف عنه العنف، تأسس عام ١٩٢٤، في عهد الملك فؤاد بهدف حماية الملك من مؤامرات تهدد حكمه. بعد قيام الحرب العالمية الثانية، امتد نشاط الشرطة السياسية في مصر ليشمل الحفاظ على أمن الجيش البريطاني في مصر ضد أي عمليات مقاومة يقوم بها المصريون. استمر في عمله المشبوه بعد ثورة ١٩٥٢ تحت مسمى حماية الثورة ورجالاتها، وأخذ مسارات عدة ما بين الظهور الصريح والمستتر، حتى كانت ثورة التصحيح سنة ١٩٧١ فاستبدل باسم الجهاز "جهاز مباحث أمن الدولة".

(٨٤) الحجر الأسود

حجر مكون من عدة أجزاء، بيضاوي الشكل، أسود اللون مائل إلى الحمرة، وقطره ٣٠ سم، يوجد في الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج. وفقا للعقيدة الإسلامية هو نقطة بداية الطواف ومنتهاه، ويرتفع عن الأرض متراَ ونصف، وهو محاط بإطار من الفضة الخالصة حماية له. يعتبر الحجر الأسود من حجارة الجنة، وفقًا لما نقل لنا عن النبي محمد. سرقه القرامطة لمدة ٢٢ عامًا ثم أعادوه.

(٨٥) هدْم الكعبة

هدمت الكعبة تاريخيا أربع مرات: مرتان على أثر السيول، ومرة بهدف إعادة بنائها، ومرة أخرى حين قام يزيد بن معاوية بحصار مكة لتحصّن عبد الله بن الزبير المتمرّد فيها، فرمى الكعبة بالمنجنيق فاحترق جزء منها وتهدّم. ثم ما لبث أن أعاد بناءها.

(٨٦) النبي إبراهيم

هو الملقب بأبي الأنبياء. شخصية بارزة في الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية. وردت سيرة حياته في سفر التكوين بالعهد القديم، وفي القرآن الكريم أيضًا. ويُعتقد بأن ما ورد عنه في كلا الكتابين المقدسين صحيح، ويعتبره بعض المؤرخين شخصية أسطورية، لانعدام وجود أي مراجع أو مصادر أخرى عن حياته. تسمى العقائد

الإسلامية والمسيحية واليهودية بالديانات الإبراهيمية لأن اعتقاداتهم كانت متأثرة بمعتقد إبراهيم التوحيدي، تلقى رسائل إلهية وصفها القرآن بالصحف، ولكن هذه الصحف لم يتفق العلماء على وجودها من عدمه، وذهب البعض للاعتقاد أنها هي ذاتها الفيدا، الكتاب المقدس لدى البراهمة.

(٨٧) صحاح الحديث الست

هي كتب الأحاديث والسنة المتفق عليها من أهل السنة والجماعة، وهي: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن النسائي، سنن أبو داود، سنن الترمذي، وسنن ابن ماجه.

(٨٨) سارة بارتمان

هل سارتيجي بارتمان، الفتاة الأفريقية المولودة لأحد قبائل جنوب أفريقيا، قصتها التاريخية الحقيقية، هي ذات ما ورد عنها في فصول الرواية.

(٨٩) ساحة بيكاديللي

أحد أشهر ميادين مدينة لندن من جهة ويست إند في ويستمنستر. يعتبر أحد أهم وجهات السياح وسكان لندن على حد سواء حيث تضم هذه المنطقة وما حولها العديد من أماكن الترفيه والمحلات والأسواق والسينمات والمسارح والمطاعم والمقاهي.

(٩٠) جورج كوفييه

ولد في ٢٣ أغسطس ١٧٦٩م، وهو عالم فرنسي، تلقى دعوة للعمل في باريس كأستاذ تشريح الحيوان في متحف التاريخ الطبيعي الذي تم تأسيسه بعد الثورة الفرنسية. تقلَّد مناصب مهمة في مجال التعليم في عهد نابليون بونابرت، حتى أصبح طبيب نابليون الخاص، ظل يحتفظ بمناصبه بعد عودة الملكية، وفي عام ١٨٣١م نال لقب بارون، قبل أن يتوفى عام ١٨٣٢م.

(٩١) الخنساء

هي تماضر بنت عمرو السلمية ولدت عام ٥٧٥م في نجد، وهي صحابية وشاعرة مخضرمة أدركت الجاهلية والإسلام، وأسلمت. اشتهرت برثائها لأخويها صخر ومعاوية الذين قتلا في الجاهلية، فقدت أبناءها الأربعة في غزوات جِيوش المسلمين، وقد لقبت بالخنساء نظراَ لارتفاع أرنبة أنفها. توفيت فـي عام ٦٤٥م.

(٩٢) تل العمارنة

هي العاصمة الجديدة التي أنشأها الملك أخناتون وأسماها أخيتاتون، بعد أن قام برحلة ترك فيها شراع سفينته للرب ليحدد له موقعها، فرست دفته حيث توجد اليوم مدينة تل العمارنة، التي تقع على بعد خمسة وأربعين كم جنوب مقابر بني حسن بمحافظة المنيا. ولا تزال بقايا العاصمة القديمة موجودة بها حتى الآن.

(٩٣) البخاري

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ولد في مدينة "بخارى" التي تقع حالياَ ضمن حدود أوزباكستان في عام ٨١٠م، هو أحد كبار حفظة الحديث الفقهاء، ويعتبر من أهم علماء الحديث عند أهل السنة والجماعة، له مصنّفات كثيرة أبرزها كتاب "الجامع الصحيح"،

المشهور بين العامة باسم صحيح البخاري. توفي في عام ٨٧٠م.

(٩٤) أنس بن مالك

أنس بن مالك النجاري الخزرجي، خادم النبي محمد وصاحبه، ولد في عام ٦٠٩م، روى عن النبي محمد ٢٢٨٦ حديثًا، اتفق له البخاري ومسلم على مائة وثمانين حديثًا فقط مما نقل، توفي عام ٧١٢م عن عمر جاوز المائة عام.

(٩٥) الأنثروبولوجيا

علم دراسة أصل النوع الإنساني والظواهر المتعلقة به، وثقافاته. تنقسم الأنثروبولوجيا لنوعين رئيسيين من الدراسة: الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الثقافية. تهتم الأنثروبولوجيا الطبيعية بدراسة التطور الإنساني، والباليونتولوجيا (وهي علم حياة الإنسان ما قبل التاريخ) والأجناس البشرية وتكوين جسم الإنسان. أما الأنثروبولوجيا الثقافية فتشمل الأركيولوجيا وهي علم الثقافات المنقرضة، والإثنولوجيا وهي دراسة الثقافات الموجودة. للأنثروبولوجيا مدارس كثيرة متخصصة في جوانب معينة ودراسات من زوايا مختلفة.

(٩٦) داليدا

هي يولاندا كريستينا جيجليوتي، فنانة ومغنية إيطالية مصرية ولدت في شبرا عام ١٩٣٣ لأبوين من المهاجرين وتعود أصولهما إلى جزيرة كالابريا في جنوب إيطاليا. بدأت حياتها بالمشاركة في مسابقة ملكة جمال مصر وفوزها بها سنة ١٩٥٤ بدأت حياتها الفنية في فرنسا وغنت بتسع لغات: العربية والإيطالية والعبرية والفرنسية واليونانية واليابانية والإنجليزية والإسبانية والألمانية. توفيت منتحرة إثر إحباطات عاطفية عام ١٩٨٧.

(٩٧) آتون

هو الإله الذي أعلن عنه الملك أخناتون واعتبره إله الشمس الإله الموحد الذي لا شريك له، ونور آتون يفيد جميع الأجناس. يمثل آتون في شكل قرص الشمس، بأشعتها التي تنتهي بأيد بشرية، لتمنح الحياة والرخاء للأسرة الملكية.

(٩٨) أخناتون

وهو من عرف أيضًا بـ"أمنمحتب الرابع". كان فرعونًا من الأسرة الثامنة عشرة الذي حكم مصر لمدة ١٧ عامًا وتوفي في ظروف غامضة ربمّا في ١٣٣٦ ق. م أو ١٣٣٤ ق. م. يُشتهر بتخليه عن تعدد الآلهة وإدخال عبادة جديدة توصف أحيانًا بأنها ديانة توحيدية. حاول أخناتون إحداث مفارقة عن الدين التقليدي، ولكن في النهاية لم يكون مقبولًا. فبعد وفاته، تم استعادة الممارسة الدينية التقليدية تدريجيا، وتم تشويه سمعته وطمس تعاليمه وكتاباته ومعابده.

(٩٩) طوه

هي إحدى القرى التابعة لمركز ببا في محافظة بني سويف في مصر. وكان لها شأن إبان مرحلة الاضطهاد المسيحي في مصر.

(١٠٠) سمنود

مدينة مصرية، عرفت في النصوص المصرية القديمة باسم "ثب - نثر"، ثم أصبحت في اليونانية "سبنيتس"، ثم سمنود في العربية. كانت عاصمة الإقليم الثاني عشر من أقاليم الوجه البحري. تتبع محافظة الغربية إدرايًا، وهي عاصمة مركز سمنود.

(١٠١) سنهور

هي إحدى القرى القديمة، التابعة لمركز دمنهور في محافظة البحيرة، اسمها القبطي سنهوري، وورد اسمها محرفًا مثل صنهور وصنمور وصنهون وسنهون بسبب سوء النقل، والصواب أن اسمها سنهور، وأضيف لها اسم المدينة نظرًا لشهرتها القديمة بين المدن المصرية قديمًا. وقد ذكرها علي مبارك في كتابه "الخطط التوفيقية". يتبعها قريتان رئيسيتان، هما كفر أم يوسف، ومنشأة بطاح.

(١٠٢) يوليوس الأقفهصي

كاتب سير الشهداء في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ببلدة أقفهص التي ما زالت محتفظة باسمها ومكانها حتى الآن، وهي قرية تابعة لمركز الفشن محافظة بني سويف، لم يمكث يوليوس كثيرًا ببلدة أقفهص حيث رحل هو والأسرة إلى مدينة الإسكندرية قبل عصر الاضطهاد. كانت له مكانة عظيمة جدًّا عند الملوك فكان مستشارًا لهم وكان يشغل وظيفة كبيرة وهو كاتم أسرار سجلات السجن. ولم يطلب منه الولاة السجود أو التبخير للأوثان لمكانته الرفيعة وثقة الجميع فيه واستشارته فيما يختص بأمور الدولة. في بداية عصر الاضطهاد، أصبح هو المهتم الأول بأجساد القديسين وكتابة سير حياتهم خلال فترة الاضطهاد الذي بدأ سنة ٣٠٣ ميلادية. حتى استشهد بدوره في مدينة طوه. يحتفل الأقباط بذكرى وفاته يوم ٢٢ من شهر توت من كل عام حسب التقويم القبطي.

(١٠٣) خمارويه

أبو الجيوش خُمَارُويه بن أحمد بن طولون هو الحاكم الطولوني لمصر وسوريا في الفترة بين ٨٨٤ - ٨٩٦، ووالد أسماء بنت خمارويه الملقبة في زمانها بـ"قطر الندى"، قتل في دمشق عام ٨٩٥م.

(١٠٤) الخليفة المعتضد

أبو العباس أحمد المعتضد بالله، خليفة عباسي ولد في عام ٨٥٦، بويع له بعد موت عمه المعتمد على الله، فتولى الخلافة عشرة أعوام، عرف عنه الشجاعة والهيبة والجبروت، فكان شديد الوطأة على المفسدين. وهو أول خليفة عباسي لم يكن والده خليفة من قبله حيث لم يتول والده طلحة الموافق الخلافة مثل إخوته الثلاث. تزوج من أسماء بنت خمارويه وعشقها عشقًا جمًّا، بيد أنه ماتت بعد زواجهم بفترة قصيرة، وتوفي هو إثر مرض عضال حل بجسده في غضون عام ٩٠٣م.

(١٠٥) قرطبة

هي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا، أسسها القرطاجيون فيما يُعتقد، وخضعت لحكم

الرومان والقوط الغربيين. قام بفتحها القائد الإسلامي الشهير طارق بن زياد، وذلك سنة ٧١١م. ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخطّ لنفسها خطًّا جديدًا، وملمحًا مهمًّا في تاريخ الحضارة من واقع تأثرها بعدة حضارات وثقافات مختلفة، مرت بعد نشأتها الرومانية، بعدة مراحل في عصور الحكم الإسلامي ما بين الولاة، والأمويين، وملوك الطوائف، والمرابطين، والموحدين، حتى سقطت على يد فرناندو الثالث عام ١٣٦م لتصبح إسبانية حتى يومنا هذا.

(١٠٦) سبتة

هي إحدى مدن إسبانيا الواقعة في القارة الإفريقية بالجهة المقابلة لمضيق جبل طارق، تحدها من الشمال والجنوب والشرق البحر الأبيض المتوسط. يتألف سكانها من المسيحيين والمسلمين، مع وجود أقلية يهودية وهندوسية. احتلها البرتغاليون عام ١٤١٥م ثم الإسبان منذ عام ١٥٨٠، حتى أصبحت تتمتع بصيغة الحكم الذاتي داخل إسبانيا بقرار البرلمان الإسباني عام ١٩٩٥. تعتبر سبتة بالإضافة إلى مدينة "مليلة"، وفقًا للتاريخ: أراض مغربية محتلة حتى يومنا هذا!

(١٠٧) موسى بن ميمون

هو أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي المولود في عام ١١٣٥ المشهور لدى اليهود بالحاخام موشيه بن ميمون، ولدى العرب بلقب الرئيس موسى. وُلد في قرطبة ثم انتقل رفقة عائلته إلى مدينة فاس المغربية حيث درس بجامعة القرويين عام ١١٥٩، انتقل لفترة قصير في فلسطين عام ١١٦٥، ثم استقرت في مصر آخر الأمر، حيث عمل أصبح نقيبًا للطائفة اليهودية، وطبيبًا لبلاط الوزير الفاضل أو السلطان صلاح الدين الأيوبي. كان رائد زمانه في علوم الطب وذا باع في الفلسفة. يوجد معبد يحمل اسمه في العباسية بالقاهرة، هو كاتب كتاب "دلالة الحائرين" الذي يعد أحد أهم تفسيرات الشرائع اليهودية، توفي بالفسطاط عام ١٢٠٤م.

(١٠٨) صلاح الدين الأيوبي

هو الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب التكريتي المولود في عام ١١٣٨م، والمشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي، قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت ٢٦٢ سنة. كان مسلمًا متصوفًا، اتبع المذهب السني والطريقة القادرية، والمقريزية، وذهب بعض المؤرخين إلى إنه كان أشعريًّا. قاد صلاح الدين عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس.

(١٠٩) الكارما

مصطلح شائع في الديانات الهندوسية والجينية السيخية والبوذية، ويطلق لفظ "كارما" على الأفعال التي يقوم بها الكائن الحي، والعواقب الأخلاقية الناتجة عنها، فأي عملٍ من خيرٍ أو شر، سواء كان قولًا أو فعلًا أو مجرد فكرة، لا بد أن تترتب عليه عواقب، ما دام قد نتج عن وعي وإدراك مسبق، وتأخذ هذه العواقب شكل ثمارٍ تنمو، وبمجرد أن تنضج تسقط على صاحبها، فيكون جزاؤه إما الثواب وإما العقاب، وقد تطول أو تقصر المدة التي تتطلبها عملية نضوج هذه الثمار، غير أنها تتجاوز في الأغلب فترة حياة الإنسان، فيتحتم على صاحبها الانبعاث مرة أخرى لينال الجزاء الذي يستحقه، فـ"الكارما" قانون الثواب والعقاب المزروع في باطن الإنسان.

يعمل نظام "كارما" عند هؤلاء وفق قانون أخلاقي طبيعي قائم بذاته، وليس تحت سلطة الأحكام الإلهية، وتتحدد وفقا لـ"الكارما" عوامل متعددة كالمظهر الخارجي والجمال، والذكاء، والعمر، والثراء، والمركز الاجتماعي.

(١١٠) كاتدرائية قرطبة

كاتدرائية جامع قرطبة هي مسجد سابق وحاليًا كاتدرائية كاثوليكية تسمى بكاتدرائية سيدة الانتقال، تعرف من قبل سكان قرطبة باسم كاتدرائية مسكيتا وكلمة مسكيتا تعني مسجدًا باللغة الإسبانية. الكاتدرائية هي مقر مطران أبرشية قرطبة، وهي مدرجة في قائمة مواقع التراث العالمي، كما تصدر سنة ٢٠٠٧ قائمة كنوز إسبانيا الاثني عشر. كان موقع الكاتدرائية في الأصل معبدًا وثنيا، ثم تحولت إلى كنيسة مسيحية على زمن القوط الغربيين، ثم إلى مسجد خلال الحكم الأموي في الأندلس حيث تحول المبنى إلى مسجد، ثم بنى مسجد جديد في الموقع. بعد حروب الاسترداد حول الإسبان المسجد إلى كنيسة، وتتبع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. شكلت الكاتدرائية نموذجًا لتداخل فن العمارة الإسلامية والمسيحية. وتعتبر كاتدرائية قرطبة واحدة من المعالم الأثرية الأشهر للعمارة الإسلامية في إسبانيا.

(١١١) ابن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد المعروف بابن رشد، المولود في قرطبة عام ١١٢٦، هو في الأساس طبيب، ولكنه عرف أيضًا بكونه فيلسوفًا، وفقيهًا وقاضيًا وعالم فلك وفيزيائيًا. نشأ في واحدة من أكثر الأسر وجاهة في الأندلس والتي عرفت باتباعها المذهب المالكي، درس الفقه على المذهب المالكي والعقيدة على المذهب الأشعري. ويعد من أهم فلاسفة الإسلام. دافع عن الفلسفة وصحح للعلماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابي، فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو. قدمه ابن طفيل لأبي يعقوب خليفة الموحدين فعينه طبيبًا له ثم قاضيًا في قرطبة. تولّى منصب القضاء في أشبيلية، وأقبل على تفسير آثار أرسطو،

تلبية لرغبة خليفة الموحدين آنذاك. تعرض ابن رشد في آخر فترات حياته لمحنة عظمى، حين اتهمه علماء الأندلس المعارضون له بالكفر والإلحاد، أبعده خليفة الموحدين إلى مراكش، وحرقت كتبه، وظل في مراكش حتى توفي بها عام ١١٩٨م.

(١١٢) باب زويلة

باب زويلة أو بوابة المتولي هو أحد أبواب القاهرة القديمة. يشتهر بأن علقت عليه رءوس رسل هولاكو قائد التتار حينما أرسلهم مهددين ومتوعدين ومحذرين، كما شنق عليه أيضًا آخر سلاطين المماليك بمصر عندما فتح سليم الأول مصر وضمها للدولة العثمانية في عام ١٥١٧م.

(١١٣) السلطان الغوري

الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردي الغوري الجركسي الجنس، وهو آخر سلاطين المماليك البرجية. ولد في عام ١٤٤٦م، ثم كان عبدًا لدى الأشرف قايتباي، ثم أعتقه هذا الأخير، وعينه في عدة وظائف في بلاطه. وفي دولة الأشرف جنبلاط عين وزيرا، ثم نودى به ملكًا على مصر سنة ١٥٠١م وظل سلطان مصر إلى أن قُتل أمام جيوش سليم الأول في معركة مرج دابق بحلب في عام ١٥١٦.

(١١٤) الريدانية

هي إحدى القرى التابعة لمركز المنصورة في محافظة الدقهلية في مصر، وقعت بها مواجهات دامية بين قوات طومان باي وسليم الأول سلطان العثمانيين.

(١١٥) السلطان سليم الأول

هو السلطان الغازي سليم الأول القاطع، تاسع سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعون، وأوّل من حمل لقب "أمير المؤمنين" من آل عثمان. ولد عام ١٤٧٠م، وحكم الدولة العثمانية من سنة ١٥١٢ حتى سنة ١٥٢٠م. اعتلى سدة عرش السلطنة عقب انقلاب قام به على والده بايزيد الثاني، بدعم من الإنكشارية وخاقان القرم، ونجح بمؤازرتهم بمطاردة إخوته وأبنائهم وقتلهم الواحد تلو الآخر، حتى لم يبق له منازع في الحكم. يتميز عهده بتحول من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي، حيث اتسعت رقعة الدولة اتساعًا كبيرًا لشملها بلاد الشام والعراق والحجاز وتهامة ومصر، حتى بلغت مساحة أراضي السلطنة قرابة المليار فدّان يوم وفاته عام ١٥٢٠م.

(١١٦) طومان باي

الأشرف أبو النصر طومان باي، ولد عام ١٤٦٧ وهو آخر سلاطين المماليك الشراكسة في مصر، فهو السلطان الوحيد الذي شنق على باب زويلة عقب سقوطه في أيدي السلطان الغازي سليم الأول في أعقاب سلسة من الوشايات. تسلم الحكم بعد مقتل عمه السلطان الغوري بموقعة مرج دابق بعد أن عينه نائبًا له قبل خروجه لقتال العثمانيين، وبعد قتله أجمع الأمراء على اختياره سلطانًا لمصر، وقد امتنع في بداية الأمر بحجة ضعف الموقف العام وتشتت قلوب الأمراء وحدوث سرقات وفتن، لكنه عاد بعد إلحاح وبعد أن أقسم له الأمراء بالمصحف على السمع والطاعة

وعدم الخيانة. قتل شنقًا على باب زويلة في عام ١٥١٧م عن عمر ٤١ عاما.

(١١٧) بهنسا

أحد أشهر المناطق الأثرية في محافظة المنيا، وتعد من أجمل القرى المصرية. كانت من المدن الشهيرة في العصور اليونانية الرومانية، وازدهرت في العصر الإسلامي.

(١١٨) نابليون بونابرت

قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين، ولد عام ١٧٦٩م، حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلًا عامًّا، ثم بصفته إمبراطورًا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، حيث كان لأعماله وتنظيماته تأثير كبير على السياسة الأوروبية. سقطت إمبراطوريته إثر الغزو الروسي، فحاول استعادة أمجاده السابقة بيد أن البريطانيين قضوا على آماله في ووترلو عام ١٨١٥م، وتم نفيه إلى جزيرة القديسة هيلانة عقب ذلك، حيث ظل هناك حتى مات متأثرَا بسرطان المعدة عام ١٨٢١م.

(١١٩) قلعة قايتباي

تقع قلعة قايتباي في نهاية جزيرة فاروس بأقصى غرب الإسكندرية. وشيدت في مكان منار الإسكندرية القديم الذي تهدم إثر الزلزال المدمر الذي حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقد بدأ السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي بناء هذه القلعة في سنة ١٤٤٧ وانتهى من بنائها سنة ١٤٤٩. اهتم السلطان المملوكي قانصوه الغوري بالقلعة فزاد من أهميتها وشحنها بالسلاح.

(١٢٠) محمد كُرِّيم

حاكم سابق لمدينة الإسكندرية، رفض تسليمها لنابليون بونابرت قائد جيش الحملة الفرنسية.

ولد محمد كريم بحي الأنفوشي بالإسكندرية، وبدأ في أول حياته بمنصب صغيرة في الحكومة ولكن ما لبث أن لوحظ نشاطه، فرقِّي إلى رئاسة الديوان والجمرك بمنطقة الثغر بالإسكندرية، ثم أصبح حاكمًا للمدينة. تم إعدامه عام ١٧٩٨ في ميدان الرميلة بالقاهرة، عقب إلقاء الفرنسيين القبض عليه بعد اكتشافهم تشجيعه وتمويله لحركات المقاومة السرية. كما تمت مصادرة أمواله وممتلكاته.

(١٢١) السلطان عبد الحميد

هو خليفة المسلمين الثاني بعد المائة والسلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، وتنقسم فترة حكمه إلى قسمين؛ الأول وقد دام مدة سنة ونصف ولم تكن له سلطة فعلية، والقسم الثاني حكم خلاله حكمًا فرديًّا يسميه معارضوه "دور الاستبداد" وقد دام مدة ثلاثين سنة. تولى السلطان عبد الحميد الحكم في أغسطس ١٨٧٦، وخُلع بانقلابٍ في أبريل ١٩٠٩، ووُضع رهن الإقامة الجبريّة حتّى وفاته عام ١٩١٨م، وخلفه أخوه السلطان محمد الخامس. أطلقت عليه عدة ألقاب منها "السُلطان المظلوم"، و"السلطان الأحمر".

(١٢٢) جمال الدين الأفغاني

محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني أو الأفغاني أو الأسد آبادي، ولد في عام ١٨٣٨، ويعد أحد الأعلام البارزين في النهضة المصرية ومن أعلام الفكر الإسلامي الداعي للتجديد. له سجل تنويري ونضالي حافل في ارتحاله ما بين الآستانة والهند وأوروبا ومصر، وكان من الداعين للثورة على شاه إيران في زمانه، توفي عام ١٨٩٧ في الآستانة، ولم يعرف مرضه على وجه التحديد.

(١٢٣) أديب إسحاق

أديب وصحفي وشاعر سوري تنقل في حياته بين سوريا وفرنسا ومصر ولبنان، ولد في عام ١٨٥٦، أصدر جريدة باسم "مصر" سنة ١٨٧٧م، أصدر بمشاركة سليم النقاش في جريدة "التجارة" التي نشر فيها جمال الدين الأفغاني بعضًا من مقالاته. لكن الحكومة المصرية أقفلت الجريدتين. كان له موقف متحول من ثورة عرابي فيما بعد. توفي عام ١٨٨٥ في بيروت.

(١٢٤) عبد الله النديم

عبد الله بن مصباح بن إبراهيم نديم (النديم) الإدريسى الحسني، من أدباء مصر وشعرائها وزجاليها، وخطيب الثورة العرابية. ولد عام ١٨٤٢ في الإسكندرية، أسس جريدة التنكيت والتبكيت، وجريدة اللطائف، ومجلة الأستاذ، طاردته الحكومة المصرية فظل في ترحال واختفاء طيلة عشر سنوات حتى قُبض عليه فنفي إلى فلسطين، ثم سمح له بالعودة فقضى عامًا آخر في مصر، قبل أن ينفى مجددًا إلى الآستانة، حيث توفي عام ١٨٩٦م، تاركًا للمؤرخين استنباط السبب الحقيقي وراء وفاته، الذي لم يؤكَّد حتى اليوم.

(١٢٥) أحمد حسين

كاتب صحفي وسياسي مصري، هو أول رئيس لجمعية مصر الفتاة عام ١٩٣٣، وجريدة الصرخة الناطقة باسم الجمعية، ثم تحولت الجمعية إلى حزب عام ١٩٣٦. كانت له عدة مقالات صحفية مهمة، وكانت له بعض توجهات الإسلام السياسي، ورغب في استقطاب الشباب لضمهم لحزبه بدلًا من الإخوان المسلمين، خاصة بعد تغيير اسم الحزب إلى الحزب الوطني القومي الإسلامي.

(١٢٦) كافيه دي فلور

أحد أقدم وأعرق المقاهي في باريس. ويقع في ناصية بتقاطع شارع سان جيرمان وشارع سانت بينوا، في سان جيرمان دي بري. افتتح في ١٨٨٠، خلال الجمهورية الثالثة الفرنسية. وقد اشتق اسمه، "فلور"، نسبة إلى إلهة الزهور والربيع في الميثولوجيا الرومانية.

(١٢٧) جان بول سارتر

هو جان بول شارل إيمارد سارتر، فيلسوف وكاتب وروائي ومسرحي فرنسي. ولد في عام ١٩٠٥م، يعد زعيم الفلسفة الوجودية في القرن العشرين. شرح الوجودية في كتابه الوجود والعدم (١٩٤٣) والوجودية (١٩٤٦). كان يرفض التكريم بسبب عناده وشدة إخلاصه وإيمانه بأفكاره، حتى إنه رفض استلام جائزة نوبل في الأدب. توفي عام

١٩٨٠، وخرج لوداعه في جنازته في باريس قرابة الخمسين ألف شخص.

(١٢٨) سيمون دي بوفوار

هي سيمون إرنستين، لوسي ماري برتراند دي بوفوار، وشهرتها سيمون دي بوفوار، ولدت في باريس في عام ١٩٠٨م، كاتبة ومفكرة فرنسية، وفيلسوفة وجودية، وناشطة سياسية، ونسوية إضافة إلى أنها منظرة اجتماعية. ورغم أنها لا تعتبر نفسها فيلسوفة إلا أن لها تأثيراً ملحوظًا في النسوية والوجودية النسوية. اشتهرت سيمون دي بوفوار برواياتها العديدة، كما اشتهرت كذلك بكتابها "الجنس الآخر" الذي كان عبارة عن تحليل مفصل حول اضطهاد المرأة وبمثابة نص تأسيسي للنسوية المعاصرة. توفيت عام ١٩٨٦م، ودفنت بجوار سارتر.

(١٢٩) جياكوميتي

نحات ومصور ورسام سويسري. ولد عام ١٩٠١ لأسرة فنية، حيث كان والده جيوفاني جياكوميتي مصوراً مشهوراً يتبع مدرسة ما بعد الانطباعية. تنوعت أعماله ما بين السريالية، التعبيرية، المدرسة التكعيبية، والمدرسة الشكلية، توفي عام ١٩٦٦م.

(١٣٠) بابلو بيكاسو

رسام ونحات وفنان تشكيلي إسباني وأحد أشهر الفنانين في القرن العشرين، ينسب إليه الفضل في تأسيس الحركة التكعيبية في الفن. ولد في عام ١٨٨١، انضم إبان الحرب الأهلية في إسبانيا إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، وحضر مؤتمراً دولياً للسلام في بولندا، وفي عام ١٩٥٠ حصل على جائزة ستالين للسلام من الجمهورية السوفيتية. توفي عام ١٩٧٣م.

(١٣١) أرنست هيمنجواي

أرنست ميلر هيمنجواي، ولد في عام ١٨٩٩. وهو كاتب أمريكي يعتبر من أهم الروائيين وكتاب القصة الأمريكيين في القرن الماضي. كتب الروايات والقصص القصيرة. غلبت عليه النظرة السوداوية للعالم في البداية، إلا أنه عاد ليجدد أفكاره فعمل على تمجيد القوة النفسية لعقل الإنسان في رواياته، غالباً ما تصور أعماله هذه القوة وهي تتحدى القوى الطبيعية الأخرى في صراع ثنائي وفي جو من العزلة والانطوائية. شارك كجندي في الحرب العالمية الأولى والثانية حيث خدم على سفينة حربيه أمريكية كانت مهمتها إغراق الغواصات الألمانية، وحصل في كل منهما على أوسمة، وقد أثرت الحرب كثيراً في كتاباته ورواياته.

(١٣٢) مظاهرات يناير ١٩٧٢

أحد أهم الاختبارات التي واجهت عهد السادات كانت الانتفاضة الطلابية في يناير ١٩٧٢ التي اندلعت قبل خمس سنوات بالتمام والكمال من انتفاضة الخبز في ١٩٧٧. وكانت أهم مطالب المتظاهرين رفع سقف الديموقراطية وإنهاء حالة اللاسلم واللاحرب دفعاً نحو تحرير الأرض.

(١٣٣) البروتستانتية والأرثوذكسية

البروتستانتية هي أحد مذاهب وأشكال الإيمان في الدين المسيحي. تعود أصول المذهب إلى الحركة الإصلاحية التي قامت

في القرن السادس عشر، هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية على يدي القس مارتن لوثر، ومن أهم خصائصها:
- الإيمان بأن الكتاب المقدس فقط (وليس البابوات) ولا التقاليد هو مصدر المسيحية.
- إجازة حق قراءة الكتاب المقدس وفهمه لكل مسيحي.
- عدم الإيمان بـالأسفار الأبوكريفا السبعة.
- عدم الاعتراف بسلطة البابا.
- يعتبرون أن الخلاص لا يأتي بالأعمال الصالحة بل بالإيمان بيسوع المسيح مخلصًا وفادياً، أما الأعمال فإنها واجبة.
- لكل كنيسة بروتستانتية استقلالها التام.
- يمنع البروتستانت الصلاة بلغة غير مفهومة كالسريانية والقبطية في الكنيسة، ويرونها واجبة باللغة التي يفهمها المصلون.
- يرحب البروتستانت بزواج القسيسين ولا يرون أن القس لا بد أن يكون بتولًا.
يؤمن الأرثوذوكس بسلطوية البابا ومرجعيته ويقدسون أسرار الكنيسة السبعة، ألا وهي:
- سر المعمودية: فيَستخدم الماء كمادة منظورة للمعمودية لنعمة غير منظورة هي الميلاد الثاني.
- زيت الميرون: الذي يحتوي على أنواع أطياب مختلفة إشارة إلى مواهب الروح القدس المتنوعة، وقد استخدمه الرسل كمسحة مقدسة (رسالة يوحنا الأولى ٢:٢٠، ٢٧).
- القربان المقدس: أو سر الشكر (الإفخارستية) تناول جسد الرب ودمه، المصنوع من دقيق الحنطة ليتحول إلى غذاء سمائي وخبز سمائي هو جسد الرب (يوحنا ٥١:٦)، وخمر عصير العنب كدمه.
- سر التوبة: أو سر الاعتراف، ويكون وضع الصليب على الرأس هو المادة المنظورة لغفران الخطايا (يوحنا ٢٠:٢٣).
- سر مسحة المرضى: وفي سر مسحة المرضى يستخدم القنديل (زيت وفتيل) (لوقا ١٠:٢٤؛ مر٦:١٣؛ يع٥:١٤).
- سر الزيجة: أو سر الزواج يكون الإكليل المقدس على رأس العريس والعروس إشارة إلى إكليل العفة والتقديس (نشيد الإنشاد ٣:١١).
- سر الكهنوت: وتكون المادة المنظورة هي اليد الأسقفية أو الكهنوت لمنح الموهبة والسر (سفر الأعمال ٦:٦؛ رسالة غلاطية ٢:٩؛ رسالة تيموثاوس الأولى ٤:١٤؛ رسالة تيموثاوس الثانية ١:٦؛ رسالة العبرانيين ٦:٢؛ تث٣٤:٩).
فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذًا.

(١٣٤)الإنكشارية

طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين شكلوا تنظيماً خاصاً لهم ثكناتهم العسكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذاً

(١٣٥)ابن سينا

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم وطبيب مسلم ولد بالقرب من بخاري -الواقعة حالياً ضمن

حدود أوزبكستان-في عام ٩٨٠م وتوفي في مدينة همدان-موقعها الحالي في إيران-في عام ١٠٣٧ م. عُرف باسم الشيخ الرئيس، ألّف ٢٠٠ كتابا في مواضيع تتركز حول الفلسفة والطب. أشهر أعماله كتاب القانون في الطب الذي المرجع الرئيسي في علم الطب طيلة ٧٠٠ عام

(١٣٦)الصابئة المندائيون

ديانة الصابئة هي أحد الأديان الإبراهيمية وهي اصل جميع تلك الاديان لانها أول الاديان الموحدة، واتباعها من الصابئة يتبعون انبياء الله آدم، وولده شيت، ادريس، نوح، سام بن نوح، يحيى بن زكريا وقد كانوا منتشرين في بلاد الرافدين وفلسطين، ولا يزال بعض من أتباعها موجودين في العراق. وكلمة الصابئة مشتقة من الجذر (صبا) والذي يعني باللغة المندائية اصطبغ، أي غطس في الماء حيث العماد من أهم شعائرهم الدينية، وبذلك يكون معنى الصابئة أي المصطبغين بنور الحق والتوحيد والإيمان.

(١٣٧)الكنزا ربا

هو الكتاب المقدس للصابئة المندائيون انزل على انبياء الصابئة اي على آدم أول انبيائهم، ثم شيت بن آدم، ثم نوح، ثم سام بن نوح، ثم يحيى بن زكريا آخر انبيائهم... يتكون هذا الكتاب الديني المقدس من عدة اجزاء كل جزء منها يسمى كتاب.

(١٣٨)إسحاق رابين

سياسي إسرائيلي ورئيس وزراء إسرائيل مرتين، ولد عام ١٩٢٢ في القدس لأب أوكراني وأم من بيلاروسيا، اغتاله متطرف يهودي عام ١٩٩٥ رفضاً لاتفاقيات السلام مع فلسطين في أوسلو، ومع الأردن عام ١٩٩٤، نال جائزة نوبل للسلام مشاركة مع ياسر عرفات عام ١٩٩٤ م.

(١٣٩)الجوكار

شارة استخدمها جنود الحملة الفرنسية والموالين لهم، تتكون من ثلاثة دوائر مصنوعة من الجوخ، رصت فوق بعضها بحيث تكون الأكبر بالأسفل، فالأصغر ثم الأصغر، فيظهر جزء من كل دائرة، لتكون الدوائر الثلاث، بألوانها السوداء والبيضاء والحمراء، علم الإمبراطورية الفرنسية الجديدة آنذاك

دليل الرواية

استهلال ٩
شجرة عائلة البنداري ١١
الميلاد ١٣
بداية ٢٤
رهبة ٣٤
حنين ٤٤
عماد ٥٦
كشف ٦٥
عُمر ٧٣
رحيل ٩٣
عِنـاق ٩٦
المُدونات | فاتحة التدوين ٩٧
المُدونات | حكمة أولى ١٠١
المُدونات | المتداخلة الأولى | أطياف من حارة البنداري ١٠٢
طيف عبد الحميد البنداري ١٠٣
في حضرة نوح البنداري ١١٣
كرباج أبو شنب ١٢١
بين ثنايا جميلة وهدان ١٢٩
ظاهرة جابر عباس ١٣٩
شبرا الشهيد ١٤٨
قصيدة ١٥٩
مناجاة نادية عيسى ١٦٠
يوم رمادي بارد ١٧٥
المُدونات | المتداخلة الثانية | ومضات من حياتي الأخيرة ١٨٢

زواج لا امتزاج ١٨٣
غياب النابغة في زمن حشو الأدمغة ١٩٥
عشيقة بوجيرو السرية.. ٢٠٥
عم عبد الفتاح.. ٢١٨
آدم وحواء، وإعادة الخلق.. ٢٢٩
الثالث من مايو.. ٢٤٠
حسن البنداري الأول.. ٢٤٩
من اعترافات نوح البنداري ٢٥٩
سكون الرحيل.. ٢٦٠
خطاب عزيزة الحسيني ٢٦٨
سارة بارتمان ٢٧٠
زوال بكارة قلب ٢٧٣
المُدونات | خواطر متفرقة | من المصارحة الكبرى لنوح البنداري.. ٢٨١
خطاب آدم إلى يحيى ٢٩٤
المُدونات | المتداخلة الثالثة | في رحاب مليكة ٢٩٦
لقاء الإفاقة.. ٢٩٧
ورقة ممزقة.. ٣٠٦
الصحيفة الأولى | ترنيمة آمون.. ٣٠٧
كتاب الفواصل | حكمة لعوب.. ٣٢١
الصحيفة الثانية | قد بلغ المدون طوه ٣٢٢
كتاب الفواصل | حكمة كاهن ٣٣٦
الصحيفة الثالثة | راحل ومرتحل وقافلة ٣٣٨
كتاب الفواصل | غواية.. ٣٥٣
الصحيفة الرابعة | حُمّى.. ٣٥٤
كتاب الفواصل | كنافة رمضان.. ٣٦٧
الصحيفة الخامسة | عناق على باب زويلة ٣٧٠
كتاب الفواصل | أسئلة غير مشروعة ٣٩١

الصحيفة السادسة | لا تيبسوا ثراي ٣٩٣
كتاب الفواصل | حكمة سائق.. ٤٠٧
الصحيفة السابعة | حلوى السلطان.. ٤١١
تتمة ما جاء منقوصاً.. ٤٣٣
نشوة القتل.. ٤٣٥
كتاب الفواصل | جَـارٌ ومَـجْـرَور ٤٣٧
صحيفة مجهولة.. ٤٤١
كتاب الفواصل | اعتراف أمام كَاهن رَحَـل ٤٤٩
فاتحـة الـصُحُـف | قراءة الصفحة الممزقة ٤٥٢
المُدونات | حكمة وسطى.. **٤٥٦**
خطاب يحيى إلى آدم **٤٥٧**
المُدونات | المتداخلة الرابعة | سنوات استكشاف النفس **٤٦١**
وداعاً سيد القوم.. ٤٦٢
حسن البنداري الثاني.. ٤٧٧
قالوا يحيى | المكوث الأول | حكاية عدلي خالد ٤٨٦
غُـسْـلٌ بِـمَـاء البَحْر.. ٤٩٧
ترانيم لا تُـخْـشِـعْ | عناق الماضي ٥٠٨
قصاصة من جريدة الأهرام ٥٢٧
خطاب نادية عيسى.. ٥٢٨
قالوا يحيى | المكوث الثاني | حكاية فخري عبد الملاك ٥٢٩
صورة مريم ٥٣٩
قالوا يحيى | المكوث الثالث | حكاية سعيد عبد العال ٥٤٣
ملك، ميلاد فرحيل ٥٥٦
المُدونات | تنويه.. **٥٦٠**
المُدونات | خاتـمة التدوين.. **٥٦١**
المُدونات | وصية أولى | منقولة.. **٥٦٣**
المُدونات | إلى ذُريتي **٥٦٤**

اجتماع ٥٦٥
المُدونات | وصية ثانية........ ٥٧٢
المُدونات | رسالة إلى حامل الصندوق ٥٧٣
المُدونات | قائمة المقتنيات ٥٧٤
المُدونات | حكمة أخيرة........ ٥٧٥
توطئة ٥٧٨
العودة ٥٨١

قول مأثور ٥٨٧

هوامش........ ٥٨٩